مكتبة السينما والمسرح

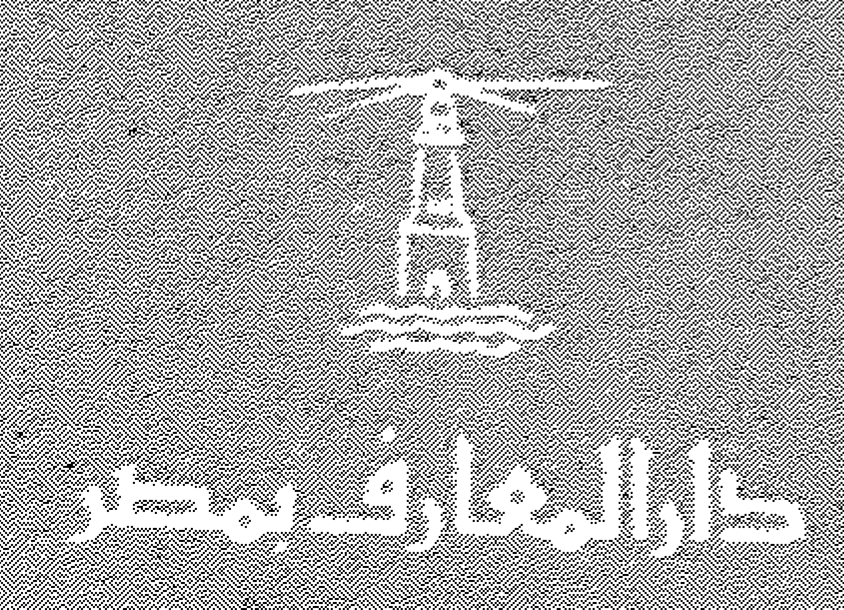
المسرح العالمى

(من أسخيلوس إلى أرثر ميللر)

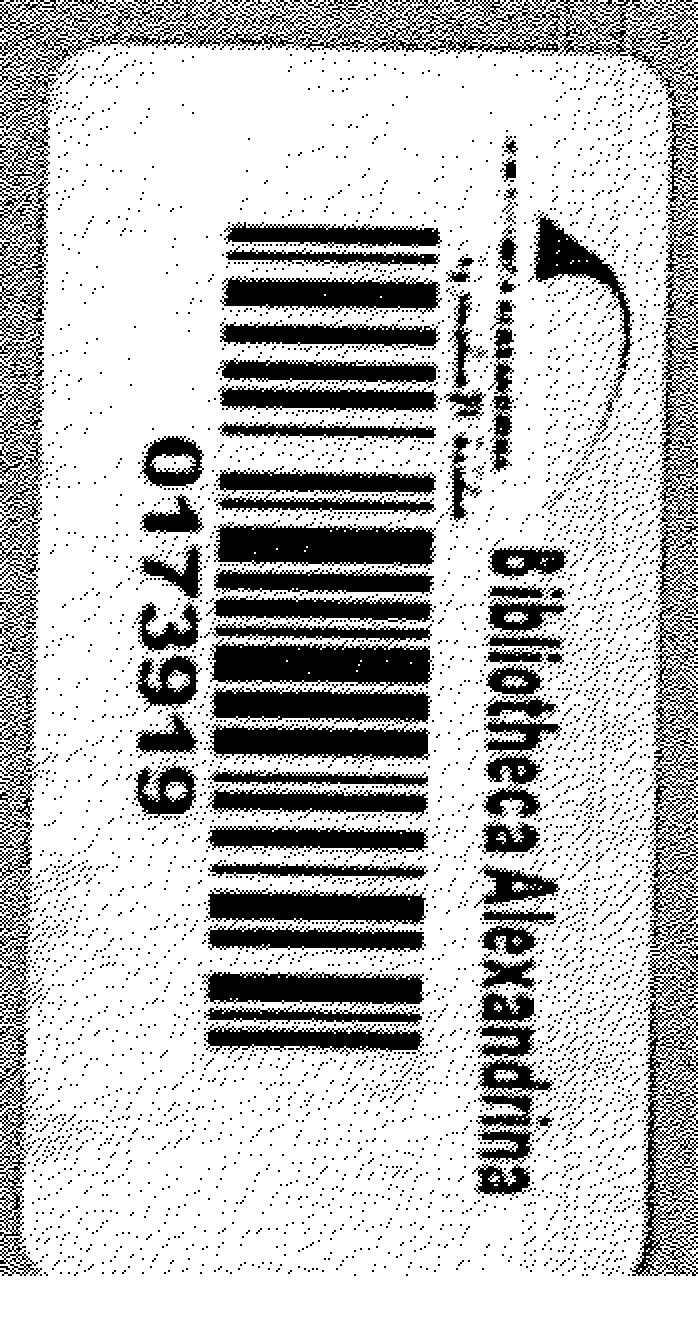


بقلم

الدكتور لويس عوض



دار المعارف بمصر



المسرح العالمى

(من أسخيلوس إلى أرثر ميللر)

اهداءات ٢٠٠١

ا.صلاح راتب

القاهرة

مكتبة السينما والمسرح

المسرح العالمي

(من أسخيلوس إلى أرثر ميللر)

بقلم

الدكتور لويس عوض



دار المعارف بمصر

١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

مأساة أوريست

للشاعر اليونانى أسخيلوس

لا يذكر الشاعر اليونانى العظيم أسخيلوس إلا ويقال إنه أبو المسرح اليونانى وليس أسخيلوس أول من كتب للمسرح بين اليونان فقد سبقه إلى ذلك جملة شعراء أشهرهم ثيسبيس ، ولكن أسخيلوس أول من طور الدراما وأعطاها الصورة الفنية التى نعرفها اليوم وقد كانت من قبله عبارة عن سلسلة من المنشدين وقد قال أرسطو المعلم الأول فى أسخيلوس إنه أول من استخدم « الممثل الثانى » على المسرح وبذلك وضع أساس الحوار كما نفهمه اليوم .

وقد كان أسخيلوس فاتحة قرن زاهر بالفنون والآداب فى اليونان القديمة ، وهو القرن الخامس قبل الميلاد . ذلك القرن الذى سمت فيه أثينا حتى سطعت على العالمين كالثريا فى أوج السماء وقد بدأت هذه النهضة الفنية العظمى حين أقام عاهل بيزيستراتوس المعروف بالطاغية مباراة سنوية بين شعراء المسرح فى عيد ديونيزوس إله الخمر وقد فاز أسخيلوس بالجائزة لأول مرة عام ٤٨٤ ق . م وظل سيد المسرح غير منازع حتى جاء سوفوكليس فانتزع منه زعامة المسرح ، ولكنه ظل مع ذلك يكتب للمسرح حتى توفى فى صقلية عام ٤٥٥ ق . م ، وقد فاز أسخيلوس بجائزة المسرح الأولى ثلاث عشرة مرة فى حياته وكان مجموع ما كتب من مسرحيات نحو تسعين مسرحية لم يبق لنا منها إلا سبع مسرحيات هى : الضارعات — الفرس — سبعة ضد طيبة — بروميثيوس مغللا — أجا ممنون — حاملات القرابين — الصافحات .

تقول وأين « مأساة أوريست » من كل ذلك ؟ إن مأساة أوريست هى موضوع المسرحيات الثلاث الأخيرة ؛ فقد كان من عادة اليونان أن ينشئوا المآسى من ثلاث تراجيديات تؤلف وحدة واحدة وتدور حول موضوع واحد ؛ لأنها تتناول بطلا من الأبطال فى ثلاث مراحل أو ثلاث حلقات . . . سمها ما شئت من

الأسماء . وقد كتب أسخيلوس « مأساة أوريست » فى ثلاث تراجيديات متصلة لا سبيل إلى الفصل بينها هى :

« أجا ممنون » و « حاملات القرابين » و « الصافحات » وهى فى مجموعها تعرف « بالأوريستيا » .

ومن يكون أوريست هذا ؟

لعل أقرب شخصية فى المسرح الحديث لشخصية أوريست هى شخصية هاملت التى خلدها شكسبير فى مأساته المعروفة . ومن يقرأ هاملت يجد فيها ملامح كثيرة من « مأساة أوريست » ولكن اليونان كانوا يقولون إن من بين البيوت بيوتاً ملوثة تحل عليها اللعنة جيلا بعد جيل ، ولا ترتفع عنها إلا بعد أن تدمرها تدميراً أو يأتيها عفو السماء وهذا هو الأغلب . فقد جرت الأساطير أن بيت أتريوس كان أحد هذه البيوت الملوثة الملعونة ولم يكن بيت أتريوس ملوثًا ولا ملعونًا لأن القدر قد اختص أبناء هذه الأسرة بكيده ولكن لأن فعالهم وجرائمهم قد جرت عليهم هذه اللعنة .

فقدكان هناك رجل يسمّى بيلوبس وكان لبيلوبس هذا ولدان أحدهما يدعى أتريوس والآخر يدعى ثايست ، وتخاصم الولدان لأن ثايست أفسد زوجة أتريوس فصار بعضهم لبعض عدوًّا وانتقم أتريوس من أخيه انتقاماً شنيعاً حفظته ذاكرة التاريخ لفرط شناعته . ذلك أنه ذبح أطفال ثايست وأقام لأخيه مأدبة وأطعم أخاه من لحم بنيه . وهكذا حلت اللعنة على آل أتريوس عقاباً لهم على هذه الجريمة النكراء وغدت أسرتهم ملوثة جيلا بعد جيل .

فقد كان لأتريوس ولدان لا يذكر اليونان إلا ذكرا ، فهما المحور الذى دارت حوله حرب طروادة ذلك أن منيلاوس كان زوجاً لهيلانة التى اشتهرت فى الأيام الخوالى بأنها أجمل أهل الأرض طرًّا ، هيلانة التى هجرت زوجها وفرت مع باريس إلى طروادة فاجتمعت كلمة اليونان حول أجا ممنون الذى كان أقوى ملك بينهم على غزو طروادة والثأر منها ، واسترداد شرف اليونان المسلوب فى شخص هيلانة . وحين اجتمعت سفائن الحملة فى ميناء أوليس كانت الربة أرتميس حامية طروادة غضبى فأرسلت فى البحر رياحًا عكسية عاقت أسطول

اليونان عن الإبحار زمناً حتى انتشر القلق فى نفوس البحارة ، وشاع فيهم سخط شديد ، فلما استخار القوم العراف كالكاس أفتى لهم بأن الأسطول لن يرحل حتى يقدم سيد اليونان آجا ممنون ابنته ايفجنيا قرباناً للربة أرتميس ففعل أجا ممنون ذلك بعد نضال نفسي عنيف ،وهكذا أقلع الأسطول عن الميناء وبعد حرب ضروس دامت عشر سنوات حول أسوار طروادة وفى مشارفها نفذ اليونان بالمكر والخديعة فى هذه المدينة ، وخربوها تخريباً وبعد أن سقطت طروادة عاد قادة اليونان المظفرين إلى بلاد اليونان .

وهنا تبدأ مسرحية « أجا ممنون » فنحن الآن فى قصر الملك بأرجوس حيث الملكة كليتمنسترا تقيم مع عشيقها إيجيست ، وهى لا تعلم بعد بسقوط طروادة ولا بعودة زوجها الملك أجا ممنون إلى حاضرة ملكه رجوع الظافر المتوج بأكاليل الغار .

ونرى من أمام القصر الحارس وقد وقف تحت جنح الليل فوق سطح القصر وهو يناجى الآلهة أن تجعل لسهاده نهاية فهو قد سهر الليلة بعد الليلة كل هذه السنوات الطويلة ، يتطلع إلى النجوم ويجيل بصره فى الآفاق لعله يرى فوق التلال البعيدة النار تشتعل وتتوهج فى كبد الظلام ، إشارة على أن « طروادة قد سقطت » فهذا هو الأمل الذى لا يبرح فؤاد « كليتمنسترا » سيدة القصر « تلك التى لها صدر أنثى ولكن يخفق فيه قلب رجل » .

وفيما الحارس يناجى نفسه على هذا النحو يبصر على مدى البصر نار المشعل المرتقب تتوهج حمراء فى الأفق المظلم ، فيعلم أن هذه علامة النصر ، بل يعلم أن نار الظلام هذه هى التى « ستنشر فى ربوع أرجوس النور والرقص والأغانى » .

ويمضى مسرعاً إلى الملكة كليتمنسترا ليحمل إليها البشرى . ويا لها من بشرى هذه التى تقول إن زوجها الملك آجا ممنون عائد إليها من ساحة الوغى! ولقد كان خليقاً بالحارس أن يرقص طرباً لهذا النبأ العظيم ، ولكن الحارس رغم سروره لا يرقص ولا يستخفه الطرب فهو القائل : « وهكذا أتقلب فى فراش الضنى وقد بللنى ندى الليل فلا تراود جفنى الرؤى ولا تداعبنى الأحلام ،

وواهالى ! . . . فالخوف قد بات نديمى مكان النوم وهو يطرد الكرى عن عينى فلا ينطبق جفناى ، فإن طيبت روحى بين الحين والحين بالأغانى والألحان بعد أن حرمت بلسم النوم الشافى ، فسرعان ما تجيش الدموع فى مقلتى فأندب الأحزان التى تخيم على هذا البيت الذى لم يعد يجلله الشرف كما كان فى الزمان الخالى ». نعم إن القصر الملكى تجرى فيه أشياء لا تغتبط بها نفس الراعى ولا تثلج قلب الرعية . ولكن الحارس مع هذا يخف مسرعًا إلى مولاته ليحمل إليها النبأ العظيم .

ويأتى كوراس من المنشدين الشيوخ كل متكئ على عصاه ويقفون إلى جوار المذبح ويعربون عن قلقهم العميق . فإن هذه الحرب الطويلة التى لا تبدو لها نهاية قد أقضت المضاجع وجعلت فى كل بيت قلبًا مكلومًا . فزهرة شباب اليونان يخرجون ولا يعودون . إنهم – هؤلاء الشيوخ – قد جاءوا إلى الملكة يتساءلون هل جاء نبأ من الميدان ؟ إن قلوبهم تتمزق لما كان ولما يكون من قتال وحشى وفواجع تهصر النفوس هصرًا ، وقد هدتهم كلمتهم إلى أن هذه الآلام المبرحة التى يبتلى بها البشر إن هى إلا من عند الله أو من عند زيوس رب الأرباب كما كانوا يسمونه وهم فى ذلك يقولون : « إنه زيوس وحده لا سواه الذى ينير أمامنا طريق المعرفة : فلقد أقام فى الوجود ناموسًا هو أن الإنسان يتعلم الحكمة فى مدرسة الأحزان : فى رؤى الليل تنهمر على الروح الذكريات الفاجعة كالغيث المنهمر ، ومن الدموع والآلام تصيب الروح الحكمة وهى راغمة : وهذه فيما نحسب هبة من الله الذى يصون بالقوة عرشه فوق أجواز السماء » !

فكل هذه المحن التى يمتحن بها زيوس اليونان هى سبيلهم الوحيد لبلوغ المعرفة الحقة والحكمة الصحيحة .

وإذا كانت محنة اليونان فظيعة فلا شك أن محنة ملكهم آجا ممنون أشد وأنكى ؛ فقد وقع هذا الملك الشقى بين قضاءين أخفهما أفظع من نيران الجحيم . فما كان له أن يضن بشىء على قومه ولو كان فلذة كبده فهو عقلهم المدبر وقلبهم الخافق ورمز عزتهم ومجدهم وشرفهم ، وما كانت له على الربة أرتميس حيلة وهى عطشى إلى دم ابنته . وهكذا حمل هذا الملك الشقى عن شعبه هذا العبء المفروض بقوة قاهرة وحده على كاهله وحلت عليه اللعنة من دونهم أجمعين .

وتبشر كليتمنسترا كوراس الشيوخ بنبأ سقوط طروادة فى تلك الليلة فيعجبون لذلك ويوشكون ألا يصدقوا النبأ فهم لا يفهمون كيف تنتقل الأنباء هكذا فى ساعات قليلة من طروادة إلى أرجوس ولكن كليتمنسترا تفسر للشيوخ كيف جاءت الرسالة بالمشاعل على قمم الجبال والتلال ؛ فقد كان على كل قمة بطول الطريق ديدبان ساهر ينتظر ، فما إن أعلن النبأ وأشعل أول مشعل من قمة جبل إيدا حتى أخذ كل الإشارة عن صاحبه وأعطاها لمن بعده حتى بلغت بلاط أرجوس فى هذا الزمن القصير .

ثم يأتى رسول معلناً عودة الملك المظفر آجا ممنون وبعد قليل يصل موكب الملك ويقف آجا ممنون أمام قصره فى عجلته الحربية ومن خلفه عجلة أخرى تحمل كاساندرا بنت ملك طروادة التى سباها اليونان وقدموها هدية لقائدهم آجا ممنون ويخف إليه شيوخ أرجوس فى كوراس مرحبين بمقدمه ممتدحين نصره فيذكرهم آجا ممنون بأن للآلهة نصيباً فى هذا الانتصار بقدر ما للبشر ،ولذا فقد وجب عليه التوجه إلى محراب قصره لشكر الآلهة ، ثم تخف إليه كليتمنسترا مرحبة بعودته إلى وطنه وإلى داره وإلى أحضان زوجته متوجاً بأكاليل الغار وتسرف كليتمنسترا فى الترحيب بزوجها وفى تمجيده إسرافاً يجعله ينهرها فى رفق ، وتأمر الملكة وصيفاتها بأن يفرشن البساط الأحمر أمام القصر ليمشى عليه هذا الغازى العظيم كما مشى من قبل على طروادة ولكن الملك لا يريد أن تقبل زوجته الأرض بين يديه أو أن تغالى فى تكريمه أو أن تفرش له البساط « كأنه ملك من ملوك الشرق المفتونين » . إن هذه الأبهة لا تليق بملك بل تليق بإله فما يحق للملك أيا كانت أمجاده أن يطأ بنعله الطنافس الفاخرة . هذا بعض ما تعلمه البطل آجا ممنون عن تفاهة الإنسان والحياة الإنسانية بعد كل هذه الأهوال والعبر التى مر بها ومرت به فى الكفاح ضد طروادة ، بل إنه ليوشك أن يتمنى لنفسه الموت فيتذكر المثل السائر القائل : (لا تسم إنساناً سعيداً حتى يتوج سلام الموت حياته الشقية) ، وهو يطلب إلى كليتمنسترا أن تكون رحيمة بالعذراء الأجنبية كاساندرا « فالله فى علاه ينظر بعين الرضا إلى المنتصر الذى لم تجفف لحظة انتصاره ينبوع الرحمة فى قلبه ، فما من أحد يقبل نير الرق راضياً ، وهذه العذراء وهى صفوة

ما ظفرنا به وأروع ما كسبنا قد جاءت إلينا فى حاشيتنا فهى هدية الجيش إلى قائده ومولاه » .

ويدخل آجا ممنون قصره تتبعه كليتمنسترا بعد أن تغلظ القول لكاساندرا وهى واقفة فى عجلتها بين كوراس الشيوخ فلا تجيب عليها كاساندرا بكلمة واحدة كأنها لا تعرف من اليونانية حرفًا واحدًا ، وهى التى تعرف من لغة اليونان ما يعرفه اليونان رغم أنها أميرة طروادة، ولكن كاساندرا لا تسمع لكليتمنسترا قولا ولا تصدع بأمر لها ضنًا بكرامتها ومقتاً لهذه الملكة المتجبرة .

وما أن تجد كاساندرا نفسها وحيدة مع الكوراس حتى تستنجد بذلك الإله الذى اختصها بأسراره من دون الآلهة ألا وهو أبولو كما تستنجد بأمنا الأرض فقد اشتهرت هذه العذراء منذ حداثتها بل وقبل أن تبدأ حرب طروادة بأن أرواحًا تتملكها فتكشف أمام بصرها علم الغيب ، حتى لقد عرفت آنا بالمجذوبة وآنا بالنبية الكاذبة ؛ وحقيقة الأمر أن أمنا الأرض والإله أبولو المتمثل فى قرص الشمس وهما الملهمان بأسرار الغيوب عند اليونان كانا يفصحان لها عما يضمره الغيب من مآس للناس .

وتتنبأ كاساندرا أمام أهل أرجوس بأن هذا البيت الملعون المخضب بدماء الحروب ودماء الغدر هذا المرتع الخصب للحب الآثم والجرائم النكراء سوف يكون بين لحظة وأخرى مسرحًا لجريمة جديدة نكراء ؛ فالملكة كليتمنسترا قد أعدت العدة لقتل زوجها آجا ممنون وتقرأ كاساندرا فى الغيب أيضًا أنها سوف تشارك آسرها ومولاها مصيره الفاجع . وهكذا تنزل من عجلتها وتلتقى بأجا ممنون فى قصره .

وفيما الجميع واقف أمام القصر وقد اضطربت النفوس لهول ما سمع الناس من نبوءة ، ترتفع من القصر صرخة يتبين منها الجميع صوت أجا ممنون وهو يخر مجندلاً بطعنات قاضية تجهز عليه وتقف كليتمنسترا وعند قدميها أجا ممنون وجثة كاساندرا وقد خضب الدم جبين هذه الملكة القاتلة . إنها ليست نادمة على ما فعلت فقد لقى زوجها على يديها ما استحق من عقاب ؛ إن أجا ممنون لم يرحم دموعها يوم قدم ابنتها وابنته أيفجنيا قربانًا للربة أرتميس حتى تأذن الرياح

فتحرك أسطول اليونان إلى طروادة .

وقاتل ولده لا شك رجل ملعون والإله المنتقم قد تقمص شخص كليتمنسترا واتخذ من يدها أداته للاقتصاص من هذا الملك الملعون، كذلك خانها أجا ممنون مع ألف معشوقة ومعشوقة منذ أن ارتحل إلى طروادة وقد نال فى حياته جزاءه؛ إذ أنها اصطفت لنفسها عشيقًا يحميها ويقف إلى جوارها فى الملمات ألا وهو إيجيست ، والآن وقد حلت عقدتها مع أجا ممنون فهى سوف تتزوج من إيجيست ، ولسوف يجلسان معًا على عرش أرجوس .

بهذا تدافع الملكة القاتلة كليتمنسترا عن جريمتها أمام شيوخ أرجوس ، ولكن هل يقبل الشيوخ هذا الدفاع ؟ كلا فهم يعرضون عنها منذرين بسوء المصير ؛ إن لعنة آل أتريوس قد حلت على كليتمنسترا قاتلة الزوج . والسماء لا تترك جريمة بغير قصاص .

وبهذا تنتهى مسرحية « أجا ممنون » .

٢

وتبدأ مسرحية « حاملات القرابين » فإذا بنا نجد أنه بالإضافة إلى شخصية كليتمنسترا الملكة وشخصية أيجيست عشيقها اللتين تعرفنا عليهما فى مسرحية « أجا ممنون » نجد شخصيات أخرى أهمها شخصية أوريست وصاحبه بيلاد الملازم له وشخصية إلكترا وكوراس من نساء أرجوس الأرقاء ومربية وخادم .

وكما كان أجا ممنون محور المسرحية الأولى كذلك نجد أن أوريست محور المسرحية الثانية وبطلها . وأوريست هذا هو ولد أجا ممنون الذى تركه ملك أرجوس غلامًا عند رحيله فى حملة طروادة ، فلما خلا الجو لكليتمنسترا وعشيقها إيجيست قررا إبعاده عن القصر الملكى ، فأوفداه إلى مدينة فوكيس ليتلقى العلم هناك قبل أن تتسع مدارك الصبى فيدرك ما يجرى فى قصر أبيه من المنكرات ، وهو إبعاد من قبيل النفى ، أما صديقه الحميم بيلاد فهو الخدن الذى اصطفاه أوريست من أيام الدراسة وقدمه على كل من يعرف من الناس

حتى لقد أصبحا كالتوأمين المتلازمين .

ولقد كان أجا ممنون يود أن يرى ابنه أوريست بعد غيبة عشر سنوات فى جهاد الطرواديين ، وأن يضم إلى صدره هذا الفتى الذى تركه صبيًّا ولكن كليتمنسترا فسرت غيبة أوريست فى فوكيس بأنها أرادت أن تحميه مما قد يحاك حوله وحول العرش من دسائس فأوفدته إلى تلك المدينة النائية ليكون من كل ذلك بمأمن وهكذا قتل قاهر طروادة دون أن يرى ولده أوريست .

أما إليكترا فهى أخت أوريست وبنت أجا ممنون وكليتمنسترا وهى تقيم فى القصر الملكى بأرجوس . فهى إذن على علم بكل ما قد جرى .

ويصل أوريست إلى أرجوس فيجد نفسه مع بيلاد بالقرب من القصر وإذا به واقف عند قبر أبيه وقد أمسك بخصلتين قصهما من شعره ثم وضعهما على القبر — وفيما هو يتحادث مع بيلاد تقبل عليهما جماعة من النساء متشحات بالسواد ويحملن القرابين والأنبذة التى تصب على قبور الموتى تهدئة لأرواحهم على عادة اليونانيين القدماء وإذ تتقدم هذه الجماعة نحو قبر الملك . الراحل يتبين أوريست أخته إليكترا تمشى وراءهن كسيرة محسورة فينسحب هو وبيلاد ليستمعا إلى حديثهن خفية .

أما كوراس النساء الأرقاء فهو يغنى على قبر أجا ممنون أغنية تعبر عن معتقدات اليونان فى تلك الأيام ، وهى أن أرواح القتلى فى العالم السفلى ، عالم الظلمات ، ثائرة أبدًا ومتمردة أبدًا ، ولن تهدأ روح قتيل قط حتى يقتل قاتله ، من أجل هذا أوفدت كليتمنسترا هذه الجماعة من نسائها الأرقاء حاملات القرابين إلى قبر أجا ممنون عسى أن تهدأ روحه فى قبرها حين يسكب على القبر النبيذ .

وأما إليكترا فهى تندب قتل أبيها ولا تدرى كيف تكون الصلاة على قبره . . . أتصلى لكى تقبل روح أجا ممنون الأنبذة الزلفى التى أرسلتها كليتمنسترا فتهدأ الروح ويهدأ كل شىء فى أرجوس . إن إيجيست الذى اغتصب عرش أوريست يحكم البلاد بالقسوة والإرهاب ، حتى لقد استتب له الأمر فى كل شىء ، ولم يبق إلا أن تغفر روح القتيل لقاتلها فترتفع اللعنة ويسود السلام .

ولكن كوراس النساء الأرقاء ينصح إليكترا بأن تصلى من أجل ظهور المخلص وهو قاتل القاتل ، بل أن تصلى من أجل عودة أوريست الطريد إلى وطنه ليأخذ العدل مجراه وتجازى كل نفس بما قدمت .

ثم يقع بصر إليكترا على الخصلتين فتتبين فيهما شعراً شبيهاً بشعر أخيها ويساورها إحساس غريب بأن الأقدار تخبئ لها شيئاً وتضطرب لذلك أيما اضطراب . وعندئذ يظهر أوريست وبيلاد ويقتربان منها ويتم تعارف الأخ وأخته ، ويقص الأخ على أخته سر حضوره إلى أرجوس . فقد أوحى إليه الرب أبولو ملهم البشر بالغيب أن يرحل عن فوكيس قاصداً أرجوس وليس فى عزمه إلا شىء واحد، وهو أن يثأر من قاتل أبيه . وحذر أبولو أوريست من مغبة التراخى قائلا : إن حياته كلها سوف تكون تكفيراً شنيعاً جزاء له على قعوده عن الثأر لأبيه .

وهكذا تعاهد الأخ وأخته — على قبر أبيهما — على أن يثأر أوريست لأبيه فيعود كل شىء إلى نصابه .

ويحتاط أوريست للأمر فلا يعلن عن شخصيته حتى لا يقع فى قبضة إيجيست وحراسه ، بل يدخل فى زيه الذى جاب به الطرق والرحاب ، وهو زى الغريب عن الديار الذى يطرق باب الملك حاملا رسالة ، وهكذا ينفذ أوريست فى القصر فيجد نفسه وجهاً لوجه أمام أمه كليتمنسترا .

أما الرسالة التى يحملها أوريست فهى أن رجلا ما فى فوكيس حين علم برحلته إلى أرجوس رجاه إبلاغ الملك أن أوريست قد قضى ، وأنه ينتظر إرشاداته السنية فى هذا الصدد ، ويخف الملك بشخصه ليسمع هذا النبأ السعيد ولكن ما إن يلتقى أوريست بإيجيست حتى يجندله بحسامه ثم يلتفت إلى أمه وسيفه فى يده يقطر دماً . فتقول :

— تمهل يا ولدى ولا تقدم على الطعن . لكم ارتاح رأسك على صدرى هذا يا بنى ورضع فمك اللبن منى قبل أن تنبت فيه أسنان . . .

أوريست : قل يا بيلاد : أأستطيع أن أعفوا عن أمى .

بيلاد : إذا كان الأمر كذلك فما جدوى إرشاد أبولو إياك فى دلف وما جدوى

العهد العظيم الذى قطعته على نفسك. بين غضب الناس وغضب الآلهة تخير غضب الناس يا أوريست .

أوريست : اقتنعت وعندى أن رأيك صائب .
(مخاطبًا كليتمنسترا) .

هيا اتبعينى فإنى أريد أن أقتلك إلى جواره . أجل أريد أن أقتلك إلى جوار من كان قبل موته أدنى إلى فؤادك من أجا ممنون ...

— : لقد نهنهتك وأنت صغير .

أوريست : ولقد قتلت والدى أفتقيمين معى ؟

— : على القدر بعض الوزر فيما كان ، يا ولدى !

أوريست : والقدر أيضًا قد هيأ لك هذا المصير .

— : حذار يا ولدى من لعنة الوالد وهو يموت .

أوريست : الوالد الذى قذف بى بين شرور الحياة ؟

— : أنا ما طردتك ، ولكن أرسلتك إلى بيت صديق .

أوريست : وأنا ولدت حرًّا فبعتنى فى صفقة مرتين .

— : أين إذن الثمن الذى تقاضيته فيك ؟

أوريست : هو العار . ولن أعيرك بكلام أوضح من هذا .

— : ولماذا لا تذكر عهارات أبيك أيضًا ؟

أوريست : لا تلومى من يكابد فى الخارج وأنت قعيدة الدار .

— : عسير على الزوجات يا ولدى أن يعشن كالأرامل .

أوريست : ألا يجاهد الزوج الغائب فى سبيل ربات الخدور ؟

— : إنك تتأهب لقتل أمك ؟

أوريست : لن أقتلك أنا وإنما تقتلين نفسك .

— : حذار من زبانية الانتقام التى سترسلها أمك من الجحيم .

أوريست : وكيف أنجو من زبانية أبى لو أعفيتك من القصاص ؟

إن هذه المحاورة اليائسة لا تجدى فتيلا ؛ فقد حكمت كليتمنسترا على نفسها بالإعدام يوم قتلت أجا ممنون لأن « من عاش بالسيف مات بالسيف كذلك » .

فهذا ما كان الكوراس يقوله .

وينقض أوريست على أمه فيطعنها الطعنة النجلاء ، وهكذا يغسل شرف أجا ممنون العظيم ويلقى كل آثم جزاءه العادل . هذا هو قانون العدالة الإلهية الذى آمن به اليونان : الدم يهدر الدم والقاتل يقتل ولو كان فى أقاصى الأرض أو فى بروج مشيدة ، فبغير هذا يختل نظام الخليقة ، وتعم الفوضى فى أرجاء الكون .

٣

ولكن الويل لكم يا آل أتريوس من هذا القضاء القاطع الرهيب ومن هذه العدالة القاطعة المعصوبة العينين . ثم الويل لنا نحن البشر من هذا السيف البتار الذى يشطر الوجود إلى شطرين ويدمى وليس فى يده بلسم أو شفاء .

أين المفر يا أوريست ؟

إن القاتل يقتل فهكذا جرى حكم القضاء فى كل الجناة ، وما أنت بقاتل بل أنت وحش من أعمق أعماق الغاب : أنت قاتل أمه ! فما منقذك من حكم القضاء ؟ وما مخلصك من عذاب الجحيم ؟

هذا هو موضوع المسرحية الثالثة فى « مأساة أوريست » وهى مسرحية « الصافحات » ، وبهذا تنتهى مسرحية هذا البيت الملوث الملعون .

إن شبح كليتمنسترا ينهض من عالم الظلمات مستغيثاً بالفوريات أو ربات الانتقام طالباً القصاص ، فتستيقظ ربات الانتقام لهذا النداء وتستجيب له . ألم يقولوا إن أرواح الموتى تتعذب وتعوى كالذئاب طالبة القصاص من قاتليهم ولا تهدأ ولا تستقر إلا بعد أن يستوفى كل عقابه ؟ إن ناموس العدالة هذا الذى أقامه زيوس أبو الآلهة فى العالم لم يفرق بين روح طاهرة وروح نجسة ، وكل روح من حقها أن تجاب إلى ندائها ولو كانت روحاً آثمة سوداء .

لهذا نرى أن أوريست بعد أن فتك بأمه أخذت تطارده ربات الانتقام وتنشبن أظافرهن الحداد فى قلبه وفى كبده حتى غدا رجلا يعيش بغير أمل ، وأظلمت

نفسه؛ نراه يهرب منها فتلاحقه أينما ذهب لا تفرق بين بكرة وعشية ولا بين نوم وصحو، وهكذا يعيش أوريست ساهداً سهد الأبد فى جحيم متصل؛ يعتصم آنا بمحراب أبولو، ذلك الإله الذى ساقه إلى هذا المصير، فيشد أبولو أزره ولكن هيهات لأبولو أن يغير من الناموس الأكبر الذى استقام به عمود الخليقة، ولا يستقيم إلا به، وهيهات لأبولو أن يذود عن أوريست زبانية الجحيم. إن هذا القانون الأزلى يسرى على الآلهة أنفسهم.

وفى معبد الربة أثينا بنت زيوس كبير الآلهة يحاكم أوريست، فتجتمع لمحاكمته هيئة من اثنى عشر أثينياً عند قمة جبل الأكروبول. كل ذلك وأوريست حاسر الرأس ذليل يمسك مستجيراً بتمثال الربة أثينا عسى أن يجد فيها ملاذاً ويتولى كوراس الزبانية اتهام أوريست ويقوم أبولو بالدفاع عنه. أما الزبانية فهى لا تفتأ تذكر المحلفين الاثنى عشر بقداسة العدالة وبأزلية الناموس، وخلاصة منطقها أن نار الجحيم هى الينبوع الأكبر الذى تنبع منه الفضائل. فلولاها لتحول الإنسان إلى وحش كاسر.

إنها تطالب بالميزان، ذلك الميزان الذى إذا اختل اختلت معه الحياة والأحياء، أما أبولو فهو يدافع دفاعاً مجيداً عن هذا البطل قاتل أمه، ولا تعوزه بلاغة، فهو رب البلاغة فى إلقاء تبعة هذه الجريمة المشروعة على القضاء الذى اتخذ من أوريست المسكين أداة للقصاص من أمه الآثمة. أداة يسوقها للخير فتنساق حيث تشاء إرادة القضاء.

وبعد أن يستمع المحلفون إلى أقوال الطرفين يتدبرون الأمر والجمع الحاضر معلقة أنفاسه ثم تؤخذ الأصوات.

فإذا ستة أصوات تحكم بالإدانة . . . وستة أصوات تحكم بالبراءة.

وهكذا تعجز عدالة الأرض عن الفصل فى جريمة أوريست ويقف العقل البشرى والضمير البشرى فى تعادل كامل حائرين فى هذه الألغاز المبهمة لا يجدان مخرجاً من هذا الإشكال.

وهنا تلقى الربة أثينا بصوتها فى جانب براءة الإنسان فتنقذ أوريست من مخالب الزبانية باللطف الإلهى.

فحيث تعجز العدالة . . . فللطف يد إذا امتدت أغلقت أبواب الجحيم.

أوديب ملكاً

للشاعر اليونانى سوفوكليس

ثلاثة أسماء فى تاريخ المسرح اليونانى تذكر معًا إذا ذكرت متعاقبة. وهى أسماء أسخيلوس وهو أولهم، وسوفوكليس وهو ثانيهم ، وأوربيديس وهو ثالثهم ، فقد كان كل منهم سيد التراجيديا فى أثينا القديمة فترة من الزمن حتى خلفه من جاء بعده وانتزع منه زعامة المسرح .

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين هؤلاء الثلاثة فى كلمات فالأول قد اتخذ من الله محورًا لأدبه ، والثالث قد اتخذ من الإنسان محورًا لأدبه ، وأما الثانى وهو سوفوكليس فقد ركز فنه على وصف العلاقة بين الله والإنسان فى مختلف صورها . كذلك قل عن الأول إنه كان محافظًا فى فكره وفى فنه وإن الثالث كان متحررًا فى فكره وفى فنه ، أما الثانى وهو سوفوكليس فقد كان بين بين ، أو قل إنه جمع خير ما فى هذا وذاك .

ولد سوفوكليس صاحب مأساة « أوديب » المشهورة فى أثينا القديمة عام ٤٩٥ ق . م وتوفى عام ٤٠٥ ق . م عن تسعين عامًا كتب أثناءها نحو مائة وخمس وعشرين مسرحية لم يصلنا منها إلا سبع مسرحيات أهمها مأساة « أوديب ملكًا » التى يعتقد كثير من النقاد أنها أعظم ما وصلنا من مسرح اليونان على الإطلاق . . . وقد فاز سوفوكليس بجائزة المسرح عشرين مرة وانتزع زعامة الفن المسرحى من أبى المسرح اليونانى وهو أسخيلوس ، وظل متربعًا على عرش المسرح حتى انتزع زعامته منه أوربيديس .

وكلما ذكرت مأساة « أوديب ملكًا » قيل هذه مأساة القدر ، ففيها نجد القدر يرسم للأبطال طريق مجدهم ويسطر لهم خطوط السقوط ، فكأنما البشر من قطع الشطرنج تحركها يد خفية ترى كل شىء ولا يراها أحد، ولكن بقدر ما يهولنا فيها سيطرة القدر على حياة الإنسان ، يهولنا فيها كذلك جهاد الإنسان فى سبيل

تغيير مصيره وفرض إرادته الحرة . فالمأساة إذن مأساة الصراع بين القدر وبين الإنسان ، أو بين الجبر والاختيار ، ولئن سقط فيها الإنسان صريعاً فحسبه أنه سعى ليتجنب سوء المصير .

ولكن هل ننصف سوفوكليس لو اكتفينا بهذا القدر من الإيضاح ؟ لعل سوفوكليس أراد أن يتهكم بنا فيقول : انظروا إلى البطل أوديب تروا ضعفه فى قوته ، فقد خال أن فى وسعه أن يتحدى القضاء وأن يدفع المحظور ، وهذه خطيئة ، فلو إنه لم يعتمد على قوته ومكره كل هذا الاعتماد واعتمد على من عليه وحده الاعتماد فلربما لطفت به السماء وخففت من محنته وبلائه . وهكذا حال الإنسان فليصل كما صلى الشاعر المصرى قائلا :

وفى الأرض شر مقـــاديره لطيف السماء ورحمانها !

أم ترى سوفوكليس يريد أن يقول : للقدر أن يملى وعلى الإنسان أن يكافح كفاح أوديب ليحرر نفسه من إملاء القدر ؟

حرب بينهما سجال تبدأ بالميلاد ولا تنتهى إلا حين تعبر تخوم الحياة !

• • •

القصر الملكى فى طيبة ببلاد اليونان أيام عصرها الزاهر القديم حين كانت تنير العالم بضياء الفكر وتضفى عليه غلائل الشعر ومطارف الخيال . وأمام القصر مذبح صغير مما تقدم عليه القرابين . وجماعة من المصلين أو الضارعين كما ألف قدماء اليونان أن يقولوا ، بعضهم شيب وبعضهم شباب وبعضهم صغار . وكاهن زيوس كبير الآلهة واقف على مبعدة يتمتم بالصلوات .

ويدخل أوديب ملك طيبة الذى طبقت شهرته الآفاق ويسأل قومه فيم جاءوا وعلام اجتمعوا حاملين أكاليل الزهور وقد ملأوا جو المدينة بالبخور وأرجاءها بالصلوات الدامعة ودعوات الشفاء . فمن كانت له شكاة فليتقدم بها إلى ملك البلاد . فأوديب ليس بحاجة إلى وسيط يحمل إليه شكاة شعبه .

ويتقدم كاهن زيوس قائلا إن طيبة قد تكاثرت عليها الكوارث والأرزاء ؛ فالوباء لا يريد أن يرتحل عنها والمجاعة تفتك ببنيها والأشجار قد صوحت ؛ فهى لم تعد تثمر الثمار ، والماشية قد صارت عجافاً فى المراعى الدارسة . وحتى النساء

غدون عاقرات ، وعما قريب تنطوى صفحة طيبة ويندثر أهلوها ، ذرية كادموس العظيم .
وهم يضرعون إلى ملكهم أوديب أن ينتشل المدينة كما انتشلها فى سابق الأيام لئلا يقال : فى عهده نجت طيبة ثم هلكت . فإن كان لديه نصح فكلهم آذان ، وإن كان يستطيع لهم شفاعة عند الآلهة فليتشفع لهم ، فهو المنقذ الذى أنقذهم من الموت المحقق يوم جاء طيبة وحده منذ سنين فلعل فى يده خلاصهم من هذا البلاء الجديد .

ويستمع أوديب إلى شكاة قومه فى أسى بالغ قائلا إنه الراعى العارف بحال الرعية ، وإن آلامهم ليست إلا بعض آلامه ، وهو قد أوفد كريون أخا زوجته الملكة جوكاستا منذ أيام إلى معبد أبولو رب الشمس والعارف بالغيب لعله ينبئه بما ينبغى عمله لترتفع اللعنة عن المدينة وأن كريون قد استوفى رحلته . وهو لا شك فى طريقه إليهم بالنبأ اليقين ، أو لعله قد عاد فعلا إلى المدينة .

وفيما هو يطمئن قومه يدخل عليهم كريون فيبادره أوديب بالسؤال عما قالته العرافة بمعبد أبولو . ويتردد كريون فى الكلام أمام هذا الجمع ، ولكن أوديب يهيب به قائلا إنه لا يكتم عن شعبه المعذب شيئا يرفع عنه هذا العذاب . فيجيب كريون بأن الرب أبولو يقول إن فى طيبة شيئاً ملوثا يلوث المدينة ، وهو يأمر أهل طيبة بأن ينبذوه ، وهذا الشىء الملوث رجل لا بد من نفيه من المدينة أو قتله ، فهو قاتل ، فما هذه اللعنة التى حلت بأهل طيبة إلا من هذا الدم الذى سفك . أما القتيل فهو لايوس ملك طيبة السابق الذى كان يجلس على عرشها قبل أن يرتقيه أوديب . وهو لم يقتل فى قصره ولا فى وطنه ولكنه قتل فى أرض الغربة وهو فى طريقه إلى دلف حيث معبد الرب أبولو ، وقد كان مع الملك نفر من الرفاق هلكوا جميعاً إلا واحداً ملكه الذعر ففر هارباً ، وقد روى هذا الهارب أن عصبة من اللصوص عديدة النفر انقضت على الركب وفتكت بالملك وحاشيته . وهذا أبولو يقول إن اللعنة لن ترتفع عن طيبة حتى يثأر أهلها لمولاهم المقتول .

ويؤنب أوديب قومه لأنهم سمعوا بقتل ملكهم السابق لايوس ، ذلك الذى لم يره أوديب قط فهو غريب عن المدينة ولم يظهر بينهم من يثأر لقتله ، ولكن كريون يعتذر بأن نبأ قتل لايوس إنما جاء والمدينة فى محنة شديدة ألهت أهلها

عن واجبهم نحو مولاهم ؛ فقد كانت يومئذ تربض بباب المدينة تلك المخلوقة الساحرة العذراء الماكرة المعروفة بأبي الهول تغني أغانيها المبهمة وتلقي على كل داخل ألغازها وأحاجيها ، وحين يعجز عن الإجابة تجهز عليه . وهكذا ملأت المدينة ذعراً حتى جاء أوديب وخلص أهلها من براثنها وفتك بهذه الساحرة الماكرة .

وقد كان أوديب أول من حل لغزها يوم قدم إلى المدينة قدوم الغريب فاستوقفته ببابها سائلة : ما ذلك المخلوق الذى يمشى فى الصباح على أربع وفى الظهر على اثنتين وفى المساء على ثلاث ؟ فأجابها لفوره قائلا : هو الإنسان : الإنسان طفلا والإنسان رجلا والإنسان شيخا . وحين حل أوديب بذكائه الخارق لغز أبى الهول خارت قوى هذه الساحرة الماكرة فغلبها بقوته الخارقة وفتك بها وخلص طيبة من شرها .

من أجل هذا دخل أوديب طيبة دخول الظافرين . وكان النبأ قد جاء بموت الملك لايوس فأعلن أهل طيبة مخلصهم ملكاً عليها وسلموه مقاليدها وصولجانها ، بل وزوجوه من ملكتها جوكاستا أرملة الملك الشيخ الراحل لايوس .

فكيف ينتظر أوديب ألا يذهل أهل طيبة عن الانتقام لمولاهم القتيل وهم فى رعب قاتل من الوحش الكاسر الجاثم بباب مدينتهم ؟ وهكذا انقضت الأعوام والأعوام حتى نسى أهل طيبة لايوس وقصته ، ولولا ما عاد به كريون من أنباء تلقاها من كاهنة أبولو لما ذكروه .

أما أوديب فيتهيأ للانتقام . ويعلن لقومه أنه لن يغمض له جفن حتى يعثر على قتلة لايوس . وحين ينزل بهم ما يستحقونه من قصاص سوف ترتفع اللعنة عن المدينة ويعود إليها سلامها والرخاء ، وينقشع عنها الوباء .

بل هو يخاطب قومه محذراً ومنذراً ويهيب بكل من يعرف قاتل لايوس أن يدله عليه دون خوف أو وجل ، واعداً إياه بجزيل العطاء . فمن كانت له يد فى قتله فليتقدم ، وهو آمن على حياته فقصاصه هو النفى عن البلاد . وهو يهيب بكل من يعرف الأمر ويكتمه لعلة فى نفسه أن يطرد القاتل من حضرته فلا يظله بسقف ولا يخاطبه بكلمة ولا يعينه على عبادة ، لأنه الاوثة التى تلوث المدينة . فهذا ما قالته كاهنة أبولو عرافة دلف التى لم يكذب لها نبأ من قبل . وأوديب خليق بأن

يكون ذراع أبولو التى تمتد إلى الجانى ولو كان فى أقصى المعمورة ، بل ولو كان بين أبهاء قصره ، فأوديب يقسم أمام قومه أنه لا يفرض على قومه شيئاً لا يفرضه على نفسه ، فلو قد كان الجانى أقرب قريب إليه لأنزل به عين القصاص . وهو يجعل أهل طيبة ممثلين فى الكوراس أى فى جماعة الضارعين المنشدين، أن يقسموا بما أقسم هو عليه ، ويصلى إلى الرب أبولو أن يبطش بالجانى فلا ينبت له أرضاً ولا يثمر له رحماً ولا يصلح له نسلا .

* * *

وهنا يسأل أهل طيبة أوديب أن يرسل فى طلب العراف الضرير تيريسياس الذى لا يخفى عليه غيب ، فقد أوتى علم الزمان وعلم المكان لأنه يعيش فى كل زمان وفى كل مكان . فتيريسياس لا شك يعرف الجانى من يكون ، وهو يعرف إن كان لا يزال حياً يرزق أم غدا فى عداد الأموات ، ويعرف إن كان طيبياً أو غريباً عن البلاد ، فله علم أبولو وهو يفصح حيث يبهم الكهان .

ولكن أوديب المحب لشعبه لم يكن بالذى ينتظر حتى يطالبه شعبه بأداء واجب أو التماس سبيل ، فهو قد أرسل فى طلب تيريسياس بناء على مشورة كريون، وها هو ذا تيريسياس يمثل بين يديه ضريراً يقوده غلام .

ويفصح أوديب لتيريسياس عن مراده: إن طيبة ، ملكاً وشعبا ، تطلب قاتل لايوس . وهو يناشده على رأس شعبه أن يستخير الطير وأن يستخدم كل ما تعرفه الكهانة من فن وعلم ليدل على الجانى .

وحين يسمع تيريسياس هذا الكلام تضطرب نفسه أشد الاضطراب ، فلو قد عرف فيم استقدمه أوديب الملك لما قدم . إنه ليس بحاجة إلى طير ولا كهانة ولا سحر ولا تعاويذ . فهو يعلم من القاتل ، ولكنه لا يستطيع أن يفصح عنه، فيالها من معرفة رهيبة هذه التى تكنها ضمائر العرفاء ولا تجرى بها ألسنتهم ...

ويأبى تيريسياس أن ينطق بكلمة ، ويرجو إلى الملك أن يأذن له فى الانصراف فليحمل الملك جهله فى ضميره ، وليحمل العراف علمه فى ضميره ، فإن بعض العلم يقتل ، وبعض الحق تنشق له الأرض وتميد له الجبال .

ويستحلف أوديب تيريسياس جاثياً على ركبتيه أن يعرب عن الحقيقة ،

ولكن تيريسياس يمعن فى الإباء فيغضب أوديب ويوشك أن يتهمه بخيانة وطنه الذى رعاه ودولته التى كفلته ، فهو يعلم من قاتل لايوس وملوث المدينة وجالب اللعنة عليها ولكنه لا يريد أن يبوح باسمه . أما تيريسياس فلا يهتز ولا يلين . إن المستقبل وحده هو الذى سيهتك ستر الغيب ويبين عن كل شىء أما هو فلن يخرج عن صمته أبداً .

وهنا تشتد ثورة أوديب ويهتاج اهتياجاً عظيماً ويتهم العراف الضرير بأنه لا شك شريك فى هذه الجريمة التى يعرف عنها كل شىء ، ويخفى ما يعرف بهذه المداورة المكشوفة . ولو أن تيريسياس لم يكن ضريراً لما تردد أوديب فى اتهامه بقتل لايوس بيده لا بيد غيره . فلا يجد تيريسياس مفراً من أن يقول :

إليك يا أوديب هذه الكلمة الأخيرة من عراف ضرير : « إن هذا الذى تبحث عنه منذ أمد طويل مهدداً متوعداً منادياً بالتنقيب عن قاتل لايوس . إنه هنا . وهو فى الظاهر أجنبى يقيم فى البلاد . ولكن سوف يتضح عما قريب أنه طيبى من بنى طيبة . ولن يجد فى مصيره مدعاة للسعادة : فهذا البصير سوف يصبح ضريراً . وهذا الغنى سوف يؤول إلى سائل مسكين . وسوف يسعى فى طريقه إلى بلاد غريبة وهو يتحسس الأرض بعصاه . وسيعرف الناس أنه أبو بنيه وأخوهم فى وقت واحد . وأنه زوج المرأة التى أنجبته . وأنه وريث فراش أبيه وسافك دمه . هيا ادخل قصرك وتدبر قولى . فإن وجدت أنى جانبت الصواب ، فلك أن تعلن منذ اليوم أنى لا أفقه فى علم الغيب شيئاً » .

وهكذا ينصرف تيريسياس يقوده الغلام بعد أن قرأ الماضى والحاضر والمستقبل لأوديب .

وينصرف أوديب إلى كريون يحاوره ما هذه الترهات التى يلقيها العراف تيريسياس إلقاء ؟ إن كريون هو الذى أوحى إليه باستدعاء هذا العراف لأمر فى نفسه . ألم يكن تيريسياس يزاول العرافة منذ سنوات وسنوات حين قتل لايوس ؟ نعم . وكان فى قمة مجده . فلم لم ينبىء يومئذ بما ينبىء به اليوم . وهو أن أوديب هو قاتل لايوس ؟

ويتهم أوديب أخا زوجته كريون بأنه قد دبر هذه الخطة ليقضى عليه ويغتصب

منه العرش . ويدفع كريون عن نفسه هذه التهمة بقوله إنه صاحب حظوة عند أوديب ومقدم فى قصره على جميع الرجال فهو لا يطلب طلباً إلا ويجاب ، وكل من فى طيبة يتقدم إليه زلفى ليحمل سؤاله إلى إذن الملك . فكيف يخلع كريون عن نفسه كل هذا النفوذ الواسع والسلطان العريض ويلبس نير الملك الثقيل . كلا . إن كريون ليس بأحمق حتى يحمل هم المملكة لقاء تاج وصولجان .

فإن كان أوديب لا يزال يشك فى كلامه فليوفد إلى عرافة أبولو بمعبد دلف من يستطلع الأمر ويعود إليه بالخبر اليقين . فإن عاد إليه يقول إن كريون قد حرف كلمة واحدة مما سمعه فى معبد الرب أبولو فهو راض بأن تؤخذ منه حياته جزاءً له على خيانته.

وحين يسمع تيريسياس هذا الكلام يصرخ فى أوديب قائلا : « إذن فاسمع الحقيقة منى : إنى أطالبك أن تصدع بالأمر الذى نطقت به شفتاك . فلا تكلم بعد اليوم أحداً من هؤلاء القوم ولا تكلمنى : فإنك أنت ملوث هذه المدينة اللعين » .

ويتجادل الرجلان ويشتد بينهما اللجاج ويستفز أوديب تيريسياس بجارح الكلام فيتمادى العراف فيما بدأه قائلا : « وأنا أقول إنك تعيش فى خزى لا علم لك به مع أقرب الناس إليك ، ولا تبصر ما آلت إليه حالك من مصير أليم » .

ويتهم أوديب تيريسياس بأنه يكيل له هذه التهم بوحى من كريون الذى لا شك يضمر فى نفسه شيئاً ، ويتهكم به فيعيره آنا بعماه ويعرض آنا بعرافته الزائفة هذه التى يخدع بها الناس وهى لا تعرف شيئاً . فأين كان تيريسياس وأين كانت عرافته يوم كانت الساحرة الماكرة التى اتخذت صورة أبى الهول تربض بباب المدينة تلقى على الناس غامض الأغانى وتقطع على السابلة السبيل ؟ ولم لمْ يحل تيريسياس يومئذ طلاسمها ويريح طيبة من شرها الذى أرعب المدينة حتى جاء أوديب ، أوديب الجاهل الذى لا يدعى لنفسه عرافة ولا علماً وحل لغزها فأخرسها دون ما حاجة إلى طيور سانحات أو طيور بارحات .

ويهم أوديب بطرد العراف الضرير من ساحته ساخراً من حماقته . ويهم تيريسياس بالخروج وهو يجمجم قائلا : « أحمق أنا فى عينك ، ولكنى كنت

عند والديك حكيماً » . وما أن يسمع أوديب ذكر والديه حتى يضطرب فؤاده ، ويستوقف العراف الضرير ويسأله المزيد عن أبيه . ولكن تيريسياس لا يوضح ولا يبين ، وإنما يضيف إلى ما ذكر من الألغاز لغزاً جديداً فيقول : « لسوف يكشف هذا اليوم عن مولدك ويجلب عليك دمارك » . إن أوديب ليس بحاجة إلى مزيد من الإيضاح فهو العبقرى الذى حل ألغاز أبى الهول العويصة وأنقذ طيبة من الدمار . ولكن هذا العبقرى لا يستطيع أن يحل ألغاز حياته أو أن ينقذ نفسه من الدمار .

ولكن أوديب الذى أعماه الغضب لا يسمع له قولا ، وقد استقر فى روعه أن كريون قد دبر له مؤامرة ليخلعه من عرش طيبة ويجلس على العرش مكانه . إن النفى لا يكفى لردع هذا الخائن . فلا بد من قتله ليكون عظة للناس . وهكذا ينقلب أوديب الحاكم بالعدل والخير بين الناس إلى طاغية يدين الناس بالشبهات .

وهنا تدخل جوكاستا فتعلم ما بين زوجها وأخيها من أمر عظيم . ويقسم كريون أمامها على براءته من هذا الإثم الذى ينسبه إليه أوديب . ويستمطر على نفسه اللعنات إن ثبت كذب كلامه . وتتوسط جوكاستا وكوراس الطيبيين حتى يتدبر أوديب الأمر من جديد ، فاليمين على من أنكر والبينة على من ادعى ، وعلى أوديب أن يأتى بالبينة قبل أن ينفذ قضاءه فى كريون هذا الذى لم يتعود فيه أهل طيبة خيانة من قبل ، بل عرفوا فيه كل ولاء للعرش وللمدينة .

وتستفسر جوكاستا عما أفضى إلى كل هذا الغضب العنيف وتعلم من أوديب أن كريون قد سخر تيريسياس ليقول إن أوديب هو قاتل لايوس . فتطمئنه جوكاستا بقولها كذب المنجمون ولو صدقوا ، فالآلهة تفصح عن مرادها بنفسها . وهى ليست بحاجة إلى لسان وسيط .

وجوكاستا أعرف الناس بكذب المنجمين والعرافين : فهى تذكر لأوديب مثلا من أمثلة هذه العرافة الكاذبة . فقد جاء فى الأيام الخوالى . حين كان زوجها ومولاها الأول لايوس يحكم طيبة رسول من كهنة أبولو يقول إن لايوس سوف يموت قتيلا وأن قاتله لن يكون إلا ولده من جوكاستا وجزع لايوس لما سمع جزعاً شديداً ، فما أن أنجبت جوكاستا له غلاماً حتى دق فى كاحليه الأسياخ ليوثقهما وأمر بأن يقذف

بالوليد على جبل أجرد ليموت فى العراء. ومرت الأيام ومات لايوس خارج طيبة، وجاءت الأنباء بأن عصبة من اللصوص انقضت عليه وهو فى مفترق طرق ثلاثة هى طريق فوكيس وطريق دلف وطريق داوليا . وهكذا فقد كذبت نبوءة كاهن أبولو، فلايوس لم يمت بيد ولده وإنما مات بأيدى اللصوص الذين قطعوا عليه الطريق .

فليطمئن إذن أوديب نفساً ، فلو أراد الرب أبولو من البشر شيئاً فهو قادر على كشف كل الأمور .

وتحسب جوكاستا أنها تهدئ بكلامها هذا روع أوديب ، فإذا بها تجعله يضطرب فرقاً ، وهى تقص عليه هذه القصة القديمة .

ويقف أوديب أمامها وقد تملكته الهواجس الغامضة ، فهو يعرف عن منبته وعن نشأته وتصاريف قضائه مالا يعرفه أقرب المقربين إليه من أهل طيبة الذين لا يعرفون عنه إلا أنه غريب جاء من بلاد بعيدة وأنقذ طيبة من الوحش الذى كان يعيث فيها فساداً فأجلسه أهلها على عرشها الخالى وزوجوه من أرملة لايوس ملكهم القديم .

أما هو فيعرف أنه قد جاء من مدينة كورنث ، وأنه ابن الملك بوليبوس والملكة ميروبيه الجالسين على عرش تلك المدينة وقد ترعرع أوديب فى كورنث حتى بلغ الشباب ، وذات يوم أقيمت فى المدينة مأدبة سالت فيها الراح أنهاراً ، واجترأ عليه ثمل من بين الحاضرين قائلا إن أوديب هذا ولى عهد المدينة ليس ولد الملك بوليبوس ولا من صلبه . وقد كان ينبغى أن يثور أوديب حين سمع هذا الكلام ولكنه غالب نفسه حتى غلبها ، وفى اليوم التالى قصد إلى أبيه وأمه مستفسراً عن حقيقة ما سمع ، فلم ير منهما إلا غضباً شديداً على ذلك الفتى الذى جرى لسانه بهذا الهراء . واطمأن قلب أوديب بعض الشىء ؛ ولكن نازعاً به ظل يأكل نفسه بهواجس لا يعرف لها كنهاً ، وزاد من هواجسه أن هذه الشائعة كانت تتردد على كل لسان ، فانطلق خفية ، على غير علم من أمه وأبيه ، قاصداً إلى دلف ليستخير عرافة أبولو عارف الغيوب وقارىء كل مكنون ومستور فى أمر بنوته لبوليبوس . ولكن كاهنة أبولو لم تفصح له بشىء عن منبته ولم تلمح له بشىء بل لزمت الصمت العميق . غير أنها قرأت له غيباً غير هذا الذى

جاء ليجلوه ، وتكهنت له بمصير فاجع شنيع ، فقالت إن لوح قدره قد خط فيه أنه قد كتب على أوديب أن يقتل أباه وأن يدنس فراش أمه وأن ينجب للعالم سبطاً لا تقع عليه عين إلا وانزوت عنه حزناً واشمئزازاً .

وحين سمع الفتى أوديب هذه النبوءة الفظيعة تملكه الرعب وخشي أن ينفذ فيه هذا القضاء المفجع ففر من أرض كورنث ليتجنب أباه بوليبوس وأمه ميروبيه ، وهام على وجهه فى البقاع حتى بلغ مفترق طرق ثلاثة ، وهناك وجد ركباً فيه رسول يتقدم وعربة تجرها جياد بها شيخ عجوز ومن حوله صحبه . وتصدى له الركب فى غلظة ليفسح الطريق ، فثار فى عروقه دم الشباب ولم يرع للشيخ حرمة والتحم بالركب وقتل رجاله عن بكرة أبيهم . ثم استأنف طريقه إلى طيبة حيث كان ما كان بينه وبين أبى الهول وارتقائه عرش طيبة .

فكيف لا يرتاع أوديب وهو يستمع إلى أمه وهى تقص عليه قصة النبوءة التى أطلقها رسول أبولو وولده الملعون هذا الذى قضى عليه أن يقتل أباه وأن يدنس فراش أمه ؟

ويذهب أوديب يسأل أمه كالمحموم عن لايوس ورحلته . ماذا كانت هيئته ؟ كان شيخاً اصطبغ شعره بفضة المشيب ودانت قامته قامة أوديب . وكم كان عدد الركب ؟ كانوا خمسة بينهم لايوس وكانوا فى طريقهم إلى معبد أبولو بدلف للصلاة ولاستخارة رب الغيوب . ومن ذا الذى حمل هذه الأنباء إلى أهل طيبة ؟ فلاح كان فى معية لايوس وتملكه الفزع فلاذ بالفرار وعاد إلى طيبة .

الويل لك يا أوديب ! إن كل كلمة تخرج من فم جوكاستا تملأ نفسه فزعاً وتفترس وجدانه افتراساً . كل ما سمع من أمر لايوس ينطبق على ما حدث له فى الطريق إلا شيئاً واحداً .

إن الفلاح الهارب قال إن الذى فتك بلايوس ورجاله لم يكن رجلا واحداً بل عصبة من اللصوص . وأوديب كان يهيم بمفرده حين التقى بذلك الركب عند مفترق الطرق الثلاثة .

وهكذا يصيح أوديب قائلا : إلينا بالفلاح . . . إلينا بالفلاح ! لم يبق له من أمل إلا ذلك الفلاح الذى شهد الموقعة . فإن تمسك الفلاح بقصة اللصوص برئت

ساحته أمام ضميره وأمام الناس ، وإن عدل عنها كان فى ذلك هلاك هذا الملك الضال .

أما جوكاستا فهى ترى أن زوجها أوديب قد أصابه مس واستسلم للهذيان؛ فهى تعلم أن القدر فيما أرجف المرجفون قد أضمر للايوس أن تغتاله يد ولده منها ؛ ولكنها تعلم أيضًا أن هذا الولد قد قضى نحبه وهو بعد وليد حين دق أبوه الأسياخ فى قدميه وطرح به فى العراء الذى لا يرحم بين الجبال .

* * *

وتمتلىء رأس أوديب بالهوس القاتل والهياج العنيف فهو فى جزع فظيع كأن الأشباح تطارده ، وهو يبحث عن الحقيقة بحث المستميت ويخشى أن تنبلج له الحقيقة فتصرعه .

ويمتلىء القصر الملكى بهوس أوديب ؛ فالكل فى رعب من هذا الرعب الذى ينهش نفسه نهشًا .وتمضى جوكاستا بقرابينها إلى المذبح والمحراب مصلية أن تعود السكينة إلى فؤاد زوجها المحموم .

ويقبل من كورنث رسول هرم يعلن أن ملكها بوليبوس قد قضى نحبه وأن أهلها يطلبون أوديب ملكًا عليهم مكانه . وحين تسمع جوكاستا هذه البشرى تسعد بها أيما سعادة لأن فيها تكذيبا لما تكهنت به عرافة دلف وحسمًا لكل الأمور ؛فها هو ذا بوليبوس قد مات ميتة الشيخوخة . فلم يسفك دمه ولده أوديب وتطمئن نفس أوديب حين يسمع بهذا النبأ ، ولكنه يخاف أن يعود إلى كورنث خشية أن تتحقق النبوءة القائلة بأنه مقدر عليه أن يدنس فراش أمه ؛ فأمه ميروبيه لا تزال حية ترزق.

كلا . . . إن أوديب لن يعود إلى وطنه كورنث خشية أن يقع المحظور الذى أنبأ به أبولو العارف بالغيوب . فليعد الرسول وحده إذن إلى كورنث . فأوديب قد نجا من قضائه الأول بفراره من كورنث ليتجنب قتل أبيه ؛ ولسوف ينجو من قضائه الثانى حين يصر على غربته ليتجنب الزواج من أمه .

وما أن يسمع الرسول هذا القول حتى يقبل على أوديب مطمئنًا . فليرسم القدر طريق أوديب ما شاء أن يرسم ، وليقل الغيب ما أحب أن يقول ؛ فطريق

أوديب إلى كورنث ليس محفوفاً بالمهالك كما يتوهم ، بل محفوفاً بالمجد والسعادة فبوليبوس هذا الذى حسبه أوديب أباه ليس أباً له ، وميروبيه هذه التى حسبها أوديب أمه لم تلده ، وإنما هو ابنهما بالتبنى ، وليس فى عروقه من دمائهما قطرة واحدة .

فقد كان ملك كورنث وملكته عاقرين يعيشان فى وحدة أليمة وحرمان حزين ، حتى جاءهما هذا الرسول الهرم نفسه بأوديب وهو بعد طفل رضيع ، فتبنياه وأحباه حب الوالدين للولد . وقد وجد هذا الرسول الطفل أوديب بين الجبال فى وادى « كثيرون » حيث كان الرسول فى تلك الأيام الغابرة يرعى غنمه ، وجده فى كفالة راع آخر من رعاة الملك لايوس ، وكان الطفل عليلا وقد أوثقت قدماه من الكاحل إلى الكاحل بأسياخ من حديد فتورمتا ، ومن هنا جاء أن سموه « أوديب » أى « ذا القدم الوارمة » . وأخذته به رحمة ، فأخذه من الراعى وحمله إلى وطنه كورنث وقدمه هدية إلى ملك المدينة وملكتها بوليبوس وميروبيه ، فلقى منهما جزاء سخياً .

فكيف يخشى أوديب العودة إلى كورنث ، وليس فيها فخ واحد نصبه له القضاء .

ويحسب الرسول العجوز أنه قد أثلج قلب أوديب بهذا القول ، ولكن كلماته نزلت كالضربات القاتلة على أوديب التعيس . إن رواية هذا الرسول تكامل رواية الملكة جوكاستا عن طفلها الذى ألقى بأمر من أبيه لايوس ليهلك بين الجبال وقد دقت فى قدميه أسياخ الحديد . إن أوديب يعلم الآن أنه ليس ابن بوليبوس وميروبيه فابن من هو إذن ؟ . . .

يوشك ألا يكون هناك سوى جواب واحد ، وهو أن أوديب ابن لايوس ملك طيبة وجوكاستا ملكتها ، فهو عين الوليد الذى أراد به أبوه شراً ليتجنب نفاذ القضاء فيه وفى ذويه ، فأنقذه القدر ذو التصاريف الفاجعة ليجرى كل شىء فى مجراه المرسوم ، وبعد أن نما الوليد وشب فر من كورنث إلى طيبة ليتجنب قتل الوالد والزواج المحرم ، فإذا بهذا الفرار ذاته هو الفخ الذى نصبه له القدر حتى يصير كل شىء إلى قضاء محتوم .

لم تبق إلا حلقة واحدة مفقودة إن وجدت ختمت كل شيء وحسمت كل أمر . ويعلم أوديب من كوراس الطيبيين أن الراعى الذى خرج بالوليد إلى وادى « كثيرون » بين الجبال ليقتله هو عين الفلاح الذى شهد مقتل لايوس وأبلغ به قومه وهو الآن فى طريقه إلى القصر .

وتدرك جوكاستا أن النهاية قد اقتربت فتميد بها الأرض وتنقطع نياط قلبها ألماً . إن شاهد العيان هذا المنتظر إنما هو شاهد القدر ، إن قال نعم فقد قتل وهدم البيت على آله ، وإن قال لا فقد أحيا ورد السكينة إلى كل نفس .

وتهيب جوكاستا بأوديب أن يكف عن السؤال وتضرع إليه قائلة : « استحلفتك بالآلهة أن تكف عن البحث إن كنت تبقى على حياتك ! وكفانى ما أنا فيه من عذاب ! » ولكن أوديب لا يصغى لها بل يطلب معرفة الحقيقة كاملة ، فتخرج جوكاستا فى لوعة مفجعة صائحة « يا للشقاء ! يا للشقاء ! » .

ويقبل الراعى ليدلى بالشهادة ، ويمثل بين يدى أوديب الملك ، وبعد جهد يتعرف على الرسول العجوز الذى أخذ منه الطفل ليكفله . وحين يسمع الراعى من الرسول أن أوديب الملك ليس إلا ذلك الطفل ، يحجم عن الكلام ، ويتوعده أوديب بأفظع العقاب فيعترف بالحقيقة وهو يرتعد فرقاً : إنه كان عبداً فى قصر لايوس يرعى غنمه فى وادى كثيرون وقد أعطته الملكة جوكاستا ذلك الوليد الذى قيل يومئذ إنه ولدها من لايوس ليخرج به إلى العراء ويقتله حتى لا تتحقق به نبوءة شنيعة ، فأشفق على الوليد وسلمه إلى هذا الرسول الواقف ليرحل به إلى أرض بعيدة .

وما أن يتم الراعى حديثه الشقى حتى يدرك أوديب الشقى أن القضاء قد نفذ فيه وأنه الملعون بكل لسان والملوث وذريته إلى أبد الآبدين .

وينطلق أوديب كالمجنون إلى القصر باحثاً عن سيف سائلا عن هذه الزوجة التى ما هى بزوجة وعن هذه الأم التى ما هى بأم ولكنها لعنة من السماء وقطعة من أعماق الجحيم . ويجد أوديب أبوابها موصدة فيتحامل عليها بقوة هائلة حتى تتحطم ، ويقتحم حجرة جوكاستا فيجدها مدلاة تتأرجح فى الهواء وقد شنقت نفسها بحبل . فينصهر قلبه أسى لهذه التاعسة ويفك الحبل عن عنقها وهو يصيح

قائلا : « يا للشقاء ! يا للشقاء » ! ويريح جسدها على الأرض، ثم ينتزع من ثوبها دبوسها الذهبي الذى كانت تتحلى به ، ويفقأ به عينيه الواحدة بعد الأخرى حتى لا تبصر عيناه ولديه وبنتيه من هذا الزواج الآثم .

* * *

ويخرج أوديب معتمداً على خدمه صائحاً : افتحوا الأبواب ؟ افتحوا الأبواب ليرى أهل طيبة بنو كادموس قاتل أبيه الزانى بأمه، فيطردوه من حماها ويطهروا أرضها من آثامه ويهتف أوديب فى بنى قومه قائلا : « إنه أبولو ! إنه أبولو يا أصدقائى ! إنه أبولو الذى جلب على كل هذا الشقاء وكل هذه الفواجع الأليمة : ولكن اليد التى فقأت عينى لم تكن إلا يد أوديب الشقى ! » .

وهكذا يرحل هذا الملك المتغطرس التعيس الذى ظن أنه حل ألغاز الأرض والسماء ، عن طيبة التى تؤول أمورها إلى كريون ، فترتفع عنها اللعنة . ويمضى أوديب الضرير يقوده رجاله إلى مستقره الأخير ، يمضى إلى ذلك الوادى التعيس الذى حمل إليه وهو بعد وليد ليلقى حتفه ، يشيعه نشيد حزين يلقيه قومه الحزانى قائلين : « لا تقولوا عن أحد من بنى الفناء إنه سعيد ، حتى يعبر تخوم الحياة وقد تحرر من الآلام ! » .

هيبوليت: أو غضب أفروديت

للشاعر اليونانى أوربيديس

تجرى حوادث مأساة هيبوليت فى القصر الملكى ببلدة ترويزين بعيداً عن شواطئ أثينا القديمة. وفى بهو القصر أقيم تمثالان لمعبودتين من أشهر من عبد اليونان القدماء هما الربة أفروديت والربة أرتميس، وقد وقفت كل منهما فى جانب من البهو مقابل الأخرى، وأمامها مذبح تقدم عليه القرابين.

أما الربة أفروديت فهى أشهر من أن تعرف. فأفروديت عند اليونان هى ربة العشق والحب الجسدى، تلك التى كان الرومان يسمونها فينوس أم الغرام، وكنيتها القبرصية، لأنها خرجت من محارة عند شواطئ جزيرة قبرص ذات الكروم الكثيرة. وأما الربة أرتميس فهى ربة الصيد والحرب والطراد، عذراء لا شك فى عذارتها، تحتقر الغرام ولا تجد متعة فى الوجود إلا الخروج على جوادها حاملة رمحها فى طراد الظباء.

وصاحب هذا القصر هو ملك أثينا المنفى ثسيوس الذى كان اسمه علماً من أعلام العالم القديم، أثر عنه حب الصيد والقنص والرياضة. فلا غرابة إذن أن يحب الملك ثسيوس غير زوجته الملكة فيدرا امرأة من تلك النسوة المسترجلات اللواتى اشتهرن فى العالم القديم بالفروسية وحب الحرب والطراد وعرفن باسم الأمازونات، وقد أنجب الملك ثسيوس فى الزنا من هذه الآمازونة غلاماً هو ولده هيبوليت الذى نبت على غرار أبيه وأمه، فكان أعظم فارس بين بنى قومه وكان أعرف الفتيان بفنون الصيد والقنص. ولكن أعظم فضائله جميعاً كانت عفته وطهارته التى سارت بذكرها الركبان. فمن بين آلهة الأولمب الكثيرة اختار الفارس العفيف هيبوليت الربة أرتميس ليختصها بالولاء والخلوص، فأقام كل فرائضها ولم يهمل لها قرباناً وأعلى ذكرها بين قومه فباركت له فى جياده وفى رياضته وفى صيده،

ومن بين آلهة الأولب الكثيرة اختار هذا الفارس العفيف الربة أفروديت آلهة الحب ، ليختصها ببغضه واحتقاره فأهمل شعائرها وقاوم سلطانها وندد بها فى كل مكان .

لهذا تحقد عليه أفروديت وتبيت له شرًا وبيلا ؛ فهى ما تعودت أن يعصى أحد لها أمرًا أو يهمل فرائض الحب الذى تغرسه فى القلوب والأجساد فتتجدد به الحياة على وجه الأرض ويخصب به الحرث ويكثر النسل .

* * *

وتتجلى أفروديت فى بهو القصر وتقول والغضب يملؤها :

أفروديت : سلطانى على دولة البشر عظيم ، واسم القبرصية رفيع فى أبهاء السماء وعند سكان الأرض الذين يجتلون ضياء أبولو رب الشمس ، ما بين تخوم البحر وتخوم أطلس ، وأنا أسعى إلى المجد بمن يحفلون بسلطانى . أما من يتحدوننى فإنى أجلب على رؤوسهم الدمار . فالآلهة كالبشر تسر بما يقدمه لها الناس من فروض التجلة والإكرام . والحق الذى سأظهره الآن هو أن هيبوليت ولد تسيوس من الأمازونة وربيب بثيوس هو الوحيد بين قطان هذه البلاد . أرض ترويزين الذى يسمينى أخس الآلهة . فهو يحتقر الحب . ويأبى أن يتزوج . ولكنه يجل أرتميس ، ابنة زيوس وأخت أبولو . ويعدها كبيرة الربات . وهو يطهر الأرض من الوحوش بكلاب صيده السريعة ساعياً دائماً أبدًا فى الغابة الخضراء ، ساهرًا دائماً أبدًا على ربته العذراء ، ناعماً بصحبة هذه الربة التى تعلو على أفهام البشر . وما هذا الذى يحنقنى فيه ! فكيف أغضب لهذا . ولكن الذى يغضبنى هو ما يقترفه ضدى من آثام وما يكيده لى من كيد . ولسوف أثأر اليوم من هيبوليت . واليوم يوم ثأرى .

وكيف تثأر أفروديت من هذا الفتى الطاهر العفيف الذى جفا صحبة النساء وأعرض حتى عن الزواج وهو سنة الخلائق التى لم يكسرها أحد إلا وكسرته أفروديت رمز الحب فى هذا الوجود ؟

إنها قد أعدت لكل شىء عدته ، ولم يبق فى انتقامها إلا القليل . فهى قد بثت منذ زمن فى قلب فيدرا زوجة أبيه تسيوس بذور الحب الآثم لهذا الفتى العاصى

على شرعة الحب المستكبر على سلطان الغرام . فما أن رأت فيدرا هيبوليت وهو عائد إلى أثينا من بلاد بعيدة حتى علق به قلبها وهامت به هيامًا عجيبًا. فلما رضى زوجها الملك ثسيوس بالنفى الطائع من أثينا عامًا كاملا ليتجنب إثمًا عظيما على عادة قومه فى تلك الأيام ، ونزل بشواطئ ترويزين حيث أقام مع زوجته الملكة فيدرا ، ذوت فيدرا وصوح عودها من فرط الصبابة الحزينة . فحبيب قلبها هيبوليت غائب عن عينيها ؛ وهى لا تقوى على فراقه . ولكن هذه الملكة المسكينة فيدرا لم تكن بغياً بل كانت نعم الزوج شريفة بين النساء . فهى تكتم هواها الغريب الآثم هذا الذى رمتها به المقادير ولم تكن لها فيه حيلة . وهى لا تعلم أنه من كيد أفروديت ربة الغرام . ويراها خدمها ووصيفاتها كل يوم تذبل وتذوى فيعجبون لهذا الداء الدفين الذى يفتك بها فتكًا ولا تفصح لهم عن علتها .

نعم . اليوم تثأر أفروديت من الفارس الجميل هيبوليت المستكبر على الحب والزواج . فهو اليوم قادم إلى قصر أبيه بعد طول غياب . وهو اليوم راجع من الصيد والطراد مع صحبه وحاشيته رجوع الظافر بأثمن الغنائم . ولسوف يحتفل مع صحبه وحاشيته بما حبته به أرتميس من حظ وتوفيق فى رحلته ويقيم شعائرها ويعلى كلمتها فى القصر وبين الرعية . ولكن أفروديت قد دبرت له نهاية فاجعة . فهو على موعد مع أبيه الغائب كذلك فى هذا اليوم . ولكنه على موعد مع الموت أيضًا . وسيلقى مصرعه تصاحبه لعنات أبيه . فهذا ما دبرته له أفروديت . لسوف تطلع ثسيوس عند عودته على قصة هذا الحب الآثم الذى تحمله فيدرا لولده ابن السفاح هيبوليت . وسوف يثور الملك ثسيوس لشرفه ويقضى على ولده. وهكذا تثأر أفروديت لنفسها .

* * *

وما أن تنصرف أفروديت من بهو القصر حتى يدخل هيبوليت ورفاقه فى الصيد والقنص وهم يمرحون ويغنون ؛ ويتقدمون من محراب أرتميس ليقدموا لها الشكر والقرابين ، ويخاطب هيبوليت تمثال أرتميس بقوله :

هيبوليت : جئتك يا سيدتى بهذا الإكليل المعقود الذى جمعت أزهاره من المرج البكر الذى لا يجسر راع أن يرعى فيه غنمه ولم يجتث أعشابه قط منجل .

ويضع هيبوليت إكليله على رأس التمثال ، ثم يهم بالانصراف فينبهه قائد حاشيته أنه قد حيا أرتميس ولكنه لم يحى أفروديت القبرصية ، وقد كان يقضي الذوق بأن يحييها كذلك ، فيجيبه هيبوليت قائلا :

هيبوليت : أنا أحييها من بعيد ، ومحتفظاً بطهارتى .

القائد : ولكنها آلهة عظيمة ، طبقت شهرتها الآفاق .

هيبوليت : نحن نأنس إلى بعض الآلهة أكثر مما نأنس إلى غيرهم ، شأننا مع البشر .

القائد : أتمنى لك التوفيق ، وأرجو أن تصيب من الحكمة ما أنت بحاجة إليه .

هيبوليت : أنا لا أفتن بإله تتطلب عبادته ستر الليل .

ويأمر هيبوليت قائد الحاشية أن يمضى ليطهم جياده ليشدها من بعد إلى عجلته ويخرج بها للرياضة ، ثم ينصرف إلى داخل القصر تتبعه الحاشية ، ولا يبقى فى البهو إلا قائد الحاشية الذى يتقدم إلى تمثال أفروديت ليقيم شعائرها وحين يفرغ من مناجاة أفروديت يلحق بالجميع .

وتدخل البهو جماعة من نساء ترويزين فى هيئة كوراس ويتحدثن عن هذه العلة الغريبة التى استبدت بمولاتهن الملكة فيدرا . فهى فى صوم لا ينقطع منذ ثلاثة أيام . وقد اعتكفت فى فراشها لا تحدث أحداً ولا تشكو لأحد . وتحار النسوة فى أمر فيدرا ، فلا يعلمن أن كانت قد سكنتها روح من تلك الأرواح التى تسكن أجساد النساء وتعذبها تعذيباً أم أنها تكظم فى قلبها الطاهر شوقاً جارفاً مدمراً إلى شيء محرم .

وتدخل عليهن فيدرا وقد أصابها هزال شديد وفى معيتها مربيتها العجوز التى تعينها على السير وتريحها على أريكة ممدودة فى البهو . والمربية ليست أقل حيرة من النسوة فى أمر مولاتها . فهى تسأل ولا تجاب ، وإنما تسمع فيدرا تهذى بغامض الكلام الذى لو سمعه سامع يظن بالملكة الظنون ويرتاب فى اتزان عقلها . ففيدرا تتمنى لو أنها كانت تنهل من معين مائه النقى الطاهر من قطر الندى ، وتطلب أن تستلقى للراحة على حشائش المرج فى ظلال شجرة الحور . وهى ترجو أن تحمل إلى الجبال وإلى الغابات حيث تركب جواداً كريماً وتطارد وحوش البرية وتنصت

فى فرح وحشى لكلاب الصيد وهى تشتاق إلى الخروج على صهوة جواد تخب به على الرمال السوية .

وتفيق فيدرا من هذا الهذيان الذى يوشك أن يفضح ما يجرى فى سريرتها من معان غريبة ، وتعنف نفسها على الاسترسال فى هذه الخواطر اللعينة التى لا ريب قد بثها فى ضميرها شيطان من الشياطين . ويأخذها الخجل من هذه الأفكار التى تراودها فتطلب إلى مربيتها أن تغطى وجهها لتستر خجلها وتحجب عارها قبلما ينكشف للعيون .

وتشتد حيرة المربية فهى لا تفهم لكل هذه الأحزان سببًا . ولكنها على يقين من أن مولاتها فيدرا تطلب الموت ، فهى قد أمسكت عن الزاد ثلاثة أيام كاملة وهى قد استسلمت لحزن عظيم . وتلحف المربية على فيدرا أن تفصح عما بها لعلها تعلم سبيلا إلى شفائها ، وتنهرها قائلة إن فى موتها جناية على أبنائها فلئن ماتت فيدرا خلا الجو لابن الزنا هيبوليت ولد ثسيوس من خليلته الأمازونة ، وهو لن يضيع وقتًا بل سيعود ليحتل المكان الأول فى الملك بعد موت ثيسوس . . .

وما أن تذكر المربية اسم هيبوليت حتى تأخذ فيدرا رعشة فظيعة وتتألم ألمًا عظيمًا وتستحلف مربيتها ألا تنطق باسمه أمامها ثانية . فتعلم المربية أن فى الأمر سرًّا ، وأن هذا السر يدور حول هيبوليت ، وتذهب تحاورها ، فتقول فيدرا إن جسدها طاهر ولكن روحها آثمة ، وأن ما بها من داء ليس مكرًا من مكر عدو سحر لها ، بل سحر من صديق برىء فى مثل براءتها . وتؤكد فيدرا لمربيتها أن زوجها الملك ثسيوس لم يذنب معها فى شىء بل كان نعم الزوج لها ونعم الأب لبنيها ، وأنها تخلص له الود ولن تخونه أبدًا ولو لقيت الموت فى سبيل الوفاء .

وتستعطف المربية فيدرا أن تصارحها بحقيقة الأمر بدلا من كل هذه الألغاز والأحاجى ، وتضعف فيدرا ، فتقول إن هناك لعنة قديمة كتبت على أسرتها وهذه اللعنة هى لعنة الحب . فأمها قد ذهبت صريعة العشق ، وأختها تنتظرها الكارثة فى سبيل العشق فهى عروس الآله ديونيزوس رب الخمر . وها هى ذى فيدرا صريعة العشق ، فقد أصماها سهمه المسموم الذى لا يرجى منه شفاء .

نعم إن فيدرا تحب ابن الأمازونة هيبوليت العفيف . وهو لا يعلم عن حبها شيئًا ولن يعلم بأمره ، ففيدرا شريفة بين النساء وفية لزوجها الكريم حتى الموت ، وإنها لتطلب الموت لأنه وحده سبيل الشرف الذى ينقذها من حياة العار . لكم جالدت فيدرا نفسها وقاومت هذا السحر المدمر الذى يدمرها بالشهوة الآثمة وغالبت طيف هيبوليت ليغرب عن خيالها . ولكن الحب ولد أفروديت القبرصية قهرها وسد عليها جميع المنافذ . فلم يبق أمامها إلا سبيل واحد هو سبيل الموت . وهى تعلم أنها طاهرة الجسد . ولكنها لا تعرف كيف تواجه زوجها وفى رأسها كل هذه الخواطر الآثمة . فكيف يكون الأمر لو زلت فى الحقيقة لا فى الأمانى ؟ إن الحياة بغير هيبوليت هول لا يطاق . والحياة به أهوال وأهوال .

وحين تقف المربية العجوز على الداء الذى يفتك بسيدتها . تصيح أول الأمر قائلة : يا للعار ! يا للعار ! ولكنها لا تلبث أن تتدبر الأمر وتقول إن فيدرا ترتكب إثمًا أفظع لو أنها أسلمت نفسها للموت إن فيدرا قد قاومت سلطان الهوى بقدر ما استطاعت وصارعته بكل ما أوتيت من فضيلة وإرادة . وهو الآن قد صرعها فمن الحق ألا تسلم بالهزيمة . ومن الحكمة أن تجد إلى حبيبها سبيلا .

وتلعن فيدرا مربيتها وتنهاها عن الاسترسال فى هذا الكلام الشائن الذى يغوى القلب مهما كان طاهرًا . ففيدرا لا تزال نقية النفس لا يداخل فضيلتها فساد . ولكنها تعلم أن كلام مربيتها عذب كالغرام العذب يتسلل إلى مواطن الضعف منها ويضيع الحذر فى جسدها وإرادتها . فالمربية تقول إن ما سميه فيدرا طريق الشرف إذا بلغ هذا المبلغ الذى يدمر فيه الإنسان نفسه ويسعى بإرادته إلى ظلمات القبر لم يعد طريق الشرف . ولكن غدا طريق الكبرياء . ففيدرا لا تخشى الزلل بل تخشى العار . والخير لها أن تعيش فى عار الحب الآثم من أن تموت فى طهارة الفضيلة المستكبرة .

وتقول المربية إن لديها بعض أحجبة السحر تخفيها فى دارها وهى تستطيع أن تأسر بها قلب الفارس العفيف هيبوليت فتجمع بينهما دون أن تذل كبرياء مولاتها فيدرا . وكل ما تحتاج إليه فى هذا السبيل قطعة من رداء الحبيب أو أى أثر من آثاره . بهذا وحده تشفى فيدرا من هذه البرحاء التى تهصرها هصراً . إن كل

ما تطلبه المربية هو أن تعتصم فيدرا بالشجاعة وأن تترك لمربيتها العجوز التى نهنهتها منذ طفولتها وأحبتها حبها لولدها أن تدبر الأمر كما ترى . ولسوف تجد فى حيلة أفرودويت الواسعة خير عون لها فى مسعاها .

وتثور فيدرا ثورة الخوف والخجل معاً قائلة لمربيتها : إياك أن تنطق بكلمة واحدة عن هذا لابن ثسيوس .

* * *

وتمضى المربية إلى داخل القصر فى طلب هيبوليت . وبعد حين قليل يسمع صياح منكر ولعنات هائجة . فتدرك فيدرا أن مربيتها الحمقاء قد خانتها فانطلقت إلى هيبوليت وفضحت له غرام مولاتها به . ويرتفع صوت هيبوليت من الداخل واصفاً المربية بأنها قوادة تصل الرجال بالنساء وخائنة تلوث شرف مولاها وولى نعمتها الملك . فتصرخ فيدرا من فرط العار وتولول قائلة : « لقد انتهيت لقد انتهيت » وتوشك أن تتهافت . ويدخل هيبوليت البهو فى هياج عظيم تتبعه المربية وهى فى اضطراب عظيم . لقد جعلته يقسم أغلظ الإيمان بزيوس كبير الآلهة ألا يتفوه بكلمة إذا هى أطلعته على سر خطير، فأقسم هيبوليت دون أن يعلم أنها ستشتط فى الكلام على هذا النحو وهى الآن تذكره بأنه أسير هذا القسم الذى أقسم .

نعم . إن هيبوليت أسير قسمه . ولكم كان يحب أن يعنف الملكة بقارس الكلام وأن يعلن بأجهر صوته فى البلاط وأن يخرج فى الشوارع هائماً صائحاً فى الناس : أيها الناس ! انظروا إلى الملكة الساقطة فيدرا . هذه التى تحبونها مثلا للعفة ورمزاً للنقاء ! إنها تراودنى عن نفسى !

ولكن هيبوليت أسير قسمه . وهو يرغى ويزبد حتى يفرغ كيله . إنه لا يندد بفيدرا . ولكنه يندد بنساء الأرض جميعاً فيقول مخاطباً كبير الآلهة :

هيبوليت : أى زيوس العظيم لم خلقت المرأة . هذا الكائن الزائف الشرير لتعيش حيث تشرق الشمس ، فأشقيت بها الرجل ؟ ولو كان مرادك أن يتكاثر البشر فقد كان يجدر ألا تكون المرأة سبيلهم إلى ذلك ، بل أن يبتاع كل فى معابدك بالذهب أو الحديد أو ثقيل البرونز لنفسه أسيرة . وكل ما قدم لك

من قرابين ، وهكذا يستقل الرجال ، ويتحررون من النساء .

إن هيبوليت عدو المرأة الأكبر ، ومقته للنساء لا يدانيه مقت ، وكلما ازدادت المرأة ذكاء وحيلة وعلماً ، ازداد مقته لها فثل هذه المرأة تعرف ما لا ينبغى للمرأة أن تعرف وتطلب ما لا ينبغى للمرأة أن تطلب ، ومثل هذه المرأة شهوانية تعرف من لخسة أفروديت أكثر مما تعرفه بقية النساء . وأصلح النساء امرأة ساذجة هى والكم المهمل سواء ، عاطل من كل ذكاء أو حيلة أو علم . إن فيدرا بغى من بغايا أفروديت ، ولولا القسم الذى أقسم لأطلع أباه على كل ما جرى .

وبعد أن يفرغ هيبوليت كل ما فى جعبته من نقمة على النساء ينطلق إلى داخل القصر تاركاً فيدرا ومربيتها فى أسوأ حال .

وتندم فيدرا على أنها أفشت سر حبها المنكود لمربيتها الحمقاء . لقد كانت تطلب الموت الصامت فى شرف وفى سبيل الشرف . أما الآن فماذا ينقذها من العار الأبدى . لقد افتضح حبها الآثم ولم تجن من فضيحتها إلا الاسم الملوث إلى الأبد وغداً يذيع هذا الفتى المستكبر بعفته كل ما كان فيفضحها أمام زوجها ، ويفضحها أمام المواطنين ، ويجرى ذكرها على كل لسان فيقال . إنها فيدرا الخائنة لقد قضت عليها مربيتها الحمقاء قضاء مبرماً من حيث لا تريد . فلقد أرادت لها خيراً . وما جلبت عليها وعلى آلها إلا العار الأبدى .

• • •

فكيف الخلاص من هذا المأزق ؟ وهل من سبيل إلى الخلاص إلا أن تقتل فيدرا نفسها ؟ ولكن فيدرا التى كانت تطلب الموت وحدها لتنجو من غرامها الشقى وتحفظ اسمها رمزاً للخلف نقياً طاهراً . لن تموت الآن وحدها . بل ستجر معها إلى القبر هذا الفتى العفيف المستكبر بعفته الذى يلوث اسمها ويجعلها أمثولة بين النساء . . . نعم . لسوف تنتقم منه فى موتها شر انتقام . فالموتى ينتقمون كما ينتقم الأحياء .

• • •

وتختفى فيدرا فى مخدعها حيناً . وبعد هنيهة . يعلو عويل المربية معلنة أن مولاتها شنقت نفسها . فيضطرب كل من فى القصر .

وفى هذا الاضطراب . يدخل ثسيوس الملك ومن ورائه حاشيته ، وحين

يرى ما هنالك من اضطراب عظيم يستفسر عن الخبر فيعرف بموت فيدرا فيتمزق قلبه أسى على هذه الزوجة الطاهرة التى كانت مثلا للطهر والوفاء . ولا يعلم لانتحارها سبباً فيؤمن بأن محنته لا شك قصاص لذنوب قديمة ارتكبها أسلافه . وتأتيه نساء القصر بجثة فيدرا ويضعنها عند باب البهو ، فيبكيها بدمع مدرار ويرثى فضائلها التى لم تكتمل لامرأة غيرها من نساء الأرض . ويعاهد روحها على أن يبقى وفياً لذكراها ما بقى حياً ، فلا يفتح أبواب قصره لزوجة من بعدها .

ثم يلمح فى يدها الباردة ورقة انطبقت عليها أناملها الشاحبة . فيعرف أنها قد تركت وراءها رسالة . وينزع الورقة من يدها ويقرؤها ، فيرتجف غضباً .

إن فيدرا تقول فى رسالتها إن ولده العفيف هيبوليت ،هذا الذى جرت عفته مجرى الأمثال ، قد اغتصبها ، فلوث شرفها وشرف أبيه الملك ، فلم تجد فيدرا سبيلا لمحو هذا العار العظيم إلا بالانتحار .

ويأخذ الهياج من تسيوس كل مأخذ فيرفع يديه ضارعاً إلى بوزيدون رب البحر ؟ أى بوزيدون ! يا أبتاه ! لقد وعدتنى من قبل أن تجيب ثلاثاً من ضراعاتى . وها أنذا أضرع إليك أن تفتك بولدى ، ولا تجعل له مهرباً من قبضتك قبلما ينقضى اليوم ، فاستجب لضراعتى إن كان ما وعدت به صدقاً .

لقد كان تسيوس يحب أن يهوى بحسامه على ولده فيصرعه بنفسه ، ولكنه يخاف أن يلوث يده بدم ابنه ، فقتل الولد يجلب لعنة السماء إلى أبد الأبدين . فلتقتص منه السماء ، إن كان فى السماء عدالة . أما تسيوس فهو يصيح : لقد أمرنا بنفيه . لقد أمرنا بنفيه من البلاد !

وهنا يعود هيبوليت ليرى جثمان فيدرا بباب البهو ومن حوله النساء ، ويبصر أباه فى ثورة ما بعدها ثورة ، ويبدى هيبوليت عجبه لموت فيدرا التى كان قد تركها منذ لحظات حية بين الأحياء . فينهال عليه أبوه بالاتهام ، واصفاً إياه بأخس الصفات ، ويعلنه بأنه منفى من البلاد .

ويدافع هيبوليت عن نفسه معلناً براءته من كل أمر مشين نسبه إليه أبوه ويوشك أن يطلع أباه على الحقيقة ، ولكنه يتذكر القسم الذى أقسمه بألا يفشى سر فيدرا لأحد ، فيمسك عن الكلام . ولكنه يناشد أباه أن ينصفه بمحاكمة يثبت فيها براءته ، فإن لم يقبل أبوه محاكمته ، فهو يقبل حكم السماء عليه ، وهو

يطلب إلى أبيه أن يستخير الطير أو أن يرسل إلى من يشاء من الكهان ليقضوا فى هذه التهمة الباطلة بل هو يقسم على عذارته التى لم تفضها بعد امرأة .

ولكن أباه لم يستمع له بل يأمره بمغادرة القصر على الفور والرحيل عن البلاد دون إبطاء . وهكذا ينصرف هيبوليت يتبعه عدد عظيم من رجال حاشيته . ويخرج هيبوليت إلى الشاطئ حيث مركبته وجياده وهو كاسف البال حزين النفس .

• • •

ويجد هيبوليت رجاله عند الشاطئ يطهمون جياده وقد علموا بنبأ نفى سيدهم ، فأعدوا مركبته وذهبوا يتأوهون على ما أصاب هذا الفارس العفيف الذى لا تخالط عفته شائبة ولا ترقى إلى فضيلته شبهة . ويسألهم هيبوليت أن يكفوا عن هذا النواح ، فالأمر قد قضى فيه ولا مفر من الرحيل . ثم يرفع بصره صوب السماء ويصلى قائلاً : « أى زيوس أردنى قتيلاً إن كنت قد أذنبت . واعلم أنى عبرة بموتى إن لم تشأ أن تعلمه عبرة بحياتى . فيعرف بذلك كيف أساء إلى » ثم يتناول سوطه ويلهب به ظهور الخيل فتجرى مركبته تنهب الأرض نهباً فى الطريق الواقع بجوار الشاطئ بين بلدة أرجوس وبلدة أبيداوروس . حتى تتجاوز حدود البلاد ، وبيلغ بقعة صخرية جرداء لا أنس فيها . وعندئذ تميد الأرض كأنما زلزل زلزالها فتشب الخيل على رجلين فزعاً . وتخرج من البحر موجة عالية . كأنها الطود وتقتحم الشاطئ ومن زبد الموجة يخرج ثور هائل كأنه زيوس كبير الآلهة حين يتخذ هيئة الثور . فترتاع الجياد أيما ارتياع . ويقبض هيبوليت على زمامها بكلتا يديه . ولكن فروسيته العظيمة لا تجدى نفعاً . فترتطم عربته بالصخور وتتحطم ويسقط هيبوليت جريحاً على الأرض الصفاة تجره جياده المذعورة فى جنون وهو معلق فى زمامها المشتبك حوله لا يستطيع منه فكاكاً . ويصيح هيبوليت صيحة اليأس قائلا لجياده : « قفى ! قفى يا جيادى التى أطعمتها بيدى فى الحظيرة ولا تقضى على قضاء مبرماً . واهاً من هذه اللعنة الأسيفة التى صبها أبى على ! أما من منقذ ينقذنى . ولو من أجل فضيلتى الكاملة » ؟

ولكن هيهات لهيبوليت أن يجد من ينقذه أو ينقذ فضيلته الكاملة هذه من مخالب الموت . فالركب متخلف وراءه وأتباعه وهم جمع غفير لا يدركونه إلا وهو

معلق بين الحياة والموت لم يبق فى صدره إلا رمق قصير .

ويحمله أتباعه إلى قصر أبيه لعل أباه يرق له فلا يموت فى بلاد غريبة ، ولعل أباه يقتنع ببراءة هذا الفارس العفيف الذى صان عفته عن كل النساء .

ولكن الملك ثيسيوس يرى فى عذاب ولده هيبوليت الذى يصارع الموت آية على خطيئته ، فهو قد صلى إلى بوزيدون العظيم أن يصرع ولده ، عقابًا له على إثمه فاستجاب له رب البحر ، فأثبت بذلك خطيئته .

ولا يهتدى ثيسيوس إلى الحق إلا حين تتجلى له الربة أرتميس مولاة الفارس العفيف التى سحرته بفنون الصيد وجعلته يقلو صحبة النساء ويزهد فى الحب ، ويثور على سلطان أفروديت . وقبل أن تفيض روح هيبوليت المسكين يعلم الأب والابن جميعًا أن كل ما جرى إنما كان من كيد الربة أفروديت لهذا الفتى الذى تحدى سلطانها فأعرض عن الحب وأعرض عن الزواج وأراد أن يكسر هذه الشرعة القاسية التى تحكم بها أم الغرام عالم الأحياء . وقبل أن تفيض روح هيبوليت المسكين يعلم الأب والابن جميعًا أن هيبوليت لم يلق حتفه بلعنة أبيه ، فهو ما كان امرأ سوء . ولكن بتلك اللعنة التى جلبها هو على نفسه حين صلى لزيوس أن يصرعه إن كان من المذنبين . فهو قد استعلى على الحب ، وأراد أن يخرق ناموس الحياة .

ليزيستراتا

الشاعر اليونانى أرسطوفانيس

كانت مشكلة السلام تقض مضاجع القدماء كما تقض اليوم مضاجعنا وذهبت أحلام القدماء مذاهب شتى فى تصورعالم تختفى فيه الحروب ويسود فيه السلام على وجه الأرض، فحلم أنبياء التوراة بيوم لا يغمد فيه الإنسان سيفه المشرع بل يصهره ويجعل منه سنانًا للمحراث يشق به بطن الأرض ويستخرج منها أطيب الثمرات . وتصور شاعر الرومان الأكبر فرجيل يومًا تتآخى فيه الذئاب والحملان وتتناغى فيه السباع والظباء وكتب هوراس الرومانى يبث حنينه إلى السلام ذى الأبواب المفتوحة .

كل هؤلاء أخذوا السلام مأخذ الجد . ولكن إمام الكوميديا أرسطوفان وجد فى قضية السلام مناسبة يجرب فيها فكاهته المريرة وسخريته الموجعة . فقد كان أرسطوفانيس متشائمًا وشكاكًا فى الطبيعة البشرية . وكان عدوًا للمرأة كثير النقد لها . ولكنه فى الكوميديا المشهورة « ليزيستراتا » يسخر من الرجل بقدر سخريته من المرأة . ويجد أن الرجل لا يقل سفاهة فى التفكير عن المرأة . فالمرأة تحاول بطريقتها الخاصة المضحكة أن تضع حدًا للحروب وأن تقر السلام الدائم . ولكن الرجل بما فطر عليه من غرائز القتال وشعور بالسيادة الطبيعية يعرقل مساعيها ولكنه يرضخ أخيرًا حين تتضامن نساء اليونان فى تنفيذ خطة ماكرة تهدهن إليها — زعيمتهن ليزيستراتا . يرضخ الرجال أخيرًا . فيعقدون الصلح ويعلنون السلام . وينعمون بأطايب الحب والحياة . ولكنهم حتى فى احتفالهم بالسلام يرقصون رقصة تشبه رقصة الحرب ويشربون الأنخاب للربة أثينا ذات الخوذة والرمح « حامية » أثينا وللربة أرتميس ذات السهام الكثيرة . حامية أسبرطة . عدوة أثينا اللدود .

وليزيستراتا سيدة من أشراف أثينا القديمة تسكن بجوار الأكروبول ، وهو

أكبر معبد بالمدينة بنى على رابية عالية فهو يشرف على أثينا كأنه القلعة المنيفة . والحرب ضروس بين مدن اليونان تسيل فيها الدماء أنهارًا . وقد تزعمت أثينا فريقًا من المدن وتزعمت أسبرطة فريقًا آخر . وتمر السنوات فلا يرى أحد لهذا القتال السجال من آخر . وشباب كل مدينة ورجالها فى عدة الحرب خرجوا عن بكرة أبيهم ، فلم يبق فى مدن اليونان إلا النساء والشيوخ والأطفال . والمحاربون لا يعودون إلى ديارهم إلا لمامًا ، كلما أعلنت هدنة أو أعفوا للراحة وحسن التأهب .

وتضيق نساء اليونان بهذه الحالة . وتكون أشدهن ضيقًا السيدة ليزيستراتا . وتبعث ليزيستراتا الدعوة إلى ألمع نساء اليونان فى أثينا وفى أسبرطة وفى كورينث وفى سائر المدن والجزر ليجتمعن فى هيئة مؤتمر عند الأكروبول ليتداولن فى أمر هام . ويأتى الموعد المحدد فتتأخر كل النساء . فتصيح ليزيستراتا وقد أخذ منها الضيق كل مأخذ :

ليزيستراتا : واها لهن ! لو أنهن دعين إلى حفلة من حفلات باخوس رب الخمر أو إلى عيد من أعياد بان رب الإخصاب أو أفروديت ربة الغرام ، لازدحمت بهن الشوارع واكتظت على نغمات التامبورين . ولكنى لا أرى منهن واحدة ! مهلا ! . . . إلا جارتى كليونيسا التى أراها قادمة من بعيد .

وتأتى كليونيسا وتحيى ليزيستراتا وتعجب لما تراه فى محياها من عبوس وتقطيب وتتذمر ليزيستراتا قائلة : إن النساء إذا دعين لأمر جلل نمن طول الصباح . ولكن كليونيسا تدعوها أن تتمسك بالصبر . فالنساء لا يغادرن دورهن إلا بكل مشقة : هذه تعنى بزوجها وتلك توقظ خادمتها وتلك تغسل طفلها أو تطعمه . أما ليزايستراتا فلا تزال على ضيقها لأن الأمر الذى دعت فيه نساء اليونان خطير ومقدم على كل هذه الأمور التافهة .

وتأبى ليزيستراتا أن تشرح لكليونيسا سبب دعوتها لنساء اليونان قبل أن يكتمل عقدهن فى الأكروبول . وإنما تقول إن لديها خطة خطيرة قلبتها فى رأسها الليالى الطوال كلما أرقها السهاد . وهى خطة عظيمة حقًا كما تتوقع كليونيسا ، وكيف لا تكون عظيمة وهى لو تحققت لقال جميع الناس وروى التاريخ : إن اليونان

أنقذتها نساؤها ! إن كليونيسا تهزأ الآن من هذه الفكرة وهى أن اليونان يمكن أن تنقذها نساؤها الضعيفات . ولكنها لن تهزأ غداً حين ترى المعجزة قد تحققت . وأن الوطن فى خطر ولن ينقذه إلا نساؤه . ولسوف ترى كليونيسا بنفسها كيف سيدحرن رجال البلوبونيز ورجال بويوتيا ورجال أثينا وكل رجال الإغريق إذا سرن بحسب ما وضعت لهن ليزيستراتا من خطة .

وتسألها كليونيسا عاجبة : ولكن كيف نحقق نحن النساء هذه المعجزة الهائلة ، ونحن إناث ضعيفات نعيش قابعات فى مقر ديارنا نتزين بثياب وضاءة شفافة من الدمقس الأصفر الفضفاض ، ونتحلى بالأزهار العاطرة ونلبس الشباشب الصغيرة الجميلة !

فتجيبها ليزيستراتا قائلة : إنها لا تفهم أن هذه الثياب الحريرية الشفافة المفهافة وهذه العطور النفاذة وهذه الشباشب الدقيقة الجميلة هى ذاتها مصدر قوتهن ، وهى ذاتها أسلحتهن التى سيحرزن بها النصر على الرجال ، وحين ينتصرن لن يجرد رجل على رجل سيفاً أو يهز فى وجهه رمحاً أو يحتمى منه وراء درع .

وفيما تتحدث المرأتان تلمحان جمعاً كبيراً من النساء قادمات من بعيد . وبعد قليل يصل رهط كثيف من نساء أناجيرا تقوده سيدة تدعى ميرينيه . وتعتذر ميرينيه عن تأخرها فتعنفها ليزيستراتا فتجيب ميرينيه بأنها ظلت تبحث عن زنارها طويلا فلم تجده . وهذا سر تأخرها .

ثم لا تلبث أن تفد عليهن أربع نساء أخريات إحداهن امرأة مسترجلة ضخمة الجثة من أسبرطة اسمها لامبيتو ، ومعها امرأتان من بويوتيا وامرأة من كورينث . وترحب ليزيسيراتا بالأسبرطية ترحيباً عظيماً وتطرى جمالها وعضلاتها ودم الصحة الذى يطفر من وجنتيها . فهى تبدو فى قوة الثور . بل لو أنها صارعت ثوراً لصرعته . وتسر لامبيتو لهذا الإطراء وتجيب بأن الفضل فى كل هذا يعود إلى الرياضة التى تمارسها كل يوم ورقص الشلاليت الذى تتدرب عليه كل صباح .

وهنا تكثر الأسئلة وتنهال على ليزيستراتا من كل جانب : فى أى أمر دعت

ليزيستراتا مجلس النساء هذا ؟ وتبتسم ليزيستراتا وتجيب : سأجيب على سؤالكن ، ولكن بعد أن تجبن على سؤالى وهو :

ليزيستراتا : ألا يحزنكن ويملأ كن شقاء أن ترين آباء أطفالكن بعيدين عنكن فى الجيش ؟ إنى أراهن أنه ليست بينكن واحدة لم يرحل عنها زوجها .

وهنا تبدأ الشكوى كأنما أثارت ليزيستراتا منهن الأشجان فكليونيسا تقول : إن زوجها فى طراقيا منذ خمسة شهور ، وميرينيه تقول : إن زوجها غائب فى بيلوس منذ سبعة شهور ، أما زوج لامبيتو فلا يعد إليها من القتال إلا ليخرج سريعاً إلى القتال . وهنا تسألهن ليزيستراتا قائلة : إن لديها خطة لوضع حد للحرب فهل يؤيدنها فى خطتها فتؤكد لها جميع النساء أنهن مؤيدات لها فى كل ما تفعل مهما كلفهن هذا من عنت وعناء . ولو مشين إلى أطراف الأرض ، ولو صعدن الجبال الشاهقات . ولو صمن الأيام والليالى ، فليس أحب إليهن من انتهاء الحرب وعودة الأزواج إلى بيوتهم .

وتظهر ليزيستراتا لهن سرها الخطير صائحة :

ليزيستراتا : . . . يا أخواتى العزيزات . إذا أردنا أن نرغم أزواجنا على إقرار السلم فقد وجب أن نمتنع عن . . .

كليونيسا : نمتنع عن ماذا ؟ خبرينا . خبرينا .

ليزيستراتا : وهل تمتنعن حقاً . . . ؟

ميرينيه : نعم نمتنع . . . نعم نمتنع . . . ولو كلفنا ذلك الحياة نفسها .

ليزيستراتا : إذن فلا بد أن نمتنع عن مضاجعتهم تماماً . . . ما هذا ؟ لماذا تولينى ظهوركن ؟ إلى أين أنتن ذاهبات . أراكن تعضن الشفاه ، وتهززن الرءوس . فيم كل هذا الشحوب ؟ وفيم هذه النظرات الحزينة ؟ فيم هذه الدموع ؟ أجبننى : أأنتن موافقات؟ أجبن فى كلمة : نعم ، أو لا . هل تترددن فى القبول ؟

كليونيسا : أنا لن أمتنع . ولتستمر الحرب .

ميرينيه : ولا أنا ولتستمر الحرب .

وتعيرهن ليزيستراتا بحماسهن الزائف فتقول كليونيسا : « اطلبى إلينا أى شىء . . . أى شىء إلا هذا . مرينى أن أمشى فى النيران إذا أردت ، ولكن

غير معقول أن تحرمينا من أحلى شيء في الحياة ، يا حبيبتي ليزيستراتا » ؟

وتؤيد ميرينيه كلام كليونيسا ، فتثور ليزيستراتا قائلة : « يا لنا من جنس داعر خسيس ، إننا نستحق ما أظهرنا فيه شعراء المآسي من صور الإجرام ، فنحن لا نصلح لشي إلا للحب وللعهارة » . وهنا تتدخل لامبيتو الأسبرطية قائلة بعد ترو : « إن ما تطلب ليزيستراتا لأمر عسير حقًّا ، ولكنها ترى رأيها ، فالسلام مقدم على كل شيء . فتفرح ليزيستراتا وتتهلل قائلة : إن لامبيتو هي الوحيدة بينهن الجديرة باسم المرأة .

وتستفهم كليونيسا قائلة : وكيف يأتي هذا الامتناع بالسلام . فتشرح لها ليزيستراتا الأمر قائلة : إن الحب ليس نقطة الضعف في المرأة وحدها ، ولكنه نقطة الضعف في الرجل كذلك . وما على المرأة إلا أن تنتظر عودة زوجها متزينة بأجمل زينة مبدية كل مفاتنها من غلائلها الشفافة متعطرة بأطيب العطور لتلهب في زوجها نار الرغبة . وحين تضطرم فيه نار الرغبة تمتنع عليه حتى يستسلم لإرادتها ويعقد السلم ويكف عن القتال . إنها مقتنعة بأن هذه الخطة ناجعة . فهذا أمضى سلاح يمكن أن تشهره المرأة في وجه الرجل وترده به إلى صوابه .

ويكثر الجدل بين النسوة . وأخيرًا يقتنعن بالفكرة . ولكن كليونيسا تخشى أن يستعمل الرجال مع نسائهن العنف . وتأمرهن ليزيستراتا أن يقاومن ما استطعن إلى ذلك سبيلا . أما إذا اعتدى عليهن الرجال بالضرب فليرضخن رضوخ الكارهات . وهذا وحده كفيل بأن ينفر الرجال . فالرجال يزهدون في الحب إن لم تشارك فيه النساء بقلوبهن . وتقول لامبيتو متحدثة بلسان نساء الأسبرطيين أعداء أثينا .

لامبيتو : أما نحن الأسبرطيات فلسنا نشك في أننا سنقنع أزواجنا بعقد صلح عادل شريف . ولكن ما العمل مع رعاع الأثينيين . وكيف نشفي هؤلاء القوم من هستيريا الحرب التي تنتابهم ؟

ليزيستراتا : لا تخشى شيئًا . سنتكفل بجعل رجالنا يستمعون لصوت العقل .

لامبيتو : محال أن يستمعوا لصوت العقل وفي حوزتهم سفائنهم العتيدة وتحت يدهم الكنوز المخزونة في معبد أثينا بالأكروبول .

ليزيستّراتا : إننا قد أخذنا لهذا عدته ؛ فى هذا اليوم بالذات سيسقط الأكروبول فى أيدينا ، وقد عهدنا إلى النساء العجائز بالاستيلاء عليه ، وفيما نحن مجتمعون هنا فى هذا المجلس ، تمضى العجائز إليه متظاهرات بتقديم القرابين ، وبهذا يستولين على القلعة .

وبعد أن يطمئن الجميع إلى إحكام الخطة تجمع ليزيستّراتا النساء ليقسمن على احترام هذا العهد الذى قطعنه على أنفسهن . فتأتيهن ليزيستّراتا بدرع ليذبحن فيه شاة وليقسمن عليه ، فتنبهها كليونيسا إلى أن من يطلبن السلام لا يقسمن على أداة من أدوات الحرب . وينتهى أمر النساء إلى الاتفاق ، فتأتى ليزيستّراتا بإناء أسود كبير . وتكون ذبيحتهن قربة من أطيب النبيذ يفرغنها فى الإناء ، وقد امتدت أيديهن إلى الإناء وهن يرددن القسم بعد ليزيستّراتا التى تقول كالمصلية .

ليزيستّراتا : لن أسلم نفسى لأحد ، عاشقًا كان أو زوجًا ولو جاءنى يتقد بالأشواق . وسأعيش فى دارى لا يقربنى رجل ، أرتدى جميل الثياب وألبس غلالة من الحرير الأصفر الشفاف قاصدة أن أذكى فى زوجى نار الغرام ، ولن أستسلم له راضية . . . فإن بررت بقسمى كافأتنى الآلهة بجرعة من هذا النبيذ أما إن حنثت به فلتمتلئ كئوسى بالماء .

وبعد أن يفرغن من القسم يدور عليهن إناء النبيذ فتشرب كل حتى ترتوى . و يأتى النبأ بأن النساء العجائز قد استولين على الأكروبول . فتودع ليزيستّراتا لامبيتو الأسبرطية ، فهى تعود إلى أسبرطة لتتولى تنظيم هذه الحركة بين نسائها .

وتنتقل ليزيستّراتا على رأس النساء إلى الأكروبول ويعسكرن فيه وقد أخذن أهبتهن للدفاع عنه إذا جاءهن مهاجم . وتأتى جماعة من الرجال العجائز وهم يحملون الأخشاب ليوقدوا النار تحية للربة أثينا ، فيجد هؤلاء الرجال العجائز النساء تحرس أبواب الأكروبول وتنهاهم عن دخوله .

ويعجب الشيوخ لما يرونه ويتحدثون عن تأديب هؤلاء النسوة الفاجرات اللواتى يثرن على كل التقاليد ويجترئن على محراب الربة أثينا فيستولين عليه . ويوقد الشيوخ نارهم ، وهم يصيحون أنهم يخفون إلى إغاثة الربة أثينا ، فلا يخرج من نارهم لهب كثير وإنما يخرج دخان كثير يدخل فى عيونهم فيوجعها . ويجتمع كوراس

الشيوخ حول النار ولا يزالون ينفخون فى الأخشاب حتى ترعى فيها النار ، وهم يقصدون أن يهاجموا جمع النساء ويقذفوهن بالألواح المحترقة ليجلوهن عن الأكروبول .

ويصلى الشيوخ إلى الربة أثينا سائلين النصر على النساء الوقحات المتمردات اللائى اغتصبن محرابها . راجين أن تذكى الربة أثينا نارهم فيحرقوا بها النساء . فيجيبهم كوراس النساء قائلات : « ردى كيدهم أيتها الربة . وبإذنك اجعلينى أرى أثينا وبلاد الإغريق كلها تشفى من هوس الحرب الذى يسيطر عليهم . فإنما أخذت النساء محرابك ، أى أثينا يا حامية مدينتنا وياذات الدرع الذهبى ، لتحقيق هذه الغاية . فكونى صديقة النساء وحليفهن . يا أثينا . وإذا ألقى علينا رجل من الرجال أخشابه المشتعلة . فأعينينا على إطفائها بما نحمل من ماء » .

وتخف النساء إلى الينبوع يملأن منه جرار الماء . ويقبل الشيوخ على نيرانهم يذكونها . وتتشاتم النساء والشيوخ . فيصيح قائد الشيوخ : « أيتها النساء . اللعينات فتصيح به قائدة النساء : « وأنتم أيها الأحياء الأموات . ماذا أنتم فاعلون بالنار فى هذا المكان » . ويهم الشيوخ بالنساء فتدلق النساء عليهم جرار الماء وتغرقنهم به وتطفئن نارهم . ويصرخ الشيوخ مستجيرين « كفى ! كفى » ! وهم يرتعشون من البلل .

ويقبل ضابط أثينى ومعه أربعة من جنوده القوقازيين الأشداء . بعد أن تختفى النساء وراء الباب ويغلقنه بالمزلاج . ويسمع الضابط شكوى الشيوخ فيثور ويقرر أن يحطم الباب ويقتحم الأكروبول ويجلى عنه النساء . ويهيب برجاله أن يأتوه بعتلة وروافع وتسمع ليزيستراتا كلامه فتفتح الباب فى هدوء قائلة إنهم ليسوا بحاجة إلى عتلة وروافع بل إلى شىء من المنطق . وما أن يراها الضابط حتى يأمر رجاله بالقبض عليها . فتتوعده ليزيستراتا بسوء المآل إن هو مسها . ويتقدم جندى من جنوده القوقازيين الأشداء ليقبض على ليزيستراتا . ولكنه سرعان ما يرتد خائفاً إزاء تهديد كليونيسا . . ثم يتقدم الثانى فتتوعده ميرينيه والشرر يتوقد فى عينيها . فيرتد خائفاً . وهكذا الثالث وهكذا الرابع . ولا يجد الضابط حيلة يشتت بها النساء إلا أن يجمع رجاله من حوله ويحمل بهم على

صفوف النساء كأنه يخوض معركة . ولكن الضابط ورجاله يرتدون سريعاً طالبين السلامة بعد أن توسعهم النساء ضرباً ولكماً وصوت ليزيستراتا يرعد فى أذنه : « لقد ظننتنا جماعة من رقيق النساء . . . لقد كنت تجهل معنى الحمية التى تعرفها النساء الأحرار » . وهنا يسألها الضابط :

الضابط : سؤالى الأول هو : لم أغلقتم أبواب الأكروبول ؟

ليزيستراتا : لنستولى على الخزانة : فإذا انقطع المال توقفت الحرب .

الضابط : إذن فالمال هو سبب الحرب ؟

ليزيستراتا : وسبب كل المصائب. انظر : إلى بيساندر وإلى كل المهيجين . إنهم لم يشعلوا الثورة بعد الثورة إلا ليجدوا وسيلة للنهب! ولكنهم لن يحصلوا منا على درهم واحد .

الضابط : وماذا اعتزمتن أن تفعلن ؟

ليزيستراتا : أتسألنى هذا السؤال ؟ اعتزمنا طبعاً أن ندير الخزانة بأنفسنا .

الضابط : أأنتن تدرن الخزانة ؟

ليزيستراتا : وما موضن العجب فى هذا ؟ نحن ندبر ميزانية البيت ؟

الضابط : ولكن هذا شىء آخر .

ليزيستراتا : وأى فرق بين هذا وذاك ؟

الضابط : إن الخزانة تمول الحرب .

ليزيستراتا : وهذا أول مبدأ من مبادئنا : إلغاء الحرب!

الضابط : ما هذا الكلام ؟ وسلامة المدينة ؟

ليزيستراتا : نحن نتكفل بسلامة المدينة .

الضابط : أنتن ؟

ليزيستراتا : نعم . نحن !

الضابط : إذن أبشرى بطول سلامة يا أثينا !

ليزيستراتا : نحن سننقذك . سواء رغبت أم كرهت . . . نعم أنت ستنقذ ياصديقى الطيب .

الضابط : ولكنى لا أريد أن أنقذ !

ليزيستراتا : هذا سبب أدعى لإنقاذك .

ويشتد غضب الضابط فيزأر فى وجه ليزيستراتا قائلا : « أية فكرة جنونية هذه أن تشغلن أنفسكن بشئون السلم والحرب» ! فتجيبه ليزيستراتا فى حزم قائلة : إن نساء اليونان قد صبرن طويلا على تصرفات الرجال دون أن ترتفع لهن شكوى أو يسمع لهن أحد أنينًا . وفى كل بيت كان كل الرجال يجتمعون ويتجادلون فى السياسة ، والنساء صامتات لا يفتحن أفواههن . فإن فتحت إحداهن فاها سمعت زوجها يقول : اخرسى أيتها الحمقاء ، أو أرجوك أن تسكتى ، فإن اجترأت على الحديث رفع يده متوعدًا أن يلطمها صائحًا إن الحرب من شئون الرجال . ولكن الكيل، كيل النساء ، قد طفح فبالأمس مشى المنادى ينادى فى شوارع أثينا قائلا : « هل بقى بالمدينة رجال ! » وتبين أن أثينا غدت خلوًا من الرجال . وهنا استقر عزم النساء على أن يتحدوا لإنقاذ اليونان من هذا الجنون المطبق . فإذا رضى الرجال بأن ينتصحوا بنصحهن فلقد تسير الأمور على ما يرام .

ويقول الضابط ساخرًا إنه يؤثر الموت على الاستماع لذات خمار ! ثم يصيح غاضبًا .

الضابط : أليس هذا جريمة وعارًا أن نبصر هؤلاء النسوة يصرفن شئون الدولة وهن لا يحملن شيئًا من أعباء الحرب ولا يعرفن من فنونها شيئًا ؟

فتنفجر فيه ليزيستراتا قائلة :

ليزيستراتا : أى قول هذا أيها البائس ! بل قل إننا نحمل العبء الأكبر من دون الرجال . فأولاً نحن نلد الأبناء الذين يخرجون من أثينا للقتال .

الضابط : كفى ما قلته . ولا تفتحى باب الذكريات الحزينة !

ليزيستراتا : وثانيًا . بدلا من أن ننعم بأطايب الحب ونستمتع بشبابنا وجمالنا . نحن نتخلف بعيدًا عن أزواجنا ونذبل فى وحدتنا . ولكن كفى حديثًا عن أنفسنا . وإنما تتفطر قلوبنا حين نرى بناتنا يتقدمن فى العمر فى هذه الوحدة الحزينة .

الضابط : ألا يتقدم الرجال فى العمر كذلك ؟

ليزيستراتا : نعم . ولكن أمرهم مختلف ؛ فالجندى حين يعود من الحروب

سرعان ما يجد لنفسه زوجة شابة مهما كسا المشيب رأسه . أما المرأة فليس لها إلا ربيع واحد ، وإذا لم توفق فى شبابها غدت عانساً لا يلتفت إليها الرجال . وقضت بقية حياتها تزور الأولياء الذين لا يرسلون إليها زوجاً .

ويعلو صخب الشيوخ ويتصايحون : « الطغيان ! الطغيان ! طغيان أفظع من طغيان هيبياس » . إن الشيوخ يقدرون أن النساء يستولين على الحكم ليقمن حكومة النساء . فإذا نجحن فى مسعاهن حكمت نساء أثينا رجالها . وعندئذ يكون طغيان أفظع من طغيان هيبياس . أما زعيم الشيوخ فيقول إنه لن يرضى بهذا الطغيان أبداً ، والموت أحب إليه من الاستسلام لحكم النساء . إنه يحمل بين طيات ردائه خنجراً ، وهو يعرف كيف يجهز به على نفسه فى الميدان العام إذا حكمت أثينا النساء فيموت شهيد الحرية ! وتتوعد النساء الشيوخ بالشباشب إن لم يخلدوا إلى الصمت ويكفوا عن الثرثرة . ولكن الشيوخ يمضون فى صياحهم المفزوع . فهم يعلمون أن جرأة النساء لا تحد بحدود ، ولو ترك لهن الحبل على الغارب ، فغداً يبنين الأساطيل ويحاربن فى البحر شأن الرجال ويركبن الخيل ويتفوقن على الرجال فى فنون الفروسية والقتال كما فعلت النساء الأمازونات من قبل برجال اليونان .

ولكن ليزيسترّاتا تترك الشيوخ وشأنهم فقد اكتشفت أن بين صفوفها تسرى « الخيانة » ، ولا بد من قبضة حازمة ليجرى كل شىء فى مجراه . فهذه امرأة تحاول أن تتسلل خفية من الأكروبول عن طريق الباب الخلفى وقد تدلت بحبل قاصدة العودة إلى بيتها حيث ينتظرها زوجها العائد من الميدان . وحين تضبطها ليزيسترّاتا تعتذر بأنها إنما أرادت أن تنقّى صوفها ثم تعود على الفور إلى الجماعة وهذه أخرى تحاول أن تهرب بحجة نشر كتانها وثالثة تستأذن ليزيسترّاتا فى الانصراف لأنها حامل وسيأتيها المخاض عما قريب . وتتعجب ليزيسترّاتا لها فهى تعلم أنها فى الأمس لم تكن حبلى ، وتتحسس بطنها فتجد أنها قد نفخت نفسها بخوذة الربة أثينا ! وهذه رابعة تقول إنها لا تستطيع النوم فى الأكروبول بعد أن رأت الحية المنحوتة التى تحرس المعبد ! وهذه خامسة تشكو من نعيق البوم وتطلب الانصراف .

وتنهرهن ليزيستراتا على خداعهن . وتقوى من عزائمهن قائلة إن المعركة معركة صبر وإرادة . فلا شك أن أزواجهن يشتاقون إليهن بمثل مايشتقن هن لأزواجهن ولكن النصر سيكون حليف من صابر وكابد .

ويبدو على منحدر الأكروبول رجل فيمشى الاضطراب فى صفوف النساء . وبعد قليل يتبين أنه سينسياس زوج ميرينيه الذى عاد من الوغى مشوقاً إلى أحضان زوجته . وتجد ليزيستراتا أن الفرصة مهيأة للبدء فى تحطيم معنويات الرجال فتنصح ميرينيه قائلة : « هيا إلى العمل يا ميرينيه ! فلتكن مهمتك إلهابه وتعذيبه فجربى معه كل ما تعرفين من فنون النساء من إغراء وملاطفة واستشاطة ثم إعراض : أعطيه كل ما يطلب إلا ما حرمه عليه القسم الذى أقسمت حول إناء النبيذ » .

وتخلى النسوة المجال لينفرد سينسياس بزوجته ميرينيه .

ويشكو سينسياس لميرينيه حبه المتقد وعذاب الفراق ويطلب إليها أن تقترب منه فتعرض عنه فى ازدراء قائلة : إنه لا يريدها ويسترسل سينسياس فى نجوى غرامه مؤكداً لها حبه متوسلا إليها ألا تستمع للنساء المخرفات المعتصمات فى الأكروبول وأن تعود معه إلى دارهما حيث يقيمان شعائر أفروديت . فيكون جوابها الصريح « لن أفعل ذلك حتى توقع معاهدة عادلة تضع حداً للحرب » . فيقول سينسياس : « ما دمت حريصة على هذا كل الحرص . فسنوقع هذه المعاهدة التى تطلبينها » . فتجيبه قائلة : « جميل ! وحين توقع المعاهدة سأعود إلى البيت . أما قبل ذلك فإنى مقيدة بقسمى . » فيذهب سينسياس يحدثها عن غرامه بها وشوقه إليها . وتذهب ميرينيه تحدثه عن السلام ووجوب التصويت فى الجمعية ضد الحرب فتستخلص منه الوعود ولا يستخلص هو منها شيئاً أكثر من الوعود . وتتركه أسوأ حالا مما جاء . وقد جعله الحب يهذى كالمجنون . فينطلق من حيث جاء وهو لا حديث له إلا الحب والسلام .

ويأتى رسول من أسبرطة حاملا رسائل يقول إنها موجهة إلى مجلس الشيوخ وأنها تعرض الصلح على رجال أثينا . ويستوقفه الضابط الذى يشتبه فى اضطرابه . فيعلم منه أن أسبرطة وحلفاءها قد غدوا فى أسوأ حال . منذ أن كتلت

لامبيتو نساءها وعبأتهن ليقاطعن رجالهن حتى يبرم الصلح بين أسبرطة وأثينا . وهنا يقول الضابط : « الآن أرى أن المؤامرة عامة تشمل كل بلاد اليونان . هيا عد إلى أسبرطة واطلب إليهم أن يوفدوا إلينا وفداً مفوضاً لعقد الصلح . وسوف أطلب أنا إلى مجلس شيوخنا أن يعين من بيننا وفداً » .

وبعد قليل يصل وفد من أسبرطة ووفد من لاكونيا . فيبحث الضابط عن ليزيستراتا فهي خير من يساعدهم على الوصول إلى شرط الصلح . وتخرج إليهم ليزيستراتا من الأكروبول . ويناشدها كوراس الشيوخ قائلاً : « لك التحيات يا أشجع النساء ! لقد جاء الأوان لتظهرى قدرتك على التوفيق دون تفريط . فتشتدى حين تلزم الشدة وتلينى حين يلزم اللين وتجمعى بين كبرياء المتعالى وتواضع المتواضع . هيا استحضرى كل ما تملكين من حذق وفن . فقد مثل أمامك أقطاب اليونان بقوة سحرك وتراضوا على أن يعهدوا إليك بإنهاء ما بينهم من إحن . » فتجيبه ليزيستراتا هازئة :

« ولن يكون هذا أمراً عسيراً إذا كف الرجال عن الاستعاضة بالرجال عن النساء فإذا كانت حالهم قد استقامت فلن يخفى ذلك علينا . أين ربة السلام الوديعة ؟ إلينا بوفد لاكونيا . إلينا بوفد أثينا ... والآن اصغوا لى جميعاً : ما أنا إلا امرأة . ومع ذلك فعندى المنطق الراجح . فالطبيعة قد زودتنى بالنظر الثاقب وحسن التمييز بين الأمور . وهى موهبة نميتها بفضل ما علمنيه والدى من تعاليم الحكمة وبفضل ما أخذته عن شيوخ مدينتنا من الفكر الراجح . وأول ما أقوله لكم هو أنى ألومكم جميعاً . فكلكم فى هذا مذنب على قدم المساواة يا آل أثينا ويا آل أسبرطة : فأنتم تعبدون فى أوليمبيا وفى ثرمو بيلاى وفى دلف وفى أماكن أخرى لا تعد ولا تحصى نفس المعبودات التى يشترك فى تقديسها كل أبناء اليونان . وتقيمون فى محاريبها عين الشعائر التى يعرفها جميع اليونان . ومع كل ذلك فإنكم تذبحون بعضكم بعضاً وتدمرون مدن هيلاس . بينما البرابرة يتهددونكم . هذه أول نقطة فى كلامى » .

ثم تلتفت ليزيستراتا إلى وفد أسبرطة وتقول معنفة :

« إنى أخاطبكم يا آل لاكونيا ، فأقول : هل نسيتم كيف جلس ابن

جلدتكم بريكليداس ضارعًا عند محاريبنا ، وكيف بدا شاحب الوجه فى عباءته الأرجوانية ! أنسيتم أنه جاء يرجونا أن نبعث إليه جيشاً من أبناء أثينا ، وكان ذلك يوم هاجمتكم مسينا وضيقت عليكم الخناق ، وكان رب البحر يهز جنبات الأرض . فخرج سيمون لنجدتكم على رأس أربعة آلاف فارس وأنقذ أسبرطة . أبعد هذا الصنيع تدمرون أرض من أحسن إليكم » ؟

ثم تلتفت إلى الأثينيين وتقول :

« والآن هذه كلمتى أسوقها إلى الأثينيين أنسيتم أيام لبستم رداء الذل فجاء الأسبرطيون حاملين السلاح وفتكوا برهط تساليا وأنصار الطاغية هيبياس الذى استعبدكم ؟ لم يقاتل فى صفكم إلا أبناء أسبرطة وحدهم فى ذلك اليوم المشهود ، فحرروكم من ربقة الطغيان ، فالفضل لهم إذا كان شعب أثينا قدخلع عنه رداء العبيد ولبس مكانه رداء الأحرار » .

ويجد الأسبرطيون والأثينيون فى لباقة ليزيستراتا وحصافتها مايرضيهم . فهى لا تنحاز لهؤلاء ضد أولئك . ولا تنحاز لأولئك ضد هؤلاء ، ولكن تعطى كل ذى حق حقه . وأخيرًا تقول ليزايستراتا :

« فإذا كانت كل هذه العرى الكريمة تربطكم . فكيف ترضون بأن يشهر كل سلاحه فى وجه صاحبه . . . كفوا عن هذا القتال البغيض ولتأتلف قلوبكم . فماذا يمنعكم عن الصلح » ؟

ويصيح مندوب أسبرطة قائلا : « نحن على أتم استعداد للصلح إذا ردوا لنا حصننا » .

ليزيستراتا : أى حصن يا صديقى ؟

مندوب أسبرطة : بيلوس التى ما فتئنا نطالب بها منذ زمن طويل .

الضابط الأثينى : أقسم برب البحر ! لن تكون لكم بيلوس !

لبزيستراتا : اتفقوا يا أصدقائى ، اتفقوا .

الضابط الأثينى : ولكن إذا أعطيناهم بيلوس لم نجد مدينة نثير فيها الاضطرابات .

ليزيستراتا : اطلبوا مدينة أخرى مقابلها .

الضابط الأثيني : فهمت الفكرة ! إذن ، أول كل شيء أعطونا أخينوس وخليج ماليا المتصل بها ، وساقى ميجارا .

مندوب أسبرطة : بحق الآلهة ، لن تحصلوا على هذا .

ليزيستراتا : اتفقوا ، اتفقوا ، لا تختلفوا على ساقين !

وكأنما ردهم حديث السيقان إلى التفكير فى نسائهم ، فذهبوا يطلقون الفكاهات على السيقان ، فتردهم ليزيستراتا قائلة : « لن تكون لأحد سيقان إلا إذ أبرم الصلح . . . هيا ، عودوا إلى حلفائكم وتشاوروا معهم فى الأمر . » فيعلن مندوبو أسبرطة ومندوبو أثينا أنهم يعبرون عن رأى حلفائهم الذين لا يقلون عنهم شوقاً إلى السلام ومباهجه الكثيرة .

وهكذا تتفق أثينا وأسبرطة أخيراً بعد صراع دام أعواماً طوالا . وبعد أن يتم الاتفاق تعلن فيهم ليزيستراتا أن نساءهم قد أعددن لهم وليمة عظيمة داخل الأكروبول يأكلون فيها هنيئاً ويشربون فيها مريئاً ، وتأذن لهم ليزيستراتا فى دخول الأكروبول فيجدون زوجاتهم ينتظرنهم بشوق فائض وقلوب سخية . ويغنى كوراس النساء محتفلا بحلول السلام مرحباً بعودة الغائبين قائلا :

« الخز والديباج وأجمل الثياب الفضفاضة الفهفافة ، وحلى الذهب . وكل ما أملك . أهديك إياه بقلب سخى ، فخذها كلها من أجل أطفالك . . . هيا ادخلوا ، فإنى أدعوا كلا منكم للدخول ، وليختر كل منكم ما يهواه فؤاده . فهنا لا أقفال ولا أختام ، وكل عقدة لها حل ، فلا تدخلوا دخول اللصوص الذين يفضون الأختام ويحملون الكنز المكنوز . . . فإن كان بينكم من لا يجد قمحاً يطعم به عبيده وصغاره الكثيرين ، فى دارى من الخير فيض قليل اقتسمه معه ، وليأخذ مما أعطى وفيه خبز كثير ، وليأت جيرانى الفقراء وليملأ كل جعبته مما ادخرت » .

وتقام المأدبة احتفالا بالسلام ، وتجرى فيها الراح أنهاراً ويأكل الجمع من أعناب اليونان الشهية ، ويعزف العازفون بالناى ، بشير السلام والحب الوادع الحلى . ويرقص كوراس الأسبرطيين تحية لأثينا ، ويرقص كوراس الأثينيين تحية لأسبرطة . أما كوراس الأسبرطيين فيغنى قائلا :

« أى ربة الرقص والغناء ، ألهمى هؤلاء الرجال ، وألهمى عرائس وجدانى العارف بأمجاد أسبرطة وبأمجاد أثينا : فلقد انقضوا فى وقعة أرتميسيوم على سفن الميديين انقضاض البواشق فى بسالة من بسالة الآلهة ! وما كان أروع ذلك النصر . فجنود ليونيداس كانوا كالوعول البرية التى تشحذ سنانها . وتصبب العرق على وجوههم فابتلت به ثيابهم ، فلقد كان الفرس حقًّا بلا حصر ولا عدد كأنهم الرمال على شاطئ البحر . أى ارتميس ! يا ملكة الصيد والطراد ! يا من تخترق سهامك وحوش الآجام ، أيتها الربة العذراء ! باركى هذا الصلح الذى نعقد . ولتأتلف بنغمتك قلوبنا طويلا . ولتوثق هذه المعاهدة أواصر الصداقة السعيدة بيننا إلى أبد الآبدين . فلا نعود إلى مكائد الحرب وخدع المحاربين ، فأعيننا على ذلك . أعيننا أيتها العذراء يا ربة الصيد والطراد ! » .

أما كوراس الأثينيين فيجيبهم منشداً :

« يا راقصات اخرجن . فى كنف ربات الجمال ! فلنتوجه جميعًا بالدعاء إلى الربة أرتميس وأخيها الإلهى أبولو الجميل . مولى الرقص . وديونيزوس رب الخمر الذى تقدح عينه شرراً ولهبًا وهو يتقدم تحيط به كوكبة من العذارى الميانيد . ولنتوجه بالدعاء إلى زيوس كبير الأرباب الذى صولجانه من البرق الخاطف . وإلى زوجته الجليلة هيرا . ملكة السماء . عليها السلام ثلاثًا ! أجل فلنتوجه بالدعاء إلى هؤلاء جميعًا . وإلى سائر الآلهة . داعين قطان السماء كلهم ليكونوا شهوداً على هذا الصلح الشريف الذى عقدناه الآن برعاية أفروديت ربة الغرام ! . . . هيا أنشدوا . وارقصوا واقفزوا احتفالا بهذا النصر الذى أحرزناه » .

وهكذا يخيم السلام على اليونان فيكف بنوها عن صيد الرجال فى حومة الحرب إلى صيد الوحوش فى الآجام . كأنما الصيد والطراد فريضة على بنى الإنسان !

السيد . .

الشاعر المسرحي بيير كورناي

ولد كورناي عام ١٦٠٦ وتوفى عام ١٦٨٤ عن ثمان وسبعين سنة . وكان مولده فى مدينة روان بشمال فرنسا لأسرة نورماندية عريقة أكثر أبنائها يشتغل بالقضاء ، وقضى بالريف أكثر حياته أو ستًّا وخمسين سنة على وجه التحديد ، عاشها عيشة هادئة ولم يكن يزور باريس إلا بين الفينة والفينة ليلتقى بالفنانين والكتاب . ولكنه لم يغش صالونات باريس الأدبية قط .

وكان أكثر نظم كورناى من الشعر المسرحى من لون التراجيديا أو المآسى وأهم ما وضع من هذه المآسى مأساة « السيد » (١٦٣٦) و « هوراس » (١٦٤٠) و « سينا » (١٦٤٠) و « بوليوكت » (١٦٤٣) و « نيكوميد » (١٦٥١) وهى أسماء كلها من أسماء الأعلام . وكان آخر ما كتبه كورناى للمسرح مسرحية تدعى « برناديت » (١٦٥٢) فشلت فشلا ذريعًا فكف عن الكتابة للمسرح . واعتكف عن الحياة الفنية وظل نحواً من ست سنوات يترجم الشعر الدينى والكنسى . ثم أقنعه بعض أصدقائه أن يخرج من عزلته وينتقل إلى باريس ليكون على مقربة من الأوساط الفنية التى أخذ الشاعر المسرحى الشاب راسين يسيطر عليها بعد أن كان كورناى سيدها .

واضطربت حياة كورناى فى باريس من الناحية المالية لقلة موارده نسبيًّا وكثرت همومه ، فقد تزوجت بناته وتوفى بنوه وعاش فيما يشبه العزلة ولكن أعظم جانب من مأساته كان مرده أفول نجمه فى عالم المسرح بعد أن كان فيه كالثريا الساطعة . فقد تغير الذوق وحلت المدرسة الكلاسيكية محل طريقته فى الإبداع ، وهى طريقة تقف موقفًا وسطًا بين فن عصر النهضة القائم على الخيال والتحرر والعاطفة الصاخبة والتجديد فى كل شيء ، وفن المدرسة الكلاسيكية القائم على

العقل والعاطفة المصقولة واتباع السلف فى كل شىء ! . . .

وقد بلغ من النجاح الذى أصابته مسرحية « السيد » عند ظهورها أن تألب على كورناى جميع كتاب المسرح فى فرنسا بغية تحطيمه واشترك معهم فى ذلك الكاردينال ريشليو نفسه الذى كان مؤلفاً فاشلا يكتب للمسرح فى أوقات فراغه . وقد أوعز ريشليو إلى الأكاديمية الفرنسية أن تجرح عمل كورناى ، ولكن جمهور المسرح لم يعبأ برأى ريشليو ولا برأى الأكاديمية بل ذهب يتغنى بجمال مسرحية « السيد » . . .

ويمكن تنويهاً بمقام كورناى فى الأدب أن نقول إنه واضع أساس المسرح الفرنسى بالمعنى الجاد لهذه الكلمة ، وأعظم كاتب للمسرح فى فرنسا قبل راسين . . .

* * *

والسيد قصة صراع بين الحب والواجب أو الشرف احتدم فى صدر امرأة فجعلها نهباً للعواطف المتضاربة لا يستقر لها قرار تحب أبغض شىء إلى قلبها وتبغض أحب شىء فى فؤادها . ولا تجد مخرجاً من هذا الجحيم الذى تعيش فيه إلا أن تعتزل العالم فترة من الزمن .

ولبعض أشخاص هذه القصة وجود تاريخى كما أن الحادث الذى تدور عليه المأساة جرت فيه الروايات القديمة جرى الأساطير . فالملك الذى تجرى وقائع هذه المأساة فى بلاطه هو الملك فرديناند الأول أو فرديناند الكبير ملك كاستيل . وهى ولاية من ولايات إسبانيا اشتهر رجالها بالعواطف الصاخبة والخيال الملتهب وقد مات هذا الملك عام ١٠٧٥ ميلادية . واسمه فى هذه المسرحية دون فرنان . أول ملك لولاية كاستيل هذه ولهذا الملك ولية عهد أو انفانتا كما يسميها الإسبان . واسم هذه الانفانتا . دونا أوراك .

أما الفترة التاريخية التى جرت فيها هذه الوقائع فهى تلك الأيام التى نهض فيها الإسبان ليقاوموا حكم العرب ويقصوهم عن ديارهم بعد أن ظل العرب سادة الأندلس قروناً عديدة . وقد برز فى البطولة فارس شاب من أهل كاستيل بالأندلس يدعى دون روديريجو (لذريق) ولد نبيل من نبلاء البلاد يدعى دون

دييجو ، وطار صيت فروسيته ، حتى لقبه الجميع « بالسيد » ، وهى كلمة عربية جرت على لسان الإسبان تحمل معنى الشرف والفروسية والإمارة . ولكن الفتى رودريج هذا رغم بطولته هذه وتفوقه فى القتال والتفاف قلوب الإسبان من حوله كان فتى شقياً يحمل فى قلبه غراماً بائساً فقد علق قلبه بفاتنة من بنات النبلاء تدعى كيمين ، كان أبوها وهو الكونت جوميز من رجال الحاشية مقرباً إلى الملك فرناندو . وكانت كيمين الجميلة تحب رودريج الباسل كما كان الباسل رودريج يحب الجميلة كيمين . وقد تقدم لخطبة كيمين شابان فى وقت واحد هما دون رودريج ودون سانكو الذى كان ينافس رودريج فى حب كيمين . ولم تتأمل كيمين طويلا فى صفحة قلبها لتقرأ فيها أن رودريج هو فتى أحلامها . رغم أنه كان حديث العهد بالفروسية لم تعجم بعد المعارك عوده أو تظهر صلابته لمواطنيه .

ولكن القلب يغالب نفسه . فالتقاليد فى تلك الأيام كانت تنهى الفتاة عن إظهار شىء مما يعتمل فى صدرها والكشف عن هواها أين يميل حتى يأذن لها أبوها فى ذلك . بل حتى يقول أبوها قولته ويدلى برأيه فيمن ينبغى عليها أن تختاره زوجاً .

وهكذا تقف كيمين معلقة بين هذين العاشقين . بين رودريج وسانكو . تنتظر قرار أبيها الكونت جوميز : كل منهما يخطب ودها ولكنها لا تبوح بشىء . وتصارح كيمين مربيتها الفيرا بحقيقة شعورها . فتطمئنها الفيرا بأن أباها الكونت يقر اختيارها دون رودريج . إن المربية تعرف كل شىء عن هواها . ولكنها فى كل حديث لها مع الكونت قد صورت له قلب كيمين خالياً من كل هوى . فهى لا تحيي الأمل فى قلب هذا ولا تقتله فى قلب ذلك ، وهى توزع بينهما نظراتها وكلماتها بالعدل وهى تنتظر أمر أبيها بأن تختار من بينهما زوجاً » .

ويسر الأب بعفة ابنته وإدراكها لواجبها حين يسمع كل هذا من مربيتها ، فيصارح المربية برأيه فى الشابين معاً ، إنهما من خيرة شباب كاستيل ، وكلاهما كريم المحتد نبيل الأسلاف . وكلاهما من بيت اشتهر بالفرسان والشجعان وفضائل الحرب والطعان ، وهذه فى رأى الكونت وفى رأى قومه فى ذلك الزمان . رأس كل فضيلة ولكنه يختص بالإيثار دون رودريج رغم تساويهما فى نبالة المحتد ؛ فدون رودريج صورة من أبيه الشيخ دييجو الذى قضى حياته كلها فى حومة

الوغى وبرز فى فنون السيف .

ونعلم أن الانفانتا أو ولية العهد ، ابنة الملك فرناندو ، عاشقة للفتى النبيل رودريج ، وهى تعشقه عشقاً يملك عليها حواسها ، ولكنها رغم ذلك تسحق غرامها فى صدرها وتجالد هواها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . وكيف تأذن الانفانتا ، ولية العهد ، لنفسها بالاسترسال فى حب هذا الفتى وهى تعلم أنه مجرد فارس فى بلاط أبيها الملك ، وإنه حقاً لمن أسرة نبيلة . ولكن أى عزاء فى هذا إذا كانت الشرائع والتقاليد تقول إن الملوك للملوك والنبلاء للنبلاء ؟ إن وريثة عرش كاستيل لا يمكن أن تزف إلا إلى ملك أو أمير يجرى دم الملوك فى عروقه . فلا مناص إذن من أن تطوى الانفانتا غرامها الشقى هذا فى قلبها الحزين . وتكتمه فى أعماق سريرتها بحيث لا تطلع عليه عين إلا عين مربيتها الوفية ليونورا التى تسعد أعظم سعادة حين ترى مولاتها تقدم واجبها نحو عرشها وأسرتها ورعيتها على رغبات القلب وأمنيات الفؤاد.

لهذا نجد أن الانفانتا تمهد بنفسها لزواج فارس أحلامها من كيمين فتزين له حبها وتزين لها حبه عسى أن يتم زواجهما فيقتل اليأس هذا الغرام البائس فى قلب الانفانتا . بل إن الانفانتا تتعجل على كره منها هذا الزواج وتصطبر على هذا المكروه فى شجاعة كلها لوعة وفى لوعة كلها شجاعة .

ولكن الحياة لا تجرى دائماً حسبما ترسم إرادة الإنسان . بل تتكسر كالتيار على الجنادل والصخور .

فالملك فرناندو الذى كان يختار لولده الصغير مؤدباً يعلمه آداب الملوك وفنون السيف وأصول السياسة يتخطى الكونت جوميز . والد الفتاة كيمين . رغم رفعة شأنه بين رجال البلاد . ويقع اختياره على الشيخ دون دييجو . والد الفتى رودريج .

ويثور الكونت جوميز . فهو يعتقد أن فى هذا التكريم للشيخ دييجو حطاً من شأنه هو وافتئاتاً على حقوقه . فهو أولى بتأديب أمير كاستيل الصغير . وتشتد الملاحاة بين الوالدين : فالكونت جوميز يزعم أن الملك قد حابى الشيخ دييجو ، والشيخ دييجو يجيب بأن إرادة الملك تقدير لخدماته للعرش وللبلاد . وتشتد ثورة

الكونت عند ذكر الخدمات التي قدمها الفارس فى سبيل الملك . ويتباهى الرجلان بما أحرزا من انتصارات . وبما قدما من آيات الولاء وبما أتقنا من فنون السيف . ويتطور بينهما الأمر فيلطم الكونت الشيخ دييجو وتكون هذه بداية الكارثة .

فاللطمة فى شريعة النبلاء لا يغسلها إلا الدم . ويستل الفارس الشيخ دييجو سيفه . ويهم بالانقضاض على غريمه الكونت ولكن سرعان ما يتبين له أن الشيخوخة قد فتت فى عضده، فهو لم يعد قادراً كما كان على استخلاص حقه بحد الحسام وينصرف الكونت جوميز عنه بعد أن يشبعه زراية بضعفه وتخاذله .

ويقبل الفارس الفتى دون رودريجو فيجد أباه فى أسوأ حال يرغى ويزبد ويزأر زئير الأسد العجوز الجريح . إن شرف آل دييجو قد لوثته هذه اللطمة التى لا يغسلها إلا الدم . ولا بد من الثأر وإلا عاشت الأسرة فى ذل لا يرتفع لها رأس ولا تقوى لها عين على مجابهة الناس .

ويعرف الفتى رودريجو واجبه لأول وهلة . إذا كان أبوه الشيخ قد أدركه الوهن فذراعه هو ذراع الفتوة وسيفه هو حامى الذمار . نعم . لا بد من الثأر وإلا نكس الرأس إلى أبد الآبدين . وكيف يكون كفؤاً لمحبوبته أو لأية حسناء من حسان الأندلس إذا رضى أن يعيش فى هوان الإهانة ! إن قلبه يتفطر أسى لأن هذا الذى سيخرج ليتحداه ويبارزه هو أبو محبوبته . ولكن لا بد مما ليس منه بد . ثم إن الكونت جوميز مغوار لا يشق له غبار . ما أفلت منه سيف وما سقط عنه درع فلعله يلقى حتفه فى هذه المبارزة وهو الحدث الذى لم يتمرس بعد فى أهوال القتال . وأياً كان الأمر فليكن ما يكون . وليخرج طلباً للثأر الذى به وحده يغسل العار . إنه بين حبه وواجبه يقدم فريضة الواجب على فريضة الغرام .

° ° °

ويتلفت الملك بين رجاله آسفاً على هذا الشقاق الذى سيدمر بلاطه . ويرسل دون آدياس إلى الكونت جوميز يأمره بأن يعتذر لصاحب الحق عما بدر منه حقناً للدماء . والكونت الغضوب يعلم حقاً أنه قد أسلم زمامه للغضب أكثر مما ينبغى

وأنه حقًّا لنادم على ذلك ، ولكن كبرياءه يمنعه من الاعتذار . ثم إن الملك قد أساء إليه باختيار رجل أبعد منه عن عرشه وأقل منه جدارة فى حمل الحسام فيما يعتقد ، والشيخ دييجو قد فاخره وباهاه وأساء إليه بقارس الكلام فى ساعة اللجاج ، فكيف يعتذر بعد كل هذا الذى حدث ؟ نعم إنه يعلم أنه قد أسرف فى خدش شرف دييجو ، ولكن الاعتذار شيمة الضعفاء . وللملك أن يغضب منه كما يشاء ، فهو يعلم أنه منه فى أمان . فلولا سيفه البتار لهوى تاجه . فهو حامى العرش من أعدائه ، والملك أول من يعلم ذلك . إنه لن يطيع للملك أمرًا يخدش كرامته وينكس رأسه فى بلاط كاستيل . لا اعتذار !

ويتحدى الفتى رودريج الكونت جوميز وتكون بينهما مبارزة مشهودة يتحدث عنها كل من فى البلاط ، فما كان بينهم من يعتقد أن هذا الفتى الغض الإهاب الناضر الشباب يمكن أن يصارع أبرع صاحب سيف فى كاستيل ويصرعه .

أما الفتاة البائسة كيمين حبيبة رودريج فهى طوال المبارزة فى لهفة حائرة . وهى موزعة القلب بين أبيها وحبيبها تخشى على حبيبها من أبيها . وتخشى على أبيها من حبيبها . كذلك الانفانتا ولية العهد فى لهفة حائرة لا تقل فظاعة عن لهفة كيمين الحائرة . فهى تعلم أنها خاسرة على الحالين . فلئن سقط رودريج الذى تحب صريعًا فالحياة عندها لا تساوى من بعده خردلة . ولئن نجا رودريج الذى تحب من الموت فهو سائر إلى ذراعى كيمين . وهو مصير أشق على نفسها من الموت .

ويأتى النبأ إلى البلاط بأن رودريج قد جندل بسيفه الكونت جوميز . فتأخذ الدهشة كل من فى البلاط وعلى رأسهم الملك . ولكنهم يأسون لفقد قائدهم المصور فهم يعلمون أن بموته قد هوى أرسخ عمود يرتكز عليه صرح المملكة . ويتطيرون جزعًا على مستقبل دولة كاستيل .

وتهرع كيمين الشقية إلى الملك فرناندو باكية العين مستصرخة قائلة : « يا مولاى ! هذا أبى قد مات وقد جئتك أطالب بالثأر . فالثأر يحفظ لك ولائى ولكنه قبل كل شىء يحفظ لك حقك وخيرك » . لقد سقط عماد التاج ولا ينقذ التاج إلا أن يرعى الحقوق ويقتص للدم بالدم .

ويتقدم الشيخ دييجو صوب الملك ضارعاً إليه أن يعفو عن ولده الذى ما أقدم على ما فعل إلا باسمه فما هذه المعركة التى سقط فيها الكونت جوميز إلا معركة الشيخ دييجو نفسه . ويبسط الشيخ دييجو أمام الملك فرناندو كل مالحقه من إهانة واستفزاز لا لشىء إلا لأن مولاه قد اختاره ليكون مؤدباً للأمير الصغير . وإذاكان ولده رودريج قد عصا الأمر الملكى الذى نهى عن المبارزات بين رجال البلاط . فهو إنما قد وقع بين نارين : واجبه فى طاعة مولاه ، وواجبه فى غسل شرف الأسرة. وقد آثر سبيل الشرف على واجب الطاعة ، وهو ما تقضى به الأصالة والنبالة وتقاليد الفرسان . فإن كان للملك حق فى حياته فليقتص من الشيخ دييجو لا من ولده رودريج ، فإذاكانت الذراع التى قتلت ذراع رودريج فإن الإرادة التى حركتها إنما كانت إرادة الشيخ دييجو .

ويحار الملك فرناندو بين كيمين ابنة قائده المطالبة بحقها فى قصاص الجانى وبين الشيخ دييجو المطالب الذى يطلب أن يفتديه بحياته إذا لزم الأمر ، وأن يموت مرتاح الضمير بعد أن أنقذ ولده شرف أسرته . ولا ينفع مع كيمين كل ما يقوله الملك ليخفف مصابها وما يعدها به من أنه سيكون من بعد أبيها أباً باراً رحيماً. إنها تطلب القصاص بميزان العدل ولو أنها كانت رجلا لطلبت القصاص بسيف الثأر .

ولكن هذه التى تطالب بالقصاص إنما تتمزق نياط قلبها فهى تعلم أن فى موت رودريج موتها ، وهى لا تقدم للسياف إلا صدرها وقلبها هذا الذى يتفطر بين حبها لأبيها وحبها لحبيبها . ولكن سحقاً لهذا القلب المحب إذا كان ينسيها حقوق الآباء فى البنين . وليمت حبيبها وليمت معه قلبها . وليندك صرح الدولة كلها إذا عجزت عن إقامة العدل بين الرعية .

ويستمهل الملك الفتاة كيمين والشيخ دييجو ليتدبر الأمر فى روية .

* * *

ويغتنم سانكو هذا الموقف فيتردد على كيمين الثكلى ، فهو يحبها كما يحبها رودريج ، وإن لم تكن تبادله حباً بحب . ويعرض سانكو على كيمين أن يكون فارسها الذى ينتقم لها ويثأر لموت أبيها قائلا إنه على استعداد ليلاقى المنون فى

سبيلها ، ويحرك سانكو أشجان كيمين ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ولكن كيمين رغم شقائها الفظيع تستمهله قائلة إنها تطلب النصفة أولا من مليكذنا . فإن لم ينصفها مليكها فسوف تلوذ به كحل أخير .

وحين تخلو كيمين بمربيتها الفيرا تجهش فى البكاء . وتولول قائلة : اذرفى الدمع يا عين ، وانهمرى يا عبراتى ! نصف حياتى قد وارى الثرى نصفها الآخر » . إنها لا تزال تحب رودريج رغم ما جنته يده الآثمة . وهى تحس بأن « رودريج ، رغم كل ما يجتاحها من غضب آكل . لا يزال يقاتل أبى فى حنايا فؤادى . فهو يهاجمه ويشدد عليه النكير . ثم هو يتراجع ويدافع عن حياته . وهو آنا قوى . وآنا ضعيف ، وآنا منتصر . وهو فى هذا القتال المرير بين نار الحقد ونار الهوى يمزق قلبى ولكنه لا ينفذ إلى روحى . ورغم سلطان الهوى الذى يستبد بفؤادى لست أتردد لحظة فى أداء واجبى . » وهل واجبها إلا تدمير حبيبها حتى تستقر روح أبيها آمنة فى ثراها ؟ إنها تطلب رأسه . ولكنها تخشى أن تظفر بها . وليس هناك من مخرج إذن من هذا الجحيم الذى تعيش فيه إلا أن تطارده حتى تدمره ثم تدمر نفسها من بعده .

أما القاتل العاشق رودريج ، فهو قد غسل حقًّا شرف أسرته . ولكنه رغم ذلك شقى بما أحرزه من نصر . فحبه لكيمين لا تخف لواعجه . وهو يقصد إليها بدلا من أن يتوارى عن بصرها خجلا مما جنت يداه . فلا تصدق كيمين عينيها حين تراه . فهى ما كانت تظن فيه كل هذا الاجتراء . وتأمره بالانصراف ولكن رودريج يستعطفها أن تستمع إليه برهة . ويذهب يناجيها بكلام يفتت الصخر . نعم إنها تمقته . فالجرم الذى ارتكب أعظم من أن تغتفره كيمين . ولكنه جرم لم يكن عنه محيد لأنه رجل بين الرجال وشرفه لا يقل فى عينيه قيمة عن الحياة ذاتها . وإنه ليمقت نفسه أضعاف ما تمقته حبيبته لأنه رزأها فى أبيها وسبب لها كل هذه الآلام . ولكنه أيضاً يحبها ولا يستطيع الحياة بغيرها . فكيف السبيل ! كيف السبيل .

إنها تعرف السبيل الذى لا سبيل غيره وهى تقول : « نعم . لا بد أن أفقدك بعد أن فقدته . فهذه ضريبة الشرف . والشرف مقدم على الهوى . هذا هو

واجبي البغيض الذى إن أطعته مت كمداً ، وهو يلزمني بالسعى بشخصى إلى تدميرك » إن كان رودريج يحسب أنه وحده الذى يثأر لأبيه ويصون عهد الشرف فهو مخطئ . فهى مثله تثأر لأبيها وتصون عهد الشرف فهما فى هذا صنوان وبالثأر وحده يكون كل منهما كفؤاً لصاحبه . أو لم يعلمه أبوه « إن الحب سعادة ولكن الشرف واجب » والواجب مقدم على السعادة ؟

ويصرح رودريج إلى كيمين أن تفعل ما يمليه الشرف عليها . وإنه ليقدم لها رأسه طائعاً مختاراً ويعطيها سيفه لتجهز به عليه فتثأر هى لأبيها وينجو هو من حياته المعذبة . ولكن كيمين تأبى هذا اللون من الانتقام اليسير ، فهو حين ثأر لأبيه لم يطلب عوناً من أحد . وهى حين تثأر لأبيها لن تطلب من أحد عوناً . وهى لا ترضى لذكرى أبيها أن يلوثها رودريج بغرامه اليائس هذا الذى يجعله يقدم نفسه طائعاً ككبش الفداء . إنها على يقين من شىء واحد : إنها لا تمقته لكنها ستسعى إلى الفتك به وهى تمنى النفس أن يفلت من قبضتها فى موتها موته .

ولكن لأبيه رأياً آخر . فإذا لم يكن من الموت بد فهناك جيوش المغرب . التى تحدق بكاستيل ، وبالليل تصل أساطيل المغاربة مع مد البحر وينزل منها الجند ليدكوا قلاع أشبيلية . وخير أن يموت رودريج فى حومة الوغى من أن يموت طريد العدالة أو شهيد الغرام . ولئن عاد رودريج من القتال مظفراً فلا شك أن الملك سيعفو عنه وينسى الخسارة الفادحة التى خسرها جيشه بموت قائده الكونت جوميز . ولئن عاد رودريج مظفراً فلسوف تصمت كيمين صمتاً أبدياً وتطوى فى صدرها أحزانها . بل لسوف تنسى كل ما كان وترضى به زوجاً .

* * *

ويعود رودريج مظفراً من حومة الوغى وقد توجت جبينه أكاليل الغار . يعود رودريج وقد أسر ملكين من ملوك المغرب عرف عنهما شدة المراس . وقد تفرد بالشجاعة النادرة حتى اعترف له أهل المغرب أنفسهم بالفروسية النادرة ولقبوه بالسيد جزاء له على فروسيته أما بنو قومه فقد رأوا فيه حصنهم الأمين وركنهم الركين .

وحين يبلغ نبأ عودته مسمع كيمين تطرب أول الأمر لعودة من تحب ،

ولكنها لا تلبث أن تثوب إلى رشدها وتذكر أن لأبيها فيه حقًّا لم يؤد . وتحاول مربيتها الفيرا أن تهدئ من روعها ، ولكن هيهات لها أن تثنى كيمين عن رغبتها فى تدميره .

وتقبل عليها الانفانتا ولية العهد بقلب ثقيل تتصارع فيه العواطف .

وتقول كيمين إن رودريج قد أنقذ المدينة حقًّا وخدم ملكه فى ولاء عظيم فكل لسان يلهج بحمده ، ولكنها وحدها شقية بعودة هذا الفارس لأنها تجدد فيها الرغبة فى الثأر منه . وهى لن يقر لها قرار حتى ينفذ فيه القصاص .

أما الانفانتا فقد جاءت لتتشفع لرودريج قائلة إن الملك والشعب ينظران إليه الآن نظرة إلى عماد الدولة . فإن هوى هذا العماد فلن يحمى الدولة شىء من غزوات المغاربة . وتختم الانفانتا ما جاءت فيه بقولها إن لكيمين أن تنصرف عنه بحبها ولكنها ترجوها أن تبقى لهم على حياته من أجل وطنه ولعل فى انصرافها عنه أفظع عقاب له عما جنت يداه .

أما كيمين فهى كالصخر الصلد . إنها تطالب الملك بالقصاص فهذا حق لها فيمن قتل أباها وهى لن تتنزل عن حقها مهما كانت الظروف . فإن كان الملك يرى فى رودريج أنه عماد دولته فليرفض طلبها إذا شاء . أما هى فلن تكف عن المطالبة . فإن رفض الملك طلبها فهو قد أخل بحق مقدس للرعية على الراعى . وهو أن يرعى بينهم الحقوق ويقيم الحدود . وهو أول عماد لملكه الذى لا يضاهيه عماد .

وتمضى كيمين إلى بلاط الملك لتطالب بقصاص رودريج . ويوحى الشيخ دييجو إلى الملك أن كيمين رغم عزمها على الانتقام لأبيها إنما تتمنى أن تنقذه فى الوقت نفسه . ويرى الملك امتحان عواطفها فينبئها بأن هذا الذى جاءت تطلب القصاص منه قد اقتصت منه السماء . فتحسب كيمين أن رودريج قد قتل فى معركة من المعارك ويشحب لونها وتوشك أن تتهافت . فيعود الملك ويطمئنها قائلا إنه حى يرزق وأنه لا يزال يحمل لها الحب الذى كان يحمل . وهنا تتشبث كيمين بحقها فى رأس رودريج . وحين يذكرها الملك بأمجاده وما أسدى للدولة من خدمات . لا تخف غلواؤها فهى لا ترى إلا شيئًا واحدًا . وهو أن القاتل يقتل .

فإن أذن الملك لهذا القاتل أن يذرع أشبيليه حرًّا طليقًا . فهو إذن قد أهدر القانون الذى يحكم به باسم السماء ، وهو إذن يجعل كل شىء مستباحًا فى ملكه للأقوياء ، أما هى فهى لا تملك إلا دموعها التى تتوجه بها إلى عدالة أعلى لا تتحيز لقوى على ضعيف . وأنها الآن لتعد نفسها من أرقاء رودريج أو أسيرة بين أسراه ، فليضمها الملك إذن إلى موكب الأسرى حين يخرج رودريج أمامهم فى عجلته ليعرض أمجاده على أهل المدينة .

ويحاول الملك أن يهدئ من روعها ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلا . وتهيب به كيمين قائلة : « إذا كان مولاها لا يريد أن ينصفها بميزان العدل حتى تجف دموعها . فليأذن لها إذن أن تأخذ من الجانى حقها بقوة السلاح كما يجرى العرف فى شرعة الفروسية التى تحقق لكل معتد عليه أن يطلب منازلة المعتدى . وإنها لتطلب رأس رودريج من كل فرسان البلاط ... فمن قاتل منهم من أجلها وجاءها برأسه وهبته نفسها وكانت له زوجاً . هذه تقاليد الفروسية منذ أقدم العصور . وهى ترجو من مولاها الملك أن يذيع نداءها هذا بين كافة فرسانه .

ولكن الملك يجيب كيمين على ذلك بقوله : إن هذه العادة القديمة تجعل الدولة تفقد زهرة محاربيها . وهو يريد أن يدخر رجاله وعلى رأسهم رودريج لحماية الدولة . ولكن ما دامت كيمين تصر على ممارسة هذا الحق فإنه يرضى أن يحصر النزال فى فارس واحد يتحدى رودريج . ومن انتصر منهما فى النزال كانت له كيمين زوجاً .

وهنا يتقدم دون سانكو قائلاً إنه على استعداد إذا أذن له مولاه الملك أن يكون هذا الفارس المنازل لرودريج . فإن كتب له النصر فيد كيمين هى أعز ما يرجوه فى هذه الحياة . ويسأل الملك كيمين إن كانت ترضى بالفارس سانكو منازلاً عنها فتجيبه بالإيجاب ، ولكنها تجادله فى الزواج من رودريج إن خرج من المعركة منتصراً ، وتطمع فى أن يعفيها من هذه المشقة التى لا ترضى بها نفس أبية . فيداعبها الملك قائلاً : « إنه يعرف ما يكنه قلبها من حب لرودريج وأن قلبها العاشق ليتمنى فى دخيلته أن يخرج رودريج من النزال منتصراً ، ومهما يكن من شىء فهذه شرعة النزال التى يقرها إن قبلتها كان بها ، وإلا فلا .

ويعود رودريج إلى كيمين مودعًا قبل النزال. ويبثها غرامه قائلا إن كان هذا العذاب الذى تنزله كيمين به قد مشى فى نفسه باليأس حتى لقد غدت الحياة لديه شيئًا سقيمًا خلا من كل معنى، وإنه ليحس أنه لن يستطيع أن يحسن القتال، ولسوف يموت شهيد غرامها فما به إلى الحياة حاجة .

وتسخر منه كيمين قائلة : أيخاف مثله الموت أو يخشى من كانت له هذه الأمجاد منازلة فارس لا شأن له مثل سانكو ؟ ولكن رودريج يشرح لها زهده فى الحياة قائلاً : « ما دامت كيمين تطلب له الموت فهو زاهد فى الحياة ليحقق لها ما تتحرق إليه روحها من ثأر لأبيها. ولن يقول الناس إن سانكو هزم رودريج ؛ فالكل يعلم أن رودريج لا يهزمه أحد . ولكن سيعلم الجميع أنه ما قتل رودريج إلا كيمين . نعم سيقولون : « لقد كان يعبد كيمين فعزف عن الحياة لأن حياته تجلب عليه مقتها . وهو قد أسلم نفسه للقضاء القاسى الذى دفع سيدة فؤاده إلى التماس موته . . . وهو قد ضيع حبه ليثأر لشرفه وضيع حياته ليثأر لمولاته . مؤثرًا شرفه على كيمين ومؤثرًا كيمين على الحياة » .

وتترقرق فى عين كيمين عبرة حين تسمع هذا الكلام . وتناشده أن يدافع عن نفسه بذراع ثابتة وجنان ثابت . وتضعف كيمين لحظة وتهيب به أن يقاتل قتالاً باسلاً . . . من أجلها . بل أن يدافع عنها لينقذها من دون سانكو الذى تمجه نفسها ولا تطيق الحياة معه . فإن كان لا يزال على عهد الهوى القديم فليخرج منتصرًا من نزال فيه كيمين جائزة المنتصر .

ويحمر وجه كيمين خجلا وهى تتفوه بهذا الكلام . أما رودريج فتتجدد فى نفسه الآمال ويهتف قائلا : إن كل من أرضعت إسبانيا ومن أرضع المغرب من فوارس لا يستطيعون أن يمسوا شعرة فى رأسه ولو قاتلوه مجتمعين .

كل ذلك والانفانتا نفسها عاشقة رودريج تصلى بنار غرامها ولا يحس بها أحد . فقلبها يحدثها أن تستسلم لحبها الطاغى وأن تنسى شجرتها الملكية التى تحرمها ممن تحب . وحبها يهمس فى صدرها قائلا : إن هذا الفارس المغوار الذى أسر ملكين لا ينقصه تاج الملوك . وهذا البطل الصنديد الذى لقبوه « بالسيد » وهو لقب جد عظيم جدير بها وبأكرم الأميرات والملكات . ولكن الانفانتا تعود

إلى رشدها فتقول : بل خير وأبقى أن يظل كل فى مداره فالقدر الذى شاء أن يعاقبنى قد حفظ زهرة الحب ناضرة حتى فى قلوب الأعداء .

وحين تسمع مربيتها ليونورا هذا الكلام تثبت قلبها قائلة إن ما بين كيمين ورودريج من غرام لم يزعزعه شيء حتى موت أبيها . بل إن كيمين لسعيدة بدون سانكو هذا الذى سينازل فتاها رودريجو . فلو كانت رغبتها جادة فى القضاء عليه لاختارت لنفسها فارسًا أكثر صلابة وخبرة بفنون القتال من دون سانكو . فهى بهذا النزال غير المتكافئ إنما تبرئ ذمتها من واجبها نحو أبيها . وتضمن لحبيبها رودريج نصرًا لا مشقة فيه . فتبدو أمام ضميرها وأمام الناس أنها لم تقصر فى شيء نحو ذكرى أبيها .

وفيما تنتظر كيمين والفيرا نتيجة النزال فى قلق شديد يعود إليها اضطرابها ويمتلئ قلبها إشفاقًا من النهاية أية تكن . فهى تعلم أن موت دون سانكو معناه زواجها من رودريج قاتل أبيها .

ويدخل عليها سانكو حاملا سيف رودريج وهى على هذا الاضطراب الشديد . فتشهق شهقة بائسة . وتصرخ قائلة : « قضى الأمر ! . . . قضى الأمر ! » .

ويتقدم إليها دون سانكو ليضع سيف رودريج تحت قدميها . فتصرخ فى وجهه قائلة: « اغرب عن وجهى أيها القاتل ! يا من قتلت البطل الذى أعبد ! لا شك أنك قتلته غيلة فمثله لا يقهر فى طعان . هيا اغرب عن وجهى ولا تعد فما لك فى قلبى مكان !

وتنطلق كيمين إلى الملك فرناندو ملتاعة باكية مولولة بأنها قد فقدت أباها ومن بعد أبيها حبيبها فهى أشقى امرأة فى الوجود. ولو نفذ فيها حكم الملك وأرغمها على الزواج من هذا القاتل سانكو فهى لن تستطيع للحياة احتمالا . إنها على استعداد لأن تترك لسانكو كل ما تملك على أن يتركها وشأنها .

ولكن الملك يطيب خاطرها قائلا إنها تتوهم أشياء لا وجود لها . فدون سانكو لم يقتل رودريج ولم يقل أبدًا إنه قتله . فرودريج حى يرزق . بل رودريج هو الذى انتصر فى النزال ، وبعد أن أطاح بسيف غريمه دون سانكو وجرده من

سلاحه لم يشأ أن يجهز عليه بل قال إنه لا يريد أن يسفك دم رجل جازف بدمه من أجل كيمين ، وإن كان هذا يترك النصر بينهما معلقاً ، ولما كان الملك قد دعاه لأمر ما ، فقد أوفد رودريج دون سانكو إلى محبوبته ليضع سيف المنتصر عند قدميها فأخطأت كيمين فهم ما كان وخالت أن دون سانكو هو الذى انتصر .

ويسلم سانكو بهزيمته فى الحب والحرب . ويقول الملك إنه لم يبق إلا أن يزف رودريج إلى كيمين .

ويجتمع كل من فى البلاط حول عرش الملك وتأخذ الانفانتا بيد كيمين لتسلمها إلى رودريج فيتخذ منها زوجاً . فإذا كيمين تذرف الدمع السخين وغشت وجهها كآبة . ويحار رودريج فى أمرها ، إذ يدرك أنها لم تنس بعد أباها ولن تنساه ولو جازف بحياته كل يوم من أجلها .

وتعلن كيمين فى هدوء حزين قائلة : إنها حقاً تهوى رودريج وقد فضحت كلماتها هواها الذى كانت تؤثر أن يبقى خبيئاً فى قلبها . وأنها حقاً لتصدع بأمر الملك الذى يأمر فيطاع . وأنها حقاً لتعلم مبلغ ما تكنه من إعجاب بحاميها ومبلغ ما تعلقه عليه من آمال . ولكنها رغم هذا كله تحتكم إلى ضمائرهم جميعاً : متى كان مثل هذا الزواج شيئاً مشروعاً ؟ وهل ينبغى أن تكون هى الأجر الذى تدفعه الدولة لرودريج لقاء دفاعه عنها . وهل يجوز لها أن تتزوج من قاتل أبيها فتغمس يديها فى دم القتيل وتحمل هذا العار الأبدى ؟

أما الملك فيرى أنها له وهو لها . ولو برابطة الروح . حسبما رسمت شرائع الفروسية . وهو مع ذلك لا يتعجل الأمور فيأذن لكيمين أن تؤجل هذا الزواج إلى أجل غير مسمى حتى تجف دموعها . وإلى أن يحين ذلك الحين فعلى رودريج أن يظفر فى المعارك كل يوم بإكليل جديد من الغار .

أندروماك

أو بنت طروادة

للشاعر المسرحى جان راسين

دامت حرب طروادة المشهورة بين الإغريق والطرواديين عشرة أعوام كاملة مريرة جرت فيها الدماء أنهاراً وسقط فيها الأبطال من الجانبين بعد معارك رهيبة اشتركت فيها الآلهة نفسها . وتيتّم الأطفال وترملت النساء بلا عدد يحصى وانتهت هذه الحرب الضروس باستيلاء الإغريق على طروادة .

كل ذلك من أجل هيلانة الإغريقية زوجة منيلاوس الإغريقى التى اختطفها الفتى باديس ابن ملك طروادة وعاد بها إلى عاصمة ملكه . وبعد أن نزل ضيفاً على منيلاوس خانه وفر بزوجته . فاستصرخ منيلاوس أخاه العظيم أجا ممنون ملك الإغريق ، واستصرخ أجا ممنون أمراء الإغريق ونبلاءهم وأبطالهم ورعاياهم الشرفاء . فالتف أبطال اليونان من حول ملكهم أجا ممنون وجهزوا السفن والعتاد وخرجوا تحت إمرته للثأر لشرفهم ولتدمير طروادة واسترداد هيلانة الجميلة التى خلد ذكرها هوميروس فى ملحمته العظيمة « الإلياذة » . . .

وبعد أن قهر الإغريق طروادة وزع ملوكهم وأبطالهم الأسلاب فيما بينهم كل بحسب ما بذل فى الجهاد . وعاد أجا ممنون إلى حاضرة ملكه فى أرجوس وكانت غنيمته كاساندرا بنت ملك طروادة وما أن وطئ أرض بلاده حتى لقى مصرعه بيد زوجته الضارية التى جعلت منه قرباناً لغرامها الآثم وكفارة عن ذنوبه الكثيرة . ولم يبق فى أرجوس من يحكمها بعد أجا ممنون غير ولده الفتى أورست . ولما سقطت طروادة فى يد الإغريق كانت أندروماك أرملة هكتور الذى جندله أخيل أبو بيروس من نصيب بيروس فى الغنيمة ومع أندروماك ولدها الصغير الذى عاش معها أخيراً فى قصر بيروس . واستولى بيروس على ملك هكتور

كما استولى على زوجه وولده فحكم مكانه فى أبير ، وعاش فى قصره . وهيلانة ؟ كانت لها بنت من منيلاوس الإغريقى تدعى هرميون ، اتفقت كلمة اليونان على تزويجها من بيروس ولد آخيل ، وخطبت له وأوفدها أبوها منيلاوس إلى قصر بيروس فى أبير فى حاشية عظيمة ليستطلع أمر هذا الفتى العجيب الذى أعطى الكلمة والعهد بالزواج ولكنه ما لبث يسوف ويماطل حتى ضج منيلاوس ورجاله . وبدأوا يستشعرون أن فى الأمر ما يهدر كرامتهم وكانت هرميون لبيروس عاشقة لا تطيق الحياة بغيره فلا عجب أن نزلت فى بلاطه والقلق يملأ فؤادها وصدرها يزخر بالأمانى والمخاوف . فما لبثت أن وقفت على حقيقة أليمة جعلت من عرسها المرتقب وليمة تسيل فيها مكان الخمر الدماء .

ولم تكن هرميون وحدها التى نزلت ببلاط بيروس فقد جاء إلى قصر بيروس ولد آخيل الفتى أورست ولد أجا ممنون على رأس وفد عظيم من نبلاء اليونان وأشرافهم . جاء يطلب إلى بيروس تسليم الغلام الطروادى الصغير ابن أندروماك من البطل هكتور الذى ذبح أبناء الإغريق فى رباع طروادة جماعات ويتم أطفالهم ورمل نساءهم بل وفتك بأعظم بطل من بينهم وهو آخيل أبو بيروس نفسه . فالإغريق غاضبون ينادون بالقصاص ويطالبون بتسليم هذا الغلام ليقدموه قربانًا للآلهة . فهذا الغلام صورة أبيه هكتور ولو قدر له أن يعيش ويكبر لاجتمع الطرواديون من حوله كما كانوا يجتمعون حول أبيه البطل ولثأروا لمدينتهم الخربة ولأبطالهم الصرعى وهم كثيرون . والإغريق لا يفهمون كيف يبسط بيروس حمايته على هذا الغلام الذى قتل أبوه أباه . وولد هكتور يعيش كأمه فى الأسر حتمًا . ولكن الأسر لا يكفى . بل لا بد من قتله حتى يقتص الإغريق لقتلاهم ويطيحوا بآخر أمل عند بنى طروادة .

وأورست إذ يحمل هذه الرسالة إلى بيروس وينتظر رده . إنما يحمل فى فؤاده عبئًا أثقل من كل عبء . ألا وهو غرامه بالفتاة هرميون بنت هيلانة الجميلة والملك منيلاوس وهو شقى بهذا الحب لأنه يعلم أن هرميون ما سعت إلى أبير إلا لتزف إلى بيروس . وليس له من أمل فى الحياة إلا أن تبادله هرميون حبًا

بحب ، وأن تعدل عن هذا الزواج وتعود معه إلى أرجوس حيث يتوجها ملكة على قلبه ويجلسها على عرش بلاده .

ولكن القلوب تضمر المنى وتصاريف القدر تجرى بغير ما تشتهى القلوب .

* * *

ونرى الفتى أوريست فى قاعة من قاعات القصر الملكى فى أبير حيث يحكم بيروس يناجى صديقه الوفى بيلاد الذى يتبعه كظله فى السراء والضراء ويخفف عنه أشجانه ويعينه على كل مكروه يحيق به . وأوريست يقول إن قلبه يتوجس خيفة من تصاريف القدر ومما يخبئه القضاء . فقلبه العاشق يقوده إلىهرميون القاسية الفؤاد . وهو شقى بهذا الحب لأنه يعلم أن منيلاوس قد وعد بيروس المنتقم للاغريق يد ابنته الجميلة هرميون جزاء له على جهاده فى سبيل استرداد أمها هيلانة . وقلب أوريست يحدثه بأن هرميون مدلهة بحب بيروس . وهو مع ذلك يعيش بأمل عظيم . وهو أن يكون بيروس نفسه غير مقبل على هذا الزواج المرتب . فالشائعات تجرى بأنه عاشق لأندروماك بنت طروادة ، وأنه يبسط حمايته على ابنها الغلام استياناكس الذى استطاعت أندروماك أن تنقذه من الموت بأن سلمت للإغريق غلاماً آخر يشبهه ليقتلوه حاسبين أنه ولدها ولكن الأمر قد افتضح . وها هم الإغريق قد أوفدوا أوريست إلى بلاط بيروس ليسلمهم الغلام استياناكس . فيا ليت أوريست يعود إلى بلاده بهرميون بدلا من أن يعود إليها بهذا الغلام الذى يطالب الإغريق برأسه .

أما بيلاد فيقول إن غرام بيروس بأندروماك لا شك فيه ، ولكن أرملة هكتور لا تبادله حباً بحب بل تبادله حباً بمقت شديد عاصف ضار ، فهى لا تنسى أن بيروس هو قاتل زوجها ، وهى حقاً أسيرة فى قصره ، ولكنها تقصيه عنها كلما بثها غرامه وعرض عليها الزواج غير مبالية بغضبه . وهرميون المحبة لبيروس ترى كل ذلك وتتظاهر بازدراء هذا السلوك العجيب الذى يجعل بطلا من أبطال اليونان يدله بحب أرملة قاتل أبيه . ولكنها تبكى فى الخفاء وتندب حظها العاثر الذى جعلها تهوى من لا يكترث لها . وهى فى كل يوم معلقة بين الرحيل والبقاء ،

تتأهب كل صباح للرحيل عن بلاط هذا الملك الغادر بعهدها ، ولكنها رغم ذلك تبقى على أمل جديد .

ويلتقى أوريست ببيروس ليعلنه بما جاء من أجله قائلا : « اسمح لى يا سيدى قبل أن يحدثك لسانى بما اجتمعت عليه كلمة الإغريق ، أن أباهى أمامك باختيارهم إياى وأن أعرب عن اغتباطى برؤية ولد أخيل ، قاهر طروادة . نعم . نحن نعجب ببطولة أبيك ، ولكننا نقدر بطولتك أيضاً يا بيروس . فلئن كان هكتور قد سقط تحت قبضته فلقد سقطت طروادة فى قبضتك . . . » ولكن الإغريق كلها فى حزن عظيم لأن بيروس قد نسى ما فعله هكتور بهم . فاسم هكتور لا يذكر أمام أىّ امرأة فى أية رقعة ببلاد اليونان إلا وسقطت مغشياً عليها . فهو الذى سلب نساء اليونان أزواجهن وأباءهن وأبناءهن . فكيف بعد كل هذا الذى حدث يتحدى بيروس شعور بنى قومه ويؤوى الغلام استياناكس ولد هكتور لا بد إذن من تسليم هذا الغلام ليقتص منه شعب اليونان .

فيجيب بيروس قائلا إنه لعاجب أشد العجب أن يضطرب اليونان كل هذا الاضطراب العظيم من أجل طفل بلا حول ولا قوة . وأن يوفدوا ولد أجا ممنون الكبير نفسه رسولا إليه فى هذا المسعى الذى لا يليق بشعب اليونان . وإن ما أنزله اليونان بطروادة وبنيها من عذاب أليم لفيه الكفاية . فكاساندرا بنت ملك طروادة قد لقيت حتفها فى أرجوس مع وليها أجا ممنون . وهكوبا تعيش فى ذل فظيع مع البطل أوليس الذى سباها . وأندروماك تحيا مع ولدها فى كنفه أسيرة مهيضة الجناح . فليبحث الإغريق إذن عن فريسة أخرى غير هذا الغلام البرىء المسكين . وبيروس لن يسلم الصغير استياناكس إلى هؤلاء العطشى للدماء .

وعبثًا يحاول أوريست إقناع بيروس بتسليم الغلام . فهو يقول إن اليونان لا تطلب الغلام ولكنها تطلب أباه هكتور فى شخصه . وأنها لن تنسى ما أنزله بها هكتور من الأم حتى يدمر ولده . وإنها لمطاردته أينما كان حتى الموت ولكن بيروس يتحداه قائلا إنه سيدافع عن الغلام ، ولو حاصرت اليونان أبير كما حاصرت طروادة من قبل . وحين ييأس أوريست من إقناع بيروس بتهمة أنه فتى ثائر

على قومه ، وأنه لولا توسط هرميون لدى أبيها مينلاوس لأدبه منيلاوس تأديباً ولكن بيروس لا يحفل بهذه الغلظة في الكلام ، قائلا إنه لن يكون عبداً لأبي هرميون وليعد أوريست بجوابه إلى اليونان ، وهو الرفض . وهو يستطيع أن يبلغ هرميون نفسها بهذا القرار . فلينطلق إليها أوريست وينهى إليها ما كان بينهما من حديث .

وبيروس يعلم أن أوريست عاشق لهرميون ، فهو يأمل بهذا أن تيأس هرميون من حبه لها وترحل عن بلاطه إلى ذويها مع هذا العاشق المتيم في هواها .

ويعلم بيروس أن أندروماك تبحث عنه فيخف إليها بقلب مشغوف ، فإذا بها قد سعت إلى ولدها لتقبله وتبكي إلى جواره كعادتها كل يوم فلم تجده . إن هذا الغلام هو كل ما بقي لها من زوجها هكتور ومن طروادة وهي لا تطيق أن تحرم من رؤيته . ولكن بيروس يبلغها أن حقد الإغريق على فكتور لم ينطفئ بعد فهم قد أرسلوا إليه طالبين أن يسلمهم ولد هكتور ليفتكوا به ، ويطمئن قلب أندروماك حين تعلم ما كان من إباء بيروس أن يسلمهم الغلام رغم التهديد والوعيد . ولكن بيروس يغتنم هذه الفرصة ليطارح أندروماك هواه . فهو قد شق عصا الطاعة على قومه من أجلها ، وعرض نفسه لمقتهم وعدوانهم ولا أمل له إلا أن تبسم له حبيبته القاسية أندروماك وأن ترضى به زوجاً ، فتؤنبه أندروماك قائلة :

« ماذا ألم بك يا سيدى ! وماذا تقول اليونان ! أيمكن لمثل هذا القلب الكبير أن يبدى مثل هذا الضعف الشديد » ؟ إنه يسلك طريق النبل والشهامة ، فكيف يفسد هذا النبل بنزوات القلب ؟ وكيف يطمع في حب أندروماك وهي الأثيرة في قيده إلى يوم الممات . لقد كانت تنتظر منه أن يحترم أحزانها وأن يتركها لشقائها فلا يثقل عليها بأحاديث الصبابة والغرام . إن بيروس يقول إنه على استعداد لأن يحمل السلاح في وجه قومه مرضاة لها بل وأن يعيد لها ولولدها مجد طروادة القديم لو رضيت به بعلا ، ولكن طروادة وأمجادها والحب وأفراحه ، كل هذه قد غدت في فؤادها الميت أطيافاً خاوية لا تهز مشاعرها . إن كل ما بقي لها في هذه الحياة

هو ذكرى زوجها هكتور التى لا تغرب عن مخيلتها وصورته التى تطالعها كل يوم كلما رأت ولدهما الصغير .

وإن غرام بيروس بها يثير من حولها ومن حول ولدها الضغائن فليعد بيروس إلى أميرته اليونانية هرميون بنت هيلانة ومنيلاوس وليترك أندروماك لأحزانها . وكيف يعقل أن تتزوج أندروماك من بيروس الذى قتل أبوه آخيل زوجها المغوار هكتور . إن أمجاد آخيل فى القتال قد خطت بدم هكتور . نعم . فليترك بيروس أندروماك الشقية لذكرياتها الحزينة ولينصرف إلى بنت قومه هرميون التى تتحرق شوقاً إلى عودته .

ويستولى الغضب على بيروس ويتهم أندروماك بأنها سيدة جاحدة ناكرة للجميل قائلا إنها تتخذ من أحزانها ستاراً لتخفى ما يكنه قلبها له ولأبيه من حقد مسموم . ويهدد بيروس أندروماك قائلا إنه سوف يتخلى عن ولدها ويسلمه لمن جاءوا فى طلبه إن هى مضت فيما تحمله له من بغض وسخية . إن فى يدها وحدها إنقاذ هذا الغلام البرىء . فلتمض أندروماك لزيارة ولدها فلعل رؤيته ترقق قلبها وتجعلها تعاون بيروس فى إنقاذه .

وتصرخ أندروماك قائلة : « وا أسفاه ! فليمت ولدى إذن . فما له من حام إلا دموعى وبراءته » .

ويسعى أوريست بدوره إلى لقاء هرميون ليكاشفها بهواه . وتتردد هرميون فى استقباله . فهى تعلم حقاً أنه يحبها من أعماق قلبه . ولكنها تقول لصاحبتها كليون التى تلازمها دائماً أبداً إن لقاء أوريست فيه مذلة لها بعد أن أعرض عنها بيروس كل هذا الإعراض وانصرف إلى أندروماك الطروادية . فى هزيمتها انتصار لأوريست الذى يعلم بكل ما يجرى . ولسوف يعاملها أوريست معاملته لسقط المتاع . ولكن هرميون ترضى أخيراً أن تستقبل أوريست الذى يبثها لواعج الهوى ويقول إن حياته بغيرها لا تساوى شيئاً . فهو زاهد فى الحياة . ولكم طلب الموت فى القتال بشتى البلاد والأمصار ولكن الموت عز عليه . وهرميون وحدها التى تستطيع أن تحييه وتميته .

وتلوم هرميون أوريست على هراء العشاق المعاميد هذا الذى يجعله ينسى ما جاء من أجله ، بل وينسى أنه سليل الملوك والأبطال . وتوحى إليه برقيق الكلام أن قلبها لا يخلو من الود له ، فيضطرب أوريست حين يسمع هذه العبارة ولا يدرى أيصدق أذنيه أم يكذبهما ولكن هرميون تذكره بما أوفده اليونان من أجله . ألا وهو ذلك الغلام الذى أبى بيروس العاق تسليمه إلى بنى قومه . لا بد إذن من أن يجمع أوريست أمراء اليونان من حوله لتأديب هذا العاصى وانتزاع الغلام منه ولو جعلوا من أبير طروادة ثانية ودكوها دكاً .

وأوريست رهن إشارة من مولاته هرميون . وهو فارسها الذى سيقتحم أبير اقتحاماً . ولكن قلبه يتمزق حين يحس فى كلام هرميون رغبة ضارية فى التشفى من بيروس ويشعر من مرارتها أن دافعها إلى كل ما تطالب هو حبها الجارف لهذا الفتى الذى يزدريها . حبها المدمر الذى انقلب إلى بغض مدمر يبين عن حقيقته . ثم هى تباهى لأوريست جزعها من أن يتزوج بيروس اليونانى من أندروماك الطروادية وتطلب أن يحال بينه وبينها . فلا يعرف أوريست إن كان ما تهذى به هرميون من أقوال من إملاء الواجب أم من إملاء الغيرة العمياء وهى آية الحب الأولى .

ويعاهد أوريست هرميون على انتزاع الغلام من بيروس قوة واقتداراً ويسعى أوريست إلى بيروس لينذره إنذاراً أخيراً أن يسلمه الغلام . ويعجب أشد العجب حين يرى من بيروس كل استجابة فبيروس يقول إنه قد فكر فى الأمر وتدبر فرأى أن واجبه يقضى عليه بتسليم الغلام لبنى قومه . فإن ثم فيه حقوقاً هى حقوق الثأر من أبيه .

أما حقيقة هذا التحول التى لم يكن يعرفها أوريست ولا هرميون فهى أن أندروماك الطروادية بعد أن مضت لرؤية ولدها لم تعد من عنده إلا وهى أشد عزماً على الإعراض عن بيروس مهما كلفها ذلك من تضحية . وقد كان بيروس يرجو أن يلين قلبها عند رؤية ولدها فترضى به زوجاً فى سبيل إنقاذه ولكن أندروماك ما أن رأت ولدها حتى أخذت تهتف باسم هكتور ألف مرة ، وتندب قائلة وهى تقبل ولدها : « إنه هكتور ! عيناه عينا هكتور وفمه فم هكتور بل إن بسالة هكتور قد بدأت تتجلى فيه . إنه هو بذاته ، وما أقبل

إلاك يا زوجى الحبيب حين أقبله » . وما أن سمع بيروس هذا الكلام حتى قرر تسليم الغلام .

بل إن بيروس قرر أكثر من هذا بعد أن يئس من أندروماك وهو ينبئ أوريست بأنه يعرف الآن واجبه، وأنه لن يرد الغلام إلى اليونان فحسب ، ولكنه سيتزوج من هرميون كذلك. بل هو يطلب إلى أوريست أن يمضى إلى هرميون ليزف لها هذه البشرى! غداً يكون زفافهما وليس خيراً من أوريست نفسه فى تمثيل أبيها فهو رحم لها وفى تمثيل ملوك اليونان كلهم فهو رسولهم المفوض منهم إلى بلاط أبير !

ويستولى على أوريست جنون الحب حين يعلم بعزم بيروس على الزواج من هرميون ، وينتابه هياج شديد ، وحين يخلو إلى صاحبه بيلاد يعلنه بعزمه على اختطاف هرميون من بلاط بيروس، إنه يملك السفن والرجال ، وهو مستطيع أن يأخذها عنوة من قصر الملك. وليترك بيروس مع أندروماك الطروادية ليشقى بها وتشقى به أو يسعد بها أو تسعد به . أما هو فلا غناء له عن هرميون . وهكذا يتفق أوريست وبيلاد على اختطاف هرميون حين يهبط الليل، وأن يعلنا غير ما يبطنا خشية أن يفتضح أمرهما .

أما هرميون فهى على عكس أوريست سعيدة بهذا التحول كل السعادة . غداً يكون زفافها إلى من تحب. وهى تمنى نفسها بعذب الأمانى . إن بيروس ليس بالرجل الذى يجزع خوفاً من اليونان حتى يتزوجها مرضاة لهم. لا بد أنه يحبها ما دام قد قرر أن يزف إليها . ويكون بين هرميون وأندروماك لقاء أليم ، تظهر فيه هرميون لهذه المرأة الشقية من ألوان الصلف ما يشتد به شقاؤها .

وتقترب الساعة الحاسمة. ويدنو موعد زفاف بيروس إلى هرميوسن كما يدنو موعد تسليم الغلام إلى أوريست والوفد الذى جاء فى طلبه فيشتد اضطراب أندروماك وبيروس معاً .

أما بيروس فهو يعاود الكرة لعله يجد منفذاً إلى قلب أندروماك الصلد قبل أن ينفذ فيهما حكم القضاء . فيزف هو إلى من لا يحب ، وتفقد هى وحيدها إلى الأبد .

وأما أندروماك فتتبلبل خواطرها ويتفطر فؤادها كلما ذكرت أن ولدها

سيساق عما قريب إلى المذبح حيث يقدمه هؤلاء الهمج قربانًا للآلهة وكفارة عن آثام أبيه كما يزعمون . ويدب فى عزيمتها الخور وتحضها صديقتها الوفية سفيز أن تضحى بنفسها لإنقاذ ولدها قبل فوات الأوان ، فهى تعلم أن كلمة من فم أندروماك بالقبول تجعل كل شىء فى قصر بيروس وفى قلبه يتبدل فى طرفة عين ولا تعرف أندروماك الشقية بم تجيب ، فهى تعلم علم اليقين أنها لن تجعل لبطلها الراحل هكتور من يخلفه فى فراشها وهى تعلم علم اليقين أنها لن تترك ولدها يذبح ذبح الشاة لترتوى آلهة اليونان العطشى بدمه الزكى . وهى بين هذين الواجبين حائرة ملتاعة لا تعرف أى السبيلين تسلك .

إن صديقتها الوفية سفيز تقول إن من الإخلاص ما قتل . ومن الوفاء ما يبلغ مبلغ الإجرام ، وهى لا تعرف على ذلك إجابة . فقلبها المصدوع لا يحدثها بشىء قاطع . فلتخرج أندروماك إذن إلى قبر زوجها لتستوحى منه الجواب .

وتعود أندروماك من قبر هكتور وقد حلت فى نفسها السكينة . فلقد وجدت فيه ما تطلب . وحين تسعى معه إلى المعبد فى الحفل العظيم . لسوف يقسم أمام الآلهة وأمام المواطنين قسمين ويأخذ على نفسه عهدين يرتبط بهما بقية أيام حياته ، ولا تحله منهما قوة على هذه الأرض . لسوف يقسم أن يكون زوجًا وفيًا لزوجه أندروماك ويتوجها على العرش إلى جواره شريكة له فى ملك البلاد . ولسوف يقسم أن يكون الأب الرحيم البار لولدها وأن يعطيه كل ما للبنين على آبائهم من حقوق ، وبعد أن يأخذ بيروس على نفسه هذين العهدين وينفض الحفل . فأندروماك تعرف سبيلها حق المعرفة . وهل أمامها من سبيل إلا أن تقتل نفسها فتنقذ شرف هكتور وشرف ذويها وشرف طروادة كما أنقذت حياة ابنها ؟

وتعلم صديقتها الوفية سفيز بما اعتزمت أندروماك أن تفعله فتقول إنها سوف تلحق بها دون تردد . ولكن أندروماك تنهاها عن ذلك وتناشدها أن تبقى إلى جوار بيروس لتذكره بالعهد دائمًا أبدًا ، وأن تبقى إلى جوار ولدها لتلقنه كيف يكون ابن هكتور .

وتبلغ أندروماك بيروس بقرارها فيسعد به أيما سعادة ، سيقام الحفل كما رسم وأملى ، ولكن عروسه لن تكون هرميون بل أندروماك .

ويجن جنون هرميون حين تعلم بما استقرت عليه الأمور ، أما أوريست فيسر به سروراً عظيماً . وسعى هرميون إلى أوريست بعد مشهد عاصف بينها وبين بيروس ، وهى تعلم مبلغ سلطانها على قلب هذا الفتى المحموم ولد أجا منون . إن هرميون تقبله زوجاً إذا أثبت لها حقاً أنه يحبها . إن الأقوال وحدها لا تكفى ، ولو أنه صاغ لها من قصائد الهوى ما ليس له أول ولا آخر لما صدقته لا بد من الأفعال ليثبت أوريست لهرميون أنه يحبها كل هذا الحب الذى يدعيه .

لا بد أن يقتل أوريست بيروس . لا بد أن يقتله فى يوم عرسه ، وهو جالس فى المعبد إلى جوار هذه الطروادية التى اصطفاها قلبه . نعم لا بد من قتل بيروس عقاباً له على خيانته لبنى قومه . إن أوريست إذ يغمد سيفه فى قلب هذا الخائن المارق إنما يثأر لكل اليونان من هذا الرجل الذى يهين ملوكهم وأمراءهم وشعبهم ويأبى أن يسلمهم ابن عدوهم اللدود . إن قتل بيروس عمل وطنى عظيم فهو يحقق حكم الدولة فى ابن عاص خائن من بنيها .

ويسمع أوريست النبيل كل هذا الكلام وهو يرتجف ، إن هرميون تريد منه أن يصير إلى سفاح أثيم يغتال ملكاً أعزل وهو فى حفل زفافه — ولو أنه فعل ذلك لاحتقر خسته وجبنه كل إنسان . بل هى تريد منه أن يغتال بيروس فى المعبد المقدس تحت بصر الآلهة . ولو أنه فعل ذلك لحلت به لعنة الآلهة .

ويجادل أوريست هرميون فى كل ذلك ولكن حقدها الذى ينهشها نهشاً يجعلها كالنمرة المفترسة . وهى لا تفتأ تحدث أوريست عن خيانة بيروس لقومه ووطنه حتى توشك أن تقنعه بأن سيفه إنما هو سيف اليونان عن بكرة أبيهم . فإن قصر أوريست عن اغتيال بيروس فهو ليس لها وهى ليست له .

وماذا يفعل أوريست ذو القلب المحموم الذى سيطر حب هرميون على فؤاده فأعماه ؟

وينطلق أوريست مع أتباعه إلى المعبد كالمسحور بقوة لا تقهر . ثم يعود إلى هرميون ورداؤه مخضب بالدماء ، ويصف لها كيف كان مصرع بيروس وهو جالس على عرشه إلى جوار أندروماك وبينهما الغلام استياناكس ، ومن حولهم الكهنة

ينشدون أناشيد الزفاف . وبعد أن أعطى بيروس العهد لأندروماك وألبسها تاج الملك بيديه ثم أعطى العهد لولدها أمام جميع المواطنين ، انقضت عليه الخناجر والسيوف فلم تترك فى جسده مكاناً لمطعن . لقد انتهى كل شىء كما رسمت هرميون ولم يبق إلا أن ترحل مع أوريست ليحملا البشرى معاً إلى ملوك اليونان ولرعاياها .

وحين تسمع هرميون هذا الكلام تثوب إلى رشدها وكأنما كانت فى حلم مرعب وتولول باكية وتقذف أوريست بأشنع اللعنات . إنه قاتل ، سفاح لا فرق بينه وبين أحقر قاطع طريق . إنه يزعم أنه ما نفذ إلا ما رسمت وما فعل إلا ما أمرت ولكنه كذاب أشر فهى ما رسمت من هذا شيئاً وهى ما أمرت بشىء من هذا . فلئن كانت قد فعلت فهى قد كانت فى نوبة من الجنون . وما كان ينبغى له أن يصغى إلى كلامها المجنون ، كلا . لسوف يحمل أوريست وحده هذا العار إلى يوم يموت . أما هرميون فهى لن تعود إلى بلاد اليونان . إنها تنكر أهلها وذويها ووطنها ، وتبقى فى أرض أبير حيث جثمان حبيبها مسجى .

وتجرى هرميون إلى المعبد حيث تجد الجند يتأهبون لحمل جدث بيروس فتهوى على الجدث وتطعن قلبها بنصل مميت .

أما أوريست فتعتريه لوثة من الجنون ويشبه له أنه يرى الأشباح والأفاعى أينما اتجه ببصره . ويقوده صاحبه بيلاد تحت جنح الظلام ويخرج به من القصر ومن أبير قبل أن تراه العيون .

ولا يبقى فى أبير إلا أندروماك بنت طروادة متوجة عليها أمام جميع المواطنين ومعها ولدها ووريث عرشها الذى أراد له اليونان شيئاً ولكن القدر أراد له أشياء أخرى لينصف طروادة من البغاة الذين دمروها .

فيدر

للشاعر المسرحى جان راسين

فى اليونان القديمة تجرى وقائع مأساة فيدر زوجة الملك ثيسيوس ملك أثينا ، وأطراف هذه المأساة غير الملك والملكة الأمير الشاب هيبوليت ولد الملك ثيسيوس من أشبوب ملكة الأمازونات ، وهن أمة من النساء العمالقة جرت الأساطير بشهرتهن فى الحرب والطراد . ثم الأميرة أريسيا وهى من دم أثينا الملكى ، ثم أوينون وهى صفية الملكة فيدروبانوب وهى امرأة فى معيتها وثرامين وهو مؤدب الأمير هيبوليت واسين وهى صفية الأميرة أريسيا وطائفة من الحرس . أما المكان فهو بلدة تريزين من أعمال البلوبونيز ببلاد اليونان .

ويعلن الفتى هيبوليت لمؤدبه ثيرامين أن مقامه فى تريزين الجميلة قد قارب نهايته . فهو عنها راحل وقد أعد عدته للرحيل . فأبوه الملك ثيسيوس مختف وقد طال غيابه عن البلاد . وقد بدأت الوساوس تنهش قلبه . وقد كان ينبغى أن يخرج هيبوليت للبحث عن أبيه المختفى الذى لا يعلم أحد مصيره ، ولكن الخمول أقعده . وها قد مضت عليه ستة شهور لم يحرك فيها ساكنًا . وإنه لخجل من هذا التقصير .ولقد عقد العزم أخيرًا على الخروج من تريزين للبحث عن الملك ثيسيوس .

ويجيبه ثيرامين قائلا إنه ليس هناك ما يدعو إلى رحيل الأمير هيبوليت . فهو لن يعثر لأبيه على أثر مهما بحث وقد قام هو بشخصه بالبحث عن الملك ثيسيوس فى كل أرض وبحر فلم يهتد إلى مقره . وهو لا يستبعد أن يكون ثيسيوس قد اختفى عامدًا وأراد أن يبقى مخبأه سرًا فى طى الكتمان . فلعله عاشق يجدد صبواته الناعمة مع معشوقة جديدة فى معزل عن فضول الناس تاركًا قومه ينزعجون دون مبرر .

ويعنف الفتى هيبوليت مؤدبه على سوء ظنه بالملك . فثيسيوس كان حقًا

فى شبابه مشهوراً بكثرة صبواته . ولكنه أقلع عن الغواية منذ زمن بعيد وبات نعم الزوج الوفى لزوجته فيدر . وهيبوليت إذن راحل للبحث عن أبيه كما يقضى بذلك واجبه . وهو لم يعد كما كان شديد التعلق ببلدة تريزين الهادئة التى كان يؤثرها على أثينا الفخمة وبلاطها الفخم . ولكنه زهد فيها منذ أن نزلتها فيدر زوجة أبيه . إنه يتأذى من مجرد رؤيتها .

ويحسب ثيرامين أن هيبوليت يريد النزوح عن تريزين كرهاً فى امرأة أبيه واتقاء لحقدها . ويهون عليه الأمر قائلا إن فيدر مريضة بداء دفين لاتكشف عنه لأحد وقد استبد بها الهزال والسقم فهى سائرة إلى القبر لا محالة . فليس هناك ما يدعو هيبوليت إلى النزوح عن تريزين اتقاء امرأة عليلة شفها المرض فهى لا تملك نفعاً ولا ضراً .

ولكن هيبوليت يقول إنه لا يطلب الفرار من امرأة أبيه بل يطلب الفرار من الفتاة الحسناء أريسيا التى يجرى فى دمها دم ملوك أثينا . وهو يعلم أن إخوتها الغادرين لا يكفون عن حبك المؤامرات من حوله ومن حول أبيه . ولكنه يعلم أن الأميرة الجميلة أريسيا بريئة من مكائدهم . فهو لا يبغضها كما يبغضهم . ولو أنه كان يبغضها لما سعى للفرار منها .

فيدرك ثيرامين أن هيبوليت . وهو عدو الحب وعدو المرأة العنيد ، قد أصابه أخيراً سهم الغرام . فهو إنما يريد أن يرحل عن تريزين فراراً من الأميرة أريسيا مالكة فؤاده مخافة أن يقع فى أسر غرامها ويشجع ثيرامين هيبوليت على أن يرضخ أخيراً لسلطان فينوس ربة الهوى فالأميرة أريسيا هى النبل والطهر والجمال مجسداً . فليتزوجها هيبوليت بدلاً من أن يفر منها فالزواج وهو شريعة فينوس . هو أس الحياة وهو الذى به تعمر الدنيا فأين يكون هيبوليت نفسه لو أن أباه ثيسيوس لم يخضع لسلطان الهوى ويتزوج من أمه الأمازونة أنتيوب ؟

ويعجب هيبوليت لمؤدبه هذا الذى علمه فيما مضى أن يقدس الصيد والطراد وجلائل الأعمال وكل ما هو خليق برجولة الرجال وفتوة الفتيان ، وأن يتنكب عن طريق فينوس التى تزين للناس الرخاوة بما تهيئه من ناعم الملذات .

إن ثيرامين الذى أدب هيبوليت فأحسن تأديبه كان يقص عليه بطولات أبيه

ثيسيوس وأمجاده فى الحروب وفى مقاتلة الشرور وتطهير العالم من الوحوش كأنه خليفة هرقل العظيم ، يشير عليه الآن أن يستسلم للأسر وأن يتزوج من الأميرة أريسيا .

كلا . إن أباه ثيسيوس له عذره فإن كان قد استسلم للصبابات فهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن تعددت أمجاده وخلد ذكره فى الحرب والطعان . أما هو فلم يفعل بعد شيئاً جليلا ، وهو لا يرضى أن يقال عنه إن هيبوليت قد انتصر على أريسيا ، وهذا كل ما انتصر عليه هيبوليت .

ثم إن بين هيبوليت وأريسيا هوة لا سبيل إلى اجتيازها . فأبوه قد بلغ من نقمته على آلها وإخوتها ومن بغضه لمكرهم ودسهم أنه حرم عليها الزواج وقضى بأن تبقى أريسيا تحت سقفه عذراء حتى يطويها الموت فلا يبقى لأسرتها اسم ولا ذرية من بعدها . لا بد إذن من رحيل هيبوليت وأنه لراحل للبحث عن أبيه وللبحث عن أمجاد الشجعان وفتوة الفتيان . ولكن لا بد قبل رحيله من أن يقابل امرأة أبيه الملكة فيدر ويستأذنها فى الرحيل ، فهكذا تقضى آداب الملوك والأمراء .

ويطلب هيبوليت مقابلة فيدر فيعلم من صاحبتها أوينون أن الملكة قد استبدت بها علتها الدفينة التى لا تريد أن تفصح عنها ، وقد استولى عليها الحزن القاتل وملأت روحها المضطربة أفكار غامضة سوداء ، وهى توشك أن تلقى حتفها من فرط كمدها . فيقول هيبوليت إنه لن يزعجها بزيارتها فهو يعلم أن رؤيته بغيضة إلى قلبها .

وتجتمع فيدر ووصيفتها أوينون . فتشكو فيدر لصديقتها ما بها من برحاء ، ولكنها لا تزال تخفى عنها سر أشجانها . إن قوتها قد غاضت وأنها قد سئمت الحياة فهى لا ترى لعلتها شفاء ، وهى قد عقدت عزمها على وضع حد لآلامها ولن يشفيها من آلامها إلا الموت .

وحين تسمع أوينون هذا الكلام تعنف فيدر قائلة إن فى طلبها الموت جناية على الآلهة التى منحتها الحياة جناية على زوجها الذى وضع فيها كل ثقته وأولاها كل حبه ، جناية على ولدها الذى ينتظر منها الحماية وهو ولى العهد ، فبموتها يتطلع هيبوليت ابن الأجنبية إلى عرش أثينا ويغتصبه من ولدها قوة واقتدارا . فينبغى

إذن أن تعيش فيدر من أجل ولدها ومن أجل زوجها ومرضاة للآلهة التى وهبتها الحياة . فإن اختارت فيدر طريق الموت فلتعلم أن صديقتها أوينون سوف تتبعها إلى القبر بغير تردد .

أما فيدر فلا تجد ما تقوله إلا أنها ارتكبت إثما عظيماً لا يطهرها منه إلا الموت . ولو عرفت أوينون حقيقة إثمها الأسود لأقرتها على ما اعتزمت أن تفعله . إنها لم تقتل أحداً ولكن جريمتها أفظع من القتل . وهى سر شقائها الذى لن ينتهى يطويها القبر فتستريح من عذاب الضمير .

وتستحلف أوينون فيدر أن تفصح لها عن سرها وتهيب بها قائلة : « تكلمى ! إنى لك مصغية ! » فتصرخ فيدر قائلة : « أيتها السماء ! ترى ماذا أقول ! ترى أين أبدأ ؟ » إن أسرتها كلها أسرة شقية تطاردها فينوس ربة الغرام بحقدها وغضبها . فأمها قد لقيت حتفها فى سبيل الحب المجنون . وأختها أريان سقطت صريعة الهوى . فالويل لفيدر من فينوس التى تتربص بها ولن تتركها إلا جثة هامدة . إن فيدر عاشقة . والعشق هو جريمتها النكراء . إن فيدر عاشقة لابن الأمازونة الذى ترتجف شفتاها فلا تستطيعان ذكر اسمه .

وتصرخ أوينون قائلة : « هيبوليت ! أيتها الآلهة العظيمة ! » فتجيبها فيدر : « أنت ذكرت اسمه » !

وحين تسمع أوينون هذا الاعتراف يجمد الدم فى عروقها . يا للشقاء البائس ! يا للإثم الذى لا ينفع فيه لطف ولا رحمة . ويا لها من أسرة ملوثة ملعونة ! فكيف تعشق فيدر هيبوليت ولد زوجها فتنتهك أقدس الحرمات .

وتشرح فيدر لأوينون كيف جنح بها قلبها فغدت ترى صورة هيبوليت فى كل ما ترى وتسمع . وكانت تقصد إلى محراب الربة فينوس وتقدم لها القرابين عساها ترفع عنها غضبها . فإذا صلواتها لا تخرج لفينوس بل تخرج لهيبوليت . وحين رأت أن غرامه استشرى فى روحها وجسدها حتى أوشك زمام أمرها أن يفلت منها ، ثارت على نفسها وعليه وعلى الحب ثورة عارمة ، وأخذت تضطهد هيبوليت وما زالت بأبيه الملك ثيسيوس تلحف عليه فى نفيه من أثينا . ولكن القدر مكر بها فإذا بها تجد ثيسيوس يأتى بهيبوليت إلى بلدة تريزين حيث اعتصمت

من الحب . وإذا بها تواجه عدوها هذا الذى أرادت أن تقصيه عنها ، فتجددت فى قلبها برحاء الحب ونزف قلبها دماً. وها هى ذى تتعذب ولن يريحها من عذابها إلا سلام الموت .

وما أن تمّ فيدر كلامها حتى تدخل عليها خادمها بانوب بنبأ حزين وهو أن مولاها الملك ثيسيوس قد مات فى غربته وأن ولده هيبوليت قد علم بنبأ وفاته من البحارة الراسين فى ميناء المدينة . وتمضى بانوب فى سرد أخبارها فتقول : إن أثينا مبلبلة فى اختيار سيدها الجديد . وهى قد انقسمت شيعاً وأحزاباً. فشيعة تنادى بالأمير ابن فيدر ملكاً على أثينا . وشيعة تنادى بهيبوليت « ابن الأجنبية » ملكاً عليها. وشيعة تريد أن ترد العرش إلى أسرة بالانتى المخلوعة وتنادى بوريثتها الأميرة أريسيا ملكة على البلاد. وهى تخشى أن يدفع الغضب هيبوليت إلى إثارة الشعب على فيدر وولدها .

وهنا تهيب أوينون بفيدر أن تدرك خطورة هذا الموقف الجديد . فولدها قد بات فى خطر : فإن ماتت غدا عبداً وإن عاشت غدا ملكاً . والملك الراحل قد رحل ولم يبق إلا أن تحل هى محله فى تصريف الأمور . وإلا سار كل أمر إلى فوضى . وبموت ثيسيوس حلت عقدتها وزال ذلك الحائل المحرم الذى كان يجعل من غرامها إثماً من الآثام السوداء . إن هيبوليت لم ير منها إلا كل عنت واضطهاد . ولا بد أن تسعى إليه لتزيل مخاوفه . وإلا انضم إلى أعدائها ؛ بل لا بد أن تضمّ صفوفها إلى صفوفه حتى تدرأ خطر الأميرة أريسيا ؛ فإذا كان هيبوليت يعلم أن تريزين من نصيبه فى الميراث ، فهو يعلم أيضاً أن عرش أثينا من نصيب ولدها.

وتقتنع فيدر بضرورة الدفاع عن ولدها فتأخذ بمشورة أوينون .

ونرى الأميرة أريسيا مع صفيتها أيسمين . ونعلم أن هيبوليت قد أوفد يقول إنه راغب فى رؤيتها ليودعها . وتعجب أيسمين وتطرب معاً حين ترى اهتمام هيبوليت بها وعطفه عليها . فهى ما رأت فى قصر تريزين إلا كل غلظة وجفاء .

وتقول أيسمين إن هذه هى النتائج الأولى لموت الملك ثيسيوس والبوادر الأولى لتفكك ملكه المغتصب . وغداً ترى أيسمين قلوب الأثينيين من حولها . وبعد غد قلوب اليونان كلها . ثم من بعد ذلك تسترد عرش البلاد الذى اغتصبه

ثيسيوس منها ومن آلها بعد أن أبادهم جميعاً ، ولم يبق منهم غيرها فسجنها فى قصر تريزين وحرم عليها الزواج حتى تنقرض أسرتها جملة .

إن تريزين قد آلت إلى هيبوليت بموت أبيه . وقد توج ملكاً عليها . وفيدر فى هذا القصر ترتعد جزعاً على مصير ولدها ، وأريسيا توشك أن يفك أسارها ، وهى تطمع فى أن ترى من هيبوليت رحمة أكثر مما رأت من أبيه . ولكن القلق يساور أريسيا . فهى تعلم أن هيبوليت فتى عازف عن الحب يكره المرأة ويتجنب صحبتها ولا يرى فيها شيئاً يستحق أن يعير الرجل التفاتاً . وهى تضطرب لاهتمامه بها .

ولكن أيسمين تقول إن هذا المستكبر المتعالى إنما يضمر الحب لأريسيا وإن كان لا يبديه . فما وقعت عينه عليها إلا واختلج فؤاده . وإذا لم يكن له لسان العاشق فإن له عينيه . وهو لا يفصح عما بقلبه لأنه يعتقد أن اسم العاشق لا يليق بالفتيان والشجعان الذين يطلبون أمجاد الطعن والنزال . وتسعد أريسيا حين تسمع هذا الكلام أيما سعادة . فهى تحمل فى قرارة نفسها لهيبوليت الشجاع أعظم الإعجاب رغم ما تراه من استعلائه ونفرته وبرود طباعه . وهى تطرب إذ تعلم أنه اختارها من بين النساء جميعاً لتكون سيدة فؤاده . وهو الذى لم يخضع قط لسلطان الغرام .

ويقبل هيبوليت على أريسيا قائلا إن أباه العظيم ثيسيوس قد لقى حتفه فى غربته ، وهو يرجو أن تكون الأميرة أريسيا قد حملت له بعض الإكبار رغم إساءته إليها . فلقد كان ثيسيوس أشجع الشجعان فى عصره وكانت فضائله الشماء على كل لسان ، فموته كارثة على أثينا وعلى اليونان . وهو . هيبوليت ، قد جاء ليطلقها من أسارها بعد مضى آسرها من هذه الحياة ، وهو لا يرفع عنها قيد الأسر وحده . ولكنه يحررها من كل ما فرضه عليها أبوه من أغلال . فهى إذن حرة تستطيع أن تحب من تشاء وأن تتزوج ممن تشاء !

وتشكره أريسيا على هذا الصنيع فيتم هيبوليت كلامه قائلا : إن الرأى منقسم فى أثينا على من يجب أن يكون خليفة ثيسيوس على عرشها : فهناك من يشايعه وهناك من يشايعها وهناك من يشايع ابن الملكة . ولكن هيبوليت يعلم أن سبيله إلى العرش صعب ومحفوف بالاضطراب . فهو ابن أجنبية واليونان تعيره بأمه

الأجنبية . فالأمر إذن بينها وبين ولد فيدر . وهو يعلم أنها صاحبة الحق الشرعى فى عرش أثينا ، فآباؤها قد حملوا فيها صوجان الملك أباً عن جد . وإذا كان أبوه ثيسيوس قد استولى على عرشهم فما ذلك إلا لينقذ البلاد . أما وقد قضى ثيسيوس فهيبوليت يرد الشيء إلى صاحبته . وهو الآن سيد تريزين غير منازع وله فيها عضد كبير . وأتيكا كلها ملك لأريسيا وهى تناصرها ، وليس يناصر ابن فيدر إلا كريت وأهلوها فهى بنتهم وأبوها مينوس وأمها باسيفا كانا على عرشها يجلسان . فلو شاءت أريسيا مضى هيبوليت ليجمع من حولها القلوب . قلوب أشياعه وقلوب أشياعها ، ويعد لها العدد لتسترد حقها فى العرش .

وتعجب أريسيا أشد العجب لهذا الذى سمعت ، ولا تدرى أتصدق أذنيها أم تكذبهما . إنها كانت تسمع بكرم هيبوليت ونبله ولكن الخبر تجاوز الخبر . إن كل ما كانت تطمع فيه هو ألا يحمل هيبوليت لها البغض فى فؤاده ، فإذا بها تراه ينزل عن حقوقه من أجلها .

وعندئذ تفيض أشجان هيبوليت فيقول إن البغض لم يعرف سبيله إلى قلبه أبداً . فجمالها الفذ قد صقل نفسه المجبولة على الغلظة ورقق حاشيته وهذب طباعه النافرة وما دام قد بدأ الكلام فليتمه . إنه يحبها من أعماق فؤاده ، وقلبه الذى كان يستكبر على الحب ويتحدى شرعة أبناء الفناء قد وضع السلاح أمام شوكة جمالها . فإن كانت قد رأت منه غلظة فى الماضى فما ذلك إلا أنه كان يقاتل قلبه حتى لا يقع فى أسرها . ولكم تجنبها وازور عنها لا بغضاً لها ولكن طلباً للنجاة من حبها . وكان ينزوى فى الأدغال فيطارده خيالها . فإن حضرت فر منها وإن غابت عنه وجد صورتها ماثلة أمامه لا تريم .

ويأتى المؤدب ثيرامين معلناً أن الملكة فيدر تطلب لقاء هيبوليت وأنها فى طريقها إليه . ويعجب هيبوليت لهذه الزيارة فهو لا يعرف ماذا تبغى الملكة منه ، وهى التى لم تعرف طريقاً للإساءة إليه إلا وسلكته أثناء حياة أبيه . فهى التى أرادت نفيه من البلاد . وهى التى كانت تطارده بكل ألوان العنت والاضطهاد ولكنه رغم ذلك يرثى لحالها فقد فقدت زوجها منذ حين ولعلها تسعى إليه لتخفف عما بها من حزن على فقد ثيسيوس . فالمشاركة تطيب جراح المحزونين .

وتنصرف أريسيا بعد أن تودع هيبوليت وتطلب إليه أن ينطلق ليجمع قلوب اليونان من حولها . وينصرف ثيرامين ليعد لرحيل هيبوليت العدة ، وليتركه هنيهة فى خلوة مع فيدر .

وتدخل فيدر وأونيون على هيبوليت . تقول فيدر بصوت باك إنه قد جاءها أن هيبوليت يعد العدة للرحيل وهى قد جاءت ترجوه أن يبقى إلى جوارها . فولدها الغلام قد فقد أباه ولم يعد له من يحميه من أعدائه الكثيرين الذين يتحينون الفرص للمكر به . ولكنها تعلم أن هيبوليت يبغضها لكثرة ما رأى من إساءتها إليه وهى تطلب إليه أن يكبح جماح غضبه عليها ، فهى نادمة على كل ما بدر منها ، وإلا يصب مقته لها على ولدها الذى لم يجن شيئاً .

ويعزيها هيبوليت قائلا إن قلبه لا يتسع لهذه المشاعر الخسيسة. فهو لا يبغضها وهو يعلم أن كل إساءاتها إليه إنما كانت تنتظر من زوجة الأب التى تريد أن تدافع عن ولدها .

ولكن فيدر تفصح له عن حقيقة أمرها فكل ما كابده هيبوليت من عنتها إنما كان لإخفاء حقيقة عواطفها نحوه . فهى حين أرادت نفيه من البلاد إنما أرادت أن تقصيه عن بصرها . فقد كانت تتعذب فى هواه ولم تجد سبيلا لمجاهدة هواها إلا القسوة على نفسها وعلى من تحب . إنها كانت تحب ثيسيوس حقاً ؛ وهى ترى فى هيبوليت صورة صادقة لأبيه بجميع شمائله الغراء مضافاً إليها الشباب الطرير وكبرياء الفتوة . ورغم أنها كانت تضطهده وتطارده فى الظاهر فقد كانت ترسل له العون خفية حتى ينتصر فى جميع مغامراته وأيامه . وهى التى هدته للخروج من اللبرنت قصر التيه الذى يضل فيه كل من دخله ، ولولاها لما عرف كيف السبيل إلى النجاة منه .

نعم ، إن فيدر تعشق هيبوليت ، وقد كانت تطارده فى حياة أبيه وتظهر له كل ألوان الغلظة وترجو أن تباعد بينها وبينه البحور السبع لتتقى شر هذا الهوى الآثم الذى فتك بها فتكاً وكتمته فى أعماقها فذبلت روحها وذبل جسدها بهذا الداء الدفين .

ويعجب هيبوليت لهذا الذى يسمع ، ويصيح قائلا : « ما هذا الذى أسمع !

أنسيت يا سيدتى أن ثيسيوس أبى وأن أبى زوجك » ؟

أما فيدر فهى خجلى يكاد يقتلها الخجل، فهى قد فضحت هواها لهيبوليت فى لحظة ضعف ، وهى تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها ابتلاعًا . وهى تضرع إلى هيبوليت أن يجهز عليها بسيفه لينقذها من هذا الوحش الضارى الذى ينهشها نهشاً وهى تنزع سيفه بيدها وهى تعرى له صدرها وتناشده أن يطعنها مكان القلب حتى تنجو من علتها .

كل ذلك وهيبوليت واجم كالمشدوه يتمتم : « ماذا تفعلين يا سيدتى ! أيتها الآلهة العادلة ! إنى أسمع خطو قادم : احذرى أن يراك شاهد . هيا ادخلى والتمسى النجاة من فضيحة محققة » !

أما القادم فهو المؤدب ثيرامين الذى يجد الأمير هيبوليت شاحب الوجه ينطق وجهه بالألم العميق ويسمعه يقول : « الفرار يا ثيرامين الفرار ! إن دهشتى بغير حدود ! وإنى لغدوت أجزع من نفسى كلما نظرت إليها . إن فيدر . . . كلا ! أيتها الآلهة العظيمة ! فليبق هذا السر الفظيع مكتومًا فى جوف النسيان العميق » !

ولا يضيف هيبوليت شيئًا إلى ما قال . أما ثيرامين فقد جاء يقول إن السفينة قد أعدت للإبحار وهى رهن مشيئته . ولكنه جاء أيضًا ليعلن مولاه الأمير أن أثينا قد اختارت ملكها . وأن زعماءها قد استفتوا جميع قبائلها . فاجتمعت كلمتهم على اختيار أخيه الغلام ملكًا . إن ابن فيدر قد أعلن ملكًا على أثينا . وزمام الدولة قد آل إلى أمه الوصية عليه .

وينظر هيبوليت إلى السماء ويقول معترضًا على هذه النقائض الساخرة : « أيتها السماء ! يا من تعرفين ظاهرها وباطنها ! أهذه فضيلتها التى تكافئين » !

ويضيف ثيرامين كالمتشبث بأمل بعيد : « ومع ذلك فهناك شائعات خافتة تقول بأن الملك لا يزال على قيد الحياة . ويزعم البعض أن ثيسيوس ظهر فى أبير . . . . » .

وفى جناح فيدر من القصر تلتقى فيدر وأونيون . وفيدر مضطربة بعد أن فضحها لسانها فاعترفت لهيبوليت بغرامها وبعد أن رأت فتوره القاتل . وتنصحها أونيون

بعد هذا الذى حدث أن تنصرف عن حب رجل لا يحفل بها . وأن تلتمس السلوان فى حكم الدولة وتصريف أمورها . فتجيبها فيدر قائلة : « وكيف أحكم وأسيطر عليها إذا كان عقلى الهزيل لم يعد يسيطر على نفسى ».فلترحل فيدر إذن لعلها تنسى هذا الغرام الشقى ، ولكن فيدر لا تستطيع أن تفارق هيبوليت لحظة . لقد سعت لنفيه حتى تتجنبه فى الماضى . أما الآن وقد وقف على سرها وافتضح أمرها له فالهرب لا يجدى . ولعل المستقبل يضمر لها بعض الأمل .

إن هيبوليت قد سمع بالحب من شفتيها لأول مرة ولعل هذا سر وجومه وصمته . وإذا كان هيبوليت محصناً لا يغزو الحب قلبه ، فلتبحث فيدر عن نقطة ضعف فيه تستطيع أن تغزوه منها فلعل صولة السلطان وأبهة الملك تخطفان لبه . فلتمض أوينون إذن إلى هذا الفتى الطموح ولتجعل تاج المملكة يبرق أمام عينيه فليجلس هيبوليت على العرش فهى فيه زاهدة . وكل ما تطمع فيه أن تبقى إلى جواره ، وسوف يعلم هيبوليت ولدها فن الحكم وسلوك الملوك .

وتمضى أوينون إلى هيبوليت لتحمل إليه رسالة فيدر ولكنها لا تلبث أن تعود شاحبة الوجه زائغة النظرات فى اضطراب شديد ، وتهيب بفيدر قائلة : « يجب يا سيدتى أن تخمدى جذوة هذا الحب البائس فى قلبك ، وأن تذكرى فضائلك الماضية : إن الملك الذى ظنه الناس قد مات سيتجلى أمام عينيك . إن ثيسيوس قد عاد وهو الآن فى القصر » .

ويسقط فى يد فيدر حين تعلم أن زوجها لا يزال حياً يرزق ويعضها الندم على ضعفها الذى جعلها تفضح حبها الآثم بلسانها . وتنحى باللائمة على أوينون التى زينت لها هذا السبيل . فهى قد كانت تؤثر الموت وتعد نفسها له إعداداً وتستسلم لأحزانها السوداء فى طلب الموت حتى توارى التراب ويوارى معها سرها الدفين . ولولا أوينون التى زينت لها أن تفصح عن هواها لهيبوليت لما كانت الآن فى هذا المأزق الفظيع .

وكيف تواجه فيدر زوجها ثيسيوس بعد كل هذا الذى كان ؟ وعما قريب يظهر أمامها ثيسيوس ومعه ولده هيبوليت فأين المفر ؟ ولو أنها كتمت أمرها فهل يسكت هيبوليت على ما كان ؟ أما تراه يفضى لأبيه بسرها الشقى ؟ انتقاماً

منها وسخرية بها .. لم يعد أمامها إلا طريق واحد وهو أن تلتمس الموت .

ولكن أوينون تثنيها عن عزمها قائلة إن موتها سوف يكون انتصاراً تاماً لهذا الوحش هيبوليت الذى غدت فيدر تبغضه وتخشاه فى وقت واحد . ولئن طلبت فيدر الموت فسوف تؤكد بموتها كل ما يقوله عنها هيبوليت ، والموتى لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، ولسوف تترك فيدر لذريتها اسماً ملوثاً بالعار يلطخهم إلى أبد الآبدين .

هناك إذن طريق آخر غير طريق الموت وهو أن تبادر فيدر إلى اتهام هيبوليت بأنه اغتنم فرصة غياب أبيه فراودها عن نفسها ، ولا تنتظر حتى يتقدم هيبوليت لاتهامها . إنها قد نزعت منه سيفه وهذا هو دليلها على أنه دنا منها وأراد أن يغتصبها . بل إن أحزانها الماضية التى عرف بها كل من فى القصر ولم يقف لها أحد على سبب هى دليلها على صدق دعواها .

وتأبى فيدر أولا أن تلطخ هيبوليت البرىء بكل هذه الأوحال ، ولكن أوينون تصر وتحلف قائلة إنها ستتكفل بكل شىء وهى لا تطلب إلى فيدر إلا الصمت ، ولن تطلب إلى ثيسيوس إلا نفى هيبوليت . وأخيراً تستسلم فيدر لنصح صديقتها أوينون .

ويقبل ثيسيوس على فيدر بعد غيبة طويلة متهللا تهلل المشوق يريد معانقتها فتصده فيدر عنها فى حزن قائلة : « ارجع يا ثيسيوس ولا تلوث طهارة حبك الجميل فأنا لا أستحق منك هذا العناق الحلو . لقد أهدر شرفك. والقدر الحاقد لم يرحم زوجتك أثناء غيبتك » . لم يبق أمام فيدر إلا أن تحتجب عن زوجها فتنصرف من حضرته.

وينظر ثيسيوس عاجباً إلى ولده هيبوليت ومؤدبه ثيرامين اللذين كانا فى معيته. ويسأل عن سر هذا الاستقبال الغريب الذى استقبلته به زوجته. فيجيبه هيبوليت قائلا : « العلم عند فيدر فهى وحدها تستطيع أن تكشف عن هذا السر . أما عن شخصه فهو يرجو أن يأذن له أبوه فى أن يمتنع عن رؤيتها وأن يمضى عن كل مكان تقيم فيه الملكة فيدر . نعم لا بد من الرحيل ، فقد استهوته مناعم القصور وألهته عن واجبات الفتى الباحث عن أمجاد الحرب والطعان ومقاتلة البشر

فى كل مكان . وإذا كان صيت ثيسيوس قد ذاع فى العالمين فهو يجب أن يثبت بحسامه أنه ولد ثيسيوس .

ويعجب ثيسيوس لما يراه فى القصر من وجوم واضطراب . إنه ترك كل شيء فى أمان فإذا به بعد عودته يرى أفراد أسرته يتفرقون . وكل يطلب أن يمضى فى طريق وكل يأبى أن يعانقه . لقد كابد ثيسيوس أهوالا شداداً أثناء غيبته فى بلاد أبير ، فقد خرج مع صديقه الأوحد بيريتوس إلى أبير ، وكان بيريتوس عاشقاً لزوجة ملك أبير فتستر ثيسيوس على غرامه الآثم . وفاجأهما الملك فنكل بالعاشق شر تنكيل وقذف به إلى الوحوش لتأكله ، وسجن ثيسيوس فى مغاور تحت الأرض تجاور عالم الموتى . وأخيراً استطاع ثيسيوس أن يفر من سجنه ويعود إلى بلاده . فإذا به يجد كل شيء فى قصره قد تبدل . ويسمع من فيدر أن شرفه قد خدش . لا بد أن يقف ثيسيوس على حقيقة ما جرى . وأن يعرف الجانى ويأخذ بما جنى .

وتقصد أوينون إلى ثيسيوس وتزعم له أن ولده الغادر هيبوليت أراد أثناء غيبته اغتصاب زوجته فيدر ، وأن فيدر تلزم الصمت وتنتحب فى وحدتها حرصاً على شعور زوجها . ولقد حاولت قبل الآن أن تقضى على حياتها بنفسها لولا أن أوينون نزعت السيف من يدها .

ويثور ثيسيوس ثورة عمياء . وحين يمثل هيبوليت بين يديه يتأمل صفحة وجهه البرىء فيعجب كيف يكمن وراء هذه البراءة وحش كاسر ، ويرى هيبوليت أباه متجهماً فيسأله عن سر تجهمه فينفجر ثيسيوس فيه واصفاً إياه بأبشع الصفات منددًا باجترائه على حرمة فيدر قائلا : « اغرب عن وجهى ولا تعد . اخرج من بلادى التى دنستها ولئن رأتك عين فى ربوع اليونان فدمك مهدر » .

ويرتج على هيبوليت حين يسمع هذا الاتهام الفظيع وهذا الحكم الصادر فيه ولا يعرف كيف يدافع عن نفسه . إنه يعرف سر فيدر ولكن رجولته لن تسمح له بإفشائه مهما كلفه ذلك . ولكن الموقف عصيب والاتهام فظيع . ويدافع هيبوليت عن نفسه قائلا لأبيه إن العفة كانت دائماً مثله الأعلى ، وهو ما يعرفه أبوه وتعرفه اليونان كلها ، حتى لقد كان اسمه عنواناً للعفة فى كل مكان . فكيف يعقل أن

من كان فى مثل عفته يخامره مثل هذا الحب الآثم لزوجة أبيه . إن الرذيلة كالفضيلة تتملك نفس الإنسان درجة درجة وأبوه يعرف أن ماضيه ناصع وليس فيه ما يشوب فكيف يعقل أن يتحول هيبوليت فجأة من فتى طاهر إلى وحش كاسر .

نعم ، إن هيبوليت يحب ، ولكنه لا يحب فيدر بل يحب الأميرة أريسيا التى استولت على جنانه وملكت فؤاده ، ولكم حاول هيبوليت أن يقاوم هذا الحب وأن يتجنب أريسيا ولكن الحب قهره فى النهاية وهو يرجو أن يأذن له أبوه فى الزواج منها .

ولكن ثيسيوس يحسب أن ولده هيبوليت يداوره ويخادعه بهذا الكلام لينفى عن نفسه الشبهات . يمضى فى غضبه السابق ويلعن ولده ويأمره بالخروج من البلاد وينفيه فيما وراء أعمدة هرقل « جبل طارق » حيث تخوم العالم .

وحين ينصرف هيبوليت يناجى ثيسيوس نبتون رب البحر أن يستجيب لصلاته فيحطم بأمواجه المتلاطمة سفينة هيبوليت التى يبحر فيها إلى أعمدة هرقل . إن ثيسيوس لن يلوث يديه بدم ولده فهذه أشنع جريمة فى الوجود . ولكن رب البحر قد وعده بهذا القصاص .

وتعرف فيدر بما جرى بين ثيسيوس وهيبوليت فتقبل على ثيسيوس متشفعة للفتى المظلوم راجية أباه ألا يلوث يديه بدم ولده . ولكن ثيسيوس الغاضب يجيبها قائلا إن ولده قد أضاف إلى جريمة الحب الآثم جريمة الكذب . فهو يزعم مخادعًا أنه يحب أريسيا حبًا مدمرًا ملك عليه عقله وحواسه . ليبرئ نفسه من عدواته على فيدر . كلا . إن ثيسيوس لن يلوث يديه بدم ولده فالرب نبتون إله البحر سيتكفل بقصاصه .

وحين تسمع فيدر بحب هيبوليت للأميرة أريسيا تتأجج الغيرة العمياء فى صدرها وتقصد إلى أوينون فى اضطراب عظيم . ولا تفكر فى شىء إلا الانتقام . إن نفى هيبوليت لا يكفى . فسوف يمضى هيبوليت إلى منفاه وأريسيا تملأ فكره وجوانحه . لا بد من موت أريسيا . لقد فتك ثيسيوس بإخوتها لكثرة جرائمهم ولا بد أن يفتك بها أيضًا فجريمتها قد تجاوزت كل جرائمهم .

ولكن فيدر لا تلبث أن تفيق من هذيان المحموم ويخزها ضميرها فتندم على

ذلك . إنها تنجرف فى الرذيلة درجة درجة وهى الآن قد بلغت القرار . فبعد الحب الآثم والكذب الفظيع لم يبق إلا أن تدفع فيدر زوجها إلى هذه الجريمة النكراء كلا كلا . إن هناك سبيلا آخر غير هذا السبيل المقيت وهو أن تقضى فيدر على نفسها وتلحق بآلها فى عالم الظلمات .

وتحاول أوينون أن تهدئ من روعها وأن تثنيها عن عزمها قائلة إن فيدر ليست أول من اتقدت فى قلبه جذوة الغرام الآثم وأن آلهة الأليمب ذاتها قد أحلت ما حرم عليها . فتغلظ فيدر لصاحبتها الكلام منددة بالمنافقين فى معية الملوك الذين يدفعون سادتهم إلى دمارهم بتزيين الرذيلة لهم وتمهيد سبيلهم إليها . لقد تحقق لها الآن أن أوينون هى سبب دمارها . فلولاها لتجنبت هيبوليت وكتمت هواه فى قلبها ولولاها لما ظن ثيسيوس بولده الظنون وهى الآن تريد أن تشجعها وهى فى لحظة جنون على سفك دم الأميرة البريئة .

وينطلق هيبوليت إلى أريسيا ليقول وداعًا . فتناشده أريسيا أن يفضى لأبيه بحقيقة فيدر . فأبوه يحبه وهو سيأخذ الجانية بالعقاب إن عرف الحقيقة . ومن الظلم أن يمضى هيبوليت عن حبيبته أريسيا إلى الأبد فيهدم سعادته وسعادتها حماية لامرأة خاطئة مثل فيدر .

ولكن هيبوليت الكريم يأبى أن يبوح بشىء لثيسيوس حتى لا يفجعه فى آخر ما بقى له وهو زوجته . ويستحلف هيبوليت أريسيا أن تكتم السر مهما حدث من أمور . فهى وحدها التى تعرفه من شفتيه . ولتترك كل شىء لعدالة السماء . أما هو فإنه ماض إلى منفاه وهو يضرع لأريسيا أن تفر من أسرها وتتبعه . ولسوف يعتصمان فى بلاد صديقة كل من فيها يمتشق الحسام راضيًا ليثأر لهما . إن لهما أصدقاء فى أرجوس وفى أسبرطة وفى كل مكان . وهو لن يترك فيدر تنصب ولدها ملكًا على حطامها بعد أن تقصيهما عن البلاد .

ويتواعد الحبيبان على اللقاء خارج أبواب تريزين حيث يتزوجان فى المعبد القائم هنالك ثم يرحلان إلى المنفى .

وتلمح أريسيا الملك ثيسيوس قادمًا إلى جناحها فتوحى لهيبوليت بالفرار قبل أن يدركه الملك . ويدخل ثيسيوس عليها فيجدها شاحبة الوجه ترتجف .

ويسألها عما جاء بهيبوليت إلى جناحها فتقول إنه جاءها مودعاً. إن قلب ثيسيوس يحدثه بأن فى الأمر سراً وهو قد جاء إلى أريسيا لعله يكتشف الحقيقة . وتعترف أريسيا لثيسيوس بما بينها و بين هيبوليت من عهود الحب قائلة إنه لم يفعل ما يستوجب كل هذا الغضب من أبيه . فيجيبها ثيسيوس متهكماً إن هيبوليت لا شك قد أقسم على حبها إلى الأبد ، ولكن من الخير أن تعلم أنه فتى متقلب لا يوثق فى عهوده .

وتبكى أريسيا وتوشك أن تفضى لثيسيوس بحقيقة حب فيدر لهيبوليت ، ولكنها تذكر عهدها لحبيبها فتمسك عن الكلام . ولكنها تمضى فى تحذير ثيسيوس من عدالة السماء . إن دموعها تشهد ببراءة هيبوليت مما نسب إليه .

وتشتد شكوك ثيسيوس فهو فى قرارة نفسه الحزينة لا يصدق أن ولده العف أقدم فعلا على هذه الفعلة الشنعاء ، إن أريسيا تخفى عنه سراً. وقد همت بالكلام مرتين ولكنها عادت فلاذت بالصمت . لا بد أن فى الأمر شيئاً . لا بد أن يناقش أوينون فى الأمر من جديد .

ويعود ثيسيوس إلى جناحه . وتأتيه الخادمة بانوب وهى فى حزن شديد . إن أوينون قد انتحرت غرقاً ، والملكة فى خدرها معتكفة فى اضطراب عظيم وقد ارتسم اليأس على وجهها كأنها عقدت العزم على أمر رهيب ، فعيناها زائغتان وكلامها كالهذيان وخدها فى صفرة الأموات . فليت الملك يخف لنجدتها .

وقبل أن يدرك ثيسيوس فيدر يقتحم ثيرامين حجرته صائحاً إن هيبوليت قد قتل . فقد خرج فى عجلته إلى منفاه ، وما أن تجاوز أبواب المدينة وانطلق بحذاء الساحل حتى ارتفعت أمواج البحر كأنها الطود الشامخ وقذفت على الشاطئ وحشاً ضارياً لم تقع العين على مثله قط . ولم يفر هيبوليت أمامه فرار الجبان بل نازله بسيفه ورمحه حتى أثخنه بالجراح ، ولكن الوحش المائج هجم على جياد العربة وفمه يبصق لهباً ففزعت الجياد وهوت من فوق الصخور فتحطمت العربة وذهبت الجياد تعدو فى جنون كأن بها مساً وتجر هيبوليت المسكين وتطأ جسده بحوافرها حتى فاضت روحه . وقد أدرك ثيرامين هيبوليت قبل أن يجود بالرمق الأخير فناجاه هيبوليت قائلاً : « بريئة روحى هذه التى تقبضها السماء . وبعد

موتى ليس غـ ك يا صديقى الوفى من يكلأ أريسيا الحزينة برعايته . فإن عرف أبى الحقيقة فى يوم من الأيام وطلب أن يطيب روح ولده المظلوم ، فقل له أن يترفق بأسيرته ، وقل له أن يرد لها . . . » .

وتقبل فيدر على زوجها ثيسيوس وفى عينيها وميض غريب ، فتجده محزونًا كسير القلب يوشك أن يتهافت من فرط كمده على ولده . ويتطلع إليها ثيسيوس قائلا : « لقد انتصرت يا سيدتى ، فقد مات هيبوليت ، إليك بضحيتك ، فاطربى بها . وسواء أكان بريئًا أم مذنبًا فقد قضى الأمر بينكما ولم تبق لى إلا الأحزان» .

وتتقدم إليه فيدر وهى تتحامل على نفسها تحاملا كأن بها داء عضالا وتقول استمع إلىّ يا ثيسيوس . لقد كان ولدك بريئًا ، فرد لاسمه شرفه ، ولم تبق أمامى إلا دقائق معدودات ... إنما أنا التى راودته عن نفسه فقد أعمانى الحب الآثم له . . . أما أوينون اللعينة فقد دبرت كل شىء . وقد التمست الموت اتقاء لغضبى . . . ولقد سكت على ما فعلت فحق على التكفير عن هذا الذنب العظيم ... وإنى لماضية فى طريقها . . . فقد جرعت سمًّا جاءت به ميديا إلى أثينا . . . وهو الآن يسرى فى عروقى ويكويها كيًّا . . .

وتسقط فيدر جثة هامدة .

ويقف ثيسيوس الحزين متأملاً أشلاء أسرته ويقول :كل مذنب كفّر بالموت عن جريمته . فكيف أكفر عن جنايتى على ولدى البرىء ؟ لم يبق إلا أن أتخذ من حبيبته أريسيا بنتًا لى . وأن أنسى جرائم أسرتها الشنيعة فأرد لها كل مالها احترامًا لذكراه الطاهرة .

بريتانيكوس

الشاعر المسرحي جان راسين

نيرون ! إمبراطور روما ! اسم تقشعر لذكراه الأبدان !

روى عنه التاريخ أنه أحرق روما ، عاصمة ملكه ، ثم جلس فى شرفة قصره يمتع البصر بمرأى اللهيب يأكل الدور ومن فيها ويعزف على قيثارته ، وفى اليوم التالى اتهم خصومه فى السياسة والدين بهذه الجريمة النكراء ونكل بهم تنكيلا .

ولم يكن إحراق روما جريمته الوحيدة ، فحياة نيرون حافلة بأبشع الجرائم .

فقد ارتقى نيرون ، ولد الإمبراطور كلوديوس العرش على أجداث وأجداث ، ولم يكن الوريث الشرعى فمهدت له أمه أجربينا السبيل إلى اغتصاب العرش من أخيه بريتانيكوس لتحكم باسمه روما وتكون ملكتها غير المتوجة .

ثم قتل نيرون أخاه بريتانيكوس ليزيله من وجوده جملة .

ثم قتل نيرون أمه لينفرد وحده بالسلطان لا شريك له .

ثم قتل نيرون مؤدبه الشاعر العظيم سنيكا لأنه عارضه فيما اقترفه من جرائم نكراء .

وغير هذا كثير . فنيرون اسم تقشعر لذكره الأبدان ! وهذه مأساة تصور كيف فتك نيرون بأخيه بريتانيكوس . وأشخاص هذه المأساة هم : الإمبراطور نيرون قيصر روما الحاكم بأمره فى الإمبراطورية الرومانية . وهو ولد أجربينا من زوجها الأول دومتيوس أينوباربوس الذى توفى عنها وعن ولده نيرون . فتزوجت هذه الأرملة الجميلة الواسعة الحيلة من قيصر روما السابق الإمبراطور كلوديوس . ولا زالت أجربينا بكلوديوس قيصر حتى جعلته يتبنى ولدها نيرون ابن أينوباربوس تبنياً رسمياً ويجعل من نيرون ولى عهده الشرعى وخليفته فى حكم البلاد .

ثم بريتانيكوس بن كلوديوس قيصر من زوجته مسالينا . وهو الذى كان ينبغى أن يجلس على عرش روما بعد وفاة أبيه الإمبراطور كلوديوس ، لولا أن كلوديوس قد تبنى الفتى نيرون وهو ليس من صلبه وجعله بإغراء زوجه أجربينا ومكرها وريثه الشرعى أمام الأشهاد . وغير نيرون وبريتانيكوس وأجربينا هناك من أشخاص المأساة العذراء الطاهرة الأميرة جونيا حبيبة الأمير بريتانيكوس التى أخذت منه العهد وأعطته على الزواج . ثم بوروس مؤدب نيرون . ونرسيس مؤدب بريتانيكوس . والبينا صديقة أجربينا الوفية ثم جماعة من الحرس . وغير هؤلاء ممن نسمع عنهم كثيراً ولا نراهم الإمبراطور أوكتافيا زوجة نيرون والشاعر سنيكا مؤدبه .

أما المكان فهو قصر نيرون بروما .

* * *

وفى حجرة من حجرات القصر نجد أجربينا وفى معيتها صديقتها الوفية ألبينا : وتشكو أجربينا إلى ألبينا ما آلت إليه حال ولدها الإمبراطور نيرون . فهو قد غدا شكاكاً يرتاب فى كل شىء . وهو متعجل يريد أن ينفرد بالسلطة . وهو قد صار يجهر بعدائه لبريتانيكوس زاعماً أنه خطر عليه وعلى الدولة . بل قد صار يضيق بأمه أجربينا ويقصيها عن بلاطه ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وبعد أن كانت أجربينا هى الكل فى الكل تدبر شئون روما بما ترى وتشتهى وتحرك رجالات الدولة كأنهم قطع الشطرنج بين يديها باتت بلا حول ولا قوة كل ذلك لأن نيرون يريد أن ينفرد بالسلطة . فهو كما تقول أجربينا « قد سئم حمل الناس على حبه ، فهو يريد حملهم على مخافته » .

وتعجب ألبينا لما يبدو من جحود نيرون ، فأمه أجربينا هى التى أجلسته على عرش روما بعد أن حرمت بريتانيكوس بن كلوديوس من حقه الشرعى بما أوتيت من دهاء . وهى التى جاءت بخير مؤدبين فى عصره هما الشاعر سنيكا والسياسى بوروس . الأول ليلقنه آداب الأولين والثانى ليلقنه أساليب الحكم . كل ذلك ليسير نيرون سيرة القياصرة الأمجاد . بل إن ألبينا تستبعد أن يكون نيرون جاحداً كل هذا الجحود فهو يحكم روما منذ ثلاث سنوات ،

والرومان لا يرون فيه إلا فضائل تذكرهم بفضائل أغسطوس العظيم .

ولكن قلب أجربينا يحدثها بأن نيرون إنما يبدأ حياته كما ختم أوغسطوس حياته ، محبًّا لشعبه راضياً مرضيًّا يعم فى عهده الخير والبركات . وهى تخشى أن يختم نيرون حياته كما بدأ أوغسطوس حياته ، فيخوض فى بحار من الدماء ويتنفس فى جو من الغدر والدسائس . فهو قد أتى أمرًا إدًّا . إنه يعلم بحب بريتانيكوس لجونيا ويعلم بحب جونيا لبريتانيكوس ، وهو يعلم أنهما يعدان العدة للزواج ، فإذا به يختطف هذه العذراء البريئة من قصرها أثناء الليل ويغلق عليها أبواب قصره . فأين فضيلة نيرون هذه التى تتحدث عنها ألبينا ؟ إن أجربينا لا تفهم لم اختطف نيرون جونيا ؟ أهو عاشق لها مستهام بحبها ؟ أم هو يبغى النكاية ببريتانيكوس ؟ ثم ما موقف أوكتافيا المسكينة زوجة نيرون الوفية التى اختارتها له أجربينا بنفسها لتجلس إلى جواره على عرش روما ؟ أم ترى نيرون لا يبغى إلا الانتقام من هذين المحبين لعلمه أن أمه أجربينا تبارك زواجهما وتمهد له ؟

إن أجربينا الداهية قد رتبت كل شىء فى البلاط حتى تمسك هى بزمام الموقف على الدوام . فهى التى حالت دون زواج خيلاونوالس أخو جونيا وسليل أغسطوس قيصر من أوكتافيا فدفعت هذا الفتى إلى الانتحار . وهى التى زفت أوكتافيا إلى نيرون لتثبت بذلك حقه فى العرش بعد أن أقصت بريتانيكوس من طريقه . وهى الآن ترى أن نيرون متربع على أريكة الملك بيده كل المعابد ويحرمها من كل سلطان فهى لا تجد مناصًا من الانضمام إلى بريتانيكوس حتى يشتد ساعده فيعتدل ميزان القوى فى روما من بعد اختلال . ولا ترجح كفة ولدها على كفتها .

* * *

إن نيرون حقًّا لا يزال يبدى لأمه أجربينا من مظاهر الاحترام ما ينبغى على الولد لأمه . ولكن أجربينا بغير حاجة إلى هذا الاحترام الصورى . وهى تطلب منه مزيدًا من الثقة . لقد كانت من قبل تحكم روما وبإشارة من يدها يجتمع مجلس الشيوخ وينفض . أما الآن فوا أسفاه لقد غبر سلطانها وأفل نجمها . إنها

لن تنسى يوم تتويج نيرون حين جاءه الملوك والسفراء من كل حدب وصوب ليعترفوا به ملكًا على الدنيا ، وتأهبت أجربينا لتجلس إلى جواره على العرش ، فرمقها نيرون بنظرة تفيض بالمقت والاحتقار وأزاحها من الطريق . إنه اليوم سكران بمجده . ولم يعد يستمع إلى مشورة من أحد إلا سنيكا وبوروس . بل إنها لم تعد تستطيع أن تلقاه على انفراد : وهو لم يعد يستقبلها إلا فى حضور البلاط ، فإن تكلم معها فكلامه مملى عليه ، وإن صمت فصمته مدروس .

وتسعى أجربينا إلى نيرون لتجادله فيما كان من خطفه جونيا خطيبة بريتانيكوس. وتطلب إلى بوروس أن يقودها إلى الإمبراطور ، ولكن بوروس يعتذر بأن نيرون معتكف لا يقابل أحدًا . وهنا تثور أجربينا وتتهم بوروس بالتآمر مع سنيكا لإبعادها عن القصر والحيلولة بينها وبين الاتصال بولدها . إنها بنت إمبراطور وزوج إمبراطور وأم إمبراطور وأخت إمبراطور فمحال عليها أن تقبل أن يعترض طريقها خادمان من رعيتها . وهى تتهم بوروس وسنيكا بأنهما يرهبان نيرون ويعاملانه معاملة القاصر ليحكما باسمه روما ، وهى تصفهما بالجحود . فهى ولية نعمتهما التى اختارتهما ليؤدبا نيرون غلامًا . فإذا بهما يقيمان من حوله سياجًا ليستأثرا بالسلطة .

ولكن بوروس يجيبها بقوله إن نيرون ملكًا لم يعد ابن أجربينا بل سيد الدنيا ، وهو وديعة بين يديه يحفظها للإمبراطورية الرومانية . أما أجربينا فليس لها إلا الاحترام الواجب لوالدة قيصر لا أكثر ولا أقل .

وتسأل أجربينا بوروس غاضبة : فيم كان اختطاف نيرون الأميرة الملكية جونيا . أخت الأمير سيلانوس وخطيبة بريتا نيكوس . وأية جريمة ارتكبت هذه الفتاة البريئة حتى يسجنها نيرون فى قصره !

فيجيبها بوروس قائلا إن الأميرة جونيا لم ترتكب جرمًا ، وهى فى القصر معززة مكرمة . ولكن قيصر يستضيفها فى قصره مخافة أن يتزوجها بريتانيكوس فيتحول بزواجها من تابع مخلص إلى طامع فى عرش البلاد . ونيرون قيصر هو ولى الأمر فى البلاد ولن تزف أميرة من دم قيصرى إلا إلى من يرضى به قيصر زوجًا لها .

وتهدد أجربينا وتتوعد قائلة إنها اختارت بريتانيكوس ليكون زوجًا للأميرة

جونيا ، فإذا كان نيرون يحول دون زواجهما فهو بهذا لا يغض من سلطان أمه وحدها ولكنه يغض من سلطانه هو ، فكل ما يمس أمه يمسه هو ، وهو يخطئ أعظم الخطأ إن ظن أن أجربينا بغير حول أو قوة فى روما ، فهى لا تزال عند الكثيرين صاحبة الكلمة العليا .

ويدرك بوروس من هذا الكلام أن أجربينا تهدد بأن تظاهر بريتانيكوس والأميرة جونيا على ولدها نيرون ، فيستنكر منها هذا القول . ولا تعبأ أجربينا بتنديده بل تمضى إلى مستشارها بالاس لترسم معه ما يتطلبه الموقف من خطط . وهى تدعو بريتانيكوس إلى لقائهما لتتدارس معه هذا الأمر فهى قادرة على أن تعينه فى هذه المحنة التى ألمت به .

أما بريتانيكوس فيرتاب فى أمرها لكثرة ما رأى من غدرها به . فهو يعلم أنها كانت وراء حرمانه من عرش البلاد . وهو لهذا يلجأ إلى مؤدبه نرسيس ليطلب إليه المشورة فى أمره . وهو يشكو لنرسيس كل ما نزل وينزل به . قائلا إن نيرون الطاغية يحيطه بشبكة محكمة الحلقات من الجواسيس هم أصدقاؤه المأجورون الذين يتظاهرون له بالود والإخلاص ليكاشفهم بكل ما يجرى فى دخيلة نفسه . ثم ينقلون أسراره أولا بأول إلى سيدهم نيرون . فهم عيون نيرون وهم آذانه التى يرى بها كل ما يدور فى قصر بريتانيكوس . ويسمع بها همسات فؤاده . فلم يعد لبريتا نيكوس من صديق وفى أمين إلا مؤدبه نرسيس هذا الذى كان عبداً عند أبيه كلوديوس قيصر فأعتقه أبوه لما رآه من غزير علمه وعظيم وفائه وجعل منه مؤدباً لبريتانيكوس . نعم . نرسيس وحده هو موضع سر بريتانيكوس . ولن يقرأ صفحة روح بريتانيكوس إلا نرسيس الأمين .

لهذا يسأل بريتانيكوس نرسيس أن ينطلق فى روما ليعجم عود الأصدقاء ويلمس بنفسه ما أحدثه اختطاف حبيبته الأميرة جونيا من أثر فى نفوس الناس ، وما حركه فيها من سخط على نيرون المستبد . وليقف بنفسه على مدى استعداد الناس للوقوف إلى جواره فى محنته حتى يسترد الأميرة من سجانها . وليطلع بنفسه على حال الأميرة جونيا . إن كانت الحراسة مشددة عليها أم كان إنقاذها من أسر نيرون أمراً ميسوراً . أما بريتانيكوس فهو ماض للقاء أجربينا عند مستشارها بالاس

ليتدبر معهما الأمر لعله يجد فيهما بعض العون .

ولكن بريتانيكوس المسكين الطيب القلب لم يكن يعلم أن مؤدبه نرسيس هو أيضًا من عيون نيرون وآذانه ، بل إنه رقيبه الأكبر على ما يجرى بقصر بريتانيكوس وما يدور بخلده .

وهكذا يعرف نيرون بما كان من لقاء بين أمه أجربينا وأخيه بريتانيكوس بالاجتراء عليه ، وأن أمه تؤلب عليه أعداءه لتقوى بهم وتطالب بمزيد من السلطان فيأمر نيرون بنفى بالاس من البلاد . حتى يقصيه عن أجربينا وبريتانيكوس فتعيش روما فى سلام له وحده .

ولكن هذه الإجراءات التى اتخذها نيرون لم تكن لتحل عقدته ، فقد تعلق قلب نيرون بالأميرة جونيا وغدا بحبها مستهاما ، فلم يعد الأمر عنده حرمان بريتانيكوس من الزواج بالأميرة جونيا ، فهذا عند نيرون أيسر الأمور ، وإنما غدت مشكلته الكبرى كيف يحظى بحب جونيا ويجعلها تبادله الهوى . نعم ، لسوف يطارحها غرامه الذى بلبل خاطره وأسهده الليل ، ولسوف يبثها زفرات العاشق المكلوم ، فإن لم يجد فى قلبها صدى لهواه فلسوف يلجأ معها إلى التهديد والوعيد حتى ترضخ لإرادته وتستجيب . إن كل من عرفهن نيرون من نساء البلاط مجردات من العفة والفضيلة مقبلات على الجاه وخسيس الشهوات ، وجونيا وحدها مثال الطهر والأنفة تستعصى فضيلتها على كل سلطان ولو كان سلطان قيصر ، لا بد إذن أن ينالها مهما كلفه ذلك من مكابد .

ويصارح نيرون نرسيس ، موضع سره ، بكل هذه الهواجس التى تؤرقه ، وكأنه يناجى نفسه الباطنة ، والحق أن نرسيس لم يكن إلا نفس نيرون الباطنة التى يقرأ فيها مكنونات قلبه وتزين له كل ما يعربد به قلبه من شهوات .

وقد كان القدماء يقولون إن فتى جميل المحيا يعشق جمال وجهه فأخذ يذهب كل يوم إلى شط غدير ليتأمل جماله فى صفحة الماء الصافى كأنه مرآة من بلور ، ويقضى عامة نهاره مفتونًا بجماله لا ينصرف بصره عن صفحة الغدير ، فغضبت عليه الآلهة وأحبت أن تعاقبه على عشق الذات فأحالته إلى زهرة النرجس التى تنبت على شطوط الغدران وترنو بكأسها إلى الماء كأنها تتفرس فى المرآة طول

اليوم مفتونة بجمالها . وهذا هو نرسيس ، أى النرجس ، الذى اتخذ منه نيرون مرآة لنفسه .

وهكذا يزين نرسيس لنيرون أن يسترسل فى أحلامه وشهواته ، متملقاً نيرون قائلا إن بريق مجده سيخلب بصر الأميرة جونيا ، فهو تاج الملوك ودرة العصر التى تستهوى أكرم الحسان .

ولكن نيرون رغم ذلك يرى العقبات الكثيرة التى تقف فى سبيله إلى الأميرة جونيا . فهناك زوجته أوكتافيا وأمه أجربينا وهناك مؤدباه سنيكا وبوريوس بل وهناك روما كلها التى ستغضب لقيصرتها أوكتافيا . لقد سئم نيرون الحياة مع زوجته أوكتافيا التى فرضت عليه فرضاً كأنها جزء من واجبات الملك وأعبائه الثقيلة — ولقد كان يتمنى أن يتخلص منها بالطلاق لولا خوفه من قوة الرأى العام . بل إن الإمبراطورية نفسها كانت تنتظر منها أن تأتيه بوريث لعرش القياصرة . وقد مرت الآن أربع سنوات على زواجهما فلم تأته أوكتافيا بوريث فلا بد أن الآلهة نفسها لا تبارك هذا الزواج .

ويزين نرسيس لنيرون أن يطلق أوكتافيا لا إرضاء لقلبه فقط ولكن خدمة للإمبراطورية كذلك . ويذهب يفصل له تاريخ أسلافه الذين طلقوا زوجاتهم خدمة للإمبراطورية ، ويذهب نرسيس يؤلب نيرون على أمه أجربينا التى فرضت عليه هذا الزواج فرضاً ، قائلاً إن أمه الغضوب لم يعد لها حول ولا سلطان منذ أن نفى نيرون مستشارها الخطير بالاس فجعلها بذلك قصيصة الجناح .

وفى القصر تسعى الأميرة جونيا إلى نيرون لتستفسر عن سبب أسرها فى القصر ولتستوضح جريمتها ، فيكاشفها نيرون بغرامه ، ويلومها على استجابتها لغرام بريتانيكوس . قائلا إن أميرة ملكية مثلها لا يمكن أن تختار لنفسها زوجاً إلا من اختاره لها سيد البلاد . وإلا ألصقت العار بالعرش ، فتجيبه الأميرة جونيا قائلة إنها ما فعلت شيئاً إلا وفقاً لإرادة أمه أجربينا ولإرادة الإمبراطور الراحل كلوديوس أبو بريتانيكوس الذى اختارها قبل وفاته لتكون زوجة لولده . وهى تعلم أن بريتانيكوس يحمل لها أصدق الحب . وهى تبادله حباً بحب ، فهى لا ترى غباراً فى زواجهما . ولا سيا لأنها تعرف أن نيرون يحترم دائماً إرادة أمه ، ثم

إن نيرون لن يجد فى دولته كلها من هو أشرف محتداً من بريتانيكوس وأولى بها منه ، وهى سليلة القياصرة ولن يكون كفئاً لها إلا سليل القياصرة .

وتؤخذ جونيا حين يتقدم إليها نيرون قائلا إن الزوج الذى اختاره لها قيصر ليس أقل من قيصر نفسه . نعم إن نيرون قيصر نفسه مدله بحبها وهو يطلب إليها أن ترضى به زوجاً ، بل إن روما كلها تتحدث بلسانه . وأوكتافيا لم تنجب لنا وريثاً للعرش ، ولهذا فطلاقها واجب . فلتتدبر إذن جونيا الأمر وهو يرجو أن يستجيب قلبها لنداء قلبه ولنداء روما .

وحين تسمع جونيا هذا الكلام تجيب نيرون فى حزم قائلة إنها لا تستحق منه هذا التكريم ولا هذا التجريح معاً . أما بريق الملك فهى فيه زاهدة، ولاسيا إذا جاء على أنقاض صاحبته الشرعية أوكتافيا ، وأما حبها لبريتانيكوس فثابت لا يزعزعه ترغيب ولا ترهيب ، ولا سيا بعد أن جرد بريتانيكوس من كل حقوقه الطبيعية فى العرش وهى لن تتخلى عن بريتانيكوس بعد أن غبرت عنه أبهة الملك والسلطان ولم يبق له فى الحياة إلا حبها وإخلاصها . فليحفظ نيرون إمبراطوريته لنفسه وليترك لها ولبريتانيكوس حبهما الهادئ السعيد .

وتفرح جونيا حين تسمع نيرون الماكر يقول إنه سيأذن لها بلقاء بريتانيكوس ولكنها لا تلبث أن تحزن حين تسمعه يقول إنه ينتظر منها أن ترد بريتانيكوس بنفسها دون تدخل منه ، فإن لم تفعل فإنه سيأمر بنفيه من البلاد وتتحمل هى وزر نفيه . ونيرون لا يحب أن يحس بريتانيكوس بأن قيصر ينافسه على حب الأميرة جونيا . فعليها إذن أن تبدى له من الصد ما يصرفه عنها . ولسوف يراقبها من وراء ستار فإن بدا منها ما يشجع بريتانيكوس كان فى ذلك هلاكه .

وترجو الأميرة جونيا أن يعفيها نيرون من هذا المركب الصعب ولكنه يصر على هذا اللقاء الذى دبره بين الحبيبين .

ويتم اللقاء . ويهرع بريتانيكوس إلى جونيا يبثها لواعج أشواقه ولكن جونيا تتمالك نفسها وتكظم دموعها التى توشك أن تنهمر على خديها انهماراً، وتصطنع الفتور اصطناعاً متجنبة نظراته . ويستفسر بريتانيكوس منها عن سر جفائها فتجيبه قائلة إنهما فى قصر قيصر حيث للحيطان عيون وآذان .

ولكن بريتانيكوس الجسور الذى لم يعهد فى حبيبته جونيا هذا الخوف والإشفاق يطمئنها إلى أنه قد وجد فى أجربينا أم نيرون حليفاً ، ويعلن بأعلى صوته أن روما كلها ساخطة على قيصرها مستاءة من مسلكه . فتعود جونيا إلى أقوال عجيبة تنسبها إليه ، فهو لا يقصد شيئاً مما يقول ، فهو قد أعلن أمامها ألف مرة أن روما ملتفة حول إمبراطورها وفية له . فالألم إذن وحده هو الذى يدفعه إلى مثل هذا الكلام .

ويذهل بريتانيكوس لغرابة ما يسمع ويظن بجونيا الظنون وينصرف عنها كاسف البال وهو يحسب أن نيرون قد استهوآها بالمجد والأرجوان.

وبعد أن ينصرف بريتانيكوس تنفجر جونيا بالبكاء . ويقبل عليها نيرون ، فتصرفه عنها فى غلظة . إنها أطاعته ولكنها لا تحب أن تسمع منه كلمة واحدة بعد هذا الذى كان . فليتركها وحيدة لدموعها .

أما نيرون فقد وقف على سر هائل ، وهو أن غرام بريتانيكوس والأميرة جونيا غرام مستقر فى حبة القلب ، ولا يجدى معه إلا أنجع دواء .

* * *

ويعود بوروس نيرون ليحذره مما يجرى حوله من أشياء . فهو له نعم الناصح الأمين . إن نفى بالاس ، مستشار أجربينا وعضدها الأكبر ، قد أغضب أجربينا وهى الآن تؤلب على نيرون جند الرومان وتذكرهم بحكامهم الأوائل الذين كانوا يسلكون سبيل الشرف . ونيرون يستهين بقوة أمه من ناحية ويعتمد على صبر شعبه أكثر مما ينبغى . وهو يعطى أجربينا سلاحاً ماضياً تشهره فى وجهه وهذا السلاح هو هذا الحب الذى تملكه للأميرة جونيا ، وجعله يتنكر لزوجته الفاضلة أوكتافيا التى لم تخطئ فى شىء ولم تذنب فى شىء بل كانت له نعم الزوج الوفى . وكيف ينتظر نيرون أن يختطف من رجل آخر خطيبته دون أن تثور عليه ثائرة شعبه ؟ كلا . إن نيرون قد غلا واشتط ولا بد له أن يعتصم بالروية والتفكير ، فيقلع عن هذا الغرام الشاذ الذى لن يعود عليه إلا بالمتاعب والمكاره .

ويستمع نيرون إلى هذا التحذير ولكنه لا يجد ما يجيب به .

غير أن للحب على القلوب سلطاناً لا يرد . فليحدثه بوروس بما شاء عن

أمور الدولة أما شئون القلب فهو لا يأذن لأحد أن يجادله فيها .

أما أجربينا الغاضبة لنفى بالاس فهى تهدد وتتوعد . وحين تلتقى ببوروس تبلغه أنها لن تتردد فى إثارة الجيش على نيرون . ولو اقتضى الأمر أن تعترف أمام قواده بكل ما ارتكبته من جرائم فى سبيل إقصاء بريتانيكوس ابن الإمبراطور كلوديوس ووريثه الشرعى عن عرش أبائه لتجلس عليه نيرون ولو دفعت حياتها ثمناً لذلك . فهى التى دبرت اغتيال أعوان بريتانيكوس ونفى أنصاره ودست السم لمريديه ، وهى التى استقدمت من المنفى بوروس وسنيكا ليكونا عوناً لها على إقصاء سلالة كلوديوس وإجلاس نيرون على سرير الملك . كل هذا فعلته أجربينا لتحكم روما مستترة وراء ولدها نيرون . فإذا بنيرون يركلها ويستبد وحده بالسلطة . بل إذا بروما يحكمها بوروس وسنيكا متخذين من نيرون ستاراً . وهما الآن يعلمانه هجران زوجته التى اختارتها هى له بعد أن علماه احتقار أمه .

وتهدئ ألبينا من ثائرة أجربينا وتنصحها أن تكظم غضبها حتى لا تسوء العواقب . وألا تحاول التدخل للحيلولة بين نيرون وجونيا . ولكن أجربينا تعلم أن فى زواج نيرون من جونيا القضاء المبرم على كل أمل لها فى السلطان . فجونيا ليست بالفتاة الساذجة الضعيفة الباهتة الشخصية كأوكتافيا . ولئن ارتقت عرش روما لم تعد لأجربينا فيها كلمة .

وتحاول أجربينا أن تتقرب من بريتانيكوس . وتبدى له أنها على أتم الاستعداد لمؤازرته لو أنه عرف كيف يجمع حوله أعضاء السناتو . مجلس شيوخ روما . ولكن بريتانيكوس يأبى أن يتعاون مع هذه المرأة الطموحة الضارية التى تآمرت عليه فى الماضى حتى جردته من كل شىء . ويقول لها متهكماً إنه بفضلها لم يعد له فى روما أصدقاء يستطيع أن يعتمد عليهم .

وتلتقى الأميرة جونيا ببريتانيكوس فى قصر نيرون فتهيب به أن يلوذ بالفرار من غضب نيرون . ويتجدد الألم فى صدر بريتانيكوس ، فهو لم ينس بعد فتورها الجارح ساعة لقائه . وتمجيدها العجيب لنيرون ولمكانته فى قلوب شعبه ، من كل ما تركه حائراً تنهش نفسه الشكوك وتعذبه البرحاء . ويجيبها بريتانيكوس ساخراً إنها إنما تطلب إليه الفرار ليخلو لها الجو فتنعم بصحبة صديقها الجديد

نيرون الذى خلب لبها بمجده الإمبراطورى وجعلها ترضى بأن تنعم على حساب أخته أوكتافيا .

وحين تضيق جونيا بهذا التقريع تصارح بريتانيكوس بحقيقة الأمر ، وهى أن كل كلمة فاهت بها إنما كانت لإنقاذه من غضب نيرون الذى كان يسترق السمع وراء أستاره . ويأخذ الندم ببريتانيكوس كل مأخذ فيجثو عند قدميها طالبًا إليها الصفح عما ساوره من شكوك فى حبها لها مجددًا لها عهد الوفاء .

ويفاجئهما نيرون فى هذا الموقف العاطفى المثير ، فتثور ثائرته ويتهدد بريتانيكوس بأنه وإن يكن أميرًا من دم ملكى إلا أنه سيخلى بينه وبين الرومان ليقتصوا منه ويؤدبوه تأديبًا . ويجيبه بريتانيكوس قائلا إن الرومان يعرفون نيرون على حقيقته وإن كانوا لا يتكلمون . أما نيرون فينصح أخاه بريتانيكوس أن يحذو حذو الرومان — فيصمت اتقاء لغضبه ، ويصيح فيه قائلاً : « سواء على أن تكون رعيتى سعيدة أم شقية ما دامت تهابنى » وهو « وإن لم يعرف بعد السبيل إلى قلب جونيا فهو على الأقل يعرف السبيل للتنكيل بمن ينافسه » . ويشتد هياج نيرون فيصيح بحرس القصر : أن اقبضوا على بريتانيكوس واسجنوه فى جناح أخته القيصرة أوكتافيا .

ويقتاد الحرس بريتانيكوس وهو يقول هازئًا من نيرون : « أهكذا يتنافس نيرون على قلب امرأة ! » .

ويدخل بوروس على نيرون فيجده يرغى ويذبد . إنها هى . إنها أمه أجربينا التى تكيد له ، وعليها وحدها تقع تبعة غرامه الفاشل . فهى التى دبرت زواج بريتانيكوس من جونيا وهى التى تذكى فى قلبهما نار الغرام .

ويهيب نيرون ببوروس قائلا : « إذا كانت أمى لا تزال فى القصر يا بوروس فإنى أريد احتجازها فيه وآمر بأن يستبدل حرسى بحرسها » وحين يحتج بوروس قائلا : إنه لا يصح له أن يقبض على أمه ، أو على الأقل لا يجوز له أن يعتقلها قبل أن يستمع إلى دفاعها . يشتد هياج نيرون ويوشك أن يتهم بوروس بالتواطؤ مع خصومه .

* * *

ويكون بين نيرون وأمه مشهد عاصف . فهى تذكره بكل ما فعلته من أجله حتى يرتقى العرش ، وهو يتهمها بالتآمر مع بالاس والجيش لعزله وتنصيب بريتانيكوس مكانه ، وهو إن كان قد نفى مستشارها الدساس وأخاه الطامع فى العرش وأمه المتآمرة عليه ، فهو ما فعل كل ذلك إلا دفاعاً عن نفسه .

وتنكر أجربينا بأبلغ لسان أنها كانت تعمل على تنصيب بريتانيكوس قيصراً على روما . فلو قد عملت على ذلك لسارت إلى حتفها بنفسها . فأتباع بريتانيكوس لا شك يعرفون بكل ما ارتكبت من جرائم فى سبيل ولدها نيرون ولسوف تعلو أصواتهم باتهامها إن قيض لهم أن تعلو كلمتهم فى البلاد . فليعدل نيرون إذن عن كل هذه الترهات وليسلك السبيل الوحيد السوى أمامه ، وهو أن يطلق سراحها وأن يفرج عن بريتانيكوس وأن يترك جونيا وشأنها تختار من تشاء زوجاً لها وأن يلغى أمره بنفى بالاس وأن يأذن لها بزيارته فى أى وقت تشاء .

ويستمع نيرون الماكر إلى مطالبها أو شروطها فى هدوء متظاهراً بالاقتناع . ويقول مبتهجاً إنه فاعل كل ما قد أشارت به بعد أن يصفو له قلب أمه ، ويعدها نيرون بنسيان كل إساءة ، فهو سيعفو عن بالاس ، وهو سيتصافى مع بريتانيكوس . وهو سيجعل من أمه حكماً بينه وبين أخيه تقضى فيما بينهما من خلاف حول جونيا . أما حرس القصر فهو يأمرهم بأن يصدعوا بكل أمر يتلقونه من أمه . ثم يعانق نيرون أمه ويحل على القصر السلام .

وحين ينفرد بوروس بنيرون يعرب له عن ابتهاجه بما رآه من آيات التصافى ؛ ولكن نيرون الغادر يزجره قائلا : إنه لم يكن يحسبه على هذه البلاهة البالغة . أن أجربينا الساذجة تتوهم أنها انتصرت انتصاراً مبيناً ، ولكنها تتعجل النصر فنيرون حين يقبل خصماً إنما يقبله ليصرعه .

ويبهت بوروس لما يسمع من كلام شنيع ، ويجمجم قائلا :

« ماذا تقول يا مولاى » !

ولكن نيرون يعرف تماماً ما يقول . لا بد من تدمير بريتانيكوس بأى ثمن ، فنيرون لن يهدأ له بال ما دام على قيد الحياة . ولن يتخلص نيرون من مكائد أجربينا التى لا تنتهى إلا إذا حطم آخر أمل لها فى طلب السلطان . وقبل أن ينقضى اليوم . يقول نيرون « ستنطوى مخاوفه » : وهو يرسم هذه الخطة

« بوحى من مجده ومن حبه ومن أمنه ومن حياته » !

ولا يصدق بورروس ما سمعته أذناه ؛ كلا إن مولاه نيرون لا يمكن أن يكون صاحب هذه الخطة الجهنمية التى يبسطها له دون أن يختلج لها جسده أو يضطرب قلبه كيف يسفك هذا الرجل دم أخيه ؟ ويناشد بورروس نيرون أن يعدل عن هذه الأفكار الشنيعة التى سوف تجعله يخوض فى بحر من الدماء، وينتقل من جريمة إلى جريمة. إن قتل بريتانيكوس سوف يثير حمية أصحابه فيثوروا له ،ولكل ثأر ثأروا لدم لا يغسله إلا الدم . إن اسم نيرون سيكون بقعة حمراء تلوث صفحات التاريخ ، وأيًّا كان الأمر فبورروس يعلم أن بريتانيكوس برىء من كل تآمر ، وهو يقسم لنيرون على ذلك ، ويطلب معاقبة من دسوا له عند الإمبراطور .

ويسمع بورروس من نيرون ما يطمئن له قلبه : إن نيرون قد عدل عن خطته .

* * *

ويقبل بريتانيكوس على جونيا متهلل الوجه مستبشرًا . فهو ما كان يظن أن أخاه سيصفو له بعد هذا الغضب الشديد . إنه ينتظره فى جناحه ليعانقه ويقبله ويدفن معه شكوك الماضى ومخاوف الحاضر .

وتسمع جونيا هذا الكلام فلا تطرب له . إن قلبها يحدثها بأن نيرون يضمر لبريتانيكوس كيدًا عظيمًا . فهو قد أقسم أمامها على الفتك به وإزالته من سبيله وسبيلها . وهى لا تفهم لهذا التحول سببًا . أما بريتانيكوس فهو غارق فى أحلام السعادة . فما دامت جونيا تحبه فهو لا يعبأ بشىء فى الوجود . وغدًا يسير كل شىء على خير ما يرام . إن جونيا تشك فى كل من حولها . تشك فى الإمبراطور وتشك فى أجريبينا وتشك فى بورروس . بل هى تشك فى نرسيس الذى اتخذ منه بريتانيكوس صديقًا وفيًّا . إنها لم تعد ترى غير الغدر والمكر فى عيون هذا البلاط الفاسق . وهى لا تستطيع أن تضبط عواطفها فتجرى على خدها شئونها التى يكفكفها بريتانيكوس فتسيل من جديد .

وتأتى أجريبينا لتستعجل بريتانيكوس فنيرون فى انتظاره مشوق إلى رؤيته حريص على مصافاته . وهى قد تركته على أسعد حال يلهج بعبارات الود كأنه طفل كبير .

وينطلق بريتانيكوس إلى جناح نيرون فلا يخرج منه . لقد أعد نيرون لكل شيء عدته وإلى جواره وقف نرسيس الزنيم وقد دس السم فى كأس من النبيذ قطرة منها تصرع أقوى الرجال ، وقدم الكأس المسمومة إلى بريتانيكوس فسقط بريتانيكوس جثة هامدة .

ويسرع بوروس إلى أجريبينا وجونيا ليبلغهما النبأ المشئوم وهو فى ارتياع عظيم إنه رأى نيرون يستقبل أخاه هاشًّا باشًّا ويعانقه فى حرارة ثم يدعوه ليشرب نخب صداقتهما الأبدية ، ثم يمضى إلى أريكته يتمدد عليها ليشاهد مصرع أخيه بوجه جامد ونظرات هادئة . وحين سقط بريتانيكوس نظر نيرون إلى من حوله من رجال البلاط الذين ألفوا من قبل هذه المشاهد وقال : إنها علته القديمة التى كان يشكو منها منذ طفولته قد عاودته .

وفيما يتحدث بوروس تسرع جونيا إلى حبيبها وهى تأمل أن تجد فيه رمقًا من حياة . ويدخل نيرون ونرسيس على بوروس وأجريبينا . وتولول أجريبينا قائلة إن نيرون قتل أخاه . ولكن نيرون ينكر التهمة فى هدوء ويعنف أمه على شكوكها .

ويعلن نرسيس فى شماتة أن كل هذا الاضطراب لا مبرر له . فقد كان بريتانيكوس يطمع لا فى يد جونيا وحدها ولكن فى عرش قيصر . ويشتد هياج أجريبينا وتصرخ قائلة إن نيرون اليوم قد قتل أخاه وهو غداً سيقتل أمه ، فهو ملعون بكل لسان . وستحفر جرائمه فى ذاكرة البشر إلى آخر الزمن . ولسوف تقتص منه عدالة السماء فتنهشه زبانية الانتقام وتسفح دمه النجس كما سفح الدم الزكى . هذه لعنة أم على ولدها .

وينصرف نيرون ومعه نرسيس ، بعد أن يرمق أمه بنظرة حقد قاتلة ينخلع لها قلبها .

ولا تلبث ألبينا أن تقتحم الحجرة وهى تندب وتولول : لقد ماتت جونيا ! لقد ماتت جونيا ! لقد انتحرت جونيا إلى جوار جثمان بريتانيكوس لتلحق بحبيبها.

لقد انتحرت جونيا لتفلت من قبضة الطاغية بعد أن أوسعت نرسيس طعنًا بخنجرها حتى أجهزت عليه . وحين رأى نيرون حطام شهواته ودسائسه أصابه

ذهول شديد فاعتزل الناس ولزم الصمت الطويل كأن زبانية الندم تنهش قلبه نهشاً .

وتصلي أجربينا إلى السماء راجية أن يطهر الندم قلب نيرون ويفتح عينيه على سبيل الرشاد . أما بوروس فيقول : بل فلنصل إلى السماء لتجعل هذه آخر جرائمه !

الملك لير

لوليم شكسبير

هذه مأساة اختلط فيها الجحود البشع الذى ينحط بالإنسان إلى درك أسفل من درك الحيوان والوفاء الذى يرتفع بالإنسان إلى سموات صافية لا تسكنها إلا الملائكة النورانية التى لم تلوثها شوائب الشر ولم تداخلها ظلال المادة .

وبطل هذه المأساة ملك شيخ من ملوك بريطانيا فى الزمان الغابر اجتمع له من طيبة القلب وسذاجة العقل ما جلب عليه وعلى غيره أفظع الكوارث . وهذا هو الملك لير الذى كان يعيش فى قصره عيشة آمنة هانئة بين بناته الثلاث جونريل الكبرى وريجان الوسطى وكورديليا الصغرى ، وبين رجال بلاطه من دوقات بريطانيا ورجالاتها فى ذلك الزمان القديم . وأهمهم دوق أولبانى زوج ابنته جونريل . ودوق كورنوول زوج بنته ريجان. وضيفان عزيزان نزلا فى بلاطه على الرحب والسعة ، هما ملك فرنسا ودوق بورجونيا . وقد جاء كل منهما متودداً يطلب يد الأميرة كورديليا بنت الملك لير الصغرى ويرجو أن يظفر بهذه العذراء الطاهرة زوجاً له . ومن حول الملك لير رجال حاشيته النبلاء منهم والأخساء ، وعلى رأسهم إيرل كنت وإيرل جلوستر . ومع هذا الأخير ولداه الشابان : ابنه إدجار ، وابن له غير شرعى هو أدموند .

ويسير كل شىء فى بلاط الملك لير على خير ما يرام حتى تزين للملك لير سذاجته ذات يوم أن ينزل عن عرشه لبناته الثلاث وأزواجهن وأن يقسم بينهن مملكته . فهو قد حكم بريطانيا السنين الطوال فى حزم وهدوء وهو الآن شيخ مسن يحسن به أن يستريح بعد كل مالاقاه من عناء الملك ، ومن الخير أن يقسم دولته بين ورثته فى أيام حياته من أن يعرض دولته للنزاع والشقاق بعد وفاته .

وهكذا يجمع الملك لير بناته الثلاث وأزواجهن وعامة رجال البلاط فى غرفة

العرش ليعلن عليهم ما استقرت عليه مشيئته . ويبسط أمامه خريطة بريطانيا قائلا إن حكم البلاد بحاجة إلى عزم الشباب وفتوته . وإنه لهذا الأمر قد قرر أن يخلع أعباء الملك عن كاهله الذى أضنته الشيخوخة . وأن يقسم المملكة بين بناته الثلاث حتى يجنب المملكة كل شقاق بعد وفاته . وهو لا يريد أن يحتفظ لنفسه بشىء إلا لقب الملك وحرساً قوامه مائة من الفرسان . أما السلطة فهو يخلعها كما يخلع تركته الواسعة على بناته وأزواجهن : يخلعها على جونريل وزوجها دوق أولبانى . وعلى ريجان وزوجها دوق كورنوول . وعلى كورديليا ومن يقع عليه الاختيار ليكون زوجاً لها ، سواء أكان ذلك ملك فرنسا أم دوق بورجونيا . ويعلن الملك لير أنه لن يحتفظ لنفسه بقصر أو بلاط بل سيقيم فى بلاط كل بنت من بناته شهراً على التداول . ينعم بهدوء الشيخوخة فى رعاية بناته المحبات لأبيهن الشيخ .

وقبل أن يقسم الملك لير مملكته عليهن لا يطلب إليهن إلا شيئاً واحداً . فهو يريد أن يعرف مقدار ما تحمل كل منهن من الحب له حتى يختصها بجانب من مملكته يتكافأ مع حبها .

وتبدأ جونريل بالحديث . فهى كبراهن . قائلة إنها تحب أباها حباً يتجاوز حبها لنور العين وتؤثره على الحياة والجاه والحرية والمجد وكل ما فى الدنيا من نعم . بل إنها لا تجد من الألفاظ ما تستطيع أن تعبر به عن حبها له .

ويطرب الملك لير حين سمع هذا الكلام ويخلع على جونريل وزوجها دوق أولبانى الأراضى والضياع وغنى الغابات التى تجرى من تحتها الأنهار . ويرسم حدود ما خلع على خريطة بريطانيا حتى يعرف كل نصيب جونريل من دولة أبيها .

ويلتفت الملك لير إلى ابنته الوسطى ريجان مستفسراً . فتجيبه ريجان بأن كل ما قالته أختها الكبرى فى وصف حبها له يقصر عما تكنه هى له من حب ووفاء . فكل ما يمكن أن ينغص حياته ينغص حياتها . وهى لن تذوق السعادة طعماً إلا أن يعيش هو سعيداً . بل إنها لتجد فى حبها لأبيها المصدر الأوحد

لسعادتها .

ويسر الملك لير بما أغدقته عليه ابنته ريجان من عبارات الحب والإخلاص، ويخلع عليها من ملكه ما يتناسب وهذا الحب المستفيض .

ثم يلتفت إلى كورديليا صغرى بناته وأحبهن إليه ، منتظرًا منها أن تعبر له عن مكنون فؤادها . ولكن كورديليا الحائرة تنظر إلى أختيها نظرها إلى منافقتين معسولتى اللسان . ولا تجد ما تقوله بعد كل ما سمعت من كلام سهل يسير . فالحب عندها لا يقاس بالألفاظ . وهو جوهر مكنون فى القلب إن جرى على اللسان صار بخساً رخيصاً . وتجيبه كورديليا أخيرًا : « شقية أنا يا أبت . فأنا لا أستطيع أن أزفر من فمى ما يكنه فؤادى : إنما أحب جلالتك بما يقضى على به الواجب . لا أكثر ولا أقل » .

ويغضب الملك لير ويصيح فيها مهتاجًا أن تصلح من مقالها . فلا تجد كورديليا المسكينة ما تقوله إلا أن تضيف : « أنت أنجبتنى وأنشأتنى وأحببتنى . وإنى لأرد لك كل ما اضطلعت به من واجب الآباء نحو البنين بما ينبغى من واجب على البنين نحو الآباء . فأطيعك وأحبك وأجلك . ولست أفهم لم تزوجت أختاى إن كانتا تختصانك بكل ما فى قلبيهما من الحب . أما أنا فحين أتزوج فسوف أعطى زوجى الذى أعاهده نصف ما فى قلبى من حب ونصف ما أملك من رعاية ونصف ما أدين به من واجب . أجل . أنا لن أتزوج كما تزوجت أختاى فأخص أبى بكل حبى » .

ويثور لير الأحمق ثورة شديدة ويصخب ويلعن ويتهم كورديليا بالجحود ويتبرأ منها . فهى لم تعد ابنته وهو لم يعد أباها . وليس لها فى ذمته حقوق . ويحرم الملك لير ابنته المسكينة كورديليا من كل ميراث . ويوزع نصيبها على أختيها ويأمرها أن تغرب عن وجهه . وعبثاً يحاول ايرل كنت أن يهدئ من روعه . فهو قد غدا يبغض هذه البنت العاقة التى اختصها بكل حبه فإذا بها تتنكر له . وحين يلحف إيرل كنت على الملك لير فى أن يترفق بابنته التى لاذنب لها إلا صراحتها

وأمانتها يشتد غضب الملك فيأمر بنفيه من البلاد ويحرم عليه أن تطأ قدماه أرض بريطانيا .

ويدعو الملك لير العاشقين المتنافسين اللذين نزلا ببلاطه لخطبة ابنته كورديليا ، وهما ملك فرنسا ودوق بورجونيا . ويعلنهما أنه قد جرد ابنته من كل شيء حتى البائنة ، فمن رضى بها زوجاً له على حالها هذه ، فهي له في التو واللحظة يأخذها وينصرف بها إلى بلاده إلى غير عودة . وحين يسمع دوق بورجونيا هذا الكلام يتنصل مما جاء من أجله ، قائلا لكورديليا إنه ينسحب آسفاً فمن فقدت الأب فقد وجب أن تفقد الزوج كذلك . أما ملك فرنسا فيتقدم منها قائلا : « أي كورديليا ! يا أجمل من في الوجود ! أنت أغنى النساء بهذا الفقر الذي ابتليت به ، وصفوتهن بهذا التخلي ، وأحبهن رغم هذا الازدراء ! » إن كورديليا درة يتيمة لا يعرف قدرها أمير شره يزن مهرها وضياعها أكثر مما يزن فضائلها . ولسوف يتزوجها هو ويجعل منها ملكة فرنسا ويعوضها عما فقدته أضعافاً .

وهكذا ينصرف ملك فرنسا مع كورديليا غاضباً بعد أن انصرف السيد النبيل أيرل كنت الذي نفاه لير الغاضب لدفاعه عن كورديليا الأمينة .

هذه الأمور تدور في قصر الملك لير .

وفي قلعة دوق جلوستر ، نجد ابنه غير الشرعي أدموند يعد العدة للإيقاع بأخيه أدجار ، وهو ابن جلوستر الشرعي ، ليصبح وريث الدوق العجوز مكان إدجار ، بل يعد العدة للإيقاع بأبيه ليئول إليه لقب جلوستر حين تواتيه الظروف .

إن جميع الناس يعاملونه معاملة ابن السفاح ، وهو قد سئم هذه المعاملة ولسوف يضع لها حداً . ولماذا يختص الناس أخاه إدجار بالاحترام من دونه وهو لا يقل عنه نبلا أو شرفاً أو ذكاء أو معرفة بفنون الفروسية ؟ إنه ليبغض إدجار من أعماق قلبه ، ولو استطاع أن يدمره تدميراً لما تردد في ذلك .

ويزيف أدموند خطاباً موجهاً إليه بخط إدجار يقول فيه إنه لا بد من القضاء على أبيهما العجوز أيرل جلوستر حتى تئول إليهما أمواله فيعيشان في بحبوحة وينفقان

عن سعة . وحين يدخل عليه أبوه يفتعل الماكر أدموند إخفاء هذا الخطاب ليثير فضول أبيه ثم يسلمه إليه على مضض مصطنع إزاء إلحاحه . وهكذا يستقر فى روع دوق جلوستر العجوز أن ولده إدجار يتآمر عليه للفتك به ، فيتملكه هياج شديد ويصب عليه اللعنات ويأمر ابنه غير الشرعى أدموند أن يقبض عليه بأى ثمن . فلما يلتقى أدموند بأخيه أدجار يحذره من غضب أبيه الذى لا يدرك أدجار له سببًا إلا أن يكون واشيًا من الوشاة قد دس عليه أمرًا لا علم له به . وينصح أدموند اللئيم أخاه الطيب إدجار أن يختفى قليلا عن العيون إلى أن يهدأ غضب جلوستر العجوز . بل وينصحه أن يسير دائمًا مدججًا بالسلاح ، فهو يخشى أن يغتاله مغتال أوفده أبوه الناقم عليه .

أما النبيل المنفى أيرل كنت . فقد حسب الجميع أنه قد رحل إلى منفاه فى ألمانيا . ولكن كنت الوفى لا يبرح بريطانيا ، بل لا يبرح خدمة مولاه الملك لير ، فهو يعلم أن هذا الملك الشيخ الطيب القلب إلى حد الحماقة محوط بذئاب . وهو عازم على أن يبقى إلى جواره للدفاع عنه مهما كلفه ذلك من عنت . ولذا فهو يستخفى فى زى فلاح من عامة الشعب . ويعود إلى الملك لير . ويعرض عليه خدماته ويبدى من الوفاء له ما يجعل الملك لير يستبقيه فى معيته .

وحقيقة الأمر أن أيرل كنت يعلم أن أمور مولاه لا تسير على ما يرام . فهو يقيم مع ابنته جونريل وزوجها دوق أولبانى مع مائة من فرسانه . ولكن جونريل لا تلبث أن تضيق بأبيها وبفرسانه المائة . فتعامل رجاله أسوأ معاملة . وتبدى له من الإهمال ألوانًا . بل وتجعله يحس بتأففها منه وتوشك أن تغلظ له القول إغلاظاً . وهى تزعم أن أباها الملك لير لا يريد أن ينسى أنه ملك البلاد . وهى تتهمه بأنه يسىء معاملة رجالها فى قصرها . وتتهم فرسانه بأنهم قد أحالوا قصرها العظيم مسرحًا لعربدتهم كأنه حانة أو ماخور . وأنهم على اشتباك دائم بحرس القصر من فرسانها . وهى لا تفهم فيما تتكبد هى وزوجها نفقات هؤلاء الفرسان المائة بل هى لا تفهم فيم حاجة الملك الشيخ لير إلى كل هؤلاء الفرسان : وتقول إن حرس قصرها كفيل بحراسته . بل هى تذهب إلى أكثر من هذا فتزعم أن

وجود كل هذا العدد الضخم من الفرسان مصدر خطر على دولتها . وأن احتفاظ الملك الشيخ بهم تهديد دائم لها ولزوجها . فلا بد إذن أن ينزل الملك لير عن خمسين من فرسانه . فهى لن تطعم منهم إلا خمسين ولن تؤوى إلا خمسين .

وتخرج جونريل من التأفف إلى المصارحة . إنها لم تعد تحتمل رجاله السلطاء الميالين إلى الشجار . بل إنها لم تعد تحتمل دفاعه عنهم كأنه يوافق على مسلكهم . بل هى لم تعد تحتمل أباها الشيخ نفسه وهو يأمر وينهى فى قصرها كأنه صاحب الكلمة فيه . وهو قد ضرب خادمها الخاص سيوارد . فليته يعرف حدوده ويرعى وقاره وينسى أنه كان ملك البلاد . فإن لم يسرح خمسين من رجاله المعربدين الصاخبين تكفلت هى بتسريحهم بما لديها من قوة . وإن لم يعلم الباقين الأدب وحسن السلوك ضربت هى على أيديهم بما لديها من بأس .

ويفجع الملك لير حين يسمع كل هذا الكلام السليط . ويثور . ويلعن . إن ابنته الجاحدة جونريل تضيق به وبرجاله ولما يمض شهر على إقامته معها إنه لن يقيم مع هذه الحية الرقطاء يوماً واحداً بعد ذلك لسوف يمضى على الفور إلى أختها ريجان . فهى لا شك ستكرم وفادته . ويراه دوق أولبانى الطيب زوج جونريل على هذه الحال من الهياج الشديد فيحاول أن يهدئ روعه فلا تفلح مع لير تهدئته . بل يذهب يضرب رأسه بقبضته ويصب اللعنات على ابنته الجاحدة ضارعاً إلى السماء أن تجدب رحمها وتجفف ضرعها . حتى تمحى ذكراها من الوجود . بل هو يصلى أن ترزقها السماء من صلبها نسلا كالأفاعى ينهشها ويذيقها صاب العقوق .

وحين يعلم الدوق الطيب أولبانى بما فعلته جونريل مع أبيها يؤنبها على غلظتها وعلى تشككها فى فرسانه المائة ويحاول أن يردها عما رأته من طرد خمسين من رجال الملك لير فلا تستمع جونريل إلى وصاياه .

وقبل أن يجهز الملك لير نفسه للرحيل إلى ابنته الثانية ريجان يوفد كنت الأمين الذى استخفى فى زى خادم بمعيته إلى قصر أيرل جلوستر ثم إلى قصر كورنوول

حيث ابنته ريجان ، وقد زوده برسائل يشرح فيها لجلوستر ولابنته الوسطى كيف أساءت جونريل معاملته . ويعلن فيها أنه قادم على عجل . فينطلق إيرل كنت بالرسائل . ولكن كنت الأمين لم يكن بالرسول الوحيد إلى ريجان وزوجها ، فقد أوفدت جونريل نفسها إلى أختها رسولا من عندها هو خادمها الخاص أوزوالد لتحرض أختها على أبيها الهرم المخرف الذى يحتاج إلى من يحجر عليه أكثر مما يحتاج إلى من يعنى به . ويلتقى الرسولان ببلاط كورنوول . وتعلم ريجان وزوجها بشكوى الملك الشيخ ولكن ما أن يطلعا على رسالة جونريل حتى يفتر ترحيبهما برسول الملك . بل ويبديا له الغلظة فى الكلام . ثم يفزعان إلى جيادهما ويسرعان إلى قصر جلوستر يتبعهما رجالهما والرسولان .

* * *

وفى قصر جلوستر تجرى مأساة شبيهة بمأساة لير مع بنته جونريل ، هى مأساة إيرل جلوستر نفسه مع ابنه غير الشرعى أدموند . فقد سمم أدموند الآبار لأخيه إدجار عند أبيهما الإيرل . زاعماً أنه يتآمر للفتك به حتى جعل الإيرل العجوز يأمر بالقبض عليه . وفى قاعة من قاعات القصر يلتقى أدموند بإدجار ليلاً فيعود إلى تحذيره ويغريه بالهرب اتقاء غضب أبيه . ولكن قبلما يفر إدجار يقترب الأب من القاعة . فيوحى أدموند إلى إدجار أن يمتشق حسامه ويتظاهر بالدفاع عن نفسه لأنه سيهاجمه . فيطيعه إدجار الطيب دون أن يفطن إلى المراد من حيلته . وحين تدنو خطوات أبيهما يوحى أدموند إلى إدجار بالفرار ، ويخلو أدموند إلى نفسه لحظة فيجرح نفسه بسيفه . وما أن يدخل الأب إيرل جلوستر حتى يصرخ أدموند اللئيم قائلا : امسكوه ! امسكوه ! ويعرض جرحه على أبيه زاعماً أنه تلقى الطعنة من إدجار الذى جاء مرة أخرى يجادله فى وجوب الفتك بأبيهما ، فلما أبى جرد عليه سيفه ثم فر حين سمع وقع الأقدام . فيعلن إيرل جلوستر أنه قد أهدر دم ولده الخائن إدجار وأنه سيكافئ من يقتله .

ويصل دوق كورنوول وزوجته ريجان وسط هذا الاضطراب ويسمعان جلوستر العجوز يتمدح بوفاء ابنه غير الشرعى أدموند ، الذى أنقذه من كيد أخيه

العاق إدجار ، ويعجب بسالته ، فيسمح دوق كورنوول ويجعل ابن الزنا فارساً من فرسانه .

ثم يعلو الهرج خارج القصر ، فقد استوقف إيرل كنت رسول لير أوزوالد رسول جونريل بباب القصر وتحرش به لكثرة ما أساء هذا التابع الوضيع إلى الملك الشيخ . وبعد ما تحرش به اعتدى عليه ، فإذا بالجبان لا يقرع السيف بالسيف بل يستغيث طالباً النجدة . ويمثل الرجلان فى حضرة دوق كورنول حين يسمع قصة التحرش ويأمر بوضع قدمى كنت فى الأصفاد رغم علمه بأنه رسول الملك لير ، ثم يأوى كورنول وريجان إلى جناحهما فى القصر .

ويأسف جلوستر لهذا الذى حدث فهو صاحب الدار ، ولكن دوق كورنول يتصرف كأنه صاحب الأمر فى داره . وجلوستر من حاشية الملك لير ورجاله الأوفياء . وهو يعلم أن وضع رسول الملك فى الأصفاد لا شك سوف يغضب الملك . وهو يرجو أن يتوسط لدى دوق كورنول حتى يفك هذه الأصفاد إكراماً للملك الشيخ .

ويصل الملك لير إلى قصر جلوستر فى الصباح . فماذا يرى ؟ يرى رسوله كنت وقد غلل بالأصفاد . ولا يصدق الملك الشيخ أولا أن كورنول وريجان قد عاملا رسوله هذه المعاملة المهينة ، ولكن حين يتحقق من ذلك يأخذ منه الهياج كل مأخذ . ويطلب الملك لير مقابلة ابنته ريجان وزوجها ليأمرهما بفك أصفاد رسوله . ولكن جلوستر يعود قائلا إنهما يعتذران عن لقائه لأنهما متعبان . ويزداد هياج الملك الشيخ . فالملوك لم يتعودوا أن يعتذر الناس عن لقائهم . وينادى بالويل والثبور . لا بد من فك أصفاد رسوله فوراً . وإزاء إلحافه وهياجه يعود جلوستر بدوق كورنويل وريجان اللذين يأمران بفك الأصفاد .

ويسر الملك لير لما يجده عند ريجان من بشاشة مصطنعة ويفتح لها قلبه . فيشكو لها ما لقيه من سوء المعاملة فى بلاط أختها جونريل . ولكن ريجان تدافع عن مسالك جونريل قائلة إن أختها لا شك تعرف واجبها ، فيغضب لير ويصب على جونريل اللعنات . فتقرعه ريجان قائلة إنه رجل مسن وأن الشيخوخة قد أوشكت أن تذهب بحلمه فهو بحاجة إلى من يرشده إلى الصواب . وتنصحه أن يعود إلى

أختها جونريل هذه التى يسىء إليها كل هذه الإساءة . فإن رضى بتخفيض عدد فرسانه إلى خمسين فارساً أمكنه أن يقيم معها شهراً بعد انقضاء شهره مع جونريل . . . ويرفض لير العودة إلى بلاط أولبانى رفضاً باتاً ويحز فى نفسه دفاع ريجان عن أختها العاقة .

وتصل جونريل إلى قصر جلوستر ، ويستاء لير من حسن استقبال ريجان لها . وتكرر ريجان عليه ما قالته عن وجوب عودته إلى جونريل وتسريح نصف رجاله ، بل إن ريجان وجونريل تتفقان على أن الملك لير ليس بحاجة إلى حرس خاص إطلاقاً ؛ فنى كل بلاط يقصده ما يكنى من الحرس والخدم والحشم ، وريجان لن تقبل استضافته إلا إذا اكتنى بخمسة وعشرين فارساً ؛ فنى كثرة فرسانه خطر على أمن الدولة . ويثور الملك الشيخ ويصف ريجان بالعقوق قائلا إنه يؤثر العودة إلى جونريل بين خمسين من رجاله على الإقامة معها بين خمسة وعشرين . ولكن جونريل تقول إنها لا ترى أنه بحاجة إلى فارس واحد . فإن أراد أن ينزل فى بلاطها بمفرده فالبلاط يتسع له أما رجاله فلا .

ويجن جنون الملك الشيخ . إنه لن يبقى مع هاتين الحيتين السامتين لحظة واحدة . وينطلق الملك لير خارجاً من قصر جلوستر وهو فى هياج عظيم ولا يصحبه إلا كنت . ويأمر أن يأتوه بجواده رغم ما يراه من جو ينذر بعاصفة هائلة .

* * *

وينطلق الملك لير فى الرحاب والفلوات وهو يرغى ويزبد كالمجنون على صهوة جواده . ويقعقع الرعد وتلمع أرجاء السماء بالصواعق والبروق وتتفتح ميازيب السماء وتزمجر الرياح الصرصر العاتية ، فلا يخافها الملك الشيخ بل يستزيدها ويصلى للسماء أن تدمر الأرض بطوفان يغرق الحرث والنسل ، فهو قد رأى من وحشية الإنسان ما يجعل الطبيعة الضارية تبدو كالأم الرءوم . لقد أصابته لوثة أودت بعقله .

وفى هذه العاصفة الهوجاء يلتقى كنت بسيد على سفر فيحمله رسالة شفوية إلى كورديليا التى أقامت فى ميناء دوفر بعد زواجها من ملك فرنسا ، وفى هذه

الرسالة ينبئ كنت كورديليا بما آلت إليه حال الملك لير . ولا يبين كنت عن حقيقة شخصه ولكنه يعطى خاتمه للسيد المسافر حتى تتعرف كورديليا على مرسل الرسالة وتطمئن إلى الرسول .

أما ملك فرنسا فقد عاد إلى بلاده ليجهز جيشاً يغزو به بريطانيا ويسترد نصيب كورديليا من المملكة بقوة السلاح . وقد كانت له قدم ثابتة وأعوان كثيرون فى دوفر وغيرها من موانئ الجنوب .

ويقود كنت الملك لير فى هذا الجو العاصف المطير إلى كوخ يقيه شر الطبيعة . وهناك يلتقيان بمعتصم آخر هو الفتى إدجار ولد جلوستر الذى أهدر أبوه دمه بدسيسة من أخيه أدموند . وقد استخفى إدجار الفار من غضب أبيه واصطنع الجنون حتى لا يشك أحد فى هويته . وأطلق على نفسه اسم توم المسكين .

وفى جلوستر يتألم إيرل جلوستر لمحنة الملك لير ولما رآه من عقوق بنتيه . فجلوستر يحب هذا الملك المنكوب ويخلص له الوفاء . وجلوستر يعلم سراً خطيراً لا يعلمه أحد فى القصر فقد جاءته رسالة خاصة تنبئه بأن الشقاق قد استشرى بين رجالات بريطانيا ونبلائها وأن ملك فرنسا قد نزل بجنوده فى ميناء دوفر وهو يعد العدة لغزو البلاد . وهو يجمع من حوله نبلاء بريطانيا . وعما قريب تأتى ساعة الانتقام لهذا الملك الشيخ . كل هذا يقوله إيرل جلوستر المخدوع لولده أدموند الذى غدا موضع ثقته . بل هو يدله على المكان الذى خبأ فيه الرسالة الخطيرة . وهو يخرج من قصره متحدياً العاصفة الهوجاء باحثاً عن الملك لير ليمد له المساعدة وليطلعه على ما عنده من أنباء يطمئن بها قلبه . وليطلب إليه الرحيل إلى دوفر حيث يجد الأمان فى بلاط ابنته كورديليا فهو يعلم أن ريجان وجونريل تعدان العدة للفتك به اتقاء لخطره .

وما أن ينصرف إيرل جلوستر حتى ينطلق أدموند إلى دوق كورنول وريجان وجونريل ويطلعهم على الرسالة التى أخفاها أبوه فيتحقق لهم ولاؤه لأعدائهم . ويجرد دوق كورنول إيرل جلوستر من لقبه وينصب ابنه أدموند مكانه سيداً على جلوستر ويخلع عليه كل أملاك أبيه ويتخذ منه قائداً لجيشه ثم يوفد إلى دوق أولبانى رسولاً ينبئه بنزول جيش فرنسا أرض بريطانيا حتى يعد العدة لملاقاته.

وحين يعود جلوستر الأب يقبض عليه رجال دوق كورنول وريجان ويكبلونه بالأغلال . ويعذبونه تعذيباً أليماً . ثم يفقأ دوق كورنول عينيه واحدة بعد أخرى . ولا يستطيع خدم جلوستر العجوز أن يحتملوا بشاعة هذا المنظر فيتناول أحدهم سيفاً وينقض به على دوق كورنول ويطعنه طعنة قاتلة فيموت بعد حين متأثراً بجراحه . وفى هذه الأثناء تجهز أريجان على هذا الخادم الثائر بيدها . وتأمر الخدم أن يقذفوا بجلوستر الضرير خارج القصر ليشق طريقه إلى دوفر .

* * *

ويخرج جلوستر الضرير فى الفلوات المحيطة بقصره يقوده شيخ هرم . وقد أدرك جلوستر حقيقة ابنه المجرم أدموند كما أدرك براءة ولده إدجار مما نسب إليه ولكن بعد فوات الأوان . ويسلم الشيخ الهرم جلوستر الضرير إلى ولده إدجار الذى يتمزق قلبه أسى لمحنة أبيه . ولكن رغم ذلك لا يبين عن شخصيته لأبيه . بل يمضى فى استخفائه مصطنعاً البله والجنون باسم توم المسكين ويطلب جلوستر من توم المسكين أن يقوده فى السبيل إلى دوفر ليلحق بمولاه الملك لير فى بلاط كورديليا . فيقود إدجار أباه حتى يبلغ به مشارف المدينة .

أما دوق أولبانى الطيب القلب فيسأم فعال زوجته الخسيسة جونريل . وحين يأتيه نبأ جلوستر وما حل به ويعلم ما آلت إليه حال الملك لير الذى ذهب عقله ونقل على محفة إلى دوفر محافظة على حياته يأسف لكل هذه الأحداث الفاجعة . بل هو يعلم أن زوجته جونريل تتعلق بالفتى النذل أدموند هذا الذى طارد أخاه وخان أباه حتى يؤول إليه اللقب والضياع الواسعة .

ولكن أولبانى ذلك يعلم أن أمامه مهمة تقدم على كل شىء آخر . وهى ملاقاة جيش ملك فرنسا وطرده من دوفر ومن البلاد . إن دوق كورنول قد قضى نحبه متأثراً بجراحه ولم يبق إلا أن يضطلع وحده بقيادة جيش بريطانيا والسير به إلى دوفر . إنه يمقت زوجته جونريل ويحتقرها منذ أن استبان له أنها شيطان مريد . وهو يمقت أختها ريجان أرملة كورنول ويحتقرها منذ أن تأكد له أنها نمرة كاسرة . وبعد أن ينتصر على ملك فرنسا سوف يعيد كل أمر إلى مجراه

ويضع كل شيء في نصابه ، فيرد للملك الشيخ كرامته ويرد لجلوستر المسكين حقوقه وإن كان لا يستطيع أن يرد له بصره وينصف إدجار الهارب من أخيه الدنيء ويأمر بعودة إيرل كنت من منفاه فى ألمانيا ، وينتقم من كل جان شر انتقام . ولكن عليه أن ينتصر أولا .

أما الملك لير فهو فى دوفر قريب من معسكر ابنته كورديليا ولكنه يرفض أن يلقاها ، فالخجل يملأ قلبه والندم يحز ضميره وعقله الذى ذهب أكثره يشتعل كلما فكر فى إساءته إليها . ولكن كورديليا الوفية تلح فى طلبه لتعنى به ولتطيب نفسه ويجيئونها بأبيها الشيخ فى معسكر الفرنسيين وهو فى رعاية إيرل كنت الذى تتعرف عليه كورديليا رغم تخفيه . ولا يتعرف لير على ابنته كورديليا فقد غشيت عقله سحابة قاتمة . وتقبل عليه كورديليا فى حدب وبر قائلة : « أى أبت العزيز إن فى شفتى شفاءك ، فدع قبلتى هذه تطيب جراحك البليغة التى أصابت بها كرامتك أختاى ! » .

ويحسب لير أن هذا الملاك الحانى عليه روح طاهرة تحوم فى الفضاء ويجثو إلى جوارها كما يجثو العابد . ولا يزال يتصفح وجهها حتى تنقشع الغمامة السوداء من عقله درجة درجة ويدرك آخر الأمر أنها كورديليا ابنته .

أما جلوستر الضرير فيطلب إلى ولده إدجار الذى يقوده أن يمضى به إلى صخرة عالية شاهقة تطل على شاطئ البحر فى دوفر . فهو قد اقترف إثماً عظيماً ولا نجاة له من وخز ضميره إلا الانتحار . نعم لا بد أن يكفر عما جناه فى حق ابنه إدجار المسكين . لا بد أن يقفز من فوق صخرة دوفر الشاهقة فيبتلعه اليم ويرتاح بالموت من عذاب الضمير .

ويعلم إدجار أنه لا نجاة لأبيه الضرير من كل هذا الألم المبرح الذى يوشك أن يودى بعقله إلا أن يخدعه فيهيئ له أنه قد عاقب نفسه بما يشتهى . وبهذا يرتد إليه سكونه . وهكذا يقود إدجار جلوستر الضرير إلى صخرة بعيدة عن الشاطئ ويتركه يثب من فوقها . فيسقط على الأرض مصاباً برضوض ولكنه لا يصاب بسوء . وبعد أن يفيق جلوستر الضرير يصور له إدجار أنه طلب الموت ولكن الموت عز عليه لأن أجله لم يحن بعد ويثبت قلبه وسط شدائد الحياة قائلا :

« ينبغى على الإنسان أن يصبر على يوم رحيله صبره على يوم مجيئه فى هذه الحياة » .

* * *

وتدنو جيوش بريطانيا من دوفر . ويضم دوق أولبانى وجونريل صفوفهما مع صفوف أدموند وريجان . ويقود لير وقد شفى جيش الفرنسيين الذى يظاهر كورديليا فقد كان زوجها ملك فرنسا غائباً فى بلاده لأمر هام وأقام مقامه، مارشال فرنسا واسمه لافار . وتكون معركة ضروس بين الجانبين تنتهى بهزيمة الملك لير وجيش الفرنسيين . ويقع الملك لير وابنته كورديليا فى أسر الوغد أدموند . وبدلا من أن يسلم أدموند الأسيرين إلى دوق أولبانى يزج بهما فى السجن ويوفد إليهما رجلا من رجاله ليجهز عليهما سراً .

ويطالب دوق أولبانى بتسليم لير وكورديليا إليه . فهو صاحب الأمر فى بريطانيا وجيشها . ولكن أدموند يأبى تسلمهما فى صلف شديد زاعماً أنه شريك أولبانى فى كسب الحرب وصنوه فى حكم البلاد . وتؤازر ريجان أدموند فى دعواه قائلة إنه يمثل شخصها ويقود قواتها بتفويض منها . فحقوقه وحقوقها سواء . بل إنها تتخلى له عن كل ما لها وقواتها وسلطانها ليكون زوجاً لها من بعد كورنول الراحل .

ويغضب أولهبانى فو لن يقر زواج أميرة ملكية من ابن سفاح مهما كان بارعاً فى فنون القتال . وتغضب زوجته جونريل لأنها تعشق أدموند ولن تأذن لامرأة أن تشاركها فيه . ويقول أولبانى ساخراً من زوجته أنه يحرم هذا الزواج دفاعاً عن حقوق زوجته جونريل . ويعلن أولبانى أنه يقبض على أدموند بتهمة الخيانة ، فهو يعلم بما بينه وبين زوجته من صلة . ثم يتحداه للمبارزة ويقذف على الأرض قفازه . فيجيبه أدموند بأنه يقبل التحدى ويقذف قفازه على الأرض أيضاً .

وينفخ النافخ فى النفير معلناً بدء المبارزة . وعند النفير الثالث يتقدم إدجار أخو أدموند كامل العدة مدججاً بالسلاح . ويعلن على الملأ أن مبارزة أخيه الخائن أدموند حق له أولا منددا بكل ما ارتكبه أدموند من آثام .

وبعد نزال عنيف يخر أدموند صريعاً . وقبل أن تفيض روحه يطلب إلى أخيه إدجار أن يصفح عنه . ويتصافى الأخوان فى لحظة الموت الرهيبة .

أما جونريل فتنطلق وفى عينيها وميض فقد عزمت على شىء هيب . ويأتى بعد حين سيد صائحاً: النجدة ! النجدة ! وفى يده خنجر يقطر دماً . ويعلن السيد أن جونريل قد دست السم لأختها ريجان فقتلها ثم طعنت صدرها بالخنجر طعنة نجلاء ، وفاضت روحها . وينظر دوق أولبانى إلى السماء العادلة قائلا: « إن هذا القضاء السماوى الذى يجعلنا نرتجف لا يحرك فى قلوبنا الأسى » .

ويعرف دوق أولبانى وإدجار من أدموند قبل وفاته بما بيته من كيد للملك لير ولكورديليا . ويبادر إدجار إلى السجن لإنقاذهما ولكنه يجد أن السهم قد نفذ فى كورديليا . وبعد حين قليل يدخل إدجار وكنت ومعهما الملك لير حاملا جثة ابنته كورديليا . وهو يصيح صياحاً يقطع نياط القلب ! « لن تعودى ! لن تعودى ! أبداً ! أبداً ! أبداً ! أبداً ! أبداً ! » . لقد شنقها الجلاد الأثيم ليزعم سيده أمام الناس أن أميرة البلاد قد انتحرت . ويريح الملك الشيخ جثمان كورديليا على الأرض ، وما يزال يتفجع إلى جوارها حتى يتفطر قلبه ويسقط جثة هامدة .

ولا يبقى على مسرح الحياة الفاجع إلا دوق أولبانى الطيب القلب ومن حوله كنت الوفى وإدجار الأمين يدبران شئون المملكة وينقذان ما تبقى فيها من خير تحت هذه الأنقاض .

عطيل

لوليم شكسبير

نحن الآن فى نهاية القرون الوسطى أو فى بداية عصر النهضة الأوربية يوم كانت مدن إيطاليا وأساطيلها تملك ناصية البحر الأبيض المتوسط ، وتملك معها ناصية التجارة بين الشرق والغرب . ومن هذه المدن الغنية بالفنون والعلوم والخيرات كانت مدينة البندقية تتألق بينها كالنجم الساطع . ولا تزال البندقية تتألق حتى بعد أن ظهرت فى الأفق دولة الترك العثمانيين . واجتاحت جحافلها الأراضى والأمصار وغدت أكبر قوة عسكرية تنازع مدن إيطاليا السيادة من البحر المتوسط وتبعث بأساطيلها إلى جزيرة قبرص وإلى جزيرة رودس تنتزعها انتزاعاً من يد البندقية .

أما إمرة البحار هذه التى استتبت فى يد البندقية زمناً فقد كان الفضل فيها لقائد مغربى عظيم وبطل مغوار تمرس فى فن القتال ألا وهو القائد عطيل ، أميرال أسطول البندقية . ولكن هذا القائد الفذ الذى عرف كيف يسوس الرجال ويكبح الصديق والعدو على السواء لم يعرف كيف يسوس نفسه . وأسلم قياده إلى أفاك دنىء من أهل البندقية عرف مكمن العلة منه وهو الغيرة ونفذ إليه فانتهى عطيل إلى كارثة أليمة تأسى لها القلوب وتتعظ بها النفوس . وهذا هو خطبه العظيم .

* * *

نحن فى شارع من شوارع البندقية فى ذلك الزمان حيث نلتقى برجلين أحدهما يدعى روديريجو والآخر يدعى أياجو . أما روديريجو فهو فتى من فتيان تلك المدينة السراة الذين يبعثرون المال فى سبيل الغوانى ، فى عقله سفه ولكن فى قلبه حباً جارفاً لفتاة طاهرة من بنات الأشراف فى البندقية تدعى ديدمونة يتحدث الناس بجمالها وذكائها وبراءتها . وأما أياجو فهو حامل العلم فى

جيش القائد عطيل ، وهو رجل طموح ذكى لبق الحديث تأكل مطامعه قلبه أكلا ، أسوء النفس ليس لحسته من قرار كأنه شيطان مريد .

ويعنف الفتى روديريجو حامل العلم أياجو لأنه لم يطلعه على ما كان من زواج قائده المغربى عطيل من هذه الفتاة ديدمونة التى علق بها قلبه ، رغم كل ما كان يصله به من مال وعطايا ليقرب ما بينهما .

وينكر أياجو أنه كان على علم بشىء مما جرى ، فقد اختفى عطيل واختفت معه ديدمونة على غير علم من ذويها ، ولعلهما الآن قد أتما مراسم الزواج خلسة . ويصارح أياجو الفتى روديريجو بمبلغ حقده على قائده عطيل . فقد كان أياجو يطمع أن يعينه نائباً له أو قائمقامه كما كانوا يقولون فى لغة الجيش يومئذ . ولكم توسط له كبار القوم فى البندقية ، ووقفوا بين يدى عطيل عارية رؤوسهم ، ولكنه لم يلق إلى وساطتهم بالا ، بل عين ضابطاً آخر يدعى مايكل كاسيو قائم مقام له . وهو رجل من فلورنسا يزعم أياجو أنه لا يفقه من أمور الحرب شيئاً . ولا يعرف كيف ينظم كتيبة فى ميدان القتال . فهو إلى جواره صفر لا أكثر ولا أقل ، وهو إلى جانب ذلك أينما سار تبعته عشيقة أمينة تدعى بيانكا . فهو من جميع الوجوه لا يصلح أن يكون قائمقام عطيل العظيم . ولكن أياجو يصبر على هذا المكروه ويتبع مولاه عطيل ويصانعه حتى تحين له الفرصة فينتقم منه شر انتقام ، ويقتص من ظلمه لشخصه ولشخص روديريجو جميعاً .

إن روديريجو وأياجو يقفان تحت شرفة النبيل برابانتيو ، والد ديدمونة ، وهو عضو فى مجلس شيوخ البندقية . وهو لا يعلم شيئاً عما جرى لابنته فمن الخير فى رأى أياجو أن يوقظ روديريجو هذا الأب المسكين من نومه ويطلعه على ما جرى ويطلق روديريجو عقيرته بالصياح قائلاً : « تنبه يا برابانتيو ! تنبه يا سنيور برابانتيو ! » ويصيح أياجو قائلاً : « استيقظ . . . اللصوص ! اللصوص ألق بالك إلى دارك ، إلى ابنتك ! إلى حقائبك ! اللصوص ! اللصوص ! » .

ويستيقن برابانتيو على هذا الصياح ، ويطل من النافذة ، وحين يتبين روديريجو ينهره ويأمره أن ينصرف . فهو قد رفض روديريجو حين تقدم لخطبة ابنته ديدمونة ، وهو يحسبه قد جاء ثملاً ليعكر عليه صفوه . ولكن روديريجو

وأياجو يقولان له إن المغربى الأسود قد فر مع ابنته ، ولعله الآن قد تزوج منها ، فإن كان السيد برابانتيو يشك فى قولهما فليبحث عن ابنته فى داره فلن يجد لها أثراً .

ويندفع برابانتيو إلى داخل الدار ويأمر الخدم بإشعال المشاعل والشموع ويجرى البحث عن ديدمونة فى كل مكان فلا يجد لها أحد أثرًا . ويأخذ الهياج من برابانتيو كل مأخذ فيلعن البنات المارقات ، ويتجسم فى عقله خاطر واحد وهو أن ديدمونة التى كانت مثالا للعذراء البريئة لا يمكن أن تهرب مع المغربى الأسود إلا تحت سيطرة السحر . نعم لا بد أن يكون عطيل قد استولى على عقلها بالسحر والرقى . ويخرج برابانتيو فى الليل ومعه أتباعه مدججين بالسلاح باحثين عن عطيل وديدمونة .

ويلحق أياجو بعطيل فى شارع آخر من شوارع المدينة ومن حولهما الأتباع يحملون المشاعل . وهنا يتكشف طبع أياجو الذى يتنفس النميمة والإيقاع كما يتنفس الهواء . فيشى أياجو برودريجو الذى أيقظ النبيل برابانتيو ، ويصطنع الحرص على مصلحة عطيل فيقول إن برابانتيو صاحب نفوذ فى البندقية وهو لا شك قادر على أن يحمل واليها على إصدار أمر بطلاق ديدمونة من عطيل .

ولكن عطيل مطمئن إلى مكانته فى البندقية فالكل يعلم بما أسداه إليها من خدمات جليلة ، والكل يعلم بشرف منبته فى بلاد المغرب فهو سليل الملوك بها ولن يجسر برابانتيو على الزعم بأنه ليس كفؤًا لابنته .

ويقبل كاسيو ، قائمقام عطيل ، ليبلغه أن الدوق، وإلى المدينة يطلب حضوره على الفور لأمر عاجل ، وهو يرجح أن الأمر يتصل بالحرب ، فقد تواترت الأنباء من قبرص بخطورة الحالة هنالك .

وفيما هم يتحدثون ، يلمح أياجو برابانتيو قادمًا بين رجاله ، فيشير على عطيل بأن يتوارى اتقاء غضب حميه ، ولكن عطيل يأبى إلا أن يواجه كل موقف مهما كان صعبًا ، ويهين برابانتيو عطيل بجارح الكلام معيرًا إياه بسواد بشرته متهماً إياه بأنه قد استولى على ابنته البريئة العذراء بقوة السحر وحده ، فهى التى ردت زهرة شباب البندقية وأوسعهم ثراء خائبين حين سعوا طالبين يدها ، قائلاً : إنه

لن يخلى سبيله حتى يثبت للدوق خيانته ويسترد منه ابنته . ولولا حكمة عطيل وهدوؤه لسالت الدماء غزاراً فى شوارع البندقية فقد جرد كل سيفه وتأهب للفتك بغريمه ، فقد رضى عطيل بأن يحكم الدوق بينهما .

ويسعى الجمع إلى قصر الدوق والى المدينة ، فإذا بالدوق مجتمع بمجلس الشيوخ يتداولون فى أمور الحرب مع الترك ، فقد اتفقت الأنباء على أن الترك قد أرسلوا أسطولهم إلى قبرص بعد خدعة حربية لجأوا إليها ليوهموا العدو بأن أسطولهم قاصد إلى جزيرة رودس .

وأخيراً يأتى الخبر اليقين من السنيور مونتانو حاكم قبرص مؤيداً أن هذه الجزيرة هى هدف الأتراك . ويبلغ الدوق عطيل بأنه يوفده على الفور إلى قبرص لحمايتها من غزو العثمانيين .

ولكن برابانتيو يقطع على الدوق وعلى الشيوخ مداولاتهم الحربية هذه ويعرض ظلامته ويتهم عطيل بأنه استولى على ابنته بقوة السحر ، فيعده الدوق انصافه إن استطاع أن يثبت أقواله . ويعترف عطيل بأنه أخذ ابنة النبيل برابانتيو وأنه تزوج منها ، ولكنه ينكر أنه استخدم فى سبيل ذلك السحر أوأى وسيلة غير مشروعة ويقول إنها إنما أحبته لصفاته ولبطولته الفذة . فكثيراً ما كان ينزل عند أبيها ضيفاً ، فيروى على الأسرة أيامه ومواقعه ويصور ما مر به من أخطار وكيف نجا من الموت ألف مرة ومرة ، وكانت العذراء ديدمونة تستمع إليه فى شغف بالغ ، وفتنت بشجاعته وصلابته فى القتال فعلق به قلبها ، حتى لقد أوحت إليه ذات مرة رغم حيائها الشديد ، أنه لو جاءها رجل يخطبها له مثل صفاته لما ردته خائباً . وأحس هو أنه يهيم بها كما تهيم به فعرض عليها الزواج فرضيت به زوجاً . وهذا هو كل ما استخدمه عطيل من سحر ليأسر به قلب ديدمونة . فإن كان الدوق وشيوخ المدينة لا يصدقون روايته فليسألوا ديدمونة نفسها .

وحين يستمع الدوق وشيوخ المدينة لرواية عطيل لا يرون بأساً فيما جرى ، بل إن الدوق نفسه يقول إن ابنته نفسها لو سمعت قصص البطولة هذه التى رواها عطيل لفعلت ما فعلته ديدمونة ولكن برابانتيو يصر على سؤال ابنته . وحين تحضر ابنته تعلن أمام الحاضرين أنها اختارت زوجها المحبوب عطيل مولى لها من بعد أبيها

بمحض إرادتها وبوحى قلبها وقد وجبت عليها الآن طاعته كما كانت طاعة أبيها من قبل واجبة .

ويسلم الأب أمره لله كارهًا والمرارة تملأ نفسه . ويطلب عطيل إلى الدوق أن تتكفل دولة البندقية بالسهر على زوجته ديدمونة حين يخرج هو إلى قبرص للقتال . ويرى الدوق أن تقيم ديدمونة فى دار أبيها ، ولكن برابانتيو يرفض أن يؤوى ابنته العاقة ، ويرفض عطيل وديدمونة هذا الرأى كذلك . وأخيرًا تقترح ديدمونة أن يؤذن لها فى أن ترافق زوجها إلى قبرص . فيسمح لها الدوق بذلك ، ويترك عطيل زوجته وديعة بين يدى « أياجو الأمين » حامل علمه وموضع ثقته ليسهر عليها ويحرسها فى رحلتها . وينصرف هو إلى رجاله وعتاده وسفائنه يجهزها للرحيل .

ويختلى الفتى روديريجو بأياجو فإذا به قانط من أمره يفكر فى الانتحار غرقًا فقد ضاع كل أمل له فى أن يحظى بديدمونة . ولكن أياجو يمنيه عذب الأمانى قائلا : « إن الصبر مفتاح الفرج . فبعد قليل تسأم ديدمونة عشرة زوجها الأسود هذا وحين تنقضى نزوتها سوف تلتفت إليه ، وبعد قليل يسأم عطيل عشرة زوجته فيلتفت إلى غيرها من النساء فليس إلا الصبر مفتاح الفرج ، ولكن لا بد أن يملأ روديريجو كيسه بالذهب ، فبغير الذهب لن ينال من وصالها شيئًا. نعم بالصبر والذهب كل شىء سيجرى بما يروم . فيجيب العاشق الساذج قائلاً إنه سوف يبيع كل ما امتلك من أرض ليحظى بديدمونة .

وهكذا يبحر الجميع إلى قبرص ، وفى قلب كل منهم حب كبير وحلم كبير ما خلا أياجو الذى انطوت نفسه الشريرة على بغض أسود ، أما حلمه فصغير ، وهو كيف يحطم كاسيو قائمقام عطيل ويحتل مكانه ؟ وهذا ما يقض مضجعه ، وهو يدبر لذلك مكيدة لا تنبت إلا فى عقل شيطان مريد .

وفى قبرص يجتمع الناس على شاطئ الجزيرة ليستقبلوا ديدمونة أولا ثم عطيل من بعدها وتدوى المدافع بالتحية حين تبدو فى الأفق سفينة ديدمونة . وترسو السفينة وتنزل منها زوجة القائد عطيل وفى معيتها أياجو حامل علمه وأميليا زوجة أياجو وهى وصيفة ديمونة والفتى العاشق روديريجو ونفر من الأتباع فتجد فى

انتظارها كاسيو قائمقام عطيل ويقبلها كاسيو قبلة الأخ المرحب بأخته فينظر إليهما أياجو نظرة ماكرة . ويعلق على طباع النساء تعليقاً يثير الظنون قائلاً لزوجته أميليا : « أنتن معشر النساء كالدمى خارج الدار ، وفى حجرات الاستقبال كالأجراس حادة الأصوات ، وفى المطبخ كالقطط المتوحشة ، تسن للغير فى براءة القديسات ، فإن أساء إليكن أحد فأنتن كالشياطين ، عابثات فى تدبير المنزل عاهرات فى الفراش » .

وتعنفه زوجته أميليا على هذه السلاطة الجارحة فلا يرعوى ، بل يذهب فى التعريض بالنساء الجميلات منهن والدميمات والحمقاوات ، وتلومه ديدمونة على سوء ظنه بالنساء كما يؤنبه كاسيو على إسرافه فى نقد المرأة .

ويخلو أياجو بالفتى العاشق رودريجو فيجدد له أمله فى أن يتخذ من ديدمونة خليلة له ، قائلاً إن ديدمونة امرأه ذات نزوات ، وما المغربى الأسود إلا نزوة من نزواتها . فهى قد اندفعت إليه دون ترو ، وحين تزهد فى عشرته سوف تندفع شهواتها إلى غيره من الرجال .

بل إن أياجو يرى أن تحول ديدمونة قد بدأ فعلاً ، فهو يقرأ فى نظراتها إلى كاسيو وفى نظرات كاسيو إليها ما ينم عن معان آثمة . وهو يعتقد أن بينهما ما يثير الريب والظنون ، ويسمع رودريجو لقوله بين مصدق ومكذب ، ولكن أياجو لا يزال به حتى ينعش فى قلبه الآمال .

وما أن ينصرف هذا العاشق الولهان ويخلو أياجو إلى نفسه حتى يتبين مكره وتتكشف خسته . فهو يعتقد حقاً أن كاسيو يحب ديدمونة ، وهو لا يستبعد أن ديدمونة تبادله حباً بحب . ولو لم يكن بين كاسيو وديدمونة غرام أو شىء مما يلوث العرض . فقد وجب عليه أن يزعم هذا زعماً . فهو يعلم أن عطيل زوج وفى يحب زوجته حباً يبلغ مبلغ العبادة وهو يعلم أن عطيل رجل شريف يرتفع تفكيره على الدسائس والدنايا وأنه يثق فيه ثقة عمياء ويلقبه دائماً بأياجو الأمين وهو يصدق كل كلمة يقولها له حامل علمه الأمين لأنه رجل طيب القلب فى نفسه براءة من براءة الأطفال ، وإنه لمنتقم منه شر انتقام بأن يثير شكوكه فى طهارة ديدمونة . بل إن أياجو نفسه يشتهى ديدمونة وهو لا يرى بأساً من أن يحظى بها ، ثم إنه مشتبه فى أن عطيل نفسه كان على صلة آثمة بزوجته أميليا

قبل زواجه من ديدمونة . بهذا يكيل أياجو لعطيل صاعاً بصاع وينتقم لشرفه بتلويث شرف عطيل . فإن خاب مسعاه فلا أقل من أن يثير شكوك عطيل فى سلوك زوجته ويملأ نفسه بالسموم حتى يفقد الوعى ويحطم أقرب المقربين إليه . لسوف يوحى إلى عطيل أن كاسيو يشاطره فراش ديدمونة فيحطم عطيل كاسيو تحطيماً ، وبهذا يستطيع أياجو أن يخلفه فى منصبه . نعم ، إن تفكير أياجو مسموم ، فهو يظن أن عطيل ذا الدم الحامى كان يعاشر بيانكا صاحبة كاسيو ، كما كان يعاشر زوجته أميليا قبل أن يتزوج من ديدمونة ، فهو ليس وحده الذى يلبس القرون ولكن كاسيو كذلك يلبس القرون .

وهكذا يسترسل أياجو فى خواطره المختلطة فلا يتبين من كل هذه الأفكار المسمومة إلا شيئاً واحداً هو أن شهوة الانتقام قد امتلكت عليه حواسه جميعاً فملأت رأسه المريض بأحط النوازع وأخس التخيلات .

وتكون بين عطيل وأسطول الترك مواقع ، ويطرد عطيل الترك عن جزيرة قبرص ، وحين يتم له النصر يبعث رسولا فى الشوارع يزف البشرى إلى الأهلين ويعلن فيهم أن القائد عطيل قد جعل من هذا اليوم ومن هذه الليلة عيداً يحتفل به الناس فيشربون ويطربون حتى ينقضى طرف كبير من الليل .

وفى قاعة القلعة التى يقيم فيها عطيل وديدمونة والحاشية يقام حفل يشرب فيه الضباط لسمرهم ويأويان إلى جناحهما فى القلعة . ويستدرج أياجو كاسيو إلى الإفراط فى الشرب ، ويتردد كاسيو طويلا قبل أن يسترسل الشراب ، فهو يعلم أنه لا يحتمل الخمر كما يحتملها غيره ، ولكن « أياجو الأمين » يستحلفه بحق الصداقة أن يشترك فى احتفال المحتفلين ، وما قصد من هذا الاستحلاف إلا أن تلعب الخمر بعقل كاسيو فيدفعه إلى ما يستفزه ويكون لأياجو ما يريد ، فتثقل الخمر على كاسيو ويهذى فى كلامه بما يتعجب له الضباط ، ولا سيما مونتانو حاكم الجزيرة من قبل عطيل ، وينصرف كاسيو إلى مخدعه فيجد أياجو فرصة سانحة للافتراء عليه والتشهير به ، ويزعم أمام الضباط أن كاسيو أصدق صديق له فى الوجود ، وأنه رجل كامل الصفات لا يعيبه إلا شىء واحد ، وهو إدمان الشراب والإفراط فيه كل ليلة ، ولولا هذه الرذيلة فيه لما كان له فى جيش البندقية كله صنو أو نظير .

ويرسل أياجو الفتى روديريجو وراء كاسيو ليعرض به ويستفزه حتى يخرج عن طوره ، وما هى إلا لحظة حتى يسمع المحتفلون صوت روديريجو مستغيثاً يطلب النجدة ثم يعود إليهم روديريجو وفى أعقابه كاسيو يطارده . ويضرب كاسيو الفتى روديريجو ويتوسط بينهما الحاكم مونتانو فيتطور الأمر ويستل كل سيفه ويطعن كاسيو مونتانو طعنة قاتلة ولكن أياجو الماكر يأمر الفتى الساذج أن ينطلق إلى خارج القلعة صائحاً منادياً بحدوث فتنة فيها ، وأن يقرع الناقوس كأنما أحاق بالجزيرة خطر مطبق . ويستيقظ عطيل ويقتحم القاعة مستفسراً عن هذا الصخب العظيم ، فلا يسكت الجمع إلا بعد أن يذكرهم أياجو المنافق بما يجب عليهم من احترام لقائدهم ويقص أياجو الماكر على عطيل تفاصيل ما حدث ، فيقف موقف المدافع عن كاسيو الذى لم تكن له جريرة إلا أنه أفرط فى الشراب . وهو لا يشك أن الفتى الهارب قد أساء إلى صديقه كاسيو إساءة بالغة أخرجته عن طوره .

ويغضب عطيل غضباً عارماً لما رأى ويسمع ، ويعزل كاسيو من منصبه قائلا إنه رغم حبه لكاسيو لا يقبل أن يكون قائمقامه ونائبه وخليفته فى جميع مسئولياته . أما مونتانو الجريح فيحمل على محفة بأمر من عطيل ليسهر عليه طبيبه الخاص . وهكذا تهدأ العاصفة وينصرف الجميع ما خلا أياجو وكاسيو .

أياجو : هل جرحت يا سيدى ؟

كاسيو : نعم ، بما لاينفع فيه طب ولا تضميد .

أياجو : معاذ الله !

كاسيو : نعم ، سمعتى ! سمعتى ! لقد فقدت سمعتى ! فقدت جوهرى الخالد ! ولم يبق منه إلا جثة الحيوان ! سمعتى أياجو ، سمعتى !

إن كاسيو لا يذكر شيئاً مما حدث ، كل شىء مختلط فى عقله . إنه يذكر أن شجاراً حدث ولكنه لم يعد يذكر فيم كان الشجار . إن السكر استبد بعقله ثم استبد بقلبه الغضب ، وبينهما ضاع كل شىء . الخمر ، الويل من الخمر . لقد فقد منصبه . لقد فقد سمعته . لقد فقد كل ما يعتز به فى الحياة .

ويهون أياجو على كاسيو قائلا إن قليلا من الخمر لايؤذى ، ثم إن ما ضاع يمكن أن يسترد ؛ فعطيل نفسه كان فى لحظة من الغضب حين عزله من منصبه .

والكل يعلم ما يكنه عطيل لزوجته من حب وتقديس . والكل يعلم مدى سلطان ديدمونة على عطيل ، والكل يعرف رقة قلب هذه السيدة الكريمة وعظيم حنانها . فليذهب إذن كاسيو إليها ويعترف أمامها بحقيقة ما حدث ، وهي لا شك ستتوسط له عند سيدهما عطيل فيرده إلى منصبه . أما القنوط فلا موضع له . هذه مشورة خالصة لكاسيو من صديقه أياجو .

وهكذا ينصرف كاسيو على أمل . أما عدوه اللدود أياجو فهو يبيت شيئاً آخر . لسوف تفتح ديدمونهة قلبا الرحيم لمظلمة كاسيو ، ولسوف تتشفع له عند زوجها في حرارة وإخلاص . أما أياجو فسوف يتخذ من دفاعها عن كاسيو سبباً لإثارة الشك في قلب عطيل .

ويرجو كاسيو إلى أياجو أن تهيئ زوجته أميليا لقاء بينه وبين ديدمونة ليشرح لها الأمر . ويعلم كاسيو من أميليا أن مولاتها لم تنتظر لقاءه لتدافع عنه أمام عطيل . ولكن عطيل لا يفتأ يكرر أن حبه لكاسيو شيء وواجباته نحو إقرار النظام في الجيش وفي الجزيرة شيء آخر .

وتهيئ أميليا لقاء بين كاسيو وديدمونة على خلوة كما رسم أياجو حتى لا يقطع المغربي عليهما حبل الحديث . ويجد كاسيو أن ديدمونة ليست بحاجة إلى إقناع ، فهي تعطف عليه وتؤمن بوجوب إعادته إلى منصبه ، ولكنها تستمهله حتى يهدأ غضب عطيل عليه . ويقبل على الثلاثة من بعيد . فيهم كاسيو بالانصراف وتستبقيه ديدمونة ليسمع بأذنيه شهادتها فيه أمام زوجها . ولكنه يصر على الانصراف ، فهو مرتبك يملؤه الخجل من مولاه .

وتطلب ديدمونة إلى عطيل أن يصفح عن قائم مقامه كاسيو وأن يرده إلى منصبه ، وتنوه بولائه الشديد له وبصفاء نفسه وإخلاصه ، وترجو أن يحدد عطيل له موعداً قريباً . ولكن عطيل كثير المشاغل كثير الواجبات ، فهو يرجئ . وتلحف عليه ديدمونة وتذكره بما كان بينه وبين كاسيو من ود قديم ، حين كان عطيل يخطب ودها وكاسيو يصاحبه ليشد أزره وليدافع عنه في غيبته ، وفي حضوره . ويضيق عطيل بإلحافها فيقول : «كفى . كفى فليأت إذن متى شاء ، فلن أبخل عليك بشيء يرضيك» . وتغضب ديدمونة لهذا الرضا الكاره وتنصرف

عنه متأففة تتبعها أميليا .

ويبقى عطيل وحده بين براثن أياجو . ويحاوره كما يحاور رقط ماكر فأراً قليل الحيلة . فأياجو أذكى من أن يتهم كاسيو صراحة . وإنما براعته براعة فى الإيحاء . فهو يشعل الفتيل ثم يترك النار ترعى وحدها . إنه ما كان يعلم أن السيد كاسيو كان يعرف ديدمونة قبل أن يتزوجها عطيل . ثم ينصرف بالحديث إلى شىء آخر ، ولكن هواجس عطيل ترده إلى الموضوع . ماذا يقصد أياجو بهذا السؤال ؟ لا شىء لا شىء . إن أياجو لم يقصد إلا أن يتحقق . . نعم كان كاسيو يعرفها . وهل فى هذا ضير ؟ أليس كاسيو رجلا أميناً ؟ « أمين يا مولاى ؟ . . . نعم ، هو أمين على قدر علمى » . ثم صمت . كل كلمة تقال بتنغيم خاص . لا شك أن أياجو يكتم عنه سراً . ولكن أياجو أحذق أن يتهم جهاراً . إنه لا يقول كلمة واحدة يمكن أن يؤاخذ عليها . وكيف يقول ، وهو لا يزال يتحسس طريقه فى مداخل قلب عطيل . بل هو يوشك أن يقسم على اعتقاده فى أمانة كاسيو . ولكنه يعلم أيضاً أن أطهر قلب فى الوجود يحاصره الرجس من وقت لآخر ، وأن العصمة ليست من نصيب البشر . إنه لا يتكلم عن كاسيو بالذات ، ولكنه يتكلم عن الرجال بوجه عام . ويهيب به عطيل هائجاً أن يفصح ، فى السكوت على ما يعلم خيانة لمولاه . ولكن أياجو ليس لديه ما يقوله أكثر من أن السمعة الطيبة هى أثمن جوهرة يملكها رجل أو . . . امرأة . ولو أن رجلا سرق منه ماله أساءه ذلك كثيراً ، فالمال يدور فى ألف يد ، أما من يسرق منه سمعته فهو يسرق منه شيئاً يفتقر به من أضاعه ولا يغتنى به من أخذه .

ويحس عطيل من باطن الحديث أن أياجو إنما يتحدث عن علاقة آثمة بين كاسيو وديدمونة . وينتابه الهياج ولكن أياجو يهيب به قائلا : « الحذار من الغيرة يا مولاى ! إنها وحش أخضر العينين يعبث بالفريسة التى يقتات عليها ليعذبها » . ويعود إلى عطيل هدوءه فهو لا يشك فى ديدمونة الجميلة . وكيف يشك فيها وهى التى تخيرته من بين الرجال ، كلا ، إنه لا يرتاب حتى يرى بعينيه موضعاً للارتياب . وهنا يعود أياجو إلى بذر شكوكه فى نفس عطيل قائلا : « اسهر على زوجك ، وراقب خطوات كاسيو فى يقظة . واجعل من عينيك شيئاً

وسطنًا ، فلا تشعلهما الغيرة ووجهما على غفلة واستئمان ! » إن أياجو يعرف عن نساء البندقية أكثر مما يعرف عطيل ، « فهن يعرضن على عين السماء ما يخفن أن يبدين لأزواجهن من ألاعيب ، وضمائرهن لا ترتاح على تجنب المعصية بل ترتاح على سترها » . وبعد ، أفلم تخدع ديدمونة أباها يوم فرت مع زوجها ؟ إن هذا مصداق لقوله . ولكن أياجو رغم ذلك لا يظن أن فى الأمر شرًّا . انما هى الحيطة . الحيطة . كل ما يدرى به هو الحيطة . الحيطة من كل النساء .

وهكذا يبلغ أياجو وطره من عطيل ، فتسرى الغيرة العمياء بقلبه سريان السم ، فلا يلمح شيئًا أو يسمع شيئًا إلا ويتوهم أن فيه الدليل على إثم زوجته المسكينة الطاهرة .

وتدخل عليه ديدمونة بعد أن ينصرف أياجو فتجده زائغ النظرات شاحب الوجه يقطر جبينه عرقًا ويتمتم بكلام يشبه الهذيان . وتتقدم لتمسح جبينه بمنديلها الحريرى ، ثم تنصرف بعطيل إلى حيث ينتظرهما الأضياف من نبلاء الجزيرة . ويسقط المنديل من يدها فتلتقطه أميليا وتتبين فيه ذلك المنديل الذى أهداه عطيل إلى ديدمونة ليلة أن تكاشفا الهوى وتعاهدا على الزواج . وتذكر أميليا زوجها أياجو الذى طالما الحف عليها أن تسرق هذا المنديل من مولاتها ، دون أن تفهم لطلبه معنى أو تكشف عن غرضه فى ذلك .

ويعود أياجو فيجد زوجته وفى يدها المنديل فينزعه من يدها فى عنف كأنه قد وجد ضالة يبحث عنها منذ سنوات ويهمس أياجو قائلا : الويل لك يا عطيل لن تذوق طعم النوم بعد اليوم ، ولو جرعت كل ما فى الدنيا من رحيق يجلب النعاس إلى العيون . لسوف يجد المنديل طريقه إلى منزل كاسيو .

وحين يلتقى عطيل وأياجو يجد أياجو عطيل فى هياج شديد . إن قلبه يحترق كأن فيه جمرة تتقد . إنه يبحث عن الدليل . الدليل . أياجو أيها اللعين . إلىّ بالدليل وإلا قتلتك .

ولكن أياجو لا يملك دليلا . نعم ، بل هو يرى بصيصاً . إنه رأى منديل ديدمونة فى يد كاسيو يمسح به عرقه ، وقد عرفه لأنه منقوط بثمار التوت . ويصرخ عطيل قائلا إن انتقامه سوف يكون رهيبًا . إن هذا المنديل كان هديته

إلى هذه الخائنة . لقد أعطته ساحرة مصرية إلى أمه ليحفظ لها حب زوجها ، وعند ما حانت منيتها أعطته إياه ليكون هديته إلى زوجته . وها هى ذى الخائنة قد أعطته لعشيقها الأثيم .

وما أن يلتقى عطيل بديدمونة حتى يسألها عن المنديل . إنها تسأله عما فعل بقضية كاسيو ، وهو يسألها عن المنديل وتعجب ديدمونة لإلحافه وغلظته ، وينكسر قلبها ألماً . إنها تعلم أن المنديل قد ضاع ولكنها لا تفهم سر هياجه الفظيع ، إنها تعلم أن المنديل قد ضاع ولكنها لا تعلم أن كاسيو قد وجده فى داره مصادفة فأهداه لعشيقته بيانكا دون أن يفطن إلى أمره . ويرى عطيل المنديل فى يد بيانكا فيتحقق من مقالة أياجو . بل إن أياجو الزنيم يجعل عطيل يسترق السمع لحوار داعر بينه وبين كاسيو حول بيانكا ، بعد أن أوهم عطيل أنه يحدث كاسيو عن ديدمونة .

وتستقر فى نفس عطيل فكرة واحدة رهيبة . لا بد من قتل ديدمونة . لسوف يدس لها السم . كلا لسوف يطبق على عنقها بأصابعه ويخنقها خنقاً . وفى أعجاز الليل يقترب عطيل من فراش ديدمونة ، ويتأمل صفحة وجهها الطاهرة على ضوء شمعة موقدة فتأخذه رعشة كأنه مقبل على ذنب عظيم ، ويوشك أن يعدل عما جاء من أجله . ويناجى عطيل نفسه قائلا : « عطيل : إنها السبب يا روحى ! إنها السبب ! خطيئتها هى السبب ولن أتفوه باسمها أمامك أيتها النجوم الطاهرة ! ولكنى لن أسفح لها دماً أو أخدش جسدها الناصع هذا الذى تجاوز الثلوج بياضاً وشابه مرمر الهياكل فى نعومته . ولكن لا مفر من موتها . وإلا غدرت بغيرى من الرجال . انطفىء أيها النور انطفىء أيها النور .

وتستيقظ ديدمونة من نومها فتدرك أنه قد جاء ليطفىء نور روحها . وتقسم له على طهارتها ، ولكن عطيل الذى تقمصته روح شريرة يمضى فيما جاء من أجله ، فيقبض على عنقها ولا يتركها إلا جثة هامدة .

وتقبل أميليا على أنين مولاتها ، وحين تبصر الفاجعة تولول : الغياث ! الغياث ! ويتجمهر من فى القلعة فيرون عطيل واقفاً على جدث وهو يجمجم :

ما سلكت إلا سبيل الشرف . لقدكانت خائنة . لقد أهدت منديله إلى عشيقها وهو الآن فى حوزة عاهرة .

وحين تقص عليه أميليا حكاية منديل مولاتها الذى وجدته مصادفة فاغتصبه منها أياجو اللعين تميد الأرض تحت قدميه ويدرك هول جنايته ، ويبادر إلى سيفه ويغمده فى صدره فيسقط صريعاً على جدث ديدمونة .

أما أياجو فيساق إلى حاكم قبرص الجديد كاسيو ليجرى فيه عدالة الأرض ريثما تأخذه الزبانية لتجرى فيه عدالة السماء .

أنطونيوس وكليوباترا

لوليم شكسبير

نحن فى الإسكندرية أيام مجدها الغابر حين كانت عاصمة البلاد ، وعلى عرش مصر تجلس امرأة راجحة العقل ناضجة الجسد ، بيمناها صولجان الحكم ثابت لا يرتجف ، ولكن بيسراها صولجان الحب الذى خلدها بين العاشقات . جاءها قيصر العظيم ، يوليوس ، مطارداً أعداءه الرومان الذين احتموا فى مصر ، ونزل شواطئها ، وبعد أن نكل قيصر بأعدائه قفل راجعاً إلى روما ليلقى حتفه بخناجر المتآمرين . وبعد مصرع قيصر اجتمع رجاله الثلاثة ، أوكتافيوس وأنطونيوس وليبدوس ، وقسموا ملكه العريض فيما بينهم . فكانت روما من نصيب أوكتافيوس ، وكانت صقلية من نصيب لبيدوس ، أما مصر وسوريا فكانتا من نصيب بطل الأبطال فى عصره وخير من حمل السيف وصعد المنابر ، مارك أنطونيوس . وهكذا حكمت الإمبراطورية الرومانية الحكومة الثلاثية ، وقام صرحها على ثلاثة أعمدة كما كانوا يقولون ، وكان أنطونيوس هو العمود الثالث .

وجاء مارك أنطونيوس إلى مصر ليكبلها بالأصفاد ، فكبلته مصر بالأصفاد . ولم تكن أصفاد مصر كأصفاد الرومان من حديد غليظ بل كانت أصفاداً ناعمة من خيوط ذهبية غزلتها الصبابة ونسجتها الأحلام . واستقبلته كليوبترا فى سوريا بميناء صيدا وهى فى سفينتها الجميلة التى ألهبت خيال الشعراء . وازينت لهذا البربرى المتغطرس الوسيم القادم من الشمال وملأت جو البحر والبر بنفح الطيب وغالى العطور ، وجلست على أريكتها فى كبرياء الملك وفى عزة الجمال وعلى شفتيها ابتسامة هازئة كأن لسان حالها يقول : سوف نرى بعد قليل : أتملك روما مصر أم تملك مصر روما . أما السيف فيصدأ فى قرابه ، وأما سهم الهوى الذهبى فهو لا يصدأ ولا يبلى .

* * *

وفى الإسكندرية قصر كليوبترا . وفى قصر كليوبترا يذهل أنطونيوس عن روما ، بل يذهل أنطونيوس عن نفسه ويذهل عن زوجته فولفيا المقيمة فى روما . ولا يلبث هذا الجندى الشامخ الذى كانت عيناه الجميلتان تبرقان فى حومة الوغى كأنه مارس رب الحرب أن يصبح أسير كليوبترا ، يتمرغ عند قدميها كالعبد الذليل ، وينسى روما ولا يقيم لها وزناً .

وتمشى الشائعات بأن مارك أنطونيوس قد غدا ألعوبة فى يد ملكة مصر الجميلة ألهته عن واجباته نحو وطنه . وتبلغ الشائعات روما ، فيغضب أوكتافيوس ويرغى ويزبد . وتثور فولفيا وترغى وتزبد ، وتجرد حملة على لوشيوس أخى أنطونيوس لعلها تستدرج أنطونيوس من أحضان كليوبترا إلى إيطاليا . ثم لا تلبث أن تتحالف مع لوشيوس وتقود الجيوش على أوكتافيوس قيصر روما استفزازاً له وإيقاعاً بينه وبين زوجها أنطونيوس لعله يعده من العصاة المدبرين لهذه الفتنة فيستدعيه إلى روما ، ولكن جيش فولفيا ينهزم ويفر من إيطاليا جملة . أما فى الإسكندرية فجنود الرومان يتندرون بما آلت إليه حال قائدهم المغوار ويضمرون العداء لهذه « الفاجرة » التى سلبتهم كل مجد وصولة ، وحتى أصدقاء أنطونيوس الأوفياء قد بدأ بعضهم يلغطون بلاذع النقد أو رقيق العتاب .

وفى حجرة من حجرات القصر يدخل أنطونيوس وكليوبترا تحف بهما حاشية عظيمة من الأتباع الأوفياء والأتباع الناقمين . فمع أنطونيوس أنيوباربوس المخلص وفيلو وديمتريوس الساخطان ، ومع كليوبترا وصيفتاها الوفيتان شرميان وإيراس . وتسترسل كليوبترا فى أحاديث الغرام فتسأل حبيبها ذلك السؤال الذى لا يسأم منه العشاق : « إذا كان ما بك حقًّا هو الحب فقل لى كم تحبنى ؟ » . فيجيبها العاشق الولهان : ما أفقر الحب الذى يقاس ويحصى » !

ويأتى الخادم معلناً مجىء رسول يحمل أنباء من روما . ويضيق أنطونيوس برسل روما ، ولكن كليوبترا تعنفه قائلة فى تهكم :

كليوبترا : بل استمع إلى الأنباء يا أنطونيوس : لعل فولفيا غاضبة . أو من يدرى ؟ لعل قيصر الذى لم يخضر بعد شاربه قد أرسل إليك أمره العظيم لتأتمر به : افعل هذا أو افعل ذاك . افتح هذه المملكة أو حرر تلك . هيا أنجز ما أمرناك به

وإلا حقت عليك لعنتنا .

. . . أين الإعلان الذى أرسلته فولفيا لتمثل أمامها ؟ أم أقول أرسله قيصر ؟ أم أقول أرسله قيصر وفولفيا معاً ؟ إلينا بالرسل . إنى واثقة من أن وجهك تعروه حمرة الخجل كما أنى واثقة من أنى ملكة مصر . وهذا الدم فى وجنتيك آية الخضوع لقيصر . أم ترى هذا لون خديك المألوف كلما عنفتك فولفيا ذات اللسان السليط ؟ إلينا بالرسل ؛

فيجيبها أنطونيوس قائلا :

أنطونيوس : ألا فلتذب روما فى نهر التيبر وليتهافت صرح الإمبراطورية الشامخ كما تتهافت الأقباء العظيمة ؛ ههنا مكانى : فالممالك تراب ، وروث هذه الأرض يطعم الإنسان والبهائم على حد سواء . إن مجد الحياة فيما نفعله الآن (يعانقها) فحين يتعانق عاشقان متحابان مثلنا فلن يجد العالم لنا نظيراً ، وإنى أشهد الأرض على غرامنا ولو دفعت حياتى ثمناً لذلك .

ولكن كليوبترا تلح عليه متهكمة أن يستمع إلى السفراء ، فينصرف إلى حجرة الديوان ، فيعلم من الرسول نبأ الحرب التى كانت بين زوجته فولفيا وأخيه لوشيوس ، ثم بينهما وأكتافيوس قيصر . ويعلم منه أن القائد لابيينوس قد سار بجيشه من بارثيا بفارس فاستولى على الفرات وسوريا واليونان ، كل ذلك وأنطونيوس لاه فى صبابته لا يفيق من خمر الإسكندرية التى يشربها فى صبوح وفى غبوق . ويثوب أنطونيوس إلى رشده إزاء هذه الأحداث الجسام ويهتف قائلا : « هذه الأغلال المصرية الشداد لابد أن أحطمها ، وإلا خسرت نفسى بالصبابة الحمقاء » .

ثم يأتى رسول آخر من بلدة سسيون ببلاد اليونان ويبلغ أنطونيوس أن زوجته فولفيا قد ماتت ، ويسلمه خطاباً ، قائلا : « إنها توفيت فى سسيون : هذه الرسالة تنبئك بمدة مرضها و بغير ذلك من أمور أشد خطراً ، مما يهمك أن تعرفه .

و ينتاب أنطونيوس حزن شديد ويقول : « اتركونى وحيداً ! ! » وحين يخلو إلى نفسه يندب زوجته قائلا :

أنطونيوس : ها قد مضت عنا روح عظيمة ! وهذا ما اشتهت نفسى : ولكن ما أكثر ما نستهين بالشىء فننبذه ، ثم نتمنى أن نسترده حين يضيع ، وكل نعيم

قائم يغض منه الزمن الدوار حتى يصير إلى جحيم . أنا أندب فضائلها لأنها رحلت عنا ، واليد التى قبرتها لتحب أن تردها إلى الحياة . حتم على أن أخرج من حبائل هذه الملكة الساحرة ؛ فاستنامتى إلى الملذات لا ريب تنبت آلاف الرزايا فوق ما عرفت من الشرور .

ويلتفت أنطونيوس إلى تابعه الوفى اينوباربوس ويقول : لا بد من الرحيل . فيذكره اينوباربوس بأن رحيله سوف يقتل كليوبترا ، فيجيبه أنطونيوس قائلا : « إن مكرها لا يسبر له غور » . ولكن أينوباربوس يقول :

إينوباربوس : يؤسفنى يا سيدى أن أقول إن هذا غير صحيح . فعواطفها مركب لم يدخل فى مزجه إلا أصفى عناصر الحب الخالص . فزفراتها وعبراتها ليست بالرياح والمياه ، بل زعازع عاتية وعواصف لا تعرف مثلها أرصاد الجو ولم يرد مثلها فى التقاويم ، وهذا لا يمكن أن يكون دهاء فيها . فلو كان هذا دهاء لكانت فى منزلة جوبتر ، كبير الأرباب ، تعرف كيف تمطرنا بالدموع كما يمطرنا بالغيث .

أنطونيوس : ليتنى لم أرها أبداً .

أينوباربوس : إذن لفاتك أن ترى تحفة عجباً . . .

ولكن أنطونيوس الذى يعلم بتأزم الأمور فى بلاده يصمم على الرحيل ، إن أصدقاءه فى روما يلحون فى عودته . فقد تحدى سكستوس بومبى ، ولد بومبى الكبير ، سلطان أكتافيوس قيصر ، وبومبى يملك ناصية البحار ، ولو ترك بغير رادع لزلزل سلطان قيصر واستأثر بالإمبراطورية . بل إن الشعب الرومانى القلب قد بدأ يلتف حول بومبى الثائر ، لا حباً فى بومبى بل وفاء لذكرى أبيه الكبير . وأنطونيوس يعلم أن مكانه بجانب أوكتافيوس شريكه فى حكم البلاد ، وهو يأمر تابعه الوفى أينوباربوس أن يبلغ كل مرؤوس فى جيشه بمشيئته وهى الرحيل من مصر على جناح السرعة .

وتعلم كليوبترا بما استقر عليه عزم أنطونيوس ، فتضطرب اضطراباً عظيماً وتبحث عن وسيلة تستبقيه بها . وتنصحها وصيفتها الساذجة شرميان قائلة : « أطيعيه فى كل شىء ولا تعارضيه فى شىء » . فتجيبها كليوبترا بقولها : « هذه تعاليم المغفلين ، إذا اتبعتها فقدته » وتبعث خادمها الكساس صائحة : « ابحث عن

مكانه ، وعمن معه ، وعما يفعل . لا تقل إنى أوفدتك . فإن وجدته حزيناً فقل إنى أرقص ، وإن وجدته مرحاً فقل إنى مرضت فجأة . هيا عجل : وعد دون إبطاء » .

وقبل أن تتم كليوبترا كلامها يدخل عليها أنطونيوس ليبلغها بقرار رحيله ، وما أن يبدأ كلامه قائلا : « يؤسفنى أن أعرب لك عن عزمى . . . » . حتى تقاطعه كليوبترا قائلة وهى تصطنع الإعياء : « العون يا شرميان الحبيبة فإنى أتهافت . ما أطول هذا العذاب » !

فليمض عنها أنطونيوس ، فليس لها عليه سلطان . ولكن كان ينبغى عليها أن تتوقع منه هذه الخيانة ، وهو الذى خان زوجته فولفيا . لكم أعطاها العهد وغلظ اليمين . فليعد الغادر إذن إلى فولفيا . إنه يقول إن فولفيا قد ماتت ، وهذا دليل جديد على غدره . فهى لا تراه يذرف عليها دمعة أو يزفر زفرة : وحين تموت لن يحزن عليها أكثر مما حزن على فولفيا . ويحاول أنطونيوس أن يهدئ من روعها قائلا إن الحرب الأهلية تجتاح بلاده ، ولابد من رحيله حتى لا يستفحل شر بومبى . إنه يترك قلبه فى مصر ولسوف يعود إليها بعد حين قليل ، ويناشدها أنطونيوس أن تهدأ قائلا : « أقسم بالنار التى تذكى طمى النيل إنى ماض عن هذا المكان وأنا جندى كليوبترا وخادمها ، أعقد السلم وأشعل الحرب كما تملى مشيئتها » . ويضيف قائلا : « هيا بنا ، هيا . نحن ملتقيان مفترقان : فأنت المقيمة هنا راحلة بالقلب معى ، وأنا الراحل عنك مقيم بالشوق إلى جوارك » .

وهكذا يعود أنطونيوس برجاله إلى روما .

أما فى روما فأوكتافيوس مجتمع بشريكه لبيدوس يندد ببطل الإسكندرية الذى « يصطاد السمك ويشرب الخمر ويفنى مصابيح الليل فى القصف والسمر ، وليس فيه من الرجولة أكثر مما فى كليوبترا ، كما أن زوجة بطليموس ليست بأكثر أنوثة منه . » ولكن لبيدوس يهدى من غضبه قائلا إن هذه الرذائل تبدو فى أنطونيوس أوضح مما تبدو فى سواه ، لأنها كنجوم السماء يجعلها سواد الليل أشد وهجاً » . أما أكتافيوس فهو عاجب مما آل إليه أنطونيوس رمز الجندية وزهرة المقاتلين . فليعربد أنطونيوس ما شاء أن يعربد . ولكن إذا دقت طبول الحرب فواجبه أن يخف إلى مكانه فى الصفوف . إنه يذكر معارك أنطونيوس السالفة . وكيف كان يكابد

فى جلد لا يعرفه أهل البداوة وهو ربيب الترف والنعم . لقد شرب بول الخيل وماء الوحل وأكل الميتة واقتات على قشر الأشجار . كل هذا تحمله أنطونيوس فى شجاعة الجندى حين مشت المجاعة فى جيشه وهو يقاتل عند جبال الألب . ترى ماذا ألم به فبدله من حال إلى حال . إن الرسل تتواتر بأسوأ الأنباء عن تقدم بومبى ورجاله ، فليت أنطونيوس يعود على رأس جيشه قبل فوات الأوان .

وفى مصر تستفسر كليوبترا الولهى بحب أنطونيوس من حاشيتها عن حال حبيبها وتقول :

كليوبترا : أى شرميان! ترى أين يكون أنطونيوس الآن؟ أهو واقف أم جالس أهو يمشى أم تراه على صهوة جواده ؟ يا له من جواد سعيد ذلك الذى يحمل ثقل أنطونيوس ! كن شجاعاً يا جواد ، وأعلم أنك تحمل سيد البرية ، شبيه أطلس حامل القبة الزهراء ، وسيف البشرية ودرعها الواقى . إنه يتحدث الآن ، أو لعله يهمهم قائلا : « أين حية النيل العريق ؟ » فقد كان يلقبنى بهذا الاسم . وها أنذا أطعم نفسى بهذا السم المستطاب !

إنها قد أرسلت إليه عشرين رسولا منذ رحيله ، ولكنها تطلب مزيداً من الورق والمداد قائلة : « لسوف أرسل إليه كل يوم سلامى مع رسول جديد ، ولو أخليت مصر من قطانها » .

أما أنطونيوس فهو يرسل مع التابع اليكساس تذكاراً إلى مولاته قائلا وهو يودعه : « أى صديقى الكريم ، قل إن الرومانى المقيم على العهد يرسل إلى مصر العظيمة هذه الدرة اليتيمة ، وإنى سوف أعوضها عن هذا الحاضر السقيم فأطرح تحت قدميها الممالك وأرصع بها عرشها الباذخ . قل : لسوف يناديها الشرق بأسره قائلا : يا مولاتى » !

* * *

وفى إيطاليا نجد بومبى بداره بمدينة مسينا مع قائدين من قواده هما : منيقراط وميناس يرسمان خطط الحرب . ويتعجل بومبى النصر تعجل الواثق منه ، ويقول فى ذلك : « إن الشعب يحبنى ، والبحر تحت إمرتى ، وسطوتى فى نمو مطرد كأنها الهلال فى السماء ، والأمل المتفائل يقول إنها ستكتمل . إن مارك أنطونيوس يغشى المآدب ولن يحارب خارج ديار مصر ، وأوكتافيوس قيصر يجمع المال ويفقد

القلوب ، أما لبيدوس فهو يتملق الرجلين جميعاً ويتملقه الرجلان جميعاً ولكنه لا يحمل لهما حباً ولا يحملان له حباً » .

وحين يأتيه النبأ بأن أنطونيوس فى طريقه إلى روما ليقاتاه يجزع قليلا فهو يعلم أن به من صفات الجندية ضعف ما بزميليه » ، ولكنه يعد عودة أنطونيوس تحية له ترفع من قدره . ويرجو أن تفرق الشحناء بين أعدائه الثلاثة فيخرج هو مكللا بالنصر .

وفى روما ينتظر لبيدوس وأينوباربوس مجىء أنطونيوس وأوكتافيوس . ويعلم الرجلان أن اجتماع الرجلين سيكون عاصفاً . ويحاول لبيدوس أن يكون عاملا مهدئاً بينهما . ويقبل الرجلان ومعهما ماسيناس وأجريبا صديقا أكتافيوس فيناشدهما لبيدوس أن يكظم كل منهما عواطفه متجنباً غليظ القول ، وأن يقدم المسائل العامة على الخلاف الشخصى .

ويرحب أوكتافيوس بأنطونيوس ترحيباً فاتراً ، فيشكره أنطونيوس . وبعد أن يأخذ كل مكانه يدخل أنطونيوس فى الموضوع قائلا : « جاءنى أناك تستاء لأشياء لا تسوء ، وإن ساءت فهى لا تعنيك » . وهذا الذى لا يعنيه هو بقاؤه فى مصر . فيجيبه أوكتافيوس بأن بقاءه فى مصر يعنيه إذا كانت نتيجته مؤامرات زوجته الراحلة فولفيا وأخيه لوشيوس . فيقول أنطونيوس بجفاف إنه سبق أن شرح له فى رسائله أنه لايد له فيما كان من عصيان اعتبره هو عصياناً عليه بمثل ما هو عصيان على أوكتافيوس قيصر . وحقيقة الأمر أن فولفيا كانت امرأة طموحة ميالة إلى الشحان بطبعها ، وحقيقة الأمر أنها أرادت بتمردها أن تستدرجه من مصر إلى روما . كل هذه أمور يأسف لها وقد انتهت وأوكتافيوس يعرفها حق المعرفة ، فإن كان يبغى الشجار فليبحث عن سبب آخر .

ويعود أكتافيوس إلى لوم أنطونيوس لطرده رسوله من حضرته فى الإسكندرية مشيعاً بالشتائم والسباب . فيجيبه أنطونيوس بأن رسوله اقتحم طريقه إليه قبل أن يؤذن له فى الدخول . ثم إنه كان مرهقاً بعد استقباله ثلاثة ملوك لا يملك النشاط الكافى لاستقبال جديد .

كل هذا فسره لرسول أوكتافيوس فى الصباح وهو بمثابة الاعتذار الكافى ،

« فاستبعد إذن حكاية هذا الرسول وإذا كان لا بد أن نتشاحن فلنتجادل فى غير هذا الموضوع » .

فيقول أوكتافيوس إن أنطونيوس حنث بعهده وهو أن يزوده بالعدة والرجال حين يحتاج إليهما . ويحتج أنطونيوس على هذه الغلظة فى التعبير قائلا إنه لم يحنث بعهده فى شىء ، والدليل على وفائه أنه قد حضر برجاله . ولئن كان قد تأخر فى المجىء فهو كان أسير حب مسموم . وهو يعتذر عن تأخره ، فإن لم يقبل أوكتافيوس عذره بما لا يخدش كرامته فجيوش أنطونيوس لن تتحرك إلا وكرامته مصونة .

ويرى لبيدوس ومايسيناس أن فى كلام أنطونيوس ترضية كافية لأوكتافيوس قيصر رغم ما شابه من كبرياء واستعلاء . ويتدخل أجريبا مقترحاً أن يدعم القائدان هذا التصافى برباط وثيق لا تنفصم عراه ، وهو أن يتزوج أنطونيوس وقد ترمل بموت فولفيا من أوكتافيا أخت أوكتافيوس .فيقول أوكتافيوس هازئاً إن كليوبترا لو سمعت هذا الحديث لأنبته عليه تأنيباً . فيجيب أنطونيوس قائلا : « أنا يا قيصر لست متزوجاً من كليوبترا . . . فما رأى قيصر ؟ » « سأحتفظ برأيى حتى أسمع رأى أنطونيوس فيما سمعه من كلام » . وهنا يسأل أنطونيوس : « وماذ يملك أجريبا من سلطة لتحقيق هذا الرأى لو أنى أجبت : القول ما قلت يا أجريبا ؟ » وحين يطمئن أوكتافيوس قيصر إلى قبول أنطونيوس يقول : « إنه يملك سلطة قيصر وما له من سلطان على أوكتافيا » .

وهكذا تنتهى معركة الكبرياء بين هذين القائدين الشامخين وينصرفان لإعداد مراسم الزواج ووضع خطة القضاء على بومبى .

وحين يختلى مايسيناس وأجريبا بإينوباربوس يسألانه فى لهفة عن كل هذه الأساطير التى تجرى على الألسنة بجمال كليوباترا وبذخ الإسكندرية ، فيصف لهما كيف أسرت كليوباترا قلب أنطونيوس أول يوم رآها فى زورقها على نهر صيدا :

أينوباربوس : . . . كان الشراع الذى جلست فيه يبرق على وجه المياه كأنه العرش الوضاء . كان رأسه من ذهب مطروق ، أما القلوع فكانت من أرجوان ، وقد ضمخها العطر حتى لقد تيمت بحبها النسمات . والمجاديف كانت من فضة

تضرب صفحة الماء على إيقاع الناى فيسرع الموج فى إيقاعه كأنما يلهث بحبها . وأما شخصها فقد كان يقصر عن وصفه كل بيان : كانت ترقد تحت خيمتها الموشاة بخيوط الذهب ، فبدت أجمل من فينوس ربة الجمال التى أبدعها الخيال ففاق بها ما تبدع الطبيعة . وعلى جانبيها وقف غلمان تفيض بالبشر وجوههم الحسناء ، فبدا كل منهم وكأنه كيوبيد يبتسم ، وكانوا حاملين المراوح لها شتى الألوان ، فلا تدرى إن كانت نسماتها ترطب خديها الناعمين أم تذكى فيهما نار الجمرات ، فتلهب حيث ترطب وترطب حيث تلهب . . . وتجلت وصيفاتها كالنرياد ، حور الماء ، رتلا بلا عدد ، ومثلن أمامها فبدين كالإطار يزين أجمل صورة . ووقفت حورية فاتنة عند السكان تديره . ونشرت الشراع أيد ناعمة فى مثل الزهرة الملساء ، تعرف كيف تؤدى عملها فى خفة ومهارة ، فما لمسته حتى انتشر وتضوع من الزورق عطر خفى عجيب فأيقظ الحس فى الضفاف المجاورة ، وخرج من المدينة أهلوها ليروا هذا المشهد العجيب ، فبقى أنطونيوس وحده جالساً على عرشه فى سوق المدينة يناجى الهواء ...

ويستمع مايسيناس وأجريبا إلى وصف هذا الجمال الفريد . ويصيح أجريبا قائلا : « يا لهذه المصرية من امرأة نادرة ! » ويتمتم الشاعر مايسيناس آسفاً أو كالآسف : « والآن لابد لأنطونيوس أن يهجرها إلى الأبد » . أما أينوباربوس الذى رأى بعينه كل شىء فيقول مكذباً :

أينوباربوس : هذا محال . إنه لن يهجرها ، فهى امرأة لا تبلى نضارتها السنون ، ولا ينفد لها فن فيعافها العشاق . إن سواها من النساء يتخمن حيث يشبعن ، أما هى فيسغب لها الجسد كلما أطعمته بلا حدود . وأخس الفعال تزدان فيها وكأنها الفضائل الغراء ، حتى إن الكهنة الأتقياء ليباركونها فى عهارتها .

وفى قصر أوكتافيوس قيصر تتم مراسم الزواج ويعاهد أوكتافيا على أن يسلك الطريق القويم فتجيبه بأنها ستصلى من أجله فى غيبته عنها . وتنصرف أوكتافيا فيجد أنطونيوس نفسه منفرداً بعرافه المصرى ، فيسأله قائلا : « خبرنى يا عراف . أينا سيسطع نجمه أكثر من الآخر . أنا أم قيصر ؟ فيجيبه العراف : قيصر » . ولهذا فلا تبق إلى جواره يا أنطونيوس . إن روحك ، وهى ملاكك الحارس ، روح

نبيلة باسلة شماء لا تبارى ، أما روح قيصر فليست على شيء من هذا . ولكن هذا الملاك الحارس الذى يحفظك إنما ينكمش جزعاً كلما اقتربت من قيصر ، فباعد بينك وبينه ما أمكنك ذلك . . . إن أنت باريته فى أية رياضة فثق بأنك المغلوب . إن حظه من السماء ، وهو بهذا الحظ يتفوق عليك رغم أنك تفضله . وضياؤك يخبو حين يسطع هو إلى جوارك » .

ويعلم أنطونيوس علم اليقين أن العراف صادق فى كل ما قال . وهو يعلم أن زواجه من أوكتافيا مجرد زواج سياسى أوحى به الموقف ، وأن مقامه فى روما لن يطول ، فمصر قبلته وفيها نعيمه .

ويخرج أوكتافيوس وأنطونيوس ولبيدوس على رأس جنودهم إلى جبل مسينا لملاقاة بومبى ، وقد أعدوا له عرضاً وسطاً حقناً للدماء ، وهو أن يحكم بومبى صقلية وسردينيا مقابل إخلائه كل ما عداهما وتطهيره البحر من القرصان . ويعلم بومبى أن الشركاء الثلاثة يفوقونه فى قوة البر رغم سطوته فى البحر ، فيقبل هذا العرض ويتم الصلح ويقرر الأربعة أن يقيم كل منهم مأدبة تجرى فيها الراح أنهاراً احتفالا بهذا الصلح ، ويبدأ بومبى الولائم على ظهر سفينته . وتبدو على الجميع السعادة إلا ميناس صاحب بومبى الذى يعتقد أن بومبى قد فرط بما يجعل نجمه يأفل إلى الأبد بعد كل ما أحرز من انتصار .

وعلى ظهر سفينة بومبى يتصارع الأقطاب الأربعة الكئوس ويتبادلون الأنخاب حتى يثملوا ويعلو مزاحهم ، ويذهب أنطونيوس يملأ خيالهم المخمور بغريب الأحاديث عن تماسيح النيل وأفاعى مصر وأهرامها ، وفيما هم يستمعون إليه مشدوهين يقترب ميناس الذى جانب الكأس من بومبى ويسر فى أذنه أن يأذن له بقطع الحبل الذى يربط السفينة بالشاطئ وأن ينقض على أعمدة الدنيا الثلاثة مع رجاله فيحطمها تحطيماً . وهكذا يصبح بومبى وحده لا شريك له فى هذا الملك العريض. ولكن بومبى يعنفه قائلا : « كان ينبغى أن تفعل ذلك دون أن تحدثنى فيه ، فمثل هذا يعد نذالة منى ولكنه يعد ولاء منك . ألا فلتعلم أن شرف بومبى لا يستهدى مصلحته ولكنه يهتدى شرفه . فلتندم إذن على أن لسانك وشى بجريمتك . ولو أنها تمت بغير علمى لاستحسنتها بعد أن تتم ، أما الآن فإنى أستنكرها . فاعدل عن ذلك

واشترك فى الشراب » .

ويعود بومبى إلى الجماعة ، ويعلو الصخب ويدور الرقص مع الأقداح حتى ينبههم أكتافيوس المقل الذى لا يغيب عن وعيه أبداً بضرورة الكف والانصراف .

* * *

وبعد أن يفرغ أنطونيوس من مهمته فى روما يصحب أوكتافيا ويمضى على رأس جيشه إلى أثينا ليطهر اليونان من جنود الثائر لابينوس . وكان أنطونيوس قد بعث بقائده فنتديوس ليسترد سوريا من الفرس الغزاة فيستردها فنتديوس ولكنه يأبى أن يتعقبهم عبر ميديا وبابل خشية أن يعلو نجمه بين المقاتلين ، « فمن يبز قائده فى الحروب يصبح قائد قائده » وهذا ما يخشاه فنتديوس ، إنه يخشى أن تسوء أمجاد أنطونيوس .

ولكن الأمور لا تجرى فى روما بحسب ما تركها أنطونيوس . فقد اضطرمت نار الفتنة من جديد فانقض أكتافيوس بمعونة لبيدوس على بومبى وجرداه مما أعطياه إياه فى معاهدة الصلح ، وبعد أن فتك أكتافيوس ببومبى تنكر لشريكه لبيدوس وألقى عليه القبض متهماً إياه بالاستبداد الأحمق واستغلال النفوذ ، واستولى على كل نصيبه فى الإمبراطورية . بل ذهب أكتافيوس إلى أكثر من ذلك فهو قد هاجم أنطونيوس علناً أمام الرومان وبخسه قدره فى النصر .

وحين تبلغ كل هذه الوقائع أنطونيوس وهو فى أثينا يزمجر ويهدر كالليث الغضوب . وأوكتافيا المسكينة حائرة بينه وبين أخيها أكتافيوس ، تكذب هذا فى أخيها وتعرض أن تسعى بينهما بالخير ويرضى أنطونيوس بعودتها إلى روما قائلا : إنه سيجيش الجيوش استعداداً لملاقاة أكتافيوس الذى ثبت غدره وإنه لساحقه سحقاً مبيناً . وهكذا تنطلق أوكتافيا إلى روما ويعود أنطونيوس إلى الإسكندرية .

ويأتى النبأ إلى أوكتافيوس قيصر بأنهم قد توجوا كليوبترا أمام الملأ فى سوق الإسكندرية ومعها أنطونيوس على عرشين من الذهب وأن أنطونيوس قد أعطى كليوبترا الولاية على مصر وتوجها ملكة مطلقة على سوريا السفلى وقبرص وليديا فيذيع أوكتافيوس هذا النبأ بين الرومان ويعد العدة لقتال أنطونيوس .

وحين تصل أوكتافيا بلاط أخيها لا يضيع أوكتافيوس وقتاً لإبلاغها بأن

زوجها ليس فى أثينا كما تتوهم بل هو يتمرغ عند قدمى صاحبته المصرية . فتصيح أو كتافيا المسكينة : يالشقائى ! يالشقائى !

وينتقل أوكتافيوس بجيشه فى سرعة مذهلة ويرسل إلى أنطونيوس رسله قائلا إنه قادم بالبحر وإنه يطلب أن ينازله بحراً .

ويقبل أنطونيوس هذا التحدى رغم ضعف قوته البحرية ورغم أن كل قوته مركزه فى البر . وتعلن كليوبترا أنها ستشترك مع « الإمبراطور » أنطونيوس فى هذه المعركة فهى معركة بلادها بمثل ما هى معركته . ويحاول أنيوباربوس أن يثنيها عن عزمها قائلا إن روما تشهد بمولاه وتروى أن غاها فوتينوس ووصيفاتها يديرون هذه الحرب . ولكن كليوبترا لا تتزعزع .

سيكون القتال بحراً وستخرج هى إليه بوصفها رئيس المملكة . إن أسطولها من ستين سفينة لا يملك قيصر خيراً منها .

ويحاول كانيديوس قائد جيش أنطونيوس أن يثنى مولاه عن عزمه . إن سفن مصر ثقيلة ناقصة العدة وسفن قيصر خفيفة كاملة من كل وجه . إن الهزيمة فى أكتيوم ستشيع الاضطراب فى الجيش وهو من المشاة . ولكن أنطونيوس لا يلقى بالا إلى ما يقال .

وتقع الكارثة . ويلتحم الأسطولان فى معركة أكتيوم . وتتعادل الكفتان . وينتاب كليوبترا شبه جنون فتفر من المعركة فتتبعها سفن الأسطول المصرى . وحين يرى أنطونيوس سفينة الانطونياد تفر بكليوبترا من المعركة « يفر هو أيضاً فى أوج الوطيس وراء صاحبته كأنه ذكر البط » . وبفرار أنطونيوس يتحطم أسطوله ويتحطم معه شرف الجندى . ويتخلى عنه أكثر قواده بفيالقهم ، فيفر سكادوس إلى اليونان ويقرر كانيديوس الانضمام إلى أوكتافيوس قيصر ، ولا يبقى إلى جوار أنطونيوس إلا أنيوباربوس وقلة قليلة من الأوفياء .

أما أنطونيوس فيدرك هول ما فعل . ولا يعرف كيف يخفى وجهه من فرط إحساسه بالعار ويجمع جنده ويعلن أنه واهبهم كنوزه فلينفضوا عمن انفض عن نفسه . وهو سيمضى فى طريق لا يحتاج فيه معه إلى صحبة أحد . وهل بعد اليأس إلا الموت ؟ ولكن جنوده المخلصين يأبون الفرار . إنهم سيموتون مع قائدهم .

وتسعى كليوبترا إلى أنطونيوس حاسرة الرأس خجلى ، فيقول : « واها لى !

يا مصر أين المنتهى ؟ تأملى كيف أحجب عن بصرك عارى فانتبذ هذا المكان أسترجع فيه ذكرى حياتى المحطمة وشرفى الذى غبر » . وتقول كليوبترا : « أى مولاى ! أى مولاى ! إنى أطلب عفوك عن فرار سفائنى ، فما كنت أحسب أنك ستتبعنى » . فيجيبها أنطونيوس : « بل كنت تعلمين يا مصر حق العلم أن قلبى مشدود إليك بحبال شداد، أتبعك أينما مضيت . . » . وتنهمر دموع كليوبترا فيكفكف أنطونيوس دموعها قائلا : « لا تذرفى عبرة على ما كان فدمعة من دموعك تعدل كل ما أضعناه وكل ما غنم قيصر . هات قبلة منك ترد إلى ما فقدت » .

ويوفد أنطونيوس ، هذا الذى كان يرسل الملوك رسلا ، مؤدب أولاده إلى أوكتافيوس قيصر بعروضه وعروض كليوبترا وهى أن يتركه يعيش فى مصر أو فى أثينا كرجل عادى . أما كليوبترا فهى تطلب أن يبقى عرش مصر لذريتها . فيجيب أكتافيوس . أما الملكة فلها ما تطلب إن طردت هذا الرومانى العاصى من ديار مصر أو أجهزت عليه وأما أنطونيوس فلن يسمع له التماساً .

وحين يأتى جواب قيصر : « الأمان لكليوبترا إن هى سلمت أنطونيوس » يثور أنطونيوس ثورة العاشق الغيور الذى يرى فى أوكتافيوس منافساً له على حب كليوبترا ، ويرسل إليه متحدياً أن ينازله نزال رجل لرجل وسيف لسيف ، ولكن أوكتافيوس الذى أصبح سيد الدنيا يسخر طبعاً من هذا العرض . ويوفد تابعه تيدياس إلى كليوبترا ليغريها بالانضمام إليه بمعسول الوعود الكاذبة فتتظاهر كليوبترا بالاستجابة والخضوع . إن قيصر يعرض أن يكون درعها الواقى وسيفها البتار ، وهو يعلم أنها لا تحب أنطونيوس حقًّا فهو قد غلبها على أمرها نعم ، نعم . إن كل ما يقوله قيصر صحيح . هكذا تجيب كليوبترا .

ويسمع أينوباربوس هذا الكلام فيتمتم : « أى مولاى . لقد غدوت كالسفينة التى تسربت من قاعها المياه ، ولابد أن يتركك لتغرق وحدك . فحبيبة فؤادك قد هجرتك » . إن عقله قد بدأ يثور على وفائه . ولكن وفاءه قوى متين .

ويرى أنطونيوس الرسول تيدياس يقبل كليوبترا باسم قيصر . فيستولى عليه هياج أعمى ويأمر بجلد الرسول . وينهال عليها بأفظع السباب ، فهى عنده بغى تبيع نفسها لكل سيد جديد . وكليوبترا عليه صابرة حتى يعود إليه هدوءه فتؤنبه فى رفق

على شكوكه . إن حبها له جمرة فى قلبها لن يطفئها إلا الموت .

ويتجدد الأمل فى نفس أنطونيوس فيعد العدة للمعركة الفاصلة الأخيرة . لقد جمع أشتات جيشه والتف حوله من بقى من قواده . والليلة عيد ميلاد كليوبترا ولن تعرف كليوبترا الكآبة فى عيد ميلادها . لتكن فى القصر وليمة من ولائم الإسكندرية تماماً كولائم العهد الغابر . لا يزال هناك أمل . فى الصباح سيخرج بين ألف من رجاله ويقاتل معهم قتال الليوث . سيقاتل فى ضراوة . إنه كالأسد العجوز الجريح ، والويل لمن تصدى لأسد عجوز جريح . هذا فى الصباح . أما الليلة فهى قصف وسمر .

وفى الصباح تلبس كليوبترا حبيبها درعه وعدة القتال ويتوادعان . ويخرج أنطونيوس إلى رجاله فيجدهم أصلب ما يكون عزماً . ويفتقد أينوباربوس فلا يجده ، ويعلم أنه هجره ومضى إلى معسكر قيصر فيأمر تابعه أيروس أن يبعث إليه بمتاعه وأن يكتب إليه مودعاً برقيق الكلام ويتمم قائلا : واها لى ! إن محنتى قد أفسدت أوفياء الرجال » .

أما أينوباربوس الوفى فما أن يبلغ معسكر قيصر حتى يعضه الندم القاتل . وحين يجيئه الرسول بمتاعه تظلم الدنيا فى عينيه ويقول : « أى أنطونيوس ؛ لقد كافأت خيانتى بالذهب . فبماذا كنت تكافئ وفائى ؛ » ويهب أينوباربوس متاعه للرسول ، وينتحى مكاناً قصياً ، وهناك يموت كمداً .

ويلتحم الجيشان ويقاتل أنطونيوس بين رجاله قتال الجبابرة وتحدث المعجزة ، فإذا بجيش قيصر يرتد إلى معسكره ممزقاً مدحوراً ؟ وإذا جيش أنطونيوس يسيطر على الموقف والأسطول يحمى ظهره . ولكن الأسطول لا يلبث أن يتمرد وينضم إلى أسطول أكتافيوس قيصر ، فتدور على أنطونيوس الدائرة ويفقد كل ما كسبه ، ثم يفقد كل شىء . وفى هياجه يلقى أنطونيوس تبعة تمرد أسطوله على كليوبترا ، فيصيح : « لقد ضاع كل شىء . إن هذه المصرية السافلة قد خانتنى ولقد استسلم أسطولى للعدو . أيتها البغى التى تقلبت بين أحضان ثلاثة : ما باعنى لهذا الغلام الغرير إلاك . وليس يمقت قلبى سواك » .

* * *

وهكذا تنتهى صفحة مجد من أمجاد الوغى ولم يبق لأنطونيوس إلا حسامه يجهز به على نفسه فينجو من عار الأسر . وتسعى كليوبترا إلى أنطونيوس لتعرف ما ألم به ، فتراه فى هياج شديد ، وتعلم أن هياجه لا يفيد معه كلام . فتعكف فى محرابها مع وصيفتيها وترسل إليه الأغا مرديان ليقول إنها قتلت نفسها لعل حزنه يقوده إليها .

ويأتيه مرديان قائلا : إن مولاته قد أدت ضريبة الموت ، وكان آخر ما فاهت به شفتاها اسم انطونيوس .

وتظلم الدنيا فى وجه أنطونيوس ويقول لعبده المعتق أيروس : « أى أيروس انزع الدرع عنى ؛ لقد انقضى يومنا الطويل وفرغنا من أثقاله ، وينبغى الآن أن نخلد إلى النوم ! » لسوف يتبع مولاته التى عرفت سبيل الشرف فقالت لقيصر المنتصر : « ما قهرتنى وإنما قهرت نفسى » . ويطلب أنطونيوس إلى أيروس أن يطعنه بسيفه فيرجو أيروس مولاه أن يعفيه من هذا الواجب الكريه . ويذكره أنطونيوس بقسمه يوم أعتقه أن يجهز عليه حين تأزف ساعة منيته . فيقول أيروس : « إذن أدر عنى هذا المحيا النبيل الذى يفيض بجلالة الآلهة . . . » ، فيدير أنطونيوس وجهه . ولكن أيروس الوفى لا يقتل أنطونيوس بل يقتل نفسه .

وحين يرى أنطونيوس أن أيروس الباسل قد سبقه إلى طريق الشرف يناجيه قائلا : « أى أيروس ، يا من علمت مولاك كيف يموت ، ها أنذا أنتفع بعلمك » . ثم يخر ساقطاً على سيفه يهوى متخبطاً فى دمائه .

وقبل أن يلفظ أنطونيوس الروح يأتيه من يقول إن كليوبترا لم تمت وإنما ادعت الموت إشفاقاً من غضبه ، فيطلب أن يحملوه إليها ليسلم الروح بين يديها . ويحمل الجند أنطونيوس إلى كليوبترا فإذا هى متحصنة فى مقصورتها حتى لا تقع فى أسر قيصر ، وقد أعدت عدتها للساعة الرهيبة . وتهمس كليوبترا فى أذن حبيبها قائلة : « فما دام للنصل حد وللسم فعل وللأفعى ناب ، فلن يجعل منى قيصر الظافر الجوهرة التى تزين موكبه الملكى . إنى فى حصن حصين : ولن تنتصر على زوجتك أوكتافيا ذات البصر الخفيض والفكر الهادئ إذ تتطلع إلى بنظراتها الوديعة » .

وتفيض روح أنطونيوس . فتصرخ النسوة « وافجيعتاه ! وافجيعتاه ! » أما كليوبترا فتقول : « لقد هوى تاج العالم . . وذوى الغار الذى كلل جبين الوغى ، وتهافت لواء الجنود . . ولم يبق شىء جليل تحت القمر العابر السيار » .

ويأتيها ضابط من ضباط قيصر النبلاء فيسر إليها بما أضمره لها قيصر . إنه ينوى أن يسوقها فى عجلته الحربية حين يعود إلى روما فى موكب النصر ليعرضها بين غنائم حربه وشارات نصره على رعاع الرومان ، فتعلم كليوبترا أن هذه خاتمة المطاف :

ويأتون بالسلة وفيها الحيات بين أوراق التين . وتجلس كليوبترا على عرشها ، وتحمل إليها وصيفتاها شرميان وإيراس عباءة الملك والتاج وأنفس الجواهر فتقول كليوبترا :

كليوبترا : إلى بعباءتى ، ضعوا تاجى على رأسى ، فقد هزتنى للخلد الأشواق لن تبل شفتى بعد اليوم خمر عناقيدك يا مصر . أرينى مهارتك يا أيراس الكريمة ، أرينى مهارتك . هيا عجلى . يخيل إلى أن أنطونيوس يدعونى : إنى أراه ينهض من بين الموتى ليحيي فعلتى النبيلة . . أى زوجاه ؛ إنى قادمة إليك يا زوجاه ؛ لسوف أثبت بشجاعتى إنى زوج أنطونيوس ها أنذا من نار وهواء، أما بقية عناصرى فإنى أهبها للحياة السفلى . هل فرغتما ؟ تعالى إذن يا شرميان ، وأنت يا إيراس تعالى ، وخذا ما بقى فى شفتى من دفء الحياة . الوداع يا شرميان الكريمة ؛ الوداع إلى الأبد يا أيراس !

وتقبل كليوبترا وصيفتيها ، فإذا إيراس تسقط جثة هامدة ؛ فقد سبقت مولاتها إلى ضم الأفعى . وتمسك كليوبترا ثعباناً وتضمه إلى صدرها وهى تقول :

كليوبترا : تعال يا رسول الموت الشقى وبنابك الفتاك حل فوراً عقدة الحياة هذه التى لا يحل لها وثاق . ادن غضبك أيها المخلوق الشقى الغبى وأجهز على بسمك الزعاف . ليتك كنت تستطيع الكلام ! إذن لسمعتك تصف قيصر العظيم بأنه حمار لا يدرى من أمور السياسة شيئاً !

شرميان : يا كوكب الشرق !

كليوبترا : صمتاً ؛ ألا ترين على صدرى رضيعى يرضع ثدى أمه النائمة ؟

شرميان : ويلاه ؛ يا ويلاه !

كليوبترا : حلو كالبلسم ، رقيق كالنسيم ، ناعم كأنفاس الهواء ؛ لبيك يا أنطونيوس !

وتموت كليوبترا ولم يفارقها النور الذى كان يسطع فى جبينها . وتحذو حذوها شرميان فتلحق بمولاتها .

ويدخل قيصر مع رجاله فيدرك أن ملكة مصر مكرت به وضيعت عليه نصره ولكن قيصر رغم هذا يقف خاشع الرأس أمام جلال الموت ويقول : « ما أنبل هذا الضعف ! . . إنها تبدو كالنائمة وقد تبرجت تبرجاً لا مزيد عليه ، وكأنها تصدت لأنطونيوس جديد ! . . لسوف توارى إلى جوار حبيبها ، ولن تعرف الدنيا قبراً ضم أشهر منهما زوجاً . . لسوف يشترك جيشنا فى هذا الجناز الحزين ، ثم يمضى من بعد ذلك إلى روما . هيا يا دولابيلا ، اجعل شريف المراسم تجلل هذا الحداد العظيم » .

ماكبث

لوليم شكسبير

تدور حوادث هذه المأساة الخالدة فى أسكتلندا فى الزمان الغابر نحو سنة ١٠٠٠ ميلادية . وأشخاصها هم دنكان ملك أسكتلندا وولداه مالكوم ودناليين ثم قائدان مظفران فى جيش الملك هما ماكبث وبانكو ثم لفيف من أشراف أسكتلندا وقادتها أهمهم ماكدف ولينوكس وروس وأنجوس والقائد سيوارد على رأس جيش إنجلترا . أما النساء فهن الليدى ماكبث والليدى ماكدف وثلاث ساحرات مكرهن عظيم .

والقائدان المظفران ما كبث وبانكو عائدان إلى مليكهما بعد إخماد ثورة عاتية فى بعض أنحاء المملكة . فقد ثار النبيل ماكدونالد وشق عصا الطاعة على مليكه وقاد عليه المشاة والفرسان من أبناء الجزر الغربية، وثار ملك النرويج كذلك وشق عصا الطاعة على دنكان ملك أسكتلندا ، فبعث إليهما الملك دنكان بقائده الشجاع ماكبث وأعوانه لتأديبهما فأبلى ماكبث أحسن البلاء .

وتأتى أنباء النصر إلى بلاط الملك دنكان ،ولكن تأتى أيضاً أنباء حزينة وهى أن إيرل كودور وهو شريف من أنبل نبلاء البلاد قد انضم إلى ملك النرويج الثائر وقاتل تحت رايته لولا أن ماكبث زوج بلونا إلهة الحرب ، قد خف إليه وهزمه فى النزال . فلم يبق أمام ملك النرويج إلا أن يبعث فى طلب الصلح وحين يبلغ نبأ خيانة كودور مسامع الملك دنكان يثور الملك ثورة عنيفة ويأمر بإعدام هذا الخائن الذى خرج على وطنه ومليكه . وخلع لقبه ، وهو إيرل كودور أو سيدها ، على القائد المظفر المخلص للعرش والبلاد ماكبث جزاء له على حسن بلائه .

ولكن البشر تفكر وتدبر والقدر يكيد ويمكر . فماكبث فى طريقه إلى بلاط الملك وفى صحبته القائد بانكو رفيقه فى الجلاد . وفيما هم يجتازان الفلوات المفروشة بالأعشاب الشيطانية ، يتقدمهما قرع الطبول ، تعترض طريقهما ثلاث ساحرات اجتمعن وذهبن يجمجمن بلغة السحر ويرقصن فى حلقة ويدرن تسع لفات .

ويذهل ماكبث وصاحبه بانكو حين يريان هؤلاء النسوة العجائز العجاف اللواتى التحين باللحى وما هن برجال ، وبرزت عظامهن من جلدهن وشذت ثيابهن عن كل ما يعرف الناس فلا يدريان إن كان ما يريان إنساً من الإنس أم رسلا من الجحيم . ويهيب ماكبث بالساحرات قائلا :

ماكبث : تكلمن يا هؤلاء إن كان لكن لسان ! من أنتن ؟
الساحرة الأولى : عاش ماكبث ، إيرل جلاميس !
الساحرة الثانية : عاش ماكبث : إيرل كودور !
الساحرة الثالثة : عاش ماكبث ، ملكاً بعد اليوم !

ويجفل ماكبث حين يسمع هذا الكلام العجيب الذى لايدرى أيطرب له أم ترتعد له فرائصه .ويستوقف بانكو الساحرات يسألهن نبوءة من مثل ما تنبأن به لصاحبه ماكبث إن كان القدر يخبئ له غيباً . فإذا بالساحرات يهتفن الواحدة بعد الأخرى :

الساحرة الأولى : عاش بانكو !
الساحرة الثانية : عاش بانكو !
الساحرة الثالثة : عاش بانكو !
الساحرة الأولى : أقل من ماكبث وأعظم !
الساحرة الثانية : لا يعرف غبطته . وهو مع ذلك أشد غبطة
الساحرة الثالثة : لسوف تنجب الملوك . وإن لم تكن ملكاً !

عاش ماكبث وعاش بانكو !

وتنصرف الساحرات بعد أن يلقين هذه الأحاجى على مسمع القائدين الكبيرين . بل يتلاشين فى الهواء . أو يبتلعهن بطن الأرض ولا يتركن وراءهن أثراً . فللأرض فقاقيع كما أن للماء فقاقيع . وهن من فقاقيع الأرض كما يقول بانكو .

ويقف ماكبث حائراً مضطرباً ، إنه يعلم أنه بموت النبيل سينيل قد آل إليه لقب إيرل جلاميس . ولكنه لا يفهم كيف يؤول إليه لقب إيرل كودور وحامل

اللقب حى يرزق . أما عرش الملوك فهو يتجاوز النهى . فى البلاد ملك عظيم هو مولاه دنكان الذى أخلص ماكبث له الولاء ، ولدنكان سبط ملكى هما الأمير مالكوم والأمير دونالبين ، والعرش حق لهما يورث .

وفيما هما يتجادلان فى أمر هذه الطلاسم يبلغهما النبيلان روس وأنجوس رسولين من عند الملك ، وقد أوفدهما دنكان لاستقبال ماكبث المظفر وتحيته قبل وصوله إلى فوريس ، مقر البلاط . ويشيد روس بأمجاد ماكبث فى ساحة القتال وبغبطة الملك التى لا تحد بحدود . ويزف إليه البشرى التى حمله إياها الملك . وهى أنه قد خلع عليه لقب إيرل كودور .

ويحسب ماكبث وقد تملكه العجب أن روس يخلع عليه رياش غيره ، فهو يعلم أن إيرل كودور لايزال حياً يرزق ولقبه له مادام حياً . ولكن روس يشرح له الأمر وهو أن إيرل كودور متهم بالخيانة العظمى وأن الملك دنكان قد جرده من لقبه وأمر بإعدامه . وهنا يشتد اضطراب ماكبث ويناجى نفسه قائلا : « سيد جلاميس وسيد كودور . وما بقى كان أعظم ! » ثم يميل على صاحبه بانكو قائلا : « ألا تأمل أن يغدو بنوك ملوكاً . وقد وعدنك بذلك من وعدننى بهذا اللقب ؟ » فيجيبه بانكو قائلا : « لو آمنت بهذا لدفعك ذلك إلى طلب التاج مع لقب كودور . . ولكن هذه غرائب فكثيراً ما تنبئنا قوى الظلام بالحقائق لتقودنا إلى دمارنا ، وهى تغوينا بالسفاسف الصادقة لتخوننا فى خطير الأمور » .

وهكذا يقف ماكبث حائراً فقد أسقط فى يده بين هذه المعميات والنوازع المتلاطمة ، فهو لا يدرى إن كان ما سمع خيراً أم شراً ولا يجد الهدى إلى الطريق السوى . إن القدر قد صدق الوعد فبدت لماكبث تباشير المجد العظيم ، ولكنه رغم ذلك ، وبعلة ذلك ، قد غدا يستسلم لرؤى فظيعة من هولها تشيب الرؤوس . رؤى فيها الدماء والجريمة والخيانة . ويتحسس ماكبث أضلاعه التى يدق تحتها قلبه دقاً عنيفاً كأنه يريد أن ينخلع من صدره ، ويتوه هنيهة فى بحران ، ويهمس معنفاً نفسه على خواطره الإجرامية : « إن أراد القدر أن يجعل منى ملكاً فلعله يتوجنى دون أن أحرك ساكناً » ! ويضيف مناجياً نفسه : « فليكن ما يكون » ! ثم ينطلق مع صاحبه بانكو فى طريقهما إلى فوريس حيث القصر الملكى .

وفى القصر الملكى يجلس دنكان ومن حواه نبلاؤه وحاشيته ويستقبل نبأ إعدام إيرل كودور ، فيعلم أن هذا الخارج الخائن قد مات ميتة الشجعان ، ولقى حتفه رافع الرأس غير مبال بمصيره الأسيف .

وحين يمثل ماكبث ودنكان فى حضرته يرحب بهما أيما ترحيب ، ويعانق بانكو مكافأة له على حسن بلائه ، ولكنه يختص ماكبث بكريم الثناء والإكبار ، ويعلن على رجال البلاط أنه قد تخير ولده مالكوم ليكون ولى عهد المملكة الذى يؤول إليه العرش من بعده وأنه خلع عليه لقب أمير كامبرلاند تشريفاً لمقامه ، ولكن الملك دنكان لا يكرم ولده وحده ، وهو احتفاء بهذه المناسبة قد قرر أن يشرف قائده المخلص الباسل ماكبث فيزوره فى قلعته بإنفرنيس .

ويقلب ماكبث الأمر على جميع وجوهه . إنه غدا يرى فى مالكوم ، أمير كمبرلاند وولى عهد البلد حجر عثرة جديد فى طريقه إلى العرش . ثم إن القدر ذا الأفاعيل العجيبة يسوق الملك دنكان إلى قلعته فى أنفرنيس ، فكأنما هو يسعى إلى حتفه بظلفه؛ ويل لك من الساحرات يا ماكبث ؛ إن بينك وبين التاج بحاراً من الدماء .

وفى قلعه أنفرنيس تذرع ليدى ماكبث أرض غرفتها جيئة وذهوباً وهى تتلو رسالة زوجها إليها وفى عينيها بريق غريب . هو يقول « إن الساحرات قابلننى يوم انتصارى . وقد استيقنت بالدليل القاطع أن علمهن يفوق علم البشر » كل شىء من وعدهن تحقق ، ولم يبق إلا شىء واحد هو الذى يتوج كل شىء : الملك .

لسوف ينال ماكبث كل ما وعدته به الأقدار . ولكن الليدى ماكبث تعلم أن هناك حائلا واحداً دون بلوغ زوجها ما يتمناه قلبه وقلبها ، وذلك هو ماكبث نفسه أو نفس ماكبث المنطوية على الخير ، وهى تقول فى ذلك : « لسوف تنال كل ما وعدت به . ومع ذلك فإنى أخشى سجية نفسك . فهى تفيض بلبان الرحمة فترتد عن أقصر طريق . إنك تطلب المجد وقلبك لا يخلو من الطموح ، ولكنه خال من الشر الذى ينبغى أن يصاحب الطموح : أنت تطلب الغاية السامية بالوسيلة السامية ، ولا ترضى بختل أو خداع . ولكنك مع ذلك تطلب الفوز الآثم » .

نعم . وهذا هو ماكبث فى كلمات .

ويدخل على ليدى ماكبث رسول يعلن قدوم الملك فى المساء لينزل ضيفاً على آل ماكبث . ويلتهب خيال ليدى ماكبث حين تسمع هذا النبأ ، وتراودها أفظع الأفكار . وما أن ينصرف الرسول حتّى تصيح قائلة : « إن الغراب الأسحم نفسه ينعب نعيباً غليظاً وهو يعان قدوم دنكان إلى حتفه تحت أسوار قلعتى . أنجدينى أيتّها الشياطين التّى تذكى فى النفس خواطر الجريمة . جردينى من أنوثتى فوراً ، واملئينى من قمة رأسى إلى أخمص القدم بالقسوة الضارية التّى لا تعدلها قسوة ؛ اجعلى الدم يتكاثف فى عروقى ، وسدى سبيل الندم فى شعاب القلب ، حتّى لا تثنينى وخزات الضمير عن غايتّى الشريرة أو تحول دون وقوع الواقعة ؛ تعالى إلى ثديى . أيتّها الشياطين الفاتكة . أينما سعيت فى عناصرك الخفية لتذكى الشر فى جنبات الطبيعة ، وضعى السم مكان اللبان فى ضرع الأمومة ! وأنت أيها الليل الأسحم . تعال وتحجب بأصفق الأكفان من دخان الجحيم حتّى لا يرى خنجرى البتار الجرح الذى يمزقه . أو تطل السماء من ستار الظلام صائحة : ارجعى ! ارجعى » !

ويقبل عليها ماكبث وهى فى هذا الهياج الشديد ، فتعلم منه أن الملك دنكان لن يطول مقامه فى أنفرنيس ؛ فهو سيصل فى المساء ويرحل فى الغد ، فتقول إن شمس الغد لن تطلع أبداً على دنكان . ويروعها فى زوجها اضطرابه العظيم ، فهو شاحب الوجه تنم طلعته عما يدور فى رأسه من أفكار مظلمة فتهدئ من روعه . لابد أن يلبس ماكبث قناع المنافقين حتّى لا يفتضح أمره ، فيتظاهر بالغبطة ويفتعل السرور ، أو كما تقول ليدى ماكبث لزوجها : « فلتبد كالزهرة البريئة ، ولتكن كالأفعى الكامنة تحتّها » . فهذا هو سبيله الوحيد لقضاء مأربه .

ويقبل الملك فترحب به ليدى ماكبث بمعسول الكلام ، ويغمرها بعبارات التكريم . أما ماكبث فهو منزو يقلب أفكاره السوداء ويتدبر عواقب اغتياله الملك . إن دنكان يقيه منه درعان أنه مليكه وبعض رحمه فهو يدين له بالولاء والوفاء ، وهو ضيفه المقيم فى حمايته فكيف يغتاله وهو الذى ينبغى أن يرد عنه عداه . ثم إن دنكان ملك وديع فاضل إن أرادت يد أن تمس قداسته بسوء ارتدت

إلى نحر صاحبها . كلا . إن ماكبث لن يقوى على اغتيال ، ومن الخير أن يعدل عن هذه الفكرة الشنعاء .

وحين ترى منه ليدى ماكبث هذا التردد تعنفه تعنيفاً شديداً وتشحذ عزيمته بقولها إنها لو أقسمت على قتل رضيعها لنزعت ضرعها من فمه الصغير الضاحك فى وجهها وهشمت بقبضتها رأسه تهشيماً .

إنها قد أعدت خطة بارعة لاغتيال الملك دنكان . فحين يأوى الملك إلى فراشه ، فإنها ستثمل حارسيه بكئوس الراح حتى يفقدا الوعى . وبعد أن ينفذ ماكبث إلى مخدع الملك ويجهز عليه بخناجر حارسيه المخمورين يلطخ بدمه ثيابهما ، وبهذا تنصرف إليهما الأنظار ويحسب الجميع أنهما قاتلا الملك .

* * *

وفى تلك الليلة الليلاء تزمزم الريح وتضطرب عناصر الطبيعة وتحتجب نجوم السماء وينعب البوم بشر مستطير . إن الملك قد أوى إلى فراشه عند منتصف الليل . وكل ما فى القلعة ساكن . ولكنه السكون الخانق الرهيب فكأنما تمشى فى جنبات القلعة روح خانقة تقبض الأنفاس . ويضطرب بانكو فى القاعة ويخامره إحساس قوى بأن جريمة فاجعة توشك أن ترتكب . ويسأل ولده فليانس أن يناوله سيفه ، ويقبع على انتظار شىء مجهول .

ويقبل عليهما ماكبث وهو فى ذهول أو ما يشبه الذهول . ويحدثه بانكو بما رآه فى الأحلام من آثار الساحرات ، ولكن ماكبث يحب أن يرجئ الحديث ويعد بانكو بغامض الوعود إن هو وقف إلى جانبه ثم يتمنى لبانكو النوم الهنىء ، فينصرف بانكو وولده فليانس إلى مخدعهما .

وحين ينفرد ماكبث بنفسه تشتد وساوسه ويذهب يحلق فى الفضاء كأنه يبصر خنجراً سابحاً فى الهواء مقبضه متجه إليه . فيبادر إليه ليقبض عليه فإذا به يقبض على فراغ . إن رأسه محموم تتصاعد فيه الأبخرة وتملؤه بالأضغاث والأوهام فيخيل إليه أنه يسمع عواء ذئب بعيد . ويسمع ماكبث رنين أجراس فيعلم أن هذه هى الإشارة المتفق عليها فينطلق لأداء مهمته .

أما ليدى ماكبث فقد قامت بنصيبها فى هذا الأمر فأثملت الحارسين ودست

لهما المخدر فى الشراب إمعاناً فى الاحتياط ، بل لقد أوشكت أن تدب إلى مخدع الملك وتجهز عليه بيدها لولا أن هيئة الملك النائم بدت فى عينها كهيئة أبيها . وهى الآن فى القاعة تنتظر عودة زوجها .

ويعود ماكبث وقد فرغ من مهمته . ولكنه يعود فى اضطراب عظيم . ويخيل إليه أنه يسمع صوتاً يهتف : « لن تنام بعد اليوم يا ماكبث ! لقد قتل ماكبث النوم » . نعم : « لن تنام بعد اليوم يا ماكبث ؛ هذا هو الصوت الذى ترددت أصداؤه من جميع جنبات القلعة ؛ لن تنام بعد اليوم يا ماكبث !

وتهدئ ليدى ماكبث من روعه وتذكره أن يغسل آثار الدماء التى اصطبغت بها كفاه .

لقد نسى ماكبث فى اضطرابه أن يضع الخناجر إلى جوار الحارسين النائمين وأن يلطخ بالدم ثيابهما .

إن ماكبث يخاف أن يعود أو أن يقترب من مكان الجريمة . ولكن ليدى ماكبث لا تخاف . فهى تأخذ منه الخناجر وتنطلق بها لتتم الخطة الموضوعة ثم تعود وقد اصطبغت راحتاها بالدماء . ويمضى ماكبث وزوجه إلى غرفتهما حتى لا يؤخذا على غرة وهما فى كامل الثياب فتحوم حولهما الشكوك .

ويطرق الباب طارق ملح ليوقظ النائمين وإذا به القائد ماكدف ومعه النبيل لينوكس . وقد جاء بأمر من مولاه الملك دنكان ليوقظه قبل أن تظهر تباشير الفجر تأهباً للرحيل . ويلتمس ماكدف مخدع مولاه ولكنه سرعان ما يعود صائحاً : « يا للشناعة ! يا للشناعة ! يا للشناعة ! سفاح أثيم سفك دم الملك وأهرق سره الإلهى . لقد استيقظ ماكبث فاستيقظ يا مالكوم ! استيقظ يادونالبين ! وأنت يا بانكو استيقظ ! دقوا الأجراس ، وانفخوا فى الأبواق ! أيقظوا كل من فى القلعة » .

وينطلق ماكبث ولينوكس إلى مخدع الملك حيث الحارسان المخموران نائمان . إن الأمر جلى . إنما قتل الملك حارساه وتصطنع ليدى ماكبث الإغماء ويصطنع ماكبث الانفعال الشديد وينهال على الحارسين طعناً وتمزيقاً حتى يجهز عليهما وبهذا يمحو الدليل الوحيد الذى كان يمكن أن يشهد عليه وعلى زوجه .

ولكن ماكبث يخطئ فى هذا الحسبان فولى العهد مالكوم وأخوه دونالبين قد أحسا وهما نائمين فى جناح الملك بشىء مما كان يجرى . إنهما الآن فى كمين ، وكلمة صدق واحدة توجه الأنظار إلى رب البيت كفيلة بأن يكون فيها القضاء المبرم عليهما .

وهكذا يلزم مالكوم ودونالبين الصمت العميق حتى ينجوا من قبضة ماكبث . لابد إذن من الفرار . ويتواصى الأخوان سراً أن يفر أحدهما إلى إنجلترا والآخر إلى أيرلندا تأكيداً للأمان ، ويختفيان فى أعجاز الليل عن الأبصار .

وبانكو ؟ إنه مشتبه ، بل هو على يقين ، ولكنه لا ينبس بكلمة .

أما وقد فر ولدا الملك ، فلم يبق إلا أن يئول العرش إلى ماكبث ، إيرل كودور ، أقوى الأقوياء وثالث رجل فى المملكة . وهكذا توج ماكبث « فى سكون » ملكاً على أسكتلندا وتوجت ليدى ماكبث ملكة عليها بين همس الهامسين ورهبة الراهبين .

* * *

ويقيم ماكبث ملكه من القصر الملكى فى فوريس حاضرة ملك دنكان العظيم . أما بانكو فهو يخفى من الناس ما يعلم ولكنه لا يحجب علمه عن نفسه الهاجسة ، وهو يناجى نفسه قائلا : « إن نبوءة الساحرات قد صدقت كلها على ماكبث ، قد اشترى ملكه بالخيانة . ولكن ألم تعده الساحرات أيضاً بأن الملك سينتقل إلى سلالته ؟ فلينتظر إذن فلعل فى المستقبل أملا له ولبنيه .

أما ماكبث فهو مثله يتوجس ويترقب . فإذا كانت نبوءة الساحرات قد صدقت عليه ، فماذا يمنع أن تصدق نبوءتها عن بانكو وبنيه ؟ وهل من سبيل إلى تغيير مجرى القدر ؟ نعم . جريمة أخرى . لابد من إزالة بانكو وولده فليانس من الوجود . ففيهما يكمن الخطر على عرش ماكبث بل وعلى حياته . وهل خان ماكبث ملكه ولوث نفسه بالدماء جسداً وروحاً من أجل بانكو وبنيه ؟ كلا . إن عقله المسموم لن يهدأ ما بقيا على قيد الحياة .

وهكذا يدبر ماكبث لبانكو وفليانس كميناً عند مدخل القصر . فهما منطلقان بعد العصر على ظهور الخيل ولن يعودا إلا فى المساء ليشهدا المأدبة العظيمة التى يقيمها ماكبث فى تلك الليلة . ويعهد ماكبث بهذه المهمة لثلاثة من القتلة السفاحين

لهم فى بانكو غرض قديم وفى جنح الليل يعود بانكو وفليانس حاملا مشعلا ، وبغيتهما حضور وليمة الملك ماكبث . وما أن يقتربا من القصر حتى ينقض عليهما القتلة فيصرعوا بانكو بخناجرهم ولكن فليانس يتمكن من الفرار .

ويجلس الضيوف النبلاء من حول المائدة فى انتظار بانكو . أما ماكبث فهو قلق ينتظر شيئاً آخر ، ينتظر كلمة تقول إن بانكو لن يعود . وبالباب يقف القتلة فيخرج إليهم ماكبث ومنهم يعلم بموت بانكو وبفرار فليانس ، فلا يدرى أيطرب أم يحزن ، ويعود إلى أضيافه متكلفاً البشر متحدثاً بأمجاد بانكو هذا الغائب الذى سيطول غيابه .

ويدخل شبح بانكو ويجلس فى مكان ماكبث . وينتاب ماكبث هياج شديد ويهذى هذياناً يلفت أنظار الحاضرين . إنهم يرون مقعد الملك فارغاً ينتظره ، والملك يرى بانكو قد حل فيه ثم ينصرف الشبح ويهدأ روع ماكبث ويعتذر للحاضرين عما انتابه من وعكة غريبة ويطلب إلى ضيوفه أن يشربوا نخب بانكو صديقه الصدوق ، وما أن يدنو من مقعده حتى يعود شبح بانكو يحاياه من مقعده الملكى فيمعن فى هذيانه الذى لا يفهم منه أحد شيئاً . إنه يراه ! إنه يراه ! إن يده بريئة من دمه ! وحين يستفسر النبلاء عن الخطب تصرفهم الملكة قائلة إن جلالة الملك ماكبث محموم ومن الخير أن يترك لينقه من وعكته .

* * *

وتشتد العلة على ماكبث . فيرى فى فرار فليانس نذيراً بقرب تحقق نبوءة الساحرات . ويشك فى كل من حوله من نبلاء البلاد فيدس فى كل بيت خادماً يتجسس له على سادته . وينطلق إلى الفلوات باحثاً عن الساحرات الثلاث ليسألهن عن المصير . وحين يبلغ ماكبث كهف الساحرات يكرمن وفادة هذا البطل العظيم الذى غدا وحشاً ضارياً يسبح فى برك من الدماء ، ويقرآن له الغيب على خير ما يبتغى فيطمئن قلبه . ويستحضرن له شبحاً ينذره وسط قصف الرعود قائلا : « أى ماكبث ! أى ماكبث ! الحذار من ماكدف ! » ثم يستحضرون له شبحاً ثانياً يقول : « خض فى الدماء ! كن باسلا ! كن حازماً ! واضحك مستهزئاً من قوة البشر ، فلن يمس ماكبث بسوء رجل ولدته امرأة » ! ثم يستحضرن له شبحاً

ثالثاً يقول : « لن يقهر ماكبث حتى تنتقل غابة بيرنام العظيمة إلى تل دنسنين العالى لتحاربه » !

ويستفسر ماكبث عن مآل العرش وهل لبنى بانكو فيه نصيب . وترده الساحرات عن سؤاله فيلحف فيه . وعندئذ يستحضرن أمامه موكباً فيه ثمانية ملوك، يظهر كل منهم بعد صاحبه . ويعلم ماكبث أن المستقبل لبنى بانكو فيلعن اليوم الذى شاهد فيه هذه الرؤيا .

ولكن يعود ماكبث إلى قصره وقد عادت إلى قلبه السكينة . إنه رجل لا يقهر ، هكذا قالت الأشباح . ألم تقل إن ماكبث لن يقهره رجل ولدته امرأة ؟ ألم تقل إن هزيمته لن تكون إلا إذا تحركت الغابات وارتقت التلال وهو أمر محال ؟ فليتآمر من يريد أن يتآمر ، فهو فى أمان بعد أن يفتك بالقائد ماكدف الذى حذرته منه الأشباح .

ويوفد ماكبث إلى بيت ماكدف نفراً من الجناة ليجهزوا عليه وعلى آله ولكن ماكدف الذى كان يتوجس خيفة من ماكبث الغاضب عليه يفر إلى إنجلترا حيث يحتمى بملكها وبمولاه مالكوم سيد أسكتلندا الشرعى . وحين لا يجد الجناة بغيتهم المنشودة يفتكون بليدى ماكدف وصغارها فتكاً شنيعاً .

وفى إنجلترا يلتقى ماكدف بمالكوم ، فيعلم منه أن إدوارد ملك إنجلترا يجهزه بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل تحت إمرة القائد سيوارد ليسترد به عرش آبائه ويضع حداً لحكم الطاغية ماكبث .

* * *

ويتحصن ماكبث فى قصر دنسينين الذى ينتقل إليه برجاله وبلاطه كما تنتقل إليه ليدى ماكبث . ويعلم ماكبث أن الخطر عليه من الخارج يستفحل يوماً بعد يوم ؛ فدولته توشك أن تجتاحها فتنة لكثرة ما يتهامس المتهامسون عن جرائم الطاغية ماكبث وانقسام النبلاء عليه سراً إن لم تكن جهراً . ولكنه رغم ذلك يقبض على أعنة الأمور بيد من حديد وهو مطمئن البال إلى قوته التى لا تقهر .

ولكن يقض مضجعه ما آلت إليه حال زوجه الملكة ، أو ليدى ماكبث ، فهى تنهض كل ليلة من فراشها وتجوس فى منامها جنبات القصر حاملة شمعداناً

وعيناها مفتوحتان وتتوقف بين الحين والحين لتفرك يديها كأنها تغسلهما لتزيل عنهما الدماء ، وتحدث نفسها بصوت مسموع . ويعودها طبيب ليكشف علتها فيراها على هذا الحال الأسيف ويسمعها تقول وهى تغسل يديها « اختفى أيتها البقعة اللعينة ! قلت اختفى ! واحدة ، اثنتين . لقد جاء وقت الإنجاز . إن الجحيم معتم ؛ ويحك ! أتخاف وأنت جندى ! » ثم تعود إلى يديها وتقول : لا تزال فيهما رائحة الدماء . واها ! واها ! واها ! فلن تعطر هذه اليد الصغيرة كل الطيوب العربية » . ثم تعود إلى زوجها وتقول « اغسل يديك والبس رداء النوم . دع عنك هذا الشحوب . أعود فأقول لك إن بانكو فى قبره ولن ينهض من بين الأموات » . ثم تمضى إلى فراشها .

ويدرك الطبيب أن ما بها علة ليس لها من شفاء .

ويقترب جيش مالكوم وعلى رأسه سيوارد وماكدف ويعسكر قرب دنسنين عند غابة بيرنام . ويكثر الاشتباك بينهم وبين رجال ماكبث ويفر من رجاله كثيرون ولكن ماكبث لا يعبأ بشىء مما يحدث فهو يعلم أنه لن يقهره رجل ولدته امرأة كما قالت الأشباح ولن ينهزم إلا إذا تحركت الغابات .

ولكن ماكبث لايعلم أن مالكوم قد أمر جنوده أن يجتثوا الأغصان من غابة بيرنام وأن يحمل كل منهم غصناً يستخفى وراءه تضليلا للعدو عن عددهم .

وتكون هذه بداية النهاية ، فتتواتر على ماكبث الخطوب . ويأتيه من يقول إن جيش مالكوم على الأبواب، فيطلب دروعه وسلاحه ويتأهب للقتال ، وفيما هو يعد عدته يسمع صياح النسوة فى القصر ويأتيه من يقول إن ليدى ماكبث قد ماتت . فتغلبه الأشجان ويرثيها قائلا :

«كان ينبغى أن تموت بعد اليوم . فلو فعلت لأمهلتنا لنقول : ماتت الملكة ! هكذا يزحف الغد ثم الغد ثم الغد بهذا الخطو الوئيد من يوم إلى يوم حتى آخر مقطع فى سجل الزمن . وكل أمس مضى أنار للحمقى طريقهم إلى تراب الموت . انطفئى ، أيتها الشمعة الهزيلة . انطفئى ؛ فما الحياة إلا ظل يمشى ، وممثل يختال على المسرح ويتألم وهو يؤدى دوره ، ثم لا يعود يسمعه أحد . إنها قصة يرويها أبله ، كلها صخب وهياج ، ولكن مالها مغزى » .

وهكذا تنتقل غابة بيرنام إلى دنستين وترتقى التل العالى لتحاصر القصر فيسقط القصر كما جاء فى النبوءة .

ولكن من كان مثل ماكبث لا يفر ولو بقى وحده فى النزال . ويأتيه الفتى سيوارد بن سيوارد قائد الجيش ويتحداه فيصرعه ماكبث ، وبعد سيوارد الابن يأتى القائد ماكدف وينازل الطاغية . إن ماكدف يأبى أن يلتحم جيش بجيش حقناً لدماء الجنود المساكين ، وهو يهيب بماكبث أن يخرج لمبارزته . ويلتحم الرجلان . وينذر ماكبث غريمه بمقالة الأشباح إنه لم يقدر لرجل ولدته امرأة أن يقهره . ولكن ماكدف يجيبه وهو يثخنه بالجراح : حق ما قالته الأشباح فانتظر منيتك !

فماكدف لم تلده أمه وإنما شقت بطنها لإخراجه حين تعسرت ولادته .

ويخر ماكبث مجندلا بسيف ماكدف كما جاء فى النبوءة . ويحز ماكدف رأسه ويحملها إلى مالكوم الذى جلس على عرش أبيه .

روميو وجولييت

لوليم شكسبير

إيطاليا أيام عهد الإقطاع : عهد الأشراف والنبلاء فى العصور الوسطى؛ كل مدينة زاهرة فيها دولة مستقلة ذات سيادة ولى عليها دوق أو أمير . وفيرونا مدينة زاهرة تحكمها الأسر الزاهرة فى كنف أميرها الرشيد . ولكن بين هذه الأسر أسرتان من أكرم آل فيرونا محتداً وأوسعهم جاهاً قد استحكم بينها عداء تقليدى موروث أباً عن جد ، فجعلا من هذه المدينة الآمنة مسرحاً للضغائن والأحقاد ، وجعلا من شوارعها ونواديها مسرحاً للمبارزات الدامية والاشتباكات المسلحة حتى ضج أهل المدينة وضاق أميرها ذرعاً باختلال النظام وتحدى القوانين .

هاتان هما أسرة كابيوليت وأسرة مونتاجيو . فلا يذكر اسم مونتاجيو أمام آل كابيوليت حتى ينتفضوا غضباً وتمتد أيديهم إلى مقابض السيوف ، ولا يذكر اسم كابيوليت أمام آل مونتاجيو حتى ينتابهم هياج دموى كأنهم الثيران الهائجة .

ولكن يشاء القدر أن تنبت وسط هذه الأحقاد القديمة المتأججة براعم الحب فى قلبين يافعين طاهرين . هما قلب الفتى روميو ولد مونتاجيو الشيخ عميد أسرته .، وقلب الفتاة جولييت بنت كابيوليت العجوز عميد أسرته ، ويأبى الشباب الغض البرىء أن تخضع شريعة الحب لشريعة الحقد الأعمى ، وتندلع جذوة الحب فى قلوب الأبناء وتندلع جذوة الحقد فى قلوب الآباء، فتأكل جذوة الحقد جذوة الحب ، وتسير أشباح الضغينة البلهاء على أجداث العاشقين . ولكن هول الفجيعة يطهر القلوب الحاقدة ويصفى النفوس من السخائم السوداء ، فلا يسدل الستار إلا وقد تصافح الأبوان الحزينان فى مأتم الحب وتعاهدا على تخليد هذا الغرام الفاجع الذى جرت سيرته بين الناس مجرى الأمثال .

* * *

وفى مجتمع النبلاء والأشراف لا تقف الضغائن والحزازات بين السادة بل تنتقل

إلى الخدم والأتباع والأصدقاء . لهذا نرى الخادمين سمسون وجريجورى التابعين لآل كابيوليت يذرعان ميداناً من ميادين فيرونا مدججين بالسلاح وهما يختالان عجباً ويضمران التحرش بخدم آل مانتاجيو المقبلين فى الطريق ، بل ويضمران الإيقاع بخادمات آل مانتاجيو كأنهن سبايا تستباح .

ويعترض طريقهما الخادمان أبراهام وبلثازار وهما من أتباع مونتاجيو يحملان ما يحمله خدم كابوليت من بغض ورغبة فى الثأر . وسرعان ما يشتبك الطرفان ؛ فيجرد كل حسامه ، فسمسون يهين جريجورى بإشارة من أصبعه ، وجريجورى لا يسكت على إهانة . وفيما هما ملتحمان يقبل عليهما الفتى النبيل بنفوليو صديق روميو الصدوق ، ويجرد عليهما سيفه ويأمرهما بالكف عن القتال ، بل ويجردهما من السلاح ، فالنبيل بنفوليو رغم ولائه لصديقه روميو فتى عاقل لا يحب أن تكون فيرونا مرتعاً لهذه المشاحنات الصبيانية .

ويقبل عليهم الفتى تيبالت ابن أخ السيدة كابيوليت وابن خال بنتها جولييت . ولكن الفتى تيبالت على العكس من بنفوليو فتى غضوب دموى الطباع يتحسس سلاحه فى كل مناسبة . ويعز على تيبالت الغضوب أن يرى بنفوليو وقد شرع سيفه بين الخادمين المتخاصمين ، ويحسب أنه يريد شرًّا ، فيزجره زجراً عنيفاً ويتحداه أن يبارزه ، وهكذا يقتتل النبيلان تيبالت وبنفوليو بعد أن كان الأمر قاصراً على الخدم . وسرعان ما ينضم إلى كل جماعة من أقربائه وأنصاره ويشتركون فى العراك فإذا بميدان فيرونا غدا كأنه ميدان قتال . ولا يلبث كابيوليت الشيخ أن يجد طريقه إلى الميدان ، وحين يلمح مونتاجيو العجوز قادماً يزأر قائلا : « إلى بسيفى ! إلى بسيفى ! » ويوشك كابيوليت ومونتاجيو أن يلتحما لولا أن الأمير أسكال . أمير فيرونا ، يبلغ الميدان مع حاشيته ويجد جمعاً من المواطنين يتصايحون فى اشمئزاز من سلوك هاتين الأسرتين اللتين تعربدان بالخصومة فى أرجاء المدينة ، ويفرق الأميرين المتخاصمين فى غضب شديد مزمجراً : « أى كابيوليت العجوز ، وأنت يا مونتاجيو ، هذه ثالث مرة تزعجان فيها شوارعنا الهادئة ، وتجعلان المواطنين الأصلاء فى فيرونا يتخلون عن جمال وقارهم وتشرع أيديهم الهرمة السيوف القديمة التى أصدأها السلام ليفرقوا جموعكم التى أتلفها الحقد . إنى لمنذركم إذا عدتم إلى

تعكير أمن شوارعنا مرة أخرى أن أجعل من حياتكم ثمناً لأمن المدينة . ويأمر الأمير كل رعيته بالانصراف ما خلا كابيوليت ومونتاجيو فهو يأمرهما باللحاق به فى قصره ليقضى بينهما .

وحين ينصرف الأمير يستفسر مونتاجيو عما جدد هذا العراك فيشرح له بنفوليو كل ما جرى . وتستفسر زوجة الليدى مونتاجيو عن ولدها روميو ، وهى سعيدة بأنه لم يشترك فى العراك . فيجيبها بنفوليو بأن روميو قد استبد به الحزن فانطلق فى الفجر قبلما تطل ذكاء من نافذة الشرق الذهبية وخرج إلى الأحراش يلتمس العزلة . وحين رآه بنفوليو على هذه الحالة هم بالسعى إليه ولكن روميو فر منه وتوارى بين كثيف الأشجار .

ويضيف مونتاجيو أن روميو طالما رآه الناس فى تلك الأدغال كاسف البال يصعد الزفرات ويروى العشب فى الفجر بعبرات من ندى الفجر ، فما أن تبزغ الشمس حتى يتسلل إلى مخدعه كأنه جفلان من نورها الوضاء ، وهناك ينطوى على نفسه ويذبل كأنه البرعم اليانع تنخره دودة قاتلة ، قبل أن تتفتح أوراقه ويهب جماله إلى الشمس . ولكن روميو لا يفصح عما به من داء ، ولو قد عرف داءه لما بخل عليه بالدواء .

وفيما هم يتحدثون يقبل عليهم روميو من بعيد فينصرف مونتاجيو وزوجته ليتركا بنفوليو وحده مع ابن عمه وصديقه الصدوق روميو ، وهما يرجوان أن يبوح روميو لبنفوليو بسر أحزانه .

وبعد مداورات يعرف بنفوليو من روميو أنه عاشق متيم بأجمل الجميلات فى فيرونا وهى العذراء روزالين ، وأنه شقى بحبها لأن روزالين لا تستجيب لنجوى فؤاده ، وسهم كيوبيد لاينفذ إلى قلبها ، وهى لا تلقى إلى الغرام بالا كأنها ربة العفاف ديانا تصون عذارتها من العشاق والأزواج أجمعين ، فهى قد أقسمت أن تعيش عذراء وأن تموت عذراء ، فينطوى كل هذا الجمال فى التراب ولا يبقى على وجه الأرض منه أثر ولا ثمر . وهذا هو سر شقائه ومصدر عذابه ، ولكنه رغم ذلك سعيد بهذا الشقاء يستعذب العذاب ، فجحيم الحب جنة المحبين .

ويهون بنفوليو عليه الأمر قائلا إن شقاءه بيده ، فما عليه إلا أن ينصرف عن

روزالين الحسناء إلى غيرها من الحسان ، وما عليه إلا أن يبحث عن حب جديد ينسى به حبه القديم ، ولسوف يجد من بين بنات فيرونا من هى أجمل من روزالين . فيسخر منه روميو قائلا إن فيرونا كلها ليس فيها فتاة تضارع روزالين جمالا أو تضاهيها بهاء .

ويقبل عليهما خادم بيده ورقة بها أسماء وأسماء ، ويسألهما الخادم أن يعيناه على قراءة هذه الأسماء فهو لا يحسن القراءة فيعرف روميو أن السيد كابيوليت قد اعتزم أن يقيم فى داره حفلا تنكرياً فى ذلك المساء بعينه ، وقد أوفد خادمه ليحمل الدعوة إلى من دعاهم من أشراف المدينة . ويقرأ روميو اسم حبيبته روزالين بين المدعوين ، فيضطرب قلبه عند قراءة اسمها . ويستحث بنفوليوروميو أن يحضر هذا الحفل الذى سيضم أجمل من فى فيرونا من الحسان ، وأن يفتح عينيه على ما فى الدنيا من جمال ولسوف يجد هذه البجعة الجميلة التى خلبت لبه غراباً أسحم بين الجميلات . إن كل شىء موات ، فالحفل حفل تنكرى ، وهو وإن كان من آل مونتاجيو إلا أنه يستطيع أن يلبس كغيره قناعاً فلا يعرف أحد هوايته ، وهكذا يندس فى بيت عدوه كابيوليت ، ويطرب فيه ويمرح وينسى هموم الصبابة ويقبل روميو هذا التحدى قائلا إنه ذاهب إلى الحفل ليبهج القلب بأنوار محبوبته .

ويتردد على آل كابيوليت سيد من نبلاء فيرونا كريم المحتد هو الكونت باديس ، وهو عاشق لجولييت بنت كابيوليت وقد جاء يطلب يدها من أبيها ، ويرجو أن يظفر منه بجواب يطمئن قلبه . ولكن الشيخ كابيوليت يرجئه قائلا إن جولييت كالبرعم الناضر الذى لم تتفتح بعد أكمامه لأفراح الشباب أو لمعانى الزواج . فهى لم تبلغ بعد أربعة عشر ربيعاً ، ولابد من الانتظار عامين حتى تنضج للزواج . ويلحف الكونت باديس فى طلبه قائلا إن بنات يصغرنها فى العمر قد ذقن طعم السعادة التى لا تعرفها إلا الأمهات . فيجيبه كابيوليت بقوله إن الردى قد طوى كل بنيه وبناته ، فلم يبق له من أمل فى الحياة إلا سعادة جولييت . وهو لن يختار لها زوجاً لا ترضاه لنفسها . فليخطب الكونت باديس ودها وليظفر بقلبها ، فإن رضيت به زوجاً رضى هو به أيضاً . إن كابيوليت سيقيم الليلة حفلا راقصاً يدعو كل أحبائه . وسوف يشهد الحفل صفوة فتيان فيرونا وأجمل فتياتها . فليجرب

الكونت باديس حظه مع ابنته فى المساء ، فلعله يظفر بقلبها .

وفى حجرة بدار كابيوليت تخلو الليدى كابيوليت بابنتها جولييت . وبمربيتها لتفاتح جولييت فى أمر هذا الزواج ، وتعلن عليها أن الكونت باديس وهو أنبل فتيان فيرونا وأوسمهم جميعاً قد تقدم لخطبتها ، والكلمة الآن لها . فهى ستراه بعد قليل فى الحفل ، فإن راق فى عينها ، فهو لها . وتفيض الليدى كابيولبت ومربيتها فى وصف شمائل الكونت باديس ، فتقول جولييت إنها ستعد نفسها إعداداً لحبه مادامت هذه مشيئة والديها .

ويهبط المساء ، ويتوافد الموعوون إلى دار كابيوليت . ويندس بينهم روميو وقد استخفى وراء قناعه . وهو فى صحبة ابن عمه بنفوليو وصديقه الوفى مركوشيو ، وهو من أقرباء أمير فيرونا . ويقف كابيوليت بين أضيافه مرحباً بهم مستحثاً إياهم على الرقص والمرح ، فيرقصون ويمرحون . أما روميو فهو لا يرقص ولا يمرح لأن قلبه الحزين ثقيل بحب روزالين ، بل يتصفح وجوه الشباب والحسان لعل عينه تقع على محبوبته .

ولكن بصره لا يلبث أن يقع على جولييت وهى تراقص فتى من فتيان فيرونا . وتتلاقى العيون وكأنما تلاقى قطبا المغناطيس ويرفع كل قناعه لحظة ثم يسدله فى لمح البصر . ويسأل روميو : « من تكون هذه السيدة التى تتلألأ فى يد ذلك الفارس كأنها الدرة اليتيمة ؟ إن الضياء الذى يتفجر من وجهها لا يدانيه ضياء المشاعل . إنها جوهرة غالية تتدلى من أذن حبشى ، وجمالها كنز يصان ولا ينفق وبهاؤها نورانى ليس للأرض فيه نصيب » .

ويسمع الفتى الغضوب تيبالت صوت روميو فيميزه وينتابه حنق شديد ويأمر الخادم أن يأتيه بسيفه فهو لن يأذن لخسيس من آل مونتاجيو أن يفسد عليهم روعة الحفل ، فلا شك أن روميو ما جاء إلا ليسخر من أفراح آل كابيوليت . ولكن الشيخ كابيوليت ينهره نهراً شديداً وينهاه عن المساس بروميو مادام فى ضيافته .

ويدنو روميو من جولييت حتى يخلو بها فى طرف من أطراف القاعة ويتناول يدها ويناجيها قائلا : « إن كنت قد دنست بيدى الخسيسة هذه هيكلك المقدس ، فلتكن خطيئتى أن تمحو شفتاى آثار غلطتى بقبلة رقيقة ، كما يقبل عابدان مذنبان

أسدال الهيكل المقدس » . وتطرب جولييت لسماع نجواه . ويقبلها روميو فتنتشى روحها ، فلا يتركها إلا وقد أصماها سهم الحب ، أما هو فيمشى فى بحران كأنه عرف الحب لأول مرة .

ويسأل روميو مربية جولييت العجوز : من تكون هذه السيدة وحين يعلم أنها ابنة كابيوليت رب الدار ، وعدو أسرته اللدود ، يتمتم قائلا : إذن فقد وضعت حياتى رهينة بين يدى عدوى ، وحين تعرف جولييت من مربيتها أن هذا الفتى هو روميو بن مونتاجيو الملعون بكل لسان فى آل كابيوليت يأخذها الهول ، وتدرك أن القدر يخبئ لها أهوالا شداداً .

* * *

وينفض الحفل وينصرف الجميع ، ما خلا روميو الذى يبقى تحت جنح الظلام لا يريم ، كأن فؤاده بداركابيوليت وهو لا يريد أن يترك فؤاده . ويترك رفيقيه بنفوليو ومركوشيو ، ويتسلق أسوار الحديقة فيهبط بين الأشجار ، ويسعى فى الحديقة حتى يبلغ شرفة جولييت وهو يجمجم قائلا : « إنما يسخر من جراح الحب من لم يخدش قلبه الهوى » .

وتطل جولييت من شرفتها فهى مثاه مؤرقة ساهدة ، فيخيل إليه أن ضياءها يجلو ظلمات الليل كما تجلو الشمس الحلك . إن روزالين كالقمر الشاحب إلى جانب هذه الشمس الساطعة .

ويسمع روميو جولييت تناجى نفسها كما يناجى هو نفسه . وتتنهد قائلة : لو لم يكن اسمه مونتاجيو لوهبته نفسى . فيعلم أنها تبادله الهوى . ويضرع روميو إليها ألا تعاقبه على شىء لا يد له فيه . إنه يحبها من أعمق أعماقه وحبه يقوده إليها كالربان الشديد المراس . ولو كانت جولييت فى أقصى الشطئان لعبر إليها البحار الخضر يخوض إليها اللج ويقتحم الزوابع . وحين يصارحها روميو بكل هذا الحب العميق المستفيض . تصارح جولييت روميو بحبها المتقد متخذة من ظلمة الليل ستاراً يحجب حمرة الخجل التى تتأجج فى وجنتيها . إن الحب قد علمها الطيش . وهى ترجو ألا يحسب روميو ذلك الحديث دليلا على خفتها ونزقها . فإن كان يقصد مقصداً شريفاً فهى له تعاهده على الوفاء حتى الموت ، وإن كان يقصد سوءاً فليمض عنها

وليتركها لأحزانها وينصرف روميو قبل أن يدركه الفجر حتى لا يفتضح أمرهما . إنها ستوفد إليه رسولا فى الغد لتعرف ما استقر عليه رأيه ، ولتعرف متى وأين تقام مراسم الزفاف .

وهكذا يفترق العاشقان بعد أن تبادلا عهد الهوى . ولا يذوق روميو طعم النوم بل ينطلق مع الصباح الباكر إلى صومعة راهب هو الراهب لورانس كاهن الأسرة ، الذى جعل روميو منه موضع سره ومرشده فى كل شئونه الروحية . ويعجب الراهب لورانس لهذه الزيارة الباكرة . ويحسب أن روميو قد جاءه ليحدثه فى أمر غرامه بروزالين . فإذا بروميو يحدثه فى أمر غرامه بجولييت ، فيزداد عجب الراهب لورانس لقصة هذا الفتى المتقلب ، ولكنه لا يلبث أن يتيقن من أن روميو قد اهتدى أخيراً إلى الحب الصحيح . فهو يلحف عليه فى إتمام الزواج . والراهب لورانس حائر مبلبل الفكر لا يعرف ما العمل . وكيف يزوج ولد مونتاجيو من ابنة كابيوليت عدوه اللدود ولكن الراهب لورانس يرضى أخيراً بأن يجمع بين النقيضين وهو يرجو مخلصاً أن يكون فى هذا الزواج نهاية البغضاء بين الأسرتين .

كل ذلك وبنفوليو ومركوشيو يبحثان عن روميو الذى اختفى فجأة منذ الليلة الماضية . ولم يعد إلى داره وهما يحسبان أنه انطلق كعادته إلى الأدغال ليبكى هواه الضائع لروزالين . وهما يعلمان أن تيبالت الغضوب قد بعث إلى دار مونتاجيو برسالة يتحدى فيها روميو ليبارزه ، وهما يشفقان على روميو من هذه المبارزة ، فتيبالت من أبرع من حمل السيف فى المدينة ، وروميو من أبرع من حمل السيف فى المدينة كذلك . ولكن حب روزالين أضناه وجعله أقرب إلى الشاعر الحالم منه إلى النبيل المقاتل .

وأخيراً يلحق بهما روميو ولكنه لا يطلعهما على دخيلة أمره بل يعابثهما بمرح الحديث فيعجبان لحاله . ولا تلبث مربية جولييت أن تقبل عليهم وتستأذن روميو فى الانفراد بها . فينبئها روميو بأنه سينتظر جولييت عصراً فى صومعة الراهب لورانس حيث يتم زواجهما . ويمنحها بدرة من المال فتسهب فى وصف حب جولييت إياه . وتذكر لها أن خاطباً جاءها هو الكونت باديس ولكنها ترفض أن تلقاه .

وتعود المربية إلى سيدتها جولييت بالنبأ السعيد فتجدها متلهفة تعد الدقائق

والثوانى وتتعجل من فمها الكلمات .

وفى العصر تمضى جولييت إلى صومعة الراهب لورانس حيث تجد حبيبها روميو فى انتظارها ، ويمضى بهما الراهب لورانس إلى الكنيسة حيث يجرى مراسم الزواج وهو يصلى إلى السماء أن تلطف بالجميع ، فقلبه يحدثه أن هذه الأفراح العاجلة لن تثمر إلا الأتراح .

وبعد أن ينتهى كل شىء يلتقى روميو ببنفوليو ومركوشيو فى ميدان المدينة ، فيجد تيبالت معهما يغلظ لهما القول محاولا استفزازهما . وحين يصل روميو يجد فيه تيبالت ضالته المنشودة فيستفزه بموجع الكلام ، ويصمه بالنذالة ، ويتحداه للمبارزة ، ولكن روميو يجيبه فى رفق قائلا : إن الغضب يعميه فهو يتحدث بما لا يعرف ، وحقيقة الأمر أنه لا يبغضه بل يحمل له الود . فلينصرف تيبالت إذن إلى حال سبيله . ولسوف يعرف تيبالت فيما بعد أن بينهما من الأواصر ما يحمله على حبه ، بل ما يجعل روميو يعتز بأسرة كابيوليت ويكن لها الوفاء .

ويعجب بنفوليو ومركوشيو لسماع هذا الكلام ، ويحسب مركوشيو أن روميو قد فقد رجولته ومشى الحب فيه بالطراوة فجعله يتقبل من الإهانات ما لا تحتمله النفس الكريمة . ويأخذ منه الغضب كل مأخذ فيتصدى لتيبالت إنقاذاً لشرف صديقه روميو ، ويجرد كل حسامه . ويقتتل الرجلان قتالا مريراً . ولكن روميو يهيب بهما أن يكفا عن القتال ويتوسطهما ليفرق بينهما فيفضى تدخله إلى الكارثة . فهو يشل حركة صديقه . فيغتنم تيبالت هذه الفرصة ويكيل لمركوشيو طعنة نجلاء تصيبه فى مقتل فيسقط متخبطاً فى دمائه يلعن الأسرتين معاً ، ثم تفيض روحه بعد قليل .

وهنا تثور ثائرة روميو . حين يرى صديقه مركوشيو قريب الأمير . يسقط صريعاً وهو يدافع عنه . ويجرد روميو سيفه وينازل تيبالت . فلا تمر دقائق إلا ويخر تيبالت مجندلا بسيف روميو . ويهيب بنفوليو بروميو أن يفر ويختفى اتقاء غضب الأمير الذى سبق أن فرض حكم الإعدام على كل من يزعج أمن فيرونا من الأسرتين بهذه المبارزات والمصادمات فى الطرقات العامة .

ولا يلبث الأمير أن يبلغ الميدان فى حاشيته ، ويتجمهر مونتاجيو وكابيوليت

ورجالهما . ويروى بنفوليو على الأمير كل ما حدث بحذافيره . ويطالب آل كابيوليت بموت روميو جزاء له على الفتك بتيبالت ، ويدافع آل مونتاجيو بأن روميو لم يفعل إلا أن نفذ قضاء الأمير فى تيبالت الذى كان بدأ الشجار وصرع مركوشيو . ويزن الأمير الأمر فلا يرى مفراً من نفى روميو من المدينة ويهدر دمه إذا رآه أحد فى فيرونا ويفرض على الأسرتين دية ثقيلة جزاء لهما على قتل مركوشيو بسبب ما بينهما من ضغائن .

وتعلم جولييت بكل ما حدث من مربيتها العجوز فتندب ابن خالها تيبالت وتبكى موته بدموع غزار . ولكن فجيعتها فجيعتان ، فزوجها الحبيب روميو قد صدر الأمر بنفيه من المدينة مدى الحياة ، وهو حكم أشق عليه وعليها من الحكم بالإعدام . وتوفد جولييت مربيتها إلى روميو لتسأله أن يأتى إليها تحت جنح الظلام ليودعها قبل خروجه من المدينة وتحملها إليه خاتماً يذكرها به فى منفاه .

أما روميو فيعرف بقضاء الأمير فيه من الراهب لورانس حين يقصد إلى صومعته ليطلعه على ما جرى . وما أن يعرف بأمر نفيه حتى يبلغ منه اليأس كل مأخذ ويستل سيفه ويهم بالانتحار ؟ لولا أن الراهب لورانس يحول بينه وبين الموت . إن النفى سيفرق بينه وبين زوجته إلى الأبد ، والموت أحب إليه من هذا القضاء العسير . وحين تأتيه المربية بخاتم جولييت يعرف منها أن دموع جولييت لا تجف . ويعلم أن حزنها على نفيه أفظع من حزنها على موت ابن خالها . ويرتب الراهب لورانس أمر إخفاء روميو حتى يودع زوجته ثم ينطلق إلى منفاه فى مدينة مانتوا المجاورة . حيث يدبر له من يوافيه بالأنباء .

وحين يتقدم الليل يدلف روميو إلى حديقة آل كابيوليت ويجد طريقه إلى شرفة مخدع جولييت المطل على الحديقة ، فيتسلق إلى الشرفة سلماً من حبال أعدته له المربية العجوز . ويقضى الليل فى أحضان زوجته حتى يتبلج نور الفجر ويشقشق الطير فى الحديقة . فتحسبها جولييت بلبل الليل الصداح ، ولكن « روميو يعلم أنه القبرة بشير الصباح . فيودع جولييت وقلبه يتمزق وينطلق ثقيل الفؤاد إلى منفاه فى مانتوا .

ثم تشتد الأمور تعقداً ، فإن كابيوليت وسط كل هذه الأحداث الفاجعة

يتعجل زواج جولييت من الكونت باديس دون أن يعلم شيئاً مما جرى بينها وبين روميو . وبعد أن كان يعلق الأمر بإرادتها يقول للعاشق الملحف إنها لن تعصى له أمراً . بل إن كابيوليت يحدد يوم الزفاف بالخميس التالى ويأمر جميع من بالدار أن يعدو العدة لعرس هادئ حزين لا جلبة فيه ولا طرب حداداً على وفاة تيبالت .

وتدعو الليدى كابيوليت ابنتها جولييت لتنبئها بما استقر عليه قرار أبيها فتجدها كالثكلى لا تجف لها عبرة ولا تنقطع لها زفرة . وتخالها تبكى موت تيبالت فتعزيها بقولها إن أبحاراً من الدموع لم تعد ميتاً إلى شاطئ الحياة . وأن آل كابيوليت سوف يثأرون من روميو القاتل مهما كلفهم ذلك من مشاق .

وتزف الليدى كابيوليت البشرى إلى جولييت أن أباها الساهر على سعادتها قد حدد يوم الخميس ليزفها فى كنيسة القديس بطرس إلى الكونت باديس . وتضطرب جولييت وتثور قائلة إنها لا ترى لهذه العجلة وجهاً . ولا ترى كيف تقبل باديس زوجاً وهو لم يتم نحوها بما ينبغى على الخطاب أن يفعلوه مع عرائسهم ليكسب رضاها وليستوثق من حبها له . كلا . إنه لأحب إليها أن تزف إلى عدوها الألدود روميو من أن تزف إلى الكونت باديس .

ويقبل أبوها فيكون مشهد عاصف . ويرى كابيوليت زوجته غضبى ويفهم منها أن جولييت ترفض هذا الزواج فيثور ويتهم ابنته بالجحود والغطرسة . وقد كان ينتظر منها أن تكون أكثر طاعة واعترافاً بالجميل وتحاول جولييت أن تشرح لأبيها أنها تعرف آلاءه عليها . ولكنه يجيبها فى غلظة قائلا : اشكرى أو اكفرى كما تشاءين ولكن أعدى نفسك للزفاف يوم الخميس فى كنيسة القديس بطرس . وإلا جررتك بيدى إلى ذلك المكان .

وتجثو جولييت على ركبتيها ضارعة إلى أبيها أن يستمع إلى مقالها لحظة أو لحظتين . ولكن أباها يصرخ فى وجهها وقد استولى عليه غضب أعمى أن تصدع بأمره دون مناقشة . فإن عصت أمره فلسوف يتبرأ منها ويقذف بها إلى عرض الطريق حيث تتسول أو تجوع أو تموت . وهو لن يعدل عن قراره هذا . ويل للآباء من البنات . لقد كانت شغله الشاغل طول هذه السنين . كل ذلك ليعدها لهذا اليوم

العظيم . وحين يأتيها بفتى من خير من أنجبت فيرونا نبالة محتد ورفعة خلق لا يسمع منها إلا هذا الكلام الفارغ : « لن أتزوجه » ، « لست أحبه » ، « ما زلت صغيرة » « أطلب عفوك » . كلا . كلا . كل شيء يعد ليوم الخميس .

ويلتقى الكونت باديس بجولييت فى صومعة الراهب لورانس ، أما الكونت باديس فقد جاء ليبلغ الراهب بموعد الزفاف حتى يعد عدته لإتمام المراسم . وأما جولييت فقد جاءت فى أمر أخطر من ذلك بكثير . إنها متزوجة من روميو دون علم أهلها وأبوها يريد أن يفرض عليها زواجاً ثانياً ، وهو أمر محال . . إنها جاءت تبحث عن مخرج من هذه المحنة .

وتتظاهر جولييت أنها قد جاءت إلى الراهب لورانس لتعترف كما تجرى بذلك تقاليد الدين ، وترجو إلى باديس أن يتركها وحيدة مع هذا الكاهن .

وتنفرد جولييت بالأب لورانس . فإذا به لا يقل عنها اضطراباً ، فهو الذى عقد قرانها على روميو . وهو يعلم أن زواجها من باديس أمر محال .

وتبرق فى خاطر الراهب لورانس فكرة رهيبة : إن جولييت يائسة لا ترى مخرجاً من هذه المحنة إلا الموت . والراهب لورانس قد توافر طول حياته على الاشتغال بالكيمياء سعياً وراء ألوان من أكسير يجدد الحياة ويجدد الشباب ويحيل بخس المعادن إلى ذهب نضار . وقد استقطر فى أنابيقه فعلا سائلا سحرياً شاربه يفقد كل مظاهر الحياة إلى أجل قصير ثم يستيقظ من موته وكأنه استيقظ من النوم .

نعم . هناك مخرج . وهو أن تتجرع جولييت قارورة من هذا السائل السحرى قبيل زفافها فيخال أهلها أنها ماتت . ويشيعونها إلى قبرها . ويكون الراهب لورانس قد أوفد راهباً من رهبانه إلى مانتوا برسالة إلى روميو يطلعه فيها على كل ما جرى ويستقدمه لينقذ زوجته حين تفيق من غيبوبتها ويهرب بها من مدينة فيرونا . إن جولييت اليائسة على استعداد للمجازفة .

وهكذا يزود الراهب لورانس جولييت بقنينة من شرابه السحرى ، ثم يوفد الراهب جون إلى مانتوا بالرسالة إلى روميو .

وفى عشية الزفاف تخلو جولييت إلى نفسها فى مخدعها وتنظر إلى ما حولها من

أشياء وكأنها تودع عالم الأحياء . وتنظر إلى القنينة ثم يعروها اضطراب شديد ترى ماذا يحدث لو أخفق هذا الشراب ؟ أو ليس جائزاً أن الراهب الماكر قد دس لها السم فيه ليتخلص منها فلا يفتضح أمره ؟ ترى ماذا يحدث لو جاء روميو إلى قبرها قبل أن تستيقظ ورآها فى النعش مسجاة ، وتستبد بها الهواجس . وتستخرج خنجراً وتضعه إلى جوارها استعداداً لكل احتمال . ثم لا تلبث أن تهدأ نفسها ، فهى تعلم علم اليقين أن الراهب لورانس ناسك مؤمن قوى الإيمان .

وتتجرع جولييت الشراب السحرى وتتمدد على فراشها .

وفى الصباح تدخل عليها مربيتها العجوز لتوقظها فتجدها جثة هامدة . وتصيح المربية : الغياث ! الغياث ! وتخف على نواحها الايدى كابيوليت وحين يقع بصرها على جثمان جولييت تنفجر بالبكاء والنشيج . أما كابيوليت فيعقد الأسى لسانه ويقف كالتمثال الشاحب بغير حراك . ويكتمل عقد المفجوعين حين يصل العريس الكونت باديس ليصحب عروسه إلى الكنيسة .

وهكذا يتحول العرس إلى مأتم ، ويخرج القوم فى مشهد رهيب يتقدمهم الراهب لورانس إلى القبو الكبير حيث يدفن آل كابيوليت موتاهم . وهناك يريحون جثمان جولييت المسجى فى قبر من رخام ويغطونه بلوح من المرمر الغالى ويقفاون راجعين .

ولكن الإنسان يدبر والقدر يقدر . فالراهب جون الذى أوفده الراهب لورانس يعجز عن بلوغ روميو وأداء الرسالة . فقد مر فى طريقه بدار راهب موبوءة بالطاعون فأغلقت السلطات عليه باب الدار حتى يأمن الناس الوباء . وهكذا يعود الراهب جون بالرسالة إلى الراهب لورانس .

وحين يعلم الراهب لورانس بذلك يبادر إلى القبر ومعه الأدوات اللازمة لىرفع بها لوح المرمر الجسيم الذى غطى به القبر مخافة أن تستيقظ جولييت لتجد نفسها حبيسة مع الأموات .

أما روميو فيأتيه من فيرونا من يبلغه بموت جولييت فينطلق لتوه إلى صيدلى يبتاع منه سماً زعافاً ثم يمضى فى طريقه إلى فيرونا حتى يبلغ مقبرة آل كابيوليت وحين يدخل روميو القبو يلتقى هناك بالكونت باديس الذى جاء لينثر الزهر على قبر عرسه . وحين تقع عين باديس على روميو يتبينه فيجن جنونه فهو يحسب أن ولد

مونتاجيو المنفى سافك دم تيبالت إنما جاء ليدنس قبر جولييت بنت عدوه . ويحاول روميو الحزين عبثاً أن يهدئ من ثائرة باديس الذى يجرد سيفه ، وحين لا يجد روميو مناصاً يدافع عن نفسه بحسامه . ويسقط باديس صريعاً ، وتكون آخر كلماته : « إن أخذتك بى رحمة فافتح القبر وضعنى إلى جوار جولييت ». ويعده روميو بذلك فيسلم الروح .

ويدنو روميو من القبر ويتصفح وجه جولييت البهى ويناجيها قائلا : « أى حبيبتاه ! أى زوجاه ؛ إن الموت الذى رشف رحيق أنفاسك قد عجز سلطانه عن اغتيال جمالك . إنك لم تقهرى بعد فشارة جمالك ما لبثت قرمزاً فى شفتيك وفى خديك ، وراية الموت الشاحبة لم تنشر بعد هنالك » .

وبعد أن يودعها بعبارات تمزق نياط القلوب يرفع قارورة السم قائلا : « ها أنذا أشرب نخبك يا حبيبتى » ثم يميل عليها ويقبلها ثم يسقط صريعاً .

وتستيقظ جولييت من نومها السحرى وحين تبصر جدث زوجها الحبيب تدرك كل ما حدث . وهل بقى لها شىء فى الحياة ؟ وتبادر جولييت إلى قارورة السم فتجد أن روميو قد أفرغها حتى الثمالة . وتسمع وقع أقدام قريبة فتسرع إلى خنجر روميو وتطعن به نفسها طعنة قاتلة فتسقط على جسده جثة هامدة .

وهكذا يسدل الستار على شهداء الغرام . ولكنه لا يسدل قبل أن يجتمع آل كابيوليت وآل مونتاجيو وأمير المدينة ليشهدوا هذا المشهد الفاجع بعد أن جاءهم نبؤه . ويستمع الجميع إلى الراهب لورانس وهو يقص عليهم قصة العاشقين اللذين أراد أن يزفهما فى الأرض فزفهما القدر فى السماء .

وكأنما النفوس لا تطهرها إلا الفجائع ، فإذا بالعدوين يتصافيان ويتصافحان ويتناول مونتاجيو يد كابيوليت قائلا : تمثال من الذهب الخالص سأقيمه لجولييت الوفية ، يبقى ما بقيت فيرونا رمزاً للوفاء فيجيبه كابيوليت : وفى قبر من الذهب الخالص سينام روميو بجوار حبيبته .

وهكذا يحل على فيرونا سلام حزين .

هاملت

لوليم شكسبير

اتفق النقاد على أن أعظم مسرحيات شكسبير أربع هى : « هاملت » و « ماكبث » و « الملك لير » و « عطيل » وكلها من المآسى . كذلك اتفقوا على أن أعظم هذه المآسى الأربع هى مأساة « هاملت » .

وماذا نقول عن شكسبير؟ وهل يُعرّف العلم الفرد؟ ولكن شكسبير رغم صيته الذى طبق الآفاق لا يزال مجهول الشخصية بقدر ما هو معروف الآثار . فنحن لا نعرف عن سيرته شيئاً ثابتاً مذكوراً إلا أنه ولد فى بلدة ستّراتفورد اون آفون بانجلترا فى أبريل من عام ١٥٦٤ . وتوفى فى أبريل من عام ١٦١٦ ، وبهذا يكون قد عمر اثنتين وخمسين سنة ، ترك لنا فيها سبعاً وثلاثين مسرحية بعضها تراجيديات وبعضها كوميديات ، وطائفة من القصائد الغنائية والقصصية الجميلة .

والمعتقد أن أباه « جون شكسبير » . كان تاجراً متوسط الحال فى ستّراتفورد اون آفون يدبغ الجلود أو يصنع القفازات ويتاجر فى الجلود والصوف . ويعتقد أن ابنه وليم شكسبير التحق فى حداثته بمدرسة البلدة . ويقال إن أباه أخرجه منها حين حل به الإعسار . وفى عام ١٥٨٢ تزوج شكسبير من امرأة تدعى آن هاثاواى من قرية مجاورة ، وأنجبت له آن بنتاً اسمها سوزانا ثم توأمين ، غلام يدعى هامنت وبنت تدعى جوديث . أما الغلام فقد مات فى صباه وأما البنتان فعمرتا وتزوجتا وعاشتا شأن أمهما بعد وفاة أبيهما .

غير هذا ظنون فى ظنون . فلا يعرف أحد على وجه التحديد متى نزح شكسبير عن بلدته إلى لندن . فرأى يقول إنه فر من ستّراتفورد بعد أن سرق صيداً من ضيعة نبيل من نبلاء المنطقة اسمه السير توماس لوسى ، وكانت عقوبة هذه الجريمة يومئذ الشنق ، وقصد إلى لندن حيث قادته الظروف إلى العمل فى المسرح . ورأى يقول إن أباه ألحقه فى صباه بدكان قصاب ليتعلم المهنة ولكنه فر إلى لندن ليشتغل فى المسارح . ورأى يقول إنه اشتغل مدرساً فى الريف ردحاً من الزمن . ولكن مهما

يكن من رأى فالفكرة السائدة هى أن شكسبير نزح إلى لندن عام ١٥٨٥ ، أو نحوه ، وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره . وهناك اتصل بالمسرح فى ظروف مختلفة . قيل إنه بدأ سائساً يحرس خيل النظارة حتى يخرجوا من المسرح ، وقيل إنه اشتغل ملقناً أو ممثلا للأدوار الثانوية ، ثم بدأ يكتب الكوميديات والتراجيديات حتى استقر اسمه ولمع نجمه . وأول ما نسمع بشكسبير ككاتب مسرحى عام ١٥٩٢ فى تعريض لاذع به كتبه الناقد المعروف « جرين » يصفه فيه « بمحدث » المسرح الذى يهز خشبته بعباراته الطنانة وضجته الجوفاء !

وقد أثرى شكسبير من الكتابة للمسرح والتمثيل فيه والاشتراك فى تمويله ولا سيما بعد إنشاء مسرح الجلوب بلندن سنة ١٥٩٩ . ويعتقد أن دخله من ذلك كله بلغ منوسطه مائة وخمسين جنيهاً سنوياً . وهى تتجاوز فى قيمتها عشرة أمثالها بعملة اليوم . وقد اشترى داراً كبيرة فى مسقط رأسه ومعها مائة وسبعة أفدنة وكان يقرض المال هناك ويستثمر ويدخل فى المنازعات والقضايا . ولكن مقامه الأول كان فى لندن التى ظل بها حتى عام ١٦١٢ حيث يقال إنه اعتزل حياة المسرح واعتكف فى قريته إلى يوم وفاته .

كذلك يقال إن شكسبير كان يضيق بحكم الملكة اليصابات ويناصر إيرل اسيكس الذى دبر مؤامرته المشهورة الفاشلة عام ١٦٠١ لخلع الملكة مشتركاً مع اللورد ساوثهامبتون . الذى كان راعى شكسبير منذ شبابه ؛ فقد كانت العادة فى تلك الأيام أن يكون لكل شاعر راع من النبلاء أو لكل نبيل شاعر من الشعراء . وقد وجد شكسبير من الحظوة فعلا فى عهد جيمس الأول أكثر مما كان يجد أيام الملكة اليصابات التى توفيت عام ١٦٠٤ .

ومع ذلك فكل هذه تكهنات يتكهن بها العلماء الذين توفروا على دراسة أدب شكسبير وسيرته . فنحن لا نعرف عن هذا الكاتب العظيم شيئاً على وجه التحقيق ، بل إن من العلماء من يذهب إلى التشكيك فى وجوده جملة وينسب أعماله إلى غيره من رجال عصره . فمن قائل إن مخلف كل هذا التراث العجيب هو اللورد باكون ، ومن قائل إنه إيرل اسيكس . ومن قائل إنه اللورد ساوثهامبتون نفسه ، ومن قائل إنه الشاعر كريستوفر مارلو نفسه الذى اختفى من الحياة العامة ليعود إلى الكتابة

تحت اسم مستعار هو اسم شكسبير . وهناك مذاهب عدة فى شخص شكسبير بعضها أقرب إلى الهذر منها إلى الأفكار العلمية ، ولكن إنما يهمنا من كل ذلك مدى الغموض الذى يكتنف حياة أعظم شاعر من شعراء المسرح فى إنجلترا ، ولعله أعظم شاعر من شعراء المسرح فى جميع البلاد وفى كل العصور .

أما هاملت هذه التى نعرضها فقد كتبت نحو عام ١٦٠٠ ، ووضعت فيها آلاف الكتب والأبحاث . وهى تعد قمة ما وصل إليه شكسبير من التراجيديا . فمن قائل إنها تعبر عن حلقة سوداء فى حياة شكسبير الزوجية . ومن قائل إنها ليست إلا قصة أوريست المشهورة فى أدب اليونان وقد انتقلت إلى شعوب الشمال ، ومن قائل إنها لغز من الألغاز تحار فيه العقول .

فتى قتل عمه أباه وتزوج من أمه فانتقم الفتى لأبيه . فما اللغز فى ذلك ؟ اللغز فى شخصية هاملت نفسه الذى يخاطب الأشباح والأرواح فلا نعلم أيراها حقاً أم يستمع إلى خياله الهاجس . ويعزم فيكون آية فى العزم ثم ينهار فيعدل عن القتل لأتفه الأسباب . ويتظاهر بالجنون فلا نعلم أين ينتهى التظاهر وأين يبدأ الجنون . أم تراه يحمل لأمه حباً آثماً خفياً لا يدرك كنهه يصفونه بأنه مركب أوديب ، فيعيش على وجه الأرض وكأنه يعيش فى أطباق الجحيم . هذا ما ستفصح عنه المأساة ذاتها . فلنخل بين شكسبير والقراء .

* * *

نحن الآن فى قصر الملك كلوديوس ، ملك الدنماركة ، بعاصمة ملكه واسمها السينور فى ذلك العهد السحيق . عهد النبلاء والفرسان . والديدبان الضابط برناردو واقف شاكى السلاح على إفريز الشرفة يحرس القصر فى منتصف الليل ، ويأتى اثنان من الفتيان هما هوارشيو صديق الأمير هاملت . ولى عهد البلاد ، وزميله فى الدراسة بجامعة ويتنبرج . ومارسيلوس وهو ضابط من ضباط القصر درس أيضاً مع الأمير . وقد عاد هوارشيو من ويتنبرج إلى السينور ليقوم بواجب العزاء نحو صديقه الحميم الأمير هاملت فى موت أبيه الملك هاملت الكبير الذى قضى نحبه منذ شهر أو يزيد قليلا .

ويعرف هوارشيو من برناردو ومارسيلوس إنهما قد رأيا فى الليلة السابقة بعد

منتصف الليل شيئاً عجباً . ففيما هما قائمان بحراسة القصر إذا بشبح يظهر على الشرفة مهيب المظهر يخطر فى جلال ، من رآه قال إنه صورة الملك الراحل هاملت الكبير . وفيما هم يتحدثون فى ذلك تدق الساعة الواحدة ويدخل عليهم ذلك الشبح ، فيتجه ثلاثتهم إليه فى اضطراب عظيم ، ثم يتشجع هوراشيو ويتقدم منه سائلا إياه عمن يكون . ولكن الشبح يزور عنه وينصرف من حيث جاء .

ويعلم الثلاثة أن الغيب يخبئ للبلاد غوامض الأمور . فهذا شبح الملك الراحل يتجول فى هزيع الليل ، وهذا أخوه كلوديوس ملك البلاد الجديد يعد العدة منذ ارتقى العرش للحرب ويسخر رعاياه الليل والنهار فى صب المدافع ويشترى السلاح من كل سوق أجنبى ويعبئ كل ما تصل إليه يده من سفن .

أما هوراشيو فيعلم أن هناك ثأراً قديماً بين النرويج والدنماركة ، فملك الدنماركة الراحل قد تحدى ملك النرويج فورتنبراس إلى المبارزة وقتله واستولى على نصف ملكه حسب قوانين الفروسية وتقاليدها وهوراشيو يعلم أن فورتنيبراس الفتى الغضوب قد بدأ يجهز فى النرويج جيشاً ليثأر لأبيه القتيل ، فلاشك أن الحرب على الأبواب ، ولا شك أن لكل هذه الخوارق معنى يعرفه القدر .

ويعود الشبح بعد حين باسطاً ذراعيه فيهتف به هوراشيو قائلا :

هوراشيو : لسوف أعترض طريقه ، ولو أجهز على . قف أيها الطيف ، إن كان لك صوت أو كنت تسمع كلاماً فخاطبنى . إن كان هناك صالح أعمله يريح فؤادك وتكرم به نفسى فحدثنى فيه ولو كنت تعرف ما يكنه القدر لبلادك من شرور أن نعلم بها فنتقيها ونسلم منها فتكلم .

وهنا يصيح الديك مؤذناً باقتراب الفجر ، فينصرف الشبح ، وينصرف هوراشيو ومارسيلوس لإبلاغ الأمير هاملت بنبأ هذا الشبح العجيب .

وفى بلاط الملك كلوديوس نرى رجال الحاشية وقد اجتمعوا ومن بينهم رئيس الديوان ، بولنيوس العجوز ، الذى اختلطت فيه حنكة التجارب بحماقة الشيخوخة ، وولده لايرتيس الذى جاء يستأذن الملك كلوديوس فى العودة إلى فرنسا ليتم فيها علومه ، فيأذن الملك له فى الرحيل .

وقبل أن يرحل لايرتيس يحذر أخته الجميلة أوفيليا من الإصغاء إلى هاملت

أو الاستماع إلى نجواه ، فهاملت مدله بحب أوفيليا ، وهو يعرب لها عما يكنه لها من غرام ، فتستجيب أوفيليا لنداء هواه . ولكن لايرتيس يخشى مغبة هذا الغرام ، فهاملت أمير البلاد وولى عهدها ، فهو إذن ملك لدولته وأمته ، وهو لا يملك أن يتزوج من أراد ومتى أراد لأن دمه الملكى يحول دون ذلك ، وشرعة الملوك ألا يتزوجوا من يحبون بل أن يحبوا من يتزوجون . ولذا فإن لايرتيس قبل رحيله يحذر أوفيليا من عواقب هذا الغرام ، وينهى الوزير بولونيوس ابنته أوفيليا عن استقبال الأمير هاملت والاستماع إلى نجواه ، ويوصيها بأن ترفض كل ما يقدمه لها من هدايا المحبين حرصاً على شرفها وسمعتها . . فتمتثل أوفيليا لأمره .

وفى وسط هذا الجمع يقف الأمير هاملت حزيناً إلى جوار عمه الملك كلوديوس وأمه الملكة جرترود . ويعاتب كلوديوس هاملت على إسرافه فى الحزن إسرافاً لا يتفق مع الطبيعة ولا مع المنطق ولا مع العقل الرشيد . إنه الآن ولى عهد المملكة وكلوديوس يؤثر له أن يبقى فى بلاط السينور فلا يعود إلى جامعته فى ويتنبرج ، وأن ينفض عنه هذه الأحزان التى تمشى فى نفسه بالرخاوة وتسمم عليه الحياة . وتشترك جرترود مع كلوديوس فى هذا الرجاء . أما البقاء فى السينور فهو رجاء يرضخ له هاملت على مضض ، وأما العزاء والسلوان ، فهيهات له أن يسلو أو أن يتعزى عن موت أبيه .

نعم ، إن سحابة ثقيلة سوداء قد غدت تخيم على عقله وأصبحت الحياة عنده جحيماً لا يطاق . فليت الأمر وقف عند موت أبيه ، إذن لتعلم الصبر ونشد النسيان ، ولكن عمه كلوديوس قد تزوج من أمه جرترود ، ولما تجف الدموع على الملك الراحل أو تنقضى أيام الحداد ، فإذا أضاحى الميت وقرابينه تصبح ذبائح العرس وأطايب الزفاف . وهكذا ارتقى كلوديوس عرش أخيه ، أو قل اغتصبه اغتصاباً .

وما أن يخلو هاملت إلى نفسه حتى يستبد به الحزن وتتجمع فى رأسه الأبخرة السوداء فيفكر فى الانتحار . ويصرخ قائلا :

هاملت : ليت هذا الجسد الصلد يذوب فيستحيل إلى قطر الندى ! ليت الحى القيوم لم يحرم بناموسه قتل النفس ! يا إلهى ! يا إلهى ! ما أضنى هذه الحياة فى عينى ، وما أشدها ابتذالا وتفاهة ، وما أبخسها جزاء ! تباً لها ثم تباً ! إنها لحديقة

مسمومة الأعشاب نبتها من بذرتها ، فليس فيها إلا كل ما هو كث فى الطبيعة غليظ .

إنه يذكر كيف خرجت أمه تنوح على أبيه الراحل وترسل دمعها مدراراً . ولم ينقض على موته شهر حتى تزوجت من عمه هذا الخائن الغاصب . فياله من زواج آثم هو والبغاء سواء .

ولكن ماذا يستطيع هاملت أن يفعل وكلوديوس هو سيد البلاد ؟ إنه يعلم شيئاً واحداً ، وهو أن القدر يخبئ المكاره للبغاة . وحتى يحين ذلك الحين عليه أن يتفطر أسى دون أن ينطق بكلمة .

ويقبل هوراشيو ومارسيلوس على هاملت ويخبرانه بما كان من أمر شبح أبيه . فإذا ما انتصف الليل قصد ثلاثتهم إلى شرفة القصر حيث ينتظرون الشبح . وما أن تدق الساعة الواحدة حتى يتجلى لهم الشبح ، فيضطرب هاملت أيما اضطراب ويستعيذ بملائكة الرحمة أن تلطف به من هذه الرؤيا . فالذى يراه هو شبح أبيه متشحاً بزيه ، مدججاً بسلاحه ، وهو لا يدرى إن كان ما ترى عيناه روحاً طاهرة جاءت لتناجيه أم شيطاناً خبيثاً ملعوناً جاء إليه ليجره إلى دماره .

ويومئ الشبح لهاملت أن يتبعه إلى أقصى المكان ، فيمضى هاملت وراءه كالمسحور . ويخشى عليه هوراشيو ومارسيلوس من فتنة الشبح فيمسكان به ، ولكن هاملت يتخلص من قبضتهما وهو فى هياج شديد ، ويندفع وراء طيف أبيه .

وحين يختلى الشبح بهاملت يقص عليه قصة موته الفاجع . إنهم أذاعوا فى البلاد أن الملك هاملت الكبير كان ينام ذات يوم كعادته بعد الظهيرة فى حديقة قصره فعضه ثعبان قتله لوهلته . أما الحقيقة فهى أن الثعبان الذى قتله لم يكن سوى أخوه كلوديوس ، الذى سعى إليه وهو فى نومه وسكب فى أذنه قطرات من السم الزعاف جمد بها الدم فى عروقه فقضى نحبه . نعم إن كلوديوس الخئون قتله غيلة ولم تأخذه به رحمة ، قتله قبل أن يتطهر من ذنوبه وخطاياه . ومن أجل هذا كتب عليه أن يعس آناء الليل إلى أجل مسمى ، وأن يتلظى آناء النهار فى جاحم النار الآكلة حتى يتطهر من ذنوبه . أما كلوديوس الخائن فقد أغوى زوجته جرترود

بمعسول الكلام حتى رضيت به زوجاً ، وهكذا سلب أخوه زوجه وعرشه بعد أن سلبه الحياة .

ولم يبق إلا أن ينتقم الأمير هاملت من عمه الغاصب إن كانت بقلبه ذرة من الحب لأبيه والوفاء لذكراه . ولن يهدأ الشبح فى قبره حتى ينال الجانى قصاصه ولكن الشبح يحذر هاملت من أن يمس أمه بسوء ، فقتل الأمهات يلوث العقل والقلب ، ومن الخير أن يترك هاملت أمه لنقمة السماء ولعذاب الضمير .

وهكذا يترك الشيخ هاملت بعد أن أطلعه على السر الرهيب . ويلحق هوراشيو ومارسيلوس بهاملت فيجدانه فيما يشبه الهذيان مهدداً متوعداً وحين يهم هاملت بإبلاغهما ما جرى بينه وبين الشيخ يعود الشبح ويأمر ثلاثتهم أن يقسموا بسيف هاملت ألا يبوحوا بشىء مما تجلى لهم فى تلك الليلة الليلاء ، فيقسموا على ذلك ، وبهذا ينصرف الشبح إلى مستقر له .

أما هاملت فيوطن العزم على اتباع خطة يبلغ بها هدفه ، وهى أن يتظاهر بالجنون حتى يصرف أنظار كلوديوس عما يدبره له من أمور . وهو يطالب إلى هوراشيو ومارسيلوس أن يلزما الصمت التام مهما رأيا من غرابة مسالكه أو من شططه فى الكلام .

* * *

ويظهر هاملت من غرابة الأطوار ما يلفت نظر كل من فى البلاط ، وعلى رأسهم الملك والملكة ، ويحسبون أن به مساً من الجنون أما كلوديوس فهو لا يقنع بقول جرترود أن ما صار إليه هاملت من ضيق أسود بالحياة مرده إلى موت أبيه وإلى زواجهما الباكر . وهو لهذا يدعو إلى بلاطه اثنين من الفتيان من رفاق هاملت هما روزنكرانتز وجيلدنسترن ، ليسريا عنه فى الظاهر وليراقبا أحواله ويستكنها علته فى حقيقة الأمر .

أما العجوز بولونيوس فله رأى فى اضطراب عقل الأمير ، وهو يقول إن جنون هاملت من غرامه بأوفيليا ، فهى الآن تصده عنها ، فلا يزيده الصد إلا إلحاحاً فى حبها ، كما تشهد بذلك رسائل غرامه التى يقرأ بولونيوس على الملك والملكة واحدة منها ، وكما يشهد بذلك مسلكه معها ، فهو قد اقتحم عليها ذات يوم غرفتها

شاحب الوجه مهوش الشعر مفكوك الصدر مضطرب الهيئة وأمسك بمعصمها وظل يقرأ صفحة وجهها كأنه يلتمس فيها شيئاً ، فإذا ما فرغ من ذلك أخلى سبيلها وانصرف عنها كالسائر فى المنام . إن مولاه الأمير هاملت قد غدا يلقاه فى أبهاء القصر فلا يعرفه . وكل هذه أدلة على أن الصبابة قد أودت بعقله . والرأى عنده أن يرتب بين هاملت وأوفيليا لقاء ، ويختفى الجميع وراء ستار ليستمعوا إلى ما يدور بينهما من حديث .

وحين يلقى هاملت رفيقيه روزنكرانتز وجيلدنسترن يكشف للتو واللحظة أنهما قد قدما بدعوة من كلوديوس للتجسس عليه . وهما قد جاءا بفرقة من فرق التمثيل لتسلية البلاط ولإزاحة الكآبة عن نفس الأمير . ويجد هاملت فى قدوم الممثلين فرصة تعينه على تدبير شىء أضمره . وهذا الشىء هو أن يعرض الممثلون أمام عمه وأمه وبلاط القصر تمثيلية تسمى « قتل جوانزاجو » موضوعها شبيه بما جرى فى بلاط السينور ، ففيها أخ يقتل أخاه ليستولى على عرشه وعلى زوجه . وبغية هاملت من ذلك أن يرى وقع هذه التمثيلية على كلوديوس وجرترود ، فلسوف يصيبهما الذعر حين يريا جريمتهما تمثل تحت بصرهما ، فيفتضح أمرهما لكل من فى البلاط ، وبهذا يجد هاملت الدليل المادى على جريمة هذين الشقيين ، دون حاجة إلى استحضار أرواح الموتى لتتهم الأحياء . .ويتفق هاملت مع الممثلين على أن يضيف إلى هذه التمثيلية بضعة أبيات من إنشائه يحشرونها فى الرواية حشراً ، ليقرب مغزاها إلى الأذهان .

* * *

ويجتمع كلوديوس وجرترود وبولونيوس العجوز وقد أعدوا أوفيليا لتستقبل هاملت . وتستدرجه للكلام عن سبب كآبته واضطراب أقواله وأفعاله . وما أن يقترب هاملت حتى يتوارى الجميع وراء ستار ما خلا أوفيليا التى تتظاهر بالقراءة كما نصحها أبوها . ويدخل هاملت الغرفة ويخال نفسه وحيداً فيسترسل فى أفكاره السوداء وتعاوده خواطر الانتحار فيقول مخاطباً نفسه :

هاملت : أنطلب الحياة ؟ أم نطلب الموت ؟ هذه هى المسألة . ترى أى السبيلين أنبل قصداً ؟ أن نحتمل ضربات القدر الغاشم وسهامه ، أو أن نشرع

السلاح على الرزايا الحاشدة ، وبالصراع نضع لها حدًّا ؟ الموت ، والنوم لا أكثر وبالنوم نقضى على الضنى ونحسم آلاف الخطوب وهى ميراثنا من الطبيعة فى وجودنا الجسدى . إنه التمام ، وإنه لتمام نصبو إليه بجميع جوارحنا . نموت . ننام — أجل ، ننام ، وربما زارتنا الأحلام . نعم هذه هى المشكلة .

ويسترسل هاملت فى أفكاره المظلمة هذه حتى تقطعها عليه تحية أوفيليا . ويكون لقاء غريب . فأوفيليا تريد أن ترد إليه ما أخذت منه من تذكار الغرام ، وهو ينكر أنه أهداها شيئاً . ويعنف هاملت فى حديثه معها . فلقد أحبها فى يوم من الأيام ، ولكن ذلك كان قبل أن يفهم حقيقة المرأة . كلهن ضعيفات . كلهن ناقصات عقل ودين . وكلما أفرط جمال المرأة أفرطت فى الخسة والخيانة . إنه تعلم هذا الدرس من أمه التى تزوجت من عمه ولما تجف دموعها عليه وليس أمام أوفيليا إلا طريق واحد ، هو الطريق إلى الدير . نعم ، الدير . لا شىء إلا الدير . فلو قد تزوجت لأنجبت الخطاة . إنه يلعن اليوم الذى ولدته فيه أمه ، ليس أمام أوفيليا إلا الدير .

وتستمع له أوفيليا فى ألم عميق .وما تخلو لنفسها حتى تتحسر على هذا العقل الشاهق الذى انهار . لقد كانت لهاملت آداب النبيل وسيف الفارس ولسان العالم الحكيم . لقد كان معقد أمل المملكة وزهرة شبابها ومرآة المدنية فيها . ولكن كل ذلك قد مضى وانقضى .

أما كلوديوس الذى أنصت مع جرترود وبولونيوس لكل كلمة فاه بها هاملت فقد أدرك أن جنون هاملت لم ينبع من حبه لأوفيليا . بل من عقدة أخرى أعمق وأشد فتكاً .

وهكذا استقر رأيه على إقصائه عن البلاد إلى إنجلترا فى صحبة رفيقيه روزنكرانتز وجيلدنسترن ليسترد ما تأخر على ملكها من جزية لبلاده ، زاعماً أن الرحلة ستخفف عن الأمير كربه .

وفى ذات المساء يجتمع البلاط فى القصر لمشاهده التمثيلية التى تقدمها الفرقة . وإذا بهاملت على غير عادته ، يطفح بهجة ومرحاً ، ولكنها بهجة مسمومة ومرح مرير فهو يقول لعمه إن الرواية التى ستعرض بعد دقائق اسمها « فخ الفئران » ،

ويقول لأمه إن مقدمة الرواية أقصر من حب امرأة » . وهو يتابع الممثلين أثناء الأداء ويعلق على أقوالهم فى فكاهة لاذعة كل ذلك وكلوديوس وجرترود يزداد اضطرابهما ، فما أن يبلغ الممثلون مشهد القتل ، ويسعى القاتل إلى الملك النائم فى الحديقة فيصب السم فى أذنه ، حتى ينهض كلوديوس مرتجفاً ، ومن بعده جرترود وبولونيوس وينصرف الجميع من القاعة ، فلا يبقى بها إلا هاملت وصديقه الوفى هوراشيو . لقد بلغ هاملت مأربه ، ورمى بسهم أصمى الملك . فهو مغتبط بهذا أشد الاغتباط .

ويأتى روزنكرانتز وجيلدنسترن ليبلغا هاملت أن الملك حانق حنقاً لا مزيد عليه ، وأن الملكة حزينة أشد الحزن وهى ترغب فى مثول هاملت فى حضرتها .

أما الملك فيعود بعد حين ليرتب أمر سفر هاملت إلى إنجلترا مع روزنكرانتز وجيلدنسترن . إنه يدرك الآن أن هاملت لم يعد خطراً على نفسه فحسب ، بل غدا خطراً على العرش ومن عليه أيضاً ، ولابد من نفيه من البلاد فوراً .

ولكن كل هذه الأحداث العاصفة بقصر السينور تلهب ضمير كلوديوس فيتعذب عذاباً أليماً . إن قتل الأخ ليس وزراً هيناً يفارقه الآثم ثم ينساه ، بل جرم فظيع يحمل همه القلب بالليل وبالنهار وكلوديوس مؤرق فى ليله مصطنع الهدوء وخلو البال فى نهاره . ولكنه لم يعد يحتمل ، وها هو ذا يجثو على ركبتيه مستغفراً مبتهلا إلى الله أن يصفح عنه ولكم حاول أن يبتهل من قبل ولكن بشاعة جرمه كانت تقتل فى فؤاده الصلوات .

ويراه هاملت على هذه الحالة من التهجد والخشوع ، فيدنو منه ليقتله ، مغتنماً هذه الفرصة الكبرى . ولكنه لا يلبث أن يعدل عن قتله . فلئن قتل هاملت عمه وهو متوجه إلى الله لصعدت روحه إلى السماء . إن هذا ليس انتقاماً من قاتل أبيه بل أجراً وثواباً لهذا السفاح الذى فتك بأبيه وهو ملطخ بذنوبه ، فأرسل روحه إلى قاع الجحيم لتصلى بناره الآكلة . كلا . لن يقتل هاملت كلوديوس إلا وهو ملوث بالآثام ، فى حمأة السكر أو فى فراش بغائه مع أمه الزانية .

وهكذا يمضى هاملت عن هذا الملك الذى يستغفر فلا تغفر له السماء ، يمضى إلى غرفة أمه التى أرسلت فى طلبه . ويكون بولونيوس فى حضرتها يرجوها أن تعنف

ولدها وتبين له ما ينتظره من شرور إن هو دأب على فعاله . وما أن يدنو هاملت حتى يختفى بولونيوس وراء ستار .

ولا ينتظر هاملت أمه حتى تعنفه ، بل يندفع هو إلى تعنيفها ، ويتطاول عليها بقارس الكلام ، فتقول جرترود : «أنسيتنى يا هاملت ؟» فيجيبها هاملت قائلا : «لا ، لا أنت الملكة، أنت زوجة أخى زوجك . أنت أمى بالرغم عنى» . وتخشى الملكة شر ولدها حين يقول إنه لن يأذن لها بحركة حتى يقيم أمامها مرآة ترى فيها نفسها ، وتحسب أنه قد جاء للفتك بها . ويسمع بولونيوس ما بينهما من لجاج فيستغيث طالباً النجدة . ويحسب هاملت أن هذا المختفى وراء الستار هو طلبته وغايته . وقنيصته كلوديوس ، فيجرد سيفه ويطعن به الستار صائحاً : «فأر فأر» ؛ فيسقط بولونيوس مجندلا يتخبط فى دمائه . ويعود هاملت إلى أمه يعيرها بقتل أبيه ، ويذكرها بعظمته وبشمائله التى لا تحصى ، فيدرك أنها لم تكن تعلم أن أباه مات قتيلا . إنه كلوديوس وحده الذى رتب كل شىء وإنها لنادمة على كل ما كان .

وهنا يظهر الشبح من جديد فيراه هاملت ولا تراه جرترود . ويقول الشبح أنه جاء ليذكر هاملت بواجبه الذى ضيعه التسويف وليشحذ عزيمته التى فلها التردد . وتحسب جرترود . إنه فى غيبوبة من الجنون يخاطب الفضاء الفارغ . فيجيبها هاملت قائلا إنها لا ترى ما يرى لأن روحها قد سودتها الخطيئة .

وتسأل جرترود ولدها : ماذا يكون العمل . أما هو فلا يرى لها أملا إلا فى التوبة ، ولا ينصرف عنها حتى تعده بأن تهجر فراش عمه الفاسق . وأن تكتم عن كلوديوس كل ما عرفت وسمعت حرصاً على حياتها . وهكذا يترك هاملت أمه ليتهيأ للرحيل إلى إنجلترا تنفيذاً لمشيئة الملك . أما الانتقام فله إليه عودة وفى أجل قريب .

* * *

ويبحر هاملت إلى إنجلترا بأمر الملك وفى معيته رفيقاه ، ومعهما رسالة مختومة إلى ملك إنجلترا يرجوه فيها كلوديوس أن يفتك بهاملت فور وصوله .

وفى بلاط السينور تتعاقب الأحداث والمآسى بعد موت الوزير العجوز بولونيوس فابنته أوفيليا يختل ميزان عقلها من هول الصدمة بعد أن قتل حبيبها أباها ، وتذهب تتجول فى القصر تهذى بجميل الأغانى التى تندب فيها أباها الراحل وتنشد

شعراً غير مفهوم عن لقاء العشاق وعن فراقهم . ثم ينتهى بها الأمر أن تنتحر غرقاً .

وأما أخوها لايرتيس فيعود من باريس إذ بلغه نبأ قتل أبيه وهو فى هياج شديد . ويستثير الرعاع ويطالب بالثأر ، بل وينادى بعزل كلوديوس والجالس على عرشه . فلما يعرف أن هاملت هو قاتل أبيه يرتد إلى ولائه للملك .

ولكن غيبة هاملت لا تطول . فحين تقلع به السفينة تراوده الشكوك فى حقيقة بعثته إلى إنجلترا ، فيسرق من روزنكرانتز وجيلدنسترن الرسالة المختومة ويفضها ، ومنها يعلم أنها صك إعدامه ، فيحتفظ بها لنفسه ، ويكتب سواها موصياً ملك إنجلترا خيراً برفيقيه ويبصم الرسالة الجديدة بخاتم أبيه ويضعها مكان الرسالة الأولى .

وكأنما القدر يرسم له الطريق تهاجم سفينته جماعة من القرصان ويقع وحده فى أسرهم . ويرده القرصان إلى شاطئ بلاده بعد أن يجردوه من كل ثمين .

وهكذا يعود هاملت إلى بلاط السينور ويروى على الملك مغامرته الغريبة فيخفى منها طرفاً هو قصة الرسالة ويذكر طرفاً هو ما لقيه على أيدى القرصان .

* * *

وتكون عودة هاملت بداية النهاية . فحين يعلم كلوديوس بعودته يدبر خطة جديدة للقضاء عليه . ويجد فى لايرتيس الحاقد على الأمير لقتل أبيه وانتحار أخته خير أداة ينفذ بها خطته .

إن لايرتيس قد تعلم فن السيف والمبارزة فى بلاد السيف والمبارزة ، وهى فرنسا ، وقد جرت بحنكته الألسنة . والرأى عند كلوديوس أن ينظم بين لايرتيس وهاملت مبارزة فى القصر تشرب فيها الأنخاب احتفاء بعودة الأمير ولى عهد المملكة وأن يراهن الملك على تفوق الأمير تحية له . ولكنه يتفق مع لايرتيس على أن يزوده سيفاً مسموم الطرف إن طعن به هاملت صرعه فى الحال . وماذا يكون الأمر لو أن لايرتيس عجز عن إصابة هاملت ؟ إن الملك مستعد كذلك بكأسه المسموم يسقى به الأمير أثناء المبارزة حين يحل به التعب .

ويكون اليوم المشهود . ويجتمع كل من فى البلاط إلى خوان يتصدره كلوديوس وجرترود . وقبل أن تبدأ المبارزة يطلب هاملت إلى لايرتيس الصفح عنه لقتل أبيه معتذراً بنوبات جنونه .

وتبدأ المبارزة . ولا ينال لايرتيس من هاملت شيئاً أما هاملت فيصيب لايرتيس ثلاث إصابات ثم يحل به التعب ويتصبب عرقاً . ويناوله كلوديوس الكأس المسمومة ليرتوى ، ولكنه يضعها جانباً ويؤثر المضى فى المبارزة . وتتناول جرترود كأس ولدها وتشرب منها نخب تفوقه فيسرى السم فى جسدها . ويصيب لايرتيس هاملت بسيفه المسموم إصابة واحدة ولكنها كافية ، ويلتحم الرجلان ، وفى هذا الالتحام يتبادلان السيوف ، ويطعن هاملت لايرتيس بالسيف المسموم .

وتسقط جرترود جثة هامدة بعد أن تعلن أن الكأس التى شربت منها كانت مسمومة . ويسقط لايرتيس جثة هامدة بعد أن يعترف لهاملت بأن سيفه كان مسموماً بتدبير من كلوديوس ، وبعد أن يتصافى الرجلان وهما على شفا الموت . ويجمع هاملت كل ما تبقى فيه من قوة وينقض على الملك الخائن ويطعنه بسيفه المسموم .

وهكذا يسقط البيت الملكى فى السينور . ولا يبقى إلا هوراشيو الذى يبادر إلى الكأس المسمومة لعل فيها صبابة تجمعه بمولاه الأمير رفيق صباه وشبابه . ولكن هاملت يستحلفه قبل موته أن يكابد الحياة من بعده ليروى مأساته ولينصف الموتى من الأحياء .

وكأنما القدر لا يرتاح إلا إذا دارت عجلته دورة كاملة . إذ نرى الفتى فورتنبراس . ولد فورتنبراس الكبير ملك النرويج الذى صرعه هاملت الأب ، وقد عاد برجاله من بعض فتوحاته فى بولندا مظفراً . وبلغ السينور ليجد أن الأمير هاملت قد أوصى له بالعرش من بعده قبيل وفاته ، وهكذا يسترد الولد ما فقده أبوه .

ويأمر فورتنبراس بأن يحمل جنود أربعة جثمان الأمير الصريع شأن الأبطال فى ذلك الزمان ، وأن يشيع إلى مثواه الأخير فى أبهة الملك . فهو صاحب العرش الأصيل ، ولو قد ارتقاه لكان ملكاً والملوك قليل .

تاجر البندقية

لوليم شكسبير

نحن فى البندقية أيام أن كانت البندقية عروس البحر الأبيض المتوسط تلتقى فيها تجارة الشرق بتجارة الغرب وتخرج منها الجوارى إلى البحار السبع وتعود محملة بأفخر البضائع . وفى البندقية نلتقى بأنطونيو مع صديقيه سالارينو وسالانيو ، وأنطونيو تاجر من أوسع تجار البندقية جاهاً وأكثرهم سفناً وأطيبهم قلباً وأشرفهم محتداً وأنبلهم خلقاً ومقصداً . وهو يملك أسطولا من السفن يمخر البحار ويعود بالخيرات والبركات . ومع ذلك فأنطونيو حزين النفس منقبض الصدر ، ولكنه لا يعرف لكآبته سبباً .

ويقول صاحبه سالارينو إنه قلق على سفنه وتجارته فيجيبه أنطونيو إنه هادئ البال من هذه الناحية فهو لم يتعود أن يضع كل تجارته فى سفينة واحدة أو أن يضع كل آماله فى مكان واحد . وأسطوله متفرق فى كل البحار . فيقول سالارينو إنه لا ريب الحب نفذ سهمه فى قلبه ، ولكن أنطونيو يؤكد أنه ليس بالعاشق .

وتقبل على أنطونيو جماعة أخرى من الأصدقاء هم النبيل باسانيو واورنزو وجراتيانو ، وهم من صفوة أهل البندقية أما باسانيو فهو شاب وسيم المحيا مقبل على الحياة ، يمت لأنطونيو بالقرابة ، وأما اورنزو وجراتيانو فهما من أصفياء باسانيو . وبعد أن تتواعد الجماعة على اللقاء فى المساء للعشاء ، ينصرف الجميع إلا أنطونيو وباسانيو .

ويستفسر أنطونيو من بسانيو عن قصة غرامه التى وعد بأن يطلعه عليها فيعلم منه أنه يحب آنسة من مدينة بلمونت المجاورة ، اسمها بورشيا ، جمالها عجيب وحكمتها باهرة وفضائلها نادرة بين النساء ، أما ثراؤها فواسع وغزير ، فقد ورثت عن أبيها القصور والكنوز ، وبسانيو يحب أن يتقدم لخطبتها ، ولكنه لا يعرف السبيل إلى ذلك . وأنطونيو يعرف بسوء حالته المالية التى أوقعه فيها إسرافه وحبه للبذخ .

وهو لا يستطيع أن يتقدم إلى خطبة هذه الآنسة الكريمة إلا إذا تحرر من ديونه الكثيرة . أنطونيو أكبر دائنيه ، فقد طوق عنقه بأفضاله وأسره بمودته ، فبسانيو فى حيرة من أمره لا يجد سواه ملاذاً ومعيناً .

وما أن يعرف أنطونيو بمقصد صديقه بسانيو حتّى يجدد له عهد الإخاء قائلا : إن شخصه وماله وكل ما يتصل به تحت تصرفه ، وما عليه إلا أن يطلب ما يشاء. إن بسانيو يقول إنه بحاجة إلى ثلاثة آلاف دينار ليجهز به رحلته إلى بلمونت وأنطونيو لا يملك كل هذا القدر من المال نقداً فجميع سفنه لا تزال فى عرض البحار ولكن بسانيو يستطيع أن يلتمس من يقرضه هذا المبلغ فى البندقية بضمانة أنطونيو ، باسمه أو باسم أنطونيو ، فلينطلق لفوره وليبحث عن المال وليعلم أن صديقه أنطونيو يقف إلى جواره على طول الطريق .

وفى بلمونت نرى بورشيا فى دارها مع وصيفتها نريسا . وهما تتحدثان عن بسانيو النبيل الوسيم الذى وقع من قلب بورشيا أحسن موقع منذ رأته فى العام السابق . وذهبت تنسج حوله أجمل الأحلام . ولكن هيهات لهذه الأحلام أن تتحقق ، فإن أباها ، قد علق زواجها على الحظ . فقد أعد قبل وفاته ثلاثة صناديق أحدها من الذهب والثانى من الفضة والثالث من الرصاص . ووضع فى صندوق منها صورة ابنته بورشيا واشترط على كل من يتقدم لخطبة ابنته أن يختار صندوقاً من الصناديق الثلاثة وأوصى بأن تكون بورشيا من نصيب من يختار الصندوق الذى وضعت به صورتها .

وبورشيا تعرف أن أباها كان مثلا للفضائل الغراء وأنه كان على حكمة واسعة ، وهى لهذا تقبل حكمه فيها باستسلام ، وإن كان استسلامها لا يخلو من الحزن ، والخطاب يأتونها كل يوم من أقصى البلاد . وكل يوم تخشى أن تزف إلى رجل لا تحبه تفرضه عليها الصدفة العمياء .

واليوم جاءها رهط من الخطاب كلهم من أنبل النبلاء . وكلهم قد سمع بجمالها وفضائلها فسعى إليها من أطراف الدنيا . ولكنها لم تجد فيهم واحداً يسعدها أن تكون زوجة له . فهذا أمير من نابولى لا حديث له إلا عن فرسه وكيف يركب حدوتها كأن أمه قد زنت فيه بحداد . وهذا الكونت بالاتين العبوس الذى لا يبتسم

أبداً مهما سمع من فكاهات وهذا السيد الفرنسى مسيو ليبون الذى لا يسمع طيراً يغرد إلا ويبدأ فى الرقص ، وهو مولع بالنزال حتى ليبارز خياله . وهذا البارون الإنجليزى فالكونبريدج الذى لا تجد بورشيا ما تقوله له ، فهو لا يعرف اللاتينية ولا الفرنسية ولا الإيطالية ولا عيب فيه إلا أنه يجاس كالخشب المسندة . ولا لوم عليه إلا فساد ذوقه فهو يبدو كأنه اشترى صداره من إيطاليا وبنطلونه من فرنسا وقبعته من ألمانيا . وأتى بآداب السلوك من كل مكان زاره وهذا السيد الألمانى قريب دوق سكسونيا كأنه الإسفنجة المعبأة بالشراب ، وبورشيا تعرف كيف تتخلص منه ، فهى ستضع كأساً من نبيذ الراين على الصندوق الخالى من صورتها فينجذب إليه بقوة مغناطيسية .

ولكن المقادير تنجى بورشيا من هذه النخبة من الخطاب ، فليس بينهم واحد رضى بأن تتم زواجه على هذه الصورة وأن يجازف هذه المجازفة . ثم ينزل دارها خاطب سادس هو أمير مراكش الذى ذرع البحر وقطع البر لينال يدها ، وهو يرجو بورشيا ألا تضيق ببشرته السمراء وهى حلة ألبسته إياها شمس بلاده المحرقة . ويهيب بها أن تأتيه بأى منافس من البيض . ولو كان من بلاد شمسها ذابلة لا يذوب منها جليد . فهو يتحداه أن يطعن نفسه لترى بعينيها أيهما دمه أشد حمرة . فتجيبه بورشيا فى لباقة أن مشيئة أبيها لا تترك لها مجالا للاختيار ، ولو كانت لها يد فى اختيار زوجها لما قل اعتبار أمير المغرب الباسل فى قلبها عن اعتبار أشجع الشجعان . ولكنها ستتزوج من يسوقه الحظ إلى اختيار الصندوق الصحيح .

وتبين له بورشيا أنه لا مفر من المجازفة ، وتشترط عليه إما أن يمسك عن المجازفة جملة ويمضى إلى حال سبيله . وإما أن يقسم قبل أن يقدم على الاختيار على أنه فى حالة فشله لا يتقدم إلى امرأة أخرى طوال حياته طالباً الزواج منها ، وأن ينصرف لفوره عائداً إلى بلاده . وأن يكتم سر الصندوق الذى اختاره فلا يبوح بما اختار لأى إنسان . فهذه وصية أبيها وهذه شروطه .

ويقبل أمير المغرب أن يجرب حظه فتقتاده إلى المعبد حيث يحلف اليمين .

وفى البندقية يمضى الفتى بسانيو إلى شايلوك ، وهو مراب يهودى شهير ملء

بالذهب والفضة ، ويطلب منه ثلاثة آلاف دينار لمدة ثلاثة أشهر بضمان أنطونيو فلا يجيبه شايلوك أول الأمر بلا أو نعم ، ولكن يذهب يقول إن أنطونيو رجل ملىء ، وهو يعرف من البورصة أن لأنطونيو سفينة فى طريقها إلى طرابلس وأخرى إلى جزر الهند وثالثة إلى المكسيك ورابعة إلى إنجلترا . فهو قد أحسن صنعاً بتوزيع ثروته ، ولكن السفن مجرد أخشاب لا قيمة لها حتى تعود إلى الميناء ، فهناك العواصف ، وهناك القرصان وهناك قطاع الطرق . كل هذه أخطار ينبغى ألا تغيب عن الخاطر . ومع ذلك فهو يقول إن أنطونيو رجل ملىء ، وإنه يكتفى بضمانه ، ولكنه رغم ذلك يستأذنه فى التحدث معه .

ويأتى أنطونيو . وما أن يراه شايلوك حتى تفيض نفسه بالحقد والسخيمة ، فقد كان يبغضه بغضاً لا مزيد عليه ، ويذهب يحدث نفسه قائلا : « إنى لأمقته . أمقته لأنه مسيحى ، ولكن أعظم مقتى له لأنه يقرض المال قرضاً حسناً فيخفض ذلك سعر الربا بيننا فى البندقية . ولو أنى استطعت الإيقاع به لشفيت منه غليلى القديم . إنه يمقت شعبنا المقدس ، وهو يهزأ منى ومن صفقاتى ومن كسبى الحلال الذى يسميه الفائدة ، حيث تكثر جمهرة التجار . ألا فلتحل اللعنة على قومى إن أنا غفرت له إساءته لى » !

ويقول أنطونيو : « يا شايلوك : أنا لا أقرض ولا أقترض بالربا ولا آخذ أكثر مما أعطيت ولا أعطى أكثر مما أخذت ، ولكنى سأكسر هذه السُّنة لأفى بحاجة صديقى الملحة » .

فيجيبه شايلوك قائلا : أيها السيد أنطونيو ، كم من مرة أهنتنى فى البورصة لما أقرض من مال وما آخذ من ربا . ومع ذلك فقد احتملت إهانتك بنفس صابرة . فاحتمال المكاره هو السجية التى تنفرد بها أبناء قومى . لقبتنى بالكافر وسميتنى كلباً ومصاص دماء وبصقت على معطفى اليهودى . وما من ذنب جنيته إلا أنى كنت أستثمر مالى . . . ماذا أقول ؟ ألا ينبغى أن أقول : وهل عند الكلب مال ؟ وكيف يملك كلب ثلاثة آلاف دينار ؟ أم ترانى أنحنى حتى الأرض وأقول فى ذلة العبيد . . . أى سيدى الكريم . . . أنت بصقت على يوم الأربعاء الماضى ، وفى يوم كذا أهنتنى وفى يوم كذا لقبتنى بالكلب . ومن أجل كل هذه الأفضال

سأقرضك كل هذا المال الذى تطلب ؟ »

ويغضب أنطونيو ويجيب أنه سيلقبه بالكاب ويبصق فى وجهه مرة أخرى إذا اقتضى الأمر . فليعلم أنه لا يقرض هذا المال لصديق ولكن يقرضه لعدو ، وله أن يقتص منه بنفس مطمئنة إن هو عجز عن الوفاء .

وهنا يقول شايلوك إنه إنما أراد بكلامه أن يصفو له قلب أنطونيو ، وهو يرجو أن يكون صديقه وأن يتناسى كل ما بدر منه من إهانات له . وأنه معطيه ما يطلب من مال دون أن يأخذ درهماً واحداً من الربا .

ويشكره أنطونيو على هذا الكرم ، فيقول شايلوك : هيا بنا إذن إلى موثق العقود لنوقع على الصك ، ولنشترط فى روح الدعابة أنك إن لم تف بالدين المحدد فى التاريخ المحدد حق لى أن استوفى دينى باقتطاع رطل من لحمك فى أى مكان من جسدك يروق لى .

ويعترض بسانيو قائلا إنه لن يقبل أن يوقع أنطونيو مثل هذا الصك . ولكن أنطونيو يقبل الشرط قائلا : « لا تخش شيئاً يا صديقى فإنى أنتظر عودة بضائع قيمتها ثلاثة أضعاف هذا الصك قبل انقضاء شهرين ، أى قبل حلول أجله بشهر » . أما شايلوك فيقول لبسانيو إن رطلا من لحم رجل أقل نفعاً من رطل من لحم الضأن أو الماعز أو العجول . فليطمئن بالا لأن هذا النوع من السداد لا يفيد صاحب الحق فيه . وهكذا يمضى أنطونيو وشايلوك لإتمام هذه الصفقة .

وفى هذه الأثناء تعد الأقدار لشايلوك ضربة قاصمة تأتيه من حيث لا يقدر . فابنته الجميلة عاشقة للفتى لورنزو والفتى لورنزو عاشق لها ، وقد تعاهدا سراً على الزواج . ولكن كيف تتزوج جيسكا اليهودية من اورنزو المسيحى ؟ إنهما يتفقان على أن تهرب جسيكا من بيت أبيها شايلوك مع لورنزو إلى بلدة أخرى حيث تعتنق جسيكا المسيحية ويتزوجان .

وتأتى الفرصة السانحة عندما يخرج شايلوك فى المساء للعشاء فى حفل تنكرى أقامه بسانيو . وتستخفى جسيكا فى زى غلام وتخرج خلسة إلى موعدها مع لورنزو وقد حملت معها صندوقاً كدست فيه كل ما وصلت إليه يدها من ذهب أبيها وجواهره . وفى الموعد المحدد تلتقى بلورنزو وتعطيه الصندوق ثم تمضى معه إلى الحفل

وهي تتقدمه فى الظلام حاملة أمامه المشعل فى موكب الكرنفال ، فلا يميزها أحد حتى أبوها .

وقبل أن ينتهى الحفل يستقل بسانيو وجراتيانو زورقاً يمخر بهما البحر من البندقية قاصداً مدينة بلمونت . ويكتشف شايلوك عند عودته إلى داره اختفاء ابنته ؛ بما خف حمله وغلا ثمنه من متاعه ، فيخرج إلى الشوارع هائجاً كالمجنون ، يصرخ صراخاً يفتت الأكباد : « بنتى ؟ دنانيرى ؛ بنتى هربت مع مسيحى ! أين العدل ! أين القانون ! دنانيرى ، ابنتى ! » ويعود على أحجاره الكريمة مردداً : « سرقتها بنتى ! أين العدل ! ابحثوا عن البنت ، تجدوا معها الجواهر والدنانير » . ومن وراء شايلوك تجمهر كل صبية البندقية يرددون ساخرين : « جواهرى ! بنتى ! دنانيرى ! »

ويقول سالانيو لسالارينو – إن هذا نذير شؤم لأن غضب شايلوك الآن قد بلغ حداً لا سبيل إلى كبحه ، والويل لأنطونيو إن هو تأخر يوماً واحداً عن الوفاء بدينه ، فهو قد سمع بعاصفة هبت فى بحر المانش وحطمت فيه سفينة فانصرف فكره إلى أنطونيو وسفنه . ولكنه رأى أنطونيو الطيب كالقديس يودع بسانيو ويعانقه عند سفره إلى بلمونت راجياً إياه ألا يزعزع مقامه فى بلمونت بالتفكير فى اليهودى شايلوك وفى دينه ، وألا يعود إلى البندقية حتى يتم زفافه إلى بورشيا .

وفى دار بورشيا ببلمونت يتقدم أمير المغرب للامتحان العسير فيقف قبالة الصناديق الثلاثة . ويقرأ النقش على الصندوق الذهبى فيجده يقول : « من اختارنى ظفر بما يتمناه الكثيرون » . أما النقش على الصندوق الفضى فيقول : « من اختارنى ظفر بما يستحقه » وأما النقش على الصندوق الرصاصى فيقول : « من اختارنى فليعط كل ما عنده وليجازف بكل شىء » . ويقف أمير المغرب حائراً بين هذه الصناديق الثلاثة . يفكر فى نقوشها ويتمعن فى معانيها . ولكنه لا يلبث أن يستقر رأيه على شىء ، فينصرف عن الصندوق الرصاصى لأنه ينذر ويتوعد . وينصرف عن الصندوق الفضى الذى يعد من يختاره بما يستحقه . وهو يعرف أنه بنسبه وبجاهه وبشجاعته يستحق أن ينال يد بورشيا الجميلة . ولكن هل يعرف الصندوق ذلك ؟ إن أمير المغرب يختار الصندوق الذهبى لأنه يعد بتحقيق المنى التى يحلم بها

الكثيرون.. وهل هذه المنى إلا بورشيا الجميلة التى يحج خيرة فتيان الدنيا إلى بلمونت طالبين يدها ؟ ثم الذهب ! نعم الذهب ! الذهب محقق الأحلام محقق الأمانى .

ويطلب أمير المغرب من بورشيا مفتاح الصندوق فتعطيه إياه ، ويفتح الأمير الصندوق متلهفاً ، فماذا يجد فيه ؟ يجد جمجمة فى عينها الفارغة ورقة تقول :

« ليس كل ما يلمع ذهباً !
لكم سمعت هذا القول يقال .
وكم من رجل باع حياته
ليحظى بمرآى من الخارج .
والقبور المنقوشة بماء الذهب
تضم الرفات والديدان .
فلو كانت حكمتك بقدر شجاعتك
ولو كان فى جسدك الفتى عقل شيخ ناضج
لما وجدت هذا الجواب مدوناً على هذا الطرس :
فوداعاً ! إن حبك حب فاتر » !

وهكذا ينصرف أمير المغرب كاسف البال يغالب حزنه .

ومن بعد أمير المغرب يتقدم فارس أندلسى هو أمير أراجون لخطبة أبورشيا ، وهو فتى معتد بنفسه عظيم الخيلاء . ويعرف بشروط الامتحان فيرضى بها . وبعد أن يؤدى القسم، يتقدم إلى الصناديق الثلاثة ويتمعنها جيداً ويتدبر ما تقوله نقوشها . فيصدف عن الصندوق الذهبى لأن الذهب لا يجتذب إلا الرعاع وهم أكثر الناس . أما هو فمن الصفوة التى لا تشارك العامة أمانيها المبتذلة . ويسحره الصندوق الفضى . فيقف أمامه مبهوراً . إنه يعد من يختاره بما يستحق ، وهو لا يطلب إلا ما يستحق . وهل يستحق أمير أراجون ، وهو أعظم فارس وأنبل نبيل وأشعر شاعر وأكرم كريم وزينة كل بلاط إلا أجمل عروس فى الوجود ؟ نعم ، إنه يستحق يد بورشيا . وهذا ما يعده به النقش الفضى .

ويطلب أمير أراجوان المفتاح من بورشيا فتعطيه إياه . ويفتح الصندوق الفضى فيجد فيه رأس أبله . وورقة تقول :

من الناس من يعانقون الأطياف .
ومن عانق الأطياف كانت سعادته طيفاً .
وأنا أعلم أن بين الأحياء حمقى .
طلاؤهم من ماء الفضة ، وهذا طلائى
فتزوج من شئت من النساء
فرأس الأبله على كتفيك دائماً .
هيا انصرف . وعجل بالانصراف .
وهكذا يخرج أمير أراجون فى حاشيته ويعود إلى وطنه ، كاسف البال ! ! !

وما أن يمضى الأمير حتى يصل بسانيو فى كوكبة من أصدقائه وأتباعه ، وينزل ضيفاً على بورشيا التى تفرح بمقدمه فرحاً عظيماً .

وفى البندقية تتواتر الأنباء فى الرياالتو وهو بورصة المدينة بغرق سفن أنطونيو النبيل . وشايلوك المائج لا يزال على هياجه يرغى ويزبد ويندد بالأفاق المسيحى الذى فر بابنته ودنانيره وجواهره، ويتوعد أنطونيو بأن يفى بالصك الذى اقترب أجل استحقاقه قائلا : « لكم لقبنى بالمرابى . لكم أقرض الناس بدون مقابل عملا بإحسانه المسيحى فليفكر الآن فى الوفاء بالصك » . وحين يقول سالرينو : « وإذا عجز عن السداد فإنى واثق من أنك لن تقتطع من لحمه ، فماذا ينفعك » ينفعنى فى اصطياد السمك . فإن لم يشبع لحمه أحداً ، فهو على الأقل يشبع شهوتى للانتقام . إنه بالغ فى إهانتى وضيع على نصف مليون جنيه ، وكان يطرب لخسائرى ويسخر من أرباحى ويعرض بقومى ، ويفسد على صفقاتى ويصرف عنى أصدقائى ويؤلب على أعدائى . وماذا كان دافعه إلى كل ذلك ؟ إنى يهودى . أليست لليهودى عينان ؟ أليست لليهودى يدان ؟ أليس لليهودى أعضاء وأوصال وحواس ونوازع وعواطف ؟ ألا يأكل اليهودى نفس الطعام ؟ ألا يؤذيه نفس السلاح ؟ ألا تعتريه نفس الأمراض ويبرئه نفس الدواء . ألا يكويه الحر الذى يكوى المسيحى ويقرسه برد الشتاء الذى يقرس المسيحى ألا تدمى أجسادنا إن وخزتنا ونضحك إن دغدغتنا : فإن دسستم لنا السم ألا نموت وإن أسأتم إلينا ألا ننتقم ؟

إن كنا نشبهكم فى كل شىء ، فنحن نشبهكم فى الانتقام كذلك ، إن أساء

يهودى إلى مسيحى فكيف يخفف المسيحى عن كربه ؟ بالانتقام . وإن أساء مسيحى إلى يهودى فكيف يشفى اليهودى غليله ؟ بالانتقام كذلك ، لن أطبق إلا الشريعة السافلة التى علمتمونيها » . . .

ويفد على شايلوك مراب من أبناء جلدته يدعى طوبال فينصرف سالانيو وسالارينو . يفد طوبال ليقول إنه لم يعثر لجسيكا بنت شايلوك على أثر فى ميناء جنوا ، فينوح شايلوك على ما أنفق من مال فى البحث عنها . فبعض ماله قد ضاع وبعضه الآخر يضيع فى البحث عما ضاع . ويستمطر اللعنات على ابنته ويتمنى لو رآها ميتة عند قدميه والجواهر تزين جثمانها . ولكن الفرح يشيع فى نفس شايلوك حين يسمع من طوبال أن سفينة أنطونيو القادمة من طرابلس قد ابتلعها اليم ويصرخ : « شكراً لله ! شكراً لله » إن دائنى أنطونيو فى الريالتو يقولون إنه لا مفر له من إشهار إفلاسه . إن كل مراكبه قد عصفت بها العواصف . فوراً فوراً . إلى رجال الضبط . إلى القضاء . فبعد أسبوعين إما الوفاء وإما الانتقام .

أما فى بلمونت فبسانيو يطلب يد بورشيا وصديقه جراتيانو يطلب يد وصيفتها نريسا . ويرجو بسانيو أن يعجل باجتياز هذا الامتحان العسير الذى فرضه أبوها عليها ، إذ لابد من عودته إلى البندقية على جناح السرعة فهو قلق على صديقه الوفى أنطونيو الذى رهن حياته ليهيئ له السعادة . وتستمهله بورشيا المحبة له ، فهى تخشى أن يسيء اختيار الصندوق فينصرف عنها إلى غير رجعة . فليبق إذن بسانيو إلى جوارها أطول فترة ممكنة . فإن قدرت المقادير أن يتولى عنها ، فهى فى صحبته قد ذاقت طعم النعيم الذى لا يعرفه إلا المحبون .

ولكن بسانيو المعذب بين حبيبته وصديقه يصر على الإسراع فى الاختيار ، فتقوده بورشيا إلى الصناديق بعد أن يؤدى القسم . وكأنما للحب عين نافذة تفتق الحجب ، فما أن يقرأ بسانيو النقش على كل صندوق حتى يعرض عن الذهب والفضة ، ويتقدم إلى الصندوق المصنوع من رصاص قائلا إنه يختار هذا الصندوق الذى لا يعد صاحبه بشيء ، فهو يحتقر بهرج الذهب والفضة وكل ما يؤلب الإنسان على أخيه الإنسان . وما أن يفتح الصندوق حتى يجد فيه صورة بورشيا الجميلة ترنو إليه فى حنان . أما بورشيا نفسها فقد أوشكت أن ترقص طرباً بعد أن

كانت معلقة الأنفاس . ويقرأ بسانيو العبارات التالية مدونة على الطرس فى الصندوق :

« يا من لا تختار بالمظاهر
حظك موفق واختيارك صحيح !
وما دام هذا حظك ونصيبك
فاقنع به ولا تسع إلى غيره .
فإن رضيت به
وجعلت من حظك أسس سعادتك
فالتفت إلى حيث تنتظرك سيدة فؤادك
واثبت حقك فيها بقبلة العاشق » !

وهذا ما يفعله بسانيو ، فهو يثبت حقه فى بورشيا بقبلة العاشق . فتعطيه بورشيا خاتماً ذهبياً وهى تقول : « كنت حتى الآن سيدة هذا البيت الجميل ومولاة على خدمى وسلطانة على نفسى ، أما الآن فالبيت بيتك والخدم خدمك وأنا ملك لك يا مولاى . كل هذا أعطيك إياه مع هذا الخاتم الذى إن تخليت عنه أو أضعته أو وهبته للغير كان ذلك نذيراً بزوال حبك لى » . ويقسم بسانيو على المحافظة على الخاتم بكل عهود الهوى . وتحذو نريسا حذو سيدتها فتعطى جراثيانو خاتماً تستحلفه ألا يفرط فيه مادام باقياً على حبها .

وفى هذه الأثناء يصل لورنزو ومعه زوجته جسيكا بعد أن ظلا مختفين حيناً من الزمن ، ومعهما ساليريو ورسول من البندقية فترحب بها بورشيا أيما ترحيب . ويسلم الرسول لبسانيو الرسالة فيفضها ، وما أن يقرأها حتى يعرو وجهه شحوب من شحوب الأموات . وتسأله بورشيا عن الخطب ، فتعلم منه أن الرسالة من أنطونيو وأنها تقول إن العواصف قد عصفت بكل سفنه ، فعجز عن الوفاء بدينه وأن اليهودى شايلوك يطالب برطل من لحمه قرب القلب ، فهو فى شجنه يقول وداعاً لبسانيو وللحياة ، فهو يعلم أن نهايته اقتربت وهو يرجو أن يرى صديقه بسانيو قبل موته إن كان بسانيو لا يزال مقيماً على حبه . أما ما بينهما من دين فليعده بسانيو لغواً ملغياً . فما بعد موته حساب .

وتسأل بورشيا عن الدين فتعلم أنه ثلاثة آلاف دينار فتقول : « ادفعوا له ستة

آلاف والغوا الصك . ضاعفوا الستة آلاف ثم اضربوا هذا الحاصل فى ثلاثة أمثاله ولا تسقط شعرة واحدة من رأس صديق على هذا الوصف الذى تصفون بسبب بسانيو . فخذنى أولا إلى الكنيسة واجعل منى قرينتك ، ثم ارحل إلى البندقية لتكون إلى جوار صديقك » .

وهكذا يعود بسانيو إلى البندقية بمال لينقذ صديقه أنطونيو فيجد شايلوك ينبه السجان أن يشدد الحراسة على سجينه ويزأر قائلا : « لا تحدثونى عن الرحمة ! الرحمة ! هذا هو الأحمق الذى كان يقرض المال دون فائدة . شدد عليه الحراسة ياسجان » . ويحاول أنطونيو أن يتفاهم معه ، ولكن شايلوك يصم أذنيه قائلا : « سأنفذ صكى . لا تجادل فى صكى . لقد أقسمت يميناً أن أنفذ صكى . لقد سميتنى بالكلب دون سبب ، وما دمت كلباً فاحذر أنيابى . إن الدوق سيعطينى حقى . . » . ثم ينصرف شايلوك ، فيقول سالارينو لأنطونيو : « أنا واثق من أن الدوق لن ينفذ الصك . » فيجيبه أنطونيو قائلا : « إن الدوق لا يستطيع تعطيل القانون ، فلو أن الضمانات التى يتمتع بها الأجانب بيننا فى البندقية أهدرت لغض ذلك من عدالة الدولة . وتجارة المدينة وأرباحها تأتيها من كل الأمم » .

وبعد رحيل بسانيو عن بلمونت تدعو بورشيا لورنزو وزوجته جسيكا قائلة إنها تترك بين أيديهم دارها ومتاعها أمانة يحافظان عليها فهى ماضية مع وصيفتها تريسا إلى دير قريب ، فقد نذرت إلى الله أن تتعبد فيه ريثما يعود زوجها . ثم توفد خادمها بالثازار إلى مدينة بادوا برسالة إلى ابن عم لها يدعى الدكتور بيلاريو ، وهو فقيه من فقهاء القانون ، وفى الرسالة تطلب بورشيا أن يبعث إليها الدكتور بيلاريو برداء رجال القانون وبما يراه من ملاحظات فى قضية شايلوك وأنطونيو .

وفى البندقية ينعقد عقد المحكمة برئاسة الدوق ويمثل الجميع أمامه ، أنطونيو وبسانيو وجرثيانو وساليريو ثم شايلوك . ويهيب الدوق بشايلوك أن يعدل عن مطلبه باسم الرحمة وباسم الضمير ، ولكن شايلوك يقف كالصخرة لا يلين . إنه يطالب بحقه فى رطل من لحم أنطونيو كما يقول الصك بالحرف الواحد ، وليست هناك قوة على وجه الأرض تجعله يعدل عما يطلب ، ويقول : « لقد أبلغت سموك بمطلبى ، وقد أقسمت بيوم السبت المقدس . أن أحصل على حقى المنصوص عليه فى الصك .

فإن أبيته على فلتعصف العواصف إذن بميثاق مدينتكم وبحريتها » . إنه يفضل رطلا من لحم أنطونيو على، ثلاثة آلاف دينار . ولا تسأل سائل عن السبب ، فما عنده سبب إلا أن هذا مزاجه . وليس هناك ما يحمله على إبداء الأسباب ، فهو يكتفى بأن يقول إنه حاقد عليه وهو لا يطلب إلا حقه .

ويعرض عليه بسانيو ستة آلاف دينار وهى ضعف ماله فيجيبه : « لو أن كل دينار من هذه الآلاف الستة كان ستة دنانير لما قبلتها . أنا أطلب تنفيذ صكى ». ويقول الدوق : « وأى أمل لك فى رحمة السماء إذا لم ترحم على الأرض» . فيجيبه شايلوك قائلا : « وأى خطأ ارتكبته حتى أخشى الحساب ؟ إن بينكم عديداً من العبيد الذين اشتريتموهم بالمال وسخرتموهم فى أفظع الأعمال وأخسها كأنهم حميركم أو بغالكم أو كلابكم ، لا لشىء إلا لأنكم اشتريتموهم بالمال . ترانى أقول لكم : أطلقوهم أحراراً ، زوجوهم من بناتكم ؟ وكيف يتصببون عرقاً تحت أحمالهم الثقيلة . هيا اجعلوا فراشهم وثيراً كفراشكم وأطعموهم من زادكم الشهى الذى به تطعمون ؟ ستجيبوننى : إن هؤلاء العبيد ملك لنا ، وهكذا أجيبكم أنا : إن رطل اللحم الذى أطلب اقتطاعه منه قد كلفنى غالياً . وهو ملك لى . وسأحصل عليه . فإن أبيتم على ذلك فسحقاً لقانونكم ، وقوانين البندقية حبر على ورق . أنا أطلب العدالة . أجبنى : هل أظفر بها » ؟

فيقول الدوق إنه سيرفع الجلسة ما لم يحضر الفقيه الذى ينتظر وصوله لنظر هذه القضية وهو الدكتور بيلاريو .

وهنا يأتى رسول يقول إن محامياً شاباً ومعه كاتبه يستأذنان الدوق فى دخول المحكمة فهما موفدان من قبل الدكتور بيلاريو . فيأذن لهما الدوق فى الدخول .

وتدخل بورشيا مرتدية رداء رجال القانون . وقد استخفت تماماً بحيث لم يعرف أحد هوايتها ، ومن ورائها نريسا فى زى كاتب محام . وتسلم بورشيا الدوق رسالة من الدكتور بيلاريو يعتذر فيها بمرضه عن الحضور ويقول إنه فوض الفقيه الشاب بالثازار . وهو من ألمع فقهاء روما ، فى نظر القضية مكانه . فيرحب الدوق بالفقيه الجديد .

ويخرج شايلوك سكيناً ويذهب يشحذها أمام الناس فى انتظار اللهفان .

وتسأل بورشيا أنطونيو قائلة :

بورشيا : أتعترف بالصك ؟

أنطونيو : نعم .

بورشيا : لا إكراه فى الرحمة

شايلوك : وماذا يجبرنى عليها ؟ أجبنى .

بورشيا : الرحمة لا إجبار فيها ، فهى تهمى كما يهمى الغيث من السماء فتروى ما تحتها . وبركتها بركتان ، فبورك من أعطاها وبورك من أخذها . وهى فى أقوى قوتها عند أقوى الأقوياء ، وهى أجمل فى الملك المتوج من تاجه ، فصولجان الملك يعرض قوة سلطانه الدنيوى . وهو دلالة هيبته وجلالته ، ولكن الرحمة فوق هذا الصولجان القوى ، فعرشها فى قلوب الملوك ، وهى من صفات الله نفسه ، وحين تكسر الرحمة شوكة العدالة يبدو سلطان الأرض أقرب ما يكون لسلطان الله . فاذكر هذا إذن أيها اليهودى وأنت تطالب بالعدالة ، إنه ليس بيننا واحد سيدركه الخلاص فى السماء إذا جرت علينا عدالة السماء . نصلى لتدركنا رحمة الله ، وهذه الصلاة تعلمنا جميعاً أن نكون من الراحمين .

ويسمع شايلوك هذا الكلام فلا يجد ما يقوله إلا قوله :

« على رأسى فلتسقط أفعالى ! أنا أطالب بالقانون ، أطالب بتنفيذ الصك » .

ويقدم بسانيو نفسه فدية ليموت بدلا من أنطونيو ولكن شايلوك يأبى متمسكاً بنصوص الصك . ويضرع بسانيو إلى الفقيه أن يوقف أعمال القانون ، ولكن بورشيا تقول : « هذا محال . فليس فى البندقية سلطة تملك تغيير قانون مقرر فإن فعلنا ذلك عد سابقة وارتكبت بعدنا أخطاء عديدة تقوض دعائم الدولة أسوة بما فعلنا » .

وهنا يصيح شايلوك متهللا : يا أحكم القضاة ! يا أحكم القضاة !

وتعود بورشيا فتعرض عليه ثلاثة أمثال حقه نقداً ، ولكن شايلوك يأبى فى عناد . وهنا تقول : إذن لابد مما ليس منه بد . وتأمر أنطونيو الزاهد فى الحياة أن يعرى صدره استعداداً للوفاء بدينه من لحمه . ويتهلل شايلوك ويصيح : « يا أنبل القضاة ! يا أعدل القضاة » ! وتأمر بورشيا شايلوك أن يتقدم حاملا سكينه

لاستيفاء دينه . وقبل أن يبدأ شايلوك فى إغماد السكين تستوقفه بورشيا قائلة : إن الصك يقول رطلا من اللحم بجوار القلب ، فهل هناك ميزان يوزن به لحم المدين فيصيح شايلوك بأنه قد جاء معه بميزان لهذا الغرض .

وتطلب بورشيا إحضار طبيب يضمد جراح أنطونيو لئلا ينزف حتّى الموت ، ولكن شايلوك يصيح معترضاً : « ليس فى الصك شى ء من هذا . . أنا لا أجد شيئاً من هذا فى الصك » .

ويسلم أنطونيو على بسانيو مودعاً ، ويرجوه ألا يشقى لأنه انتهى هذه النهاية الأسيفة بسببه . ويزجر شايلوك قائلا إنهم يضيعون وقته فى العبث الذى يسمونه الوداع . فتقول بورشيا : تقدم إذن وخذ حقك : رطل من لحمه فى موضع الصدر . ويتقدم شايلوك فرحان جذلا ، ويهم بإغماد نصله فى صدر أنطونيو .

ولكن بورشيا تستوقفه مرة ثانية قائلة : « إن هناك مسألة أخرى : فهذا الصك لا يعطيك الحق فى قطرة واحدة من الدم . ونص الكلام واضح : رطل من اللحم فخذ إذن رطل اللحم الذى يحق لك بموجب الصك ، ولكن إذا أرقت قطرة واحدة من هذا الدم المسيحى ، فكل أراضيك وأموالك مصادرة لدولة البندقية بموجب قوانينها » .

ويقف شايلوك ذاهلا .

« ويصيح جراتيانو ساخراً من شايلوك: « يا أحكم القضاة ! يا أعدل القضاة » !

وتخاطب بورشيا شايلوك الذاهل : « لقد طلبت العدالة ، وسيكون لك منها أكثر مما طلبت » . ويتقدم بسانيو بالمال يعرضه من جديد على شايلوك ليأخذه وينصرف . ولكن بورشيا تتدخل قائلة : إن اليهودى قد رفض المال وأصر على حقه عيناً ، فلن يأخذ إلا حقه عيناً . وتخاطب شايلوك قائلة : هيا . استعد لقطع اللحم وإياك أن تريق قطرة واحدة من الدم . ولا تقطع إلا رطلا واحداً فإن زدت عليه أو نقصت عنه ولو بمقدار خردلة كان جزاؤك الموت ومصادرة أملاكك .

ويتصبب العرق من جبين شايلوك ويقول : أعطونى مالى الأصلى ودعونى أنصرف ويهم بسانيو بإعطائه المال ولكن بورشيا تمنعه قائلة : « إنه رفضه أمام المحكمة ولن يأخذ إلا ما يقول به الصك » .

ويقول شايلوك إنه متنازل عن ماله ماض إلى حال سبيله . ولكن بورشيا تعود فتقول : إن فى البندقية قانوناً يقول إنه إذا ثبت على أجنبى أنه أراد قتل مواطن من مواطنيها ، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، فإن للمجنى عليه الحق فى نصف أملاكه ، أما نصفها الآخر فيئول للدولة ، وتبقى حياة الجانى رهينة فى يد الدوق وحده يتصرف فيها كما يشاء . وهو وحده يملك حق العفو عنه .

ويقول الدوق أنه يعفو عن شايلوك قبل أن يلتمس شايلوك العفو ليريه الفرق بين روحه وروحهم .

ويصرخ شايلوك قائلا: إن أخذتم أموالى قتلتمونى ، فهى عماد حياتى .

وهنا يقول أنطونيو إنه متنازل عن نصيبه فى نصف أمواله للدولة ليستثمر شايلوك النصف الباقى أثناء حياته . وهو يعلق هذا على شرطين — أن يسلم شايلوك — تركته عند وفاته لابنته جسيكا وزوجها لورنزو ، وأن يعتنق المسيحية . ويضيف الدوق إلى هذا قوله : فإن لم يفعل ذلك سحبت قرار العفو الذى أصدرته عن حياته .

وتسأل بورشيا شايلوك قائلة : « راض أنت بهذا القرار » فيجيبها شايلوك وهو محطم القوى : « نعم ، أنا راض » .

وهكذا تنتهى هذه المحاكمة العجيبة . ويتقدم أنطونيو وبسانيو وجراتيانو إلى بورشيا ونريسا ليعربوا لهما عن عميق شكرهم ، وليعرضوا عليهما أتعاب المحاماة . ولكن بورشيا تأبى أن تتقاضى درهماً واحداً ثم تقول عند إلحاف بسانيو : إن كان لا بد وأن أتقاضى شيئاً ، فاعطنى خاتمك هذا للذكرى . وتطلب نريسا أيضاً من جراتيانو خاتمه للذكرى . ويتردد الرجلان طويلا ، فقد أقسم كل أمام زوجته أن يحافظ على خاتمها ما بقى حياً . فتهزأ بورشيا من بسانيو قائلة إن سخاءه فى لسانه لا فى قلبه . ثم تتركه وتنصرف . فينظر إليه أنطونيو نظرة العاتب ، فيعدو بسانيو وجراتيانو خلف بورشيا ونريسا ويعطى كل منهما خاتمه .

ويعود بسانيو وجراتيانو إلى بلمونت ليقيما الأفراح الملاح ومعهما أنطونيو ، فيجدا بورشيا ونريسا فى انتظارهما . وفى وسط البهجة تلاحظ بورشيا أن بسانيو قد خلع خاتمها من أصبعه . ويشرح جراتيانو أنهما أعطيا الخاتمين للمحامى الذى أنقذ حياة أنطونيو ولكاتبه . وتتهم كل منهما زوجها أنه فرط فى خاتمها لامرأة من نساء

البندقية . ويكون عتاب عابث وخصام مفتعل . وبعد أن تشبع كل زوجها تقريعاً وتأنيباً ، تكشف بورشيا عن حقيقة ما فعلته حين نابت عن الدكتور بيلارتو فى نظر القضية . وترد بورشيا الخاتم إلى بسانيو وترد نريسا الخاتم إلى جراتيانو ، على أن تكون هذه «آخر مرة» يفرطان فيها فى هذا الرمز الجميل الذى يعبر عن كل معانى الزوجية .

أما هدية بورشيا لأنطونيو فهى من نوع آخر ، فهى تزف إليه البشرى بأن ثلاثة من سفنه الضائعة قد عادت إلى البندقية سالمة تحمل خيرات الأرض . وأما هديتها للورنزو وجسيكا فهى وصيه شايلوك المسجلة لهما بكل ما يملك حين يفارق الحياة .

فاوست

الشاعر الألمانى جوته

إذا سأل سائل ما هى أعظم عشرة كتب فى عالم الأدب منذ فجر الإنسانية إلى اليوم لكانت « فاوست » للشاعر الألمانى العظيم جوته بلا جدال إحدى هذه الروائع العشر .

ولقد استغرق إنشاء هذه الدراما نحو ستين عاماً . وليس المقصود بهذا القول أن جوته تفرغ لفاوست وحدها من المؤلفات شعراً ونثراً . وإنما المقصود به أن جوته بدأ ينظم الجزء الأول من « فاوست » فى عام ١٧٧٠ ، وظل يقبل على النظم بين الحين والحين كلما واتاه الإلهام فلم يفرغ من هذا الجزء الأول إلا عام ١٨٠٦ . أما الجزء الثانى الذى نشر عام ١٨٣٢ فقد كان يشتمل على مشاهد ، نظمت فى أعوام مختلفة أقدم ما فيها يرجع إلى محصول عام ١٧٧٢ .

أما جوته نفسه فأشهر من أن يعرف ، وأهم ما كتب من قصص بالنثر « آلام فرتر » و« فلهلم مايستر » ، وأهم ما كتب من دراما بالشعر أو من شعر درامى بتعبير أدق هو « فاوست » ثم « جوتز ذو اليد الحديدية » و « محمد » و « أجمونت » . أما باعه فى النقد فطويل . وما من دارس للأدب إلا وقرأ محادثاته مع أكرمان أو ذكرياته التى سماها : « الشعر والحقيقة » .

وقد عاش جوته حتى طعن فى السن ، فهو قد ولد فى ٢٨ أغسطس ١٧٤٩ ومات فى ٢٢ مارس ١٨٣٢ أى أنه توفى عن ثلاث وثمانين سنة . وفى أثناء حياته المديدة هذه تقلد أرفع المناصب فكان وزيراً فى فايمار ، وظل مصدراً يشع الفكر والحكمة والعلم على معاصريه لا فى ألمانيا وحدها ولكن فى كل بقعة من بقاع العالم المتمدن .

ولم يكن جوته رغم خصوبته فى الشعر الغنائى والدرامى شاعراً غنائياً أو درامياً فى المقام الأول ، بل كان شاعراً فلسفياً من أعظم طراز لا يقل عن دانتى ، ويعلو

على شكسبير فى هذا النوع من أنواع الإنشاء الذى يؤدب الفلسفة ويفلسف الأدب، وإن لم يرق إلى مقام شكسبير فى الإحساس المسرحى أو فى فهمه للشخصية الإنسانية . ومن آثاره التى لا تنسى فكرته عن وحدة الإنسانية وفكرته عن الأدب العالمى وفكرته عن الإنسان بين الله والطبيعة ، وهذه الفكرة الأخيرة هى موضوع « فاوست » .

وقد عاصر جوته الثورة الفرنسية ورأى مبادئها تسرى فى بلاد أوربا المختلفة سريان النار فى الهشيم فتزلزل الإقطاع حيثما سرت ، وعاصر نابوليون ورأى جيوشه تجتاح الممالك والإمارات وتطيح بالعروش وتوشك أن توحد أوربا كلها تحت تاج « الإمبراطور » . وكان جوته لا يزال فى الثلاثين من عمره حين نشبت الثورة الفرنسية فلا غرابة أن اتسم أدبه فى صدر حياته بالثورة الجامحة سواء فى السياسة أو فى الدين أو فى الأخلاق أو فى أساليب التعبير الفنى. ثم ما لبث تمرده أن هدأ درجة درجة حتى بلغ التوازن المطلق والصفاء الذى ليس بعده صفاء . ولكنه لم يفقد إعجابه العظيم بنابوليون الذى كان يعده أشبه شىء برسول العناية الإلهية لإقرار مبادئ الثورة الفرنسية فى كل مكان ، رغم أن هذا الفاتح الجبار لم يرحم بلاد جوته من التخريب والتدمير وجعل من رجالات ألمانيا قطعاً من قطع الشطرنج .

وقد أجمع سائر النقاد على أن جوته قد بلغ قمة توازنه وخصوبته وصفائه فى « فاوست » هذه التى لا نعرف أين نضعها بين أنواع الأدب المختلفة . فهى ليست بالدراما رغم أن كل تعبير فيها بالحوار المنظوم .ولعل أصدق وصف لها هو أنها ملحمة كتبت بالحوار ، لا الحوار الذى يمكن أن يمثل على المسرح ولكن الحوار الذى يدعو إلى التأمل والتفكير .

هى إذن ملحمة تصور صراع الإنسان مع قوى الخير والشر فى هذا الوجود سواء أكانت خارج النفس أم داخلها . فقصة فاوست هى قصة الإنسان الذى تضيق نفسه الرحيبة الخلاقة بكل ما فى الأرض من علم محدود وقوة محدودة ومتعة محدودة وتطلب نفسه الانطلاق من هذا العالم المحدود واقتحام ذلك العالم المغلق الرهيب الذى حرمته السماء على البشر سعياً وراء المعرفة التى تتجاوز العقل والحرية التى تتجاوز القيود والمتعة التى لا يقف فى سبيلها شىء والقوة المطلقة التى تجعل الإنسان إلهاً فى الكون من

دون الله . ولكي يحقق الإنسان كل ذلك نراه يحالف الشيطان فيدين له كل شيء في الطبيعة إلى أن يأتي اليوم الموعود فيلقى الإنسان مصرعه وتتدهور روحه إلى قاع الجحيم حيث لن ينجيه شيء إلا اللطف الإلهي .

وهذه القصة الفذة ليست من نسج خيال جوته فهي بعض تراث العصور الوسطى . وقد تناولها قبل جوته كثيرون كما تناولها بعده كثيرون ، فلم يصل أحد منهم إلى ما وصل إليه هذا الشاعر الفيلسوف الذى صور محنة الإنسان أحسن تصوير .

١

وتبدأ هذه الملحمة التي سماها جوته « تراجيديا » أو مأساة بمنظر في السماء حيث تتجادل الملائكة البررة في أمر الإنسان ولا سيما الملاك روفائيل والملاك جبريل والملاك ميخائيل ثم ذلك الملاك الزنيم الذى كان في دهر من الدهور زين الملأ الأعلى ثم عصى واستكبر فلعنه الله في كل كتاب ، ألا وهو إبليس ، واسمه هنا مفيستوفوليس .

أما الملائكة البررة فهي تسبح بحمد الله وبآلائه قائلة إن كل شيء يجرى على خير ما يرام في حضرة الملكوت .

فرفائيل يهلل لأن « الشمس تنشر ضوءها وهي تسبح باسم ربها الحبيب » . فالكون متماسك بقوة الحب الإلهي ولا يزال لكل شيء جماله كأنه في اليوم الأول » . كذلك يتحدث جبريل عن دورة الكوكب الأرضي يتعاقب عليه الليل والنهار في سلام ، ولقد تضطرب فيه بعض الأشياء ولكن هذا القلق يضيع في تيار المعركة الأبدية ، وكل شيء سائر إلى ساحة الرحمن حيث خاتمة المطاف . وميخائيل ينعى الزعازع النكباء التي تزأر على البحار والصواعق الفاتكة التي تأكل المدن بمارج من نار : « أما هنا فأصفياؤك الوادعون يا رب يعبدون ضياءك الصافي » .

أما مفيستوفوليس فهو وحده غير راض عن هذا التسبيح الدائم حول عرش الله ، فهو يفكر في الأرض أكثر مما يفكر في السماء . وعنده أن حال الأرض على أسوأ ما يكون ، فعلى الأرض « كل شيء يسير من سيء إلى أسوأ » والبشر في عذاب

أليم وابن آدم هذا « الإله الصغير العائش فى الأرض لا يزال على شذوذه يوم الخليقة فما أكثر ما يستخدم تلك الشعلة الإلهية ، ألا وهى العقل ، ليضاعف شروره » .

ولكن كيف يشكو مفيستوفوليس كل هذه الشكوى من أهل الأرض وفيهم رجل التقى والورع ، الدكتور فاوست ؟

إن مفيستوفوليس يعرف هذا الرجل حق المعرفة وله فيه رأى خاص . إنه يعلم أن فاوست رجل تحلق روحه دائماً فى سموات العلم والخيال . . وتعيش بين الكتب والأفلاك ، فهو يدرس ويدرس لعله يستطيع أن يهتك ستار المجهول وينفذ إلى ما وراء الطبيعة وقد اضطربت نفسه بالشكوك وتزعزع إيمانه لكثرة ما وقف عليه من أسرار الطبيعة .

وهنا تحدث مساجلة فى السماء فهناك رأى قائل بأن فاوست لا يزال رجل خير وفضيلة وأنه مستمسك بإيمانه رغم هذا القلق الذى يساورنفسه من حين إلى حين . أما مفيستوفوليس فيقول إن بين فاوست والهاوية قيد شعرة وأنه مستطيع أن ينتزعه انتزاعاً من بين الأبرار .

ويكون رهان فى السماء ويشترط مفيستوفوليس أن تطلق يده فى فاوست فيجاب إلى ما يطلب . ولسوف يثبت للجميع أن بين الإيمان الأعظم والكفر الأعظم خيط دقيق لا تكاد تتبينه العيون وأن الفضيلة العظمى والخطيئة العظمى شقيقتان توأمان ما أيسر أن تختلط سماتهما فى مداركنا وفى وجداننا !

ثم ننتقل من السماء إلى الأرض فإذا بنا مع فاوست . فى مكتبه وبين صحائفه وأوراقه ، وإذا بنا نراه فى هذه الليلة العصيبة شديد القلق يقلب أموره على كل وجه ويسترسل فى التأمل والتفكير . لقد سئم فاوست الدراسة ؛ إذ وجدها شيئاً عقيماً لا يؤدى إلى شىء له قيمة حقيقية . لقد طلب « الحقيقة » فى كل مكان وفى كل علم وفن فما اهتدى إليها . ألم يدرس الفلسفة والفلك والفقه والطب ؟ بل ألم يدرس اللاهوت لعله يهتدى به إلى الأسرار الإلهية ؟ فماذا كانت النتيجة ؟ لا شىء . لقد اهتدى إلى علم كثير حقاً ولكنه لم يهتد إلا إلى القشور . أما باطن الحقيقة ، أما الروح التى تسرى فى أشياء هذا الكون بالحركة والنماء والجمال والنشاط وكل ما هو من نفس الله فلا يزال سراً مستغلقاً عليه لا سبيل إلى إدراكه .

فى البدء كانت الكلمة . فى البدء كان الروح . ولكن ماذا تكون الكلمة وماذا يكون الروح . لقد بحث طويلا عن الكلمة وعن الروح القدس الذى كان يرفرف فى الوجود قبل الخليقة فلم يفهم شيئاً ولم يهتد إلى شيء .

ولماذا لا يقال فى البدء كانت القوة وفى البدء كان العقل ؟ إنه لا يرى حوله فى مظاهر الوجود إلا ما يدل على هذه الحقيقة .

ويجد مفيستوفوليس فرصته الذهبية فى هذه اللحظة التى تبلبل فيها عقل فاوست وساورته الشكوك المدمرة ، فيتخذ زى عالم من العلماء المتنقلين بين الجامعات ويدخل على فاوست فى مكتبه ليعلمه الإنجيل الجديد الذى يقوده إلى الكفر والخطيئة .

من تكون أيها الرجل ؟ هكذا يسأل فاوست زائره .

فيقول مفيستوفوليس : « أنا جزء من هذه القوة التى تريد الشر دائماً وتفعل الخير دائماً » .

فاوست : وما معنى هذا اللغز ؟

مفيستوفوليس : أنا روح السلب الدائم وبالعدل والحق انقض كل شيء . فكل ما هو موجود خليق بأن يحطم ، ولقد كان أولى ألا يوجد شيء . وعنصرى هو كل ما تسمونه الخطيئة والدمار ، وباختصار كل ما تسمونه الشر .

ويعرف فاوست من حديث زائره أنه رسول من الجحيم ويأنس إلى حديثه الطلى ، فيأذن له أن يتردد عليه كلما أحب . إن فاوست يائس حزين وقد صار إلى إنسان سوداوى المزاج لا يجد للحياة طعماً ولا يذوق لذة واحدة من لذات الحياة لأن نفسه منقسمة وعقله مبلبل يتصفح كل ما يراه حوله فيعجز عن إدراك الحكمة فى أى شيء مما يراه .

ولكن مفيستوفوليس يناشده أن ينفض عنه هذا الحزن وهذا اليأس قائلاً إن الحياة مليئة بالبهجة والملذات . وليس أمام فاوست إلا قرار يسير إن اتخذه نعم بأطايب الحياة . إن مفيستوفوليس على أتم استعداد لأن يكون النديم الوفى الذى يرشده إلى كل ما فى الحياة من متعة وجمال . بل هو راض بأن يكون خادماً لفاوست ، بل عبداً رهن إشارته لو أنه اختار هذا السبيل . كل ذلك يفعله مفيستوفوليس مرضاة فاوست بشرط واحد .

مفيستوفوليس : أحب أن أكون خادماً لك « على الأرض » ، أطيعك طاعة دائمة عمياء وألبي كل إشارة لك مهما كانت تافهة ، ولكن حين تكون فى العالم الآخر يجب أن تعاملنى بالمثل .

فاوست : إن العالم الآخر لا يقلقنى أمره . .

وهكذا يتعاهد فاوست ومفيستوفوليس على ذلك ويتعاقدان ويحرران صكاً يشهدان به ، ويوقع فاوست على هذا الصك بدمه ، وبهذا تنطوى صفحة حياته الناصعة وتبدأ صفحة جديدة من حياته ينصرف فيها عن العلم ويقبل على السحر ويجنح فيها من الفضيلة إلى الرذيلة ويخوض فى الآثام درجة درجة حتى يغرق فى لججها .

إن الجو خانق فى مكتب فاوست ولذا فإن مفيستوفوليس ينصحه بالخروج من هذا الجو المشبع بالكتب وما فيها من ترهات ، لابد أن يخرج فاوست إلى الحياة لينعم بجمال الحياة . أما والحياة قصيرة فإن مفيستوفوليس يختصر بقوة سحره المكان ليطول الزمان ، أو يزيد الحركة ليتسع بذلك الزمان والمكان معاً . إن عنده عباءة سحرية يحمل عليها فاوست كذلك البساط السحرى الذى يطير كالغمام ويحمل الموعودين من أقصى الأرض فى طرفة عين .

ويقود مفيستوفوليس فاوست إلى حان يدعى حان أورباخ بمدينة ليبزج فيه جماعة من الشباب الصاخب المرح يغنون ويمزحون ويغنى مفيستوفوليس أغنية مضحكة تدعو إلى التحرر من كل القيود فيلتف الجميع من حوله فى إعجاب شديد ويدخل على نفس فاوست السرور . ويتعالى هتاف الشباب بحياة الحرية وبحياة الخمر . ويدعونه إلى شرب الأنخاب ، ولكن مفيستو فوليس يعتذر لهم فى أدب بأن خمرهم رديئة ويعرض عليهم أن يأتيهم على الفور بخمر من نوع تشتهيه قلوبهم ، فمنهم من يطلب نبيذ الدير المعتق ومنهم من يطلب الشمبانيا ومنهم من يطلب النبيذ الحلو وعندئذ يطلب إليهم مفيستوفوليس أن يشخصوا بأبصارهم إلى وجهه ويذهب يتلو الرقى ويشير بيديه إشارة الساحر حتى يأتى كلا منهم بما طاب ، وهم فى ذهول شديد يصدقون ولا يصدقون ويتصايحون قائلين إن هذا من عمل السحر وهم يعجبون لهذا الوهم الذى شاكل الحقيقة فكأنه الحقيقة .

وبعد ذلك يمضى مفيستوفوليس بفاوست إلى مطبخ الساحرات فيتعلم فاوست من فنونهن شيئاً كثيراً . وتعرض الساحرات على فاوست بعض ألعابهن فيضيق بها أولا لأنها من مألوف الألاعيب يأتينه بالخمر من الهواء ويجعلن الكؤوس تراقص فلا يجد فاوست فى هذا شيئاً جديداً : ولكنهن يأسرن قلبه بمرآة سحرية يرى فيها فتاة ذات بهاء فتان لم ير فى حياته أجمل منها ولم يحسب قط أن على الأرض جمالا كهذا الجمال فيعلق بها قلبه ويشتهيها جسده ويتمنى لو كان هذا الخيال الذى يراه فى المرآة حقيقة يطاردها حتى يبلغها ويتملكها ولو كانت فى أطراف الأرض .

أما وقد أبرم فاوست مع مفيستوفوليس ذلك الميثاق المشهور فهل يسع مفيستوفوليس إلا أن يجيبه إلى طلبه ؟ نعم يا فاوست : لسوف تذوق طعم السعادة الكاملة حين تستولى على مرجريت جسماً وروحاً ، فقد كان اسم هذه الفتاة الجميلة مرجريت .

وفى المساء يقتاد مفيستوفوليس فاوست إلى حجرة مرجريت فإذا هى صغيرة ومرتبة فى أحسن ذوق . ويختبئان فلا تبصرهما مرجريت حين تدخل غرفتها وفى يدها سراج وتشرع فى نزع ثيابها وهى تغنى أغنية جميلة عن الحب ووفاء المحبين ، وما أن تفتح دولابها حتى تجد هدية من فاوست هى ثوب من أفتن الثياب وقرط وسلسلة من الذهب نفيسة وهى ذات الجمال العاطل من الحلى فكيف لا تطرب نفسها لما رأت وكيف لا تتمنى أن تكون هذه الأشياء أشياءها . ولكنها تحسب أن هذه وديعة مودعة عند عمتها ، وتعجب لكل هذه فهى لا تفهم كيف وجدت هذه النفائس طريقها إلى دولابها المغلق .

ويلتقى فاوست بمرجريت فى الحديقة فتفتن به كما فتن بها ويطارحها هواه فتستجيب له هذه البنت البريئة وتصيح قائلة : « يا إلهى إن مثل هذا الرجل يعرف كل شىء ويفكر فى كل شىء . إنى لأقف خجلى بين يديه وما أن يقول شيئاً حتى أقول نعم لكل ما يقول . وما أنا إلا بنت فقيرة جاهلة ولست أفهم أى محاسن يجدها قلبه فى شخصى » !

وتستسلم مرجريت لحبيبها وتحمل منه سفاحاً .

وهنا تبدأ المآسى تترى .

يثور أخوها الجندى فالنتين وينازل فاوست ، ولكن فاوست لا يقهر فى نزال

لأن مفيستوفوليس يقف دائماً إلى جواره ويطعن فاوست فالنتين طعنة قاتلة فيخر الفتى صريعاً أمام داره بين عويل أخته ونواح عمته مارتا التى كانت تيسر للعاشقين اللقاء . وقبل أن تفيض روح فالنتين يلعن المرأتين جميعاً ويعنف أخته قائلا :

بالأمس كنت لرجل واحد . غداً تكونين لعشرة رجال . وبعد غد تكونين للمدينة كلها . أما فاوست وصاحبه فقد فرا فى غفلة من الناس .

وقصدت مرجريت إلى الكاتدرائية ، لتطلب الغفران ، ولتلتمس العزاء ، وكانت تقف بين الحشد الحاشد من المصلين ، ولكن روح الشر كانت تمشى فى أعقابها حتى فى ذلك المكان المقدس .

بأى حق تدخلين هذا المكان المقدس يا مرجريت ؟ أتصلين من أجل نفسك التى زالت عنها طهارتها ، أم من أجل أخيك الذى جندله عارك أم من أجل أمك التى ماتت كمداً لما كان من فواجع وشقاء ؟ لا نفع فى صلاة فلم يعد هناك مكان للغفران . وهذا الجنين الذى يتحرك فى أحشائك يا مرجريت : إنه نذير لشؤم عظيم تخبئه لك الأيام القادمات . ملعونة أنت يا مرجريت .

هذا ما قالته روح الشر التى تتعقب الخطاة لتملأ نفوسهم ظلمة ويأساً من رحمة الرحمن .

وصرخت مرجريت قائلة : « أين الفرار من هذه الخواطر التى تحاصرنى أينما توجهت » ؟

ثم سقطت مغشياً عليها .

وفاوست ؟ أين هو الآن ؟ لقد انتقل مع صاحبه الزنيم إلى جبال الهارتز وهما الآن بين جمع غفير من الناس اختلط فيهم الحابل بالنابل والشريف بالصعلوك فالليلة ليلة مايو حين يقام عيد الربيع ويرقص الكل فى المهرجان . وفيما كان فاوست يراقص الحسان كف فجأة عن الرقص فقد خيل إليه أنه رأى فتاة جميلة شاحبة الوجه تقف فى عزلة ليلة العيد ، ثم تنسحب فى شجن عظيم وقدماها ترسفان فى أغلال من حديد . وخيل إليه أنها تشبه مرجريت .

وخيل إلى فاوست أيضاً أنها كانت تشخص إليه بنظرات جامدة من نظرات الموتى ، وحول عنقها شريط أحمر هو من حد السكين .

وكان مفيستو يرى ما يراه فاوست ، أما السكين فهو سكين الجلاد ، لأن مرجريت قتلت طفلها من فاوست فقبض عليها وحكم عليها بالإعدام . ولم تكن مرجريت قد أعدمت بل كانت لا تزال بين جدران السجن تنتظر ميتتها . أما ما رآه فاوست ومفيستو فقد كان مشهداً على المسرح ، يعرض على اللاهين فى المهرجان . ولكنه كان فى واقع الأمر رؤيا لبقية أحداث هذه المأساة يراها كل من كان له دور فى تأليفها أو إخراجها .

لابد من إنقاذ هذه التاعسة يا مفيستو هكذا يصيح فاوست ، ولكن مفيستو فوليس يغضب لهذا القول . لقد تحرك الضمير فى هذا الخاطئ الأثيم ، وهو الآن يريد أن يفسد كل ما بناه مفيستو منذ أن نزل إلى الأرض ليعجم عود هذا القديس الشيطانى .

إن فاوست يريد أن يسترد إنسانيته .. ويل لكم معشر البشر أو ويل لنا منكم نحن الشياطين . إنكم تجاهدون لتتحرروا من هذه الحماقات التى تربطكم بالحياة وأن تحلقوا معنا فى سماء السلب المطلق الذى لا مكان فيه للخير ولا لفكرة الخير ، ذلك النفى الأكبر الذى ينقض على الوجود كله ويبغى أن يحطم الكون والخليقة . ولكن ما أن تطيروا معنا طبقة أو طبقتين فوق الحب والرحمة والأخلاق والوفاء والضمير وكل هذه السخافات التى تميز بها جنسكم الوضيع حتى يعود إليكم ضعفكم وتطلبون الرجوع إلى عالمكم السقيم .

هذا ما يقوله مفيستو لفاوست الذى استبد به وخز الضمير وانتابته سورة من الغضب فذهب يكيل اللعنات لمفيستوفوليس : إن فاوست لعائد إلى مرجريت لينقذها من السجن ومن الإعدام .

ويجد فاوست سبيله إلى داخل السجن فيسمع مرجريت تغنى هذه الأغنية الحزينة :

إنه أبى الشقى الذى ذبحنى
إنها أمى البغى التى التهمتنى
وأختى الصغيرة الحبيبة
هى التى جمعت عظامى

في مكان رطيب جميل
حيث صرت إلى طائر صغير
يطير ، ويطير ، ويطير .

ولعلها فى لحظة اليأس لم تكن تتحدث عن أبيها وأمها فى الحياة ولكن عن أبيها الذى فى السموات وعن أمها الطبيعة الضاربة .

هيا بنا نهرب يا مرجريت . لقد جئت لإنقاذك . من هذا الذى يريد أن ينقذنى؟ إنه الحبيب فاوست . وافرحتاه ! لقد جئت لتفك أغلالى ؟ ها قد انفكت أغلالى . لقد زالت عنى الغصة وتلاشت كل أحزانى .

لقد جئت لتخلصنى . ها قد تم خلاصى .

وتظل مرجريت تهذى على هذا النحو بنجوى الحب والذكريات وفاوست يستحثها لتتبعه قبل أن ينجلى الليل أو يتنبه الحراس ، فلا تتحرك . إنها ترى طفلها الذى ألقت به فى النهر وتناشد فاوست أن يبادر لإنقاذه قبل أن يختفى تحت الأمواج ! النجاة ؟ أى نجاة هذه التى يسعى إليها فاوست ؟ إن غداً آخر يوم من أيام حياتها .

فاوست : يجب أن تعيشى !

مرجريت : يا عدالة الله ! لقد أسلمت نفسى لك يا عدالة الله !

مفيستوفوليس « مخاطباً فاوست » : هيا بنا ! هيا بنا ! وإلا تركتك هنا معها !

مرجريت : أنا ملكك يا أبتاه ! فانقذنى ! تعالى من حولى أيتها الملائكة واحرسينى بجموعك القدسية ! أى هنرى . . . إنك تشقينى .

مفيستوفوليس : لقد تمت دينونتها !

صوت من عل : لقد تم خلاصها !

مفيستوفوليس « مخاطباً فاوست » : تعال إلى ! « يختفى مع فاوست » .

صوت من الأعماق ينخفض : أى هنرى ! أى هنرى .

وكانت هذه نهاية مأساة مرجريت المسكينة . قال صوت إنها هالكة لأن آثامها لا تغسلها مياه البحار . وقال صوت إنها هالكة لأنها أعرضت عن باب الحياة وطرقت باب الموت بيديها . ولكن صوتاً أجمل من هذا الصوت ومن ذاك قال : بل لقد تم خلاصها لأنها أسلمت نفسها لعدالة الله !

٢

بعد هذا ننتقل إلى القصر الإمبراطورى حيث نجد جلالة الإمبراطور فى قاعة العرش مع وزرائه وقواده ورئيس ديوانه ومع هؤلاء جميعاً مفيستوفوليس الذى يقوم بينهم مقام الناصح بالمنكر .

إن الأمور فى الدولة لا تسير على ما يرام فالإمبراطور رجل متلاف يبدد ما فى الخزانة على ملذاته وشهواته ووزير ماليته يجيبه إلى كل ما يطالب مما أدى إلى ارتباك مالية الدولة . والشعب الجائع المحروم يرى كل ذلك فيغضب وتنتشر روح الفتنة بين أبنائه ويترامى نبؤها إلى القصر الإمبراطورى .

ويتقدم مفيستو فوليس إليهم بالنصيحة : إن رجال الدولة يريدون إصلاح ميزانية الدولة ، فهم إذن يبحثون عن المال ، عن الذهب والفضة . وإلى هذا الحد ليس هناك إشكال ؛ فالذهب متوفر والفضة متوفرة ، ولكن المشكلة هى فى سبيل الحصول عليهما . إن بطن الأرض زاخر بالكنوز . فبنو الإنسان منذ فجر التاريخ يخفون كنوزهم فى بطن الأرض كما أن بطن الأرض زاخر بأنفس المعادن . لم يبق إذن إلا استخراج هذه النفائس والكنوز . والأرض من قديم الزمن ملك للإمبراطور ، فكل ما يحتويه بطن الأرض إذن ملك الإمبراطور . هل هناك مشكلة ؟ ليست هناك مشكلة .

فليسخر الإمبراطور إذن جميع أفراد شعبه فى التنقيب عن هذه الكنوز .

أما وزير المالية فهو يستطيع أن يطبع من أوراق النقد ما يشاء ، بغير حساب ، لأن غطاء النقد موجود من الذهب والفضة وأنفس المعادن والأحجار فى بطن الأرض بغير حساب . وبهذا يستطيع الإمبراطور أن يمضى فى الاستمتاع بملذاته وبهذا تنفرج كربة الشعب ويزول الفقر من البلاد .

وهذه أحدث نظرية فى الاقتصاد يشرحها مفيستوفوليس للإمبراطور ورجاله . ولكن لكى توضع هذه النظرية موضع التنفيذ لابد من رجل علامة يعرف جميع دقائق هذه النظرية . وهل هناك غير فاوست ؟

ويعين الإمبراطور فاوست حارساً على خزائن الدولة حاملا لمفاتيحها ويطلق يده

فى كل شىء . ويوقع الإمبراطور مرسوم إصدار العملة الجديدة وهو بين أحضان عشيقاته .

وهكذا . فبعد أن دخل مفيستوفوليس قلب فاوست فأفسده وجعله يحطم أجمل شىء فى حياته الفردية وهو مرجريت ، دخل فى قلب الدولة فأفسده وجعل من فاوست أداته لتحطيم كل شىء فى الحياة العامة .

لقد جعل مفيستوفوليس الإمبراطور بقوة السحر يتوهم أنه يملك مال قارون وهو لايملك فى واقع الأمر إلا شيئاً زائفاً وهى القيمة .

وتمادى الإمبراطور فى لهوه وعربدته حتى تجاوز كل الحدود . إنه قد عرف أجمل الجميلات ومتع النفس بكل شىء فى الحياة . وهو الآن يطلب أن يرى ذلك الجمال الفذ الذى أجمع الناس منذ أقدم العصور على أنه شىء فريد فى الوجود ليس هناك ما يضاهيه فى أى زمن من الأزمان ولا فى أى قطر من الأقطار ، ألا وهو جمال هيلانة طروادة . نعم إن الإمبراطور يطلب إلى فاوست كبير وزرائه أن يأتيه بهيلانة طروادة !

ويفزع فاوست إلى مفيستو ليعينه على ذلك بما لديه من قوة خارقة للطبيعة فيزوده مفيستو بمفتاح سحرى ويرشده إلى قائمة فى مكان سحيق عميق يجد فاوست فيه أطياف الموتى جميعاً منذ آدم إلى ذلك اليوم ، فبهذا المفتاح السحرى يستطيع فاوست أن يقود طيف هيلانة طروادة إلى عالم الأحياء .

ويقيم الإمبراطور حفلا فى بلاطه ليعرض فيه فاوست هيلانة وعاشقها باريس بطل طروادة الذى اختطفها من زوجها مينلاوس وينجح فاوست فى استحضار هيلانة وباريس ولكن سرعان ما تتبخر هيلانة فى الفضاء حين يتعلق بها فاوست ليحول بينها وبين باريس .

وبعد أن يعلِّم مفيستو فاوست علم السيمياء الذى به يخلق الأطياف ينتقل به إلى ما هو أفظع من ذلك . لقد وعده بكل ما فى العالم من ملذات وقد بر بوعده ووعده بثراء لا حدود له فبر بوعده . ولم يبق أمام فاوست إلا شىء واحد وهو أن يتشبه بذات الله فيجرب أن يخلق الخلائق .

وهكذا علم مفيستوفوليس فاوست العلم المحرم فجعله ينشىء معملا من معامل

الكيمياء فيه من الأنابيق ومن البواتق والأنابيب والأحماض والمساحيق كل ما يحتاج إليه العالم وكل ما ورد فى الطبيعة من عناصر ومواد . . مضافاً إليه شيء هو قوة مفيستو وعلمه الأسود .

ويوفق فاوست إلى خلق إنسان صناعى فى معمله .

ويكون هذا أكبر آثامه .

والآن وقد كان له كل ما أراد تحين ساعة القصاص . وينتصف الليل . ويجلس فاوست فى انتظار النهاية المحققة لقد انتهت مدة العقد المبرم بينه وبين مفيستوفوليس . لقد وعده مفيستو أن يتبعه كالخادم المطيع الذى لا يعصى لسيده أمراً ما دام حياً يسعى على وجه الأرض . والآن إذ تجيء الساعة ويأتيه الحمام لم يبق إلا أن يفى بعهده ويتبع مفيستو فى العالم الآخر يقوده أينما يريد ولسوف يقود مفيستو روحه بين عرصات الجحيم وأبهائه وطبقاته .

ويسقط فاوست صريعاً .

وحين يحمل إلى مثواه الأخير تجتمع حول قبره ثلة من الزبانية لتحمل روحه إلى الجحيم ولتنهشه نهشاً .

ولكن سرعان ما تهبط من السماء كوكبة من الملائكة لتحيطه بسياج من الحب والغفران . وتنثر الملائكة على قبره الورود وتجعلها تتضوع بأطيب العطور . وترتعد الزبانية أمام الملائكة .

وهكذا تصعد روح فاوست ، درجة درجة فى طريقها إلى الفردوس فى الأعالى ، وتلتقى فى هذه الطريق بالخطاة التائبين ، وتلتقى بروح مرجريت التائبة تسبح مرفرفة نحو السدرة العليا .

وحين يسأل مفيستوفوليس عن السر الخطير الذى جعل الملائكة تنتزع فاوست من قبضة الشياطين ، يجاب بأن للحب يداً شافية تشفى جميع الذنوب ، وهذا الحب بعضه على الأرض وكله فى السماء فطوبى للمحبين .

بيت الدمية

الكاتب النرويجى هنريك إبسن

أسرة صغيرة تعيش فى بلدة من بلاد النرويج ، قوامها رجل محترم يدعى تورفالد هيلمر وزوجته الجميلة الشابة نورا هيلمر التى تعيش بين زوجها وأطفالها الثلاثة فى سعادة تامة . ولكنها رغم مرور ثمانى سنوات على زواجها لا تزال كالطفلة الغريرة اللاهية التى لا تعرف من أمور الدنيا شيئاً ، يدللها زوجها كأنها دمية وتدلل أطفالها كأنهم دمى . ويتردد على الأسرة صديق واحد مسن هو الدكتور رانك ، فلا يكاد يمر يوم إلا وتراه فى بيت هيلمر يجلس مع رب الدار وربته حول المدفأة يتجاذبون أطراف الحديث . وغير هؤلاء تلتقى بالمربية العجوز آنا التى تسهر على أطفال نورا كما كانت تسهر على نورا نفسها وهى صغيرة ، ثم خادمة فى دار هيلمر ثم سيدة تدعى مسز كرستين ليند ، كانت من زميلات نورا هيلمر فى المدرسة وباعدت بينهما الحياة زمناً طويلا ، ولكن كرستين ليند عادت أخيراً إلى بلدتها لتجد فيها الاستقرار ولكن أهم من نلتقى به رجل يدعى كرجستاد ، يعمل صرافاً فى البنك الذى كان تورفالد هيلمر مديراً له ، ودخل حياة آل هيلمر ، فكاد أن ينزل بها كارثة دامية . ولكن القدر شاء أن تحول الكارثة الدامية إلى كارثة من نوع جديد ، كارثة يحار أمامها العقل والضمير ، ولا نعرف إن كان فيها خلاص آل هيلمر أم فيها شقاؤهم .

واليوم يستعد آل هيلمر للاحتفال بعيد الميلاد ، وفى دارهم البسيطة الجميلة تضع نورا هيلمر شجرة عيد الميلاد وبجوارها سلة فيها الكثير من الهدايا ومن الأشرطة الفضية والكور الملونة التى يزين بها القوم شجرة عيد الميلاد . وتعلق نورا الهدايا التى اشترتها لزوجها وأطفالها وخدمها على الشجرة ، وتطلب إلى خادمتها هيلين أن تخفى الشجرة وما عليها من هدايا حتى يأتى المساء فتزعم أمام أطفالها أن سانتا كلوز هو الذى جاءهم بهدايا العيد .

ويدخل هيلمر على زوجته فيجدها تغنى وهى تزين الشجرة وترتب الهدايا الكثيرة . فيقبل عليها حانياً معاتباً لأن نورا أسرفت فى الإنفاق على هدايا العيد ، وهو يلقبها بطيره الغرد وبسنجابه الصغير ، فهذه كانت أسماء التدليل التى يغدقها عليها ويناديها بها دون انقطاع وتقول نورا إنه لا محل لاحتجاج زوجها الحبيب تورفالد لأنه الآن ميسور الحال ، وهذا أول عيد من أعياد الميلاد يجوز لهما فيه أن ينفقا بسخاء . فبعد أيام قليلة يصبح تورفالد العزيز مديراً للبنك الذى يعمل فيه ابتداء من أول السنة الجديدة ويرتفع مرتبه .

ولكن هيلمر يرى أن طيره الغرد وسنجابه الصغير لا يقدر عواقب الأمور . فنورا تقول إنها لا ترى بأساً من اقتراض خمسين جنيهاً للإنفاق على أسبوع الأعياد ، ولكن ماذا يحدث لو خرج تورفالد هيلمر إلى الشارع وسقط على رأسه حجر فأرداه قتيلا ؟ ومن أين لنورا بالمال لرد هذا الدين ؟ إنها تقول إن هذه أفكار بشعة لا يجوز التفكير فيها ، ولو حدث أن مات زوجها الحبيب تورفالد فستكون ديونها آخر مصدر لهمومها وأحزانها ، ولكنها مخطئة لأنها يجب أن تفكر فى حقوق الدائنين . إنها تعلم رأيه فى الموضوع : لا ديون ولا اقتراض ، فحياة الأسرة تخلو من الجمال ومن الحرية إذا اعتمدت الأسرة على الديون والاقتراض .

ويشيع الحزن فى وجه نورا فيقبل عليها تورفالد قائلا إن طيره الغرد لا يجب أن يكون أبداً كسير الجناح ، وأن سنجابه الصغير لا يجب أن يكون أبداً غاضباً أو حزيناً . ويعطيها من محفظته جنيهين كاملين . وهو يسألها عما تريد هدية فى العيد . فتتردد نورا قليلا ثم تقول لزوجها العزيز لو أراد إرضاءها أعطاها المال بدلا من أن يعطيها الهدية ، وهى ستشترى ما تحب حين يأتى الوقت المناسب . ويتذمر تورفالد من هذا الطلب فنورا تنفق بغير حساب ، وهى قد ورثت عن أبيها المتلاف هذه الخصال الذميمة ، فكل درهم يذوب فى كفها . ولكن تورفالد هيلمر لا يلبث أن يسلم بالأمر الواقع . إنه لا جدوى من مناقشتها ، فالإسراف يجرى فى دمها بالوراثة ، وهو راض بطيره الغرد على حاله ، بل هو لا يريد من سنجابه الصغير أن يغير شيئاً من طباعه .

ويطوق هيلمر نورا بذراعه قائلا إن أيام فقرهما قد انتهت . ولكم أحزنه فى

الماضى أن تسهر نورا الليالى لتعد هدايا العيد وتعد ثياب الأطفال ، ولكنها لن تحتاج إلى ذلك بعد الآن . ويهم بشرح مشروعاته الجديدة بعد أن أصبحت وظيفته مؤمنة وارتفع دخله ، ولكن الجرس يدق فيتوارى هيلمر فى مكتبه قائلا إنه لا يريد أن يقابل أحداً حتى يفرغ من أوراق البنك الكثيرة .

وتدخل سيدة على نورا . فلا تتبين نورا شخصيتها أولا ولكنها لا تلبث أن تتعرف عليها . فهى مسز كرستين ليند التى كانت منذ عشر سنوات طويلة من أقرب صاحباتها إليها فى المدرسة . وهى لم ترها من عشر سنوات . إن كرستين قد تغيرت كثيراً . فهى الآن ناحلة شاحبة . لقد تركت البلدة منذ سنوات وتزوجت فى بلدة مجاورة وها هى ذى الآن تعود بعد أن ترملت . ونورا آسفة لأنها لا شك قد شقيت كثيراً بموت زوجها . ولكن كرستين تجيبها فى هدوء إنها لم تشق لموت زوجها . إنه تركها بلا أطفال ، ولم يترك لها شيئاً تذكره به حتى الأحزان . إنها وحيدة فى هذا العالم تعيش بغير هدف أو غاية . وهى قد تعودت أن تعمل وهى قد جاءت إلى البلدة لتبحث عن عمل . وهى ترجو أن يساعدها تورفالد هيلمر فى الحصول على وظيفة فى البنك بعد أن أصبح مديراً له .

وتعد نورا كريستين خيراً قائلة إن زوجها قد غدا رجلا ذا نفوذ . وأحسن ما فى الأمر أن دخله قد ازداد . فهى الآن تستطيع أن تعيش عيشة منعمة وأن تنفق عن سعة . إن أيام الضنك انتهت . إنها حقاً امرأة مسرفة ولكن من الخطأ أن تحسب كرستين أن السنوات الثمانى التى قضتها نورا مع زوجها كانت كلها شهداً ولبناً . فهى على العكس من ذلك كانت سنوات كفاح .

إن زوجها تورفالد ترك مكتب المحامى الذى كان يعمل فيه سنة زواجهما ؛ لأنه وجد أن المستقبل مغلق أمامه ، وكان لابد أن يزيد دخله فأرهق نفسه فى العمل أثناء العام الأول إرهاقاً شنيعاً حتى أصابه السل ولزم الفراش وساءت صحته فلم يعد له شفاء إلا أن يرحل عن النرويج ليستجم شهوراً فى شمس الجنوب الدافئة بأمر الأطباء . وقد سهرت هى الليالى تطرز وتشتغل بأشغال الإبرة والكروشيه وتنسخ القضايا وتزاول شتى الأعمال القاسية لتعود على الأسرة بشىء من المال . وحين رأت صحة زوجها تتدهور وعلمت من الأطباء أنه لن ينقذ حياته إلا شمس الجنوب حصلت من أبيها

على مبلغ جسيم هو مائتان وخمسون جنيهاً . وهكذا استطاعت أن تقضى مع تورفالد ووليدها الأول إيفار أجازة ممتعة فى إيطاليا بجزيرة كابرى . إن أباها المسكين كان على فراش الموت قبيل سفرها وهى لم تستطع أن تسهر عليه لأنها كانت تنتظر مولودها إيفار ، وكان لابد من رحيلها إلى إيطاليا مع زوجها العليل . وقد عادت بعد أن شفى زوجها شفاء تاماً ولكن أباها المسكين كان قد استراح فى قبره . وهكذا ترى كرستين أن أيام نورا الماضية لم تكن خالية من الأحزان ولكن كل شىء قد صار درجة درجة إلى أحسن حال وهى الآن فى أتم سعادة مع زوجها الموفق وأطفالها الثلاثة الأصحاء لا ينقصهم شىء فى الحياة . ويرنو لهم الغد بعين باسمة .

أما كرستين فقد كانت لها قصة أخرى فقد حطمت حياتها فى سبيل ذويها . كانت أمها طريحة الفراش . وكان أخواها الصغيران بغير عائل . وجاءها رجل لا تحبه هو مستر ليند يعرض عليها الزواج فرضيت به زوجاً لتعين أسرتها . وكان مستر ليند رجلا ميسور الحال عندما تزوجته ولكن أحواله المالية تدهورت وحين مات منذ ثلاثة سنوات لم يترك لها شيئاً . فتقلبت من عمل إلى آخر تصل الليل بالنهار لتكسب الكفاف للجميع . أما الآن فقد ماتت أمها وبلغ أخواها سن العمل والتحق كل منهما بوظيفة يكسب منها قوته فليس هناك من يعتمد عليها . إنها لا تشعر بالفرح كما تقول نورا . لأنها كانت فى الماضى تحس بأنها تعمل فى سبيل هدف . أما الآن فهى تعيش بغير هدف ، وليس هناك من هو بحاجة إليها وهى لهذا قد عادت إلى بلدتها لتبحث عن عمل منتظم تشغل به نفسها . إنها حقاً متعبة كما تقول نورا وهى حقاً بحاجة إلى الراحة والاستشفاء . ولكن نورا تنسى أن كرستين ليس لها أب يعطيها مائتين وخمسين جنيهاً لتستشفى بها . إن نورا لا تعرف شيئاً عن قسوة الحياة . وإذا كانت قد شقيت عاماً أو عامين فهى لا تعرف معنى الكد المتواصل أو الهموم التى لا تنقطع .

ولكن نورا تجيبها قائلة إن كريستين ليست وحدها التى كابدت فى سبيل الغير وعرفت الآلام . إن كل من حول نورا يعتقد أنها دمية جميلة لا تحمل هماً ولا تلقى بالا لشىء . ولكن لو عرفت كريستين الحقيقة غيرت رأيها . والحقيقة أن نورا هى التى أنقذت زوجها تورفالد من الموت المحقق . أنقذته وحدها ، ودون

معونة من أبيها كما زعمت أمام تورفالد وأمام الجميع . الحقيقة أن أباها لم يعطها درهماً واحداً ، ولما رأت زوجها يشرف على الموت اقترضت المبلغ اللازم للرحلة دون علمه ، وهى منذ ذلك اليوم تسدد أقساط الدين بانتظام . وتدخر من ميزانية الأسرة ومن ثمن ثيابها سراً ، لتفى بالأقساط ، كل ذلك وزوجها يحسب أنها امرأة مسرفة متلاف . وهى لم تف بعد بكل الدين فلا يزال عليها منه جزء كبير .

هذا هو السر الذى تحتفظ به نورا ولا تطلع عليه أحداً ، وهى تنهى كريستين عن الإفضاء به لزوجها .

وتذهل كريستين لمسلك نورا ، وتعتقد أنها أتت أمراً معيباً ، فما يصح لزوجة أن تقترض مالا دون إذن زوجها ، وتقول إن هذا طيش من نورا عظيم . ولكن نورا تقول وهل طيش أن تنقذ امرأة زوجها من الموت ؟ لكم حاولت أن تقنع تورفالد أن يقوم بهذه الرحلة ، ولكنه أبى أن يقترض درهماً واحداً ، وكان يؤثر أن يتعرض للموت بالسل على الاقتراض ، ولكم جربت أن تقنعه أن يسافر إلى الجنوب مرضاة لها فكل العرائس يقضين شهر العسل فى الخارج لقد جربت معه الدموع والإلحاف ولكنه رفض رفضاً باتاً وغضب حين ذكرت أمامه فكرة الاقتراض . فلما رأت السل يفتك به فتكاً وضاقت حيلتها ، كذبت عليه وزعمت أن أباها أعطاها ذلك المبلغ الجسيم . وهى إلى اليوم تسدد الأقساط مما تدخره . وهى لا تدخر كثيراً من ميزانية البيت لأنها تعلم أن تورفالد بحاجة إلى الطعام المغذى ، كما أن أطفالها يجب أن يظهروا بالمظهر اللائق بهم . فأكثر ما ادخرته كان من ثمن ثيابها ومما تكسبه من أعمال النسخ المضنية التى كانت تقوم بها ليلا دون علم من زوجها . وهى لا تعرف بالضبط كم دفعت وكم بقى من دينها فعقلها لا يفهم الحسابات وفوائد الديون . وكم مرة بلغ بها اليأس مبلغاً فذهبت تستسلم للأحلام الصبيانية فتحلم بسيد عجوز يعجب بها إعجاباً صامتاً ، ويموت هذا السيد وحين يفتح الناس وصيته يجدون أنه أوصى بكل ما يملك «للسيدة الجميلة مسز نورا هيلمر» .

ويدق الجرس ويدخل كروجستاد طالباً لقاء هيلمر . وتضطرب المرأتان لرؤيته ، أما كريستين فترتجف وتتجنب لقاءه وأما نورا فتستفسر منه فى لهفة عما جاء من أجله ، وحين تعلم منه أنه ماجاء إلا فى شأن من شئون البنك يعود إليها

اطمئنانها ، وتقوده إلى حجرة زوجها . وحين تنفرد كريستين بنورا تسألها عن هذا الزائر من يكون فتعلم منها أنه المحامى كروجستاد فتقول نورا إنها تبينته رغم أنه تغير كثيراً ، فقد كانت تعرفه منذ سنوات عديدة . وتقول نورا إنه تزوج زواجاً تعساً وهو الآن أرمل ويعول عدة أطفال .

ويدخل عليها الدكتور رانك صديق الأسرة . وتقع عينيه على بقايا الحلوى الموضوعة على المائدة فيعنف نورا على عصيانها أمر الطبيب ، فهو قد نهاها عن أكل الحلوى . وبعد قليل يدخل هيلمر بعد أن تخلص من زائره كروجستاد ، فتعرفه نورا على مسز كريستين ليند وتوصيه أن يجد لها عملا فى البنك . وحين يعرف أن مسز ليند ملمة بإمساك الدفاتر يعدها بتوظيفها فى البنك . وتنصرف كريستين ليند مغتبطة لتبحث عن غرفة مفروشة تقيم فيها .. على أن تعود فى المساء . وكذلك ينصرف الدكتور رانك ومعه هيلمر وتنصرف نورا لملاعبة أطفالها .

ولكن كروجستاد لا يلبث أن يعود . وتحاول نورا التخلص منه قائلة : إن زوجها خارج الدار ، فيجيب أنه جاء هذه المرة ليحدثها لا ليحدث زوجها . وتقود نورا أطفالها إلى غرفة أخرى . وحين تعود تذكر كروجستاد أنه جاء قبل موعد القسط . وعليه أن ينتظر حتى أول الشهر . ولكن كروجستاد يجيب أنه لم يأت فى طلب القسط ولكن جاء فى أمر آخر . إنه رأى مسز ليند عندها وهو يعرفها معرفة قديمة ، وهو يريد أن يسأل إن كانت مسز ليند ستعين فى وظيفة بالبنك . وتغضب نورا هيلمر لدخول كروجستاد فيما لا يعنيه وتذكره بأنه مجرد موظف صغير فى البنك وليس له أن يخوض فى شئون مديره . ومع ذلك فإن كان يهمه أن يعرف فليعرف أن مسز ليند ستعين فى البنك وأنها هى التى أوصت بتعيينها .

وهنا يقول كروجستاد أنه جاء يطلب منها أن تستخدم نفوذها عند مستر هيلمر لتؤدى له خدمة ، وهى أن يبقيه فى وظيفته الصغيرة بالبنك . إنه يعلم أن مستر ليند وراء طرده من البنك ، لما بينهما من أشياء قديمة ، وأنها استخدمت صداقتها بمسز هيلمر لفصله من عمله . وهو لا يطلب منها إلا أن تتوسط له عند زوجها ليبقيه فى وظيفته .

وترفض مسز هيلمر أن تحدث زوجها فى شىء من هذا القبيل فهذه

أمور البنك وهى لا دخل لها بها . فيقول كروجستاد إنه مستعد أن يدافع عن وظيفته الصغيرة دفاعه عن حياته نفسها . إن كل الناس تعرف أنه ارتكب غلطة منذ سنوات عديدة . ومع أن الأمر لم يصل إلى القضاء فإن هذا كان بداية حياته التعيسة ، فقد أوصدت فى وجهه أبواب الرزق ، فاشتغل بالربا ، وهذا ما فعله معها ومع غيرها ليعيش . ولكن هذه الوظيفة التى حصل عليها فى البنك كانت بداية حياته الشريفة . فهو الآن رب أسرة ، وهو يريد من أجل أولاده أن يكون موضع احترام الناس ، ولن يسمح لأحد أن يرده إلى الحمأة التى خرج منها . ولو كان مستر هيلمر نفسه أو مسز هيلمر نفسها .

وتؤكد له مسز هيلمر أن مسز ليند لا يد لها فى فصله من عمله وأنها شخصياً تجهل كل شىء عن هذا الموضوع ، وأنها لا تملك أن تساعده فى شىء .

وهنا يستأسد كروجستاد قائلا : إنه سيرغمها على ذلك . إنه سيطلع زوجها على القرض الذى اقترضته منه دون علمه . فتقول غاضبة . هذه نذالة . افعل ما بدا لك . وسيعرف زوجى مدى نذالتك ولن ينفعك هذا فى استرداد وظيفتك .

ولكن كروجستاد كان يخبئ لها ضربة كبرى . إن مسز هيلمر بعد ثمانية أعوام قد نسيت بعض الوقائع الصغيرة فى عملية القرض . ولو أعلن هو هذه الوقائع لقضى ذلك عليها وعلى زوجها . إنها نسيت أنه لم يعطها القرض إلا بعد أن تعهدت بأن يوقع أبوها على ضمان السداد . وأنها قد أعادت إليه وثيقة الضمان بعد أسبوع وعليها توقيع أبيها . ولكن التاريخ المثبت يقول ٢ أكتوبر وأبوها قد توفى فى ٢٩ سبتمبر . فعليها إذن أن تفسر للمحكمة كيف وقع أبوها ضماناً مالياً بعد ثلاثة أيام من وفاته وأن تعترف باسم المزور .

وتضطرب مسز هيلمر وتقول إنها هى التى وقعت إمضاء أبيها دون أن ترى فى ذلك حرجاً ، فهى تعلم أنها لو كانت طلبت منه التوقيع لما تردد . ولكنه كان على فراش الموت . ولم يكن من المعقول أبداً أن تبلغه بخطورة حالة زوجها وهو فى هذه الحالة الخطرة . إن دوافعها كانت نبيلة وهى لا تخشى شيئاً . فليفعل مستر كروجستاد ما يشاء فتهديده لا يخيفها .

ويذكرها كروجستاد بأن القانون لا دخل له بالعواطف النبيلة والعواطف

الحسيسة وإنما هو يتعرض للوقائع ، وهذه فى نظره واقعة تزوير . وعلى المزور أن يدفع ثمن جريمته ، فكروجستاد لن ينزل وحده إلى الحضيض .

وينحنى كروجستاد وينصرف . تاركاً نورا هيلمر فى دوامة من الأفكار المضطربة .

ويعود تورفالد هيلمر إلى داره فيجد زوجته مرتبكة . وتنفى نورا أن زائراً زارها فى غيابه . فيقول هيلمر عاجباً إنه أبصر وهو قادم كروجستاد خارجاً من باب الحديقة . إنه يفهم الآن . لقد جاء كروجستاد راجياً نورا أن تتوسط لديه ليعيده إلى خدمة البنك ولكن هيلمر يربأ بزوجته أن تكون قد وعدت بشىء من هذا القبيل . ثم إنها كذبت حين أخفت منه أمر الزيارة . إن طيره الغرد لا يجب أن يدنس صوته الصداح بالأكاذيب ، أو بالدفاع عن الموظفين سيئى السمعة . يجب أن تعده نورا بألا تثير موضوع كروجستاد فى أى وقت من الأوقات . إنها لا تعلم أن هذا الرجل كان مزوراً ، فقد زور منذ سنوات إمضاء رجل آخر ليحصل على المال . إن هيلمر شخصياً يعتقد أن الظروف السيئة دفعت كروجستاد إلى هذه الجريمة . وقد كان من الممكن له أن يسترد شرفه ويعود إلى الحياة المستقيمة لو أنه اعترف أمام القضاء بجريمته ودفع الثمن . ولكن كروجستاد لجأ إلى حيلة أنقذته من السجن . وهو يعيش فى عالم من الأكاذيب .، ويلبس قناع النظافة أمام أولاده وأسرته . نعم ، إنه يفسد أطفاله لأن جو أسرته موبوء بالأكاذيب ، وأطفاله ينشأون فى جو من النفاق . لهذا فهو ينتظر من نورا ألا تدافع عن كروجستاد أبداً ، ولا بد أن تعاهده على ذلك . . إنه يحس بالغثيان كلما وجد نفسه فى صحبة شرير من هؤلاء الأشرار .

وينصرف هيلمر إلى مكتبه بعد أن يطوق طيره الغرد وسنجابه الصغير بذراعه ويقبله قبلة الراضى عن نفسه وعن المحاضرة التى ألقاها عن الأخلاق .

وتقف نورا ذاهلة . ويندفع إليها أطفالها يتلاعبون . فتنظر إليهم مرتاعة وتهمهم : محال . . . محال . . . ليس هذا صحيحاً . . ألوث أطفالى ! أسمم أسرتى !

وفى المساء تعود مسز كرستين ليند لزيارة هيلمر لتساعدها فى إصلاح ثوبها الذى ستلبسه فى حفلة الكريسماس التى يقيمها الجيران آل ستنبورج ؟ فستر هيلمر

يريد أن تبهر نورا الضيوف بثوبها الإيطالى ورقصها النابوليتانى حين تظهر بينهم فى زى صياد من نابولى وتعرض عليهم رقصة التارنتيلا التى تعلمتها فى جزيرة كابرى .

ويدور حديثهما حول الدكتور رانك ، فتلاحظ كريستين أنه كان منقبض الصدر ،فتعلم من نورا أن الدكتور رانك مصاب بداء وراثى عضال يتلف نخاعه الشوكى إتلافاً ، وأنه ورث هذا الداء عن أبيه الذى قضى حياته ساعياً وراء الملذات، فتفهم كريستين أن الدكتور رانك مصاب بالسفلس الوراثى وتنصح نورا أن تنهى علاقتها بصديق الأسرة هذا الأعزب العجوز الثرى ، خشية أن يستغل هذه الصداقة . وتظن كريستين أولا أن الدكتور رانك هو مصدر المال الذى اقترضته نورا ، فتنفى لها نورا ذلك وتهم باطلاعها على الحقيقة ، ولكن هيلمر يقبل عليها فتأخذ الثوب وتتوارى فى حجرة أخرى .

وتعود نورا إلى موضوع كروجستاد وترجو زوجها أن يبقيه فى وظيفته فيستاء هيلمر ويرفض بشدة ، فتلحف نورا فى الرجاء قائلة إنها تطلب ذلك حماية لزوجها لا لكروجستاد فهى تعلم أن كروجستاد قد يلطخ سمعته بالوحل فى الصحف المحلية القذرة التى يكتب لها كما فعل بأبيها من قبل . ولكن هيلمر يقول إن الأمر قد خرج من يده فهو قد اتخذ قرار الفصل وعين مسز ليند مكانه وهو لا يقبل أن يقال إن مدير البنك يخضع لتأثير زوجته ثم إنه يمقت كروجستاد مقتاً خاصاً فقد كانا معاً فى المدرسة وكروجستاد يدأب على مخاطبته مخاطبة الند للند فى البنك ويحرجه أمام مرءوسيه . أما حكاية التشهير فى الصحف فهو لا يقيم لها وزناً لأنه فوق مستوى الشبهات .

وينادى هيلمر الخادمة هيلينا ويعطيها خطاباً ويأمرها بأن تضعه فى صندوق البريد . ولما تنصرف الخادمة تعرف نورا من زوجها أن ذلك الخطاب إنما كان خطاب فصل كروجستاد وتناشد زوجها أن يخرج لاسترداد الخطاب فيسكتها هيلمر قائلا إنه يغفر لها هذا الانزعاج الشديد فهو يعلم أن انزعاجها من خوفها عليه ، ولكنها تنسى أنه رجل شجاع لا يخشى شيئاً . وأن عنده من الرجولة ما يجعله يحمل وحده كل لوم .

ويدلل هيلمر طائره الغرد وسنجابه الصغير قليلا ثم ينصرف إلى مكتبه وأوراقه .

وتقف نورا وحدها مرتاعة . إنها تعرف زوجها جيداً . إنه رجل شجاع متفان فى حبها . ولو أظهر كروجستاد الوثيقة المزورة حمل تورفالد عنها مسئولية التزوير . لا . لا . لن يكون هذا . لابد أن هناك طريقة للخلاص من هذا المأزق . . . ولو بالانتحار .

وفيما هى حائرة بين أفكارها السوداء يقبل عليها الدكتور رانك . إنه يريد أن يفضى لها بشىء . إنه يعلم الآن أنه رجل محكوم عليه بالإعدام . إن المرض الخبيث المستشرى فى نخاعه الشوكى هو السفلس ، وهو يعلم أن النهاية قادمة لا ريب فيها ، وحين يحس بالنهاية تقترب سينزوى وحده فى مكان لا يعرفه إنسان حتى يواجه منيته وحده . ولكنه سيرسل لها بطاقته وعليها رسم صليب أسود . فتفهم بذلك أن النهاية حانت . إن أمامه فحصاً طبياً واحداً ، وبعد هذا الفحص سيعرف متى يدب فى جسده الانحلال الأخير . إنه لا يأسف على موته ولكنه يأسف على أنه يدفع ثمن ملذات جناها غيره . إنه لا يريد أن يشهد صديقه تورفالد نهايته البشعة .
وتحاول نورا أن تطرد عنه هذه الأفكار السوداء قائلة إنها ترجو منه معروفاً ويجيب الدكتور رانك أنه يضحى بحياته من أجلها لو طلبت منه ذلك . إنه عازم على أن تعرف نورا كل شىء قبل أن ينصرف ولا يعود . إنه يحبها حباً بغير حدود إنه يعبدها .

وتنهره نورا قائلة : كفى ! كفى ! ألست خجلا من نفسك يا دكتور رانك ؟ ثم تبتسم وتقول : لن تمضى عنا بغير عودة ؛ فتورفالد وأنا لا نستغنى عنك .

ويمضى الدكتور رانك إلى مكتب صديقه تورفالد ، وتأتى الخادمة قائلة إن كروجستاد جاء من الباب الخلفى وهو لا يريد أن ينصرف قبل أن يراها . ويدخل كروجستاد ويدور الحديث بينهما بصوت خفيض . إنها لم تستطع منع زوجها من إرسال خطاب الفصل . ويقول كروجستاد إن فى جيبه خطاباً لزوجها يبلغه فيه بكل شىء ، فى أخف لغة ممكنة . وتعرض عليه نورا مالا ليعدل عن إرسال الخطاب ، فيرفض . إنه لا يقبل مالا : ولو كان كنوز الدنيا . إن كل ما يطلبه هو وظيفته ، ورد اعتباره بترقيته ، وهذا فى يد هيلمر . إن نيلز كروجستاد يعرف تورفالد هيلمر حق المعرفة ، يعرف أنه يخشى الفضيحة ويفعل أى شىء لتجنبها ، ولو كان فعلا

سافلا . إن نورا هيلمر تعرف زوجها حق المعرفة ، تعرف أنه لن يقدم على عمل خسيس مهما كانت النتائج ، ولن يظفر كروجستاد منه بشيء . إنها ستغرق نفسها فى البحيرة إذا أرسل كروجستاد الخطاب . ولكن كروجستاد لا يلتفت لكلامها قائلا إن من الخير لها أن تعدل عن هذه الأفكار لأن موتها نفسه لن يخرج سمعتها من قبضته . ثم ينصرف ، وفى طريقه إلى الخارج تراه نورا يضع الخطاب فى صندوق الخطابات الخاص بزوجها ، فتفلت منها صرخة ارتياع مكبوتة .

وتدخل عليها كريستين ليند حاملة الثوب بعدما أصلحته . وتصارح نورا كريستين بحقيقة أمرها مع كروجستاد . ترى ما العمل ! ترى ما العمل ! إن زوجها وحده يحفظ مفتاح الصندوق . لا ترى مخرجاً ، وقد حزمت أمرها على شيء إن كريستين وحدها تعرف حقيقة الوثيقة المزورة . فإذا اضطر الأمر نورا إلى الغياب عن دارها وأراد أحد أن يتحمل المسئولية عنها وجب أن تشهد كريستين بالحقيقة . إنها وحدها المسئولة عن كل شيء . .

وتحاول كريستين أن تهدئ من روعها أنها ستقنع كروجستاد باسترداد خطابه غير مفضوض قبل أن يطلع هيلمر عليه . إن نورا لا تعلم أن كروجستاد كان فى يوم من الأيام يتمنى أن يفعل أى شيء مرضاة لكريستين .

ويأتى هيلمر باحثاً عن بلبله الصداح لابد أن تتدرب نورا على رقصة الترانتلا استعداداً لحفلة الغد . إنه خارج لاستحضار بريده وسيعود بعد دقيقة . وتستوقفه نورا وتتضرع إليه أن ينسى البريد وكل شيء حتى ينتهى الحفل . ويعجب هيلمر ولكنه يرضخ . ويجلس إلى البيانو فيبدأ التدريب ، وترقص نورا رقصة التارانتلا رقصاً هستيرياً سريعاً . وحين يراها هيلمر على هذه الحال يوقف الرقص ويصطحب طيره الغرد إلى حجرة الطعام .

أما كريستين لند فقد مضت إلى بيت كروجستاد فعلمت أنه غادر البلدة ولن يعود إلا فى اليوم التالى . فتركت له رسالة تطلب مجيئه لمقابلتها عند آل هيلمر حال عودته .

ويصل كروجستاد فيجد كريستين فى انتظاره . بينما الحفل دائر والموسيقى صاخبة فى بيت الجيران . ويستفهم كروجستاد فى خشونة عما تريده كريستين

إنها تعرف أن كل علاقة بينهما انقطعت منذ سنوات .

فتقول : إنه أساء فهمها . فيقول : إن مسلكها لم يكن فيه شيء معقد : امرأة بلا قلب هجرت رجلا يحبها حين جاءها آخر أكثر مالا .. نعم ، هي فعلت ذلك . ولكنها على الرغم منها . فعلته وهي تتعذب لأن سعادتها الحقيقية كانت مع نيلز كروجستاد . ولكن كان لابد أن تقطع صلتها به ، بل أن تبترها بتراً . إنه لا يفهم مسئولية الإنسان عن أم مريضة وإخوة صغار كان لابد أن تقتل كل حب يحمله لها حتى لا يطاردها . إنها ضحت بحبها وسعادتها من أجل الغير ..

ويسمع كروجستاد كلام كريستين فيرق قلبه لها ويقول : « وأنا حين فقدتك ساخت الأرض من تحت قدمى . انظرى إلى ترى رجلا غريقاً يتشبث بحطام صغير .. » . وتقول لعل الفرج قريب . فيجيبها : لا أمل . إنها أخذت منه حتى هذا الحطام الصغير حين حلت محله فى البنك . إنه يصدقها حين تقول إنها كانت تجهل ما جرى . ولكن أهى على استعداد لرد وظيفته إليه ؟ وتجيبه كريستين أنها لو عرفت أن فى ذلك نفعاً له لعملته ولكنها تعلم أن هيلمر لن يرده إلى البنك .. ولكنها تحب أن يعرف أنها مثله غريق يتعلق بحطام صغير .. إنها وحيدة فى العالم فزوجها مات وأولادها يعملون .. وحياتها فارغة ، وهى التى تعودت العمل تحب أن تعمل من أجل شخص تعنى به إنها بحاجة إليه وهو بحاجة إليها .. وأولاده بحاجة إلى أم وهى تحب أن تكون أماً لأولاده . . فإن كان ما يزال يحبها فليتزوجا وينقذا ما بقى من حطام حياتهما ..

ولا يصدق كروجستاد ما يسمعه .. إنه ما يزال يحبها ، ولكن هل تعرف عنه كريستين كل شيء . نعم ، تعرف كل شيء .. ولكنه قال إن فى وسعه أن يصبح معها رجلا آخر نقياً فاضلا ، وهى تصدقه وتثق فى سلامة جوهره ..

وتعاتبه كريستين على مسلكه مع آل هيلمر فيبدى ندمه ويتمنى لو استطاع إصلاح ما فات فتقول كريستين إن خطابه ما يزال فى صندوق مستر هيلمر . . ويحسب كروجستاد أن كريستين إنما تساومه على نفسها لإنقاذ صديقتها . فتجيبه قائلة إنه مخطئ فمن ضحى بسعادته مرة من أجل الغير لا يعود لمثلها ويقول كروجستاد إنه ماض ليسترد الخطاب من هيلمر قبل أن يقرأه معتذراً بأنه مجرد رده على فصله

من الخدمة وهو يفضل أن يسحبه . . ولكن كريستين تقول إنها حقاً طلبت لقاءه أولا لتنصحه بذلك ولكنها بعد ترو عدلت عن رأيها ، وهى ترى أن من الخير لهيلمر ولنورا أن يقف الزوج على هذا السر الشقى فيصلا إلى تفاهم فى الأمر وتنتهى حلقات هذا الخداع .

ويمضى كروجستاد عندما يحس بنورا قادمة من بيت الجيران ومعها زوجها ، ومن بعده تمضى كريستين . ويدخل هيلمر ووجهه يتفجر بالسرور فقد كانت نورا درة الحفل وبهجته وكان بها جد فخور . . إن رقصة التارانتلا أشعلت النار فى دمه . . . وتنهره نورا وتقول إنها متعبة وتحب أن تنام . . ويدق الباب ويدخل الدكتور رانك وهو فى حالة من المرح غير طبيعية وبعد أن يمزح قليلا يقول لنورا إن أبحاثه الطبية قد انتهت إلى النتيجة الحاسمة التى كان ينتظرها وينصرف الدكتور رانك وهو فى حالة من الصفاء الغريب .

ويمضى هيلمر إلى صندوق بريده ويعود برسائله ، ويعجب إذ يجد بطاقة من الدكتور رانك عليها مجرد رسم صليب أسود ، ويقول منقبضاً : « يا لها من فكرة سوداء . . كأنما هو ينعى نفسه . . » . وتقص عليه فى اقتضاب ما قاله لها الدكتور رانك ، فيمضى هيلمر فى رثائه حتى توقفه نورا قائلة : « والآن اقرأ بقية الخطابات .

ويمضى هيلمر إلى مكتبه وتقف نورا زائغة العينين . هذه هى اللحظة . لقد عزمت على الانتحار . وتفكر فى أطفالها ويتصدع قلبها وتشهق فى تفجع وتفكر فى زوجها الذى قبلته قبلة الوداع وهو لا يعرف أنها قبلة الوداع .

ولكنه سيعرف عما قريب لن تسمع بعد الآن نجواه لها : « يا طيرى الغرد ! يا سنجابى الصغير ! إننى أتوق للموت فداء لك » . وتلف شيئاً على كتفيها وتخترق القاعة فى طريقها للبحيرة . ولكن هيلمر يخرج من مكتبه لاهثاً وهو ينتفض غضباً ويعترض طريقها وفى يده الخطاب ويصيح : « أصحيح هذا الذى أقرأ ؟ أجيبى ؟ » فتجيبه : « نعم صحيح . . لقد أحببتك أكثر من أى شىء فى الحياة . دعنى أمضى . . لن تستطيع إنقاذى ياتورفالد » . فيصرخ : « يا للشقية ! ماذا فعلت أيتها الشقية » ؟ فتقول نورا : « دعنى أمضى . فلن تدفع ثمن خطئى . لن تحمل الوزر عنى . » ويجيبها بخشونة : « لا مجال لهذه التمثيليات » . ويغلق الباب ،

ويطلب تفسيراً وهو هائج يصيح : « أتفهمين ماذا فعلت ؟ أجيبى ؛ أتفهمين ماذا فعلت » ؟

وتنظر نورا نظرة ثابتة باردة وتجيب : « نعم . الآن بدأت أفهم تماماً » .

ويذرع هيلمر أرض الغرفة جيئة وذهوباً وهو يزأر : بعد ثمانى سنوات كاملة ماذا أجد . . . كذابة . . منافقة هذه التى كانت محور سعادتى ومصدر فخرى . . بل أكثر من ذلك . . مجرمة يا للعار ! يا للعار ! يا لها من يقظة أليمة ! ولكن كان ينبغى أن يتوقع شىء من هذا ، فقد كان أبوها مجرداً من الأخلاق ، مجرداً من الدين ، مجرداً من الإحساس بالواجب . دمرت كل سعادته وحطمت كل مستقبله ووضعته فى قبضة آفاق . إنه لن يستطيع أن يرفض له طلباً .

وتجيبه نورا فى هدوء : عندما أخرج من حياتك ستسترد حريتك . فيعود هيلمر إلى صياحه : وماذا ينفعه أن تخرج من حياته ؟ إنه يستطيع إذاعة الفضيحة فى كل مكان حتى ولو خرجت من حياته ، وليس ببعيد أن يتهم هو بالاشتراك فى هذا التزوير ، بل الأرجح أن الناس سيظنون أنه دفعها إليه دفعاً . ياللشناعة ! يا للشناعة ! ولكن لابد من حل . لابد من إسكاته بأى ثمن . أما هو وهى فيجب أن يبدو كل شىء بينهما عادياً أمام الناس ، أمام الناس فقط . لابد أن تبقى تحت سقف بيته ، ولكنه لن يسمح لها بتربية الأطفال فهو لا يثق فى أخلاقها .

وتدخل الخادمة حاملة خطاباً موجهاً من كروجستاد إلى نورا . ويخطفه هيلمر من يد الخادمة صائحاً : إنه منه . . لن أعطيه لك . سأقرؤه بنفسى .

ويفض الخطاب بيد ترتعش وهو يتوقع أن يجد فيه ضربة أنكى من الأولى ولكنه لا يلبث أن يصيح طرباً : « لقد نجوت ! لقد نجوت يا نورا » . فقد وجد طى الخطاب الوثيقة المزورة وقد أعادها إليه كروجستاد مع كلمة اعتذار . ويصيح فى فرح صبيانى : قبل كل شىء آخر يجب تمزيقها . يجب إحراقها . ويمزق هيلمر الوثيقة والخطابين تمزيقاً عصبياً ويقذف بالأوراق فى المدفأة ويرقب احتراقها فى جذل . ثم يلتفت إلى نورا ويقول : مسكينة أنت يا نورا ! لابد أنها كانت محنة عصبية لك . ولكن الحمد لله كل شىء انتهى . ولننس هذا الكابوس المريع .

ولكن نورا تظل شاخصة إليه ببرود قاتل ، فيمضى هيلمر فى قوله : أنت

معذورة . أنت لا تصدقين أن كل شىء انتهى . نعم فهمت الآن . أنت لا تصدقين أنى صفحت عنك . أقسم لك أنى صفحت عنك ، فأنا أعلم أن حبك لى هو الذى دفعك إلى هذا .

فتجيبه نورا قائلة : « هذا صحيح . . وأنا أشكرك على صفحك عنى » . وتتأهب للخروج . لقد أفاقت على الحقيقة المرة . إنها ظلت ثمانى سنوات تعيش مع رجل غريب عنها. لقد كانت تحسب أنها تحبه وكان تحسب أنه يحبها ولكنهما كانا يعيشان فى وهم عظيم . إن تورفالد هيلمر لا يحب إلا نفسه. يا لحماقتها ! لقد توهمت أنه فارسها الذى سيضحى بنفسه لينقذها من العار ويتحمل تبعة الوثيقة المزورة ! لقد قررت أن تنتحر لتجنبه هذه التضحية ! ولكنها صحت الآن من حلمها ، وعرفت أن تورفالد هيلمر لا يفكر إلا فى تورفالد هيلمر . إنها عاشت ثمانى سنوات مع رجل لم تفهمه ولم يفهمها ، بل وأنجبت ثلاثة أطفال من رجل غريب ! أما هى فقد عاشت كالدمية لا تعرف شيئاً من حقائق الحياة . إن أباها عاملها معاملة الدمية . . فلم تتعلم منه شيئاً عن الحياة . إن تورفالد عاملها معاملة الدمية ولم تخرج منه بشىء غير كلامه المنغم فى زهو : « يا طيرى الغرد ! يا سنجابى الصغير » !

حتى أطفاله الثلاثة لم تعد تحس نحوهم بما ينبغى من شعور الأمومة . إنها ستتركهم له لينشئهم على مكارم الأخلاق هذه التى يجيد الحديث عنها . .

أما هى ، فهى ماضية رغم أن الليل قد انتصف ولا تعرف مكاناً تأوى إليه إلا غرفة صديقتها كريستين . إنها لم تتعود أن تنام فى منزل رجل لا تعرفه .

وتضع نورا معطفها على كتفيها وتخرج من دار هيلمر دون أن تلتفت مرة واحدة إلى الوراء .

الأشباح

للكاتب النرويجى هنريك إبسن

فى قرية من قرى النرويج تقيم سيدة تدعى مسز آلفنج. وهى أرملة مات عنها زوجها الكابتن آلفنج منذ سنوات طويلة . فهى تعيش فى دارها الريفية بمفردها . لا يؤنس وحشتها إلا خادمة شابة تدعى رجينا أنجشتراند . ثم أهل الجيرة وهم قلائل . فى ذلك الريف الوعر المطل على الخلجان الصخرية أو الفيورد ، التى تكثر فى ساحل النرويج الغربى . ولكن هذه الوحشة المديدة التى كابدتها مسز آلفنج قد انتهت إلى أنس وبهجة منذ أيام حين عاد ولدها الوحيد ، الشاب الفنان أوزوالد . من باريس حيث كان يدرس الرسم . عاد ليقيم مع أمه إقامة دائمة بعد أن غاب عنها السنين الطوال .

واليوم يوم غائم ومطير كأكثر الأيام فى تلك البقاع . وفى دار مسز آلفنج حجرة تطل على حديقة الدار . وعند باب الحديقة يقف أنجشتراند أبو الخادم الشابة . وهو نجار أعرج مشوه القدم يزلك فى سيره وقد لبس حذاء أحد نعليه من خشب ليصلح من مشيته .

ويحاول أنجشتراند دخول الدار ولكن ابنته رجينا ترده عن ذلك فى غلظة ، فهى تخشى أن يتلف البلل العالق بثيابه أثاث الحجرة ، وهى تخشى أن يوقظ وقع نعله الخشبى الشاب أوزوالد الذى ينام نوماً عميقاً رغم أن الظهر قد حل . ولكن النجار أنجشتراند إنما جاء ليقول لابنته رجينا إن أعمال النجارة التى تكفل بها فى مدرسة القرية سوف تنتهى بعد الظهر ، وإنه لراحل على أول سفينة إلى المدينة القريبة ، وهو لا يريد أن يعود إلى المدينة وحده بل يريد أن تصحبه ابنته رجينا إليها . فهو بحاجة إلى ابنته . عليها أن تترك خدمة مسز آلفنج وأن ترحل معه .

ولكن لرجينا رأياً آخر ، فهى تحتقر أباها ولا تجد فى سلوكه أو فى حياته

ما يغريها بأن تلازمه . وهو عربيد وضيع لا خلاق له ، أما هى فقد أنبتّها مسز آلفنج نباتاً حسناً وهذبتها أحسن تهذيب كأنها ابنتها . فإن كان النجار أنجشتراند يحسب أنها راحلة معه ، فهو واهم فى حسبانه . أما حقوق الأب هذه التى يقتضيها منها ، فهى لا تعترف بها ، فأنجشتراند ما عاملها فى يوم من الأيام كما ينبغى أن يعامل الأب ابنته . بل على العكس من ذلك لكم تبرأ منها وفى أكثر من مناسبة سبها أقذع السباب وكان لا يفتأ يقول لها إنها ابنة الزنا ويسب أمها قائلا إنها بغى ساقطة ، وما زال بها يحقرها ويعذبها حتى ماتت كمداً .

ويلحف أنجشتراند على ابنته أن ترحل معه ، ويحاول أن يغريها بكل ما يملك من قدرة على الاستعطاف وقدرة على الإغواء . فهو الآن وحيد بغير معين فى الحياة منذ أن ترمل وهو بحاجة إلى امرأة تسهر عليه . وهو قد ادخر مالا كثيراً قارب الخمسين جنيهاً من أعمال النجارة التى كان يقوم بها فى الملجأ ، وهو يقصد أن يستثمر هذا المال فى إنشاء مطعم للبحارة ، لا مطعم حقير لصغار البحارة وصعاليكهم المعربدين كما تحسب ابنته رجينا ، ولكن مطعم فخم فاخر للقبطانات وللضباط البحريين . ورجينا تستطيع أن تعينه على إدارة المطعم هذا . ولقد تجد بين رواده ضابطاً تروق فى عينه فيتزوجها ، فإن كان البحارة كما تقول رجينا قوم يحبون اللهو ولا يقبلون على الزواج ، فسوف تجد رجينا أيضاً فى اللهو جزاء سخيًّا . وهو يذكرها بأمها التى كانت تقل عنها جمالا وهى مع ذلك قد وجدت من بينهم بحاراً إنجليزيًّا يعطيها سبعين جنيهاً .

وتثور رجينا حين تسمع كلام هذا الأب السافل الذى يحرض ابنته على الفسق ، وتطرده شر طردة وتوشك أن تنهال عليه ضرباً . فينصرف أنجشتراند وهو يقول إن له إليها عودة . فهى ابنته كما تشهد بذلك سجلات القرية ، وللآباء فى بناتهم حقوق . والقس ماندرز آت بعد قليل من المدينة ليفتتح الملجأ الذى أنشأته سيدتها مسز آلفنج فى اليوم التالى ، وقد لجأ إليه أنجشتراند ، فهو خير من يعلم البنات العاصيات كيف تكون طاعة الآباء .

وما أن ينصرف النجار أنجشتراند حتى يصل القس ماندرز . وتعلن رجينا مجيئه لسيدتها مسز آلفنج ، فتقبل عليه سيدة الدار هاشة باشة وهى فى أسعد حال .

فالقس ماندرز صديق قديم لآل آلفنج وهو قد بر بوعده وجاء بعد غيبة طويلة ليدشن ملجأ الأيتام الذى أنشأته مسز آلفنج عند افتتاحه فى الغد . ولكن غبطة مسز آلفنج قد اكتملت لأن وحيدها السيد الشاب آلفنج قد عاد إليها من بلاد الغربة ليقيم معها طول الشتاء .

ويبرز القس ماندرز ما كان يحمله من وثائق وأوراق رسمية استصدرها من السلطات ليأخذ « ملجأ آلفنج للأيتام » وضعه الرسمى ، ومن هذه الأوراق عقد نقل ملكية الأرض من الأملاك العامة إلى ملكية الملجأ . وتطلب إليه مسز آلفنج أن يستبقى لديه كل هذه الأوراق والوثائق فهى قد اختارته قيماً على الملجأ ، وله أن يصرف أموره كما يرى ، وهى قد أودعت فى البنك مالا ينفق القس ماندرز من فوائده على الملجأ .

وعلى الجملة فكل شىء يسير سيره الطبيعى إلا أمراً واحداً يؤرق القس ماندرز ولا يعرف كيف يبت فيه بقرار فهو لا يعرف إن كان ينبغى أن يؤمن على الملجأ أم لا يؤمن . أما التأمين فواجب ، وكل الناس تؤمن على ما تملك ، ولكنه يخشى بوصفه من رجال الدين أن يرى المحافظون من علية القوم فى التأمين على الملجأ شكاً فى أن الله سيكلؤه برعايته . ولا تفهم مسز آلفنج هذا المنطق ، فهى امرأة متحررة واسعة الأفق . ولكن القس ماندرز يقيم وزناً كبيراً لرأى المحافظين فى تصرفاته ، ولا سيما أصحاب النفوذ منهم ، وأخيراً ترضخ مسز آلفنج لرأى القس ماندرز ، فهى التى فوضته ليصرف أمور الملجأ حسبما يرى ، ولكنها تبين له أنه لو حدث للملجأ حادث فهى لن تصلح فيه شيئاً .

وبعد أن يفرغ القس ماندرز من تسوية أمور الملجأ مع منشئته مسز آلفنج ، يفاتحها فى أمر الفتاة رجينا ، قائلا إن أباها أنجشتراند بحاجة إليها ، فهو رجل ضال ومن الخير أن تعود إليه ابنته وتنظم له حياته لعله يستقيم . وتأبى مسز آلفنج أن تنظر فى هذا الرأى فهى قد أعدت رجينا لحياة أنظف وأشرف من حياة أنجشتراند وهى قد رتبت لها عملا فى ملجأ الأيتام لتعنى بالصغار بدلا من أن تعنى بهذا الرجل السكير الفاسد الخلق . وتأبى رجينا نفسها أن تنظر فى نصيحة القس ماندرز وتتحدث عن أبيها فى زراية شديدة . وينبه القس ماندرز مسز آلفنج

والفتاة رجينا إلى ما يقوله الدين فى طاعة الوالدين ، ويؤنبهما على قسوتهما فى الحكم على هذا الرجل الضال أنجشتراند ، فهو ليس غولا كما تصورانه بل رجلا ضعيفاً لم يمت فيه الضمير ، وهو كثيراً ما يتردد عليه ويعترف أمامه بضعفه وأخطائه ويطلب منه المعونة لينهض من كبوته . فهو إذن رجل أجدر بالرثاء منه بالاحتقار .

ويقبل الشاب أو زوالد آلفنج بعد أن صحا من نومه على مسز آلفنج والقس ماندر ، ويرحب به القس ماندر ترحيباً . ولكنه يكتشف بعد دقائق أن له آراء فى الحياة شاذة أقرب إلى البوهيمية منها إلى معتقدات الناس المحترمين .

إن أوزوالد آلفنج ، قد عاش غريباً عن داره منذ أن كان فى السابعة من عمره ، وهو الآن فى السابعة والعشرين . وقد أخطأت أمه خطأ جسيماً حين أرسلته بعيداً عن دار والديه لينشأ فى مدارس الغربة ثم ليتعلم الفنون فى باريس . فماذا أصاب أوزوالد من كل ذلك إنه حقاً قد أصاب نجاحاً ملحوظاً كرسام . تعرض لوحاته ويشتريها الناس ويتحدث النقاد فى الصحف عن معارضه ، ولكن أصاب أيضاً حياة مضطربة لا استقرار فيها . فهو الآن يعيش بلا دار ولا أسرة ومن كان فى سنه فقد وجب أن يتزوج وأن يحيا حياة هادئة منتظمة بين زوجه وأولاده . فالخطأ إذن خطأ مسز آلفنج التى عرضت ولدها لهذه الحياة المضطربة ، والخطأ إذن خطأ الشاب أو زوالد الذى استمرأ حياة الفوضى التى يحياها الفنانون فى باريس . وقد كان ينبغى عليه أن يعود إلى داره ويعيش عيشة محترمة بين أهل القرية .

ويغضب أوزوالد . فهو لا يرى فى حياة الفنانين كل هذه البوهيمية والفسق والاضطراب الذى يزعمه القس ماندرز . وهو يعلم من اختباره فى باريس أن حياة الفنانين لا تقل هدوءاً وانتظاماً وشرفاً عن حياة هؤلاء المحترمين الذين يتحدث عنهم القس ماندرز . وأن الكثيرين منهم حقاً لا يجدون المال الكافى للزواج . فالزواج كثير النفقات . ولكنهم رغم ذلك يعيشون مع صاحباتهم عيشة منتظمة كأنهم أزواج من أفضل طراز . ومنهم من ينجبون البنين والبنات ويعيشون مع أولادهم أو مع أمهات أولادهم فى استقرار تام ، وليس من داع إطلاقاً أن يصفهم القس ماندرز بالخسة وانعدام الشرف وأوزوالد يعرف حقاً بوجود الخسة وانعدام الشرف فى دوائر

الفنانين . وهو يعلم القس ماندرز شيئاً جديداً لم يكن يعامه فالخسة والفجور يتخللان حياة الفنانين مع أولئك الأزواج المثاليين والآباء المثاليين الذين يتحدث عنهم القس ماندرز. حين يرتادون معارض الفن ليشتروا الصور ويخالطون الفنانين فى أحيائهم الفقيرة وفى دورهم الوضيعة. ومنهم يتعلم الفنانون أشياء من حياة الليل ما كانوا يعرفونها . ويصاحبونهم إلى أماكن للفجور ما كانوا يحلمون بوجودها .

هذه الحقيقة التى ينبغى أن يعرفها القس ماندرز بدلا من التجنى على الفنانين المساكين . وها هى ذى أمه تقره على كل كلمة تفوه بها . فهى امرأة متحررة العقل منصفة التفكير أما أزوالد فهو متعب من هذه المناقشة الفارغة وهو يقول إنه يخرج للرياضة والمشى لعل ما به من صداع يزول قبل الغداء .

وحين يختلى القس ماندرز بمسز آلفنج يعنفها أشد التعنيف على ما آلت إليه حال ابنها . فهى المسئولة عن اعتناقه هذه الآراء المنحرفة بتنشئته بعيداً عن جو الأسرة . بل أفظع من ذلك . إنها الآن تقر ولدها على هذه المبادئ الهدامة التى يهذى بها .

والقس ماندرز لا يحدثها الآن بوصفه صديق الأسرة الذى حمل أكرم الود لزوجها الراحل الكابتن آلفنج . ولكنه يحدثها بوصفه قسيساً وبوصفه راعى الكنيسة التى تنتمى إليها . فهو يعلم أن هذا الانحراف ليس بالشىء الجديد على مسز آلفنج وهو يذكرها بحياتها السيئة الماضية التى أوشكت أن تنتهى بكارثة أيام حياة زوجها المرحوم . لولا أنه مد إليها يده المنقذة التى انتشلتها من وهدة محققة كادت أن تتردى فيها . إن غداً هو يوم الذكرى العاشرة لوفاة زوجها المرحوم الطيب الذكر . وغداً يزيح القس ماندرز الستار عن اللوحة التذكارية التى أقامتها مسز آلفنج فى ملجأ الأيتام تخليداً لذكرى زوجها الذى سيعرف بفضله كل أيتام المنطقة . وغداً سيقف ماندرز فى الحفل خطيباً يعدد مناقب الفقيد الكريم . ولكنه اليوم يحدث مسز آلفنج فى خلوة ويذكرها بذنوبها الماضية لعله يوقظ ضميرها الماضى .

إن مسز آلفنج قد نسيت أنها هربت من زوجها ولما يمض على زواجهما عام واحد . وأنها جاءت القس ماندرز يوم ذاك تقول إنها يائسة تعيسة وتطالب إليه أن يؤويها . فهى امرأة ثائرة متمردة على أقدس الروابط منذ شبابها . ولو صح

ما قالته وجرت به الشائعات عن سوء مسلك زوجها المرحوم الكابتن آلفنج فى شبابه لوجب عليها أن تحمل آلامها فى تجمل واصطبار . فالله لم يخلق البشر لينشدوا السعادة وإنما خلقهم ليؤدوا الواجب ، وما طلب السعادة إلا عبارة أخرى عن روح التمرد والجموح التى تنهى عنها الأخلاق الفاضلة . ثم إنها لم تكتف بتعريض سمعتها لقالة السوء ، بل أوشكت أن تعرض اسمه للخطر أيضاً . وهى حقاً لا تجد غباراً فى أن تلجأ إلى قسها وصديق أسرتها ، ولكنها تنسى أنها كانت فتاة تفيض بالشباب والجمال وأنه لولا لطف الله الذى أعانه وقوى من عزيمته وثبت إيمانه فى قلبه لاسترسل معها فى أهوائها وربما اندفع معها فى سبيل الخطيئة ولو بالفكر والاشتهاء . فالله يحمد ماندرز على أنه جعل منه أداة عنايته لهديها إلى الطريق القويم فهو الذى ردها إلى زوجها وأعادها إلى حياة الواجب والطاعة فارتدت وارتدعت وحلت على دارها النعم والبركات ، فغير زوجها من مسلكه الشائن وغدا لها نعم الزوج الصالح ، وتفتح قلبه للإحسان فغمر المنطقة بأفضاله وارتفع بها إلى مستوى فضله وصلاحه فجعلها تشاركه فى كل ما يقدم عليه من وجوه البر .

ثم إن مسز آلفنج لم تقصر فى واجب الزوج فحسب حين تمردت على زوجها بل قصرت فى واجب الأم كذلك ، فخطيئتها إذن خطيئتان لا خطيئة واحدة .

فهى بعلة هذا الجموح الذى ملك عليها حياتها لم تجد عبئاً فى الحياة إلا ونبذته عن عاتقها ، حتى عبء الأمومة الذى تقبله غيرها من النساء االصالحات كانت مسز آلفنج له كارهة . وكما ضاقت بزوجها فهجرته وضاقت كذلك بولدها أوزوالد فتخلت عنه وهو بعد فى السابعة من عمره وأسلمته إلى الغرباء لينشأ بينهم . وهى قد تابت حقاً واعترفت بخطيئتها نحو زوجها فهى اليوم تقيم له شاهداً تذكارياً لتحيي ذكراه العاطرة ، وفى هذا خير اعتراف بهذه الخطيئة ، ولم يبق إلا أن تندم مسز آلفنج على ما اقترفت من جناية على ولدها ، وأن تبدأ صفحة جديدة فى حياتها فتحاول أن تهدى ولدها الضال إلى طريق الصلاح قبل أن ينتهى إلى هلاك مبين .

وتسمع مسز آلفنج كل هذا الكلام الموجع فى صمت أليم ، وحين يفرغ القس ماندرز كل ما فى جعبته تشخص إليه لحظة ثم تجيبه فى هدوء عميق وهى تغالب عواطفها المضطربة وتكبت ما كان يعتمل فى صدرها من عذاب فظيع .

إن القس ماندرز لم يتكرم بزيارة آل آلفنج مرة واحدة منذ أن ردها إلى زوجها رغم ما كان بينه وبين الأسرة من ود قديم ، ورغم ما كان يقضى به واجب القس من رعاية الرعية . وهى تعلم أنه افتعل هذه القطيعة حرصاً على سمعته حتى لا يقال إنه يتردد على أسرة فيها زوجة هجرت زوجها وتمردت فى يوم من الأيام ، بل هى تعلم أنه ما زارها هذه المرة بعد كل هذه السنوات إلا لأنها جعلته القيم على ملجأ الأيتام . وهى لا تلومه الآن على هذه القطيعة أو تعاتبه على التعريض بها ، ولكنها تقول إنه يحكم بما لا يعلم ويطلق القول دون أن يطلع على الحقيقة .

فلو قد تفضل بالتردد على آل آلفنج لعلم أن زوجها المرحوم الكابتن آلفنج مات فاجراً كما عاش فاجراً . فإن أراد أن يتحقق من قولها فنى إمكانه أن يسأل الطبيب الذى عالجه حين حضرته الوفاة ، فمنه يعلم أن الكابتن آلفنج مات بالسفاس .

أما قصة هذا الزوج الصالح الذى ارتد عن غيه وغدا مثلا لمكارم الأخلاق فكانت أسطورة بنتها هى فى عالمها الشقى الذى كانت تعيش فيه مع هذا الزوج الخليع . فهى التى جاهدت ما وسعها ذلك لإخفاء حقيقة زوجها عن الناس . فبعد أن رزقت منه بأوزوالد لم تر بداً من أن تفعل ذلك حرصاً على اسم ولدها حتى لا ينشأ وهو يجر عار أبيه فى أذياله .

فإن أراد القس ماندرز أن يعرف المزيد عن صديقه الصالح الكابتن آلفنج فإليه بالمزيد . إنه لم يكتف بصبواته السافلة خارج المنزل مع كل مومس وفاجرة بل أوغل فى غيه فجعل من داره مسرحاً لفجوره . وقد سمعته ذات مرة من حيث تقف الآن ويغازل خادمتها الأولى ، وهى تحاول الفكاك من ساعديه وتقول فى همس : « دعنى وشأنى يا مستر آلفنج ! دعنى وشأنى ! » ثم علمت بعدئذ أنه استطاع إفسادها . بل علمت ما هو أمر من هذا وأدهى . علمت أنها حملت منه .

لكم شقيت وتعذبت وهى تحاول أن تستبقيه فى الدار حتى تحجب عاره عن العيون ، ولكم عانت لتجارى هذا السكير فكانت تشاطره الشراب وتستمع إلى بذىء كلامه وتصبر على فحشه حتى لا يطوف بالحانات ويعربد فى الطرقات . كل هذا فعلته من أجل ولدها أوزوالد . فلما بلغ أوزوالد السابعة من عمره وبدأ يفهم بعض ما يجرى حوله من شاذ الأمور لم يكن لها بد من أن تقصيه عن هذا الجو الموبوء حتى

ينشأ صحيح العقل والقلب ، ورضيت بأن تبعد فلذة كبدها باختيارها سنوات طويلة فلم تطأ قدمه هذه الدار اللعينة سنوات طويله ما بقى أبوه حيًّا .

أما هى فقد انصرفت إلى تنمية ثروة الأسرة والتى لولاها لضيعها زوجها العربيد ، وأخذت تنفق فى وجوه البر والإحسان باسم زوجها الذى ما كان يفيق من سكره، فينال زوجها الذكر العاطر وتصلى هى فى جحيم مقيم .

وها هى ذى قد جللت كل هذا بملجأ الأيتام الذى شيدته حتى تخرس كل لسان يمكن أن ينال اسم آلفنج بسوء ، فهى تعلم أن الحقيقة لا تخفى على الدوام . وهى تريد أن تحجب كل هذه الأسرار العفنة وراء بر عظيم يجعل كل لسان يلهج بالثناء عليه . ولكنها حين أنفقت كل هذه الأموال الطائلة فى بناء الملجأ إنما قصدت أيضاً إلى شيء آخر ، وهو ألا يرث ولدها أزوالد من مال أبيه مليماً واحداً . فكل ما أنفق على الملجأ من مال آلفنج . وما أرصد له من مال هو كل ماله . نعم ، إنها لا تحب لولدها أن يرث عن أبيه شيئاً . وإنه لوارث عنها كل شيء .

وحين يسمع القس ماندرز هذه القصة المفجعة يذهل أيما ذهول ويندم أشد الندم على ما بدر منه من غلظة وقول موجع ، ويحار فيما ينبغى أن يفعله حين يأتى الغد بعد أن اطلع على هذه المأساة التى لا يعلم بها أحد . ففى الغد سوف يقف فى الناس خطيباً بعد أن يزيح الستار عن النصب التذكارى ويعدد مناقب هذا الراحل الفاجر . ويطلب القس ماندرز من مسز آلفنج أن تعفيه من هذه المهمة البغيضة ، ولكنها تلح عليه أن يمضى فى هذه المهزلة إلى آخرها . فهى قد قررت أن يكون هذا آخر عمل تقوم به من أجل زوجها وما أن ينفض الحفل حتى يخرج الكابتن آلفنج نهائياً من حياتها ولا يبقى لذكراه وجود فى دارها حيث تقيم هى وولدها الحبيب العائد إليها فى نعيم دائم حتى نهاية العمر .

وفيما هى تحدث القس ماندرز على هذا النحو تسمع صوت جلبة فى الحجرة المجاورة وكرسى يسقط على الأرض ويأتيها صوت خادمتها رجينا وهى تصرخ فى همس واضح : « يا أزوالد ! أأنت مجنون ؟ دعنى وشأنى » !

فتهب مسز آلفنج مذعورة وتصيح : « واهًا لى ! واهًا لى » !

ويقول القس ماندرز مستفسراً :

« ما الخبر ؟ ماذا جرى يا مسز آلفنج » ؟

فتجيبه بصوت مختنق :

« الأشباح ! إنهما فى الحجرة المجاورة ، كما كانا ، فى الماضى».

ويقول القس ماندرز :

« ماذا تقولين ؟ أتقصدين أن رجينا . . . » ؟

فتجيبه مسز آلفنج :

« نعم . نعم . هيا بنا . إياك أن تنطق بكلمة » !

ويدرك القس ماندرز أن رجينا هى الثمرة المحرمة التى خلفها الكابتن آلفنج من معاشرته للخادمة الأولى . وتوشك مسز آلفنج أن تتهافت ، ولكنه يسندها بذراعه ويسير بها إلى حجرة الطعام .

إن المأساة القديمة تتجدد ، بل وتتخذ صورة أفظع من صورتها الأولى ؛ فها هو ذا آلفنج الابن يطارد الخادم رجينا كما كان آلفنج الأب يطارد أمها الخادم جوانا . ولكن رجينا ليست غريبة عن الدار فهى أخت أوزوالد من أبيه .

وتتفق مسز آلفنج والقس ماندرز على ضرورة إقصاء رجينا بأى ثمن .

إنهما لا يستطيعان إرسالها إلى النجار أنجشتراند فهو ليس أباها الحقيقى . وإن كانت السجلات الرسمية تقول إنه أبوها وتروى مسز آلفنج على القس ماندرز قصة الخادم جوانا أم رجينا ، وكيف تخلصت منها بإعطائها مبلغاً طائلا من المال يبلغ سبعين جنيهاً لقاء رحيلها ببنتها عن الدار ولقاء سكوتها ، وقد أغرت جوانا النجار أنجشتراند بما حصلت عليه من مال وقصت عليه قصة من نسج الخيال عن أجنبي جاء إلى القرية فى يخت وغرر بها ثم تركها مع طفلتها بغير معين إلا ما تركه لها من مال ، ورضى أنجشتراند أن يتزوجها طمعاً فى مالها وزعم أمام القس ماندرز الذى زوجهما أن جوانا قد زلت معه قبل الزواج وأنه يريد أن يصلح بهذا الزواج ما أفسد .

وهكذا تتفق مسز آلفنج والقس ماندرز على التخلص من رجينا بإيجاد زوج لها على غرار ما حدث لأمها .

ويأتى أنجشتراند راجياً أن يؤذن له فى اصطحاب بنته ، فيثور القس ماندرز فى وجهه قائلا إن أكاذيبه قد جعلته يزور فى سجلات الكنيسة ويثبت أن رجينا بنت أنجشتراند ، أما الآن وقد عرف الحقيقة فهو يأمر أنجشتراند أن ينصرف إلى غير رجعة ، فهو لن يستقبل بعد اليوم كذاباً مدلساً مثله .

ولكن أنجشتراند الماكر المنافق يطلب إلى القس أن يصفح عنه ، ويصور نفسه فى صورة المنقذ الشريف الذى ضحى بنفسه ليستر سوأة جوانا الساقطة ، زاعماً أنه لم يبغ شيئاً إلا كتم فضيحة تلك المرأة المسكينة التى زلت مع أجنبى عابر وجاءته دامعة العين تطلب العون، فإن كان قد أذنب فهو يطلب الصفح عن ذنبه ، وهو الآن قد جاء ليرجو القس ماندرز أن يمضى معه إلى ملجأ الأيتام حيث أتم أنجشتراند عمله ليصليا معاً صلاة الشكر لله وليبارك القس ما صنعه من أعمال النجارة .

ويرق قلب القس ماندرز لهذا اللئيم المنافق ويعده بأنه يحقق له رجاءه . بل ويطلب إليه أن يصفح عنه لسوء ظنه به فإن ما أبداه من شهامة فى ستر الخاطئة المسكينة هو المثل الأعلى للأخلاق الدينية .

وهنا يعرض أنجشتراند مشروعه الذى جاء يرجو أن تعينه عليه رجينا؛ فيصور الماخور الذى اعتزم أن ينشئه للبحارة تصويره لحرم مقدس سيعصمهم من مفاسد الدنيا وغواياتها ويهيئ لهم مكاناً للمتعة النظيفة واللهو البرىء كلما رست سفنهم على الشاطئ ، وهو لا أمل له الآن إلا أن تأذن له مسز آلفنج فى اصطحاب رجينا لتعاونه على القيام بهذا المشروع الجليل .

ويعده القس ماندرز خيراً فينصرف أنجشتراند وماندرز إلى الملجأ ليقيما الصلاة .

وما أن تخلو مسز آلفنج إلى نفسها حتى يأتيها ولدها أوزوالد وقد أفرط فى الشراب ، وهو يطلب مزيداً . وتعنفه أمه فى رفق على ذلك ، فيصارحها بأنه ما عاد إليها إلا لأنه بحاجة إلى رعاية دائمة ، فهو مريض ، وعلته ثقيلة ، وهو لم يعد يستطيع أن يرسم أو يزاول أى عمل من الأعمال . وقد خشى أن يكتب إليها بأمر علته فيحزنها . أما المرض الذى يشكو منه فهو الانهيار العقلى ، وهو لم يعد يستطيع أن يركز تفكيره فى شىء من الأشياء وترتجف أمه وهى تسمعه يقول إن داءه ليس

منه شفاء ، وأن الأطباء قد يئسوا من علاجه ، وكان منهم طبيب حاذق فحصه حين جاءته الأزمة الأولى ، فثقلت رأسه وشلت « قواه العقلية ونهشه صداع ممزق وسأله ذلك الطبيب جملة أسئلة غريبة عن نفسه وأسرته وصحته ، أسئلة لم ير بينها وبين مرضه سبباً ، ثم انتهى الطبيب بقوله إنه مصاب بالسفلس الوراثى وعلق على ذلك بقوله إن خطايا الآباء تتسلسل فى الأبناء . ولكن أوزوالد لم يصدقه ، فقد كان يعبد ذكرى أبيه ويتمثله فى حياته المثل الأعلى لكل فضيلة ، بحسب ما لقنته أمه فى كل خطاب أرسلته إليه ، وذهب يجادل الطبيب فى كل هذا ، بل وأطلعه على خطابات أمه ، فأخذت الحيرة من الطبيب كل مأخذ وبدأ يشك فى علمه وطبه وانصرف وهو يقول : مادام الأمر كذلك فلابد أنك أصبت هذا الداء من عشرة النساء .

ويطلب أوزوالد مزيداً من الشراب ويلحف فى ذلك فتجيبه أمه إلى ما يطلب . وتحاول أن تهون عليه الأمر قائلة إن الأطباء كثيراً ما يخطئون . ولكن أوزوالد الذى لا يعرف حقيقة حاله ومآله يسترسل فى كآبة لا حد لها . وبعد أن تضع رجينا زجاجة الشمبانيا والأقداح وتنصرف يقول أوزوالد لأمه إنه لم يعد له سوى أمل واحد فى هذه الحياة ، وهو أن تأذن له أمه فى الزواج من رجينا ، فهى وحدها القادرة على أن تعينه فى محنته . فإن أذنت أمه بزواجهما عاد برجينا إلى باريس ، وهناك ينتظر معها النهاية المحتومة التى قال الأطباء إنها آتية لا ريب فيها . نعم إن رجينا وحدها هى القادرة على إنقاذه وفيها وحدها خلاصة هذه المخاوف التى تنهش عقله نهشاً . أما أمه فهى لا تملك له نفعاً لأن ما به من علة لا تنفع فيها الأمهات .

بل هو يصر على أن تجالسهما رجينا وأن تشاركهما الشراب فهو قد قرر أن يتخذ منها زوجاً له ، وقد اتفقا على ذلك فيما بينهما ولم يبق إلا أن ترضى أمه بالأمر الواقع .

وتضطرب مسز آلفنج اضطراباً عظيماً وتحار فيما ينبغى أن تفعله لتحول دون عقد هذا الزواج الآثم . وتقرر أن تصارحهما بالحقيقة . وقبل أن يهيأ لها أن تفضى إليهما بشىء ، تسمع جلبة خارج البيت ومن النافذة يرى الجميع حريقاً هائلا

يلتهم الملجأ فتلبس مسز آلفنج شالها ، وتلبس رجينا شالها وينطلق الثلاثة على عجل إلى الملجأ المحترق .

* * *

ولا يعود الجميع إلا والملجأ قد بات أنقاضاً من رماد ، ولا يبقى من وميض الحريق إلا ألسنة تشتعل فى البدرون . ولا يعلم أحد حقيقة ما حدث على وجه التحديد، إلا أن الحريق شب بعد أن انطلق أنجشتراند والقس ماندرز إلى الملجأ للصلاة ولإشاعة البركة فى المكان .

ويفتعل أنجشتراند الماكر ألماً ممزقاً. فلولاه كما يقول لما خرج القس ماندرز إلى الملجأ للصلاة فألقى ذبالة الشمعة التى كان يحملها على نشارة الخشب قبل أن تنطفئ الذبالة ، وكان الحريق .

أما القس ماندرز فهو لا يذكر شيئاً مما كان . بل لا يذكر أنه أطفأ ذبالة الشمعة بأصابعه كما يقول أنجشتراند . فليس من عادته استخدام أصابعه عند إطفاء الشموع. بل إنه لا يذكر أنه كان يحمل شمعة إطلاقاً رغم ما يؤكده أنجشتراند . ولكن أنجشتراند يقول إنه رآه بعينه يفعل كل ذلك . وهو ينبه إلى ما ستقوله الصحف فى هذا الشأن . إنها لن ترحم القس ماندرز على ما فعل ، وكيف ترحم الصحف رجلا يضرم النار فى ملجأ للأيتام !

ولا تكترث مسز آلفنج لما حدث ، بل لعلها تشعر بالراحة لاحتراق الملجأ ، وتقول فى ذلك إن مثل هذا الملجأ ما كان يرجى من ورائه خير على كل حال . ولم يعد يهمها أيضاً كيف يتصرف القس ماندرز فى مخلفات هذا البناء المحترق . إنه يقترح نقل ملكية الأرض الفضاء إلى الكنيسة . أما المال المرصد للملجأ فهو لا يعلم كيف يستثمره فيما ينفع الناس .

ولكن الماكر أنجشتراند يعرف كيف يستثمر هذا المال المرصد فيما ينفع الناس وهو يطلب أن يكون له فيه نصيب ليعزز به دار إيواء البحارة هذه التى اعتزم أن ينشئها ، بل لسوف يسمى هذه المنشأة « دار آلفنج لإيواء البحارة » ، ولسوف يجعل منها شيئاً جديداً بأن تحمل اسم المرحوم الكابتن آلفنج . إن أنجشتراند رجل وهو يستطيع الآن أن يتحمل مسئولية الحريق أمام المحققين . وهو لن يتخلى الآن

عن القس ماندرز الذى أسدى إليه معروفاً ومعروفاً . .

ويتحرج القس ماندرز بادئ الأمر من هذا العرض ، ولكن أنجشتراند الماكر يسترسل فى قوله إنه فاعل ذلك شاء القس أم لم يشأ ، فيرق له قلب القس ماندرز ويصافحه مصافحة الصديق للصديق ، ويعده بنصيب فى مال الملجأ . وينصرف الرجلان . هذا قاصد كنيسته فى المدينة القريبة وذاك قاصد حانته أو ماخوره الذى أقامه لاستقبال البحارة أو « دار آلفنج لإيواء البحارة » .

وحين يسمع أوزوالد ما كان من حديث يقول فى انقباض كئيب إن دار آلفنج لإيواء البحارة سوف تحترق كما احترق ملجأ الأيتام . إن كل ما تركه أبوه آيل إلى الاحتراق ولن يبقى منه أثر على وجه الأرض . وها هو ذا نفسه يحترق ويسير إلى دمار قريب . إنه يطلب أن تبقى رجينا إلى جواره دائماً ، لتعينه حين يحين الحين .

وتواجه مسز آلفنج مشكلتها القديمة . لابد من إفهام أوزوالد بحقيقة أمره وأمر رجينا . إنها لا تفهم تماماً ماذا يعنى ولدها بقوله : إن رجينا وحدها هى التى تستطيع أن تعينه حين يحين الحين . إنها أمه . وهى قادرة على السهر عليه حتى يبرأ من علته . إنها تحسب أن وخز الضمير يؤرقه وأن أكثر ما بنفسه من هواجس ووساوس آت من اعتقاده بأنه جلب على نفسه هذا الداء الوبيل الذى يفتك به . ولكنه سوف يطمئن باله حين يعرف أن ما به من داء قد ورثه عن أبيه ، ولا بد له فيه . نعم . لسوف تطلعه على الحقيقة كلها .

وتجلس مسز آلفنج إلى جوار ولدها ، وتجلس معهما رجينا لتقف على كل الأمور . وتروى الأم لولدها طرفاً من سيرة أبيه يعلم منه أن أباه المسكين لم يكن يجد السعادة فى حياته الزوجية فطلب سعادته مع غيرها من النساء ، ومات بهذا الداء عينه الذى لازمه سنوات وورثه عن أوزوالد . بل أكثر من هذا إن لرجينا فى دار آلفنج مثل ما لأوزوالد نفسه من حقوق ، فهى بنت أبيه من إحدى مغامراته .

وحين تسمع رجينا هذا الكلام تنهض وتعلن أنها راحلة عن هذا البيت الشقى . إنها الآن تفهم حقيقة أمها . وإذا كان أوزوالد قد ورث هذا الذى ورث عن أبيه ، فهى لا شك قد ورثت عن أمها شيئاً . لسوف تبيع نفسها كما باعت أمها نفسها فإن ساءت حالها فهى تعلم أين ختام مطافها : فى « دار آلفنج لإيواء البحارة » .

ومهما يكن من شيء ، فما دام القس ماندرز قد اطلع على كل شيء فهى ماضية إليه لتأخذ نصيبها من مال أبيها ، فهى أحق به من ذلك البحار اللعين . إنها ابنة السيد وقد نشأتها سيدتها نشأة الخادمة . ولكنها لن تبقى إلى جوار المرضى والمعلولين دقيقة واحدة بعد ذلك .

أما أوزوالد فلا يهتز كثيراً حين يقف على حقيقة أمره . فهو لم يعرف أباه حتى يحزن : ثم ما جدوى التفكير فيما مضى إذا كان ينتظر الكارثة من لحظة إلى أخرى ؟ إنه كان يود لو بقيت رجينا إلى جواره لتعينه حين يدخل المرحلة الأخيرة ولكن ما دام رجينا قد ولت فلم يبق إلا أن ينتظر العون من أمه .

قال الأطباء حين تحل الأزمة سينطفئ عقله جملة ويصبح كالأبله المعتوه، ويرتد إلى ما يشبه الطفولة ، ويبقى فى طفولته بقية أيام الحياة . لهذا أعد أوزوالد لكل شيء عدته . أعد مسحوق المورفين . وهو يرجو أن تسقيه أمه إياه حين تحل بعقله الكارثة .

وتهلع أمه حين تسمع هذا الكلام . وتحاول أن تنتزع من يده علبة المورفين ، ولكنه يردها إلى جيبه ولا يزال بأمه يستعطفها أن تسدى إليه هذا الصنيع الذى أرادت رجينا أن تسديه إليه حين ينطفئ نور عقله ولا يكف عن استعطافه حتى تعده بذلك ولكنها تذهب تسرى عنه قائلة إن هذه اللحظة لن تجيء . وتناجيه بنجوى الأمل المتفائل ، ثم تشير إلى الفجر الوليد الذى شقشق ورمى نوره فى الآفاق رغم الضباب . ثم تشير إلى الشمس البازغة التى تشتت قطعان الضباب وتزهو بضيائها الساطع فى العالمين .

وفيما هى تحدثه حديث الأمل البسام تأخذه رعشة ويتصبب عرقاً ثم يشخص إليها فى نظرات فارغة من كل معنى ويهتف قائلا : إلى بالشمس يا أماه ! الشمس ! أعطنى الشمس .

وتجفل الأم مرتاعة ثم تدرك أن الكارثة قد حلت . وتمد يدها إلى جيب ولدها ، وتستخرج منه علبة المورفين . ثم تقف وقفة المشلول وتهذى قائلة : لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا مفر ! لا مفر ! لا أستطيع !

عدو الشعب

الكاتب النرويجى هنريك إبسن

هذه الواقعية . . هذه الواقعية التى نقرأ عنها كل يوم ونحاول أن نحيط بمعناها وأن نلم بحدودها قد وضع أساسها الكاتب النرويجى العظيم هنريك إبسن ، فلا غرابة إذن أن يسمى إبسن فى كل مكان أبا المسرح الواقعى ، ولا غرابة إذن أن يسمى كذلك أبا المسرح الحديث ؛ فقد تتلمذ عليه برنارد شو كما تأثر به أوجين أونيل . وعلى الجملة ما من كاتب للمسرح فى أواخر القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين إلا وكانت لإبسن أفضال على فنه ، ولو كان من غير أتباعه فى فن الإنشاء المسرحى .

ذلك لأن إبسن يعد فاصلا فى تاريخ المسرح بين عهد وعهد ، ونقطة تحول فى قواعد الإنشاء المسرحى وتقاليده . فقد ولد إبسن فى قرية من قرى النرويج عام ١٨٢٨ وتوفى عام ١٩٠٦ فاهتزت مسارح أوربا بأكملها لكل ما كتب وانقسم الرأى العام على فنه نحو نصف قرن لأنه ثار على فنية الإنشاء المسرحى التى كانت شائعة يومئذ كما ثار على الموضوعات المسرحية التى رسخت رسوخ التقاليد فى عصره ، فمجده أناس ولعنه آخرون وكثرت فى وصفه النعوت فمن قائل إنه نبى ومن قائل إنه أفاق ومن قائل إنه كاتب إباحى ومن قائل إنه مهيج للجماهير ومن قائل إنه رمزى ومن قائل إنه واقعى . وحقيقة الحال أن إبسن كان مجرد فنان عملاق يعرف أصول فنه ويضع اعتبارات الفن فوق أى اعتبار آخر .

أما مثار كل هذا الجدل حول فن إبسن فقد نشأ من جرأة موضوعاته التى استمدها من حياة المجتمع المحيط به ، مجتمع الطبقة المتوسطة ، فتناول أفكارها الأساسية عن الزواج أو النجاح أو الفضيلة أو الديمقراطية وعالجها فى صراحة تامة وفى بساطة تامة جعلت دعاة الفضائل البورجوازية المزيفين يرتعدون فرقاً ويرغون ويزبدون .

وقد أثبت إبسن للعالم أن فى أبناء الطبقة المتوسطة وفى حياة الطبقة المتوسطة كل ما يطلبه المسرح من مادة خام لحياة الأبطال والأنذال . وأن الكاتب المسرحى ليس بحاجة إلى سير الملوك وتراجم الأشراف وحكايات الفرسان والنبلاء ليجد معانى البطولة والنذالة . وبهذا يكون إبسن قد هبط بالمسرح من تقاليده الرومانسية التى توارثها الكاتب منذ عهد شكسبير وأرسى تقاليده الواقعية التى تجعل من الفن تعبيراً عن حياة الرجل العادى وعن المشاكل الاجتماعية . وفى عصر إبسن لم تكن يقظة البروليتاريا قد اكتملت بعد . ولذا فقد كان طبيعياً أن يلتمس إبسن رجاله العاديين بين أبناء الطبقة السائدة فى أيامه . وهى الطبقة المتوسطة .

ولكننا نتساءل أحياناً بعد أن نقرأ بعض مسرحياته مثل « بيت الدمية » (١٨٧٩) و « الأشباح » (١٨٨١) و « هيــدا جابلر » (١٨٩٠) و « عدو الشعب » (١٨٨٢) : إلى أى حد يمكن أن نصف البطل مهما تواضع منبته رجلا من الرجال العاديين ؟ ولكن فلنترك الدكتور ستوكمان . بطل « عدو الشعب » يجيبنا بنفسه على هذا السؤال العسير !

* * *

فى دار الدكتور توماس ستوكمان نلتقى بجميع شخصيات هذه الدراما . الواحد بعد الآخر . نلتقى بمسز ستوكمان وهى زوجة الدكتور ستوكمان وربة البيت الطيبة البسيطة الكريمة التى تعنى ببيتها أكثر مما تعنى بالعالم الخارجى . ونلتقى بأولادها الثلاثة : الفتاة بترا وهى مدرسة فى مدرسة القرية تشارك أباها الكثير من خلقه ومثاليته والغلامين إيليف ومورتون وهما تلميذان يختلفان إلى المدرسة أحدهما متفتح العقل والآخر متفتح الجسم . ونلتقى ببيتر ستوكمان عمدة البلدة ورئيس البوليس فيها وأهم من هذا وذاك فهو رئيس « لجنة الحمامات » بها . وما بيتر ستوكمان هذا إلا أخو الدكتور توماس ستوكمان بطل هذه الدراما وهما فى الخلق وفى التفكير وفى كل شىء طرفا نقيض . كذلك نلتقى فى دار الدكتور ستوكمان برجل يدعى هوفستاد وهو رئيس تحرير جريدة « رسول الشعب » التى تصدر فى البلدة وصاحبه بيلنج وهو نائب رئيس التحرير وبثالث من أسرة هذه الجريدة هو الطابع

أسلاكسن ، وهو ليس مجرد طابع للجريدة بل الممول لها كذلك . فهو رجل ملىء محترم صاحب نفوذ فى البلدة فهو رئيس « اتحاد أصحاب المساكن » ورئيس « جمعية منع المسكرات » . وغير هؤلاء نلتقى بعجوز يدعى كيل صاحب المدابغ الثرى الذى يخفى ماله ويدعى الفقر دائماً أبداً . وهو أبو مسز ستوكمان بالتبنى ، ثم نلتقى بقبطان من أهل البلدة يدعى هورستر ، وهو رجل قليل الكلام ولعله خشن المظهر ولكنه طيب القلب جبل على الشهامة الصامتة والتضحية فى غير ضجيج .

ورب البيت ؟ إن الدكتور ستوكمان رب البيت يشغل وظيفة الطبيب أو مفتش الصحة فى حمامات البلدية ولكن مواهبه فى الواقع أكبر من وظيفته . فهو رجل مثالى صلب يؤمن بأن خير المجموع مقدم على خير الأفراد . وهو يكافح بصلابة فى سبيل خير المجموع فيهدم بيته وأسرته فى هذا الجهاد . وقد عينه أخوه العمدة طبيباً لحمامات البلدة فأنقذه من شظف العيش الذى كان يعيش فيه زمناً أيام إقامته فى الشمال بعد أن نزح من بلدته . وهو سعيد حقاً بعودته إلى مسقط رأسه ، هذه البلدة الساحلية فى جنوب النرويج . وهو شاكر لأخيه عمدة البلدة صنيعه ولكنه رغم ذلك يحس فى قرارة نفسه أنه مستحق لهذه المكافأة ، فهو الذى كشف بأبحاثه لأهل البلدة أن بلدتهم مركز للمياه المعدنية . وأنها تصلح لذلك أن تكون مركزاً للاستشفاء وللاصطياف . وحين كشف لهم الدكتور ستوكمان عن هذا الكنز الخبىء فى بلدتهم بادر أهل البلدة وعلى رأسهم العمدة بيتر ستوكمان إلى بناء الحمامات فانتعشت البلدة بعد فقر لكثرة من أمها من المستشفين والمصطافين وأصابها الرخاء وازدهرت حال أصحاب المساكن فيها ولا سيما فى موسم السياحة . وقد عرف أهل البلدة للدكتور ستوكمان هذا الفضل فأكبروه وأجلوه وأحبوه وكانت له بينهم سيرة عاطرة . فما كان يمشى فى شارع أو يمر على دكان إلا وكان الناس يبشون له ويرفعون قبعاتهم تحية له .

وقد أوصى الدكتور ستوكمان أبناء بلدته أن يمدوا المجارى بطريقة خاصة وعمق معين . ولكنهم لم يستمعوا لكلامه ولم يأخذوا بمشروعه ، وقد ترك ذلك فى نفسه بعض المرارة ، ولكن ما جدوى المرارة ؟ إن كل شىء يسير الآن فى البلدة

على أحسن حال ، والنفوس راضية والكل سعيد والأرباح تترى وأول السعداء بهذا البلد السعيد هم المستشفون .

إلى أن يأتى يوم يتبدل فيه كل شيء من حال إلى حال .

فى ذلك اليوم يزور العمدة بيتر ستوكمان أخاه الطبيب فلا يجده فى داره ، ولكن يجد زوجته مسز ستوكمان تقوم بواجب الضيافة نحو الصحفى هوفستاد وزميله بيلنج ، وتطعمهما من خير البيت ، فهما فى انتظار الدكتور ستوكمان الذى غدا كاتباً من كتاب « رسول الشعب » ينشر فيها المقالات الطبية كلما عن له أن يوجه أنظار الناس أو يلفت نظر السلطات إلى شيء يمس الصحة العامة ، وقد وعدهما بمقال لعدد الغدد ، وهما يستمرئان هذه الضيافة حتى لقد أصبحا بمثابة ضيفين دائمين على مائدة الدكتور ستوكمان ، وهذا ما يثير الامتعاض فى نفس بيتر ستوكمان ، فهو رجل متقشف يلوم زوجة أخيه على إسرافها وإسراف زوجها فى الضيافة ، ثم إن بيتر ستوكمان لا يحمل من الود شيئاً كثيراً لجريدة « رسول الشعب » أو لأصحابها ، فهى جريدة حرة تكثر من نقد السلطات وتثير المشاكل فى المدينة بما تفعله من إثارة للجماهير وتشدق بقوة الشعب وحقوقه وحرياته .

ويعلم بيتر ستوكمان من الصحفى هوفستاد أن لديه مقالا بقلم الدكتور ستوكمان عن الحمامات يمتدح فيه حمامات المدينة ويوصى فيه المرضى بالاستشفاء بالحمامات . كما يعلم منه أنه قد احتجز هذا المقال طوال شهور الشتاء ، حتى تأتى مناسبته فى فصل الربيع حين يبدأ كل مصطاف التفكير فى اختيار مضيفه . وها قد جاء الأوان لنشر هذا المقال . ويسر بيتر ستوكمان لهذه النبأ فهو يسر لكل ما فيه تنشيط لحركة الاصطياف ، ولكنه لا يخفى استياءه من أن بعض الناس يتوهمون أن أخاه الدكتور ستوكمان هو العبقرى الفذ الذى أنعم على البلدة بحماماتها وبما ترفل فيه من رخاء ، وكيف لا يستاء بيتر ستوكمان وهو يرى أن أخاه رجل نظرى حالم لا يفقه فى الحياة العملية شيئاً . وإذا كان أخوه أول من فكر فى إنشاء الحمامات فإنه هو الذى عمل على تنفيذ الفكرة . فالبلدة إذن مدينة لرجل العمل أكثر مما هى مدينة لرجل الفكر .

وبعد حين يقبل الدكتور ستوكمان فيفاتحه أخوه فى نشر مقاله الذى يمتدح فيه حمامات البلدة . ولكنه يرى منه تردداً شديداً . فالدكتور ستوكمان وهو

صاحب المقال يرى إرجاء النشر ، فقد جاءت لديه أشياء لا يجب أن يخوض فى ذكرها حتى يتحقق منها . نعم إنه مشتبه فى شيء خطير ، وليس بد من إرجاء نشر المقال .

ويغضب العمدة لأنه يستشعر أن فى الجو عاصفة وأن أخاه يخفى عنه شيئاً . إنه ممثل السلطة فى المدينة وهو لا يحب فى أحد أن يعمل من وراء ظهره ، بل ينتظر فى كل شيء أن يأخذ مجراه الرسمى ، فمن كان له رأى أو اقتراح فليتقدم به إلى الجهات المسئولة ولا يفاجئ به السلطات بنشره فى الصحف ، ولا سيما إذا كان صاحب الرأى موظفاً فى البلدية كالدكتور ستوكمان ، وهو يوجز رأيه لأخيه قائلا :

بيتر ستوكمان : إن فيك ميلا فطرياً لركوب رأسك على كل حال ، وهذا ما لا يجوز السماح به فى مجتمع يسوده النظام . فالفرد ينبغى عليه أن يقبل الخضوع للجماعة ، أو بتعبير أدق الخضوع للسلطات التى تتكفل بخير الجماعة .

وينصرف بيتر ستوكمان بعد أن يحذر أخاه من التورط فى أى عمل أو تصريح يغضب السلطات . وتقبل الآنسة بترا بنت الدكتور ستوكمان وتسلم أباها خطاباً فيأخذه منها فى لهفة ، فلقد كان على أحر من الجمر فى انتظار هذا الخطاب . وما أن يفضه ويقرأه حتى يعرف أن جميع مخاوفه قد تحققت . فمنذ أن ظهرت بعض حالات التيفود فى الموسم السابق والدكتور ستوكمان يجرى أبحاثه وتحاليله لعله يصل إلى مصدر هذه العدوى الغريبة على هذا البلد . وجرته أبحاثه إلى فحص مياه الحمامات فاشتبه فى أن ماءها موبوء بمكروب هذا المرض نظراً للخطأ الذى ارتكبته البلدية فى مد مجارى المدينة بين مدبغة الجلود بقاذوراتها وعفنها وحمامات المدينة مخالفة بذلك توصياته .

لهذا يشرق وجه الدكتور ستوكمان لأنه اكتشف اكتشافاً خطيراً ووضع يده على مصدر الوباء ، فهو يعلم أن الحالات الفردية التى ظهرت فى الموسم السالف ليست إلا مقدمة لانتشار هذا المرض فى صورة وبائية حين يأتى الصيف ويكثر العفن والتحلل . ولسوف ينقذ الدكتور ستوكمان نزلاء المدينة المستشفين والمصطافين بهذا الاكتشاف وينقذ سمعة بلدته ومستقبلها . لسوف يطلب إلى أخيه العمدة ورئيس لجنة الحمامات تغيير نظام المجارى وبهذا ينتهى الإشكال .

* * *

إن الدكتور ستوكمان عالم يدقق فى كل أمر وهو لهذا لم يبح بكلمة واحدة لأحد عن اشتباهه قبل أن يتثبت منه . وقد كانت أجهزة معمله قاصرة فاضطر إلى إرسال النماذج والعينات إلى معمل جامعة من الجامعات لفحصها ، والآن وقد جاء الرد بالإيجاب فهو يستطيع أن ينبه السلطات حتى تتدارك الموقف . وإنه لواثق أن أخاه العمدة بيتر ستوكمان سيأمر على الفور بإصلاح المجارى .

وحين يعرف الصحفيان بهذا النبأ يهتزان له ويقنعان الدكتور ستوكمان بأن هذا الأمر يخص الأهالى بقدر ما يخص السلطات . نعم لابد من إذاعة الخبر على صفحات « رسول الشعب » حتى يتنبه الرأى العام ويحتاط كل لنفسه إلى أن يتم إجراء الإصلاحات اللازمة . فإن أبى الدكتور ستوكمان إذاعة الخبر فهو مقصر فى واجبه نحو أبناء بلدته معرض إياهم للمكاره . ثم إن بيتر لابد أن تنطلق إلى جدها لأمها ، وهو العجوز كيل صاحب المدابغ ، لتعرفه حقيقة ما تفعله مدابغه بماء المدينة . ويحمد الجميع الله على أن الدكتور ستوكمان قد توصل إلى هذا الكشف قبل فوات الأوان وانتشار الوباء . أما القبطان هورستر فهو يشاركهم هذا الفرح ويشرب معهم نخب ستوكمان متمنياً له ألا يعود عليه هذا الكشف بغير الخير والحظ الحسن . ثم تنصرف الجماعة كل لشأنه .

ويرسل الدكتور ستوكمان تقريره فى الموضوع إلى أخيه العمدة . وما أن يقرأه بيتر ستوكمان حتى يمتعض أشد الامتعاض ويرد إليه التقرير . ثم يزوره ليجادله فى أمره . إنه يعلم من الخبراء أن إصلاح المجارى يتطلب إنفاق عشرين ألف جنيه . وهذا مبلغ طائل . وأهم من هذا أن إصلاح المجارى سوف يستغرق سنتين . وهو يطلب إلى أخيه ألا يكتب هذا الخبر حتى تنظر لجنة المجارى فى الأمر ، ولعلها تستطيع تدبير المال اللازم أو بعضه . فإن وجدت إلى ذلك سبيلا فهى فاعلة ما فى وسعها . هذا كل ما يعد به بيتر ستوكمان . أما حكاية الصحة العامة فوقايتها من شأن سلطات المدينة لا من شأن الدكتور ستوكمان . ولذا فهو يأمره بوصفه موظفاً فى البلدية أن يتكتم الخبر وينذره بالفصل إن هو أذاع عنه شيئاً ، فلو قد ذاع الخبر وعرف به المستشفون والمصطافون لانصرفوا عن المدينة إلى غيرها من المدن ، وبهذا

يكون الدكتور ستوكمان قد أضر ببلدته وجر عليها الخراب ، فهو إذن عدو الشعب .

إن بيتر ستوكمان لا يعد بشيء وهذا رأيه الرسمى :

بيتر ستوكمان : إن إمداد الحمامات بالمـــاء على صورته الحالية حقيقة مقررة، وبالتالى فلا بد من قبوله . ولكن يحتمل ألا تكون لجنة الحمامات على غير استعداد إذا صادف ذلك قبولا لديها ، لأن تبحث إلى أى حد يمكن إدخال بعض الإصلاحات فى حدود المصروفات المعقولة .

وهكذا تبدأ معركة بين البيروقراطية الحكومية وبين الإيمان بالصالح العام وتتحدد هذه المعركة فى الصراع بين الأخوين ، العمدة يمثل السلطة القوامة على مصالح الناس والطبيب الإنسانى الذى يضع قسم أبقراط فوق كل اعتبار آخر ويؤمن بأن وقاية الصحة العامة هى رسالة الطبيب .

ويحرض هوفستاد وبيلنج الدكتور ستوكمان على نشر التقرير المرفوض ويحملان حملة شديدة على غطرسة السلطات وبطء الروتين الحكومى . فهما يعتقدان أن للصحافة الحرة رسالة هى تنوير الرأى العام وأن على الصحافة الحرة أمانة مقدسة هى الدفاع عن الشعب . وهما يعدان الدكتور ستوكمان بالوقوف إلى جانبه إلى آخر الطريق . بل إن الطابع أسلاكسن وهو رئيس اتحاد أصحاب المساكن يذهب فى تأييده إلى أبعد من هذا فهو يضمن للدكتور ستوكمان أن أصحاب المساكن سوف يظاهرونه على طول الخط وهم « الأغلبية الساحقة » ، من سكان المدينة . إن الدكتور ستوكمان صديق الشعب الذى سينقذه من الوباء وسوف يجمع أهل المدينة على الإشادة بفضله ، بل لسوف يحتشدون فى اجتماع عام ويخلعون عليه لقب « صديق الشعب » .

وتقف بترا إلى جانب أبيها لأنه يؤدى واجبه ، ولا نسمع صوتاً يرتفع محذراً هو صوت الزوجة الطيبة مسز ستوكمان :

مسز ستوكمان : ولكن القوة فى جانب أخيك يا حبيبى توماس . .

الدكتور ستوكمان : وأنا فى جانبى الحق .

مسز ستوكمان : وما جدوى أن يكون الحق فى جانبك إذا لم تؤيده القوة ؟

بترا : ما هذا الكلام يا أماه !

الدكتور ستوكمان : أتظنين أن الحق لا يجدى فى بلد حر ؟ هذه سخافة منك يا كاترين . ثم أليست الصحافة الحرة المستقلة فى جانبي تشق الطريق أمامى والأغلبية الساحقة تظاهرنى ؟ هذه قوة تكفينى على ما أعتقد . .

مسز ستوكمان : نعم ، اغزهم فى معسكرهم وسترى النتيجة . ستفصل من عملك .

الدكتور ستوكمان : على كل حال سأكون قد أديت واجبى نحو الجمهور ونحو المجتمع ، هذا الذى يقول أخى إنى عدوه !

مسز ستوكمان : ولكنك تنسى واجبك نحو أسرتك يا توماس ! نحو بيتك ! أتسمى هذا أداء لواجبك نحو من تعول !

إن الدكتور ستوكمان يعرف كل ذلك ويقدره ولكنه يضع رسالته الإنسانية فوق كل اعتبار .

وفى دار جريدة « رسول الشعب » تعد العدة لطبع التقرير فى عدد اليوم التالى ، ويتولى إسلاكسن تصحيح التجارب . ولكن العمدة بيتر ستوكمان وقد بلغه أن الأمر قد انتشر وامتد إلى الصحافة ، يزور الجريدة بنفسه ليوقف الطبع قبل أن يستفحل أمره .

ويضطرب كل من فى الجريدة لزيارة العمدة ، ويحاول كل أن يتنصل من المسئولية . إن العمدة ليس له من السلطان ما يستطيع به أن يتدخل فى عمل « الصحافة الحرة » .

ولكنه يستخدم سلاحاً آخر : إن إصلاح المجارى إذا تم فستقوم به البلدية ، والبلدية إذا قامت بالإصلاح فمعنى هذا جباية ضريبة جديدة من أصحاب الأملاك لأن المساهمين فى شركة الحمامات مثقلون بالضرائب .

بل أبشع من هذا وأنكى : لو أن « رسول الشعب » نشرت أى شىء يشكك فى صحية الحمامات فسوف تقطع سيل المستشفين والمصطافين سنوات عديدة ، ولن تكون شركة الحمامات وحدها هى الخاسرة ، فسوف تنزل الخسارة بالأغلبية الساحقة من أهل المدينة الذين يؤجرون منازلهم فى موسم الاصطياف للمصطافين .

كل هذا من أجل ماذا ؟ إن أخاه الدكتور ستوكمان رجل مخرف يتوهم أشياء لا وجود لها فى مياه المدينة . إن الدكتور ستوكمان رجل متمرد بطبعه يجد لذة فى تحدى السلطات ليكتسب بطولة رخيصة إن بيتر ستوكمان يعرف أخاه توماس ستوكمان أكثر مما يعرفه أى إنسان آخر فى المدينة .

* * *

وهكذا يتراجع هوفستاد وبيلنج وأسلاكسن تراجعاً مشيناً . إن الحديث عن الضرائب وحده كاف ليجعل رئيس « اتحاد أصحاب المساكن » يتحسس جيبه ويفكر فى سخط « الأغلبية الساحقة » على هذه الجباية الجديدة . والصحافة الحرة ؟ إن الصحافة الحرة تستمد قوتها من الرأى العام فهى مسئولة أمام الرأى العام . فإذا كان فى دعوة الدكتور ستوكمان أو غيره ما يسخط له الرأى العام فهى لا تستطيع أن تواجه الرأى العام بهذه الأفكار الشاذة ، التى يقول العمدة إنها ضرب من الأوهام ، ولا شك أنها ضرب من الأوهام ، لأن العمدة يقول ذلك ، إن « رسول الشعب » لن تنشر حرفاً واحداً من تقرير الدكتور ستوكمان بل ، على العكس من ذلك ، ستنشر كلمة موجزة بقلم العمدة تفيد أن كل شىء فى الحمامات على خير وجه ممكن . كذلك لن تؤيد « الأغلبية الساحقة » الدكتورستوكمان فى شىء مما يقول : هكذا يعلن أسلاكسن رئيس اتحاد أصحاب المساكن .

ويأتى الدكتور ستوكمان ومعه زوجه مسز ستوكمان ، أما الدكتور ستوكمان فقد جاءه ليشرف على طبع تقريره ، أما مسز ستوكمان فقد جاءت لتثنيه عن عزمه ولتقرع هوفستاد على استغلاله سذاجة زوجها وتحريضه إياه على ما فيه شره .

ويفاجأ الدكتور ستوكمان ومسز ستوكمان بالموقف الجديد . .

وحين يرى الدكتور ستوكمان هذه النذالة يتعذب عذاباً فظيعاً . ولكن إيمانه بمبدئه لا يتزعزع .

إن أسلاكسن يرفض أن يطبع التقرير فى صورة كراسة على نفقة الدكتور ستوكمان ويقول إن الدكتور ستوكمان لن يجد فى البلدة كلها طابعاً واحداً يقبل أن يطبع له تقريره . إذن فسيخطب الدكتور ستوكمان فى كل قاعة فى المدينة محذراً الناس من الوباء القادم مع الموسم القادم ولكن بيتر ستوكمان يعده بأنه لن يجد قاعة

واحدة فى المدينة تأذن له أن يخاطب فيها الجماهير .

وحين تشهد مسز ستوكمان هذه الخيانة تأخذها الرحمة بزوجها المضطهد هذا الذى انفض الجميع من حوله حتى محرضوه . وتأخذها النخوة فتصيح قائلة : إنها ستثبت إلى جوار زوجها ومعها أبناؤها حتى آخر رمق فى الحياة .

لسوف يقف الدكتور ستوكمان فى مفترق كل طريق وينذر الناس بما يستهدفون له من خطر .

ولكن الدكتور ستوكمان يجد رجلا واحداً فى المدينة يقبل أن يُعقد فى قاعة بيته الكبير اجتماع يخاطب فيه الدكتور ستوكمان أهل المدينة . وذلك الرجل هو القبطان هورستر .

ويشهد هذا الاجتماع جمع غفير وعلى رأسهم العمدة وهو مستاء وبيلنج وأسلاكسن وآل ستوكمان . وحين يصعد الدكتور ستوكمان إلى المنصة يقترح أحد الحاضرين أن يختار المجتمعون واحداً منهم ليرأس الاجتماع حفظاً للنظام ، فيختار أسلاكسن بقوة الصياح المرتب . وحين يهم الدكتور أستوكمان بإلقاء كلمته ينهض أخوه العمدة ويقول إن لديه اقتراحاً نصه : « إن من رأيه أنه ليس من الحاضرين مواطن واحد يرى إذاعة المعلومات غير الموثوق بصحتها والمبالغ فيها عن الحالة الصحية فى الحمامات وفى المدينة أمراً مرغوباً فيه » . فيوافق الحاضرون على هذا الاقتراح إلا قلة مبعثرة تقف فى صف الدكتور ستوكمان . ولا سيما بعد أن يشير العمدة إلى إمكان فرض ضرائب جديدة لإجراء إصلاحات لا ضرورة لها . .

وهكذا يمنع الدكتور ستوكمان من إلقاء بيانه بقوة الرأى العام الموجه وبقوة « الأغلبية الساحقة » . ولكنه لا يلبث أن يستأذن أسلاكسن رئيس الاجتماع فى إلقاء كلمة لا تمس موضوع الحمامات . فيؤذن له .

ويحدث الدكتور ستوكمان الحاضرين فى اكتشاف جديد اكتشفه أعظم وأخطر من اكتشافه الطبى . ويستمع الحاضرون إليه فى اهتمام : إن الدكتور ستوكمان كان يعتقد أن الذين سمموا ينابيع الحياة الخلقية فى المدينة هم ولاة الأمر منها أو ما يسمونه السلطات وقد ظل على اعتقاده هذا حتى استيقظ على الواقع منذ

ساعات حين اكتشف أن مصدر الخطر الأكبر على الحرية والحقيقة هى « الأغلبية الساحقة » !

* * *

وترتفع الجلبة والهياج . وتحدث مجادلة بين هوفستاد الغادر والدكتور ستوكمان فيدافع هوفستاد عن الجماهير . ويشتط الدكتورستوكمان فى حملته على الجماهير ؛ إن الجماهير عنده عدوة كل حقيقة جديدة وكل فكر خالق حتى ولو كان فى هذه الحقيقة أو فى هذا التفكير خير الجماهير ذاتها . وإنما يقوم بكل إصلاح العبقرى الفرد أو الفرد العبقرى الذى تميز فى صفاته بالفطرة عن المجموع ، وما تاريخ الإنسانية عند الدكتور ستوكمان إلا كفاح نفر من الأبطال فى كل مجال من مجالات الرقى . أما سواد الناس فهم رعاع كالقطيع يتبعون كل مضلل يتملقهم ويحرق القرابين لما يؤمنون به من خرافات ومعتقدات سفيهة . ويزداد الدكتورستوكمان شططاً فيحدث الحاضرين عن الكلاب والدجاج ومختلف أنواع الحيوان ، وكيف تختلف فصائلها فإذا بعضها مؤصل يتفوق على سواه فى صفاته .

ويشتد استياء الناس ويعلو الاحتجاج من كل جانب ولا يجد أسلاكسن وسيلة لإسكات الحاضرين إلا أن يتقدم باقتراح نصه : « يعلن الحاضرون فى هذا الاجتماع أن الدكتور توماس ستوكمان طبيب الحمامات عدو للشعب » .

ويقابل اقتراح أسلاكسن بعاصفة من التصفيق . وتؤخذ الأصوات فإذا الجميع يؤيدون الاقتراح ما خلا رجل مخمور كان يترنح فى القاعة . وبهذا ينفض الاجتماع ، وينصرف الناس ساخطين ، وإن كان بينهم من امتلأ أسفاً على الدكتور ستوكمان هذا الذى أحبه أهل المدينة وأجلوه إلى عهد قريب . أما كثرتهم فتنصرف حانقة ثائرة ومنهم نفر يقصد إلى دار الدكتور ستوكمان ليقذف نوافذه بالحجارة .

ولم يكن كل أهل المدينة بالبلهاء الذين لا يدركون حقيقة الموقف ، بل كانت منهم طائفة لا بأس بها تعطف على الدكتور ستوكمان وتقدر حقيقة الخطر المحدق بالمدينة ولكن من ذا الذى يجرؤ على مواجهة الرأى العام المعبأ ؟ إن الدكتور ستوكمان قد تسلم خطاباً بإعفائه من وظيفته ، وقد أوضح له أخوه أن السلطات لن تأذن له بفتح عيادة فى المدينة . بعد كل ما كان . وهذه بترا تتسلم من ناظرة مدرستها الطيبة المتحررة خطاباً بالاستغناء عن خدماتها . بل إن الغلامين مورتن

وإيليف يعودان من المدرسة ممزقى الثياب بعد أن تشاجرا مع تلاميذ المدرسة فأمرهما الناظر بالانقطاع عن المدرسة حتى تعود السكينة إلى النفوس . ثم هذا الدكتور ستوكمان يتلقى من صاحب البيت الطيب إنذاراً بالإخلاء بعد أن قررت المدينة أن الدكتور ستوكمان عدو الشعب ، وأخيراً فإن العجوز كيل ، وهو صاحب المدابغ التى تلوث مياه الحمامات ، يغضبه أن يجعل زوج ابنته الدكتور ستوكمان من مدابغه هدفاً لحملته فيعدل وصيته ويحرم آل توماس ستوكمان من الميراث .

وكيف يعيش آل ستوكمان بعد ذلك فى هذه المدينة ؟ لابد لهم من النزوح عنها إلى مكان آخر . إن رحمة الله بآل توماس ستوكمان أن صديقاً واحداً من أصدقائهم الكثيرين قد ثبت إلى جانبهم فى محنتهم ، وهذا هو القبطان هورستر ربان السفينة التى تقلع بانتظام إلى الدنيا الجديدة . وهورستر قد وعدهم بنقلهم فى رحلته القادمة إلى أمريكا حيث يبدأون حياة جديدة . ولكن هورستر لن يستطيع أن يفى بوعده لأن صاحب السفينة الذى يستخدمه قبطاناً لها قد استغنى عن خدماته جزاء له على وفائه للدكتور ستوكمان .

* * *

ويأتى العمدة بيتر ستوكمان ليساوم أخاه فى أمر جديد . إن مصلحة الجميع أن ينزح الدكتور ستوكمان عن البلدة فترة من الزمن لأن الرأى العام ثائر عليه وعازم على أن يسد فى وجهه جميع الأبواب . .

ولكن إذا تدبر الدكتور ستوكمان الأمر ووجد أن فى إمكانه أن يكتب تقريراً آخر يعدل فيه عن آرائه السابقة ويعلن أن أبحاثه الجديدة دلته على نقاوة مياه الحمامات ، فإن فى استطاعة العمدة عندئذ أن يتوسط لدى لجنة الحمامات لترده إلى وظيفته . أما الرأى العام فهو شىء سريع التحول ، وبيتر ستوكمان يضمن لأخيه أن كل شىء سيعود إلى مجراه . .

نعم . إن السلطات رغم كل هذا الاضطهاد الذى أنزلته بعدو الشعب تعلم علم اليقين أن « الحقيقة » كالشرارة إذا انطلقت فليس هناك ما يخمدها ، وأن الخواطر المبلبلة لن يعود إليها السكون إلا بكلمة طيبة يلقيها الدكتور ستوكمان المفترى عليه .

وهاهى أسهم شركة الحمامات تتدهور فى السوق تدهوراً شديداً رغم التأكيدات الرسمية بأن كل شىء على ما يرام ، وها هو ذا العجوز النحيل الماكر كيل يغتنم هذه الفرصة فيشترى أكثرها بثمن بخس .

ويأبى الدكتور ستوكمان أن يستجيب لطلب أخيه العمدة ، فيشهر العمدة فى وجهه سلاحاً قذراً : إنه سيذيع فى الناس أن الدكتور ستوكمان إنما اختلق كل هذه الأكاذيب حول مياه الحمامات بالتواطؤ مع أبى زوجته العجوز الماكر كيل لتتدهور أسهم الشركة وبهذا يستولى عليها كيل بأبخس ثمن . بل إن هوفستاد يخف إلى الدكتور ستوكمان حين يأتيه هذا النبأ يعرض عليه باسم الصحافة الحرة أن يروج نظريته فى فساد الحمامات مقابل نصيب فى الأرباح . . .

وهنا يتيقن الدكتور ستوكمان أن العفن الذى يسمم مياه الحمامات لا يقاس بالعفن الذى يسمم قلوب أهل المدينة .

وتبرق فى خاطره فكرة هائلة . إن رسالته لم تعد تنقية المياه بل تنقية النفوس من كل هذا العفن الأخلاقى ، مصدر كل عفن فى المدينة .

لن يرحل الدكتور ستوكمان عن المدينة لأن المدينة هى ميدان المعركة ، وهو لا يفر من المعركة .

لسوف ينشئ مدرسة فى البيت الكبير الذى يملكه القبطان هورستر ، مدرسة من نوع جديد يغرس منها تعاليمه وإيمانه بالمثل العليا فى نفوس النشء ، تعاونه فى ذلك ابنته بترا . إن الجيل الحالى موبوء ولا أمل فى إصلاحه . . نعم لا أمل إلا فى الجيل الجديد .

ومن أين للدكتور ستوكمان بالتلاميذ ؟ إن المدينة ليست فيها أسرة واحدة تقبل أن تسلمه ولدها .

ولكن الدكتور ستوكمان يعلم أن لكل شىء بداية ، ولسوف يبدأ بولديه ، مورتن وإيليف فهما أول تلميذين فى هذه المدرسة الجديدة . كلا . إنه بحاجة إلى اثنى عشر تلميذاً يقف بينهم كذلك « المعلم » القديم ويلتفون حوله التفاف الحواريين بالمعلم .

وهكذا يرسل الدكتور ستوكمان ولديه ليطوفا بأحياء الفقراء ويجمعان له من أزقة المدينة طائفة من الأطفال الحفاة الجياع . . ليبدأ بهم المدرسة الجديدة .

سيرانو دى برجراك

الكاتب الفرنسى أدمون روستان

نحن الآن فى عام ١٦٤٠ وقد اجتمعنا فى فندق بباريس يدعى هوتيل بورجونيا حيث خصص ملعب التنس لعرض الروايات التمثيلية كما جرت العادة فى ذلك العصر. وقد زينت قاعة الملعب ووضعت فيها المقاعد للنظارة وعلى خشبة المسرح نفسها صفت بعض المقاعد على الجانبين لكبار القوم ، وظهرت بعض الإعلانات هنا وهناك تقول إن فرقة التمثيل ستعرض مسرحية اسمها « كلوديس » .

ويتوافد النظارة زرافات ووحداناً : فمنهم الفرسان ومنهم جنود الحرس الملكى ومنهم المواطنون العاديون تصحبهم زوجاتهم أو بناتهم ومنهم الأشراف من أدواق ودوقات وبارونات ومركيزات وتدور البنت الجميلة بائعة المرطبات بين الحضور منادية عما معها من عصير ونبيذ وبرتقال وسط هذا الجمع اللاغط : ولا يخلو الجمع من سكران ومن نشال ومن حارس يطارد بائعة المرطبات طالباً منها قبلة . ويأتى من يضىء المصابيح والشموع فى القاعة لأن الظلام قد بدأ ينتشر فيها فيشجع النشال وغلمانه على العمل .

ونرى فى إحدى المقاصير رجال الأكاديمية الفرنسية وهنا وهناك جماعة من النقاد والمثقفين والشعراء المجددين الذين كانوا يلتفون حول داع من دعاة الشعر فى ذلك الزمان يدعى راجنو . وهو صاحب مخبز لصنع الفطائر والحلوى يجتمع شعراء المدرسة الجديدة فى مخبزه فيطعمهم من جوع .

ويبحث راجنو عن صديقه الشاعر رب السيف والقلم سيرانو دى برجراك فلا يجده بين الحضور . فيعجب لذلك أشد العجب لأنه يعلم أن سيرانو يبغض الممثل الأول البدين مونفليرى وأنه عازم على منعه من الظهور على خشبة المسرح بأى ثمن حماية منه لفن التمثيل .

وبين النظارة فتى وسيم جميل المحيا هو البارون كريستيان دى نوفيليت ، وهو فى صحبة شاعر يدعى لنيير ، وقد جاء هذا البارون الوسيم إلى فندق بورجونيا ليشهد المسرحية فإذا به يمتع البصر فى مرأى الفتاة الجميلة روكسانا بنت عم سيرانودى برجراك التى جلست ومعها وصيفتها فى مقصورة بين طائفة من النبلاء يحيط بها كهل من أصحاب المقام الرفيع فى الدولة هو الكونت دى جيش زير النساء المعروف الذى يستمد سلطانه من الكاردينال ريشيليو عم زوجته . وقد فتن الكونت دى جيش بجمال روكسانا الجميلة فذهب يتودد إليها راجياً أن يتخذ منها عشيقة له بعد أن يزوجها إلى فيكونت شاب من أتباعه هو الفيكونت دى فالفير . ولم تكن روكسانا الجميلة تبادل دى جيش شيئاً من شعوره ، ولكنها كانت تقبل دعواته الكثيرة خوفاً من بطشه . وهى الآن تظهر فى المقصورة بين الكونت دى جيش والشاب فالفير وتبدى لهما من الأدب ما تقضى به اللياقة أما قلبها وبصرها فقد اتجها صوب القاعة حيث جلس الفتى الوسيم البارون كرستيان دى نوفيايت ، فما أحب قلبها إلا هذا الفتى الوسيم وما خطف بصرها إلا هذا الفتى الوسيم وهى الآن تراقبه من مقصورتها وهو الآن يرقبها من مكانه فى القاعة شاخص البصر كالمسحور أو كالسابح فى بحران . إنه الحب من أول نظرة فما رأى أحدهما الآخر قبل الليلة .

ويعلم الفتى كريستيان بأمر فالفير وما يرتبه له الكونت العجوز المتصابى فتأكل الغيرة قلبه ويوشك أن يتحدى فالفير للمبارزة ولكن شيئاً مايصرفه عن عزمه هذا . فهو يهم باستخراج قفازه من جيبه ليقذف به فى وجه فالفير ، كما كانت تقضى بذلك أصول الدعوة إلى المبارزة ، فما أن يدس يده فى جيبه حتى يجد يد النشال تعبث فيه ، فيقبض عليه بقبضة من فولاذ ولا يخلى سبيله حتى يقف منه على سر خطير وهو أن حياة صاحبه لنيير قد غدت فى خطر ، فهناك مكيدة لقتله عقاباً له على ما نظمه من أشعار يهجو فيها نبيلا من النبلاء ، وهناك مائة رجل قد نصبوا له كميناً عند باب نيل بباريس وسينقضون عليه الليلة عند عودته إلى داره .

وفيما هو حائر بين حماية صديقه ومبارزة غريمه يرتفع الستار ويبدأ التمثيل . وما أن يظهر الممثل مونفليرى على خشبه المسرح حتى يدوى فى القاعة صوت راعد هو صوت سيرانو دى برجراك وهو يسب ويصخب ويأمر مونفليرى بالكف

عن التمثيل وبالانصراف متوعداً إياه بعقاب أليم إن هو لم يصدع بالأمر .

ويسود القاعة صمت عميق ثم اضطراب شديد . وهنا يقف سيرانو دى برجراك على مقعد وقد عقد ذراعيه على صدره ويزمجر مرة أخرى فى الممثل مونفليرى أن يترك توًّا خشبة المسرح وإلا . . .

هذا هو سيرانو دى برجراك فتى جسكونيا المشهور أشجع الشجعان الذى ذاع صيته بما اجتمع له من سحر البيان ومن بأس الحسام . كان يقرض الشعر وكأنه غلالة من نور البدر فى الليلة القمراء ، وكان يشهر السيف على أعدائه فيثخنهم بالجراح ولا يتركهم إلا أشلاء ممزقة . وقد اشتهر فتيان جسكونيا بين جميع فتيان فرنسا فى ذلك العصر الغابر بأنهم ضخام الأجسام لهم قلوب كالليوث يمزجون اللهو بالخمر والخمر بالشعر والشعر بالضرب والطعان لا تفوتهم فرصة لإظهار فتوتهم وصبابتهم وكلفهم بالنزال . وقد التف فتيان جسكونيا الشجعان حول فخر جسكونيا وفتى الفتيان ، الجندى الشاعر سيرانو دى برجراك واجتمعوا جميعاً فى خدمة النبيل الكريم البارون دى كاستيل جالو فهم سواعده فى الحرب وهم سواعده فى السلام .

ولكن سيرانو دى برجراك لم يكن رغم أمجاده الكثيرة بغير نقائص . فقد كانت هيئته تدعو إلى السخرية ، منحته الحياة من دمامة الوجه بقدر ما منحته من سخاء القلب : كان أنفه كبيراً مفرطاً فى الكبر يبرز فوق شاربه الغضنفرى ولحيته الكثة كأنه البرج النائى فوق الأشجار وعلى رأسه استقرت قبعته وعليها ثلاث رياش كأنها عرف الديك المتباهى ، وقد تدلى سيفه الطويل تحت معطفه الفضفاض فبدا بكل هذا مزيجاً من المهرج ومن البطل المهيب . وكانت أنف سيران مصدر إزعاج دائم له ولغيره . فما أن ينظر إليه ناظر حتى يحسبه يحدق فى أنفه فإن انصرف عنه ببصره حسبه يتجنب النظر إلى أنفه . فإن عرض أحد بأنفه جرد سيفه ودعاه للمبارزة .

ولا غرابة إذن أن يتحرج فتيان جسكونيا من الإشارة إلى أنف فتاهم . ولا غرابة أن تكون أنف سيرانو سبباً فى مواقف دامية .

فحين يقف سيرانو على مقعده وسط القاعة ويأمر الممثل مونفليرى بمغادرة

المسرح يأخذ العجب النظارة فى أول الأمر ثم يفيقون من دهشتهم ، ويتعالى صياحهم بين معجب بسيرانو ومستنكر لتدخله . ويطلب النظارة إلى مونفليرى أن يمضى فى تمثيل دوره .

فيطلب مونفليرى إلى الجمهور أن يحميه من سيرانو . ولكن سيرانو يصيح فى النظارة صيحة راعدة تسكتهم جميعاً قائلا : إنه يتحداهم فرادى أو مجتمعين إلى القتال . وما أن تستقر يده على مقبض سيفه حتى يلوذ مونفليرى بالفرار تشيعه صيحات الجمهور الضاحك الهازئ : « أيها الجبان عد ، أيها الجبان ! » ، وينقلب سخط النظارة إلى إعجاب بسيرانو هذا الذى عوضهم عن مسرحية « كلوديس » بمسرحية أخرى أكثر حيوية وأدعى إلى السرور . ويتم سرور النظارة حين يعطى سيرانو مدير المسرح كيساً مليئاً بالمال ليرد للنظارة ما دفعوا لمشاهدة مسرحية « كلوديس » .

كل هذا والنبلاء بين جالس على المسرح وجالس فى مقصورته مغتاظون من هذا الرجل السليط الذى أفسد عليهم سهرة المساء . وأخيراً يقول الكونت دى جيش فى تأفف : « أليس بينكم من يتدخل ؟ » وهنا ينهض فالفير مجيباً أنه سيضعه عند حده .

ويتقدم فالفير نحو سيرانو ويتفحصه بنظرة فيها استعلاء ويقول :

فالفير : أرى أن لك أنفاً أكبر من المألوف !

سيرانو (فى جد) : نعم ، أكبر من المألوف .

فالفير : أنت توافقنى .

سيرانو (فى برود) أهذا كل ما لديك ؟

فالفير (يشيح عنه هازاً كتفيه) طبعاً . . .

سيرانو : كلا يا سيدى الشاب ! إنك غر ساذج ، كان فى إمكانك أن تقول أشياء لا حصر لها ؛ فبالله لماذا تضيع فرصتك ؟ مثلا : قل فى تحد : يا سيدى ! لو أن أنفك هذا كان فى وجهى لجدعته فوراً . أو قل فى رفق الصديق ! كيف تشرب من تحت هذا الأنف المهول ؟ يجمل بك أن تصنع لك كأساً على قياسك . أو قل قول الواصف : أنفك هذا صخرة ، أو جلمود أو رأس ناتئ فى البحر . لا ، لا ، بل هو شبه جزيرة ، أو قل متسائلا ؟ ما هذا الجراب فى وجهك ، أهو جراب

الموسى أم هو حافظة نقود ؟ أو قل فى حنان أبلغ من حبك للطير إنك بنيت له هذا العش ليحط عليه كلما جاء ليزقزق لك ويعود ؟ أو قل فى وقاحة : يا سيدى ، كلما دخنت حسب الجيران أن فى مدخنتك حريقاً . أو قل محذراً : إناك توشك أن تتهافت تحت هذا العبء الرازح . . .

وهكذا يمضى سيرانو فى استفزازه لفالفير ، وما أن يفرغ من تهكمه به وتهكمه بنفسه حتى يتحداه للمبارزة ، ويشهد الحاضرين على أنه سيرتجل قصيدة عصماء ويردف كل قافية بطعنة ولا يجهز على غريمه إلا فى آخر بيت من قصيدته . فيجرد كل منهما سيفه وتكون أعجب مبارزة فى التاريخ كل حركة فيها موقعة على أنغام القريض . ولا يفرغ سيرانو من شعره حتى يسدد الطعنة النجلاء إلى صدر فالفير فيخر فالفير متخبطاً فى دمائه تحمله سواعد أصدقائه ، بين تهليل المعجبين بسيرانو دى برجراك .

ولكن بين الحضور امرأة كانت تتبع هذه المبارزة باهتمام يتجاوز كل اهتمام . وهذه هى روكسانا الجميلة بنت عم سيرانو التى نجت بموت فالفير من زواج لاتريده . وترسل روكسانا وصيفتها إلى سيرانو قائلة إنها تود لقاءه فى صبيحة الغد لأمر هام فيتواعدا على اللقاء فى دكان راجنو صانع الحلوى فى شارع سانت أونوريه .

لم تبق أمام سيرانو إلا مهمة بسيطة وخطيرة معاً . إنه يعلم بالكمين الذى نصب عند باب نيل لاغتيال الشاعر السكير لنيير . وهو عازم على إنقاذه من الموت . إن هناك مائة رجل يختبئون فى الظلام للفتك بلنيير المسكين ، ولكن سيرانو يباهى أمام الجميع أنه سيقابلهم وحده دون حاجة إلى معونة . وأنه سيصرعهم ويشتتهم بمفرده . وهكذا ينطلق سيرانو من فندق بورجونيا يتبعه فتيان جسكونيا ونفر من الممثلين والنظارة ليشهدوا هذه المعركة العجيبة بين رجل واحد ومائة رجل : تلك المعركة التى ستتحدث بها باريس كلها لسنوات وسنوات .

وفى صبيحة اليوم التالى ينتظر سيرانو ابنة عمه الجميلة روكسانا فى دكان راجنو .

إن قلبه يخفق فى اضطراب عظيم وأن عقله فى حيرة عظيمة ، فهو لا يعلم لهذا

اللقاء سبباً، وهو لا يدرى أيطرب لهذا اللقاء أم يرتجف له، شأن كل عاشق وجل .
نعم . إن سيرانو يحب ابنة عمه روكسانا حباً امتلك روحه وقلبه وحشاشته ،ولكم نظم فى هواها عذب القريض ، ولكنه يكتم عنها هواه ، فهى لا تعلم شيئاً عما يفترس فؤاده من عذاب الغرام . إن سيرانو قد يكون رقيق النفس ولكنه دميم الخلقة ، فكيف يتقدم إلى أجمل من فى الوجود طارحاً عند قدميها قلبه معرباً عن هواه . إنه لا يجرؤ . . إنه لا يجرؤ .

ولكن ترى ماذا تبغى روكسانا من هذا اللقاء ؟ ها هى ذى تقبل عليه وتحييه وتنزع عنها قناعها وتتبسط معه فى الحديث فقد جاءت تشكره على إنقاذه إياها من براثن فالفير وترجو أن تنقذها المقادير من براثن الكونت العجوز دى جيش الذى يتقرب إليها وهى لا تملك معه إلا الرد الحسن والرفض اللين خشية أن يبطش بها وبذويها فهو واسع السلطان .

ولكن روكسانا لم تسع إلى هذا اللقاء لتشكر سيرانو فحسب ولكن لتفضى له بسر خطير .

إنها متيمة بحب الفتى النبيل الوسيم كريستيان دى نوفيليت ، وهى قد جاءت إلى ابن عمها المغوار ترجوه أن يرعاه وأن يحميه من أعدائه . إن كريستيان نورماندى من الشمال وليس جسكونياً ، ولكنها قد سعت إلى نقله إلى الحرس الجسكونى القائم على خدمة البارون دى كاستيل جالو ، ليكون فى رعاية سيرانو فينهاه عن المبارزات ويرد عنه الأخطار .

ويستمع سيرانو إلى كل هذا الحديث وقلبه يتمزق ألماً . ولا يزال يجالد نفسه حتى ينتصر عليها ويعد روكسانا خيراً : إنه يحبها من أعمق أعماقه ، يحبها حب شاعر تتمثل له روكسانا فى كل ما حوله من آلاء الوجود . وهل يقاس الحب إلا بالتضحية ؟ إنها لا تعلم شيئاً عما يكنه لها من غرام ، ولسوف يكتم عنها سيرانو غرامه ويكابد الحب مبتسماً كأنه الخلى الذى لا يعيش إلا ليومه . وروكسانا لا تطلب إلى سيرانو شيئاً كثيراً . إنها تطلب أن يكتب إليها كريستيان رسالة يحدثها فيها عن نفسه وعن حاله وآماله .

وهكذا تنصرف روكسانا وقد تركت محبوبها أمانة فى عنق عاشقها المعمود سيرانو دى برجراك .

وما أن يقبل على فتيان جسكونيا المجتمعين فى دكان راجنو ذلك الفتى النورماندى حتى يتحرشوا به بين عابث وساخر . فهم لا يرون الشجاعة فى أهل الشمال ، وهم يحذرونه من ذكر أى شىء يشير إلى أنف زعيمهم سيرانو . ويضيق كريستيان دى نوفيليت بسلاطة فتيان جسكونيا وكثرة تفاخرهم فلا يستفز صغارهم بل يستفز بطلهم سيرانو نفسه بين دهشة الحاضرين . وفيما يقص سيرانو على رجاله أمجاده فى مبارزة الأمس يقاطعه كريستيان فى تهكم وتحد كأنه يريد أن يخرجه عن طوره .

سيرانو : . . . وتراكبت أطباق الظلام ، ولم يكن فى هذه الشوارع الخلفية مصباح واحد . . . أجل كان الظلام كثيفاً . . . يا لله ! ما كنت ترى أبعد . . .

كريستيان : من أنفك ! (صمت. يقف الجميع ببطء ناظرين إلى سيرانو فيما يشبه الجزع . ويكف سيرانو عن الكلام دهشاً . بعد برهة) .

سيرانو : من يكون هذا الرجل ؟

ضابط (فى صوت خفيض) : ضابط جديد . . وصل هذا الصباح .

كاستيل جالو (فى صوت خفيض) : اسمه كريستيان دى نوفيل . .

سيرانو (فجأة بلا حراك) : آه . . . فهمت . . (يضبط شعوره) كما كنت أقول : أظلمت الدنيا فما كنت ترى أبعد من عينيك . . وتقدمت وأنا أفكر فى هذا الشاعر الذى من أجله — أقاتل فقد كان ينظم قصيدة بذيئة كلما امتلأ . .

كريستيان : أنفه . . .

سيرانو (يكاد يختنق) : رأسه بالأفكار البذيئة . فمن أجله كنت أتحدى أقوياء الرجال من كل ذى خطر يجعلنى أقاتل رغم . . .

كريستيان : أنفى . .

وهكذا يمضى كريستيان فى استفزاز سيرانو ، حتى يضيق به سيرانو ذرعاً ، فهو يريد أن يبطش به ولكنه يعلم أنه لا يستطيع المساس بهذا الفتى الوسيم الذى علق به قلب روكسانا حتى لقد جاءت تطلب إليه وقايته من كل سوء . ويأخذ سيرانو هياج شديد فيطرد كل من بالغرفة إلا الفتى كريستيان .

وما أن ينفرد سيرانو بكريستيان حتى يطلعه على حقيقة الأمر ثم يعانقه عناق

الصديق . إن روكسانا تحبه وتنتظر منه الرسائل . وحين يعلم كريستان بذلك يوشك أن يرقص طرباً ، فهو أيضاً صريع هواها منذ أن وقعت عليها عيناه فى الليلة السابقة .

ولكن ترى ما العمل ؟ إن كريستيان جندى جسور القلب جسور السيف يعرف كيف يغلظ القول للرجال ويحفظ مكانته بين الفتيان ولكنه خجول أمام النساء عيي فى أسواق الغرام ، لا يقف بين يدى حسناء حتى ينعقد لسانه ويرتج عليه . إنه على نقيض سيرانو تماماً ، فسيرانو مسخ شائه ولكنه شاعر مفطور ، لا يعوزه كلام ولا يقصر عن معنى نبيل أو عبارة ساحرة . إنه روح شاهقة فى بدن خسيس . أما كريستيان الوسيم فهو جسد جميل تنقصه القريحة والمعانى واللفظ النبيل .

ويجد الرجلان أن كلا منهما يكمل الآخر ، فيتفقان على تمثيل كوميديا عجيبة ليس فيها إلا بطل واحد له وجه كريستيان الجميل وروح سيرانو الشاعرة .

ويخفى سيرانو عن صديقه حقيقة لواعجه وهو يتحدث عن هذه الملهاة التى هى فى حقيقة الأمر مأساة مستورة لا تراها العيون . لسوف يبث سيرانو صفية فؤاده روكسانا أشواقه ويترنم بجمالها فى أعذب القريض على لسان كريستيان وهكذا يخفى جراح قلبه المكلوم عن أنظار المتطفلين . ولن تعلم روكسانا عن ذلك شيئاً حتى لا يفجعها فى أحلامها الجميلة .

وهكذا يكتب سيرانو الرسائل العاطرة الفياضة بأرق معانى الغزل فيوقعها كريستيان ويبعث بها إلى روكسانا ، فتسحر روكسانا بسحر البيان بعد أن سحرت بجمال الفتوة . وبعد رسائل المحبين لابد من تلاق ، وهكذا يقف كريستيان تحت نافذة محبوبته المضيئة وقفة روميو تحت شرفة جولييت ، فتكون أعجب مناجاة جاءت فى معجم العشاق ؛ يقف سيرانو المسكين فى الظلام بين الأشجار كالبلبل الصداح يلهم كريستيان بأعذب الأشعار ، فالوحى من سيرانو والصوت من كريستيان ، وتطرب روكسانا لهذه النجوى التى تسمع فى هدوء الليل فتخرج إلى عاشقها فى شرفتها ويزين لسيرانو شيطانه أن يكف عن هذه التمثيلية وأن يتقدم بشخصه إلى روكسانا . فيتخلى عن كريستيان بين الحين والحين فيتلعثم وتضطرب أقواله و يبدو عيه لروكسانا وهى عاجبة من أمر فتاها ، ولكن سيرانو لا يلبث أن يخف

لنجدة كريستيان فينتشر سحر الخيال من جديد على شرفة الغرام وحين تقبل روكسانا كريستيان يقبل سيرانو حكم القضاء عليه وهو كاسف البال .

ويأتى راهب يقطع عليهم هذا الموقف الفريد ، فهو موفد برسالة من عند الكونت دى جيش الذى يقول إن طبول الحرب تدق عند أراس وإنه يتأهب للخروج مع رجاله لمقاتلة الإسبان هناك ، ومن رجاله سيرانو وكريستيان . وليس للكونت إلا ضراعة واحدة وهى أن يحظى برضاها فى هذه الليلة الأخيرة ، وإنه لقادم فى إثر هذا الراهب الرسول .

وما أن تفض روكسانا الرسالة وتقف على ما فيها حتى تدرك أن الوقت قد حان ولا بد من حسم الأمور فسوف يمضى حبيبها مع فتيان جسكونيا وراء قائدهم الأعلى الكونت دى جيش إلى حومة القتال فتزعم للراهب الساذج أن فى الرسالة أمراً استصدره الكونت دى جيش من الكاردينال ريشيليو بأن يعقد الراهب عقد زواجها من البارون كريستيان دى نوفيليت دون إبطاء .

وتنطلى الحيلة على الراهب الساذج فيدخل دار روكسانا حيث يجرى مراسيم زواجها من كريستيان فى حين يبقى سيرانو فى الحديقة ليحول دون دخول دى جيش الدار عند قدومه حتى تنتهى مراسيم الزواج .

وهكذا يفترق الزوجان . كريستيان وروكسانا فى ليلة الزفاف بأمر من الكونت دى جيش . ويمضى كريستيان وسيرانو بين فتيان جسكونيا إلى أراس حيث يعسكرون طويلا تحت إمرة كاستيل جالو وقائدهم الأعلى الكونت دى جيش . وكون بينهم وبين الإسبان حرب مريرة سجال . وإذا بهم بعد أن كانوا يحاصرون الإسبان قد أصبحوا محاصرين . وتنفد مؤونتهم من الطعام والنبيذ فإذا بطونهم خاوية أياماً وأياماً .

وفيما هم فى هذا البؤس الشديد تظهر أمام المعسكر عربة ملكية مطهمة الجياد وقد اخترقت صفوف الأعداء . وتخرج من هذه العربة روكسانا التى قررت أن تلقى الموت أو تنعم بالحياة إلى جوار زوجها ، فهى لم تعد تطيق أشجان الفراق وكيف تطيق عن زوجها بعداً وقد ألهب سيرانو خيالها وأجج عواطفها برسائله المتصلة التى كان يرسل منها كل يوم باسم زوجها رسالة على غير علمه . وأية امرأة فى العالم

تستطيع أن تقاوم كل هذا الشعور الفياض الذى يتغلغل فى الروح وفى الجسد كأنه الشهد المسموم .

وهنا تكون الطامة الكبرى . إن رسائل سيرانو قد بدلت من نفس روكسانا وها هى ذى تعترف لزوجها أنها لم تعد تحبه لجمال جسده بل لجمال روحه ، بل إنها تحتقر جمال الجسد ولا تقيم وزناً إلا لجمال الروح .

ولو أن كريستيان كان فى دمامة سيرانو لحفظت حبها له من أجل شعره الخالد . فوارحمتاه لسيرانو وهو يسمع هذا الاعتراف ، وارحمتاه لهذا الزوج الجميل !

ويأمرها دى جيش أن تعود من حيث أتت فما للنساء مكان فى معسكرات الجنود والإسبان متأهبون للانقضاض على الفرنسيين كالوحوش الكاسرة .

ولكن روكسانا تأبى أن تتحرك قيد شعرة .

ويعلو قصف المدافع وتنتشر رائحة البارود وترتفع الصرخات من كل جانب وفى غمضة عين تجد روكسانا نفسها وحيدة فى الخيمة ، فقد خرج الجميع إلى النزال وقد اتخذوا من منديلها راية يقاتلون تحتها بعد أن ربطه سيرانو فى رمح وغرس الرمح بين الاستحكامات .

فهل رأيت معركة كل من فيها يطلب الموت وليس فيها من يطلب الحياة ؟ هذه معركة أراس تحت راية الحب .

إن الزوج فيها بائس يقذف بنفسه فى المعمعان لأن زوجه الجميلة لم تعد تحبه لذاته بل لرياشه الجميلة المستعارة التى يحلق فيها على جناح الشعر والعاشق فيها يائس لأن المنهل العذب قد غدا قريباً من شفتيه ، وهو على ذلك أبعد من السراب وأمنع من الحرم المصون . وفتيان جسكونيا يائسون بلا خبز ولا نبيذ فهم يؤثرون الموت على هذه الحياة الخاوية .

وتحت راية الحب يسقط كريستيان صريعاً برصاص الإسبان ، فيحمل فتيان جسكونيا جثمانه إلى روكسانا الملتاعة . لقد ذهب كريستيان وذهب معه سره ، ولم يبق له من أثر إلا رسائله الجميلة ، وكان آخر هذه الرسائل رسالة الوداع التى أخفاها فى صداره ، وتحت راية اليأس ينجلى البارود ويلمع السلاح الأبيض فيجرد

سيرانو دى برجراك ومن حوله فتيان جسكونيا سيوفهم وينقضون فى مثل النقع انقضاض الليوث .

وهكذا تنتهى حكاية كريستيان الجميل فكيف إذن تنتهى حكاية الشاعر سيرانو ؟

خمسة عشر عاماً تمر بعد هذه الأحداث فلا تبلى ذكراها ولا تجفف نضرة الجمال . إن روكسانا قد انزوت فى الدير بعد موت زوجها وعاشت فى عزلة عن الحياة خمسة عشر عاماً ، ولم يعد يصلها بالأحياء إلا ابن عمها الشاعر العاشق الوفى سيرانو دى برجراك .

إنه يعودها فى الدير يوم السبت من كل أسبوع ويجلس إلى جوارها ويقص عليها أنباء المدينة كأنه يعد لها يوميات شفوية توضح لها معالم ذلك الزمان الطويل الذى لا أول له ولا آخر ، فيدخل على قلبها الحزين بعض السرور . وهى تستمع إليه فى سعادة حزينة ومن حولها أطياف الماضى ، بل من حولها طيف واحد هو طيف زوجها كريستيان . وعلى حجرها ثوب تحليه بوشى الإبرة فلا تفرغ من الوشى أبداً .

أما سيرانو فقد ساءت حاله وقست عليه العزلة واشتد فقره وغدا يزداد كل يوم عنفاً فينظم الهجاء فى كل من يقابله حتى كثر أعداؤه ولم يجد له مكاناً فى المجتمع فاعتزل الناس . وغدا لشعره موضوع واحد هو « المزيفون » : الأبطال المزيفون والنبلاء المزيفون والفنانون المزيفون . ولم يعد يذوق للسعادة طعماً إلا يوم يعود روكسانا ليثرثر بين يديها ثرثرة الطفل البرىء بيومياته عن الحياة والأحياء .

حتى يكون آخر يوم وهو نهاية المطاف فنحن فى يوم من أيام السبت فى أكتوبر من عام ١٦٥٥ والشمس قد مالت نحو الأصيل . وروكسانا جالسة فى حديقة الدير تنتظر سيرانو فلا يحضر فى موعده . وتعجب — روكسانا — لتأخره فهو ما تأخر يوماً عن موعده — ولكن سيرانو لا يلبث أن يبدو أمامها شاحب الوجه فى شحوب الموتى . وتمضى روكسانا بإبرتها فى وشيها دون أن ترفع إليه بصرها . ويعتذر لها بأن زائراً طارئاً عوقه فى الطريق قائلا إنه على موعد معه قبل الغروب . ولم يكن هذا الزائر غير « الموت » فقد تآمر بسيرانو نفر من أعدائه الجبناء الذين لم

يستطيعوا أن يواجهوا سيفه فسلطوا عليه أجيراً ألقى على رأسه جذع شجرة من سطح بيت فشج رأسه ، وهو الآن معصوب الرأس . تتخفى عصابته تحت قبعته الكبيرة. وهو الآن يغالب الموت متكلفاً الهدوء والابتسام .

ويذهب سيرانو يلغو بتلاوة يومياته الشفوية .

ويصيبه إغماء خفيف ولكنه لا يلبث أن يسترد رشده قائلا إن جرحه القديم الذى أصابه فى رأسه قد بدأ يوجعه . وتذكر روكسانا أيضاً جرحها القديم الذى أصابها فى آراس ، وتخرج من صدرها آخر خطاب لكريستيان وقد غدا ورقة بالية خضبها الدم والدموع . ويمسك سيرانو بالخطاب ويذهب يقرؤه فى غير تعثر كأنه يحفظه عن ظهر قلب ، ويرخى المساء سدوله فينتشر فى الحديقة الظلام . ولكن سيرانو يمضى فى تلاوته رغم الظلام .

وتحملق روكسانا فى سيرانو عاجبة وقد دب فى قلبها شعور غريب . إنها تدرك الآن أن سيرانو هو كاتب هذه الرسائل وتواجهه بهذه الحقيقة فينكر ويمعن فى الإنكار . ليس هناك إلا زوجها . أما هو فما أحبها قط . ولكن روكسانا تفهم كل شىء .

وما جدوى كل هذا . . وقد فات الأوان . ؟

أجل ! لقد فات الأوان ؛ فالليل الذى هبط فى الحديقة هبط كذلك فى روحه وانتشر .

إن الموت يقترب من سيرانو دى برجراك وهل يموت فتى جاسكونيا كما يموت سائر الرجال ؟

كلا . إن الحمى تأخذه فيستولى على عقله الهذيان . ويخيل إليه أن الموت قد تجسد أمامه فى صورة عدو يريد أن ينازله فيجرد سيرانو سيفه ويذهب يلوح به ويطعن فى الهواء كأنه يبارز شبحاً خفياً ، حتى تغيض من جسده الروح فيسقط جثة هامدة عند قدمى روكسانا التى وهبها عصارة القلب وأسمى ما فى الحياة .

زوج مثالى

للكاتب الأيرلندى أوسكار وايلد

تجرى وقائع هذه الكوميديا فى لندن بين أبناء الأرستقراطية الإنجليزية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأبطالها هم السير روبرت تشيلترن وزوجته الليدى تشيلترن وأخته الآنسة مابل تشيلترن ، ومن حولهم من خدم وحشم ، من ناحية ، واللورد جورنج الشاب وأبوه العجوز الإيرل كافرشام من ناحية أخرى . ولكن محور هذه الكوميديا الذى يدور حوله كل شىء وتوشك أن تتحول به الملهاة إلى مأساة ، امرأة تدعى مسز تشيفلى . دخلت حياة آل تشيلترن أربعاً وعشرين ساعة فانقلبت حياتهم رأساً على عقب . ثم خرجت منها فعاد كل شىء إلى مجراه وانقشعت الغمامة السوداء التى خيمت عليهم وأنذرت بسوء المصير : فعاش الجميع فى التبات والنبات .

أما الزوج المثالى فهو السير روبرت تشيلترن نفسه ، الذى كان وكيل وزارة خارجية بريطانيا العظمى قبل أن تغرب الشمس عن أملاكها . وهو رجل ممتاز لا يخلو من الكبرياء فى الأربعين من عمره بلغ بجده المتواصل واستقامته التى لا يشوبها غبار هذا المنصب الخطير فى هذه السن الباكرة . وأما زوجته الفاضلة الليدى تشيلترن فقد كانت فى السابعة والعشرين من عمرها جمالها وقور كجمال اليونان . وأما أخته مابل تشيلترن . فقد كانت فى مقتبل الشباب حول العشرين تفيض بالصحة والنضارة كأنها وردة عاطرة . وكانت نموذجاً حياً للجمال الإنجليزى . وكان اللورد جورنج أخلص صديق للسير روبرت تشيلترن . وكان شاباً وسيماً فى الرابعة والثلاثين ، شديد العناية بهندامه . وكان نموذجاً كاملا لشباب الأرستقراطية الذى لا يعمل شيئاً فى الحياة ، بل يقضى عمره كالفراشة ينتقل بين الزهور ويختلف إلى الحفلات والصالونات والمعارض وحلبات السباق . ويتحاشى أباه العجوز الإيرل كافرشام الذى لا يمل تعنيفه على بطالته وإسرافه وتبديده العمر فيما لا ينفع .

لم يبق إلا السيدة الغريبة مسز تشيفلى لتكمل صورة هذا المجتمع الراقى الذى نحسبه لأول وهلة مجتمعاً نظيفاً ناعم البال لا يعرف مشاكل الحياة ، ثم نكتشف أنه مجتمع يخفى وراء بريق أنواره الباهرة وحديثه الطلق وأناقته البالغة من قاذورات الحياة شيئاً كثيراً ، ومن عذاب الذنوب ما يضنى القلوب . ومسز تشيفلى هذه سيدة فى نحو الثلاثين من عمرها ، آية فى الرشاقة ، تتبرج فى إسراف وتبرق على صدرها وفى ثوبها ماسات ساطعة تخطف الأبصار ، فهى تحفة فى نظر كل من يراها ، وإن كانت لا تستطيع أن تخفى شحوب وجهها أو رقة شفتيها بما وضعت من أحمر الخدود وأحمر الشفاه .

ونلتقى بهذا الجمع كله ذات مساء فى دار تشيلترن بميدان جروفنور ، حيث أقام آل تشيلترن حفلا ساهراً دعوا إليه علية القوم فى لندن . ووقفت الليدى تشيلترن تستقبل ضيوفها ومنهم الفيكونت دى نانجاك وهو ملحق فى سفارة فرنسا مصاب بداء الأنجلوفيليا ، فهو يحب إنجلترا أكثر مما يحبها الإنجليز ، ثم مسز مارتشمونت ، والليدى بازيلدون ، وبعد قليل تدخل الليدى ماركبى وفى صحبتها سيدة إنجليزية لم يرها الناس فى مجتمعات لندن منذ سنوات ، فقد كانت تقيم سنوات متصلة فى فيينا ، حتى اكتسبت مظهر الغرباء عن بلادها . وهذه السيدة هى مسز تشيفلى .

وما أن يدخل اللورد كافرشام العجوز حتى يسأل عن ابنه العاطل ، اللورد جورنج ، إن كان قد وصل . فتحتج الآنسة مابل تشيلترن بأن اللورد جورنج ليس عاطلا مطلقاً ، فهو يخرج كل صباح للرياضة على حصانه ، ويذهب إلى دار الأوبرا ثلاث مرات أسبوعياً ، ويغير ملابسه خمس مرات يومياً ، ويتعشى كل ليلة فى الخارج طول الموسم الاجتماعى . فمثل هذه الحياة الحافلة لا يمكن أن توصف بالكسل .

وتقول الليدى ماركبى إنها جاءتهم بضيفة جديدة وصلت لتوها من الخارج ، وهى مسز تشيفلى ، فيقول صاحب الدار ، السير روبرت تشيلترن ، إنه سمع بهذا الاسم من قبل . فيعلم أن مسز تشيفلى جاءت من فيينا ، وأنها سيدة من صفوة نساء المجتمع

هنالك ، أينما ذهبت تتجمع فضائح الطبقة الراقية حول أصدقائها . وتقدمه إليها الليدى ماركبى فينحنى السير روبرت ويقول : « كل الناس يتوقون إلى معرفة مسز تشيفلى . فلحقونا فى فيينا لا يكتبون لنا إلا عنها . وتقول الليدى تشيلترن إنها تعرف مسز تشيفلى من قبل . فتتظاهر مسز تشيفلى بالتجاهل وتجيب أنها لا تذكر أين كان لقاؤهما . فتقول الليدى تشيلترن إنهما كانتا معاً فى المدرسة . ولا يخلو لقاء السيدتين من بعض الجفاف فقد كان فى ذكريات المدرسة ما تحب مسز تشيفلى أن تمحوه من ذاكرتها . ويسألها اللورد جورنج إن كانت ستقيم فى لندن زمناً ، فتجيب مسز تشيفلى بأن ذلك يتوقف على الطقس وعلى الطاهى وعلى السير روبرت تشيلترن . ويظن السير روبرت أنها تشير إلى التوتر السياسى فى أوربا وخوف الناس من نشوب الحرب ، فتضحك مسز تشيفلى وتومئ إليه .

وتنتحى به مكانا قصياً لتفسر له قولها إن بقاءها فى إنجلترا يتوقف عليه ويسألها فى دهشة : « وكيف كان ذلك » ؟ فتجيبه قائلة : « إنها تريد أن تحدثه عن مشروع سياسى ومالى خطير ، هو مشروع شركة قنال الأرجنتين . ويقول السير روبرت فى رقة إن هذا موضوع عملى ممل بالنسبة لسيدة مثل مسز تشيفلى ، فتقول إنها تحب الموضوعات العملية المملة وإن كانت لا تحب الناس العمليين المملين . وفوق هذا فهى تعرف أن السير روبرت تشيلترن مهتم بمشروعات القنوات الدولية » ، منذ أن كان سكرتيراً للورد رادلى أيام أن اشترت الحكومة البريطانية أسهم قناة السويس .

فيجيبها السير روبرت قائلا : « هذا صحيح . ولكن قناة السويس كانت مشروعا عظيماً رائعاً . فهى قد فتحت طريقنا إلى الهند . فهى ذات قيمة إمبراطورية وكان من الضرورى أن نسيطر عليها . أما مشروع قناة الأرجنتين هذه فلا يتعدى أن يكون عملية مألوفة من عمليات النصب فى البورصة » . فتقول مسز تشيفلى : « بل من عمليات — المضاربة — يا سير روبرت . المضاربة الرائعة الجريئة » .

ويقول السير روبرت : « صدقينى يا مسز تشيفلى ، إنها نصب فى نصب . فلنسم الأشياء بأسمائها ، فهذا يسهل الأمور . فقد جمعنا عنه كل المعلومات اللازمة فى وزارة الخارجية . وفى الواقع أنا أوفدت لجنة خاصة لدراسة الموضوع

بصفة سرية ، وتقرير اللجنة يقول إن العمل لم يبدأ فيه شيء يذكر ، أما الأموال التى جمعت له فلا يبدو أن أحداً يعرف عن مصيرها شيئاً . إنه مشروع من طراز مشروع قناة بناما ، وفرص نجاحه لا تقاس فى شىء بفرص نجاح هذا المشروع الفاشل . فأرجو يا مسز تشيفلى ألا تكونى قد استثمرت فيه مالا » .

فتجيب مسز تشيفلى أنها استثمرت فيه أموالا طائلة . ويسألها السير روبرت عمن نصحها هذه النصيحة الحمقاء فتقول : « صديقك القديم . . وصديقى . . البارون أرنهايم » . فيصمت السير روبرت قليلا ثم يقول مقطباً : « نعم .أذكر أنى سمعت وقت وفاته بأنه كان متورطاً فى المشروع كله . » فتقول مسز تشيفلى : « إنه كان آخر مغامرة خيالية من مغامراته »، ثم تتذكر أيامها الجميلة فى فيينا مع عشيقها الراحل البارون أرنهايم وتضيف : « أو على الأصح ، إنصافاً له ، إنه كان المغامرة قبل الأخيرة » .

ويضيق السير روبرت تشيلترن بالحديث ويفكر فى تغيير موضوعه فينهض ويقول مبتسماً إن مسز تشيفلى لم تر اللوحات الفنية التى تزين داره . ولكنها تشير إليه بمروحتها أن يعود إلى مكانه بجوارها . فيقول السير روبرت : « ليس لدى ما أنصحك به يا مسز تشيفلى إلا أن تهتمى بأشياء أقل خطورة من هذا . إن نجاح المشروع طبعاً يتوقف على موقف إنجلترا منه ، وسأقدم تقرير اللجنة إلى مجلس العموم غداً ليلا » .

فتقول مسز تشيفلى : « يجب ألا تفعل هذا يا سير روبرت إذا كنت حريصاً على مصلحتك، فضلا عن مصلحتى » . فينظر إليها السير روبرت عاجباً ويستفهم « مصلحتى ؟ ماذا تقصدين يا مسز تشيفلى » ؟ ويعود إلى مكانه بجانبها . وتقول مسز تشيفلى إنها ستكلمه بمنتهى الصراحة . إنها تريد منه أن يسحب التقرير الذى ينوى رفعه إلى مجلس العموم بحجة أن لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد أن اللجنة كانت متحيزة أو تبنى على بيانات خاطئة أو أية حجة من هذا القبيل . وهى تريد منه أن يعلن فى المجلس أن الحكومة تنوى إعادة النظر فى الموضوع وأن لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن القنال ، لو تم حفرها ، ستكون ذات أهمية دولية عظيمة » .

فيقول السير روبرت عابساً إن مسز تشيفلى لا شك هازلة فى هذا الطلب ، ولكنها تؤكد له أنها جادة كل الجد ، وأنها ستدفع له ثمناً سخياً إن فعل ما تطلبه منه !

ويضبط السير روبرت أعصابه ويقول إنها لا تفهم ماذا تقصد بهذا الكلام . فتجيبه فى عدم مبالاة : « إن هذا مؤسف للغاية فقد قطعت كل هذا الطريق من فيينا لتفهمنى تماماً . . أنت يا سير روبرت رجل يفهم الدنيا ، ولك ثمنك فيما أعتقد . إن لكل إنسان ثمنه فى أيامنا هذه . ولكن المزعج أن أكثر الناس ثمنهم عال بصورة مزعجة . أنا أعرف مثلا أن ثمنى عال جداً ، وأرجو أن تكون معقولا فى شروطك معى » .

ويتملك الغضب السير روبرت تشيلترن ، فينهض ويقول : « اسمحى لى أن أرسل فى طلب عربتك . إن إقامتك فى الخارج امتدت يا مسز تشيفلى حتى لقد نسيت أنك تحدثين جنتلماناً إنجليزياً » .

فتمسه مسز تشيفلى بمروحتها لتستوقفه وهى تقول فى هدوء : « بل أنا أعرف أنى أحدث رجلا وضع أساس ثروته ببيع سر من أسرار الوزارة إلى مضارب فى البورصة » . نعم ، إنها تعرف سر ثراء السير روبرت تشيلترن وسر نجاحه فى الحياة العامة . وهى تحتفظ بالخطاب الذى كان قد أرسله إلى البارون أرنهايم أيام أن كان سكرتيراً للورد رادلى ، لينصح فيه البارون أن يشترى أسهماً من أسهم قناة السويس ، وهو خطاب كتب قبل أن تعلن الحكومة البريطانية شراءها لأسهمها بثلاثة أيام .

ويعض السير روبرت شفته أولا وهو يسمع هذا الكلام ، ثم يحاول أن ينكر ، وحين يعلم أن الخطاب فى حوزتها ، يحاول أن يهون من خطر فعلته ، فتقول مسز تشيفلى فى تحد : « إنها نصب فى نصب . فلنسم الأشياء بأسمائها ، فهذا يسهل الأمور كثيراً . أنا الآن سأبيعك هذا الخطاب والثمن الذى أطلبه فيه هو تأييدك الرسمى لمشروع قناة الأرجنتين . أنت جمعت ثروتك من قناة ، فساعدنى وساعد أصحابى أن يجمعوا ثروتهم من قناة أخرى » !

ويتمتم السير روبرت : هذه سفالة . . هذه سفالة . . فتقول مسز تشيفلى : بل إنها لعبة الحياة ، وعلينا أن نلعبها عاجلا أو آجلا . ويقول السير روبرت إن

ما تطلبه مستحيل . فتقول إن رفضه معناه تحطيم حياته كلها ماضيه وحاضره ومستقبله. فإن هي خرجت من داره دون أن تستخلص منه وعداً بتأييد المشروع فى مجلس العموم ليلة الغد ، فستقصد لفورها إلى دور الصحف وتعطيها خطابه وقصة هذا الخطاب . وستكون هذه نهاية السير روبرت تشيلترن هذا السياسى الذى ارتسم فى أذهان الناس على أنه المثل الأعلى للنزاهة والنقاء . إنها ستخرجه من الحياة العامة منكس الرأس ليقضى بقية حياته بين أشباح العار . إن الصحفيين المنافقين لا يقلون عنه أو عنها فساداً ، ولكنهم سباقون إلى نشر الفضائح والتسبيح بمكارم الأخلاق . ولم يبق إلا أن يستمع السير روبرت تشيلترن إلى صوت العقل ويلقى البيان المطلوب غداً مساء ، وستكون هى فى انتظاره فى شرفة السيدات فى مجلس العموم لتعطيه خطابه بمجرد انتهائه من إلقاء البيان .

ويعرض عليها السير روبرت ما تشاء من مال ، ولكنها لا تتزحزح عن موقفها : البيان مقابل الخطاب . وتقول هازئة : « حتى أنت يا سير روبرت لا تملك ما يكفى لشراء ماضيك . ليس فى الدنيا إنسان يملك ما يكفى لشراء ماضيه » . ويستمهلها ليتدبر الأمر . ولكنها تقول : « لا . لابد من الاتفاق الآن » . إنها ستتصل تلغرافياً بأصحابها فى فيينا هذه الليلة بالذات . ولابد لها من أن تعرف الجواب .

وبعد صراع نفسى عنيف يقول السير روبرت تشيلترن إنه سينفذ ما تطلب فيسحب التقرير . ويرتب سؤالا عن هذا الموضوع فى مجلس العموم .

وقبل أن تنصرف مسز تشيفلى تلتقى فى الصالون بالليدى تشيلترن التى تستفسر عن سبب رغبتها فى لقاء زوجها السير روبرت . فتجيب مسز تشيفلى بأنها أرادت أن تحدثه عن مشروع قناة الأرجنتين ، وأنها وجدته رجلا معقولا للغاية ، وقد استطاعت فى عشر دقائق أن تقنعه بتأييد المشروع ، وقد وعد بأن يلقى بيان التأييد فى جلسة الغد بمجلس العموم .

وتعجب الليدى تشيلترن وتقول إنها لابد قد أساءت فهم زوجها فهو لا يمكن أن يؤيد مثل هذا المشروع . ولكن مسز تشيفلى تؤكد لها أن الأمر كما تقول ثم تنصرف بعد أن تودع اللورد جورنج معاتبة إياه على إهماله لها قائلة إنها تنتظر منه زيارة .

وتلمح الآنسة مابل تشيلترن حلية تبرق من تحت وسادة الأريكة وتلتقطها فإذا هى بروش من الماس ، وتعرضها على اللورد جورنج فيتأملها جيداً ثم يقول وهو يفكر ، « ترى من صاحبة هذا البروش » ؟ ثم يضعه فى جيبه وهو يرجو مابل تشيلترن ألا تذكر لأحد أنه يحتفظ بالبروش وأن تبلغه حالما يطالب أحد استرداده . وحين تبدى دهشتها لهذا الطلب يقول : الحقيقة أنى أهديت هذا البروش لشخص ما منذ سنوات .

ويعود اللورد جورنج ومابل تشيلترن فيجدانها وحيدة بعد انصراف كل الضيوف. ويسأل اللورد جورنج عن سر زيارة مسز تشيفلى فتجيبه أنها جاءت لتجتذب زوجها إلى مشروع من مشروعات النصب اسمه مشروع قناة الأرجنتين ، ولكنها بداهة امرأة غبية تخطئ فهم الرجال ولا تميز الشريف من الفاسد . فيوافقها اللورد جورنج قائلا إن هذه الغباوة لا يقدر عليها غالباً إلا الأذكياء ثم يستأذن وينصرف .

وحين تنفرد الليدى جيرترود تشيلترن بزوجها السير روبرت تشيلترن تسأله لفورها هذا السؤال : « إن هذا ليس صحيحاً يا روبرت ؟ إنك لن تؤيد مضاربة مشروع الأرجنتين ؟ » فيجفل لحظة ثم يقول : « من أنبأك أنى اعتزمت تأييده » ؟ فتجيب أنها سمعت ذلك من تلك المرأة ، وهى تحذره منها ، فهى تعرفها حق المعرفة ، فقد كانت معها فى مدرسة واحدة حيث اشتهرت بالكذب وخراب الذمة وإفساد كل من لها سلطان عليه . وكانت تسرق من التلميذات أشياءهن فطردوها من المدرسة فى حادث سرقة .

فيقول السير روبرت إن هذه أشياء حدثت من زمن بعيد ومن الخير نسيانها ، فلعل مسز تشيفلى قد تغيرت منذ ذلك الوقت . وليس من الإنصاف الحكم على إنسان بماضيه وحده فتجيبه الليدى جرترود بصوت حزين : « إن ماضى الإنسان هو حاضره ، وهذه هى الطريقة الوحيدة للحكم على الناس » . ويقول السير روبرت إن هذه قسوة ، فتقول الليدى جرترود بل هى عين الحق ، وتعود إلى استيضاحه عما قالته المرأة من أنه سيؤيد مشروعها فى البرلمان وقد سمعته يقول عنه إنه أبشع مشروع من مشروعات النصب مر عليه فى حياته السياسية . فيجيبها

قائلا إنه أخطأ التقدير ، وكل إنسان معرض للخطأ . وتذكره بما سبق أن قال عن تقرير اللجنة فيقول إن لديه من الأسباب الآن ما يحمله على الاعتقاد بأن اللجنة لم تحسن دراسة المشروع . ثم يضيف : « ومع ذلك يا جرترود ، إن الحياة العامة والحياة الخاصة شيئان مختلفان ، كل منهما يخضع لقانون مختلف وهما لا يلتقيان فتجيبه الليدى تشيلترن : « بل يجب أن يمثل كلاهما الإنسان فى أسمى صفاته . وأنا لا أرى أى فرق بينهما . » ويقول السير روبرت : « فى هذه الحالة بالذات أنا غيرت رأيى لأسباب تمس السياسة العملية. هذا كل ما هنالك » . وتكاد الليدى تشيلترن أن تصعق لهذه الإجابة وتسأله إن كان قد أطلعها على الحقيقة كلها . فهى لا تصدق أن زوجها وهو المثل الأعلى فى التمسك بكل ما هو نبيل فى الحياة يسلك هذا السلوك . فتكون إجابته : « اسمعى يا جرترود . إن الحقيقة شىء معقد غاية التعقيد ، والسياسة عملية معقدة غاية التعقيد ، فهى دوائر داخل دوائر . وقد يكون على الإنسان التزامات معينة للناس لا مناص من الوفاء بها . وفى الحياة السياسية لابد عاجلا أو آجلا من مقابلة الناس فى منتصف الطريق . كل الناس تفعل هذا » .

إن الليدى تشيلترن لم تسمع زوجها يتحدث على هذا النحو أبداً . لابد أنه تغير . إنها قد تصدق هذا فى غيره من الناس ، أما هو فلا . إنها تحبه بل تعبده لأنها وجدت فيه مثلها الأعلى . إن العالم يبجله لأنه يرى فيه مثال الفضائل. إنها تفجع لو تلوث مثلها الأعلى . إنه يقتل حبها له لو أنه لوث شرفه بما يشين . إنها تعرف أن فى حياة بعض الرجال أسراراً مشينة تلاحقهم بالعار طول حياتهم أما هو فهو النقاء نفسه.فإن كان فى حياته سر من هذه الأسرار المشينة فليصارحها به الآن حتى يفترقا .

ويجد السير روبرت تشيلترن نفسه أمام موقف عصيب ، فيقول : « ليس فى حياتى يا جرترود ما لا أستطيع اطلاعك عليه » . إنه يحب زوجته حباً أقرب إلى العبادة . إنها الملاك الذى يحرسه فى ليله ونهاره ، وبغيرها تصبح حياته خراباً مطلقاً . إنه يقبل كل شىء إلا الانفصال عنها .

وتطمئن الليدى جرترود تشيلترن ، ويعود إلى نفسها الهدوء وتقول : هيا اكتب

الآن وعلى الفور خطاباً لمسز تشيفلى تقول فيه إنك لا تستطيع تأييد هذا المشروع السافل . ويجب ألا ينسى أن يستعمل كلمة « السافل » لتعرف هذه السيدة السافلة رأيه فى مشروعها . وبعد تردد لا يجد السير روبرت تشيلترن مناصاً من الرضوخ ، فيحرر رسالة بهذا المعنى ، ويعرضها على زوجته فتقر صيغتها ، ويبعث بها مع خادمه ماسون إلى فندق كلايدج حيث تقيم مسز تشيفلى .

وتقبله زوجته قائلة : من أجل هذا أحبك ، لأنك أنبل النبلاء وأنقى الأنقياء . فيتمتم قائلا : لا تكفى عن حبى يا جرترود ! لا تكفى عن حبى يا جرترود ! وحين تأوى الليدى تشيلترن إلى مخدعها ، يبقى السير روبرت تشيلترن وحده فى الصالون ويتطلع إلى المستقبل فلا يرى فيه بارقة أمل فيدفن وجهه فى راحتيه .

وفى صباح اليوم التالى يزور اللورد جورنج السير روبرت تشيلترن فيجده فى أسوأ حالة نفسية ممكنة ، ويقف منه على الحقيقة كلها . إنه كان فى مقتبل شبابه ، وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره ، سكرتيراً للورد رادلى كان شاباً فقيراً طموحاً ، وتعرف على البارون أرنهايم صديق اللوردرادلى وتعلم من البارون سراً خطيراً فى الحياة وهو أن للمعلومات السرية فائدة كبرى إذا عرف الإنسان كيف يستغلها . وأنها مصدر كل الثروات الكبيرة فى عصرنا هذا وذات يوم مرت بين يديه وثيقة سرية عرف منها أن الحكومة البريطانية قررت شراء أسهم قناة السويس . فكتب إلى البارون أرنهايم بما يعرف ، فضارب البارون بالأسهم وربح من ذلك ثلاثة أرباع مليون جنيه وأعطاه منها مائة ألف جنيه . وكان هذا بداية التحول فى حياته . . فاشتغل بالسياسة . ودخل البرلمان ولمع فيه حتى عين وكيلا لوزارة الخارجية وهو لم يبلغ الأربعين من عمره . وهو لم يكرر هذه الغلطة فقد حالفه الحظ ونجح فى كل ما استثمره من مال عن طريق الشرف فتضاعفت ثروته فى سنوات قليلة وتبرع للأعمال الخيرية إراحة لضميره بضعف ما كسبه من فعلته الدنيئة الأولى . والآن قد جاء وقت السداد .

إنه لا يستطيع أن يفضى لزوجته بشىء من هذا وإلا احتقرته ويستأذنه اللورد جورنج أن يتولى هو ذلك فيمنعه السير روبرت ؛ إنه كالغريق يبحث عن قشة .. إنه أرسل بالشفرة تلغرافاً إلى السفارة البريطانية فى فيينا لتزوده بالمعلومات عن مسز

تشيفلى ، فلعل فى حياتها نقطة ضعف يستطيع أن يستغلها فيردها عن التشهير به فى الصحف .

وحين يلومه اللورد جورنج على ضعفه ويتحدث باحتقار عن المبادئ التى لقنها البارون أرنهايم لسير روبرت تشيلترن ، يجيبه السير روبرت قائلا إنه رغم ندمه على ما كان لا يقسو فى الحكم على البارون لأنه فتح طريقه إلى المجد ، فبهذا المال أحرز سلطة واسعة وتحرر من أسر الفاقة ، ولولاه لظل إلى الآن موظفاً من صغار الموظفين . إن حلم حياته كان السلطة ، ولا سلطة بغير المال . ولكنه يدرك الآن أن حياته كلها قد انتهت ما لم تحدث معجزة . ويعده اللورد جورنج بأن يعينه إن وجد سبيلا إلى ذلك . فقد كانت له صلة قديمة بمسز تشيفلى ، وأوشك أن يتزوجها لولا أنه اكتشف فى الوقت المناسب بعض خصائصها ففسخ الخطبة .

ويلتقى اللورد جورنج بالليدى تشيلترن بعد عودتها من اجتماع عام ، وتصف له مبتهجة كيف قوبل اسم زوجها بعاصفة من التصفيق كلما ذكر اسمه الخطباء . ويحوم اللورد جورنج حول موضوع مسز تشيفلى ، وأخيراً تفهم الليدى تشيلترن مراده . فتنبئه مبتهجة أن زوجها قد نفض يده من مشروعها القذر وأنه كتب إليها بذلك . ويحاول اللورد جورنج أن يفهمها أن ظروف الحياة تلزم الناس أحياناً بالسير فى الأوحال ليصلوا إلى القمم ، وأن وراء كل نجاح قصة لا يسر لها رجال الأخلاق . إنه لا يتكلم عن حالة معينة بالذات ولكنه يتكلم عن الحياة بوجه عام . وربما كان روبرت كغيره ممن أخطأوا فى شبابهم ليدركوا المجد ، لعله مثلا كتب خطاباً فى الماضى البعيد أو استسلم لضعف الغواية أو ... وهنا تقاطعه الليدى تشيلترن قائلة إن زوجها لا يمكن أن يرتكب أية حماقة من هذه الحماقات التى يشير إليها . فيجيبها اللورد جورنج قائلا : « إن كل ما يعرفه أن الحياة لا تفهم إلا بقلب سخى ولا تعاش إلا بقلب سخى ، فمفتاح الحياة ليس الفلسفة الألمانية ولكن الحب . . . » . ثم يضيف فى لهجة حادة أنها إن وجدت نفسها فى أى مأزق من أى نوع كان وأرادت معونته ، فلتأت إليه واثقة ثقة عمياء من أنه سيفعل كل ما فى وسعه لمساعدتها .

وينصرف اللورد جورنج وتعجب الليدى تشيلترن لكلامه هذا فهى ما رأت

اللورد جورنج إلا هازلا فى حديثه وهو يكلمها الآن فى جد غريب . وبعد حين قليل تأتى تشيفلى فتنزعج الليدى تشيلترن لهذه الزيارة البغيضة . وتعلم منها أنها جاءت لتسأل عن حليتها التى فقدتها ليلة الأمس وهى البروش الماسى ، فهى لاتعرف إن كان قد سقط منها فى حفلة الأمس أم فى دار الأوبرا ، فتسأل ربة الدار خدمها عنه ، فلا يعرف عنه أحد شيئاً . وتعامل الليدى تشيلترن مسز تشيفلى معاملة جافة قائلة فى صراحة موجعة إنها لم تكن تحب أن تراها فى دارها ليلة الأمس . فهى تعرف أنها كانت معوجة السلوك فى الماضى ، وفى مذهبها أن من اعوج سلوكه مرة لم يستقم بعد ذلك فتسألها مسز تشيفلى متهكمة إن كانت تطبق نفس القاعدة على جميع الناس . فتجيب الليدى تشيلترن : « نعم على جميع الناس بلا استثناء » . وتقول مسز تشيفلى إذن فلتطبقن هذه القاعدة على زوجك ، إن مسز تشيفلى لا ترى فرقاً بينها وبين السير روبرت فكلاهما من فصيلة واحدة . وتغضب الليدى تشيلترن حين تسمع هذا الكلام . وتأمرها بالخروج من دارها لأنها تدنسها فتقول مسز تشيفلى إن دارها هذه التى تتحدث عن طهارتها مشتراة بمال جمع من النصب والاحتيال . وأن أساس ثروة زوجها كان الاتجار فى أسرار مجلس الوزراء .

ويلوح بباب الصالون السير روبرت تشيلترن نفسه وقد سمع كل ما دار بينهما من حديث . ويرى وجه زوجته شاحباً كوجوه الموتى . ويبصر مسز تشيفلى تشير إليه بالبنان وهى تقول : سليه إن كان يجرؤ الإنكار . فيقول السير روبرت : « هيا انصرفى . انصرفى فوراً . لقد فعلت أسوأ ما عندك » . فتجيبه : « ليس هذا أسوأ ما عندى . أنا لم أفرغ بعد منكما . إنى أمهلكما إلى ظهر الغد . فإذا لم تنفذا ما أمرتكما به عرف العالم كله حقيقة روبرت تشيلترن ، ثم تنحنى فى أدب مسرف لليدى تشيلترن وتنصرف .

ويواجه الزوج زوجته . ويعترف لها بكل شىء . ويحاول أن يهدئ من ثائرتها فتصرخ فيه : « إليك عنى . . . لا تمسنى . . إنك بنيت حياتك على الغش .. على خراب الذمة » . ويحاول السير روبرت أن يستعطفها . لتستمع إليه ولكنها فجعت فى أعز ما لديها هذا الرجل الذى أحبته حب العبادة لأنها رأت فيه المثل الكامل للنبل والأمانة والنقاء . . ماذا بقى منه . لا شىء . لا شىء ! ويقول السير روبرت

يائساً : هذا خطؤك . . هذا خطأ كل النساء . إن المرأة تقيم زوجها كالصنم على قاعدة وتعبد فيه كمالا ليس من صفات البشر . إن البشر ، رجالا ونساء ، أقدامهم من صلصال ، وضعفهم من ضعف الأرض التى يقفون عليها . إن من كان كاملا ليس بحاجة إلى الحب . . ليس بحاجة إلى العطف . إن الحب الحقيقى يغفر كل الذنوب إلا الخلو من الحب . إن اللحظة التى كان يخشاها قد جاءت . لقد كان يخشى أن يفقد حبها . إنه رضى لها أن تحطم حياته ليلة الأمس حين أطاعها وكتب الرسالة إلى مسز تشيفلى. وقد كان فى إمكانها أن تنقذ مستقبله وتدفن ماضيه . كل ذلك فعله من أجلها . إن مسز تشيفلى وهى عدوته عرضت عليه أن يبدأ حياة جديدة كلها أمن واستقرار أما الآن فماذا بقى أمامه ؟ العار والفضيحة حتى الموت والانزواء فى ركن مهمل لا يخرج منه أبداً إلى الضياء . أما زوجته التى يحبها حبًّا جنونيًّا فتقدمه قرباناً على مذبح مبادئها . إنها . .

ويخرج السير روبرت لا يلوى على شىء . وتسرع الليدى تشيلترن لتلحق به ولكنه يغلق الباب فى وجهها .

وفى الليل ترى اللورد جورنج فى داره نحو الساعة العاشرة والنصف ينتظر . إنه ينتظر الليدى جرترود تشيلترن التى بعثت إليه برسالة تقول فيها : « أنا بحاجة إليك . أنا أثق فيك . أنا قادمة لزيارتك . جرترود » . إنه يعرف أن الليدى تشيلترن مبلبلة الخاطر وهى لا شك تستغيث به بهذه العبارات العصبية لينصحها بما ينبغى أن تفعل . وفيما هو ينتظر يزوره أبوه اللورد كافرشام فى هذه الساعة الغريبة ليذكره أنه بلغ الرابعة والثلاثين ولم يتزوج ، وليعيره كعادته بأنه عاطل لا نفع له فى الحياة وليبلغه بقراره النهائى وهو أنه يمهله أربعاً وعشرين ساعة ليختار لنفسه زوجة من بين كل هؤلاء الآنسات اللواتى يعرفهن .

ويختفى اللورد جورنج لحظة ليوصى خادمه بإبلاغ كل زائر كائناً من كان بأنه غائب عن داره . إنه ينتظر سيدة قد تصل فى أى وقت ، فليدخلها الخادم وليرجوها أن تنتظره حتى يفرغ من أبيه ثم يعود اللورد جورنج إلى أبيه ويستمع إلى بقية حديثه فى تململ شديد ، وأخيراً ينجح فى صرفه بلباقة . ويصحبه حتى باب الدار .

وإذا بالسير روبرت تشيلترن قادم لزيارته . ولا يجد اللورد جورنج مناصاً

من استقباله بعد أن التقى به على عتبة البيت ، فيدخل به وهو فى ارتباك شديد لأنه ينتظر الليدى تشيلترن وهو يخشى أن يظن السير روبرت به الظنون إذا عرف بوجود الليدى تشيلترن تحت سقفه فى هذه الساعة المتأخرة من الليل .

ولا تأتى الليدى تشيلترن ولكن تأتى مسز تشيفلى على غير موعد فيدخلها الخادم فى الغرفة المجاورة وهو يحس أنها السيدة المنتظرة . وتذهب مسز تشيفلى تتصفح بريد اللورد جورنج فى فضول شديد لعلها تجد ما يستحق الوقوف عليه فلا تجد إلا الفواتير وبطاقات الدعوة ولكنها تلمح أخيراً خطاب جرترود تشيلترن فتقرأه وتظن أنها وقفت على شىء ثمين وتحاول أن تسرقه ولكن الخادم يفاجئها فتعدل .

وفى الغرفة المجاورة يحدث السير روبرت اللورد جورنج عن أشجانه . إن الليدى تشيلترن قد اطلعت على الحقيقة كلها . إن سفارة فيينا قد أجابت بأن مسز تشيفلى سيدة من خيرة سيدات المجتمع فى ذلك البلد ، فهو الآن لا يستطيع أن يقبض عليها بتهمة التجسس . إن حياته تنهار من حوله وبيته ، وما أهم عنده من حياته ينهار كذلك .

ويهدئ اللورد جورنج من روعه قائلا إن الليدى تشيلترن تحبه حباً صادقاً وهى لا شك ستغفر له . ويقول السير روبرت إنه فى طريقه إلى مجلس العموم ليدلى ببيانه . ويهم بأن يروى على اللورد جورنج ما اعتزم أن يقول ، ولكنه يسمع حركة وكرسياً يسقط فى الغرفة المجاورة ويسأل اللورد جورنج أن كان هناك أحد فى الغرفة المجاورة يستطيع أن يسمع حديثهما فيؤكد له جورنج وهو مضطرب أن الغرفة خالية تماماً . ولكن الشك يستبد بالسير روبرت فيندفع إلى الباب الفاصل ويفتحه رغم احتجاج اللورد جورنج . وحين يقع بصره على مسز تشيفلى يثور فى وجه جورنج ويتهمه بالتواطؤ مع خليلاته مسز تشيفلى ، ويخرج غاضباً فى طريقه إلى البرلمان .

وتدخل مسز تشيفلى على اللورد جورنج فيذهل لوجودها ، ويقول : « أجئت لتبيعى لى خطاب السير روبرت تشيلترن ؟ » فتجيب أنها جاءت لتعطيه الخطاب بشرط فيقول : وكم تطلبين فيه ؟ فتجيب : يا لحماقتك من حماقة إنجليزية ! إن الإنجليز يحسبون أن دفتر الشيكات يحل كل المشاكل . والحقيقة أن مسز تشيفلى

حين رأته فى الحفل استيقظ حبها له ، وهى الآن على استعداد لرد الخطاب له إن هو رضى بأن يتزوجها . إنها سئمت الحياة فى الخارج وهى تريد أن تستقر فى لندن . وتذكره بخطبتهما السابقة فيقول إن هذه صفحة طواها محاميه لما دفع لها ما طلبت من مال لفسخ الخطبة بعد أن ضبطها اللورد جورنج فى وضع مريب من لورد مورتليكك العجوز . فتؤكد له أنها كانت تحبه حقًّا وأنها لا تزال تحبه . إنها الآن غنية وهو الآن فقير . وهى تعلم أنه كان يحبها حبًّا صادقاً ، فهناك إذن أمل فى أن ينجح زواجهما . ويقول اللورد جورنج إنه كان ليغفر لها كل شىء إلا قسوتها الوحشية مع الليدى تشيلترن ، فما كان ينبغى أن تزورها هذا الصباح لتطلعها على قصة زوجها . وتجيب مسز تشيفلى أنها لم تزر الليدى تشيلترن لتطلعها على قصة زوجها ، ولكن زارتها لتسأل عن البروش الماسى الذى ضاع منها وهى لم تقل ما قالت إلا دفاعاً عن نفسها بعد أن أوسعتها الليدى تشيلترن إهانة وتجريحاً .

ويسألها اللورد جورنج عن البروش الماسى إن كان فى صورة حية وكانت به ياقوتة حمراء فتجيب بالإيجاب ، وهنا تلمع عيناه فرحاً ، ويخرج البروش فتتعرف عليه . وتطلب من اللورد جورنج أن يساعدها فيثبته حول عنقها ، ولكن اللورد جورنج يثبته حول ذراعها ، فتقول إنها لم تكن تعلم أنه صنع ليلبس سواراً كذلك فيقول : طبعاً طبعاً لأنك سرقته من ابنة عمى ، الليدى بركشاير ، فقد أهديته لها منذ عشر سنوات . وقد عرفته حين رأيته فى الليلة الماضية وانتظرت أن يظهر اللص ويطالب به بنفسه .

وتقول مسز تشيفلى أنها ستنكر إنها تعرف عنه شيئاً ، وتحاول أن تنزع البروش من ذراعها لتتخلص منه ولكنها لا تستطيع ، فقد كان فيه لولب خفى لا تعرف مكانه .

ويهدد اللورد جورنج مسز تشيفلى بإبلاغ البوليس ، فيشحب لونها وتكاد أن تنهار . إنها تحتمل أى شىء إلا هذا . ويطلب اللورد جورنج منها خطاب السير روبرت تشيلترن فتسلمه إياه ، وبعد أن يحرقه يتنهد تنهد المستريح ويخلى سبيلها .

وفى صباح اليوم التالى نرى السير روبرت تشيلترن فى داره ساهماً كأنه رجل فى انتظار جلاده . وتقرأ عليه صحف الصباح فإذا هى تمجد بيانه العظيم الذى

فضح فيه للبرلمان البريطانى أكبر عملية من عمليات النصب ظهرت فى بورصة أوربا ، وهى شركة قنال الأرجنتين . وما من صحيفة إلا وتنوه بنزاهته النادرة وماضيه الناصع ومستقبله العظيم فى مدارج السياسة .

ولكن الشحوب لا يزول عنه حتى يأتيه اللورد جورنج يروى عليه قصة الخطاب الذى أحرقه ويطلب إليه أن يأذن له بالزواج من أخته الآنسة مايل تشيلترن التى رضيت به زوجاً .

وبعد قليل يأتى الإيرل كافرشام برسالة من رئيس الوزراء يعرض على السير روبرت تشيلترن مقعداً فى الوزارة .

ويعتذر السير روبرت عن قبول المنصب ، فقد بقى فى حياته شيء واحد لم يصف بعد : هو غضب زوجته عليه . إنه سيعتزل السياسة وينزوى فى ركن مهمل من الريف حتى تغفر له زوجته . ولكن الليدى تشيلترن تقبله قائلة إنها قد غفرت له زلته ، وأنها تعلم الآن أن انزواء رجل مثله عاش للسلطة وللخدمة العامة هو بمثابة حكم عليه بالإعدام . وأنه وحده كفيل بقتل حبه لها .

وهكذا يحمل السير روبرت حافظة أوراقه ويمضى إلى ١٠ داوننج ستريت .

قيصر وكليوبترة

لجورج برنارد شو

ألف الكتاب والشعراء أن يتناولوا فى أدبهم قصة غرام أنطونيوس وكليوباترة ، ذلك الغرام الذى حدثتنا به صحائف التاريخ فى إطناب كأنها تحدثنا عن معركة فاصلة هائلة بين مصر وروما فى العالم القديم أو عن حرب ضروس سجال مسرحها القلوب قبل أن يكون مسرحها ميادين القتال . وذهب الكتاب والشعراء مذاهب شتى فى تفسير هذه القصة الغنية بالمعانى رغم أن أكثر وقائعها ثابت ومعروف كما ذهبوا مذاهب شتى فى رسم شخصيات أبطالها ذلك لأن الخيال رمى بغلالته السحرية على قصة هذا الغرام الفاجع الخالد فحجب حقائقها عن عيون المؤرخين وكتاب السير والشعراء .

وما حقائق هذه القصة ؟ لا أكثر من أن بطل روما العظيم مارك أنطونيوس فتن بجمال كليوبترة ملكة مصر وأحبها حباً ملك عليه قلبه وجنانه فترك واجبات القائد ومسئوليات الحاكم ونسى ولاءه لوطنه روما وأقام عند قدمى كليوبترة عبداً معموداً يتمرغ فى الشهوات ، حتى جرد عليه نده وصنوه أوكتافيوس من روما حملة ليؤدبه ، وبعد حرب ضروس قيل إن الخيانة لعبت فيها دوراً فتمزقت قوات البطل العاشق وفل سيفه ولكن سيف أنطونيوس المفلول فى الحرب كان مشحوذاً فى صدره ، فقد كان من عادة الأبطال فى ذلك الزمان أن يفروا من عار الأسر بشرف الانتحار وحين سقط أنطونيوس صريعاً تبعته حبيبته كليوبترة فضمت إلى صدرها حية رقطاء ، وماتت مسمومة وهى جالسة على عرشها فى حلة الملك ، قيل حزناً على حبيبها ، وقيل خشية أن يأسرها الرومان ويعرضوها على رعاع القوم فى شوارع روما كما ألفوا أن يفعلوا بمن يسبون فى الحروب . وأياً كان السر فى مصرع كليوبترة ، فقد أدت للحب فريضته وأدت للوطن فريضته فللعشاق فيها نصيب وللمجاهدين فيها نصيب .

كذلك حار الناس فى تحليل شخصية كليوبترة أثناء حياتها الصاخبة ، فمنهم من قال إنها مجرد امرأة شهوانية ساقطة — خائنة — تعاشر كل من بيده السلطان ، وقد عرفت يوليوس قيصر قبل أن تعرف مارك أنطونيوس ، فلما هوى أنطونيوس سعت إلى أكتافيوس لتوقعه فى حبائلها ولما يئست من الإيقاع به ورأت أن السبيل الوحيد المفتوح أمامها هو سبيل العار حيث تساق فى عجلته الحربية بين رعاع روما وضعت حداً لحياتها . ومنهم من تصور فيها كشكسبير مثلا أعلى للأنوثة العاشقة ، مفترسة كالنمرة رقيقة كمياه الغدير وفية حتى الموت ، شماء كالملوك لا تنقصها إرادة ولا مكر ، وهذا هو شكسبير . ومنهم من رأى فيها مثلا أعلى للوطنية المصرية ، تلعب بالقادة والملوك والأباطرة من أجل مصر ، وتفى من أجل مصر ، وتخون من أجل مصر ، وتموت من أجل مصر ، وهذا هو شوقى

* * *

أما برنارد شو فقد انصرف عن كل ذلك إلى شيء جديد لم يسبقه إليه أحد . انصرف عن قصة غرام أنطونيوس وكليوبترة إلى قصة أخرى ليس فيها غرام ، وهذه هى قصة قيصر وكليوبترة التى كتبها للمسرح عام ١٨٩٨ .

وفى هذه « المسرحية » كما يسميها صاحبها يصور لنا برنارد شو يوليوس قيصر عند قدومه إلى مصر عام ٤٨ ق . م . بعد أن دانت له أوربا كلها وغدا سيد العالم ، وإن لم يكن بعد سيد بلده ، فقد كان بومبى سيد روما وكان لابد لقيصر أن يزيله من طريقه حتى ينفرد بالسلطان . ونشبت بين بومبى وقيصر حرب أهلية انتصر فيها بومبى أولا وفر قيصر إلى بلاد اليونان حيث تعقبه بومبى ليدمره تدميراً . ولكن المعجزة حدثت فى معركة فرساليا المشهورة حيث سحق يوليوس قيصر بفئة قليلة عالية المعنويات جيش بومبى الجرار القائم على السلب والنهب ، وبانتصار قيصر على بومبى انتصرت روما الجديدة على روما القديمة وأمكن للرومان أن يقيموا إمبراطورية ثابتة الأركان فى ظل « السلام الرومانى » لا تصان بحد السيف ولكن بالقانون والشرائع والإدارة ، والطرق شاسعة الأطراف تمتد من المشرق واليونان إلى إسبانيا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا التى خالها الناس فى العالم القديم عند حافة العالم .

وبعد معركة فرساليا فر بومبى إلى مصر وقيصر فى أعقابه ، وما أن وطئ بومبى

أرض مصر حتى اغتاله ضابط من بنى وطنه يدعى لوسيوس وحز رأسه ليقدمها هدية لقيصر .

وحين قدم قيصر إلى مصر كان فى العقد السادس من عمره ، يخفى صلعه تحت إكليل الغار المشهور ، ويشكو من الروماتزم . أما كليوبترة فكانت صبية فى السادسة عشرة من عمرها متوقدة الذكاء حادة الطباع آية فى الجمال ولكنها مع ذلك كانت صبية لها عقل طفلة كبيرة لم تحنكها تجارب الحياة ، تضربها مربيتها العجوز المتفانية فى خدمتها فترهب مربيتها ولا تعصى لها أمراً .

وكما كانت روما مسرحاً للدسائس والحروب الأهلية ، كذلك كانت مصر مسرحاً للدسائس والحروب الأهلية : فقد كان فى مصر عرشان ، عرش كليوبترة وعرش أخيها الغلام بطليموس الذى كان يومئذ فى العاشرة من عمره ، تلتف حوله بطانة زعيمها بوثينوس الوصى عليه ، وتستتر وراءه لحكم البلاد .

وحين بلغ قيصر شواطئ مصر بجيشه الصغير الذى لم يتجاوز أربعة آلاف محارب وجد الصبية الصغيرة كليوبترة فى ذعر منه شديد تجاوز ذعرها من مربيتها وقد ثبت فى روعها أن الرومان ذئاب تأكل البشر وأن قيصر أكبر ذئب من هذه الذئاب . أما قيصر الذى هبط شواطئ مصر فكان قيصر الداهية الذى يشترى الناس بالكلام المعسول وبالذهب . قيصر الهادئ الذى تمرس فى سياسة الرجال وفى استخدامهم . وقد تتلمذت على قيصر الطفلة الكبيرة أو هذه « القطة الصغيرة » : كما كان قيصر يسميها حتى تعلمت منه فن الحكم وإستراتيجية السياسة ، وغدت ملكة ترتب الأمور لحماية عرشها من أخيها بطليموس مستعينة بقيصر على ذلك ثم ترتب الأمور لتغرى قيصر بالجلاء عن مصر وترك مقاليد البلاد فى يدها . وهنا يقف التاريخ حائراً فى أمر كليوبترة لا يعرف أين تبدأ مطامعها الشخصية وأين يبدأ عملها فى سبيل البلاد .

أما حركة المقاومة الوطنية فقد تجمعت حول بوثينوس الوصى على بطليموس الصغير وقائد جيشه الجرار أخيلاس . لذلك لم يستطع قيصر أن يحتل من البلاد إلا القصر الملكى فى الإسكندرية الواقع أمام الفنار وما حوله من شاطئ صغير ليحفظ لنفسه خط الرجعة . وهنا أيضاً يقف التاريخ حائراً فى حركة بوثينوس التى

اختلط فيها الكفاح الوطنى بالكفاح من أجل السلطة .

* * *

وتبتسم آلهة مصر ساخرة من هذا الوافد الجديد الذى يسمونه قيصر ، فكم من وافد جاء ومضى والوادى المقدس لم يفقد شيئاً من قداسته . ويظهر كبير الآلهة رع رب الشمس فى زيه المألوف فرأسه رأس صقر ويلقى على النظارة الإنجليز فى القرن العشرين درساً بصوت جليل رهيب : « صمتاً . . أنا لا أسألكم أن تعبدونى ولكنى آمركم بالصمت . فليصمت منكم الرجال ولتكف نساؤكم عن السعال . فقد جئت لأعود بكم إلى الوراء ألفى عام وأتخطى بكم قبور ستين جيلا . فيا أيها الخلف البائس ، لا تحسبوا أنكم مبدأ الخليقة . فغيركم من الحمقى قد رأى الشمس قبلكم تشرق ثم تغرب ورأى القمر يتنقل بين أبراجه العديدة وكما كانوا كذلك تكونون ، وإن لم تبلغوا شيئاً من مجدهم القديم ؛ فالأهرام التى بناها شعبى لا تزال قائمة حتى اليوم ، بينما تتناثر فى الرياح أكداس التراب التى تشقون بها وتسمونها إمبراطوريات تتناثر وما زلتم تكدسون أجداث الموتى من بنيكم ليزداد بها التراب .

« اصغوا إلى أذن ، يا من تتعلمون تعليماً إلزامياً ! اعلموا أنه كما أن هناك إنجلترا قديمة وإنجلترا جديدة ! وأنتم تقفون بينهما حائرين ، كذلك كانت هناك أيام كنت أعبد ؛ روما قديمة وروما جديدة ، ووقف الناس بينهما حائرين . وكانت روما القديمة فقيرة وصغيرة وجشعة ومفترسة وشريرة فى كثير من أعمالها ، ولكن لأن تفكيرها كان صغيراً ولأن عملها كان بسيطاً ، فقد كانت تتقن تفكيرها وتؤدى عملها . وعطفت عليها الآلهة وأعانتها وقوتها وحمتها ، لأن الآلهة صبورة مع التافهين ثم طمعت روما القديمة فى رضا الآلهة كما يطمع الشحاذ إذا امتطى جواداً ، وقالت : « انظرى أيتها الآلهة ! ليس فى تفاهتنا ثراء ولا مجد : إنما طريق الثراء والمجد هو نهب الفقراء وذبح الضعفاء » . وهكذا نهب أهل روما فقراءهم حتى صاروا أساتذة ضالعين فى هذا الفن ، وعرفوا القوانين التى تلبس النهب ثوب الأمانة والاستقامة . وحين عصروا فقراءهم حتى غدوا جلداً على عظم ، نهبوا فقراء البلاد الأخرى ، وضموا تلك البلاد إلى روما حتى خرجت من ذلك روما جديدة ، ثرية وشامخة . وأنا رع ، ضحكت من كل ذلك ، لأن عقول الرومان ظلت فى

حجمها السابق بينما ترامت أملاكهم إلى أطراف الأرض .

هذه هى روما القديمة التى كان يمثلها بومبى ، وضاقت الآلهة ببومبى وسئمت حروبه ، وكرهت كبرياءه فقد كان يتحدث كأنه إله ، فابتسمت لصديقه يوليوس قيصر ، لأن بومبى كان يمشى بالسيف فى طريق الموت أما الآلهة فهى تمشى فى طريق الحياة . ويستأنف رع خطابه قائلا :

« وكان قيصر هذا محدثاً بارعاً وسياسياً كان يشترى الناس بالكلام وبالذهب ، كما تشترون أنتم الآن تماماً ، وحين لم يقنع الناس بالكلام وبالذهب وطالبوا بأمجاد الحرب كذلك ، التفت قيصر وهو فى منتصف العمر إلى هذه الصناعة ، وحين غدا قاتلا وغازياً ، انحنى أمامه من كانوا يناهضونه وهو يسعى لخيرهم فهذه جبلتكم يا أبناء الفناء » .

وكان قيصر رمزاً لروما الجديدة .

ونشب الصراع بين بومبى وقيصر . وبعد أن فر بومبى من فرساليا إلى مصر وفى أعقابه قيصر . صاح المصريون : « انظروا إن هناك روما وروما ! روما بومبى وروما قيصر ! فلأيهما نتظاهر بالولاء » ؟ وفى حيرتهم سألوا جندياً رومانياً يقيم بينهم قائلين . « انظر ! فى بلادك كلب يأكل كلباً ، والكلبان قادمان ليلأكلانا ، فماذا تنصحنا » ؟ فأجاب الجندى : « تدبروا سريعاً أى الكلبين أكبر من أخيه ، واقتلوا أصغرهما تنالوا الحظوة عند الآخر » . قال المصريون : « رأيك سديد ، ولكن إذا قتلنا رجلا بغير ما يحكم الشرع أقمنا أنفسنا مكان الآلهة ، وهذا ما لا نجسر على فعله . أما وأنت رومانى ، فقد ألفت هذا النوع من القتل لأن فيك خصالا إمبراطورية . فهلا قتلت الكلب الأصغر من أجلنا » ؟

هكذا يقتل سبتميوس لوسيوس صديقه وولى نعمته بومبى حين تطأ قدماه شاطئ مصر ويتقاضى على خيانته هذه جزاءه من المصريين ذهباً ونفوذاً .

هذا هو الدرس الذى يلقيه رع على جمهور من النظارة الإنجليز قبل أن تبدأ المسرحية حتى لا يغتروا كما اغتر من قبلهم الرومان .

يصل قيصر إلى بلدة على الحدود المصرية السورية حيث تقيم كليوبترة مع مربيتها وبلاطها ورجالها ، ذلك لأن أخاها الصغير بطليموس ورجاله يحتلون القصر

الملكى فى الإسكندرية عاصمة مصر يومئذ .

وتخرج كليوبترة الصغيرة لمناجاة تمثال لأبى الهول أقيم هنالك إلى جوار قصرها فالأيام عصيبة تتقارع فيها السيوف والعدو الرومانى على الأبواب أو لعله اقتحم الأبواب ، والليلة قمراء ، وأبو الهول صامت فوق الرمال تقدم له كليوبترة القرابين لعله يوحى إليه بشىء . ولكن كليوبترة ليست وحدها فى المناجاة ، فهناك رجل عجوز يقف خاشعاً عند قدمى أبى الهول وقد سحرته أسرار مصر القديمة ولعله جاء ليحل لغز أبى الهول . إنه يوليوس قيصر الذى يناجى أبا الهول قائلا : « يا أبا الهول ! إنما نحن غريبان عن هذه الحياة ، ولكن كلا منا ليس غريباً على صاحبه . . . إن سبيلى إليك هو سبيل القدر ، فما أنت إلا رمز لعبقريتى فبعضى حيوان وبعضى امرأة وبعضى إله وما بى من الرجال كثير أو قليل . فهل قرأت لغزك يا أبا الهول » ؟

وتحس كليوبترة الصغيرة بوجوده ، ويعرفها ولا تعرفه . فتذهب تحذره من قيصر ومن الرومان ، فقيصر كما سمعت أبوه نمر وأمه بركان والرومان كما تعلم برابرة يأكلون البشر . ولهذا فهى تختبئ حتى لا يعثر عليها قيصر . ولكن « السيد العجوز » كما تسميه يهدئ روعها ، ويذكرها أن ملكة مصر ينبغى أن تستقبل قيصر وهى جالسة على عرشها فى مهابة وشجاعة .

وتسمع كليوبترة نفير الجند القادمين فتسرع إلى قصرها لتحتمى به ولتحمى « السيد العجوز » . وفى غرفة العرش يلاحظ « السيد العجوز » أن مربية كليوبترة ، واسمها فتاتيتا ، تغلظ لها القول وتأمرها وتنهاها بل وتوشك أن تضربها كأنها لا تزال طفلة فى السادسة . فيعلم « السيد العجوز » كليوبترة أن تكون سيدة قصرها . فيجلسها على عرشها ويأمر فتاتيتا أن تركع أمام مولاتها مهدداً بحز عنقها ، فتصدع المربية بالأمر وهى ترتعد فرقاً ، فتتشجع كليوبترة وتنهال ضرباً على عبيدها لتتأكد من استرداد سيادتها بين خدمها . ويأتونها بعباءة الملك وبالتاج لتستقبل بهما قيصر فتلبسهما بين مصدقة ومكذبة ، تقوى شجاعتها حيناً وتخور قواها حيناً .

وتعلو أبواق الرومان ويقتحم الجند أبواب القصر ثم يقتحمون غرفة العرش ، وإذا بهم يهتفون للسيد العجوز قائلين : « السلام على قيصر » ، فتحملق كليوبترة فى السيد العجوز ثم تدرك حقيقة الموقف فتتنفس الصعداء وترتمى فى أحضانه .

وفى الإسكندرية ندخل القصر الملكى فإذا بطليموس الصغير يجلس على عرشه ومن حوله رجال بلاطه وأهمهم بوثينوس الوصى على بطليموس . وهو فى الخمسين وتيودوتوس العجوز مؤدبه وأخيلاس قائد جيشه وهو فى الخامسة والثلاثين .

ومن عرشه يعلن الصبي ما لقنه إياه بوثينوس من أن أخته الخائنة كليوبترة تحتمى فى الأجنبي يوليوس قيصر ليثبت عرشها الزائف « وأنه لن يسمح لأجنبي أن يغتصب منه عرش مصر » . ويعلن أخيلاس أن قوة قيصر تافهة لا تتجاوز ألف فارس وثلاثة آلاف من المشاة .

وفيما هم يتداولون يدخل عليهم يوليوس قيصر يتقدمه ياوره روفيو وفى معيته سكرتيره برتيانوس وهو رجل بريطانى استخدمه قيصر منذ أن غزا بريطانيا . ويتضح أن الرومان قد استولوا على القصر الملكى والشاطئ الذى يشرف عليه القصر ، وأنهم يحاصرون الملك وأتباعه .

ولا يضيع قيصر وقتاً فيصل إلى بيت القصيد : إنه يطالب بجزية ؛ وهو لاينتظر المشاورات والمداولات فقد أمر جنوده أن يقوموا بجمع الضرائب المتأخرة من الأهالى ، ثم إنه يعرض وساطة لحل الخلاف القائم على عرش مصر بين بطليموس وكليوبترة ؛ وها هى ذى كليوبترة قد جاءت معه من سوريا . وتواجه كليوبترة أخاها وزوجها بطليموس الغلام فى شجاعة تامة ، فقد تبدلت حالها منذ أن عامها قيصر أن الملكة لا تعرف بخوفها ولكن تعرف « بكبريائها وشجاعتها وجلالها وجمالها » . أما قيصر فيرى أن إشكال العرش لا إشكال فيه ؛ فلما كانت كليوبترة ليس مجرد أخت بطليموس ولكن زوجته كذلك ، فمن الطبيعى أن يجلسا على عرش مصر معاً بوصفه ملك مصر وبوصفها ملكة مصر .

ولكن هذا الحل لا يرضى بوثينوس فيصيح فى قيصر قائلا : « إن المال الذى تطلب هو ثمن حريتنا فخذ مالك واتركنا نسوى أمورنا بأنفسنا » . ويؤيده فى ذلك رجال البلاط فيهتفون : « نعم ، نعم ، مصر للمصريين » . ويشتط روفيو الرومانى فينبه البلاط إلى أن مصر تابعة لروما منذ أن نزلها القائد جابينيوس منذ سنوات وأجلس فيها بطليموس الصغير نفسه ، فيهزأ أخيلاس قائد الجيش بقوة قيصر ويتوعدهم بالطرد من البلاد بما وراءه من جند كثير ، ويأمرهم بمغادرة مصر بلا جزية قبل

أن يفتك بهم ، ويهتف رجال البلاط ثائرين ويتجمهرون من حول قيصر صائحين : « انصرف . انصرف . مصر للمصريين » . ويهم بوثينوس وأخيلاس بإلقاء القبض على قيصر وكليوبترة وهنا يتدفق عسكر الرومان من كل ردهة رابطوا فيها إلى قاعة العرش . فيدرك بلاط بطليموس أن القصر قد سقط فى يد قيصر ورجاله وأنهم أسرى قيصر ، أو « ضيوفه » كما يقول قيصر نفسه .

وتطلب كليوبترة إلى قيصر أن يحز أعناقهم ولا سيما عنق أخيها فيجيبها أخوها بأنه سيحز عنقها حين يكبر ويشتد عوده ولا تدرى كليوبترة فى هذه المهاترة الصبيانية أتخرج لأخيها لسانها أم تحتفظ بوقارها كملكة . أما قيصر الذى لم يفقد من هدوئه شيئاً ، فهو يقول لرجال البلاط إن فى وسعهم الانصراف إذا شاءوا ، فهم فى أمان أعظم خارج القصر حيث أصدقاؤهم منهم فى داخله .

ويحتج الوصى بوثينوس على العدالة الرومانية المزعومة، ويحتج المربى ثيودتوس على الجحود الرومانى ، فقيصر وهو مدين بحياته للمصريين لا يحترم حقوقهم ، فلولا المصريين الذين اشتروا ذمة لوسيوس لاغتيال بومبى لتعرض قيصر لخطر وبيل . بل إن ثيودوتوس يدعو لوسيوس للشهادة حتى يعرف قيصر أن المصريين ليسوا من أعدائه بل من أصدقائه فيعود قافلا إلى بلادهم وهو يحمل لهم وفاء الصديق .

وحين يستمع قيصر من لوسيوس قصة اغتياله لبومبى أمام زوجه وعياله يصطنع الغضب على هذا القاتل الغادر ويذرف على بومبى دموع التماسيح ويقول : « ألم يكن بومبى زوج ابنتى وصديق الأيام الخوالى وسيد روما عشرين عاماً كاملة والقائد المظفر ثلاثين عاماً متصلة ؟ أو لم أشاركه أمجاده كرومانى ؟ وهل كنا إلا أدوات فى يد القدر الذى ساقنا لنقاتل فى سبيل ملك العالمين ؟ أأنا يوليوس قيصر أم ذئب حتى تقذفوا إلى برأس هذا الجندى القديم الذى وخطه المشيب ، هذا الفاتح المتوج بالغار ، هذا الرومانى الجبار ، وقد حزته ضربة من آفاق خائن بلا ضمير ثم تطلبون منى أن أعترف بهذا الصنيع « مخاطباً لوسيوس سبتيموس » هيا ، اغرب عن وجهى ! إنك تجعلنى أقشعر اشمئزازاً » !

ولكن لوسيوس لا يخونه لسانه ، فهو يذكر قيصر فى وقاحة بجرائمه النكراء فى حرب الغال « فرنسا » أيام فصمت بأمره آلاف الرءوس الغالية عن أبدانها

وقطعت آلاف الأيدى ، وخنق قائد الغاليين الباسل فرستوريكس غدراً فى أقباء الكابيتول بروما . كل ذلك باسم الحزم و « القوة الحكيمة » وباسم « حماية الدولة » وباسم « الواجب السياسى » .

وهنا يصطنع قيصر الأسف على تسرعه فى الحكم على لوسيوس ويقول معتذراً : « أطلب عفوك يا لوسيوس : فكيف يعنف قاتل فرستوريكس قاتل بومبى ؟ امض فأنت حر كالآخرين . أو ابق معى إن شئت فسأجد لك مكاناً فى خدمتى » . ولكن لوسيوس ينصرف مع الآخرين لأنه يعتقد أن نجم قيصر يأفل فى روما الجمهورية .

ولا يبقى فى القصر الملكى إلا كليوبترة ومعها قيصر ورجاله . ويأتى النبأ بأن الجماهير فى المدينة هائجة تقتل جنود الرومان ، وأن القصر يوشك أن يحاصر . فيأمر رجاله بأن يحرقوا مراكب قيصر الراسية فى الميناء الغربى ، وأن يحتشدوا على الشاطئ خلف القصر بجوار زوارقهم استعداداً للانسحاب من الميناء الشرقية والاعتصام بالفنار . وهنا يعود بوثينوس ليسلم قيصر إنذار المصريين الذين احتل جيشهم الإسكندرية وقوته مائة مصرى لكل رومانى ، ولم يبق إلا أن يستسلم قيصر . ولكن قيصر لا يستسلم بل يأمر بأسره .

ويدخل المربى ثيودوتوس صائحاً مستنجداً فقد أضرم المصريون النار فى سفن الرومان قبل أن يحرقها الرومان أنفسهم وفى غمرة المقاومة امتدت النيران إلى مكتبة الإسكندرية المشهورة ، وها هى ذى توشك أن تلتهمها . ويناشد ثيودوتوس بوثينوس وقيصر أن يتعاون الجند على إطفاء النار .

أما ثيودوتوس فيقول إنه أسير لا حول له ولا قوة ، وأما قيصر فيسخر منه .

ثيودوتوس : هذا كل ما هنالك ! أترضى يا قيصر أن يعرف الخالف عنك أنك جندى همجى أجهل من أن يعرف قيمة الكتب ؟

قيصر : اسمع يا ثيودوتوس . أنا نفسى مؤلف ولكن خذها عنى أنه خير للمصريين أن يحيوا حياتهم من أن يبددوها فى الأحلام بمعونة الكتب .

ويصرف قيصر ثيودوتوس إلى حيث جاء « لينقذ ذاكرة البشرية » أى مكتبة الإسكندرية . بل ويخلى سبيل بوثينوس كذلك فقيصر ثعلب ماكر يتظاهر بالرحمة

والتسامح ، ولكنه يقول لياوره روفيو إن كل أسير مصرى يكلف الرومان جنديين ليحرساه !

وفيما يستعد قيصر للإبحار برجاله إلى الفنار وهم فى خوف شديد من قوة المصريين يبصرون شيئاً عجباً . يبصرون الجيش المصرى ، وقد حمل كل جندى سطلا ، قد انصرف عن القتال إلى غرف الماء من الميناء لإطفاء الحريق فى مكتبة الإسكندرية.

ويفهم الياور روفيو عندئذ أن هذا الثعلب الماكر ما أخلى سبيل بوثينوس وثيودوتوس إلا ليشغل الجيش المصرى عنه حتى يبلغ الفنار ، وقد بلغه ، وكليوبترة ترقبه من نوافذ القصر الملكى راجية له أن يعود .

* * *

ويأتى إلى القصر الملكى نبيل من نبلاء الإسكندرية محب لكليوبترة يدعى أبولودور ومعه طائفة منتقاة من أفخر الأبسطة لأن الملكة كليوبترة تريد أن تقدم منها إلى قيصر هدية حيث يعسكر فى الفنار . ويأبى رجال الحامية التى تركها قيصر لتدافع عن القصر وعن كليوبترة أن تأذن للملكة بمغادرة القصر والإبحار إلى الفنار فقد كانت هذه أوامر قيصر المشددة .

إن كليوبترة تعيش وحدها مع مربيتها ووصيفاتها فى القصر الملكى بعيدة عن قيصر الذى اتخذت منه درعها الواقى من بطش أخيها بطليموس ورجاله ، وهى تعلم أن جيش أخيلاس لو حطم الاستحكامات ونفذ فى القصر لقضى عليها .

وتحتال كليوبترة للخروج من القصر بحيلة ماكرة . فهى تجعل وصيفاتها يلففنها فى بساط فاخر من أبسطة أبولودور بعد أن تأمر أبولودور أن يحمل هذا البساط هدية منها إلى قيصر فى الفنار . وهكذا يبحر أبو لودور فى زورق صغير إلى الفنار .

وما أن يبسط البساط وتخرج كليوبترة من طياته حتى يمتعض امتعاضاً شديداً ، ولكنه يخفى امتعاضه ويؤنبها برفق على هذه المجازفة . إن الوقت ينذر بالأخطار ، وهو يرى الجيش المصرى يخترق متاريس الشاطئ شيئاً فشيئاً ولو تم استيلاؤه على بقية الشاطئ لعزل قيصر ورجاله فى الفنار . إن رجاله فى القصر الملكى بحاجة إلى قيادته فهو مسئول عن كل جندى منهم وأنه لعائد إلى القصر لفوره سابحاً إلى سفن

من رودس تحمله ورجاله إلى الشاطئ قبل أن يفوت الأوان .

ترى ماذا يفعل بكليوبترة وهى لا تعرف العوم ؟ إنها لا تريد أن تبقى وحدها فى الفنار مع برتيانوس الذى سيتخلف حتى يعود قيصر لإنقاذه إن قدر له ذلك .

وهكذا يقذف قيصر بنفسه فى المساء ومعه رجاله وأبولودور ، ويسبح بهم إلى سفن رودس حاملا كليوبترة على ظهره وتحملهم السفن إلى الشاطئ فى الوقت المناسب ، وهكذا نعود من جديد إلى القصر الملكى .

* * *

ويستقر الموقف العسكرى على هذا الوضع ستة شهور ، فالجيش المصرى مسيطر على المدينة وقيصر ورجاله مسيطرون على القصر الملكى حيث تقيم كليوبترة ووصيفتها فتاتاتيتا الوفية التى تشبه نمرة روضتها مولاتها ، ومعهما الوصيفتان شرميان وإيراس وبقية الأتباع . حصار طويل لا ينجح ولا يفك .

وذات يوم يستأذن بوثينوس فى لقاء كليوبترة فتأذن له ، إن معه مشروعاً خطيراً ، ولكنه ما أن يتحدث إلى كليوبترة حتى يدرك أنها لم تعد تلك البنت الساذجة التى كان يعرفها فى الماضى . إنها لم تعد سعيدة كما كانت سعادة الخلى الذى لا يلقى بالا إلى شىء . إنها تتحدث عن واجبات الملك ، وعن عظمة الملك ، وعن سياسة الرعية ، ستة أشهر عاشرت فيها كليوبترة قيصر فنضج فيها عقلها بمقدار عشر سنوات . وها هى ذى تقول إنها ستكون أهلا لحكم مصر بعد أن يرحل قيصر عنها ، وتعود إلى هذا الموضوع جملة مرات .

ويحدثها بوثينوس عن المقاومة ، فتسخر منه كليوبترة . إن قيصر قد شل الحصار بفيلقين ، وقريباً يصله المدد حين يخف متريدات إلى نجدته . إن بوثينوس لا يفهم حقيقة الموقف أما هى فتفهمه . عما قريب ينتهى كل شىء ، ويرحل قيصر إلى روما ويتركها تصرف وحدها شئون البلاد نائبة عنه . وهنا يصيح بوثينوس قائلا : « فلتنزل لعنة آلهة مصر جميعاً على رأسها ! لقد باعت بلادها للرومانى لتشتريها منه بالقبلات » . إن قيصر نفسه قد غدا ألعوبة فى يدها ، وهى تستخدمه لتنفرد بحكم البلاد ، والأبلة المفتون بجمالها لا يعلم أنه قد غدا مخلب قط تستخدمه لإقصاء أخيها بطليموس . نعم ، إن كليوبترة تعلمت من هذا الرومانى فنون الحكم

وبزته فيها ، وهى الآن تسخره لمآربها .

ويفضح بوثينوس خطتها أمام قيصر إنها تعد الأيام حتى يرحل قيصر إلى روما فعندئذ تنفرد بالسلطان وتسحق حزب بطليموس ولن يكون المصريون وحدهم من الخاسرين .

وتثور كليوبترة حين تسمع هذا الاتهام ، ويضطرب قيصر ولكنه يخفى اضطرابه . إنه لا يريد أن يكون أداة لأحد وهو الذى يستخدم الجميع أدوات له . إن قيصر على استعداد لتسوية كل الأمور بما يطمئن أنصار بطليموس .

وينتحى قيصر ببوثينوس مكاناً قصياً ليجادله فى هذه الأمور . وحين تختلى كليوبترة بمربيتها فتاتاتيتا تقول إن بوثينوس لا ينبغى أن يخرج من القصر حياً ، وهكذا تنصرف فتاتاتيتا .

ويعود قيصر إلى كليوبترة فيجد أن المائدة قد مدت وعليها من الأطايب ما أطنب فى وصفه المؤرخون . وفيما هم يأكلون ويشربون ويسمرون ويحلمون بكشف منابع النيل ترتفع صرخة مفجعة من بعيد ثم يسمع صوت جسم يسقط من حالق ويرتطم بالأرض .

ويسأل قيصر منزعجاً عما جرى ، فتجيبه كليوبترة قائلة لعل جنوده قد قتلوا شخصاً ما . ويرتفع إليهم لغط جمع يتجمهر على الشاطئ ثم يعلو اللغط فيصير صخباً وضجيجاً . وإذا بفتاتاتيتا تعود وهى فى إعياء شديد وتتجه نحو المحراب خلف ستار — وتجثو وتستغرق فى صلاة طويلة . ويرتاب قيصر وروفيو فيما يجرى وتنكر كليوبترة أنها على علم بشىء . وأخيراً يدخل لوسيوس ويعلن أنه بوثينوس قد لقى حتفه بنصل متهماً قيصر باغتياله . ويتحول بصر قيصر إلى كليوبترة فتنهض غاضبة وتصيح : « نعم ، لقد قتل بأمر من ملكة مصر . فما أنا بقيصر الحالم الذى يأذن لكل عبد أن يهينه » . إن بوثينوس قد جاءها ليتآمر على الفتك بقيصر ، فلما وجد منها إعراضاً وشى بها عند قيصر ، وقد لقى منها جزاءه العادل .

إن كل من بالقاعة يجد أنها على حق فيما فعلت إلا قيصر فهو يعلم أن قتل بوثينوس سيدلع ثورة فى المدينة . ويصرخ قيصر فى كليوبترة قائلا : فلتدافع ملكة مصر الآن عن نفسها ما دامت قد تخلت عن قيصر .

ولكن قيصر يعود إليه هدوؤه حين يعلم من لوسيوس أن جيش متريدات على الأبواب .

وينهض قيصر لمواجهة الموقف . أما روفيو فيلدرك كل ما حدث ويمر فى طريقه إلى الخارج بالمحراب وراء الستار . ويرتفع صوت الأبواق فى الخارج . وتنادى كليوبترة مربيتها صائحة : « فتاتاتيتا ! فتاتاتيتا » ! وحين لا يأتيها جواب تزيح ستار المحراب فترى مربيتها مذبوحة فى بركة من الدماء .

* * *

وهكذا انتهت أيام قيصر فى مصر ، وهو الآن يستعد للرحيل إلى روما حيث تنتظره خناجر الجمهوريين أعداء القيصرية . لقد غرق بطليموس ورجاله فى المعركة فلم يبق على عرش مصر إلا كليوبترة .

ولكن قيصر لم يتركها مطلقة السلطان فى بلادها كما كانت تحلم ، بل ترك معها حاكماً رومانياً هو ياوره روفيو . لقد أدرك قيصر أن كليوبترة تعلمت عليه من فنون السياسة والحكم ما لا ينبغى أن تعلم .

الإنسان والسوبرمان

لجورج برنارد شو

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، اهتزت أوربا لكتابات رجلين من أعظم رجال ذلك القرن هما العالم الإنجليزى داروين صاحب نظرية التطور والفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه الذى توج سلسلة مؤلفاته المثيرة بكتابه « إرادة القوة » وبسط فكرته عن إمكان ظهور مخلوق جديد على وجه الأرض هو الذى يسمى بالألمانية « الأوبرمان » وبالإنجليزية « السوبرمان » وهو ما نسميه فى العربية « الإنسان الكامل » أو « الإنسان الأعلى » .

ولم تهتز أوربا لعلم داروين أو لفكر نيتشه وحدهما ؛ فقد كانت تلك الفترة من أخصب فترات التاريخ فى العلم والفكر ، ففيها بلور ماركس فلسفته الماركسية ، وفيها أيضاً تبلور الفكر الفوضوى وانتشر ، وفيها ظهرت الفلسفات الاشتراكية الديمقراطية المختلفة وفى نهايتها ظهرت نظرية النسبية التى وضعها العلامة أينشتين فى أوائل القرن العشرين .

ولكن المحور الذى دار عليه الفكر الإنسانى فى النصف الثانى من القرن ، التاسع عشر هو فكرة « التقدم » . وهى فكرة متفائلة تقوم على نظرية داروين فى تطور الأحياء من كائنات بسيطة ومتخلفة إلى كائنات معقدة وراقية بلغت أعلى مراحلها فى الوجود الإنسانى ، مما فتح الباب أمام المفكرين من أصحاب الأحلام الكبيرة فى العلم والسياسة والاقتصاد إلخ أن يستبشروا خيراً بمستقبل الإنسان ويتصوروا أن الإنسانية فى رقى مطرد ، وأن سبيلها إلى هذا الرقى المطرد هو « العلم » والسيطرة على الطبيعة . فى عصر سخر البخار والكهرباء وعرف مبادئ العلوم الذرية واكتشف قوانين الوراثة واكتشف الميكروبات واخترع التليفون والتلغراف والفوتوغرافيا والفونوغراف وجعل الصناعة الآلية تحل محل الصناعة اليدوية بفضل سيطرته على

الميكانيكا والديناميكا إلخ ... سكر الناس بقوة العلم كما نسكر نحن اليوم بمعارفنا الذرية وبقذائفنا عابرة الأفلاك ، وكثر حديثهم عن السوبرمان أو الإنسان الأعلى ، إنسان الغد ، كيف يكون ومتى يظهر وماذا يفعل عند ظهوره ، وكيف يسود الطبيعة .

وفى ١٩١٠ — ١٩٠٣ وضع الكاتب الساخر برنارد شو الكوميديا المشهورة « الإنسان والسوبرمان » . ليشرح بها للناس رأيه فى الإنسان الأعلى ويسخر بها من خرافاتهم . إنهم يتحدثون عن الإنسان « سيد الطبيعة » ، وهو يرى أن الإنسان كان وسيكون دائماً أبداً « أداة الطبيعة » . والإنسان الأعلى فى نظره لن يكون ذلك الإنسان الخارق الذكاء الذى نقرأ عنه فى قصص جول فيرن وهربرت جورج ويلز إنه يخترع ما لم تره عين وما لم تسمع عنه أذن من اختراعات ، ولكنه سيكون الفيلسوف صاحب العقل المتأمل الذى تخلقه الطبيعة لتفهم به نفسها وتكشف به عن حقيقتها . وهو ليس فيلسوفاً تائهاً فى بحار المجردات بل فيلسوفاً من طراز جديد خبر الحياة وذاق مرارتها فعرف حقيقتها وعرف مكانه منها .

الإنسان الأعلى عند برنارد شو هو باختصار : دون جوان ! دون جوان العاشق الذى امتلأت بصباباته صحائف التاريخ وصحائف القصص وخدور العذارى ومخادع الزوجات : فعرف المرأة على حقيقتها وعرف الرجل على حقيقته وأصاب الحكمة كأنه سليمان الجديد ، ونصب نفسه مصلحاً للإنسانية يهتك عنها قناع النفاق ويبشر بإنجيل ثورى جديد .

* * *

ولكن دون جوان برنارد شو يختلف عن دون جوان الذى جرت بذكره الأساطير . فالأول إنجليزى يعيش فى عصر الملكة فكتوريا والثانى إسبانى انطوى مع أمجاد الماضى البعيد . والأول اسمه جون تانر والثانى اسمه دون جوان دى تنوريو .

فنحن فى بيت من بيوت لندن الأنيقة حول سنة ١٩٠٠ وصاحب البيت سيد من أولئك السادة المسنين الذين يعدهم المجتمع الإنجليزى المحافظ عموداً من أعمدته ، وهو السيد روبك رامسدن . ولكن روبك رامسدن رغم أنه محافظ وفى الستين كان فى شبابه متحرراً يؤمن بحرية التجارة وبنظرية التطور وهما أول إمارات التقدمية فى

ذلك الزمان . ورغم أن مرور نصف قرن تقريباً جعل معتقداته التقدمية معتقدات محافظة ، إلا أنه ما زال على اعتقاده بأن أفكاره فى مقدمة الأفكار التقدمية .

ويزوره شاب وسيم وهو أوكتافيوس روبنسون ليحدثه فى المصيبة الكبيرة التى حلت بموت عميد أسرته مستر هوايتفيلد ، الذى كفله وكفل أخته فيوليت روبنسون ، ورباهما أحسن تربية وأسبغ عليهما من حبه شيئاً كثيراً فلم يفرق بينهما وبين بنتيه اللتين أنجبهما من صلبه ، وهما آن ورودا . وقد كان الفقيد العزيز مستر هوايتفلد صديقاً حميماً للسيد روبك رامسدن . وهو الآن يعزى الشاب أوكتافيوس عن موته بأصدق كلمات العزاء . والشاب أوكتافيوس يقول إن حزنه شديد لأن موت مستر هوايتفيلد المفاجئ لم يترك له فرصة التعبير عن وفائه له واعترافه بجميله بالقول أو بالعمل . فيهدئه السيد روبك رامسدن بقوله إن روح الفقيد التى تحلق وترفرف على الأحياء لا شك تعرف مدى إخلاصه العميق . ولكم سمع الفقيد فى أيام حياته أنه سعيد بأن أوكتافيوس ليس ابنه ، وأنه ليسعده أن يأتى يوم يتزوج فيه أوكتافيوس من ابنته آن . ومستر روبك رامسدن يعرف أن آن بنت مطيعة تنفذ كل رغبات أبيها وأمها . وهو يسمعها دائماً تقول« هذه إرادة أبى » . أو« أمى لا تريد هذا » . فلعل فى هذا بعض العزاء لأوكتافيوس الشاب .

أما أوكتافيوس فهو غارق فى حب آن إلى أذنيه . وهو قد ربى معها تحت سقف واحد ويعرف جميع خلالها وصفاتها ، فهى عنده المثل الأعلى للمرأة ، وهو يعيش بنظرة من عينها ، ويموت بنظرة من عينها . ولكن حبه لها حب شاعر ، فأوكتافيوس شاعر فنان ولا أمل له فى الحياة إلا أن يكتب مسرحية عظيمة تكون آن بطلتها . وهو لا يحبها كما يحب الرجل المرأة من لحم ودم ، بل يقدسها كأنها ملاك من نور صاف لم تدنسه أدران الأرض . وهو لن يرضى بأن تتزوجه آن تنفيذاً لمشيئة أبيها ، بل لا بد أن تكون هى راضية به . ومهما كان رأيها فيه فهو لن يعدل عن حبها ولن يفاتح غيرها فى الزواج .

ويقبل على دار مستر روبك رامسدن الشاب جون تانر صديق أكتافيوس منذ أيام الدراسة وموضع ثقة المرحوم مستر هوايتفيلد . ويغضب رامسدن لهذه الزيارة فهو يمقت هذا الشاب مقتاً لا مزيد عليه لأنه شاب صاحب آراء خطرة هدامة

يسميها آراء تقدمية ، وقد أصدر أخيراً كتاباً بعنوان « دليل الثائر » بقلم جون تانر « ع . هـ . ا . ك » . أى عضو هيئة الأثرياء الكسالى ، وهو فى هذا الكتاب يدعو لفلسفة جديدة يراها مستر رامسدن مجرد كوم من العفن والقاذورات . وهو يعجب كيف كان يسمح المرحوم ، مستر هوايتفيلد لهذا الشاب أن يتردد على بيته وأن يخالط ابنته آن فيعرض أفكارها وربما أخلاقها للتلف. ولكن مستر هوايتفيلد مات ، وأغلب الظن أنه ترك وصية يقيمه فيها وصياً على بنتيه آن ورودا، ومستر رامسدن سيضع حداً لتردد الشاب جون على آن ، وهو على كل حال يناشد أكتافيوس أن يساعده على ذلك حماية لآن .

وقبل أن يتمكن رامسدن من التخلص من جون تانر يعلم أنه جاء فى صحبة مسز هوايتفيلد زوجة المرحوم ، والآنسة آن بنته ، والآنسة فيوليت روبنسون أخت الفتى أوكتافيوس أو « تافى » كما كانوا يلقبونه ، وقد صعدوا جميعاً إلى الطابق الأعلى حيث تقيم العانس العجوز الآنسة رامسدن أخت السيد العجوز رامسدن .

ولا يلبث جون تانر أن يدخل على رامسدن وتافى وهو فى اهتياج شديد يلوح بورقة فى يده ويصيح إنه وقع فى فخ ولابد أن يخرج منه ؛ فالورقة صورة من وصية المرحوم هوايتفلد تقول إنه عين وصيين لرعاية ابنتيه آن ورودا ، وهما روبك رامسدن وجون تانر . ويغضب رامسدن غضباً شديداً : فهو لا يتصور أن يشترك مع هذا الشاب المخرب الوقح فى أى عمل من الأعمال . إنه يتنحى عن الوصاية فهو لا يفهم كيف يسيء المرحوم الثقة به فيجعل له شريكاً فى الوصاية على بنتيه . فيقول جون تانر إن المرحوم لاشك تأثر بمقاله : « فلتسقط حكومة الشيب » . التى أثبت فيها بالدليل القاطع أن إنجلترا لن تسلم أبداً إلا إذا اجتمع فى حكمها مكر الشيوخ وحيوية الشبان . وهو نفسه آسف على أن المرحوم أدخله فى هذا المأزق ، وهو أول من يريد الخروج منه .

ولكن كيف الخروج من هذا المأزق ؟ إن جون تانر جاء طول الطريق من متشموند إلى بيت رامسدن فى ميدان بورتلاند مع آن وبقية أسرتها ، وكلما أراد أن يعتذر كانت آن تبكى وتقول : « طبعاً ! أنا الآن بنت يتيمة ، فتخلوا عنى » . وتغمز من كانوا يترددون على بيت أبيها أثناء حياته ثم يهجرونه بعد موته .

ويقول رامسدن إن المرحوم هوايتفيلد لا شك لم يكن مالكاً لقواه العقلية حين كتب الوصية ، وإلا لما عين جون تانر وصيًّا على ابنتيه . فيجيبه جون تانر قائلا : بل إنه كان فى كامل عقله والدليل على ذلك أنه أوصى لرامسدن بألفين وخمسمائة جنيه مكافأة له على مشاق الوصاية وأوصى بخمسة آلاف جنيه لربيبه تاڤى ثم أوصى بدوطة لأخته فيوليت . أما جون تانر نفسه فلم يوص له المرحوم بشىء قائلا إن لديه من ماله الخاص ما يكفى لإفساد أى إنسان .

ويقترح تانر دعوة آن للاسترشاد برأيها ، فيعارض رامسدن قائلا إنه مع احترامه لرغباتها فهى مجرد امرأة قليلة الاختبار ولا يعتد برأيها . فيجيبه جون تانر قائلا إن آن على عكس ما يظن بنت واسعة الحيلة إذا أرادت شيئاً لم تطلبه بنفسها بل أوحت إلى الغير أن ينصح بفعله ثم تظاهرت بأنها إنما تنفذ رغبات أبيها أو أمها أو وصيها لتحمله المسئولية إذا ساءت العواقب .

وتجىء آن ، ويعلنها رامسدن بأنه لا يستطيع أن يتعاون مع جون تانر ، ويعلن تانر استعداده للتنحى ويرجوها أن تعفيه من هذا الواجب ، ولكن آن تتمسك به قائلة إنه إذا كان أبوها العزيز قد اختاره فكيف تقصيه هى ؟ ويحتج رامسدن بأن تانر قد ارتكب فعلا فاضحاً حين نشر كتابه « دليل الثائر » وهذا وحده يجرده من الأهلية للوصاية عليها . ويمسك الكتاب بيده ويلوح به ، وتطالب آن أن تقرأه لتقف بنفسها على أفكاره الفاضحة . ولكن رامسدن ينهاها بوصفه الوصى عليها عن قراءة القاذورات . ويقول تانر إن حقيقة الأمر أن أفكاره متقدمة على أفكار رامسدن ، وهذا هو سر عدم الانسجام بينهما . فتدافع آن عن رامسدن قائلة إنه ليست فى الدنيا أفكار متقدمة على أفكاره فهو رجل عصرى يساير الزمن . وترتاح نفس رامسدن لهذا التملق . ولكن آن تتمسك فى الوقت نفسه بتانر تنفيذاً لوصية أبيها .

وهكذا يقبل الرجلان هذا الوضع على مضض . وتنصرف آن وأمها ورامسدن فينفرد جون تانر بأوكتافيوس أو تاڤى . ويحذر تاڤى من آن فهى فى رأيه تعد العدة لتلتهمه . إنه يعد نفسه لأن يكون شاعراً فإذا لم يحتط للأمر فسيجد نفسه زوجاً لآن لا زوجاً لعرائس الشعر . إن الفنان الأصيل فى رأيه لا يقع أبداً فى مخالب امرأة ، أو يقبل أن تلتهمه فى عرينها هذا الذى يسمونه بيت الزوجية . إنه يفضل أن يترك

زوجته تتضور جوعاً وأن ينام أطفاله على الطوى وأن تعمل أمه وهى فى السبعين لتطعمه ، هو يفضل كل ذلك على الاشتغال بأى شىء يصرفه عن فنه . إن الفنان الأصيل يشرح النساء وهن أحياء ، وهو يمص دماءهن . وهو يخالطهن ليدرسهن ، ليهتك عن وجوههن قناع الأخلاق الزائفة التى يفرضها المجتمع عليهن ، ليتوغل فى سراديب أسرارهن . وهن يذكين فيه ملكة الفن الخالقة وينتشلنه من دنيا العقل الباردة ، ويأتينه بالرؤى والأحلام . هذا هو ما يسمونه الإلهام . والفنان يستخدم النساء أدوات راضية لإلهامه . فهن يحسبن أنهن يفترسنه وهو فى الحقيقة يفترسهن. الفنان يسرق لبن الأم ويحيله إلى مداد من مداد المطابع يلوث به المرأة التى يعرفها ويمجد به المرأة المثالية ! الفنان منذ بدء التاريخ أسوأ زوج فى الوجود ، إنه منافق وغشاش وكذاب . ولكن كل هذا مستباح من أجل الفن الخالد الذى يعلم الإنسان فلسفة الحياة ويجعل الإنسانية تعرف نفسها . الزواج عدو الفن . الأمومة عدوة الفن . المرأة عدوة الفن . وأهم من هذا وذاك الحب عدو الفن . إن تافى يحب آن ، ولكن يجب عليه أن يختار بين فنه وحبه . إن كل حى من الأحياء هو ذاته يعمل لهدف تمليه عليه الطبيعة . إن المرأة أداة الطبيعة لخلق الحياة ، والفنان أداة الطبيعة لخلق حياة أسمى ، والمرأة تضحى بنفسها راضية لتقوم بوظيفتها الحيوية ، فكيف لا تضحى بالرجل فى سبيل هذه الغاية الخطيرة . إنها تصطاده كالقنيصة ، إنها تنصب له الشباك . فإن وقع فى الفخ الذى يسمونه الزواج التهمته كما تلتهم اللبؤة فريستها والتفت حول جسده كما تلتف الحية الاستوائية حول جسد ضحيتها . وهى لا تفعل إلا ما تمليه عليها الطبيعة التى تزين كل شىء بالحب وسعادة الحب . إن الطبيعة لا تفكر فى سعادة الرجل أو سعادة المرأة بل تفكر فى غايتها الأولى وهى تجديد الحياة . كذلك المرأة لا تفكر فى سعادتها أو فى سعادة رجلها بل فى غايتها الأولى وهى تجديد الحياة .

الحضارة محاولة الرجل أن يصبح شيئاً آخر غير أداة فى يد المرأة لتحقيق وظيفتها الحيوية ، وقد بناها الرجل دون أن يستشير المرأة ، بناها من فائض نشاطه الذى لم تستهلكه المرأة فى أداء وظيفتها الحيوية .

فليهرب إذن تافى من مخالب آن إذا أراد أن يكون فناناً ، إنه يبالغ فى تقديس

المرأة . إنه يقول إن النساء محبات يحطن الرجال بالحنان ويعنين بهم . نعم هن يفعلن ذلك . ولكنها عناية الجندى ببندقيته وعناية الموسيقى بكمنجته .

ويعود رامسدن وآن وعليهما وجوم شديد . إن لديهما نبأ سيئاً لأوكتافيوس عن أخته فيوليت ، فقد رأتها مسز هوايتفيلد بالأمس فى عيادة طبيب وكانت تلبس خاتم زواج وهكذا عرفت مصادفة أنها حامل . والكل يعرف أن فيوليت أخت تافى غير متزوجة . ويصعق تافى عند سماعه هذا النبأ ويثور صائحاً : من الوغد ؟ من الوغد ؟ ولكنه يعلم أن أخته تأبى بتاتاً أن تصرح باسمه .

ويدافع جون تانر ، أو دون جوان كما كانت آن تسميه ، عن فيوليت قائلا إنهم جميعاً سخفاء عبيد التقاليد . إن تافى كان يفضل الموت لأخته ، كان يفضل أن يدهمها قطار . ولكن ماذا جنت فيوليت ؟ إنها استجابت لأهم وظيفة خلقتها الطبيعة من أجلها ، وهى التكاثر وتجديد الحياة ، وبدلا من أن يفرح الناس ويتهللوا لميلاد طفل جديد ينادون بالويل والثبور ، ويصيحون : يا للعار ! يا للعار !

ويصيح رامسدن قائلا إنه لا يقبل أن يدنس بيته بهذه الأقوال السافلة . فيجيبه جون تانر قائلا : هيا اطردنى . هيا اطردها ، وطهر بيتك من شخصها النجس . اقذفوا بها إلى الشارع . إن فيوليت الآن أحوج ما تكون للرعاية إنها أحوج ما تكون إلى المال، وإلى كلمات الحنان التى ترد لها اعتبارها . وإذا لم تاق ذلك منكم فستلقاه منى .

ويتراجع رامسدن وينفى أنه قصد إلى التخلى عن فيوليت أو طردها من بيته ويسابق جون تانر فى إبداء شعوره لمعاونتها فى محنتها . أما تافى فلا يكف عن التفكير فى الوغد الذى أفسد أخته وهو يصيح : لا بد أن يتزوجها . لابد أن يتزوجها .

وترسل الجماعة تافى ورامسدن ليعودا بفيوليت . ويقترح رامسدن وأخته أن تسافر فيوليت إلى الخارج حتى تضع مولودها منعاً للفضيحة ، ولكن فيوليت تأبى فى عناد أن تغادر لندن . ويدافع جون تانر عنها ساخراً من دعاة الفضيلة ومكارم الأخلاق قائلا إن الفرق عندهم بين الخير والشر وبين الفضيلة والرذيلة هو مجرد خاتم زواج أو قصاصة ورق يسمونها عقد الزواج . أما هو فيعد الأمومة أسمى غاية فى الحياة وأجدرها بالاحترام سواء أتمت بخاتم أم بغير خاتم .

وتغضب فيوليت حين تسمع هذا الكلام قائلة إنها احتملت من إهاناتهم ما فيه الكفاية ، ولكن إهانة مستر تانر لها لا تحتمل ، فهو لا يكتفى بالظن بأنها امرأة ساقطة بل يحسب أيضاً أنها تشاطره آراءه المنحطة هذه . فيعلم الجميع إذن أنها لم تحمل فى الحرام ، فهى متزوجة سراً من شخص لا تستطيع أن تبوح باسمه إلا فى ظروف أخرى ، وأنها لم تلبس خاتم الزواج لإيهام الطبيب أو إيهام الناس بأنها متزوجة ، فهى متزوجة فعلا .

ويتنفس تانى الصعداء . ويعتذر لها تانر وهو يتصبب عرقاً عن سوء كلامه بحسن مقصده فتعلق على ذلك بقولها إنها ألفت منه مثل هذه الآراء الجديدة التى لا يأخذها أحد مأخذ الجد . وهكذا تنجلى العاصفة .

* * *

ولكن هناك عاصفة أخرى تهب على دون جوان أو جون تانر ولا يستطيع اتقاءها بسهولة . فهو يحس فى قرارة نفسه أن آن تطارده ولا تطارد تانى . وهى تضيق عليه الخناق وتأمل أن يدخل المصيدة فلا يخرج منها ، وهذا هو سر تحامله الشديد عليها . وهو يعلم فى قرارة نفسه أنه يحبها ولكنه يعلم أيضاً أن واجبه هو الفرار منها . وقد كانا منذ الطفولة تلميذين يلعبان معاً ، واستمرت الألفة بينهما طوال الصبا ، وكان يستودعها كل أسراره وكانت تستودعه كل أسرارها ، ثم اكتشف فى نهاية الأمر أنه يخبرها كل يوم بمغامرات جديدة منها الصادق ومنها الملفق ، مع صاحباته من التلميذات وغير التلميذات ، أما هى فلا تقص عليه شيئاً . ثم اكتشف فجأة ما هو أهم من كل ذلك . اكتشف أنهما بلغا سن الرشد ، فإذا به شاب مكتمل الفتوة وإذا بها فتاة مكتملة الأنوثة ، ولا سبيل إلى تبادل هذه الروايات الصبيانية عن مغامرات الصبيان . وهنا كف عن كل سرد وحين تخلو إليه آن تعنفه على أنه كسر العهد ولم يعد يأتمنها على أسراره . فيذكرها أنه الوصى عليها ويحسن أن تعامله فى شىء من الرسمية . ولكنها تذهب تستمع إلى آرائه الجريئة الثائرة وهو يتحدث عن ضرورة الثورة ، ثورة الأبناء على الآباء وغير ذلك من النظريات الجديدة ، وهى مفتونة به وبسحر حديثه ، وتطلب منه المزيد رغم أنها لا تقيم وزناً لصحة آرائه ولا تحملها محمل الجد . ويشتعل دم جون تانر كلما اختلى بها ورآها تسوقه إلى حبها

بدلالها وطرقها اللولبية دون أن تقول كلمة صريحة واحدة .

وحين يتيقن من أنه الفريسة المرموقة يقرر الفرار . ويخرج بسيارته التى يقودها سائقه هنرى ستريكر فى رحلة طويلة من لندن إلى الجزائر ، مدعياً أنه قاصد إلى نيست فى جنوب فرنسا . وتطارده آن فتقنع بقية أفراد الأسرة باللحاق به . وتتعقبه فى الطريق فتعلم أن سيارته عبرت جبال البرانس وأنه فى طريقه إلى سيرا نيفادا بإسبانيا . وتكون المطاردة فى سيارة شاب أمريكى صديق للأسرة يدعى هكتور مالون ، ابن مليونير أمريكى جمع ملايينه من صناعة الأثاث بالجملة ، وعاد إلى إنجلترا ليشترى لابنه قصراً من تلك القصور العريقة التى يتوارثها أشراف الإنجليز ، ومع القصر صاحبته التى يشترط المليونير العجوز أن تكون من صاحبات الألقاب ، فهو لن يتزوج ابنه إلا دوقة أو كونتيسة أو بارونة .

* * *

وفى جبل سيرا نيفادا بإسبانيا ترابط عصابة كبيرة من قطاع الطرق يتزعمها يهودى إسبانى اسمه مندوزا . أما قوام العصابة فهو خليط عجيب من اللصوص الحقيقيين ومن الفوضويين ومن الديمقراطيين الاشتراكيين . ويكثر الجدل بين الفوضويين والديمقراطيين الاشتراكيين كالعادة فى مبادئ السياسة والاقتصاد وأصول الحكم . ويتهم الفوضويون الاشتراكيين بالخيانة والانتهازية ومهادنة البورجوازية ، ويتهم الاشتراكيون الفوضويين بأنهم مخربون رسفاحون ومشوشون .

ويكاد بعضهم يعتدى على البعض الآخر فيذكرهم زعيمهم اليهودى مندوزا أن نوع الاقتصاد الوحيد المتفق عليه بينهم فى جبال سيرا نيفادا ، هو إيقاف كل سيارة تمر وتجريد السياح الأغنياء من أموالهم . فبهذا وحده تتحقق العدالة الاجتماعية : الأغنياء يسرقون الفقراء . وهم يسرقون الأغنياء !

وتقترب منهم سيارة جون تانر فيقطع رجال العصابة جدلهم ويفرشون الطريق بالمسامير لخرق إطارات السيارات وإيقافها وبعد قليل تحيط العصابة بالسيارة . ويجد مندوزا فى حديث جون تانر وآرائه متعة كبرى . فهو أول من سمعه يقول إنه يقدر عمله ويفهم فلسفته . فهو مثله لص بل أفظع منه لصوصية لأنه يسرق الفقراء ولكن المجتمع اصطلح على اعتباره من الوجهاء .

وتنشأ بين الرجلين ألفة فيصرف مندوزا رجاله للنوم حتى الصباح . ويوقد ناراً يستدفئ بها مع جون تانر تحت الظلام وتفتن تانر شخصية هذا اللص الغريب فيسأله عما قاده إلى هذه المهنة الغريبة . فيعلم من مندوزا أن السبب فى كل شىء هو الحب . فقد كان مندوزا من قبل جرسوناً فى مطعم بلندن ثم أحب بنتاً إنجليزية كانت تعمل طاهية فى المطعم اسمها لويزا ، ورفضت لويزا أن تتزوجه لا من باب التمسك الدينى فقد كانت لويزا متحررة فى تفكيرها ، ولكن لأنه رسخ فى اعتقادها أن اليهود يظنون المسيحيين قذرين . وهددها بالانتحار فقدمت له الحبوب التى ينتحر بها . فلما يئس هاجر إلى أمريكا وهناك تعرف على رجل مهنته مهاجمة القطارات وهنا لمعت الفكرة فى ذهنه أن يؤلف عصابة لمهاجمة السيارات فى جنوب أوربا . وهكذا أصبح زعيماً لهذه العصابة. ورغم أن مهنته موفقة إلا أنه لايزال مقيماً على حب لويزا الجميلة التى لا يغادره طيفها فى يقظة أو منام . وهو ينظم فيها الشعر ويغنى الأغانى التى تقول : « لويزا تحب مندوزا ! ومندوزا يحب لويزا ! أى لويزا ، عاشقك هو مندوزا ومندوزا هو عاشقك » !

ويضحك جون تانر لرداءة هذا الشعر وسذاجته . ويتبين أن لويزا حبيبة مندوزا إن هى إلا لويزا ستريكر أخت هنرى ستريكر سائق جون تانر . ويثور ستريكر ويكاد يلتحم مع مندوزا لولا أن جون تانر يهدئ من روعه .

ويطلق مندوزا عقيرته بالغناء الحنون وسط الجبال الشامخة ، جبال سيرا نيفادا مترنماً بشعره الساذج ، ولكن جون تانر لا يستمع إلى غنائه فهو يغط فى نوم عميق ومعه يغط سائقه هنرى ستريكر .

ويحلم جون تانر حلماً عجيباً . فهو لم يعد الجنتلمان الإنجليزى مستر جون تانر بل غدا دون جوان تنوريو زير النساء الإسبانى الذى مات منذ قرون وذهبت روحه إلى الجحيم . ويرى دون جوان نفسه فى الجحيم وتفد عليه عجوز شمطاء فى السابعة والسبعين . ويعلم من العجوز أنها ضيف جديد لأنها تسأل عن المكان . وحين يقول دون جوان إنها فى الجحيم ، تثور وتصيح فيه قائلة : كيف تجرؤ على هذا القول . . أنا سيدة من بيت كريم من أتباع الكنيسة الأوفياء . لا يمكن . إنها لا تستحق أكثر من المطهر . ولكن دون جوان يؤكد لها أنها مثله فى ألعن مكان من الجحيم

حيث العزلة الدائمة. وتسأله عما جناه فتعلم أنه قاتل. فتندب حظها الذى جمعها مع القتلة والسفاحين وتطعن فى عدالة السماء . لابد أن هناك سهواً أو خطأ . ويعزيها دون جوان بقوله إن أحسن الناس يقيمون فى الجحيم . ولكنها تكذبه فى عناد . إنها ليست فى الجحيم فهى لا تحس ألماً إطلاقاً . فيعلمها دون جوان أن هذا دليل على أنها شريرة من طراز أصيل . لأن الجحيم ما جعل إلا للأشرار ، والأخيار فيه يتعذبون ، ومن لا يتعذبون فيه هم الأشرار الذين يألفونه لأن نفوسهم قطع من الجحيم . أما هو فهو يضيق بالجحيم ويجد العزلة فيه قاتلة لأنه ليس حقيقة من الأشرار وهو وإن كان قد قتل رجلا فإنه قتله فى مبارزة دفاعاً عن نفسه .

ويروى دون جوان على السيدة حكايته أنه أحب امرأة حبًّا عنيفاً وأراد أبوها أن يدافع عن شرف ابنته فبارزه فقتل فى المبارزة . هذا كل ما هنالك . فتقول السيدة العجوز إن هذا بالضبط ما حدث لأبيها ، فقد قتل فى مبارزة دفاعاً عن شرفها . ومحال أن تكون هناك عدالة فى السماء إذا كان الجحيم من نصيب المؤمنين بالشرف والواجب وغيرهما من المعانى السامية . ولكن دون جوان يؤكد لها أن أكثر سكان الجحيم من المؤمنين بالواجب والشرف والمعانى السامية . ويذكرها بما حدث على الأرض من جرائم نكراء كلها ترتكب دفاعاً عن الشرف وباسم الواجب وانتصاراً للمبادئ السامية . فكم من برىء قتل وكم من حروب نشبت وكم من شناعات ارتكبت تحت لواء الفضيلة والمعانى الجميلة .

ويعرفها دون جوان أن أفظع ما فى الجحيم من عذاب هو أن كل ما فيه وهم كاذب ومظاهر خداعة ، أما الحقائق الثابتة فكلها فى الجنة . فكل من فى الجحيم يستطيع إذا أراد أن يغير عمره أو يبدو فى المظهر الخارجى الذى يروق له ، والسيدة العجوز مثلا تستطيع وهى فى السابعة والسبعين أن تبدو فى السابعة عشرة أو فى السابعة والعشرين . فكل ما فى الجحيم زيف وكل زيف خداع .

وتجرب السيدة العجوز بين مصدقة ومكذبة ، ويكفيها أن تريد أن ترتد إلى شرخ الشباب ، فإذا هى غادة من أجمل الغادات كما كانت على صورتها حين كانت فى السابعة والعشرين . وما أن يراها دون جوان حتى يصيح عاجباً « دونا آنا دى أولوا » ! فإذا ملامحها ملامح آن هوا يتفيلد بالضبط ولكن زيها من زى

العصور الحالية . وحين يذكرها دون جوان بنفسه تصرخ فيه ثائرة « أيها الوحش! لم قتلت أبى ! أنت تتعقبنى حتى إلى هذا المكان » ؟ ويهدئ دون جوان من روعها قائلا إن أباها فى الجنة وأن فى استطاعتها رؤيته لأنه يزور الجحيم من وقت لآخر ويتجاذب معه أطراف الحديث .

وتعلم السيدة آنا أولوا أن الهوة السحيقة التى تفصل الجنة عن الجحيم ليست هوة فى الزمان والمكان ولكن هوة بين ما هو ملائكى وما هو شيطانى ، فهى حالة وطبيعة وليست شيئاً يقاس فهى تعرف أنه لا فرق هناك بين حلبة مصارع الثيران والفصل الذى يلقى فيه الفيلسوف تعاليمه ، ومع ذلك فالهوة بينهما عميقة ليس من السهل عبورها وبالمثل القاعة التى تصخب بألحان الجاز الفاحشة والقاعة التى تعزف فيها الموسيقى الكلاسيكية . الفرق ليس فى القاعة ولا فى الرجل الجالس فى القاعة ولكن فى طبيعة هذا الجالس وما يسمع من ألحان شيطانية تخاطب الحواس أو ألحان سماوية صافية . وهذا هو الفرق بين من يعيشون فى الجحيم ومن يعيشون فى الجنة . أهل الجحيم رغم أنهم أرواح بلا أجساد يعيشون فى حلم دائم زائف بالملذات الجسدية المتقلبة الزائفة أما أهل الجنة فيعيشون فى الحقائق الدائمة الثابتة . أهل الجحيم يبحثون عن السعادة أما أهل الجنة فيبحثون عن الحقيقة . أهل الجحيم عبيد الحقيقة أما أهل الجنة فسادتها . وهو دون جوان الذى جرب كل الملذات يعرف هذا أكثر مما يعرفه سواه . يعرف أن السعادة زائفة وزائلة وأن الحقيقة صادقة وباقية وهو لهذا يضيق بالجحيم ويحب أن ينتقل إلى الجنة تاركاً الجحيم لمن يعشقون السعادة واللذة . إن مكانه الطبيعى هو الجنة . . حيث لا شىء إلا التأمل ، التأمل الدائم فى الحقائق الخالدة . العقل . . العقل . . حياة العقل والتأمل هذه هى الجنة التى ينشدها دون جوان بعد أن جرب كل سعادات الجسد ووجد أنها زائفة .

نعم ، العقل هو أرقى أداة خلقتها الطبيعة لتفهم بها نفسها ولتفهم بها حقيقتها وإرادتها . بدأ الوجود بالمادة غير العضوية ثم بالعضويات التى نسميها الحياة ، وارتقت أشكال الحياة بقوة الحياة فكان الماموث والديناصور وكانت ألف صورة وصورة كلها ظهرت بقوة الحياة ، فقوة الحياة تسعى دائماً أبداً لتنظم نفسها ، فى وجود أرقى ، وكان آخر اختراع اهتدت إليه قوة الحياة هو العقل ، العقل المتأمل

بانى الحضارات ومنظم الفوضى ومجنب الأخطاء ومحقق الغايات السامية . فحياة الفكر هى أعلى مرحلة من مراحل الحياة .

وبعد أن يفرغ دون جوان من وصف الفردوس والجحيم كما رآهما لصاحبته دونا آنا ، يفيق من نومه ، فيجد جون تانر نفسه مستلقياً على بطاح سيرا نيفادا وإلى جواره سائقه هنرى ستريكر وقاطع الطريق مندوزا ولصوصه ، وقد أدركهم الصباح العريض ، وما هى إلا دقائق حتى يدركهم شىء آخر هو سيارة الفتى الأمريكى هكتور مالون وقد اجتمع فيها آن وفيوليت وتاف وبقية أفراد الأسرة وسرعان ما يلحق بهم المليونير الأمريكى العجوز مالون .

* * *

وحين تقع عين جون تانر على آن يعلم أنه أوشك أن يقع كالقنيصة فى حبائل صائدته ويحدث نفسه قائلا : « إنها قوة الحياة » ! إنه كان يبشر بأن المرأة أداة فى يد قوة الحياة تدفعها دفعاً إلى اقتناص الرجل لتجدد بها الحياة على وجه الأرض . وجون تانر الذى يعلم ذلك كان يرغب فى أن ينجو من براثن المرأة حتى يخصص نفسه لصورة أعلى من صور الحياة وهى حياة الفكر أو ما يسميه هو بحياة الجنة أو حياة النعيم .

وحين تقع عين الفتى الأمريكى على أبيه الذى جاء معهم إلى إسبانيا باحثاً عن مشروع يستثمر فيه بعض ماله يبدو عليه الامتعاض الشديد ؛ فأبوه مستغرق فى الحديث مع فيوليت التى تحاول أن تقنعه بالموافقة على زواجها من ابنه هكتور ، وهو يجيب فى عناد أن ابنه ليس بقاصر فليتزوج بمن أحب ولكنه لن يعطيه سنتاً واحداً إن لم يتزوج من صاحبة لقب بحسب ما رسم له وقرر . ولكن امتعاض هكتور لأمر آخر ؛ فأبوه قد فتح خطاباً موجهاً إليه من فيوليت تطلب فيه من « حبيبها » هكتور أن يلحق بها ، فاشتم الأب رائحة شىء يجرى فى الخفاء وخف إليها ليقف على الحقيقة وهكتور ثائر لا يغفر لأبيه أنه فتح خطاباً من خطاباته ويقف هكتور خطيباً وقد ملأه الحماس ويعلن على الجماعة العاجبة أنه زوج فيوليت . وأنه أراد أن يقنع فيوليت بإعلان هذا الزواج ، ولكنها ألحت عليه فى إخفائه حتى يجد سبيلا لاكتساب موافقة أبيه ، وقد قبل هو هذا على مضض

ولكن الكيل طفح ، فإذا كان أبوه فتح خطاباته الشخصية فهو ليس أباً له وهو يتبرأ منه ، ولم يعد يهمه بعد الآن أيسخط أم يرضى وهو لا ينتوى الزواج من فيوليت فهو قد تزوجها فعلا وهو يعرف كيف يشق طريقه فى الحياة بمفرده ولن يقبل من أبيه سنتاً واحداً .

ويتهلل الجميع عندما يعرفون أن هكتور مالون الابن هو زوج فيوليت الخفى ويعانقه تافى ويصيح مع تانر فى وقت واحد قائلين إن فى استطاعته أن يعتمد عليهما ماليًّا وأن يطلب منهما أى مبلغ يحتاج إليه ولما يسمع أبوه الغرباء يتسابقون فى عرض مساعدتهم على ابنه هكتور يعود إليه معتذراً يطلب التصافى ويركب الأمريكى الشاب رأسه فيصافح أباه ولكنه يرفض أن يأخذ منه شيئاً واحداً ، ولكن الإنجليزية الحصيفة تتلقى المال نيابة عن زوجها .

وفى وسط هذه البهجة يتقدم تافى إلى آن عارضاً عليها قلبه واسمه وكل حياته المستقبلة ، فتربت على خده فى رقة وتقول : لا أستطيع ؛ لأن أمى أشارت علىّ بالزواج من جون تانر . وتنظر إليها أمها وهى تحملق فى دهشة فهى لم تحدثها فى أمر من هذه الأمور على الإطلاق .

وترتعد فرائص جون تانر . وتنظر آن إلى فريستها وتقول فى همس : « أنت لا تعلم يا جون أن أبى قبل أن يموت سألنى : من تريدين وصيًّا عليك . . . فأجبته : جون تانر » !

ويهم جون تانر بالهرب قبل أن يقع فى الفخ . فتتظاهر آن بالإغماء حتى يتكاثر من حولها الجمع . وحين تفيق يسألونها فى لهفة ماذا بك ! ماذا بك ! فتجيب آن فى هدوء :

ـ إن جون تانر طلب يدى فأجبته بالإيجاب .

وهكذا فشل الإنسان فى أن يصير إلى سوبرمان . . مرة أخرى بسبب حواء !

جزيرة جون بول الأخرى

لجورج برنارد شو

جون بول هو رمز بريطانيا ، وجزيرة جون بول الأخرى هي أيرلندا ، لأن جزيرته الأصلية هي إنجلترا . والكاتب الإيرلندى الساخر برنارد شو يفضح فى هذه الكوميديا اللاذعة العقلية الاستعمارية الإنجليزية ويشرح أساليبها فى استرقاق الشعوب واستغلال غفلتها وتخلفها وطيبة قلب أبنائها وتمسكهم بفضائلهم التقليدية. ولا أعرف مسرحية صورت النفاق الإنجليزى ومكر الثعالب الذى اشتهر به الإنجليز كما صورته هذه المسرحية . فبطلها مهندس إنجليزى يحل فى أيرلندا ، ويزعم أنه أكثر أيرلندية من الأيرلنديين فينتهى به الأمر أن يقنع الأيرلنديين بأن ينتخبوه ممثلا عنهم فى البرلمان البريطانى متجاهلين بنى وطنهم من المرشحين ، وينتهى به الأمر إلى أن يستولى على خطيبة صديقه الأيرلندى الحميم . وينتهى به الأمر إلى أن يضع يده على أرضهم كذلك . وإذا كان برنارد شو قد وصف الإنجليز على حقيقتهم ، فهو قد وصف بنى قومه من الأيرلنديين على حقيقتهم أيضاً ، فبين ما بينهم من انقسامات مكنت للإنجليز من أن يحكموهم وما فيهم من عقد أجلت تحررهم زمناً ، كالتبرؤ من بلادهم عند البعض والاستغراق فى أحلام المجد عند بعضهم الآخر استغراقاً يحجب عنهم أسلوب السخرية اللاذعة فى هذه الكوميديا لفضح أساليب الاستعمار الإنجليزى . فهو قد صدر لها بمقدمة ضافية تجرى مجرى المآسى فصل فيها جريمة دنشواى ليثبت أن الاستعمار لا يلجأ إلى دهاء الثعلب وحده ولكن يكشف عن ناب الذئب أيضاً إذا استعصت عليه الفريسة .

* * *

فى شارع جريت جورج ستريت بحى وستمنستر فى لندن مكتب للإنشاءات الهندسية يديره رجلان أحدهما إنجليزى اسمه توماس برودبنت والآخر أيرلندى اسمه لورانس دويل . وهما صديقان متلازمان لسنوات خلت وابنا جيل واحد بين الثلاثين

والأربعين . وهذا المكتب ليس مجرد مكان للعمل واستقبال الزبائن ولكن بعض حجراته خصصت لتكون مسكناً لهما . فهما يسكنان معاً كما يعملان معاً وأهم من هذا وذاك هما يديران و يملكان معاً شركة خطيرة اسمها « جمعية تعمير الأراضى » للإنجليزى فيها نصيب الأسد وللأرلندى فيها الباقى .

ونرى المهندس الإنجليزى توماس برودبنت يرتب أوراقه فى مكتبه ويعد أشياءه للسفر يعاونه فى ذلك خادمه هودسون . ويبدو أن برود بنت متهيب من هذه الرحلة كأنه ذاهب إلى بلاد فيها ضباع كاسرة . فهو يسأل خادمه هودسون إن كان قد رأى مسدسه . فيجيبه هودسون أن زميله مستر دويل يستخدمه عادة كثقالة ورق على مكتبه . ويأمر برودبنت الخادم أن يعد حقيبته أيضاً وأن يتزود مثله بمسدس . فهو سيصحبه فى رحلته إلى أيرلندا . ثم ينتظر . فهو على موعد مع رجل أيرلندى يدعى تيم هافيجان قرر أن يستخدمه فى رحلته .

و يدخل عليه تيم هافيجان هذا فيلاطفه بالويسكى وحلو الكلام رغم رثاثة هيئته . ويشرح له مهمته . فبرودبنت قد قرر زيارة أيرلندا . فهو معجب بالأيرلنديين . وهو يحس بأن عليه واجباً نحوهم هو خدمتهم . وأيرلندا ليست المكان الوحيد الذى يسمع منه برودبنت نداء الواجب : فهو إنجليزى وهو من أنصار حزب الأحرار فهو يسمع نداء الواجب من فنلندا ومن اليونان ومن أماكن كثيرة . وقد كان يجب أن يؤدى واجبه فى جنوب إفريقيا لولا أن جنوب إفريقيا قد دمرها البوير واستعبدوها . فهو يجد أن أيرلندا هى خير مكان يستطيع أن يؤدى فيه واجبه نحو المدنية ونحو إخوته فى الإنسانية .

إن مشروعه العمرانى هو أن يبنى فى أيرلندا جاردن سيتى جديدة . أى مدينة من الفيلات ذات الحدائق الغناء . وهو يعلم أن أمامه صعوبتين . فكل الأيرلنديين سيمقتونه لأنه إنجليزى وكل الأيرلنديين سيمقتونه لأنه بروتستانتى . وقد تتعرض حياته للخطر ولكنه مستعد للمجازفة بحياته فى سبيل الواجب . وهو قد اختار تيم هافيجان ليساعده فى مهمته لأنه أيرلندى نموذجى اجتمعت فيه كل فضائل قومه وكل عيوبهم . فهو طائش تنقصه الحكمة وهو يسرف فى الشراب ولكنه طيب شجاع سريع البديهة يحب الفكاهة وهو سيجعل الأيرلنديين يفهمون توماس برودبنت

ويجعل توماس برود بنت يفهم الأيرلنديين وهو يعينه سكرتيراً أيرلنديًّا له، وله أن يطلب ما يشاء . إنه سيعطيه اثنى عشر جنيهاً شهريًّا ويقدم له فوراً خمسة جنيهات تحت الحساب .

ويعود المهندس الأيرلندى لورانس دويل فيرى هذا المدعو تيم هافيجان ويستمع إلى إطناب برود بنت فى مدحه ومدح شمائله الأيرلندية فيرمق دويل هافيجان بنظرة احتقار شديد تكاد تصعقه . وينصرف هافيجان وقد تواعد مع برود بنت على مقابلته فى المحطة بعد ساعات للسفر إلى أيرلندا . وبعد انصرافه يهزأ دويل من برود بنت قائلا إنه وقع فى حبائل نصاب فستّر فاهيجان هذا . أولا ليس أيرلنديًّا رغم لهجته المفتعلة ورغم تعبيراته الشعرية الجميلة كقوله : « أزهى صباح لك يا سيدى» . « لا قصر الله لك ظلا » . فهذه تعبيرات تصنع فى لندن وتنسب إلى الأيرلنديين . وهو ثانياً لن يصل إلى محطة بادنجتون لأن الطريق إلى بادنتجون محفوف بالحمارات .

ويحاول برود بنت أن يقنع دويل بأن يصاحبه إلى أيرلندا . إنه باسم جمعية تعمير الأراضى قد حجز على عزبة العجوز لسترانج فى بلدة روسكولن فى أيرلندا ، لأن العجوز ليسترانج لم يدفع الأقساط ولا الفوائد . وقد آلت أملاكه إلى الجمعية وبرود بنت مسافر بنفسه إلى روسكولن ليدير هذه الأرض . إن لورانس دويل من بلدة روسكولن وقد تركها منذ ١٨ سنة ، أى منذ أن كان فى السابعة عشرة من عمره ليتم تعليمه ويخوض معترك الحياة . وهو لا شك سيسر برؤية أهله وبلدته بعد هذه الغيبة الطويلة .

ويدهش برود بنت حين يسمع أن دويل لا يحس بأقل رغبة فى زيارة بلدته ورؤية أهله . بل هو يفضل الذهاب إلى القطب الجنوبى . على الذهاب إلى روسكولن . إن برود بنت يسىء فهم الأيرلنديين ، فهم لا يفتأون يتغنون بأيرلندا ويعبرون عن أشواقهم إليها وهم فى بلاد الغربة . ولكن كم أيرلنديًّا نزح عن أيرلندا وعاد إليها ؟ إن الأيرلندى يقتات بالأحلام إنه يبنى صورة جميلة حالمة لبلاده ويحتفظ بها فى قلبه طول حياته . وهو يعلم أنها من نسج أوهامه . ولكنه يأبى أن يستيقظ من أحلامه ويستعذب الحياة مع أوهامه ، ولكن لورانس دويل لا يحلم كما يحلم بنو قومه ، فهو قد تعلم عن الإنجليز أن يعيش فى الواقع وحده . وهو

لا ينسى أبداً أن روسكولن مقبرة للأحياء ، كل من فيها يعيش بلا أمل وكل من فيها ضيق الأفق مطموس الذكاء . إن الريف فى كل بلاد العالم فيه شىء من ذلك كما يقول برود بنت ، ولكن ليس فى الدنيا مكان يدانى أيرلندا فى هذا اليأس الحزين ؛ فالتلال الكثيرة والضباب الثقيل وألوان السماء الساحرة والآفاق التى تفتن العين كأنها مطارف من نسج جنيات الأيام الخوالى . والأحلام . . نعم الأحلام التى تنهش الفؤاد نهشاً والشوق إلى شىء بعيد لا سبيل إلى مناله . إن مأساة الأيرلندى فى خياله ، وعذابه من أحلامه المتصلة . التى لا يحققها ولا يرضى بالتخلى عنها . إن القس الذى يعظه بأقدس ما فى الحياة من معان يخرج من بيته خاوى الوفاض ، أما القس الذى يلهب خياله بسير القديسين أو يكتب له حجاباً ليشفى بقرته أو تبنى له كاتدرائية فهو يغدق عليه العطايا . إن كل رجل فى أيرلندا يعذب زوجته لأنها ليست ملاكا وكل امرأة فيها تحتقر زوجها لأنه ليس بطلا . أما أيرلندا نفسها فهى فى خيال كل أيرلندى لا تبرحه يبكى صباحه والمساء على شقائها . ولكنها فى خيال كل أيرلندى جدته العجوز التى نهنهته فى طفولته وسامرته بقصص لا تنتهى عن الحور والفرسان . ولكن ماذا يملك المرء أن يفعل لجدته العجوز أكثر من أن يحبها ، وأن ينتظر موتها فى حزن عميق . وهذا طبعاً يوفر على الأيرلندى عناء الجهاد . ومع كل هذه السوداوية فى المزاج تجد المرح المعربد والعربدة المرحة . وشباب البلاد يقضون حياتهم فى تبادل الكئوس وتبادل النكات البذيئة . فإن حدثهم أحد حديث الجد فى أى موضوع سخروا منه وقالوا : إنه خال من روح الفكاهة . إنه لا يعرف كيف يضحك .

ويهون برود بنت على دويل الأمر قائلا إن لإيرلندا إمكانيات عظيمة . فالحكم الذاتى « بإرشاد إنجلترا » سيحقق فيها المعجزات . إنه جاد فيما يقوله عن الحكم الذاتى ولكنه يؤكد أن « إرشاد إنجلترا هو الشىء المهم . فنحن الإنجليز يجب علينا أن نضع موهبتنا فى الحكم فى غير ضن تحت تصرف الأمم التى لم يسعدها الحظ كما أسعدنا بهذه الموهبة . حتى نمكنها من الارتقاء فى حرية تامة إلى المستوى الإنجليزى فى الحكم الذاتى » . إن برود بنت ينصح دويل أن يصاحبه فى هذه الرحلة وأن يرى بلاده وإمكانياتها بعينى الرجل الكامل النضوج ؛ ففكرته عنها فكرة الصبى المتأثر بانطباعات الصبا .

ولكنّ هناك سبباً آخر يجعل دويل يتردد فى العودة إلى روسكولن . فهناك الفتاة نورا رايلى التى تنتظره فى بلدته وهو غير حريص على تجديد الماضى أو نبش الغرام القديم . وزيارته هذه ستحسم كل شىء . وهو لا يحب أن يواجه هذه المشكلة . فقد كانت نورا رفيقة طفولته وصباه . وكان أبوه يشتغل وكيلا لأعمال أبيها ، ونشأت بينهما مودة قوية فكانا يخرجان للنزهة كل مساء عند البرج المستدير ويتأملان الشفق الحزين أو يهيمان معاً فى وادى الأحلام كلما أطل البدر من وراء الغيوم . كل ذلك حين كان دويل فى السابعة عشرة من عمره وهى بنت أربع عشرة . ولكنه رحل إلى دبلين وفى رأسه فكرتان : أن يتعلم مهنة وأن يرحل عن أيرلندا إلى الأبد . أما نورا فقد كانت فى أحلامه كالبطلات فى روايات بيرون لا أكثر من ذلك . ولكنها رغم مرور كل هذه السنوات الطويلة لا تزال تنتظره . وهى تكتب له من وقت لآخر تستفسر عن أحواله . وهو يجيب على خطاباتها من وقت لآخر .

ويذهل برود بنت لهذا الوضع العجيب ويعنف دويل عن التلاعب بشعور هذه البنت المسكينة . ويؤكد له دويل أنه لم يقل لها كلمة واحدة تربطه بها رسمياً . ولكنها تعيش على أطياف الماضى وتعد ما كان بينهما من عواطف الصبا رابطاً كافياً يجعلها تنتظره . ونورا قديرة على أن تنتظره حتى تموت دون أن تسأله عن حقيقة شعوره نحوها أو نواياه إزاءها . هكذا كبرياء الأيرلندية ورقة شعورها الذى يجفل من مواجهة الحقائق . أما هو فقد تعلم من الإنجليز كيف يعيش فى الواقع وكيف ينزل عن كبريائه .

ويجد برود بنت فى هذا سحراً عظيماً يلهب حماسه لأيرلندا ولا يزال بدويل حتى يقنعه بمصاحبته فى هذه الرحلة . فلعله يرى فى نورا بعد كل هذه الغيبة مايجعله يتمسك بها . وهو على كل حال سيكون فى روسكولن أنفع ما يكون لجمعية تعمير الأراضى .

وهكذا يرحل المهندسان برود بنت ودويل إلى أيرلندا .

وفى روسكولن نجد البلدة نائمة فى المساء يحيط بها نعاس أبدى حالم . وبين تلالها الخضراء يجلس رجل نحيل ناهز الخمسين من عمره وله وجه قديس ولكن شعره مشتعل شيباً . وقد تدثر فى حلة سوداء تشبه حلل القساوسة . وهذا هو المستر كيجان

أو الأب كيجان كما يسميه أغلب أهل روسكولن بالرغم من تحذير الكنيسة إياهم . ولا سيما الأب دمبسى كاهن الكنيسة فقد كان مستر كيجان نعم الراعى الصالح لقطيع روسكولن . حتى تحدث جميع الناس عن تقواه وحبه للخير ومبادرته إلى مساعدة كل من يحتاج إلى مساعدة ثم ظهرت عليه أعراض شذوذ فى مسلكه وكلامه ، وانتهى أمره بأن جردته الكنيسة من ثياب الكهنوت . وجرت حوله الشائعات أنه ولى أو مجذوب له اتصال بعالم المجهول . فقيل عنه إن الشيطان خلع مرة رأسه وأداره فى كفه ثلاث مرات ثم أعاده إلى مكانه . وجرت فيه روايات اخرى كثيرة .

ويجلس كيجان فى هذه الفلوات الخضراء يرقب غروب الشمس يناجى فرس النبي الذى يتواثب أمامه من الأعشاب . ويكلمه كأنه إنسان يعقل فيجيبه فرس النبي بأزيز متغير النبرة كأنه يفهم ما يقال . ويسأل كيجان فرس النبي رأيه فى أيرلندا أهى المطهر أم الجحيم ؟ فيجيبه فرس النبي : « كيك » فيفهم من ذلك أنها الجحيم ويتمم قائلا : صدقت القول .

ويسمعه فلاح اسمه باتسى فاريل يخاطب فرس النبي ويحاوره فيستعيذ بالله ويستولى عليه رعب شديد . ويحاول كيجان تهدئته قائلا : إن فرس النبي ليس شيطاناً مخيفاً . بل مجرد حشرة . وهو لا يتكلم حتماً . فكيجان يتخذ منه وسيلة لتسلية ومناجاة النفس . ولكن الفلاح يظل على خوفه ويدأب على الاستنجاد بالأب كيجان ليقيه من فرس النبي . وينهره كيجان قائلا إنه لم يعد قسيساً منذ أن عزلته الكنيسة فلا ينبغى أن يناديه أحد بالأب كليجان . ولكن الفلاح يجيبه : « هذا ما يقوله لنا الأب دمبسى ولكننا جميعاً نعرف أنك لست إنساناً وإذا لم نظهر لك الاحترام الواجب فقد تحل بنا المصائب » . ويعنف كيجان الفلاح باتسى لأنه يناقش حكم الكنيسة التى ارتأت أنه لا يستأمن على أرواح الناس .

ويعلم كيجان من باتسى فاديل بوصول توماس برودبنت وبقرب وصول لورانس دويل الذى أصيبت عربته بعطب فى الطريق فأخرته عن الوصول . وتأتى نورا إلى كيجان قائلة إنها تريد أن تستشيره فى أمر ما ؛ فالناس تقول إنه رجل طاف العالم وعرف الكثير عن الحياة . فيحدثها كيجان عن شبابه وطوافه الطويل قائلا إنه كان فى شبابه يعجب بالقساوسة الذين يتلقون علوم الدين فى سلامنكا بإسبانيا

فقرر الرحيل إلى سلامنكا . وبعد أن أتم علومه بجامعتها رحل إلى روما سيراً على الأقدام . وفى روما أقام بالدير سنة ثم رحل على قدميه من روما إلى باريس حيث التحق بالسوربون. ولولا أن بحر المانش يفصل إنجلترا عن فرنسا لقطع المسافة من باريس إلى أكسفورد ماشياً كذلك . وبعد أن قضى سنة فى أكسفورد حج إلى بيت المقدس على قدميه وأخيراً عاد إلى أيرلندا حيث اشتغل قساً على روسكولن حتى انجذب . فهو إذن قد سافر كثيراً وخبر الحياة كما تقول .

وتسأله نورا إن كانت أسفاره قد غيرت رأيه فى أيرلندا أو فى حياة الريف فيجيبها قائلا إنه رأى العجائب فى أسفاره ولكنه بعد عودته رأى كل هذه العجائب تنتظره فى أيرلندا . ويدرك كيجان مرادها من هذه الأسئلة فهى تنتظر لورانس دويل بعد غيبته الطويلة وتخشى أن يكون رأيه قد تبدل . فيقول مطمئناً إن الرجل كلما زادت أسفاره زاد اقتناعه بأن يتزوج بنتاً من الريف .

ويعرض عليها كيجان أن يصاحبها إلى البلدة لاستقبال دويل الذى تنتظر وصوله وتنكر نورا أنها تنتظره وتقول إنها ماضية إلى البرج المستدير . وتنصرف وهى تفكر فى أحلام صباها أيام أن كان لورانس دويل يخرج معها للنزهة كل مساء عند البرج المستدير ويتبادلان الأحلام فوق العشب الساخن أو تحت القمر موقظ الأحلام. فإن كان لورانس دويل وفياً للذكرى فليبحث عنها عند البرج المستدير.

ولكن الذى يتبعها إلى البرج المستدير ليس لورانس دويل بل توماس برود بنت الذى يعلم من أسرة لورانس أنها خرجت إلى البرج المستدير لتنتظر لورانس هنالك وتأخذه الشهامة فيصر على الخروج إليها للعودة بها إلى دارها . فلورانس قد تأخر فى الطريق، ولايليق أن تترك فتاة وحدها بغير فارس يحميها فى فلوات روسكولن من الليل وأخطاره .

وتحسب نورا رايلى أولا أنها تخاطب لورانس ثم تتبين أنها تخاطب صديقه برود بنت وتعرف من برود بنت بقصة تخلف لورانس . ويبدو عليها الارتباك وتحاول إخفاء ارتباكها بتعليقاتها عن جمال الليل وجمال الطبيعة . ويتأمل برود بنت نورا فى هذا الجو السحرى . فيسحره جمالها ويدرك لوهلته أنه يريدها لنفسه . ولا تمضى دقيقتان على هذا اللقاء حتى يكون برود بنت قد انتقل من الحديث عن

جمال الطبيعة إلى جمال نورا ومن سحر أيرلندا إلى سحر نورا . وتوقظ أنوثة صوتها الحلو فيه مشاعر الرغبة . وتنهره نورا قائلة إنه بدأ يغازلها . ويرتبك برود بنت ثم يدرك أنه كان يغازلها حقاً . ويعتذر . ولكنه لا يلبث أن يعود إلى الحديث عن صوتها الذى يفوق رخامة كل ما فى أيرلندا من قيثارات . وينسى نفسه ويقبض على ذراعها فتزجره غاضبة . ويؤكد لها أنه جاد فى كل كلمة قالها . فالإنجليزى لا يقول كلاماً من هذا النوع لامرأة إلا إذا كان جاداً . وتقرعه نورا فيشتد ارتباكه . ويقول إنه يقدر أن عمله هذا كان خيانة منه للورانس . فتجيبه نورا بأن لورانس لا شأن له بالموضوع . فهو ليس خطيبها وهى ليست خطيبته . ولكن تعد عمله امتهاناً لها واستهانة بفضيلتها . ويؤكد لها برود بنت أن مقاصده شريفة ويعرض عليها أن تكون زوجته . وتنهره نورا قائلة إنه فى غير وعيه . إنه لم يقابلها إلا منذ دقائق . إنهم لا شك قد أعطوه من البوتشين . مشروبهم الوطنى . أكثر مما يحتمل : نعم لا شك أنه سكران . إنها ستساعده على العودة إلى البلدة . فيمسك ذراعها .

ويضطرب برود بنت وتتبلبل خواطره ويبدأ يشك فعلا فى أن الخمر قد لعبت بعقله . وفى سيرهما تصطدم قدمه بحجر ويوشك أن يسقط . فيزداد اضطرابه ويؤكد لنورا أنه الحجر تحت قدمه وليس الخمر فى رأسه . ثم يرتطم بحجر ثان . فيرسخ فى روعها أنه مخمور . ولكنها لا تعلم أن الإنجليزى حين يسرف فى العاطفة يبدو كالأيرلندى حين يسرف فى الشراب . وأخيراً تبلغ به نورا بيت كورنيليوس دويل . والد لورانس دويل .

وفى صباح اليوم التالى يصل لورانس دويل ويجتمع ببرود بنت وينضم إليهما الأب كورنيليوس دويل ثم جماعة من فلاحى الجيرة ومزارعيها مثل مايثوهاتيجان ودوزان ثم الأب دمبسى قس روسكولن والعمة جودى . وسرعان ما يشتبكون فى جدل سياسى على عادة الأيرلنديين . فهذه رياضتهم المفضلة .

ويبدأ الجدل بالاحتفاء بلورانس . فهم يرون أنه يجب أن يقيم بينهم وأن يرشح نفسه لعضوية مجلس العموم عن دائرة روسكولن . فأهل روسكولن قد فقدوا الثقة فى نائبهم الذى سقطت عضويته ، وهم لا يريدون تجديدها .

ويعتذر لورانس دويل بقوله إن معتقداته لا تناسبهم . ويصر أبوه على

قبوله ترشيح نفسه لأن الدائرة مضمونة ، فيقول لورانس إنه يرضى بذلك إن كانوا يرضون به وبأفكاره السياسية . ويقول بعضهم إنهم لا يطلبون إلا شيئاً واحداً وهو أن تتركهم الدولة وشأنهم فلا تتدخل فى تنظيم أمورهم . أما لورانس فيرى عكس ذلك . ويقول لهم صراحة إنه لا يؤمن بحرية التجارة ولا بحرية الصناعة ولا بالحرية التى يستغلها فريق من المجتمع لاسترقاق فريق آخر . إنه كان دائماً ضد الأرستقراطية المتبطلة التى تعيش فى ترف على مجهود غيرها ولكنه لا يعتقد أن صغار الملاك أكثر نزاهة من الأرستقراطية فى استغلال الفلاحين الأجراء ، من أمثال باتسى فاريل أو أقل جشعاً . وإذا أصبح عضواً فى مجلس العموم فسيطالب بتحديد حد أدنى لأجور الفلاحين الأجراء قدره جنيه فى الأسبوع . فهذا ما يتكلفه البغل الذى يجر لهم المحراث فى الحقل على أقل تقدير .

وتصخب الجماعة ويعلو صياحها احتجاجاً على هذا الذى تسمع ويتهمون لورانس بالجنون ويبدون اشمئزازهم من نظرية تدخل الدولة . ويسأله الأب دمبسى فى قلق إن كان يريد تدخل الدولة أن يمتد إلى الكنيسة أيضاً . فيجيبه بالإيجاب فهو لا يؤمن بفصل الدين عن الدولة بل يؤمن بأن الكنيسة يجب أن تحميها الدولة وتعلى كلمتها وتقيها الشحاذة . بشرط أن يكون مركز الكنيسة أيرلندا لا إنجلترا . وهو يرى أن الكنيسة الكاثوليكية الأيرلندية تعتمد فى قوتها على نشر الخرافات بين الجهلاء وهو يريد لها أن تكون كنيسة قائمة على العقل والبر والتقوى . وأن تسمو على الدنيويات وعلى طلب السلطة والجاه . وأن تتجرد من الأطماع . حتى تبز كنيسة روما . وما هذا فى نظره ببعيد . فروما رغم كل ما سفك للشهداء من دماء لا تزال فى قرارتها وثنية .

ويستولى الهياج على الأب دمبسى حين يسمع هذا الكلام الغريب ويصيح فيه قائلا له : إنه أشد جنوناً من المجذوب بيتر كيجان الذى يهذى حول إصلاح الكنيسة .

وهنا يحتج برودبنت على هذه الأفكار الرجعية التى ينادى بها صديقه لورانس دويل . ويدافع عن مذهب الأحرار الليبرالى . إنه لا يؤمن بتدخل الدولة فى تنظيم العلاقات الاجتماعية . وهو قد ناهض دائماً فكرة المحافظين الداعية لهيمنة الدولة

على كل شيء . إنه يؤمن بتخفيف الضرائب إلى أقصى حد مستطاع وبإزالة جميع الحواجز والرسوم الجمركية التي تثقل كاهل المنتج والمستهلك معاً ؛ إنه يؤمن بالمبادئ العظيمة الثلاثة التي وضعها حزب الأحرار وهي السلام والانطواء والإصلاح .

ويستمع إليه المزارعون مبهورين لهذه الأفكار التي يجدون فيها خير معبر عن مصالحهم المباشرة قصيرة الأجل التي لا يرون سواها وإن كانوا لا يفهمون على وجه التحديد ما قصده برود بنت « بالانطواء » فيجد برود بنت في استفسارهم المناسبة لكي يلقي عليهم خطبة رنانة لا يقدر عليها إلا إنجليزي . الانطواء هو عكس التمدد ومعناه : فلتسقط الإمبراطورية : فليحيا انفصال أيرلندا عن إنجلترا !

« إن كل ما أستطيع أن أقوله كإنجليزي هو أن وجهي يحمر خجلا من الاتحاد . إنه أسود لطخة تلوث تاريخنا القومي . وإني لأترقب والأمل يملأ صدري مجيء ذلك اليوم . وهو ليس ببعيد أيها السادة . يوم قيام سلطة تشريعية في أيرلندا مرة أخرى على مراعي كوليدج جرين الزمردية . ويوم يخفق مكان العلم البريطاني . ذلك الرمز البغيض للاستعمار المنهار . علم أخضر في خضرة هذه الجزيرة التي يرفرف عليها . علم لن نطالب في رقعته لإنجلترا شيئاً إلا جانباً بسيطاً احتفاظاً بذكرى حزبنا العظيم . . . » .

أما الأب دمبسي والكنيسة الكاثوليكية الأيرلندية فني استطاعتهما أن يطمئنا كل الاطمئنان لأن مبادئ حزب الأحرار تقوم على ضمان حرية العقيدة وعلى الفصل بين الدين والدولة . وهو لا ينسى أبداً أن المنطقة بحاجة إلى حلبة كريكت وإلى مدرسة وإلى مستشفى .

ويؤخذ الجميع بأقوال برود بنت البراقة ويقبلون عليه مهنئين كأنهم عثروا على ضالتهم المنشودة . ويدعونه إلى ترشيح نفسه لعضوية مجلس العموم نيابة عن دائرة روسكولن . فيتظاهر بالتمنع الكاذب . ويقول للأرلنديين البسطاء : « لا تنسوا يا إخواني أني سكسوني » . وتستعصي عليهم كلمة سكسوني فيشرحها قائلا : لا تنسوا يا إخواني أني إنجليزي . . ومن الخير أن يمثل أيرلندا أيرلنديون في مجلس العموم . ولكنهم يصرون على ترشيحه فيقبل .

وينصرف الجمع في غبطة . ولا يؤسفهم في كل ما سمعوا إلا أن لورانس دويل الذي كان معقد رجائهم قد عاد إليهم بأفكار شاذة كتحديد الأجور وتدخل

الدولة فى شئون الناس . ولا يبقى إلا هافيجان الذى يتخلف ليشترى خنزيراً من كورنيليوس دويل ، وبعد أن تم الصفقة يمضى هافيجان إلى حال سبيله .

وهنا تبرق فكرة فى ذهن برود بنت . إنه سيحمل الخنزير بنفسه فى سيارته إلى منزل هافيجان فى المدينة . وسيراه أهل روسكولن فيأسر قلوبهم بهذه الديمقراطية الشديدة . ويحذره لورانس دويل من أنه لو فعل ذلك لأصبح أضحوكة البلد ، ولكن برود بنت يجيبه فى برود الإنجليز : إن فى ضحكهم كسباً وسأكون أنا من أكثرهم ضحكاً . ويأمر برود بنت الفلاح باتسى أن يمضى إلى الحظيرة ويعود بالخنزير ، ويأمر خادمه هودسون الذى يبغض الأيرلنديين أن يتلطف معهم ويبش لهم ، وأن ينطلق ليجمع أكبر عدد من الأهالى لمشاهدة النائب المحترم توماس برود بنت يحمل فى سيارته خنزير هافيجان فيؤمن الجميع بتواضعه وشعبيته .

ولكن الأمور لا تجرى أول الأمر بحسب ما رسم توماس برود بنت . فحين انطلقت السيارة والخنزير فى مقاعدها الخلفية . جفل الخنزير من الحركة والسرعة والمفرقعات التى سمعها فوثب كالمجنون من المقاعد الخلفية إلى المقاعد الأمامية فاضطربت عجلة السواقة فى يد برود بنت وأفلت منه زمامها . ثم قفز الخنزير إلى الشارع وجرى كالمجنون أمام السيارة ولم يستطع برودبنت تفادى الأمر فصدمه ومزقه إرباً وجمحت منه السيارة فدخلت فى محل لبيع الصينى ثم ارتطمت أخيراً فى جدار فتهشمت بعد أن نشرت الفزع بين المارة .

وبعد الفزع كان الضحك . فلم تضحك روسكولن منذ عشر سنوات كما ضحكت فى ذلك اليوم الحافل بالمفاجآت . وكان كل من فى البلد يتندر بالحادث هازئاً ببرود بنت .

وفى بيت كورنيليوس دويل التقت الجماعة وكانت لا تزال تضحك ضحكاً هستيرياً . وقال كورنيليوس معقباً : « لقد انتهت مسألة ترشيحه . فالناس سيضحكون منه حتى يخرج من البلد . » ولكن ابنه لورانس يجيبه قائلا : « هو لن يخرج ، فهو ليس أيرلندياً . وهو لن يفهم أنهم يضحكون منه . وفيما هم يضحكون سيفوز هو بالمقعد » .

وقد حدث شيء مما تنبأ به لورانس دويل : فإن توم برود بنت جعل من هذه

المهزلة مناسبة ليستدر عطف الناس عليه . فجعل يخطب فى حماس معبراً عن « ألمه » لتعريض حياتهم للخطر . شاكراً لهم ما أسبغوه عليه من « عطف » فى « محنته » واعداً أنه سيعوض كل من أصابه أدنى ضرر بسخاء شديد . وفى مقدمتهم الفلاح باتسى الذى كسرت إصبعه فلم يتذمر بل أبدى استعداده لمزيد من البذل وهو أكبر دليل على صلابة الفلاحين الأيرلنديين وحقهم فى الحياة الحرة الكريمة . حتى الخنزير المسكين الذى ذهب ضحية الحادث ذرف عليه برود بنت دموع التماسيح . ولا ينتهى برود بنت من خطبته إلا والناس قد نسوا مهزلة اليوم وانصرفوا معجبين بهذا المرشح الذى يحسن الكلام المعسول !

ويلتقى برود بنت بكيجان فى بيت دويل . ويتودد إليه . فهو يعلم أنه وإن لم يكن من رجال الكنيسة الرسميين إلا أن العامة تتعلق به . وينظر كيجان إلى برود بنت فى رثاء ويطمئنه على مستقبله . إنه سيفوز فى الانتخابات لأنه يريد أن يفوز ولأنه يسلك كل سبيل يؤدى به إلى الفوز . فيقول برود بنت إن فوزه أمر طبيعى . فإن أى إنجليزى صادق لا زيف فيه يخاطب فى الناس منطقهم ويجعل شعاره القويم الإخلاص للمبدأ والتفانى فى الخدمة العامة يفوز حتماً فى أى انتخابات ولو كانت فى أيرلندا . وهنا يجيبه كيجان فى هدوء قائلا : « يا سيدى فى أيام شبابى الجاهل كنت أسمى رجلا مثلك منافقاً » . فيحمر وجه برود بنت ويستدرك كيجان قائلا : « لا تغضب يا سيدى . فأنا أعرف أنك صادق وفى الإنجيل آية تقول ، على ما تذكره ذاكرة عجوز مثلى . لا تجعل الجانب الأيمن من عقلك يعرف ما يفعله الجانب الأيسر . وقد تعلمت وأنا فى أكسفورد أن هذا هو سر قدرة الإنجليزى الغريبة على الانتفاع بخير ما فى الدنيا وما فى الدين » . ويعرف برود بنت أن كيجان قد حور الآية التى تحض على الإحسان فى الخفاء « لا تجعل يدك اليمنى تعرف ما تعطيه يدك اليسرى » . ليثبت أن النفاق الإنجليزى بلغ من التمام أن عقل الإنجليزى نصفه يتحدث عن أسمى المبادئ ونصفه الآخر يتصرف بأحط غرائز الحيوان فى الوقت نفسه دون أدنى صعوبة . .

ويبتلع برود بنت هذه الإهانة على أنها نكتة لا لأن لورانس قال له إن كيجان يمزح ولكن لأنه وجد من المصلحة أن يتظاهر بأنه صدق كلام لورانس ، ولا سيما

أن الجميع يقولون إن كيجان رجل مجذوب . ويروون عنه أنه حضر وفاة وثنى أسود ليتشفع له ويستمطر الرحمة على روحه . فخلع الشيطان روحه من جسده ودار بها ثلاثاً ثم وضعها فى مكانها . وهى لا تزال تدور منذ ذلك اليوم .

ويستفسر منه لورانس دويل عن أصل هذه الرواية فيقول كيجان إنه سمع ذات مرة برجل أسود حضرته الوفاة ، وأن كل الناس خافت الاقتراب منه . فلما مضى إليه وجد أنه هندوسى عجوز . وقص الرجل على كيجان قصة حياته . فوجدها قصة من أبشع قصص الشقاء الذى يمكن أن تنزله الأقدار برجل برىء وكأنها تجد لذة فى مطاردته والتنكيل به . فلم يعرف بأى كلام يعزيه ووقفت الألفاظ على شفتيه . ولكن الهندوسى العجوز نفسه لم يشتك مما أصابه من محن . بل كان يقول إنها قصاص حق عليه لخطايا ارتكبها فى حياة سابقة . ثم أسلم الروح دون أن يتلقى كلمة عزاء واحدة من كيجان . وكانت عيناه هادئتين فى تسليم المؤمنين ، هدوءاً لم يره فى وجه مسيحى على فراش الموت وكأنما سقطت غشاوة على عينى كيجان فعرف سر الحياة . .

عرف أن هذا العالم مكان للتوبة والتعذيب . مكان يسعد فيه الحمق ويضطهد فيه الأبرار والحكماء . مكان يعذب فيه الرجال النساء والنساء الرجال باسم الحب ويستعبد فيه الآباء البنين باسم التربية وطاعة الوالدين . مكان يمزق فيه ضعاف الأجسام باسم علاجهم ويعذب فيه ضعاف الأخلاق بالسجن سنوات وسنوات باسم العدالة . مكان يهرب فيه الناس إلى الأشغال الشاقة لينجوا من بشاعات اللذة . ولا يقوم فيه أحد بعمل صالح إلا انتظاراً لأجر على الأرض أو فى السماء . إن الدين لا يعرف إلا مكاناً واحداً للعذاب . وهذا هو الجحيم . فلا بد أن تكون حياتنا على هذه الأرض هى الجحيم . ولعلنا نشقى هنا عقاباً لنا على خطايا ارتكبناها فى وجود سابق . .

هذا هو سر الحياة الذى تعلمه كيجان من الهندوسى العجوز . . وحين يسمع برودبنت هذا الكلام يقرظ مهارة الفكرة ولكنه لا يفهم سر هذا التشاؤم والإحساس بالشقاء . فهو شخصياً لا يرى فى العالم شراً إلا ما تخلف عن حكم المحافظين . وهذا بالطبع يمكن إصلاحه بالحرية والحكم الذاتى والأنظمة الإنجليزية . فالمحافظون

عنده كلهم من أصل أيرلندى ! وينصح برود بنت كيجان أن يتناول حبوب الفوسفور لعلاج المرارة . .

وينظر إليه كيجان فى هدوء ويقول : كلما نظرت إليك يخيل إلىّ أن أيرلندا ليست أكثر من مطهر . ثم ينصرف .

وينفرد لورانس دويل بنورا لأول مرة منذ عودته إلى أيرلندا . ويسأل كل منهما الآخر عن حاله . ثم ينفد ما فى جعبتهما من كلام ويتثاءب لورانس . فتغالب نورا دموعها فى شجاعة فائقة . وهكذا ينهار أمل دام ثمانى عشرة سنة . وما أن يخرج لورانس إلى الحديقة حتى تنهار أعصاب نورا فتتشنج تشنجاً مكتوماً ويخف إليها برود بنت . ويمسح دموعها ويسرى عنها . وبعد أن تهدأ يعرض عليها الزواج من جديد بعد أن يمطرها بعبارات الحب والهيام. إنه لم يحب امرأة مثل ما أحبها . إن سحر أيرلندا كله وشعرها قد تجمعا فيها . إن الإنجليزيات عنده كالنثر لا خيال فيه . بل إن الإنجليزيات عنده أشبه بالبفتيك الحى . أما نورا فهى تفيض بالشاعرية والحنان .

ويمنعها حياؤها من أن تقبله على الفور زوجاً لها . ولكنها تقول بعد إلحافه فى السؤال : إن المرأة فى أيرلندا إذا أراحت رأسها على صدر رجل كما فعلت معك . فهى قد لا تتزوجه . ولكنها قطعاً لن تتزوج من سواه .

وما يفرغ برود بنت من فرائض الغرام ويطمئن إلى أن إنجلترا سوف تتزوج أيرلندا . يعود إلى الكلام فى العمليات . إن سعادته مزدوجة . فهو سيتزوج من أجمل بنت فى أيرلندا وزوجته ستساعده على بناء مستقبله . نعم إن نورا ستساعده فى حملته الانتخابية . ويجب عليها أن تزور زوجة دولان صاحب الخمارة . فهو أوسع رجل نفوذاً فى المدينة ولا بد من كسب مودته .

وتثور نورا لأول وهلة لأن برودبنت يرضى لزوجته أن تخالط حثالة الناس لكى يظفر هو بمقعد فى البرلمان!. ولكنه يلقى عليها محاضرة فى الديمقراطية وزوال الحواجز بين الطبقات . ويذكرها أن سر تأخر أيرلندا وتقدم إنجلترا هو بالذات تمسك الأيرلنديين بهذه التقاليد البالية . وأخيراً تقتنع نورا .

ويعود كيجان ويعلم نبأ خطبة برود بنت إلى نورا فيقول متهكماً لبرودبنت .

إنه معجب به فقد استطاع فى ٢٤ ساعة من وصوله أن يخطف أجمل بنت فى روسكولن وأن يظفر تقريباً بمقعدها فى مجلس العموم ولم يبق إلا أن يستولى على روسكولن نفسها .

ولكن كيجان وهو يفكر فى هذا لم يكن يعلم أن هذا بالذات ما جاء برود بنت فى الأصل من أجله . فهو لم يأت ليخطب نورا ولم يأت ليرشح نفسه للبرلمان ولكنه جاء لينفذ مشروعات « جمعية تعمير الأراضى » التى تملك نصف المنطقة تقريباً بحكم القوانين ؛ فالملاك كثير والكلام . . هافيجان ودولدن مدينون للجمعية وعاجزون عن السداد . ولم يبق إلا أن يأتى بحكم المحكمة والمحضر لتوقيع الحجز على أرضهم والاستيلاء عليها .

إن كيجان منزعج لما يسمع ، ولكن لا داعى للانزعاج ، فهو سيجد عملا فى مشروعاته لكل قادر على العمل من أهل روسكولن . أما من تجاوزوا الأربعين فهو ينصحهم بالهجرة إلى أمريكا . إن مستقبلا ضخماً ينتظر روسكولن سيقيم فيها شركة للفنادق فتصبح بمناظرها الطبيعية الخلابة من أجمل مراكز السياحة فى العالم . ولكن مستقبل روسكولن الأزهر لن ينكشف إلا حين تئول كل المنطقة إلى جمعية تعمير الأراضى فالمستقبل للأكفاء . أما هؤلاء الفلاحون البسطاء فلا يعرفون كيف يستغلون كنوز أرضهم .

وهنا يقول كيجان فى تهكم لاذع : نعم وستبيعون أسهم الجمعية بمنتهى الكفاءة وتقيمون الفندق بمنتهى الكفاءة . ثم تفلس جمعيتكم بمنتهى الكفاءة ، وبعد أن تفلس الجمعية ستصفونها بمنتهى الكفاءة ثم تعيدون دراسة المشروع بمزيد من الكفاءة حتى يكون إفلاسه الثانى أشد كفاءة من إفلاسه الأول ، وبالتالى تكون تصفيته الثانية أشد كفاءة من تصفيته الأولى . وهكذا تخربون بيوت المساهمين بمنتهى الكفاءة ، وتشترون بمالكم الخاص ذلك الفندق فتدفعون شلنات قليلة عن كل جنيه من الديون فى التصفية الأخيرة .

الماجور بربارا

لجورج برنارد شو

الماجور « بربارا » أو « الصاغ بربارا » اسم لكوميديا من أشهر كوميديات برنارد شو . كتبها سنة ١٩٠٥ ليصور فيها قطاعاً من الحياة الإنجليزية مليئاً بالمتناقضات الاجتماعية والروحية . وذلك هو ما يسمونه « جيش الخلاص » . وجيش الخلاص ليس جيشاً بالمعنى المفهوم رغم أن فيه رتباً وألقاباً عسكرية مثل جاويش وكابتن وماجور أو صاغ وهكذا حتى رتبة جنرال . فجيش الخلاص جمعية خيرية دينية يتطوع فيها الناس « جنوداً » لله ينشرون الفضائل الدينية وينتشلون الضالين ، ولا سيما الفقراء ، من وهدة الرذيلة . ويحلون كل المشاكل الاجتماعية عن طريق البر بالمحتاجين . له مراكز أو ملاجئ مبثوثة فى أمكنة كثيرة أبوابها مفتوحة لكل مذنب راغب فى التوبة . من يدخلها تتخلص روحه من الخطيئة وتحنو عليه بالغذاء والكساء . لهذا اجتذب جيش الخلاص عدداً لا بأس به من سراة القوم الذين يؤمنون بأن البر بالفقراء خير علاج للثورات وأن أبراج المعابد أحسن مانعات للصواعق الاجتماعية .

ومن هؤلاء المؤمنين بجيش الخلاص طائفة مخلصة فى إيمانها ومثلها الآنسة بربارا أندرشافت التى تدرجت فى جيش الخلاص حتى بلغت رتبة ماجور أو صاغ وعرفت باسم الماجور بربارا . والماجور بربارا فتاة جميلة تشيع فى نفسها نورانية الفضائل الدينية . ولكنها ليست مجرد نورانية ملائكية بل نورانية تشتعل بحماس البشر لمعتقداتهم ولمشروعاتهم ، فهى نورانية نارية .

والماجور بربارا هى بنت سيدة من علية القوم فى إنجلترا ، هى الليدى بريتومارت أندرشافت ، وهى فى نحو الخمسين من عمرها تعيش فى دارها الجميلة فى لندن مع أولادها الثلاثة : ستيفن وهو شاب فى الخامسة والعشرين جاد فى كل شىء ،

تعلم فى كلية هارو ثم فى جامعة كمبريدج ، قوى الشخصية ولكنه خجول يرهب أمه بحكم العادة لا بحكم الضعف . ثم سارة ، البنت الكبرى . وهى نحيلة القوام لا تعرف الأحلام ولا يثير اهتمامها شيء ، لها خطيب اسمه تشارلز لوماكس من الشبان الوجهاء لا يختلف عن أى شاب وجيه من شبان لندن الوجهاء . ثم بربارا ، أجمل الأختين ، وهى ترتدى دائماً زى جيش الخلاص . ولها خطيب هو البروفسور أى الأستاذ أدولف كزينس ، وهو أستاذ فى اللغة اليونانية القديمة شديد الذكاء واسع الحيلة جاء إلى إنجلترا من إستراليا ، وتعد حياته مثلا فى العصامية والكفاح .

وذات مساء تدعو الليدى بريتومارت ابنها ستيفن لحديث هام . وتذكره أنه لم يعد غلاماً فقد أصبح رجلا يجب أن يعتمد عليه . وهى ترى أن أعباء الأسرة قد أثقلت كاهلها ، أو على الأصح أعباء تصريف أمور الأسرة . فهى قد اضطلعت بها وحدها حتى هذه اللحظة . وهى لهذا قد دعت ولدها ستيفن لتستشيره وتجعله يشاركها هذه المسئولية . إنها مرتاحة الضمير فقد وجدت لبنتها سارة خطيباً مناسباً . فتشارلز لوماكس سيصبح مليونيراً حين يبلغ الخامسة والثلاثين . أى بعد عشرة أعوام . فهكذا شاءت وصية أبيه ألا تؤول إليه الثروة إلا فى هذه السن . وحتى يبلغها تخصص له ٨٠٠ جنيه سنوياً . وتشارلز طبعاً لن يستطيع أن يعول سارة على هذا المبلغ . فهى ستكون بحاجة إلى إعانة قدرها ٨٠٠ جنيه سنوياً . كذلك الأمر مع بربارا فخطيبها أدولف كزينس أستاذ للغة اليونانية والأساتذة فقراء . فهى إذن ستكون بحاجة إلى إعانة قدرها ٢٠٠٠ جنيه سنوياً . وأخيراً فهناك ستيفن نفسه الذى يجب أن يفكر فى الزواج والاستقرار . وهذا أيضاً يستلزم إعانة مالية كبيرة .

أما مصدر كل هذه الإعانات . فهو السيد الوالد المحترم . مستر أندرو أندرشافت . زوج الليدى بريتومارت الغائب عن المنزل . وقد كانت الليدى بريتومارت تتجنب الحديث عنه مع أولادها . أما الآن وقد ظهرت الحاجة إلى كل هذه الإعانات فلم يعد بد من التفكير فيه . وهى قد دعته لزيارتها هذا المساء لتعرفه بأولاده الذين لم يرهم منذ أن كانوا صغاراً ولتعرفه بخطيبى بنتيه . ويتألم ستيفن حين يعرف من أمه برغبتها فى طلب العون منه ويقول إنه لن يقبل منه بنساً واحداً . فهو

رجل جمع ملايينه من الحرام . وهو صاحب مصانع أسلحة أرندرشافت ولازار التى تربح الأرباح الجنونية من إمداد المتحاربين فى كل مكان بالأسلحة . وفى كل يوم يخرج من مصانع أندرشافت اختراع جهنمى جديد أشد فتكاً من سابقه . والجرائد لا تكف عن الحديث عن طوربيد أندرشافت وغواصة أندرشافت ومدمرة أندرشافت الجوية ومدفع أندرشافت . ويصعق ستيفن حين يعرف من أمه أنها قد دعت أباه فعلا لزيارتهم فى ذلك المساء . وتطلعه أمه على سر خطير . وهو أن أباه كان لقيطاً . ويظن استيفن أن أمه انفصلت عن أبيه عندما اكتشفت هذا السر . ولكن الليدى بريتومارت تقول إن أندرو أندرشافت لم يكن بالرجل الذى يخفى عنها شيئاً من هذا القبيل . فشعاره هو :

« لا يعرف الخجل » . ولكن سبب انفصالهما أنه أراد أن يحرم ولده ستيفن نفسه من ميراث أندرشافت لصالح لقيط مثله . وقد تجاوز هذا احتمال الليدى بريتومارت فقررت الانفصال عنه .

إن ستيفن لم يعد غلاماً . ويجب أن يعرف كل شىء عن حقيقة أبيه : إن آل أندرشافت منحدرون منذ ثلاثة قرون من لقيط وجده صانع أسلحة فى ملجأ القديس أندرو أندرشافت فتبناه وسماه باسم القديس ورباه وترك له ثروته وصناعته. وقد تبنى هذا اللقيط بدوره لقيطاً مثله . وترك له اسمه وثروته وصناعته . ولسبب من الأسباب . لعله الشعور بالوفاء أو لعله عهد فى الأسرة . استمر الحال على هذا المنوال . وتبنى اللقيط لقيطا جيلا بعد جيل ليدير أعماله ويرتب مصانعه حتى إن صناعة المدافع انحصرت دائماً فى لقيط اسمه أندرو أندرشافت . فلما عرفت الليدى بريتومارت بنية زوجها أن يتبنى لقيطاً لم تر بداً من الانفصال عنه . ولكنها أخيراً قد دعته لزيارتها لتطلب منه إعانة أولاده الذين كبروا . فمن غير المعقول أن يتمرغ هو فى الملايين وأن يعيش أولاده فى حرمان .

وفى الساعة التاسعة يصل مستر أندرو أندرشافت . فإذا به رجل ضخم الجثة بسيط فى مظهره وديع فى أخلاقه يحسن الملاحظة والإنصات والكلام ، ولكن من يتأمله جيداً يدرك أن وداعته هذه وداعة الرجل القوى الذى علمه الاختبار أن قبضته القوية تسحق الناس العاديين ما لم يترفق فى معاملتهم . وتقدم إليه الليدى بريتومارت أفراد الأسرة فيعجب أولا لأن عددهم خمسة وهو لا يذكر أن له أكثر من ثلاثة أولاد .

ويقبل الأمر الواقع ، ولكنه يخطئ فلا يميز ولده ستيفن فيشد على يد تشارلز لوماكس متوسماً فيه أنه ستيفن فيحدث ارتباك ولكن أدولف كزينس ينقذ الموقف بكلامه الواضح المرتب فيعرفه بأسماء الجميع ويفهمه أنه خطيب بربارا وأن تشارلز خطيب سارة .

وحين يعلم أندرشافت بأن بنته بربارا انخرطت فى جيش الخلاص ينظر إلى زوجته نظرة متسائلة ، فتعتذر الليدى بريتومارت أنها لا دخل لها بهذا ، وأن بربارا راشدة تسلك السبيل الذى تختار وهى على كل بغير أب إلى جوارها ينصحها بما ينبغى عمله . وهنا تقول بربارا مصححة : بل إن لها أباً وهو دائماً إلى جوارها ينصحها بما ينبغى عمله . وهو أبوها الذى فى السموات . وأن جيش الخلاص ليس فيه يتامى . ويقول أندرشافت إنه مهتم بجيش الخلاص لأن شعاره هو : « الدم والنار » يمكن أن يكون شعار أندرشافت نفسه .

وتصححه بربارا قائلة إن الدم دم المسيح والنار نار الإيمان أما الدم والنار العالقان باسم أندرشافت صانع المدافع فهما شىء آخر . وتدعو بربارا أباها أن يزورها فى ملجأ وستهام ليرى الأعمال النبيلة التى يعملها جيش الخلاص ، وأن يخرج معهم إلى الاجتماع الكبير على رأس المؤمنين إن كان يعرف كيف يعزف على آلة موسيقية . فيقول أندرشافت ببساطة إنه كان فى صباه يشحذ فى الشوارع بعزف الترومبون . ويصعق تشارلز لوماكس لهذه الصراحة . وتدافع بربارا عن أبيها قائلة إن الله بفضل جيش الخلاص يغفر لكثير من الخطاة التائبين خطاياهم سواء سبحوا باسمه على الترومبون أو على أية آلة أخرى . إن الأستاذ أدولف كزينس يضرب الطبلة ويسير معها فى مقدمة « الإخوان » و « الأخوات » وهم يرتلون : « إلى الأمام ، يا جنود المسيح » ! ويلمح تشارلز لوماكس بأن من كان فى صناعة أندرشافت لا يفكر فى دخول الملكوت . وتنهره الليدى بريتومارت على قلة ذوقه ، ولكن أندرشافت يقول مبتسماً إن صدره رحب ومعنوياته عالية فى ذلك المساء لأن المدفع الجديد الذى جربته مصانعه نجح نجاحاً باهراً فنسف سبعة وعشرين جندياً خشبياً بدلا من ثلاثة عشر جندياً .

ويقول تشارلز لوماكس معتذراً عنه : طبعاً كلما ازدادت الحرب تدميراً اقترب

يوم إلغائها . ولكن أندرشافت يجيبه فى بساطة أنه يشكره على هذا الاعتذار التقليدى عن تجارة الحرب وعن أدوات الدمار ، ولكن الحقيقة هى أن الحرب كلما ازدادت تدميراً ازدادت سحراً . وهو لا يخجل من الاعتراف بهذا لأنه يفصل فصلا تامًّا بين الأعمال والأخلاق . وهذا سر تفوقه على غيره من منافسيه من صانعى الأسلحة . فهم يبنون المستشفيات والكنائس وغيرها من مسكنات الضمير بأموالهم الفائضة ، أما هو فينفق كل بنس فائض على إجراء التجارب الجديدة لترقية وسائل التدمير . ويحمل أندرشافت على الأخلاق المسيحية التى تدعو للضعف والمسالمة قائلا إن مذهبه لابد أن يتسع للمدفع والطوربيد . وإذا كانت هذه الأخلاقيات لا تناسب بعض الناس فهى تناسب غيرهم .

ويقول ستيفن إن أباه يقصد أن بعض الناس خيرون وبعضهم أشرار . ولكن أندرشافت يقول إن كل الناس أشرار . أما بربارا فتقول إن الناس ليس فيهم الخير والشرير ، فكلهم أبناء الله وكلهم خطاة كل على طريقته الخاصة . وباب الخلاص مفتوح لهم جميعاً على قدم المساواة إذا اختاروا طريق التوبة . ويسأل أندرشافت ابنته بربارا إن كانت قد خلصت روح صانع مدافع ، فتجيبه أنها تحب أن تجرب ذلك معه . فيقول أندرشافت إنه مستعد لزيارة ملجئها فى صباح اليوم التالى بشرط أن تزور مصانعه الحربية فى اليوم الذى يليه . وهكذا يتواعد الأب وابنته ، وكل منهما يحاول اقتناص روح الآخر . أما ستيفن فيبدى اشمئزازه من أبيه لأمه . ولكنه يقبل أخيراً تحت ضغط الليدى بريتومارت أن يصحب الآخرين فى هذه الزيارة .

* * *

وفى صباح اليوم التالى نرى فى ملجأ وستهام الذى تديره الماجور بربارا عاملا شابًّا تبدو عليه مخايل المكر والمخادعة ومعه سيدة زرية الهيئة ، وكلاهما مشغول بالتهام ما قدم له من الطعام .

أما الرجل فهو مستر سنوبى برايس . وهو عامل عاطل حاقد على المجتمع يتباهى بذكائه واطلاعه فى الحركات العمالية . وقد عضه الجوع فذهب إلى ملجأ جيش الخلاص ليأكل وفى رأسه خطة ماكرة وهى أن يزعم للماجور بربارا بأنه رجل سكير عربيد مقامر يعود كل ليلة إلى بيته ثملا ويضرب أمه الطيبة الصالحة ويجرها من شعرها الأشيب . ولكنه رأى نور الهداية ، فجاء والندم يمزق قلبه يلتمس

التوبة والتطوع فى جيش الخلاص . وهو بهذه القصة المؤثرة يستطيع أن يضمن ملء بطنه فى الملجأ وربما بعض الشلنات ولن يكلفه ذلك إلا أن يقف فى الاجتماع الكبير و « يعترف » أمام الإخوة بذنوبه المزعومة هذه فى لهجة التائب وسيجمع له الإخوة فى القبعة ما تيسر من صدقة المحسنين .

وأما السيدة فهى مسز رمى ميتشنز ، وهى امرأة على شاكلته ، أخنى عليها الدهر فكانت تبيت على الطوى . وأخيراً هدتها قسوة الحياة إلى الذهاب إلى الملجأ ، وهناك صورت نفسها فى صورة المرأة الضالة التى كانت ترتزق من عرضها ونسبت إلى نفسها شناعات لم ترتكبها كل ذلك لتجد لقمة تتبلغ بها .

وتقوم على خدمة الخطأة التائبين عن الماضى بنت طيبة من متطوعات جيش الخلاص . اسمها جنى هيل . فى الثامنة عشرة من عمرها . وتقود جنى هيل رجلا مسناً يدعى بيتر شيرلى بادى الهزال من شدة الجوع . ثم تقدم له ما يطعم به . ويحتج بيتر شيرلى على الحياة مدعياً أنهم فصلوه من عمله بسبب شعره الأشيب فقد حسبوه مسناً وهو لم يتجاوز السادسة والأربعين . ولكنهم يطردون الرجال ليستخدموا الشبان .

وتهدئ جنى من روعه وتعظ جماعة الصعاليك بفائدة الصلاة . وفيما هى تصيب نفوسهم يقتحم الملجأ صعلوك جديد . هو بيل ووكر . ولكنه صعلوك غاضب ينادى بالويل والثبور ويصرخ قائلا: إن الملجأ اختطف منه صاحبته « ليخلص روحها » . وأنه يأمرهم بردها إليه ليهشم وجهها ويؤدبها على تركها إياه . وتتدخل رمى لإسكاته فيصفعها ثم يجذب جنى من شعرها ويلكمها . وهى تصيح « سامحك الله ! سامحك الله » !

وتستدعى الماجور بربارا لترى ما الخبر فتجيل نظرها فى هذه الوجوه الكثيرة فتبدأ بالتعرف عليهم واحداً بعد آخر . وتبدأ ببيتر شيرلى فتسأله عن خطبه فتعرف حكاية الاستغناء عنه للشيخوخة . فتعزيه بقولها إن الله سيكون بجانبه ما دام مستقيماً لا يسكر ولا يراهن فى السباق كما يقول . فيغضب شيرلى ويقول إنه لا يحب الخوض فى الملك والمعتقدات إنما هو يطلب عملا . فتجيبه بربارا باسمة : إذا كنت لا تؤمن بالآخرة فلا تخجل من ذلك . فوالدى كذلك لا يؤمن بالآخرة . وتعده بأن تجد

عملا لرجل مجد مستقيم مثله .

ثم تلتفت الماجور بربارا إلى بيل ووكر الذى ينظر إلى خلقتها الممتازة ويستمع إلى لهجتها الممتازة فيزيده هذا تحدياً فيقول وكأنه يتحدى مجلس اللوردات نفسه : « اسمى بيل ووكر » فتقول بربارا : « أنت إذن الرجل الذى كانت جنى هيل تصلى من أجله منذ هنيهة فى الداخل » .ويقول بيل ووكر إنها لا شأن لها به حتى تصلى من أجله . إن لكمته جرحت شفتها وهو يعلن أنه لا يهابها فتقول بربارا : « طبيعى كيف تهابنى وأنت لا تهاب الله » . وتعنفه بربارا على أن يده امتدت على بنت ضعيفة مثل جنى . ويحس بيل ووكر بوخز الضمير ولكنه يمضى فى مكابرته . إنه لم يأت إلى ملجئهم ليشحذ . وإنما جاء ليسترد فتاته موج أبيجم . ويعرف بيل ووكر من بربارا أن « موج » انتقلت إلى ملجأ آخر فى كاننج تاون . وأنها اصطفت لنفسها صديقاً آخر . ويشتد هياج بيل ويهدد بأنه سيمضى إلى كاننج تاون ليؤدب وليؤدب صاحبها الجديد . ولكن بربارا تخبره أن صاحبها الجديد هو الجاويش فيرمايل الذى كان حتى عهد قريب بطل المصارعة من الوزن الثقيل فى صالات الموزيكهول ثم أقلع عن المصارعة واتجه بكليته للدين . فيتردد بيل ووكر . ولكن بربارا تشجعه على مقابلة الجاويش فيرمايل لعله يهديه إلى طريق الدين . وتخرج جينى هيل فيرى بيل ووكر شفتها المجروحة وتعود بربارا إلى تعنيفه فيستولى عليه وخز الضمير . ولا سيما حين تقف جينى هيل إلى جواره لتثبت له أنها لا تحمل له ضغينة . ولكنه مع ذلك يمضى فى غضبه المختلط بالندم ثم ينصرف .

وفى هذه الأثناء يأتى الأب أندرشافت فتقدمه بربارا إلى شيرلى قائلة إنهما على شاكلة واحدة فكلاهما لا يؤمن بالآخرة . ويحتج أندرشافت على هذا التعريف قائلا إنه متصوف . بكل ما فى الكلمة من معنى . وهنا تسأل بربارا أباها : « ما دينك » ؟ فيجيبها أندرشافت قائلا : « دينى ؟ أنا مليونير يا ابنتى الحبيبة : هذا هو دينى » . فتقول بربارا : « إذن فأنت ومستر شيرلى لستما على شاكلة واحدة . فمستر شيرلى رجل فقير » . فيضيف شيرلى قوله : « وفخور بأنى فقير » .

أندرشافت : ليس الفقر ياصديقى شيئاً يفتخر به ؟

شيرلى (غاضباً) : من صنع لك ملايينك ؟ أنا وأمثالى ؟ ماذا جعلنا فقراء ؟

إننا نجعلكم أغنياء . أنا لا أرضى أن يكون لى ضميرك ولو كان لى كل دخلك .

أندرشافت : وأنا لا أرضى أن يكون لى دخلك ولو كان لى كل ضميرك .

وتحسم بربارا هذه المبارزة الكلامية بين شيرلى وأبيها فتمضى بشيرلى إلى الداخل بعد أن تعرفه بخطيبها أدولف كزينس ، أستاذ اللغة اليونانية الذى دخل جيش الخلاص لا ليعبد الله ولكن ليعبد بربارا . وينفرد أندرشافت الحصيف بالأستاذ أدولف كزينس ، وقد أدرك بفطنته ما أدركته الليدى بريتومارت من قبل ، وهو أن أدولف كزينس يبدى كل هذا الاهتمام بجيش الخلاص ويسير فى مواكبه يدق الطبل المعلق حول عنقه من أجل بربارا لا من أجل جيش الخلاص . ويسأل أندرشافت أدولف كزينس فجأة : « ماذا سيحدث إذا اكتشفت بربارا أمرك » ؟ ويحاول أدولف كزينس أن يتظاهر بأن اهتمامه بجيش الخلاص اهتمام حقيقى . فهو مهتم بجميع العقائد : وهو يجمعها ، والغريب أنه يجد أنه يصدقها جميعاً . ويسأل أدولف كزينس أندرشافت عن عقيدته فيجيبه أنه يعتقد فى شيئين : المال والبارود . أما أدولف كزينس فيذهب يتحدث فى حماس عن جيش الخلاص وعن الفقراء وعن خدمة الفقراء وعن نشر فضائل الرجولة والدين والإحساس بالمسئولية بين السكارى والمعربدين .

ويقول أندرشافت إنه أيضاً يهتم بجيش الخلاص لأنه ينزع أنياب الفقراء ويمنعهم من السكر ويجعل منهم عمالا أمناء سعداء متقنين لعملهم متعلقين بذويهم مجردين من حب الذات . فالسعداء لا يثورون . والمنكرون للذات يزيدون الأرباح والمتجهون بكليتهم إلى الأمور السماوية وحدها لا يفكرون فى التنظيمات النقابية أو الاشتراكية .

وإنما المشكلة عند أندرشافت ليست جيش الخلاص ولكن بربارا . فهو يستطيع أن يشترى جيش الخلاص بماله . ولكن المهم أن تكون بربارا ملكاً لهم لا لجيش الخلاص . فالطريق الوحيد إلى قلب بربارا هو العاطفة الدينية ، وهو على استعداد لأن يقف بجوارها وبجوار أدولف كزينس لتدعيم جيش الخلاص .

وهنا يعود بيل ووكر وهو فى حالة عجيبة من الارتباك والدهشة . وتخرج إليه بربارا وجينى والباقون ، فيروى عليهم بيل ما حدث له مع المصارع قائلا إنه مضى إلى كاننج تاون باحثاً عن موج وصديقها ونفذ بالضبط ما اعتزم أن ينفذه ،

فاتجه إلى المصارع وبصق فى وجهه ، ولكن المصارع بدلا من أن يعتدى عليه ركع على جسم بيل ونظر إلى السماء قائلا : « يا رب اجعلنى جديراً بأن يبصق علىّ من أجل الإنجيل » ! وحذا كل من بالقاعة حذوه فجثوا وأخذوا يصلون : « يا رب اكسر روحه العنيدة ولكن لا تكسر قلبه العزيز بشىء » . ثم علت أصواتهم : « هللو يا ! هللو يا » !

وبعد أن روى بيل ووكر روايته قال : هذا جنيه هو كل ما عندى ، وأنا أريد أن أدفعه تعويضاً عن إساءتى لجينى . . ولكن جينى رفضت قبوله لأنها غفرت لبيل ووكر إساءته . غير أن بيل ووكر ذا الروح المعذبة والكبرياء البشرى لا يريد الحديث فى المغفرة ، ويصر على دفع التعويض . وتقترح جينى وضع الجنيه فى صندوق إحسان جيش الخلاص ، ويعرض أندرشافت أن يضيف عليه تسعة وتسعين جنيهاً لتكمل المائة . ولكن بربارا ترفض أن تقبل مال أبيها الوارد من الحرام وترفض أن تقبل بنساً واحداً لا يقدم بروح التوبة وتقول لبيل ووكر : « لا ! إن الجيش لا يشترى . نحن نطلب روحك يا بيل ، ولن نقبل أقل من ذلك » .

وأخيراً يسأم بيل ووكر هذا الموقف فيقذف بالجنيه على الطبق ويمضى لحال سبيله وهو يتمتم « لقد عرضت أن أدفع ، هذا كل ما عندى » . ويرى العاطل الأفاق سنوبى برايس الجنيه على الطبل فيسيل لعابه ويدنو منه ويخفيه بكسكتته ثم ينصرف خلسة بالجنيه .

وفى هذه الأثناء تحضر مسز باينز ، رئيسة الماجور بربارا لتقابل مستر أندرشافت . وتظن بربارا أولا أن مسز باينز إنما جاءت لتهدى أباها سواء السبيل . ولكنها فى الواقع جاءت لتشكو من المتاعب المالية التى يعانيها جيش الخلاص . فذخر الجيش من المال أوشك أن ينفد وإذا لم يأت الفرج قريباً اضطر جيش الخلاص إلى إغلاق أكثر ملاجئه . ولكم صلت مسز باينز لله أن يرسل المال ، وفعلاً استجاب لها ، فهدى اللورد ساكسموندهام إلى البر وألهم قلبه فوعد بخمسة آلاف جنيه إذا وجد جيش الخلاص محسناً آخر يتبرع بخمسة آلاف أخرى .

وتسأل بربارا ، ومن يكون اللورد ساكسموندهام هذا ؟ أنا لا أسمع به من قبل ! فيجيبها أندرشافت إنه لقب جديد رقى إليه السير هوراس بودجر أكبر

مقطر للويسكى فى إنجلترا ثم يبدى استعداده لدفع الآلاف الخمسة الباقية . ويسقط فى يد بربارا . محال أن تقبل بنساً واحداً من مال بودجر . فهو مال دنس مثل مال أبيها . أنها تعلم أن جمع الشلنات والبنسات فى القبعات أثناء الاجتماعات لا يكفى لإقامة الملاجئ ولا لنشر الدعوة إلى الدين . ولكنها تؤثر أى شىء على قبول مال جمع من أدوات الفتك أو من تقطير الويسكى . إن ويسكى بودجر هو العدو الأول الذى أوجد جيش الخلاص ليحاربه . فكيف يقبل جيش الخلاص أن يكون عائله هو عدوه . إن إعلانات بودجر بالأنوار والألوان تخطف أبصار لندن وتخطف عقول أبنائها . وتغريهم يومياً بالسقوط . . وقد طلب جيش الخلاص من الحكومة إيقاف هذه الإعلانات صيانة لأخلاق الإنجليز . ولكنه خسر المعركة . فكيف تقول مسز باينز إنها لا ترى مانعاً من قبول هبته أو قبول هبة أندرشافت ! إن حجة مسز باينز هو أن لكل من اللورد ساكسموند هام ومستر أندرشافت روحاً تستحق الإنقاذ . وإذا كانا من الضالين فهذا سبب أدعى لأن نجاهد معهما جيش الخلاص . ثم إن بناء الملاجئ سينتهى حتماً بانصراف الفقراء عن تعاطى الشراب والإقبال على الدين . فالواقع أن لورد ساكسموند هام إنما يحارب مصالحه الخاصة يحارب ويسكى بودجر بهذه الهبة . وينتهز أندرشافت هذه الفرصة ليصور نفسه فى صورة المثل الأعلى لإنكار الذات . فماله سيدعو جيش الخلاص : المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام . وإذا ساد السلام على الأرض كان فى ذلك خراب أندرشافت ولازار !

وتكون هذه هى النهاية بالنسبة للماجور بربارا . فتخلع بربارا شارتها وتعلقها على صدر أبيها مكافأة له على خطبته الرنانة . وقبل أن تنصرف نهائياً ترى بيل ووكر قادماً للمرة الثالثة وقد أضاء وجهه بنورانية من رأى الخلاص ويشهد بيل طرفاً من هذا الموقف فيفهم كل شىء وينطفئ فى قلبه الإيمان ويعود كما كان جاحداً . وتمد بربارا يدها لبيل ووكر لتقول وداعاً لهذا الذى رأى النور لحظة ثم عاد إلى الظلام . إنها لن تغفر لأبيها هذا : لقد كانت روح بيل ووكر فى يديها فجعلها أندرشافت تفلت من قبضتها .

وتخلع الماجور بربارا زى جيش الخلاص . وتغلق الإنجيل وتفتح توماس بين .

• • •

وكيف تنتهي هذه المهزلة العجيبة . في اليوم التالي يستعد الجميع لزيارة المصانع الحربية لأندرشافت ولازار بحسب الاتفاق السابق . وقبل أن ينطلقوا يصف لهم أدولف — كزينس الاجتماع الهستيرى الذى أعلن فيه نبأ هبة بودجر « وفاعل خير ».

فقد خشي أندرشافت أن يذاع اسمه فتهافت عليه الجمعيات الخيرية وتفاسه. سرت في الاجتماع الكهرباء وترقرقت الدموع في العيون وسقطت امرأة أو أكثر مغشياً عليهن من فرط التأثر بعد أن صحن : هللو يا ! هللويا ! وآمن ١١٧ من الحاضرين وانخرطوا في جيش الخلاص . أما أندرشافت نفسه فكان يعزف الترمبون كالمجنون ، وبعد الاجتماع اصطحب أندرشافت أدولف كزينس إلى قصره الخاص ورواه بنبيذ شاربه لا يرتوى .

وتحاول الليدى بريتومارت أندرشافت أن تقنع زوجها بأن يورث المصانع الحربية لولده ستيفن ولكنه يرفض رفضاً باتاً قائلا إن من غير الأمانة أن يورث صناعة المدافع لولده . إنه لم يخلق لهذا العمل . ثم إنه شبه يائس . فقد أجرى البحث عن لقيط مناسب سنوات وسنوات . وهو الآن قد استعرض كل لقطاء لندن ولكنه لم يجد بينهم واحداً يصلح لأن يخلفه .

ولكن أندرشافت الماكر يعرف أنه اقترب جداً من ضالته المنشودة. إن أستاذ اللغة اليونانية هذا الذى خطب ابنته أدولف كزينس . قد سحر بشخصيته وهو يعتقد أنه في قرارته شبيه به رغم المبادئ والترهات التي يتمسك بها أو يقول إنه يتمسك بها . إنه أراد أن يجادله مرة في صلاحيته لمصاهرته فكانت إجابته القاطعة أن زواجه من بربارا أمر مبتوت فيه ومفروغ منه وهو لن يقبل أن يجعل منه موضوعاً للمناقشة . فليتحدث أندرشافت في أى شيء آخر إلا هذا : فليتحدث مثلا في مدى العون المالى الذى يرضى بأن يقدمه إلى ابنته . إن أدولف كزينس قال بالحرف الواحد: « أنا رجل إذا أردت شيئاً حصلت عليه ولو تألبت علىّ الأقدار » . إنه أراد أن يتزوج بربارا دون أن يعلم أنها بنت أندرشافت فدخل جيش الخلاص من أجلها . وحمل الطبلة من أجلها ، وغنى في الشوارع : « إلى الأمام يا جنود المسيح » من أجلها . وهو لن يتخلى عنها الآن وبالأخص لأنه اكتشف أنها ابنة الشيطان نفسه ! إن أدولف كزينس يفعل أى شيء ليصل إلى هدفه. هذا ما انتهى

إليه أندرشافت . ولكن سجل حياة أدولف كزينس ضده . فهو أولا ليس لقيطاً ، والمطلوب شخص بغير روابط إنسانية على الإطلاق حتى تكون مصانع المدافع هي كل ارتباطاته الحقيقية فى الحياة . ثم إن أدولف كزينس متعلم ، وهذا ضده فهو يفضل عصامياً تعلم الحياة من كتاب الحياة . ولكن أهم من هذا كله ، من أدرى أندرشافت بأن أدولف كزينس يقبل أن تؤول إليه مصانع المدافع ؟

وتطوف الجماعة بمصانع أندرشافت ولازار . فإذا هي مدينة كالفردوس تقع بين تلين . كل ما فيها مرتب منظم آية فى النظافة والدقة والهدوء . وفى أطراف المدينة مساكن للعمال يتوق لمثلها السادة السراة . فمن حدائق غناء إلى حمامات سباحة إلى حلقات التنس إلى مكتبات عامة إلى كل ما تفكر فيه أحدث التشريعات : فأندرشافت يعلم أن اطمئنانه قائم على سعادة عماله . فهو يسعدهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى يصرف عنه سخطهم الاجتماعي ويلهيهم عنه بما بينهم من فوارق وامتيازات .

وبعد أن ينتهي طوافهم تقول الليدى بريتومارت لزوجها إن له أن يتصرف فى المصانع كما يشاء أما المدينة نفسها فلا . فهي حق لأسرته مؤكداً . أما أدولف فيختفى عن الجماعة ثم يعود إليها بعد حين . إنه كان يجوس خلسة بين المصانع ليقف على دخائلها . ويلحظ أندرشافت ذلك فيتفاءل ويبدأ هجومه .

ويدافع أدولف كزينس دفاع المستميت . إن كل مبادئه تتعارض مع صناعة المدافع .. فليبحث أندرشافت عن غيره . ولكن أندرشافت الماكر لا يلقى السلاح . إنه يقول فلنجعل مناقشة المبدأ أو المبادئ آخر شيء فى الموضوع . فلننظر أولا فى مؤهلاتك . . إنه يرى أن الطبيعة أهلته لأن يخلفه لولا خلوه من الشرط الأساسي : فهو ليس لقيطاً .

وهنا يطرق أدولف كيزينس قليلا ثم يقول إنه يريد أن يعترف لهم بسر . فتتجه إليه الأنظار عاجبة . نعم إنه لقيط : صحيح إنه ابن شرعى لأبيه وأمه ولكنه يعد ابن سفاح فى عرف القانون الإنجليزى . فهو من إستراليا وهو ابن أبيه من أخت زوجته الأولى التى توفيت .. وزواج أخت الزوجة مشروع فى إستراليا ولكنه محرم فى إنجلترا . وهو إذن مستوف لهذا الشرط الشكلي .

وهل يقبل أدولف كزينس أن يغير اسمه إلى أندرو أندرشافت ؟ طبعاً فمن كان يحمل اسماً سخيفاً مثل أدولف كزينس لا يمانع تغييره إلى شيء آخر .

وكم يطلب ؟ هل يكفيه ألف جنيه في السنة ؟ وهنا يفتعل أدولف كزينس الغضب ويقول : كيف تجرؤ أن تعرض عليّ هذا المرتب الحقير : أنا أشترط ألفين وخمسمائة جنيه سنوياً لمدة سنتين وفي نهاية هذه المدة . إذا فشلت في عملي خرجت من الخدمة . أما إذا نجحت فإني أبقى مع إعطائي الخمسة آلاف جنيه الباقية . ويسأله أندرشافت عاجباً : أي خمسة آلاف باقية ؟ فيجيب أندرشافت الجديد : باعتبار أن أصل المرتب خمسة آلاف جنيه سنوياً وإني إنما آخذ النصف في حالة الفشل فقط أما في السنة الثالثة فإني أطلب عشرة في المائة من الأرباح .

ويرتاع أندرشافت حين يسمع هذه الشروط ولكنهما يتراضيان في النهاية على النصف .

ولكن أدولف كزينس يعود إلى تحفظاته بشأن المبدأ . لابد أن ينفرد ببربارا قبل أن يعطي قراره النهائي . فتتركهما الجماعة على انفراد إنه قرر أن يقبل عرض أندرشافت . قرر ذلك بغض النظر عن رأيها . ولو عدلت عن قبوله زوجاً . إن حبه لها لن ينضب أبداً وهو يتمنى أن ترى بربارا الأمور من وجهة نظره وتجيبه بربارا قائلة : لو أنك رفضت عرض أندرشافت لعدلت عن قبولك زوجاً !

بيجماليون

لجورج برناردشو

فى عام ١٩١٢ وضع برنارد شو مسرحيته المشهورة « بجماليون » بعد أن ظلت فكرتها تتردد فى ذهنه خمسة عشر عاماً . وقد بناها على الأسطورة اليونانية القديمة التى جرت بأن فناناً يدعى بجماليون وفق إلى صنع تمثال امرأة جميلة سماها غلاطية وعشق الفنان صنع يديه فتمنى على الآلهة أن تنفخ فيها الحياة فاستجابت الآلهة لدعائه وقيل إنه ندم على ذلك .

ومسرحية « بجماليون » من أخصب مسرحيات برناردشو : فموضوعها متعدد النواحى وهو يحتمل أكثر من تأويل . فهو من ناحية اجتماعية يثبت أن الفوارق بين طبقات المجتمع فوارق مكتسبة أهمها استعمال اللغة وآداب السلوك . فإذا قيض لأحقر حقير أن يتعلم النطق السليم وأن يتدرب على آداب السلوك لما كان هناك فرق جوهرى بينه وبين أعظم عظيم فى المجتمع . وهو من ناحية إنسانية يصور العلاقة بين العالم أو الفنان الخالق وبين صنع يديه . إن هناك علاقة أبدية بين الخالق وما خلق هى حب الأب لما أنجب من ولد وكل خالق يرى صورته فيما خلق .

ولكن المشكلة الكبرى مشكلة حدود : فكما أن الحدود مرسومة وواضحة بين السماء والأرض فإن الحدود مرسومة وواضحة بين كل عبقرى خالق وما خلق . ومن تجاوز هذه الحدود هلك .

وإنما يسعى العبقرى الخالق ليرفع أبناء الأرض إلى سمائه . وهو يقبل أن يجاورهم إذا رضوا أن يتجردوا من أدران المادة ومن أوحال الأرض ليعيشوا معه فى سمائه .

أما سماؤه فباردة لادفء فيها ولا حياة : لأنها سماء الفكر المجرد التى لامكان فيها لعواطف الإنسان ولا لمطالب الجسد .

وهذه هى المشكلة التى تجابه الإنسانية : كيف تصعد إلى الذرا الصافية دون أن تتجرد من سحر الحياة .

والحل ؟ الحل لا يزال بعيداً .

لأن غلاطية لم ترتق إلا درجة واحدة من هذا السلم الطويل . . . ثم خافت من الصفاء المطلق فهربت إلى عالمها الأول .

١

نحن الآن فى كوفنت جاردن وهى حى من أحياء لندن حيث دار الأوبرا تجاور سوق الخضر وكنيسة سانت بول . وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة مساء ، وانصرف النظارة عن دار الأوبرا . وتفتحت مزاريب السماء فانهمرت الأمطار بغزارة وهرع السابلة إلى مدخل الكنيسة ليحتموا بين أعمدة المدخل من البروق والرعود ومن ماء السماء .

وعلى درج الكنيسة وبين أعمدة مدخلها اختلطت علية القوم لابسين ثياب السهرة بأوساطهم وسفلتهم وكلهم مشغول بهذا الجو المطير إلا رجلا واحداً بينهم أدار ظهره للجميع وذهب يدون فى مذكرته أشياء فى انهماك تام . وكان هذا هو الأستاذ هنرى هجنز وهو علامة فى الأربعين من عمره تفقه فى الفونطيقا أى علم الأصوات .

ومن بين الواقفين سيدة من الوجهاء الفقراء هى مسز ينسفورد هيل وابنة لها هى كلارا . كثيرة التأفف تتشبه ببنات المجتمع وابنها الشاب فريدى وهو فى العشرين من عمره . وقد أرسلته السيدتان ليبحث لهما عن تاكسى ليعودا به إلى دارهما ، فعاد إليهما مبتلا دون أن يوفق فى مسعاه .

وتعنف السيدتان فريدى لأنه فشل فى بحثه عن تاكسى وتلحان عليه فى أن ينطلق من جديد ليعيد البحث . فينطلق المسكين وقد فتح مظلته ، ولكنه يصطدم فى طريقه ببنت من بائعات الزهور فتسقط منها سلتها وتقع منها بعض زهور البنفسج فى الأوحال . ويعتذر لها فريدى ثم يمرق كالسهم ليجدد بحثه عن تاكسى .

وتحتج بائعة الزهور على هؤلاء الوجهاء الذين أتلفوا بعض زهورها ، ويعلو

صوتهامطالبة بثمن ما تلف بعبارات بلدية شائقة وبلهجة بلدية شائقة من أعماق أحياء الفقراء بلندن فتخرج الألفاظ من فمها منكرة النبرة ممطوطة السواكن مأكولة المتحركات مجوفة النطق كأنها عواء حيوان ثائر فهى متعة للسامعين .

هذه هى أليزا دوليتل بائعة الزهور الجميلة التى لم تتجاوز ثمانية عشر ربيعاً وقد وقفت بشعرها المنفوش بين أعمدة الكنيسة فى ثوبها القذر ومعطفها الذى تراكم عليه غبار لندن .

وتحاول السيدة أن تهدئ من ثائرتها فتعوضها عما تلف من زهور بستة بنسات كاملة . وهنا ينضم إلى الجماعة سيد آخر فى ثياب السهرة متقدم فى السن يبدو عليه أنه من العسكريين . واسمه الكولونيل بيكرنج ، وهو يندس بينهم اتقاء للبلل وتعرض عليه البنت ليزا زهورها فيردها عنه برفق فما فى جيبه فكة . وتلحف ليزا فى العرض فيصرفها ببنس ونصف هى كل ما وجده فى جيبه من نقود صغيرة .

وهنا يتدخل رجل من الواقفين وينبه البنت أن تعطى السيد زهرة لقاء ما أخذت من مال حتى لا يظن أحد أنها شحاذة تتوسل للشحاذة ببيع الزهور . ويحذرها من الرجل الواقف خلفهم الذى يدوّن كل كلمة تقولها فى مذكرته فهو لا شك من رجال البوليس السرى ، وإلا لما اهتم بتدوين ما يقوله الناس .

وتتجه جميع الأنظار إلى الرجل المنهمك فى تدوين مذكراته فتجزع ليزا وتحاول أن تثبت للجميع أنها بنت شريفة وأنها لا تقصد سوءاً من حديثها مع السيد العجوز . وتثور ثائرة الواقفين دفاعاً عن البنت المسكينة التى لم ترتكب جرماً حتى يلاحقها هذا الجاسوس على هذا النحو . فقد حسبوا الأستاذ هيجنز مخبراً متربصاً لها . ويحاول الأستاذ هيجنز أن يهدئ من ثائرتها ومن ثائرة الجمع الهائج لتدخل البوليس فيما لايعنيه ومصادرته أرزاق الفقراء . فيوضح لهم أنه ليس من رجال البوليس ويطلع لوزا على مذكرته فلا تجد فيها كلاماً مفهوماً ولكن تجد فيها خطوطاً وعلامات وحروفاً لا سبيل إلى قراءتها . فتعجب لذلك ويعجب معها الواقفون . ولكن الأستاذ هيجنز يقرأ عليهم ما كتب مقلداً نطق ليزا تقليداً لا تحريف فيه . فعلماء الأصوات قد اصطلحوا على حروف الهجاء غير ما اصطلح عليه الناس لتحديد اللهجات وتسجيل الفوارق فى النطق مهما كانت طفيفة .

ولا تهدأ ثائرة ليزا لما رأت بل يزداد اضطرابها ويزداد اضطراب الجميع فينبرى منهم من يسب الأستاذ هيجنز . فمنهم من يصر على أنه جاسوس يبالغ فى التفانى سعياً وراء الترقية ومنهم من يذهب إلى أنه مجرد رجل فضولى هوايته مضايقة الناس ، كل ينطق بلهجته الخاصة والأستاذ هيجنز يستمع إليهم فى شغف واهتمام . وهذا لون من الحديث الذى جرى :

الواقف : إنه ليس مخبراً . إنه فضولى سخيف . نعم ، إنه فضولى . ثقوا من ذلك . . انظروا إلى نعليه .

كاتب المذكرات (يلتفت إليه فى لطف) : وكيف حال أهلك جميعاً فى حى سلسى .

الواقف (وقد أخذه الشك) : ومن قال لك إن أهلى من حى سلسى .

كاتب المذكرات : هذا لا يهمك . إنهم من حى سلسى . (متلفتاً إلى البنت) ماذا جاء بك إلى أطراف لندن الشرقية وأنت مولودة فى حى ليسون جروف ؟

بائعة الزهور (مرتاعة) : وأى ضرر هناك فى تركى ليسون جروف ؟ إنه كان حياً قذراً لا يليق بخنزير أن يعيش فيه ، وكنت أدفع إيجاراً قدره أربعة شلنات وستة بنسات أسبوعياً (تبكى) أو . . أو . . أو . . أو . . ! !

كاتب المذكرات : عيشى أينما أردت ولكن كفى عن إصدار هذه الأصوات .

ولكن ليزا تمضى فى الدفاع عن نفسها كأنها موضع اتهام . فهذا الرجل العجيب يعرف شيئاً عن منبتها وتنقلاتها كأنه يتعقب آثارها . ويطمئنها السيد العجوز فى حنان أبوى فلا تطمئن بل تمضى فى التنديد بهذا الرجل الذى يدخل فيما لا يعنيه . ويغتاظ أحد الواقفين فيتحداه قائلا :

ــ أتعرف من أى مكان أنا ؟

وما أن يصغى الأستاذ هيجنز إليه حتى يجيب على الفور :

ــ من هوكستون .

ويزداد غضب الجميع على هذا الرجل الغريب لأن إجابته كانت صحيحة . ويتأكد فى روع بعضهم أنه جاسوس ماهر يتعقب الناس ويعرف كل شىء عنهم فيطالبونه بإبراز التصريح الذى يخوله أن يتدخل فى شئون الناس . ويتحداه رجل

آخر من الوقوف قائلا وهو يشير إلى السيد العجوز :

الواقف المتهكم : نعم . أخبره من أى مكان هو إذا أردت أن تشتغل بقراءة الغيب .

كاتب المذكرات : إنه من تشلتنهام وقد تعلم فى هارو ثم درس فى كمبردج ثم عاش فى الهند .

السيد العجوز : بالضبط .

وهنا يضحك الجمع ويتحول غضبه إلى إعجاب بهذا الرجل الغريب الذى يعرف كل شىء عن منبت الناس ويحسبه السيد العجوز حاوياً يرتزق من هذه الألعاب فى الملاهى .

وينبه الأستاذ هيجنز الجمع المحيط به إلى أن المطر قد انقطع فيمضى كل إلى حال سبيله . حتى السيدة وبنتها كلارا تنصرفان قبل أن يعود إليهما فريدى بالتاكسى . ولا يبقى على درج الكنيسة إلا الأستاذ هيجنز والسيد العجوز وبائعة الزهور .

السيد : أتسمح لى أن أسألك كيف تعرف منشأ الناس ؟

كاتب المذكرات : بعلم الأصوات . لا شىء غير علم الأصوات . علم الكلام . فهذه مهنتى وهى أيضاً هوايتى . ما أسعد من يستطيع الارتزاق من هوايته ! بهذا العلم تستطيع أن تميز الأيرلندى أو ابن يوركشاير بلهجته ! أنا أستطيع أن أحدد مكان أى رجل فى نطاق ستة أميال . فى نطاق ميلين بلندن . بل وأحياناً فى نطاق شارعين .

بائعة الزهور : كان ينبغى أن تخجل من نفسك . فأنت نذل جبان !

السيد : ولكن أتستطيع أن ترتزق من هذا العمل ؟

كاتب المذكرات : بالتأكيد . بل فيه رزق واسع . فنحن فى عصر المحدثين . فالناس يبدأون حياتهم فى كنتيش تاون بدخل سنوى قدره ثمانون جنيهاً ثم ينتهون بالإقامة فى بارك لين بدخل سنوى قدره مائة ألف جنيه . . ولكن ما أن يفتحوا أفواههم حتى يفتضح منشؤهم . من هذا ترى أنى أستطيع أن أعلمهم . .

بائعة الزهور : سله أن يعنى بأموره فقط وأن يترك بنتاً فقيرة مثلى وشأنها .

كاتب المذكرات (ينفجر) : اسمعي يا امرأة : كفي فوراً عن هذه الأصوات المنكرة أو ارحلي إلى معبد آخر تحتمين فيه .

بائعة الزهور (تتحداه فى ضعف) : من حقى مثلك أن أبقى هنا إذا شئت .

كاتب المذكرات : إن امرأة تنطق بهذه الأصوات المقبضة المنكرة لا يحق لها أن تكون فى أى مكان — بل لا يحق لها أن تعيش . تذكرى أنك الإنسان تشتعل فيه الروح ويسمو بالهبة الإلهية هبة الكلام . تذكرى أن لغتك هى لغة شكسبير وملتون والكتاب المقدس . ولا تجلسى هنالك تهدلين كأنك حمامة ممرورة .

ثم يلتفت الأستاذ هيجنز إلى السيد العجوز ويقول : — أترى هذه المخلوقة التى تتكلم الإنجليزية بلهجة الأرصفة . تلك اللهجة التى ستبقيها فى الأوحال إلى نهاية عمرها ؟ أنا مستطيع يا سيدى أن أجعل من هذه البنت دوقة فى حفلة أنيقة من حفلات السفراء . بل أستطيع أن أجد لها عملا كوصيفة لسيدة أو كبائعة فى حانوت وهو يتطلب معرفة بالإنجليزية خيراً من معرفتها . هذا بعض ما أعمله مع المليونيرات المحدثين من التجارة . ومن أرباحى التى أجنيها من هذا السبيل أنفق على أبحاثى العلمية فى علم الأصوات وأقرض الشعر على طريقة ملتون .

السيد : وأنا أيضاً أدرس اللهجات الهندية . . .

كاتب المذكرات (باهتمام) صحيح ؟ أتعرف الكولونيل بيكرنج مؤلف كتاب « السنسكريتية العامية » ؟

السيد : أنا الكولونيل بيكرنج . ومن أنت ؟

كاتب المذكرات : أنا هنرى هيجنز مؤلف كتاب « حروف الهجاء العالمية » .

بيكرنج (فى حماس) : لقد جئت من الهند لأقابلك .

هيجنز : وأنا كنت سأسافر إلى الهند لأقابلك .

وهكذا يتعرف الرجلان كل على صاحبه ، بعد أن سمع كل منهما بالآخر كما يسمع العلماء بالعلماء . وينصرفان معاً بعد أن يعطرا بائعة الزهور ببدرة من المال لتكف عن شكايتها المستمرة . وما أن ينصرفا حتى يصل فريدى وقد وفق إلى اصطياد تاكسى فلا يجد السيدة ولا ابنتها . ولكن بائعة الزهور تريحه من الحرج الذى نزل به فتستقل التاكسى وهى تلوح بما لديها من فضة كثيرة وتترك فريدى فاغراً فاه من فرط العجب .

٢

وفى صباح اليوم التالى يزور الكولونيل بيكرنج دار الأستاذ هيجنز فى ومبول ستريت ليشاهد معمله . فإذا به يجد معملا مجهزاً بجميع الأدوات اللازمة لعلم الأصوات : فهناك فونوغراف وأسطوانات من الشمع لتسجيل الأصوات وهناك عدد كبير من الشوك الرنانة وبيانو وتمثال يبين مخارج الأصوات فى رأس الإنسان ويعلم بيكرنج من هيجنز أنه قد استطاع أن يميز بين مائة وثلاثين صوتاً من أصوات الحروف الساكنة وأن يسجلها بآلاته فيعجب لتقدم صاحبه فى علم الأصوات .

وفيما هما يتدارسان هذا الموضوع تدخل مسز بيرس وهى المدبرة فى دار الأستاذ هيجنز لتعلن لهما أن بائعة الزهور أليزا دولتيل قد جاءت تطلب مقابلة هيجنز . وتدخل أليزا قائلة إنها فكرت ملياً فيما سمعته من هيجنز فى الليلة السابقة . وأنها قررت أن تتلقى عليه دروساً فى الكلام حتى تتفتح أمامها أبواب المستقبل . فهى لا تريد أن تظل بقية حياتها تبيع الزهور فى ركن الشارع عند توتنام كورت رود بل تأمل أن يتاح لها فى يوم من الأيام أن تبيع الزهور فى دكان محترم . وإذا كان الحاجز الوحيد بينها وبين ذلك هو حسن اللهجة فهى قد جاءت لتتلقى دروساً تقوم بها لهجتها وهى لم تجئ راجية ولا متطفلة لأنها تريد أن تدفع للأستاذ هيجنز أجره على ذلك كاملا . بل هى على استعداد لأن تضحى بشلن كامل لقاء كل درس تتلقاه !

ويعجب هيجنز وبيكرنج لهذا العرض العجيب ويجدان فى كلامها الساذج متعة فائقة . ويجد هيجنز فى شخصية هذه الفتاة الطموحة وفى قذارتها الفظيعة وفى وضاعتها الممتعة ما يسحره ويذكره بيكرنج بقوله فى الليلة السابقة إنه مستطيع أن يجعل من بنت الأرصفة هذه سيدة من سيدات المجتمع يراها الناس فى حفلة من حفلات السفراء فيخالونها دوقة من الدوقات . ويتحداه أن يجرب علمه وفنه على هذه الفتاة . فيتراهن على ذلك الرجلان . ويكون الرهان نفقات التجربة : فإن نجحت تكبدها بيكرنج وإن فشلت خسرها هيجنز .

وهكذا تبدأ هذه التجربة العجيبة ولكن فى جو لا يخلو من الحرج ؛ فالمدبرة مسز بيرس تحتج على ذلك وتتهم هيجنز بأنه خال من كل شعور إنسانى . فهى مشغولة بمستقبل هذه البنت الساذجة التى تريد أن تخرج من الأوحال . ترى ماذا هو فاعل بها بعد أن تنتهى التجربة ؟ أما هيجنز فله رأى آخر . إنه ينظر إليها نظرة العالم الذى يشرح الحشرات ويجرى تجاربه على الأحياء فى سبيل تقدم العلم وتقدم الإنسانية . لقد جاءت أليزا دوليتل من الأوحال . ولا بأس أن تعود إلى الأوحال بعد أن تنتهى التجربة ! ويرى بيكرنج بعض ما تراه مسز بيرس فيتردد بعض الشىء ولكنه يخضع فى النهاية أمام اهتمام الأستاذ وإلحاح التلميذة وسحر التجربة .

وتبدأ التجربة بالحمام ؛ إذ لابد أن تزيل مسز بيرس عن جسد أليزا أكداس الأوساخ التى تراكمت عليه ولا بد أن تحرق ثيابها حتى لا ينتقل منها القمل إلى بقية المنزل فتقذف بها فى الفرن ولا تبقى منها شيئاً إلا قبعتها على سبيل الذكرى . ولابد أن تأتيها بثياب جديدة لتبدأ بها حياتها الجديدة . فهى سوف تقيم معها فى دار الأستاذ هيجنز لتكون على صلة دائمة بها ولتكون تحت إشرافها الدقيق ولتتعلم منهما آداب السلوك .

وحين تدخل أليزا الحمام لأول مرة تعلم بأنها رأت جسدها عارياً فى المرآة لأول مرة فاحمر وجهها خجلا وبادرت إلى المرآة فغطتها بفوطة الحمام !

وفيما هى فى الحمام يأتى أبوها مستر دوليتيل . وهو كناس عجوز ولكنه قوى البنية شديد الذكاء شديد الإقبال على الشراب وقد جاء ليساوم هيجنز فى بقاء ابنته . ويغضب هيجنز ويهم بطرد الرجل وابنته جميعاً أول الأمر ولكن هذا الكناس الشاعرى الفطرة يقنعه بلباقته وقوة حجته المستمدة من واقع الحياة أن يعطيه خمسة جنيهات « كدفعة أولى » .

دوليتل : . . . حقيقة الأمر هى أنى قد استلطفتك يا سيدى ، وإن كنت تريد البنت فلن أصر على عودتها إلى البيت إذا كان هناك مجال للاتفاق معى .

وهى بين الفتيات فتاة جميلة بديعة . ولكنها كبنت لى لا تساوى ثمن طعامها . لهذا أقول لك بصراحة : إن كل ما أطلبه هو حقوقى فيها كأب . وأنت آخر من ينتظر منى أن أفرط فيها بغير مقابل ، فأنت على ما أرى من الرجال المستقيمين يا سيدى . ما قولك ؟ ما قيمة خمسة جنيهات لديك ؟ وما قيمة أليزا لدىّ ؟

(يعود إلى مقعده ويجلس جلسة القاضى) .

بيكرنج : أظن أنه ينبغى أن تعرف يا دوليتل أن نوايا مستر هيجنز شريفة تماماً .

دوليتل : طبعاً شريفة يا سيدى . ولو كنت أعتقد أنها غير شريفة لطلبت خمسين جنيهاً .

هيجنز (مشمئزاً) : أتقصد أن تقول أيها الوغد العديم الشعور أنك تقبل أن تبيع بنتك بخمسين جنيهاً ؟

دوليتل : بوجه عام لا . ولكنى أفعل أشياء كثيرة لأرضى سيداً مثلك . صدقنى

بيكرنج : أأنت مجرد من الأخلاق يا رجل ؟

دوليتل (بغير خجل) : نعم يا سيدى فهى تكلف كثيراً . ولو كنت فى مثل فقرى لتجردت منها كذلك .

ودوليتل فيلسوف على طريقته الخاصة رغم أنه كناس . فهو يرفض أن يقبل فى ابنته عشرة جنيهات مكتفياً بخمسة لأنه يعلم أن المال الكثير فى جيبه سوف يسبب له المتاعب . وهو يفتن هيجنز ببلاغته الفطرية فيعرض عليه أن يبقى مع ابنته فيجعل منه فى ستة أشهر خطيباً مفوهاً يستطيع ببيانه أن يدخل البرلمان . ولكنه يعتذر بقوله إنه يفضل الحانة على السياسة !

(٣)

وتمر شهور قليلة على سكان ٢٧ (ا) ويمبول ستريت لا يحدث فيها شىء ويحدث فيها كل شىء .

فالأستاذ هيجنز لا هم له إلا تدريب أليزا على النطق السليم وعلى العبارة السليمة وأليزا لا هم لها إلا تعلم النطق السليم والعبارة السليمة . أما الكولونيل بيكرنج فتستوعبه

هذه التجربة استيعاباً فنراه ينتقل إلى دار هيجنز ليقيم فيها . ويكتشف هيجنز أن للتلميذة أذناً أرهف حساً وأقدر على تمييز الفوارق بين الأصوات من أستاذها ويعترف بأن أليزا لولا جهلها لفاقته فى فن الكلام .

وبعد أن يقوم هيجنز لسان أليزا يستبين له أن الأمر ليس على البساطة التى تصورها . فهو قد قوّم لسان بائعة الزهور ولكن ترى ماذا هو فاعل بعقلها الساذج الذى لم يحو من العلم شيئاً ؟

ولكنه لم يزل بعد فى المرحلة الأولى ولا تزال أمامه شهور قبل أن ينقضى الأجل المحدد للتجربة وهو ستة شهور . والحل عنده أن تتجنب أليزا فى حديثها مع الناس الكلام فى أى موضوع إلا السؤال عن الصحة والتعليق على الجو .

ويصطحب هيجنز أليزا لزيارة أمه فى يوم استقبالها الأسبوعى ومعهما بيكرنج ، وهو يبتغى من ذلك إجراء التجربة الأولى على أليزا فى المجتمع الصغير قبل أن يأتى اليوم العظيم فيصطحبها إلى المجتمع الكبير .

وفى دار أمه يلتقى هيجنز بآل أينسفورد هيل الذى كان قد التقى من قبل فى تلك الليلة المطيرة ليلة كوفنت جاردن . يلتقى بالأم المهذبة الرقيقة الحاشية وبابنتها كلارا التى تصطنع العصرية اصطناعاً وبولدها فريدى التافه الذى لا يملك مالا ولا يتقن عملا . فآل أينسفورد هيل أسرة كانت على شىء من الجاه ثم ضاع منها الجاه ولم يبق أمامها إلا الاحتفاظ بالمظاهر وإخفاء الفقر ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وتنجح التجربة الأولى وتفشل فى آن واحد .

تنجح لأن ليزا قد تبدلت حالها تماماً فلا يفطن إلى حقيقتها أحد . ولكن آل أينسفورد هيل فى ثيابها الفاخرة التى ابتاعها لها الكولونيل بيكرنج ويستمعون إلى نطقها الجميل الذى أسبغه عليها الأستاذ هيجنز فلا يفطنون إلى أنها بائعة الزهور التى التقوا بها منذ شهور على درج كنيسة سانت بول . ويفتن الشاب فريدى بجمالها من أول وهلة فيجلس أمامها ويشخص إليها شخوص العاشق الولهان طول الوقت حتى تنصرف .

ولكن التجربة تفشل كذلك لأن أليزا تخرج عن الحدود المرسومة لها فى الحديث وهى السؤال عن صحة الناس والتعليق على الجو . فما أن تذكر السيدة أينسفورد هيل

كلمة الأنفلونزا حتى تقص أليزا على الحاضرين كيف أن عمتها ماتت بالأنفلونزا ثم تروى لهم كيف أن أباها كان يداويها بشراب الجن وكيف أن أهلها قتلوها ليسلبوها ما تملك ثم زعموا أن الأنفلونزا قضت عليها . ويذهل آل أينسفورد هيل لهذه الفتاة الجميلة الأنيقة التى تروى أفظع الأشياء فى أجمل لهجة وتستخدم بين الحين والحين ألفاظاً لا يستخدمها إلا سفلة الناس .

ولكن هيجنز يشرح لهم أن هذا دأب الأرستقراطية الجديدة التى تتعمد التشبه بأبناء الشعب الحقيقيين فى استعمال الألفاظ البذيئة وتفتن كلارا بهذه الروح العصرية فتحاول تقليد أليزا . أما فريدى فهو غارق إلى أذنيه فى بحر الغرام ولا يهمه من كل هذا شىء إلا أن يتملى من طلعة هذه البنت الرائعة الجمال .

أما أم هيجنز فتعنف ابنها على هذا العبث الخطر فلاتجد منه إلا قوله :

هيجنز : أتسمين هذا عبثاً ! إن هذا أصعب عمل قمت به فى حياتى . لا تخطئى التقدير يا أماه . ولكنك لا تتصورين ما هنالك من متعة فى تشكيل حياة إنسان حتى يخرج منه إنسان آخر مختلف عنه تمام الاختلاف بخلق لغته خلقاً جديداً . إن هذا يسد ذلك الفراغ الهائل الذى يفصل الطبقة عن الطبقة ويباعد بين الروح والروح .

نعم إن هيجنز لا يفكر إلا فى حنجرة أليزا وفى موضع لسانها من حلقها أو من شفتيها كلما فاهت بكلمة .

حتى عقل أليزا يجد هيجنز السبيل إلى تشكيله تشكيلا جديداً . فهو يصطحبها كل يوم إلى معارض الفن وإلى المسارح وإلى دور الأوبرا لتكتمل بذلك ثقافتها .

إنه يحس إحساس الخالق الذى يصوغ الخليقة على شاكلته . ولكنه يغفل أهم عنصر فى الخلق ألا وهو روح الخليقة .

٤

ويأتى اليوم العظيم . يأتى فى الموعد المضروب . ويخرج ثلاثتهم . هيجنز وبيكرنج وأليزا إلى الحفل العظيم حيث يلتقى علية القوم بلندن فى حديقة سفير من السفراء وتتلو الحفل العظيم مأدبة عشاء عظيمة وبعد المأدبة يقصد ثلاثتهم دار الأوبرا

فلا يعودون منها إلا عند منتصف الليل .

وتنجح التجربة العظيمة نجاحاً عظيماً . فتتحدث لندن كلها بزهرة المجتمع الجديدة الآنسة أليزا ببيت دوليتل .

وهكذا تنتهى التجربة .

ويحمد هيجنز الله على أن التجربة قد انتهت .

ولكن نهاية التجربة تكون بداية المشاكل .

فالرجلان يجلسان بعد عودتهما من دار الأوبرا ويتذاكران فى إعياء شديد انتصارات اليوم وأليزا شاخصة إليهما فى سهوم . ثم فى غيظ شديد . إنهما لا يلتفتان إليها ولا يوجهان إليها الحديث كأنها شخص لا صلة له بالموضوع بل كأنها مجرد أداة جامدة أدت الغرض منها ولم تعد بهما حاجة إليها .

نعم لقد احتملت أليزا الكثير . احتملت من سلاطة لسان هذا الأستاذ المتأله ومن زجره ما لا يحتمله بشر . ولولا دماثة الكولونيل بيكرنج وآدابه العالية لكانت حياتها فى ويمبول ستريت جحيماً لا يطاق . لقد كانت تكد الليل والنهار بلا انقطاع . كانت تستيقظ على الأصوات وتعيش على الأصوات وتحلم بالأصوات . لقد كانت تخدم هذا الأستاذ المتأله خدمة الأم والأخت والبنت بل خدمة أمة اشتراها فى سوق النخاسة بخمسة جنيهات . فتعد له قهوة الصباح وتشترى له حاجاته من السوق وترتب له أوراقه وتأتيه بخفيه اللذين ما عرفت لهما موضعاً ثابتاً طوال الشهور الستة التى أقامتها فى ومبول ستريت . وهى لا تذكر أنها سمعت منه كلمة شكر أو كلمة تشجيع أو كلمة حنان . ولولا أن الكولونيل بيكرنج كان ينهض عند قدومها احتراماً ويرفع قبعته عن رأسه كلما التقى بها ويفتح لها الباب لتتقدمه فى المسير ويناديها من حين لآخر بقوله : « يا آنسة دوليتيل » لكانت مجرد متاع أو قطعة من أثاث البيت . نعم لقد احتملت من هيجنز فوق ما يطاق . وفى سبيل ماذا ؟ أهى تحبه . نعم . لا . إنها لا تفكر فى الحب . إنها لا تطلب إلا العطف .

كلا . إن هذا لا يطاق . وهيجنز الآن يحمد الله على أن التجربة قد انتهت . إنه متعب ويريد أن ينام وهو يسألها أن تأتيه بخفيه .

وتنفجر أليزا من فرط الغيظ فتقذف بالخفين في وجهه صائحة :

أليزا : إليك بالخفين . خذهما . خذ خفيك وإني أتمنى أن يأتياك بالنحس كل يوم من أيام حياتك .

هيجنز (ذاهلا) : ماذا جرى ! (يقترب منها) ماذا جرى ؟ انهضي (ينهضها) أليس كل شيء على ما يرام !

أليزا (لاهثة) : كل شيء على ما يرام بالنسبة لك . لقد كسبت لك الرهان . وهذا يكفيك . أما أنا فلا وزن لي على ما أعتقد .

هيجنز : أنت كسبت لي الرهان ! أنت أيتها الحشرة المدعية . أنا الذي كسب الرهان . .

نعم . الحمد لله أن التجربة قد انتهت . لسوف ترحل في الصباح الباكر . إن هيجنز لا يفكر في مصيرها . فلتفكر هي إذن في مصيرها .

لقد جاءت إلى داره منذ ستة شهور بمشكلة هي مشكلة الطبقة السفلى وقد أعانها على حل هذه المشكلة .

وهي الآن تخرج من داره بمشكلة أخرى أشد تعقيداً من المشكلة الأولى . لقد انفصلت أليزا عن طبقتها الأولى انفصالا لا رجعة فيه . فهي الآن لا تستطيع أن تقف على ناصية توتنهام كورت رود لتبيع الزهور . إن هيجنز قد جنى عليها جناية كبرى كما قالت أمه لأنه « علمها قواعد السلوك وراضها على العادات التي تمنع السيدات المهذبات من كسب قوتهن بعرق جبينهن دون أن يمنحها دخل السيدات المهذبات » .

ولكن هذه ليست مشكلة أليزا الوحيدة فهي لم تتحول في المظهر فحسب بل اهتزت في أعمق أعماقها لهذه الحياة الجديدة . فنفسها قد انصقلت وقلبها قد تفتح للحياة العليا وهي الآن تطلب حقها في هذه الحياة العليا . هي تطالب حقها في الحب وفي الاحترام وفي العطف وفي الود الكريم . وهي أشياء ما كان لها أن تجدها في محيط الكناسين أو في عالم الأرصفة .

٥

وفى الصباح الباكر تخرج أليزا من دار ويمبول ستريت وتقصد إلى دار السيدة الفاضلة أم الأستاذ المتأله هيجنز وما أن يستيقظ هيجنز وبيكرنج ولا يجدانها حتى ينزعجا أشد الانزعاج . إن هيجنز لم يخطر بباله قط أن انتهاء التجربة معناه رحيل أليزا . لقد تعود على أليزا حتى غدت جزءاً من حياته اليومية كالأكل والشرب والعمل وهو لا يتصور الحياة بغيرها .

نعم إنه يحبها . ولكنه يحبها على طريقته الخاصة يحبها حب الفنان لصنع يديه . يحبها حب بيجماليون لغلاطيه . حب المثال للتمثال . ولكن بيجماليون الذى صارت بذكره الأساطير كانا فناناً أحمق لأنه تجاوز فى حبه الحدود التى رسمتها الحياة بين الخالق والمخلوق فنزل من سموات الفن العالية ليسوى نفسه بما صنعت يداه .

إن هيجنز يريد إلى أليزا البقاء إلى جواره . دائماً . دائماً . إلى نهاية العمر . هو لا يريد منها لا زوجاً ولا عشيقة ولا خادماً ولكن جزءاً من حياته وقطعة من فنه وعلمه يرى نفسه فيها دائماً .

ويتصل هيجنز بالبوليس ليبحث له البوليس عن أليزا المختفية ويقصد مع بيكرنج دار أمه ليطلعها على ما جرى . وهناك يجد أليزا . ويكون بينهما حديث عاصف . إنه يعرض عليها أن تعود إلى ويمبول ستريت ولكنها تود أن تعرف منه على أى أساس تعود . إنها تحب أن تكون إلى جواره ولكنها تشترط عليه أن يقلع عن فظاظته واستهانته بشعورها . فماذا يكون رد هجنز ؟

هجنز : إن هذا كل ما ستنالينه منى حتى تكفى عن حماقة السفهاء . إن أردت أن تكونى سيدة فقد وجب أن تكفى عن الإحساس بأن من حولك من الرجال يهملونك إذا لم يقضوا نصف وقتهم ينتحبون فى غرامك ونصفه الآخر فى تأديبك باللكمات . وإذا كنت لا تطيقين الحياة فى هذا العالم البارد الذى أعيش فيه ولا تحتملين عناءها المضنى فخير لك أن تعودى إلى الأوحال . عودى إلى الكد والكدح حتى تصيرى أقرب إلى الحيوان منك إلى الإنسان ثم أسرفى فى الشجار

والشراب حتى يطبق النوم جفنيك . يا لها من حياة ممتعة : حياة الأوحال ! إنها حياة واقعية . حياة حارة . حياة عنيفة تحسين بها لأنها تنفذ فى الجلد مهما كان سميكاً . وتنعمين بطعمها ورائحتها بالفطرة دون حاجة إلى جهد أو تدريب . إنها ليست كحياة العلم والأدب والموسيقى الكلاسيكية والفلسفة والفن . أنت ترين فىّ إنساناً بارد الطباع خالياً من الشعور محباً لذاته . إذن فامضى إلى الناس الذين تأنسين إليهم . تزوجى من خنزير مكتنز بالعواطف الرخيصة وبالمال الكثير . له شفتان سميكتان يقبلك بهما ونعلان سميكان يضربك بهما . وإذا كنت لا تقدرين ما حصلت عليه فلتحصلى على ما تقدرين .

وهكذا تيأس أليزا من الوصول إلى حل سوى . إن كلام هيجنز لا شك مقنع فى عالم من المجردات . ولكن منطقه ينهار أمام منطق الحياة القوى . إنه يعرض عليها أن يتبناها ولكن نفس أليزا الواضحة وأنوثتها المتفتحة لا تقنعان بهذه العلاقة المفتعلة فى دنيا من الأفكار الباردة . إنها تطلب حقها فى الحياة .

ويستقر رأى أليزا على قرار خطير .

إن الفتى فريد أينسفورد هيل عاشق لها متيم بحبها وهو يلاحقها فى كل مكان بهواه ويسطر لها كل يوم الرسائل والرسائل يبثها نجواه ويقول إنها نعيمه الأبدى ويعرض عليها الزواج ليدخل بها هذا النعيم . حقاً إن الفتى فريد فتى تافه إذا قورن بهذا الخالق الشاهق هيجنز . ولكنه على الأقل يحبها ويتمنى أن يكرس حياته لإرضائها . وحقاً أن الفتى فريد فتى ساذج لا يملك مالا ولا يتقن عملا . ولكن أليزا سوف تستطيع بإرادتها الفولاذية وبحدبها عليه أن تخلق منه رجلا يعتمد على نفسه ويشق طريقه فى الحياة .

هذا هو القرار الخطير الذى اتخذته أليزا دولتيل . قررت أن تتزوج من فريد .

ويقوم هيجنز والكولونيل بيكرنج بواجبهما نحو أليزا فيفتحان لها دكاناً تبيع فيه الزهور مع زوجها . ولا تزال أليزا بفريد تعلمه أصول الصنعة حتى يتقنها ويصبح رجلا بين الرجال يعتمد على نفسه ويسوس أسرته .

وهكذا ترد أليزا دوليتل دينها للحياة فلقد وجدت من يأخذ بيدها ويرفعها من أوحال الفقر ويجعل منها امرأة استكملت عدتها للحياة الكريمة ، فأخذت بيد غيرها ورفعته من أوحال البطالة وجعلت منه رجلا استكمل عدته للحياة الكريمة .

عربة التفاح

لجورج برنارد شو

مثلت مسرحية « عربة التفاح » لأول مرة فى وارسو عام ١٩٢٩ على مسرح البولسكي حيث نجحت نجاحاً باهراً ثم مثلت على مسرح اللدويتش تياتر فى برلين . وحين كتب لها النجاح فى القارة الأوروبية مثلت فى لندن لأول مرة فى نفس العام على مسرح « كوينز تياتر » ٢٥٨ مرة فى موسم واحد .

وقد سمى برنارد شو مسرحيته « عربة التفاح » لأن هناك تعبيراً إنجليزيّاً يقول إن فلاناً « قلب عربة تفاح » فلان . بمعنى أنه أفسد خططه وأبطل مشروعاته والفكرة فى هذا أن عربة التفاح فى العادة تكون مرتبة بدقة حتى لاينفرط التفاح ويجرى على الأرض . فإذا اختل توازنها وانقلبت . وهذا أمر يسير . ضاع كل مجهود بذل فى ترتيبها .

أما عربة التفاح هنا التى انقلبت فهى خطة مجلس وزراء بريطانيا الفاسد لتقييد ملك بريطانيا الماكر ومنعه من التدخل فى السياسة والذى قلب عربة التفاح هو الملك نفسه . قلبها فضيع جهود الوزراء سدى . فهل انتهت المسرحية بتراضى الجميع على الوضع القديم ! كلا لأن ملك بريطانيا كانت له أيضاً عربة تفاح يرتبها ترتيباً جميلا وما أن فرغ من ترتيبها حتى جاء سفير الولايات المتحدة الأمريكية فقلب له عربته أيضاً .

ونحن نعرف عن برنارد شو صدق النظرة فى تصوير الشخصيات وفى تحليل الآراء والمعتقدات الاجتماعية والسياسية ولكننا قلما نذكر أن هذا الكاتب كان صاحب رأى راجح فى السياسة العملية .

لا نذكر مثلا أن برنارد شو عرض قبل الحرب العالمية الأولى على الرأى العام البريطانى رأيه القائل بوجوب عقد حلف بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة يقضى بألا تهاجم إحدى هذه الدول زميلة لها فى الحلف إلا بعد أن تتقدم لأعضاء الحلف بشكواها وتيأس من إجابة مطالبها المشروعة . وقد كتب مراراً عام ١٩١٢

يناشد حكومة بلاده أن تأخذ برأيه فلم يستمع إلى كلامه أحد فكف عن النداء . ومن يدرى ماذا كان يكون حال العالم لو أبرم هذا الحلف قبل نشوب الحرب العالمية الأولى .

أما فى « عربة التفاح » التى وضعت منذ ثلاثين سنة فيتنبأ برنارد شو بالحالة الدولية كما نجدها اليوم تنبؤاً تذهلنا دقته ، فنعجب أشد العجب لهذا المفكر الواضح التفكير الذى استطاع أن يقرأ صورة المستقبل فى معالم الحاضر .

١

فنحن الآن فى المستقبل . لا نعرف فى أى عام نحن ولكننا على كل حال بعد عام ١٩٦٢ . والمكان هو غرفة فى قصر ملك وهى هو الملك ماجنوس ملك بريطانيا . والراجح أنه آخر ملوكها . لأن تطورات الأحداث تشير إلى ذلك . وفى الديوان الملكى نرى رجلين من أمناء الملك . أحدهما هو بامفيليوس ووظيفته قراءة الصحف لجلالته والآخر هو سمبرونيوس ووظيفته قراءة خطابات جلالته .

ويتحدث الرجلان حديث رجال القصر فنعلم منهما شيئاً عن حب الملك ماجنوس لعشيقته أورنثيا وعن تعيين وزير جديد للتجارة هو بونرجز الذى ننتظر مجيئه بين لحظة وأخرى لأنه على موعد مع الحضرة السنية .

وحين يصل بونرجز نعرف من مظهره ومن مخبره الشىء الكثير عن حقيقته . فهو رجل فى الخمسين من عمره متين البنية شديد الاعتداد بالنفس إلى حد الكبرياء بل إلى حد السلاطة . ارتفع بجهاده فى الحياة من محيط العمال حتى أصبح وزيراً من وزراء الدولة بفضل ما أوتى من قدرة على الخطابة والتأثير فى الجماهير وبفضل ما أوتى من غلظة فى القول والسلوك وفرض للنفس على كل من حوله . وهو فخور بأنه تسلق السلم الاجتماعى من أوله ويكثر من تذكير الآخرين بمنشئه الوضيع كأنه طاووس يعرض عليهم رياشه . لهذا نراه يقتحم الغرفة لابساً بلوزة روسية من تلك البلوزات التى تزرر على الكتف لا كرمز لمنبته البروليتارى فحسب بل كرمز لمعتقداته البروليتارية كذلك . ولهذا نراه يقتحم الغرفة متحفزاً كأنه مصارع أتى

يطلب الملك ليصرعه . ضجراً لأن جلالته قد تأخر عن الموعد ربع ساعة ، ونراه يجلس دون دعوة أو استئذان .

وحين يدخل الملك ماجنوس نجده على نقيض هذا الرجل تماماً . فهو رجل فى الخامسة والأربعين من عمره هادئ الطباع مهذب اللفظ ناعم الملمس . ولكنه ماكر خبيث يستغل هدوءه فى الإيقاع بغريمه .

ويعلم هذا الملك الماكر أن مقتل كل إنسان هو كبرياؤه وغروره . وهو لذلك يتقن فن الملق فتراه لا يفتأ يطرى أحد خصومه حتى تلين قناته فيسيطر عليه وبهذا الفن.وحده يستطيع الملك ماجنوس أن يجابه مجلس الوزراء ، أو قل بهذا الفن وبسعة الحيلة معاً .

وحين يدخل الملك ينهض سكرتيراه احتراماً .أما بونرجز فيلدور فى مقعده دون أن ينهض . ويلحظ الملك هذا .

ماجنوس: مرحباً بك فى قصرى الصغير يا مستر بونرجز . تفضل واجلس .

بونرجز : إنى جالس .

ماجنوس: صحيح يا مستر بونرجز .أنا لم ألاحظ ذلك فاغفر لى. إنه حكم العادة . أتسمح لى بالجلوس ؟

بونرجز : دعك من هذا . هيا اجلس . . اجلس . . أنت فى بيتك وأنا لست بحاجة إلى هذه الشكليات .

ماجنوس (ممتناً) : شكراً .

ويبدأ الملك فى تخدير الوزير بقوله إنه كان يتتبع جهاده السياسى منذ خمس وعشرين سنة حين رشح بونرجز نفسه فى دائرة نورثامبتون . ويحس بونرجز بأهميته ثم يزداد انتفاخاً حين يقول له ماجنوس فى وداعة إن صوته الراعد كثيراً ما هز العرش . وهنا يحاول بونرجز أن يثبت فعلا أنه هزاز للعروش فيعلن لماجنوس فى عزم أنه قد جاء ليلقى إليه كلاماً ما سمعه ملك من أحد قبله .

ماجنوس : وأنا أكون أسعد السعداء بالاستماع إلى ما تقول يا مستر بونرجز . لقد كنت أحسب أنى سمعت كل ما يمكن أن يقال للملك من كلام . وإنى لأكون أسير فضلك إذا جئت بأمل جديد .

بونرجز : وأنا أحذرك أن كلامى لن يسرك . فأنا رجل بسيط يا ماجنوس رجل بسيط كل البساطة .

ماجنوس : أبداً . أؤكد لك .

بونرجز (غاضباً) : أنا لم أكن أتكلم عن هيئتى الشخصية .

ماجنوس (جاداً) : ولا أنا . لا تخدع نفسك يا مستر بونرجز أنت أبعد الناس عن البساطة . لقد كنت دائماً فى نظرى لغزاً من الألغاز .

بونرجز (عاجباً وقد انتفخ غروره انتفاخاً شديداً فلم يستطع أن يخفى ابتسامة السرور) : ربما كان حقاً فى شيء من الألغاز . نعم . قد أكون لغزاً !

وهكذا يعتقد بونرجز أنه قد أصبح سيد الموقف فيدخل فى الموضوع إن هناك أزمة وزارية . وسر هذه الأزمة أن الملك ماجنوس لا يريد أن يكون ملكاً دستورياً . وتعريف الملك الدستورى عند بونرجز هو أنه « بصمجى » أو كما يقول البلجيكيون « ختم المطاط » . ولا يثور ماجنوس عند سماع هذا الكلام بل يقول فى هدوء :

ماجنوس : نعم . هذا وصف صادق لنا فى أكثر الأحيان . لى ولك .

بونرجز : (تهان كرامته) : ماذا تقصد بقولك لى ولك ؟

ماجنوس : إنهم يأتوننا بأوراق فنوقع عليها أما أنت فلا تجد الوقت الكافى لقراءتها لحسن حظك . أما أنا فينتظر منى أن أقرأ كل شيء . وأنا لا أوافق دائماً على ما أقرأ . ولكنى ملزم بالتوقيع . فلا مناص من ذلك . خذ مثلا : أحكام الإعدام : فليس مفروضاً علىّ فقط أن أوقع على أحكام بإعدام أشخاص من رأيى أنه لا ينبغى إعدامهم ولكن كذلك لا يجوز لى إصدار أحكام بإعدام أناس كثيرين من رأيى أنه ينبغى إعدامهم .

وهذا هو سر الأزمة الوزارية . فماجنوس لا يرضى لنفسه ولا لغيره أن يكون مجرد « خاتم مطاط » ولكن يشرح لبونرجز أن الضرورة تقضى بهذا أن الإنسانية قد تغير حالها فمنذ أجيال قليلة كانت تؤمن بحق الملوك الإلهى وهى الآن تؤمن بالملك خاتم المطاط . ثم هى تطبق ذلك على الوزراء بعد أن طبقته على الملوك .

ماجنوس : . . . فالموظفون الدائمون فى وزارتك سوف يتناولونك ويستخدمونك

استخدامهم لخاتم المطاط . وفى كل عشرين مرة ستسمح لهم أن يفعلوا ذلك بك ، لأنك لن تستطيع أن تعرف كل شيء ، وحتى لو استطعت أن تعرف كل شيء فلن تستطيع أن تعمل كل شيء وأن تكون فى كل مكان . ومع ذلك فهناك المرة العشرون .

فى هذه المرة العشرين يرفض الحاكم أن يكون خاتماً من المطاط ويأبى أن يبصم على ما يقدم له من أوراق لا يعتقد بصواب ما تقول . وهذا يدل على أن للحاكم روحاً تهتز وعقلا يفكر وإرادة مستقلة تسعى إلى الظهور وماجنوس لا يطلب من وزرائه شيئاً كثيراً . هو يعرف أنه خاتم مطاط وهو راض بذلك . ولكنه يطالب أن يسمحوا له أن يثبت أنه رجل حى له روح وعقل وإرادة مرة واحدة كل عشرين مرة . إن بونرجز نفسه قد غضب حين وصفه ماجنوس بأنه مجرد خاتم من مطاط ، فلماذا يطلب إلى ماجنوس أن يكون كذلك ؟

وهكذا يمضى هذا الملك الدمث الماكر فى اللعب بعقل بونرجز حتى يبلبل أفكاره ويروضه ترويضاً . فهو آناً يتملق غروره بقوله إن برونرجز وزير يسمو على بقية الوزراء لأنه ليس خاتماً من المطاط بل هو رجل حى ذو روح وعقل وإرادة .

ويحسب بونرجز بأن ماجنوس يتلاعب به فيقول :

بونرجز : . . . ومع ذلك فأنا أومن بالنظام الجمهورى .

ماجنوس : وهذا مصدر دهشتى الدائمة . أتعتقد حقاً أنه يجوز لأى رجل أن يتمتع بالسلطة الشخصية الواسعة التى يتمتع بها الرؤساء فى الدول الجمهورية ؟ إن الملوك الطموحين يحسدونهم على ذلك .

بونرجز : ماذا ؟ أنا لا أفهم ما تقول .

ماجنوس (مبتسماً) : أنت لا تستطيع أن تضحك على ذقنى يا مستر بونرجز أنا أعرف لماذا أنت جمهورى . فإذا عزلنى الشعب الإنجليزى وأقام جمهورية فأنت أقرب الناس لأن تكون أول رئيس بريطانى . . .

فإذا حدث ذلك فسوف يكون لك من السلطة عشرة أمثال ما لى .

بونرجز (غير مقتنع تماماً): وكيف يكون ذلك ؟ أنت الملك .

ماجنوس: وما الملك ؟ صنم أقامته جماعة من الأغنياء ليحكموا البلاد متخذين منه كبش الفداء أو دمية الأراجوز . أما رؤساء الجمهوريات فهم من اختيار الشعب والشعب يطلب دائماً رجلا قوياً ليحميه من الأغنياء .

ولكن ماجنوس رغم هذا يؤثر وظيفة الملك على الوظائف المنتخبة فالأولى وظيفة ثابتة لا يطلب فى شاغلها مؤهل إلا أن يكون ابن أبيه أو ابن أخى عمه كما هى الحالة مع ماجنوس . والثانية متقلبة من يتقلدها تحيط به زعازع الانتخابات . فأين يكون بونرجز مثلا إذا ظهر له منافس يطيح منه أصوات نقابات العمال . أما بونرجز فهو يرى غير هذا الرأى ويقول :

بونرجز : ما من ملك على وجه الأرض مطمئن فى منصبه اطمئنان ممثل نقابات العمال . . . فأنا أحدث هؤلاء الرجال والنساء فى الديمقراطية . أنا أقول لهم إنهم يملكون الأصوات وأن لهم الملك والمجد والقوة . أقول لهم : « أنتم فوق كل شىء فباشروا سلطتكم » . فيقولون : صدقت .

« يقولون خبرنا ماذا نفعل » . فأخبرهم بما يفعلون . أقول : « صوتوا بوعى وانتخبونى » . فينتخبوننى . هذه هى « الديمقراطية » . وهى نظام بديع لأنها تضع أفضل الناس فى « أفضل المواضع » .

وهنا يدخل أعضاء مجلس الوزراء لابسين أزياءهم الرسمية وعلى رأسهم بروتيوس رئيس الوزراء وهو رجل متقلب كالحرباء كما يدل على ذلك اسمه ويدخل بليني وزير المالية المعتدل ونيكوبار وزير الخارجية وهو ماكر كالثعبان وكراسوس وزير المستعمرات الذى يدل اسمه على أنه من تجار الرقيق ثم بالبويس وزير الداخلية القاسى الذى لا عقل له . وبعد أن يدخل الوزراء الذكور تدخل وزيرتان هما ليزيسترانا وزيرة الكهرباء وهى امرأة مخلصة للكهرباء ولبريطانيا كانت مدرسة فيما مضى ولا تزال تحتفظ بخصائص المدرسات وأمانيرا وزيرة البريد وهى مهرجة مرحة تنتصر على كل معارض بتقليده أمام الجماهير وبالغناء أمام الناس .

وقد اختار برنارد شو لجميع أشخاص مسرحيته أسماء رومانية ذات مدلول ليوحى لنا بأن الإمبراطورية البريطانية تدخل الآن فى نفس المرحلة التى مرت بها الإمبراطورية الرومانية قبل زوالها .

ويقدم بروتيوس باسم الوزراء إنذاراً للملك ماجنوس فيه ثلاثة بنود : أولاً أن يمتنع الملك عن إلقاء الخطب الملكية .

ثانياً : أن يكف عن تهييج الصحافة على الوزارة من مطبخ القصر .

ثالثاً : ألا يعود الملك إلى التلويح — أمام الشعب — بما يملكه من حق الفيتو .

فإذا لم يستجب الملك لهذه المطالب ويوقع على الإنذار بالقبول فإن الوزارة ستستقيل ، وسيعرف الشعب سر الأزمة الوزارية وهو أن ملك بريطانيا يخرق الدستور الذى يقول إن الملك يملك ولا يحكم ، ويعرض النظام الديمقراطى كله للخطر.

ويتشدق كل وزير بثقة الشعب فى الوزارة لكثرة ما حققته من خير للبلاد . فهذا بروتيوس يقول :

بروتيوس : وقد ألغينا الفقر والبأساء ولهذا يثق الشعب فينا .

(مخاطباً الملك) ولهذا سترضخ لمطالبنا مكرهاً . فالشعب الإنجليزى يظاهرنا لأننا جعلناه يعيش فى بحبوحة تامة ، بحبوحة الطبقة المتوسطة .

فيجيبه الملك الذكى قائلا :

ماجنوس : كلا . نحن لم نلغ الفقر والبأساء ، وإنما ألغاهما كبار الرأسماليين بيننا . وكيف ألغوهما ؟ بتصدير رؤوس أموالنا إلى الخارج حيث لا يزال الفقر منتشراً ولا تزال البأساء ضاربة أطنابها ، أو بعبارة أخرى حيث اليد العاملة رخيصة . ونحن نعيش فى بحبوحة على الأرباح الواردة من رؤوس الأموال هذه . وقد أصبحنا بذلك جميعاً من طبقة السادة والسيدات .

ويباهى وزير المستعمرات بأن إنتاج إنجلترا اليومى من الكريم شكولاتة قد بلغ عشرين ألف طن فيجيبه الملك الحصيف هادئاً :

ماجنوس : مما يدعو إلى الاطمئنان حقًّا أنه لو حاصرتنا عصبة الأمم حصاراً سلميًّا لأمكننا أن نعيش على الكريم شكولاتة ثلاثة أسابيع على الأقل !

نعم إن هذا الملك الحصيف يرى الخطر الذى لا يراه وزراؤه . لأن الوزراء لا هم لهم إلا استرضاء الجماهير بالأجور المرتفعة وبالربح الحرام من عرق العبيد فى المستعمرات .

بروتيوس: ماذا تقول فى هذا يا سيدى ؟ اقتنع أنت بأن البروليتاريا الإنجليزية

التي تتقاضى أعلى أجور العالم فى صفنا .

ماجنوس (فى جد عميق) : أنا أخشى الثورة .

(يضحك الجميع إلا المرأتين ضحكاً عالياً من هذا القول)

بونرجز : أنا معهم فى هذا يا سيدى أعارض الكريم شكولاتة بمقدار ما تعارضها ؛ فأنا لا أستسيغها . أما قيام ثورة فى إنجلترا ففكرة يجب أن تنزعها من رأسك يا سيدى. لن تكون هناك ثورة ولو مزقت الماجنا كارتا ميدان فى الطرف الأغر وأحرقت كل عضو فى مجلس العموم فى سمثفيلد .

ماجنوس : أنا لم أكن أفكر فى قيام ثورة فى إنجلترا . وإنما كنت أفكر فى البلاد التي نعيش على ما ترسله لنا من جزية . افترضوا أن هذه البلاد فكرت فى التوقف عن دفع الجزية . لقد حدث هذا قبل الآن .

بلينى : محال يا سيدى . محال . فماذا سيحدث لتجارتها الخارجية معنا .

ماجنوس : ستستغنى فى الضائقة عما تصدره لها من بسكويت عيد الميلاد .

ويحدث الملك الاضطراب فى صفوف الوزراء . إن بونرجز متفق معه على أن الرخاء السائد فى إنجلترا رخاء مفتعل . ووزيرة الكهرباء ليز يسترانا ثائرة لأن كراسوس يخرب عملها . فوزارتها كانت تستطيع أن توفر الكهرباء رخيصة للشعب من حركة المد فى شمال أسكتلندا لولا أن كراسوس توسط لشركة يديرها عمه فى استغلال موارد القوى المائية هذه . وهكذا يؤلب هذا الملك الماكر وزيراً على وزير فينقسم مجلس الوزراء وينسى الموضوع الأصلى ألا وهو الأزمة الدستورية . ولكن بروتيوس يتنبه إلى كل هذه المراوغات فيرجو وزراءه ويركز تفكيرهم على ما جاءوا من أجله . ألا وهو تسليم الإنذار للملك .

ويطلب الملك مخرجاً من هذا المأزق فلا يجد. وينفد كل ما لديه من منطق وحيلة وتهديد فهو آناً يجادلهم قائلا فى أن الفيتو حماية للوزراء أنفسهم لأنه يحمل الملك المسئولية نيابة عنهم وهو آناً يروغ منهم روغان الثعلب بتفريع المناقشة . وهو أحياناً يهددهم بفضح استغلالهم لنفوذهم فيتوعده بروتيوس بالتشهير بغرامياته الداعرة فيتراضى الطرفان على السكوت .

وحين لا يجد ماجنوس مخرجاً يطلب من وزرائه مهلة حتى الساعة الخامسة مساء

ليتدبر قراره النهائى ويصرف الوزراء ثم ينطلق إلى بيت عشيقته أوريثيا ليستريح من جلائل الأعمال . . وليفكر فى طريقة يقلب بها عربة التفاح .

٢

وتحين الساعة الخامسة فنجد الملك ماجنوس جالساً مع زوجته الملكة جميما فى فراندة بالقصر وقد فرغا من تناول الشاى . وقد رأى ماجنوس أن يستقبل مجلس وزرائه فى الفراندة . ولهذا فهو يأمر برفع أدوات الشاى واستبقاء الكراسى انتظاراً لوزرائه . وفيما هو كذلك يعلن السكرتير بامفيليوس قدوم زائر غير منتظر هو سفير أمريكا ، مستر فانهاتان .

بامفيليوس : . . . إنه السفير الأمريكى .

الملكة (فى شىء من الاستياء) : أهو على موعد للمثول ؟

بامفيليوس : كلا يا سيدتى . أعتقد أنه منفعل لأمر من الأمور وقد عجزت عن أن أفهم أى شىء من كلامه . وهو يقول إنه لابد من مقابلة جلالته فوراً .

الملكة : لا بد ! السفير الأمريكى لابد أن يقابل الملك فوراً ، وبغير موعد للمثول ؟ ! هذا كلام لا يطاق !

ماجنوس (ينهض): أدخله يا بام .

(يخرج بامفيليوس) .

الملكة : لو كنت مكانك لأبلغته أن يكتب طالباً المثول فى حضرتك ثم جعلته ينتظر أسبوعاً قبل أن آذن له .

ماجنوس : ما هذا الكلام . إننا لا نزال مدينين لأمريكا بدين الحرب القديم . وكيف أفعل هذا ورئيس جمهوريتهم استعمارى مجنون كبوسفيلد ! كلا لو كنت مكانى لما فعلت ذلك يا عزيزتى ، بل لزحفت إليه زحفاً وعاملته بمنتهى الأدب كما سأفعل أنا الآن . عليه اللعنة !

ويدخل مستر فانهاتان وهو يتفجر حماساً كأنه واثق من استقبال حار ويندفع إلى الملكة ولا يزال يهز يدها بشدة حتى يوشك أن يخلع ذراعها من جسدها فتستنجد

الملكة بالملك بنظراتها . ويعتذر السفير عن انفعاله الشديد بقوله إنه قد جاء فى أمر خطير . بل فى أمر جلل ، بل أمر تاريخى لعله أهم ما ذكره التاريخ أو سيذكره . ويعجب الملك والملكة لكل هذه العواطف الفياضة ولكنهما يعجزان عن مشاطرته شعوره لجهلهما بأسباب انفعاله . ويحاولان تهدئته بعرض فنجان من الشاى عليه ، ولكنه يمضى فى عباراته المسرفة فى التهويل حتى ينفذ صبر الملك فيقول :

ماجنوس : يا عزيزى فانهاتان ، ما الخبر ؟ قل لى بحق الشيطان ! دعنا نصل إلى بيت القصيد .

فانهاتان : أيها الملك ماجنوس . إن لبلادى ديناً على بلادك .

ماجنوس : وما أهمية هذا بعد أن نقل الرأسماليون الإنجليز كل هذه الأموال الطائلة إلى أمريكا لاستثمارها فى الشركات الأمريكية فأصبحتم بعد أن تستردوا مالكم من فائدة على هذا الدين مضطرين إلى إرسال ألفى مليون دولار سنوياً لموازنة حسابنا معكم .

فانهاتان : انس الأرقام مؤقتاً يا ملك إن ما بين بلادى وبلادك ليس ديناً فحسب ولكن حدوداً كذلك . وهى حدود لا يحصنها مدفع واحد أو جندى واحد . حدود يعبرها كل يوم المواطنون الأمريكيون ويصافحون الرعايا الكنديين التابعين لعرشك .

ماجنوس : وهناك أيضاً حدود المحيط الأطلسى التى تدافع عنها عصبة الأمم على حسابنا معاً وتكلفنا شيئاً من المال .

فانهاتان (ينهض ليجعل لكلماته وقعاً أعمق) : يا سيدى : لقد ألغى الدين . والحدود لم يعد لها وجود .

الملكة : وكيف كان ذلك ؟

ماجنوس : أفهم من كلامك يا مستر فانهاتان إن الطبيعة قد أصابتها نوبة من التشنج فابتلع المحيط الأطلسى قارة أمريكا الشمالية ؟

فانهاتان : بل حدث ما هو أعجب من ذلك . إذا أردنا وصفه قلنا إن الإمبراطورية البريطانية قد ابتلعت المحيط الأطلسى .

ماجنوس : أعتقد أن من الخير أن تنبئنا بما حدث بما يمكن من الاختصار . تفضل واجلس .

فانهاتان (يستأنف الجلوس) : أنت تعلم يا سيدى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت فى يوم من الأيام جزءاً من إمبراطوريتك .

ماجنوس : نعم ، يقال شيء من هذا القبيل .

فانهاتان : هذا ليس مجرد قول يا سيدى . إنه حقيقة تاريخية لامراء فيها : فى القرن الثامن عشر . . .

ماجنوس : هذا زمن بعيد .

فانهاتان : إن القرون حسابها ضئيل فى حياة الأمم العظيمة ، يا سيدى . دعنى أذكر حكاية الابن الضال .

ويضيق الملك ذرعاً بهذا الحديث اللولبى إنه ينتظر مجلس الوزراء والسفير الأمريكى لا يقتصد فى الكلام . وأخيراً يأتى السفير بما عنده .

فانهاتان : إن الابن الضال يا سيدى قد عاد إلى بيت أبيه . وهو لم يعد فقيراً ولا جائعاً ولا مهلهلا فى الأسمال كما جاء فى الحكاية القديمة . لا لا . بل هو يعود هذه المرة بخزائن الدنيا إلى دار أسلافه .

ماجنوس (ينهض عاجباً من مجلسه) : أنت لا تقصد أن تقول . . .

فانهاتان (ينهض كذلك فى تواضع المنتصر) . نعم يا سيدى ، أقصد ذلك . لقد ألغى إعلان الاستقلال ومزقت المعاهدات التى أكدته . لقد قررنا أن نعود من جديد إلى حظيرة الإمبراطورية البريطانية . ونحن طبعاً سنتمتع بالحكم الذاتى تحت رئاسة مستر يوسفيلد بوصفنا دولة من دول الدومينيون . وسأزوركم مرة أخرى عما قريب لا بوصفى سفيراً لدولة أجنبية ولكن بوصفى مندوباً سامياً فى أعظم أملاك الدومنيون التابعة لك . وبوصفى رعية من رعاياك المتفانين فى الولاء والإخلاص لك يا سيدى .

ويفقد ماجنوس سلطانه على نفسه لهول الصدمة فيتهافت فى مقعده . ولكنه لا يلبث أن يتمالك نفسه من جديد ويفكر فيما سمع . إنه يعرف عن رئيس جمهورية الولايات المتحدة أن لسانه أنشط جزء من أجزاء رأسه فمحال أن تكون هذه الفكرة النيرة قد نبتت فى رأسه أولا . ويعرف من السفير الأمريكى أن هذه الفكرة النيرة إنما نشأت بعد زيارة رئيس دولة أيرلندا الحرة ، مستر أورفرتى للولايات المتحدة .

ومعنى هذا أن مقر العرش سيكون فى دبلن ! وأن هذه طبعاً ستكون نهاية

إنجلترا ! وحين يسمع السفير الأمريكي هذا النعي يقول معزياً :

فانهاتان : ربما كان هذا صحيحاً بمعنى من المعانى ، ولكن إنجلترا لن تهلك . لسوف تندمج . . تندمج يا سيدى فى مؤسسة أكبر وأبهى . ربما كان من واجبى أن أذكر أننا اشترطنا أن تكون أنت إمبراطوراً علينا . إن وظيفة ملك قد تكون كافية لهذه الجزيرة الصغيرة . أما إذا اشتركنا فستتطلب شيئاً أضخم من ذلك .

ماجنوس : هذه الجزيرة الصغيرة، هذه الدرة القائمة فى بحر من لجين »، كما يقول الشاعر ! هل خطر لك يا مستر فانهاتان أننا قد نفضل إحياء صيحة الحرب القديمة « نحن أنفسنا » (شين فين) ونحارب من أجل استقلالنا إلى آخر قطرة من دمائنا على أن نضمر فنصبح مجرد ملحق من الملحقات التى تملكها شركة أمريكية كبرى .

فانهاتان : يؤسفنى أسفاً عميقاً أن أفكر فى إمكان ارتدادكم إلى الماضى الوحشى . ولكن هذا لحسن الحظ أمر محال . . محال . فنصيحة الحرب القديمة لن تجد استجابة فى نفوس بحارة أسطول عصبة الأمم المرابطين فى المحيط الأطلسى لأنهم خليط من كل ملة ونحلة . سيحاصركم هذا الأسطول يا سيدى . وأخشى أننا سنضطر إلى مقاطعتكم . وبالتالى فإن الألفى مليون دولار التى تأتيكم إعانة منا ستنقطع عنكم .

ماجنوس : ولكن فكر فى دول أوربا أتحسب أن هذه الدول ستوافق إطلاقاً على مثل هذا التغيير فى توازن القوى ؟

فانهاتان : ولم لا توافق ؟ لن يكون التغيير إلا تغييراً اسمياً .

ماجنوس : اسمياً ! أتصف إدماج الكومونويلث البريطانى فى الولايات المتحدة بأنه تغيير اسمى كيف ستصفه فرنسا وألمانيا ؟

فانهاتان : فرنسا وألمانيا ؟ إن هذه المصطلحات الجغرافية الغريبة التى تستعملها فى كلامك بحكم العادة لا تزعجنا أظنك تقصد بألمانيا سلسلة الجمهوريات السوفيتية بدرجات متفاوتة بين جبال الأورال وبحر الشمال . إن الرجال الأذكياء فى موسكو وبرلين وجنيف يحاولون الآن إيجاد اتحاد بينهما . ومن المفهوم تماماً لدينا ولديهم أنهم لن يعترضوا على عملنا إذا لم نعترض نحن على عملهم . أما فرنسا ، وأنت تقصد بها الحكومة القائمة فى نيوتمجاد على ما أعتقد . فهى مشغولة فى أفريقيا بما يفهاصر

عن الاحتجاج على ما يحدث فى نهايتكم من نفق المانش . وطالما أن باريس مليئة بالأمريكيين والأمريكيون مليئون بالمال فإن كل شىء يسير على ما يرام من وجهة النظر الفرنسية .

هذا هو النبأ العظيم الذى جاء سفير أمريكا يحمله إلى ملك إنجلترا ثم ينصرف . ويعلم ماجنوس أن إنجلترا سوف تصبح بعد حين قليل الولاية التاسعة والأربعين فى الولايات المتحدة الأمريكية ويرمز لها « بإضافة نجم جديد على العلم الأمريكى »، أما الملكة فلا تجد بأساً من ذلك لأن زوجها سيصبح إمبراطوراً لا مجرد ملك ، ثم إنها تعتقد أن الإنجليز سوف يمدنون الأمريكيين لأنهم « أرقى منهم بالفطرة » . وأما الملك فهو غير متفائل إطلاقاً .

وبعد أن ينصرف السفير الأمريكى يفد أعضاء مجلس الوزراء .

ويسأل الملك وزراءه إن كانوا قد عرفوا بالأنباء الواردة من أمريكا فيجيبه رئيس الوزراء بأنه على علم بها . ويطلب الملك مشورة وزرائه فى هذا العرض الخطير وبروتيوس يطلب مناقشة الإنذار أولا .

ماجنوس : أتحسب أن الإنذار ستكون له أية أهمية إذا انتقلت عاصمة الكومونولث البريطانى إلى واشنطون ؟

نيكوبار : نحن نؤثر أن نراها تنتقل أولا إلى ملبورن أو مونتريال أو جوهانسبرج.

ماجنوس : ولكنها لن تدوم هناك . فهى لن تدوم إلا حيث يكون هناك مركز ثقل حقيقى .

بروتيوس : نحن متفقان على هذا . إذا كان للعاصمة أن تنتقل فستنتقل إما إلى واشنطون أو إلى موسكو .

ولكن . . . ولكن الإنذار أولا .

أما ماجنوس فقد انتهى قراره إلى شىء خطير . إنه قرر الاستقالة . أى التنازل عن العرش .

وتقع كلمات الملك من نفوس وزرائه موقع الصاعقة . إنه لن يوقع على الإنذار بالقبول لأنه يعلم أنه سيخل بتعهده . هذه هى طبيعته وهو أعرف بها من غيره . وهو يقبل منهم حقًّا مبدأ الملكية الدستورية. ولكنه واثق أنه سيخرق الدستور إن

بقى على العرش . وهو لذلك لا يرى حلا إلا أن يتنازل عن العرش .

ثم يتشجع الوزراء شيئاً فشيئاً فلا يجدون غضاضة فى تنازل الملك عن العرش . بل هم يذهبون إلى أكثر من ذلك ، فيلقون الخطب الرنانة فى إطراء الملك ، ويعبرون عن أسفهم العميق لنهاية هذه الصداقة الجميلة ، ومنهم من تدمع عيناه لمرارة هذا الوداع .

وهنا يفاجئهم الملك بقنبلة جديدة . إنه لم يقل إنه سيلغى الملكية وإنما قال إنه سيتنازل عن العرش . بل هو سيتنازل عنه صيانة للملكية ! وسوف يخلفه ابنه روبرت وعندئذ يمكن للوزراء أن يطمئنوا إلى أن عليهم ملكاً يملك ولا يحكم ، ويحكم عن طريق وزرائه كما يقولون .

أما هو فهو يعتزل العرش ولا يعتزل السياسة . نعم . . سيكون آخر مرسوم يصدره — مرسوم بحل البرلمان — وبتجريد نفسه من جميع ألقابه وامتيازاته وبذلك يصبح رجلا عادياً كسائر الرجال . وبذلك يستطيع أن يرشح نفسه فى دائرة انتخابية هى دائرة وندسور حيث القصر الملكى .

ولما كان ماجنوس محبوباً فى وندسور فانتصاره لا شك محقق . بل انتصاره لا شك مكتسح . وعندما يصير ماجنوس عضواً فى مجلس العموم سيؤلف حزباً سياسياً . وعندئذ . من يدرى ؟

إن من سلطات جلالة ابنه الدستورية أن يكلف من يشاء من زعماء الأحزاب أن يشكل وزارة يثق فيها مجلس العموم .

نعم من يدرى ؟

ربما كلف الملك الجديد أباه بتشكيل الوزارة الجديدة .

وعندئذ لن تكون هناك أزمات دستورية ولا تنازع على سلطات السيادة لأن الابن والأب سيتقاسمان المملكة : الابن يملك والأب يحكم .

وحين يسمع الوزراء هذا الكلام يسقط فى يدهم .

لقد قلب لهم الملك عربة التفاح التى رتبوها أجمل ترتيب . ويطلب بروتيوس من الملك فى غيظ شديد أن يرد له الإنذار فيرده له . ويمزق بروتيوس الإنذار أربعاً . ويعلن غاضباً أن الأزمة الوزارية قد انتهت وأن كل شىء سيسير فى المستقبل كما كان يسير فى الماضى وينصرف . وينصرف بعده الوزراء واحداً بعد الآخر .

وقبل أن ينفض الجمع تماماً يستوقف الملك بالبوس وهو فى طريقه إلى الخارج ويقول :

ماجنوس : . . . على فكرة . إذا تصادف أن لحقت برئيس الوزراء فأرجوك أن تتفضل بتذكيره أننا نسينا تماماً أن نبتّ فى تلك المسألة البسيطة ، وهى اقتراح أمريكا بضم الكومونولث البريطانى . فيقول بالبوس فى بلاهة :

بالبوس : بحق السماء لقد نسينا ! هذه فكاهة لطيفة ! ها ها ها ! ها ها ها !

وهكذا ينصرف بالبوس وهو يضحك ضحكة الخلى أو ضحكة الغبى . ويلتفت الملك ماجنوس إلى الوزيرة الوحيدة النظيفة الجادة بين وزرائه ويقول :

ماجنوس : إنهم لا يفهمون يا ليزى . لا يفهمون من الموقف شيئاً . إنه أشبه شىء بكوكب آخر يوشك أن يصطدم بكوكبنا . وسيمضى عنا الملك والقوة والمجد ونبقى عرايا وجهاً لوجه مع أنفسنا الحقيقية آخر الأمر .

ست شخصيات تبحث عن مؤلف

كوميذيا الكاتب الإيطالى لويجى بيراندلو

حين ظهرت مسرحية « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » وهى كوميديا من ثلاثة فصول ، للكاتب الإيطالى لويجى بيراندلو أحدثت ضجة كبرى فى العالم كله وترجمت إلى أكثر لغات العالم ونشرت فى اللغة الإنجليزية عام ١٩٢٢ .

وتعد هذه المسرحية حجر الزاوية فيما يسميه النقاد « المسرح الذهنى » أو « الدراما الذهنية » ، فهى تدور حول موضوع فلسفى هو الوجود الإنسانى بين الحقيقة والوهم . أين تبدأ الحقيقة وأين يبدأ الوهم بل نحن إذ نفرغ من قراءتها أو مشاهدتها نشك فى حقيقة الواقع ولا ندرى إن كانت هذه الحياة الإنسانية التى نحياها حقيقة واقعة أم نسجاً من الأحلام .

وسبيلنا إلى هذا الشك هو تأمل ما بين الفن والحياة من صلة فغاية الفن المسرحى هى ما يسمونه تصوير الحياة على المسرح . وعماد الفن المسرحى هو إيهامنا بأن ما يجرى على المسرح ليس شيئاً من نسج خيال المؤلف ولكن جزء من واقع الحياة . ونحن نحكم على الفن بمقدار مطابقته للحقيقة . وفى اللحظة الفنية المثلى يتطابق الوهم والحقيقة على المسرح فى أذهاننا ويختلط علينا الأمر فلا نعرف إن كان مانشاهد وهماً أم حقيقة . وحين يبلغ الفن أعلى مراتبه يسيطر علينا الوهم فنخاله حقيقة .

فإذا كان الفن الخالق يستطيع أن يفعل هذا بالإنسان . فما الدليل على وجود الحقيقة فى الحياة ذاتها ؟

لقد شبه كتاب المسرح العالم بالمسرح والحياة بالمسرحية والناس بشخصيات المسرحية ولشكسبير فى هذا أقوال جميلة تدل على أن كل ما يحدث فى الحياة إنما هو تمثيلية رائعة من وضع الفنان الأعظم .

أما الشك فى حقيقة الحقيقة بل القول بأن الحقيقة وهم فهو شىء قديم قدم

التفكير الإنسانى . وقد بلغ قمته فى فلسفة أفلاطون الذى قال إن العالم المادى الذى تعيش فيه إن هو إلا ظل ساقط من فكر الله أما الحقيقة والعالم الحق فلا وجود لهما إلا فى الذهن الأعلى . ذهن الخالق فى عالم المثل الكاملة المجردة التى لا يشوبها نقص . أما ما نراه حولنا من أشياء فهو مجرد صورة للكمال الأعلى والصورة مهما دقت فهى ناقصة وهى لا يمكن أن تدانى الأصل فى الكمال .

وهذا هو الموضوع الذى يعالجه الكاتب المسرحى الكبير بيراندلو . إن شخصيات المسرح ليست قاصرة على المسرح بل إن من يتأمل الأحياء أنفسهم يستطيع أن يتبين فيهم شخصيات مسرحية من أعظم طراز تجرى عليها أحداث الحياة كما تجرى الأحداث فى المسرحيات . ومنهم من يمثل دوره فى الحياة وهو قانع بالمؤلف الأعظم وفنه الأعظم الذى خلقه ورسم له سيرته فى الحياة وقدر له المقادير . ومنهم من ينهشه القلق فيذهب يبحث عن مؤلف آخر غير خالقه يؤلف من سيرته مسرحية كأنه غير قانع بما فى الحقيقة من فن أو كأنه غير راض بما فى الفن من أوهام .

ومن هؤلاء الأحياء ستة أشخاص . كلهم أبناء أسرة واحدة اختارها بيراندلو . ولأبناء هذه الأسرة قصة مترابطة الحلقات . قصة يظن أبطالها أنها تصلح لأن تكون مادة للفن وهم لذلك يبحثون عن مؤلف مسرحى يصوغ من سيرتهم ومن أشخاصهم مسرحية يزوج فيها الفن من الحقيقة .

١

وأين يتجه أفراد هذه الأسرة للبحث عن مؤلف ؟ هم يتجهون إلى مسرح من مسارح المدينة بطبيعة الحال . ولذا نراهم مجتمعين ذات صباح على فرقة من فرق التمثيل حيث اجتمع الممثلون وعلى رأسهم المخرج على خشبة المسرح يجرون البروفة لتمثيلية من التمثيليات .

وليس لأفراد هذه الأسرة أسماء معينة فنحن نعرفهم بأدوارهم وبعلاقة كل منهم بالباقين . فهناك الأب وهو رجل فى الخمسين من عمره يميل إلى السمنة قليلا عريض الجبهة طويل الشارب كثير الابتسام . فى طبعة حدة وتناقض : فكلامه يعذب أحياناً

ويعنف أحياناً أخرى . وهو رجل معقد متفلسف له نظريات عجيبة فى حقيقة الوهم وفى وهم الحقيقة لا فى الحياة وحدها ولكن فى الفن كذلك . وهناك الأم وهى امرأة كسيرة النظرة تحمل جبالا من الهموم سحقتها سحقاً اعتملت فى نفسها الذلة والعار والشعور بالخطيئة . نراها فى ملابس الحداد لأنها ترملت فى والد ابنها وعلى وجهها نقاب أسود من إمارات الحداد . وهناك ابنة الأم وهى فتاة جميلة جريئة توشك أن تبلغ جرأتها مبلغ الوقاحة وقد بدت فى ملابس الحداد أيضاً ، ولكن فى أناقة فائقة وهناك أخوها الغلام التعس الذى تحتقره هذه الفتاة احتقاراً شديداً وهو يبدو أيضاً فى ملابس الحداد واسمه هنا الغلام وهو فى الرابعة عشرة من عمره وهذا الغلام المسكين يرتسم الجزع على وجهه لفرط ما يلاقى من اضطهاد وهو صموت لا ينطق بكلمة طوال المسرحية . وهناك الطفلة وهى فى الرابعة من عمرها تبدو فى فستان أبيض وحول وسطها زنار أسود هو شارة الحداد . أما البنت فهى تحب أختها الطفلة حبًّا جمًّا وتدللها تدليلا على عكس ما تفعل بأخيها الغلام . وأخيراً هناك الابن وهو فى الثانية والعشرين من عمره مديد القامة قاسى النظرات مترفعاً على الجميع ولا سيما على أبيه فهو يحتقر أباه احتقاراً لا مزيد عليه وهو يترفع على أمه ويهملها إهمالا تامًّا . يضيق بكل ما يجرى حوله ؛ فقد أتى إلى المسرح على كره منه ولو استطاع الفرار من هذا المحيط كله لوجد فى ذلك راحته ويدخل الأب معه بقية أفراد أسرته ويقول للمخرج إنهم قد جاءوا يبحثون عن مؤلف . أى مؤلف ؛ فأفراد الأسرة يعتقدون أنهم شخصيات لا تقل حقًّا فى الحياة عن أبطال المسرح ، ولا ينقصهم إلا المؤلف الذى يجعل من حياتهم مسرحية فنية صالحة للعرض على الجمهور .

ويغتاظ المخرج فهو يحسب هذه الجماعة أول الأمر من المتسكعين جاءوا ليضيعوا وقته ثم يخيل إليه أن محدثه مخبول لأنه يتفوه بأشياء لا يعقلها المنطق ولكنه يلتفت إلى حديثه حين يسمع منه كلاماً يشبه الحكمة .

الأب : أطلب عفوك فإنما أسوق هذا الكلام لك فأنت تصيح قائلا إنك لا تريد إضاعة وقتك مع المجانين . ومع ذلك فأنت خير من يعرف أن الطبيعة تتخذ من خيال الإنسان أداة تحقق بها غايتها الخلاقة .

المخرج : جميل جدًّا ، ولكن أين يفضى بنا هذا الكلام ؟

الأب : يفضى بنا إلى لا شىء إنما أردت أن أوضح لك أن المخلوق يخلق فى الحياة فى صور عديدة وفى أشكال كثيرة فقد يخلق شجرة أو حجراً أو ماء أو فراشة أو امرأة . وبالتالى فهو يمكن أن يخلق شخصية فى مسرحية .

المخرج (يصطنع الضيق بطريقة مضحكة) : وعلى هذا فأنت ورفاقك هؤلاء قد خلقوا شخصيات فى مسرحية ؟

الأب : بالضبط . بل وشخصيات حية كما ترى !

(ينفجر المخرج والممثلون بالضحك)

الأب (متألماً) : يؤسفنى أنكم تضحكون فنحن نحمل فينا مأساة ويمكنكم أن تستنتجوا ذلك من النقاب الأسود الذى تلبسه هذه المرأة .

ويزداد ضيق المخرج بهذا اللجاج فيأمر عامل الديكور بطردهم . ولكن الأب يعود فيشرح وجهة نظره .

الأب (يتقدم فى تصميم) : إنى أعجب لتشكككم هذا أيها السادة . ألم تتعودوا أن تروا الشخصيات التى يخلقها المؤلف تدب فيها الحياة فى أشخاصكم ويواجه بعضها البعض الآخر؟ أترفضون تصديقنا (يشير إلى كمبوشة الملقن) لمجرد أنه ليس هناك « كتاب » يحتوينا . .

إن من أسعده الحظ فخلق لكى يكون شخصية إنما يستطيع أن يسخر من الموت فهو لا يمكن أن يموت . إن الإنسان يموت — نعم يموت الكاتب وهو أداة الخلق ولكن خليقته لا تموت . وليس يلزم لتحقيق الخلود أن تتميز الشخصية بمواهب خارقة أو بقدرة على عمل المعجزات . فماذا كان سانكو بانزا ؟ وماذا كان دون أبونديو ؟ ومع ذلك فهما خالدان لأنهما وجدا — لحسن حظهما — المهبل الخصيب الذى ينموان فيه وهو خيال الكاتب الذى أنشأهما وغذاهما وجعلهما يعيشان إلى الآن !

إن كلام هذا الرجل فيه شىء من الحقيقة . بل فيه كثير من الحقيقة . والمخرج قد بدأ يصغى بشىء من الاهتمام رغم غيظه الشديد . إن الأب لا يطلب إلا شيئاً واحداً هو أن يتاح له أن « يحيا » مع بقية أفراد أسرته . أن يحيا فى أشخاص الممثلين المجتمعين حول هذا المخرج وفى فنهم . ثم إن الفتاة . ابنة الأم ، تقول كلاماً كثيراً فيه إغراء شديد . وهى تريد أن تثبت أنها شخصية فى الحياة جديرة بأن تجد

مؤلفاً يحييها بفنه . وهى تعرض رقصة وتغنى أغنية يعجب بها الجميع . ثم ما هذا الكلام الغريب الذى تلقيه هذه البنت عن نفسها وعن آمالها ؟ إنها تقول إنها تيتمت منذ شهرين ، وهى تزجر أخاها « الابن » متأففة من ترفعه واستعلائه واحتقاره لبقية إخوته لأنه يعلم أنه الابن الشرعى الوحيد فى الأسرة وأن سائر إخوته أبناء زنا . وحين يبلغ حديثها هذا المبلغ يصيب الأم دوار شديد وتوشك أن تقع مغشياً عليها ، وتناشد المخرج باسم طفلتها البريئة و باسم غلامها المسكين أن يضع حداً لكل هذا . ثم إن « الأب » يتقدم نحوها فى قسوة ويكشف النقاب الأسود عن وجهها الشاحب الذى يشبه قناعاً من الشمع ويدعو المخرج والممثلين للتملى منها كأنه يريد أن يفضحها . إن الأم تتعذب عذاباً شديداً وهى تبغض أن تشارك فى هذه الفكرة الغريبة التى امتلأ بها خيال الأب وسيطرت على عقله ووجدانه . إنها لا تريد أن تكون شخصية فى رواية مسرحية وقد سيقت إلى هذا المكان سوقاً .

ويجد المخرج نفسه فى تيه من الألغاز . إن الأب يقول إن هذه السيدة زوجته وهى مع ذلك تبدو فى ثياب الحداد لأنها ترملت منذ شهرين . وكيف تكون الزوجة أرملة وزوجها حى يرزق ؟ لابد من استيضاح كل ذلك . لا شك أن لهذه الأسرة قصة فريدة . فليس غريباً إذن أن ينسى المخرج عمله وأن يتجه بكليته إلى هؤلاء القوم ليستجلى حقيقة أمرهم .

ويحاول الأب أن يفسر الأمر فيقول إن الأم تلبس ثياب الحداد على عشيقها. الذى مات منذ شهرين وأن مأساة الأم هى فى بنيها الأربعة الذين جاءت بهم من رجلين .

وتحتج الأم بأن زوجها هو الذى دفعها إلى هذا العشيق دفعاً وأجبرها على أن تلجأ إليه إجباراً . ويروى الأب ما حدث فنعلم أنه استخدم رجلا فقيراً سكرتيراً له ، وأخلص له هذا الرجل إخلاصاً شديداً فنشأت بينه وبين الأم صداقة قوية . ولكنها كانت صداقة نقية لا تشوبها شائبة وليس فيها إلا تعاطف روحى عميق . وأدرك الأب ما بين الأم وبين هذا الرجل من حب عميق فطرد السكرتير من خدمته . فاستسلمت الأم ليأس قاتل وغدت تهيم فى البيت كالكلب الذى فقد سيده . ثم نزع الأب من الأم الابن لينشأ بعيداً عنها نشأة صحيحة . وكان بعد وليداً ، فعهد

به إلى مرضعة فى الريف . وأخيراً طرد الأب الأم من بيته لتتحرر من قيده أو ليتحرر من قيدها . فلحقت الأم بمن تحب وعاشت معه أعواماً طوالا فى مكان مجهول وأنجبت منه أبناءها الثلا ثة الأخر ، وهم ابنة الأم والغلام والطفلة . ثم مات العشيق وتركهم فى عوز شديد . فاشتغلت الأم خياطة في محل للأزياء يرتاده سراة القوم وتديره قوادة عجوز بدينة تدعى مدام باتشى . وكانت مدام باتشى تتخذ من مشغلها مكاناً تجمع فيه الرجال بالنساء . وقد استطاعت أن تستغل فقر الأم وبنتها لتستدرج الابنة إلى الخنا على غير علم أمها . ثم تطورت الأمور تطوراً محزناً؛ فقد كان الأب من رواد مشغل مدام باتشى . وذات يوم قصد المشغل كالمعتاد وأوشكت ابنة الأم أن تكون فريسته على غير علم لولا أن لطف به القدر فأنقذه وأنقذها وأنقذ الأم جميعاً من هذه المأساة التى كادت أن تتم . فقد دخلت الأم على غير انتظار وحين رأت ما رأت أعولت وولولت وعرفت الأ ب أن البنت بنتها . وحين أدرك الأب حقيقة الموقف وعلم ما آ لت إليه أسرته عاد بالأم وابنتها وغلامها وطفلتها إلى داره . ولكنه نقلهم بذلك من طبقة فى الجحيم إلى طبقة أشد منها عذاباً . فقد كان ينتظرهم فى دار الأب ذلك الابن المتغطرس الذى أذلهم بكبريائه وعاملهم معاملة الدخلاء فأغلق فؤاده دون أمه واضطهد ابنة أمه حتى آ ثرت التسكع فى الشوارع على الإقامة إلى جواره وأرهب الغلام حتى حطم كل معنوياته فغاضت منه الحياة وانتهت حياته نهاية فاجعة .

هذه هى القصة التى سمعها المخرج واهتز لها ووجد فيها العناصر اللازمة لبناء مسرحية عظيمة فقرر أن يتبنى الفكرة . ولم يكن هناك مؤلف يستعين به على صياغتها ولكن الأب أغراه بأن يقوم هو بهذه الصياغة فاستسلم المخرج لهذا الإغراء .

٢

وانتهى المخرج إلى طريقة بارعة . إنه ليس بحاجة إلى كتابة هذه المسرحية ؛ ولو أنه أراد لما استطاع . فما هو بكاتب . ثم إنه ليس بحاجة إلى كاتب . فما من كاتب مهما بلغت موهبته يستطيع أن يضيف بفنه إلى هذا الفن الذى خلقته الحياة أو يخلق بخياله شيئاً يتجاوز منطق الحياة . وإنما يكفى أن يجعل هذه الشخصيات

الست ذاتها تتحرك على المسرح ويمثل كل الدور الذى فرضته عليه الحياة ليخرج من هذا بمسرحيته المنشودة .

وهكذا يطلب المخرج إلى الملقن أن يعكس وظيفته فى عالم المسرح فلا يلقن أحداً ولكن يصغى إلى من يلقنه الحوار الذى دار بين أفراد الأسرة وأن يدوّن ما يسمع بالاختزال حتى لايضيع شىء . كذلك يطلب المخرج إلى الممثلين والممثلات أن ينتبهوا فى يقظة تامة إلى كل حركة من حركات هذه الشخصيات التى تعيد على خشبة المسرح تمثيل ما كان بينها من مشاهد فى الحياة . أما عامل الديكور فيطلب المخرج إليه أن يعد المنظر اللازم لتمثيل هذه المسرحية .

وماذا يكون ؟ المنظر ؟ إنه تلك الغرفة الآثمة فى مشغل مدام باتشى حيث التقى الأب بابنة الأم . فهناك واجهة محل الأزياء وهناك الكنبة الكبيرة الصفراء وهناك المائدة الصغيرة المصنوعة من خشب الموجنة وعليها الظرف الأزرق الذى دس فيه الأب مائة ليرة ووضعه الأب على المائدة الصغيرة ثمناً لزيارته . وهناك المرآة . وهناك المشاجب التى علقت عليها الثياب . وهناك قبعات النساء المعلقة . وهناك ستار هو ذلك الستار الذى تتوارى خلفه النسوة ليتجردن . وهناك الممثلون فى جانب من المسرح يترقبون ما سيجرى ليتعلم كل دوره .

ويمثل الأب والابنة بعض ما دار بينهما فى تلك الغرفة :

الأب (يتقدم ويتكلم بنبرة مختلفة) : مساء الخير يا آنسة !

(تطأطئ رأسها قليلا وهى تكتم اشمئزازها) : مساء الخير !

الأب (يتأمل وجهها من تحت قبعتها التى تخفى بعض وجهها . وحين يلاحظ أنها حديثة السن جداً تبدر منه صيحة بعضها لاستغرابه وبعضها لخشيته أن يتورط فى مغامرة لا قبل له بها) : آه . . . ولكن . . . آه . . . أحب أن أعرف . . . إن هذه ليست أول مرة تأتين فيها إلى هذا المكان ؟

ابنة الأم (فى حياء) : كلا يا سيدى .

الأب : إذن فقد جئت هنا من قبل ؟ (يراها تومئ بالإيجاب) أكثر من مرة (ينتظر ردها ويتطلع إليها من قبعتها ويبتسم ثم يقول) إذن فلا داعى لكل هذا الحياء . أتسمحين لى بأن أخلع عنك قبعتك ؟

ابنة الأم (تسبقه وهى تستر اشمئزازها) : كلا يا سيدى ... سأخلعها بنفسى (تخلع قبعتها بسرعة) .

وحين يبلغ المشهد هذه المرحلة تشهق الأم وتصرخ قائلة : « يا إلهى يا إلهى ! » وتخفى وجهها من فرط العار ، وإلى جوارها الابن وقد التصق بها الغلام والطفلة . ويتعذب الجميع لفظاعة الموقف . ويمضى الأب فى تودده لبنت الأم فيعرض عليها أن يبتاع لها قبعة جديدة جميلة تليق برأسها الجميل . ولكنها ترفض ، لا عفة منها ولكن لأن القبعة الجديدة لا تتناسب مع ثياب الحداد التى تلبسها .

وقد كانت الابنة تحب أن تمضى فى تمثيل الحقيقة كاملة لولا أن المخرج يستوقفها عند هذا القدر قائلا إن تصوير « الحقيقة » ليس عمل الفن .

بنت الأم : ولكن هذه هى الحقيقة !

المخرج : وما أهمية ذلك ؟ إن عملنا هو التمثيل . نحن نلتزم الحقيقة إلى حد ما ، ولكننا لا نتجاوز هذا الحد .

نعم إن المخرج مقيد بتقاليد المسرح . ومن الأمور ما لا يجوز عرضه على الجمهور لأنه فاضح يثير الاشمئزاز . ويبعث على القىء . كذلك من الأمور ما لا يفيد عرضه على الجمهور لأنه بمثابة دراما باطنية . والأب والابنة هنا طرفا نقيض . أما الأب فعنده أن لب الحقيقة فى مأساته هو تأنيب الضمير وهو يريد أن يسخر كل شىء فى المسرحية لتدوين ما يعتمل فى نفسه من وخز الضمير . وأما الابنة فهى ترى أن قصتها كما حدثت فعلا فى تلك الغرفة المشئومة هى أهم ما فى الموضوع وهى تريد إلى المخرج أن يجعل منها المحور الذى يدور حوله كل شىء .

ابنة الأم : . . . لقد فهمت إنه يريد أن يصل إلى عرض « الدراما الذهنية » المعقدة التى تنهش نفسه وأن يجعلكم تمثلون ندمه المشهور وقصة عذابه ، ولكنى أريد أن أمثل دورى . . . دورى أنا .

ولكن المخرج يرى غير هذا الرأى ، فلو أن المؤلف المسرحى سمح لكل بطل من أبطاله أن يعرض كل مشاكله الباطنية على الجمهور لانتهى الفن وتحولت المسرحية إلى سلسلة من المحاضرات .

أما الأم فتنتحب ، وحين تعجز عن احتمال رؤية هذا الذى يجرى أمامها

تتقدم لتحول بين الأب وابنتها صائحة :

« أيها الوحش إنها ابنتى ! إنها ابنتى ! ألا ترى أنها ابنتى » !

ويرقص المخرج طرباً لروعة هذا التمثيل فيصيح قائلا : « ليس هناك ما هو أبدع من ذلك ! ثم يلى هذا ستار » !

نعم لقد كان الجميع يمثلون أما الأم فلم تكن تمثل . لقد كان قلبها يتمزق . كذلك كان الغلام الواجم المأخوذ يحمل فى صمته أبلغ الآلام . .

٣

وهكذا ينتقل أفراد الأسرة بالمخرج والممثلين إلى حديقة دار الأب وذلك بعد عودة الأم وابنتها وغلامها وطفلتها إلى الدار .

ويجد المخرج عسراً شديداً فى التفاهم مع هذه الشخصيات الباحثة عن مؤلف ، فهو ينظر إلى مأساتهم نظرة فنية وهم ينظرون إليها نظرة فلسفية . فهم يصرون دائماً على إبراز المعانى النفسية التى تعتمل فى نفوسهم كالندم « الأب » والتوبة « الأم » وشعور الفريسة « ابنة الأم » ، أما المخرج فيصر على طمس كل شخصية بالقدر الكافى الذى يجعلها تدخل فى الإطار الفنى العام . وهم يصرون على نقل الحقيقة بحذافيرها إلى عالم الفن أما هو فيصر على أن الفن هو مجرد الإيهام بالحقيقة .

المخرج : إن ما نخلقه للجمهور هو وهم بالحقيقة .

الأب : فهمت ، ولكن ربما كنت لا تفهمنا . أطلب عفوك ! أنت ترى أن المسألة بالنسبة لك ولممثليك هى مجرد لعبة . وأنتم على حق فى ذلك .

الممثلة الأولى (تقاطعه غاضبة) : لعبة ! نحن لسنا أطفالا نلعب ، أرجوك أن تذكر ذلك ! نحن ممثلون جادون .

الأب : لست أنكر ذلك . وإنما قصدت لعبة منكم التى تخلق كما يقول السيد الوهم الكامل بالحقيقة .

المخرج : بالضبط . . . ؟

الأب : فإذا تذكرتم أننا (يشير إلى شخصه وإلى الشخصيات الخمس الأخرى) بوضعنا الحالى ليست فينا أية حقيقة خارج هذا الوهم . . .

المخرج (ينظر متعجباً إلى ممثليه الذين يشاركونه العجب) : وما معنى هذا الكلام ؟

الأب (بعد أن يرقبهم لحظات وعلى شفتيه ابتسامة كاسفة) إن ما هو عندكم لعبة الفن هو عندنا حقيقتنا الوحيدة كما ذكرت قبلا يا سيدى .

والأب لا يأتى القول على عواهنه بل إن له منطقاً يثبت به أنه لا وجود للحقيقة خارج الشخصيات التى يخلقها الفن أما ما يسمونه عالم الحقيقة فهو محض وهم وخداع .

الأب (صائحاً) : كلا يا سيدى ! هذا لا ينطبق على حقيقتنا ! فكر معى ! إن هذا هو الفرق الجوهرى ! فحقيقتنا لا تتغير ولا تستطيع أن تتغير ! إنها لا تستطيع أن تختلف عما هى لأنها قد حددت فى الزمن الماضى إلى الأبد . وهذا فظيع . إن حقيقتنا حقيقة ثابتة لاصيرورة فيها وهذا يجعلك ترتعد إن رأيتنا وأنت تعى حقاً . إن حقيقتك مجرد وهم عابر يتخذ هذه الصورة اليوم وتلك الصورة غداً بحسب الأحوال وطبقاً لإرادتك وعواطفك وهى نفسها أشياء يحكمها عقلك الذى يصورها لك اليوم فى صورة معينة ويصورها غداً . . من يدرى فى أية صورة يصورها لك غداً ؟ إنها أوهام بالحقيقة تتمثل فى كوميديا الحياة هذه التى لا تنتهى ولا يمكن أن تنتهى أبداً ! فلو قد انتهت غداً لانتهى . . . لانتهى كل شىء . نعم . عند الأب أن كل حقيقة لابد أن تكون ثابتة . أما ما يطرأ عليه التغير وتجرى عليه الصيرورة فهو وهم زائف مهما بدا لنا فى صورة الحقيقة . إنه يتفلسف . والمخرج الحريص على وقته وفنه يزجره لهذا التفلسف . أما هو فيرى غير ذلك . إنه يبدو كالمتفلسف لمن يغمض عينيه عمداً ليعمى عن الحقيقة . أما من يجابه الحقيقة بعين مفتوحة فهو لا شك يستطيع أن يرى كلامه بسيطاً وسليماً ومتماسكاً . وأكثر الناس يعتقد أن إعماء النفس أقرب إلى « الإنسانية » من التحديق فى الحقيقة ولكن الناس مخطئون فى هذا الاعتقاد .

الأب : . . . فالإنسان لا يفكر بعقله تفكيراً عميقاً ويذهب إلى استبطان دخيلة نفسه إلا حينما يتألم ودافعه إلى ذلك رغبته فى الوصول إلى آلامه وفى التعرف على مسببها ، والوقوف على ما إذا كان يستحقها أو لا يستحقها . وعلى العكس من ذلك

نجد أن الإنسان يستقبل سعادته حسبما تجيئه دون أن يحللها ، كأنما السعادة حق من حقوقه . إن الحيوان يتألم دون أن يفكر فى ألمه . ولكن الإنسان إذا بدأ يفكر فى ألمه . . لا ، لا . يجب ألا يسمح بهذا ! فليتألم الإنسان كما يتألم الحيوان . . . وعندئذ نقول إنه « إنسان » .

ويعود أفراد الأسرة إلى تمثيل النهاية التى آلت إليها الشخصيات الست بعد أن اجتمع شملهم فى دار الأب . فالغلام المضطهد يجوس خلال الحديقة مختبئاً وراء الأشجار والطفلة تلعب فى الحديقة إلى جوار النافورة . ويسترجع أفراد الأسرة مشهداً فظيعاً دقيقاً محوره الابن . فالأم الشقية التى حرمت من الابن طول هذه السنين تقبل عليه لتفتح قلبها له فيعرض عنها . ويرفض الابن أن يشترك فى استرجاع الماضى ويهدد بالانصراف . فتتحداه ابنة الأم أن ينصرف فيعجز عن الحراك كأنه مشدود إلى أسرته بوثاق من حديد . ويحتج الابن بأنه لم يكن هناك « مشهد » بينه وبين أمه . فهو قد انصرف عنها ليتجنب المشهد . وتدنو منه الأم مستعطفة ولكن لا يستجيب . فيثور أبوه ويأمره بأن يخاطب أمه ولكنه يأبى .

الأم : أنا مستعدة . . . فى أى وقت تكون أنت فيه مستعداً . ليتك تهيئ لى فرصة التحدث إليه والإفصاح له عما أشعر به فى قلبى .

الأب (يتجه إلى الابن فى هياج شديد) : أنت فاعل هذا من أجل أمك . . من أجل أمك . . . أتفهم هذا ؟

الابن (فى تصميم) : لن أفعل شيئاً !

الأب (يمسكه ويهزه هزاً) : بحق الله افعل ما آمرك به ! ألا تسمع أمك تسألك أن تصنع لها هذا الجميل ؟ ألا تقوى حتى على شعور البنوة ؟

الابن (يمسك بالأب) : كلا ! كلا ! كفى . كفى بحق الله ، وإلا . . .

(اضطراب عام . تجزع الأم وتحاول أن تفرق بينهما) .

الأم (مستعطفة) : أرجوك ! أرجوك !

الأب (ممسكاً بالابن) : لابد أن تطيع ، ألا تسمع كلامى؟

الابن (يوشك أن يصرخ من فرط الغضب) : ما معنى هذا الخبل الذى اعتراك ؟ (يفترقان) ألم يعد لديك أى شعور بالشرف حتى تصر على إطلاع كل

الناس على عارنا ؟ لن أفعل ذلك . بأمر من خالقنا الذى رسم لنا هذا الطريق لم يكن فى مشيئته أن يعرضنا على المسرح .

إنه قد جاء على كره منه ، لأن أباه جذبه وراءه جذباً . إن المخرج يسأل عما حدث . لم يحدث شيء بينه وبين أمه ، فقد ازور عنها يوم جاءته وانطلق إلى الحديقة وفى الحديقة رأى خاتمة المأساة . رأى الطفلة غرقى فى النافورة ، وكانت أمه تتبعه ، وقفز فى الماء لينتشلها فرأى مشهداً جمد له دمه . رأى الغلام واقفاً متخشب الجسد ينظر كالمجنون إلى أخته الصغيرة الغريقة ، فى النافورة ثم . . ثم ماذا ؟ ثم يسمع على المسرح صوت طلقة نارية آتية من وراء الأشجار حيث كان الغلام يختفى .

وتندفع الأم إلى مصدر الطلقة ويندفع معها بعض الممثلين ويسود اضطراب عظيم وتصيح الأم قائلة : يا ولداه ! يا ولداه ! وتستغيث طالبة النجدة . ويسأل المخرج قائلا :

المخرج : هل جرح حقـًا ؟

بعض الممثلين : لقد مات ! لقد مات !

البعض الآخر من الممثلين : كلا . كلا . إنه مجرد وهم . مجرد وهم .

الأب (وهو يصرخ صرخة فظيعة) : وهم ؟ إنها حقيقة يا سيدى . إنها حقيقة ومن يدرى إن كان الأمر وهماً أم حقيقة ؟

وعلى الحالين فإن المخرج كان فى اضطراب عظيم . لقد أضاع يوماً كاملا على هؤلاء القوم الذين امتزجت فيهم الحقيقة بالأحلام .

الحضيض

للكاتب الروسى مكسيم جوركى

هو فندق من فنادق الفقراء تدور فيه جميع الحوادث : ولا نتنقل منه إلا قليلا حين نطل على ما حدث فى الأرض الخراب الواقعة خلفه . وصاحب هذا الفندق رجل يدعى ميخائيل كوسيليوف له زوجة شرسة تدعى فاسليسيا ومعهما تقيم أخت الزوجة الفتاة ناتاشا ، وعليهم يتردد عمها وهو شرطى اسمه مدفيديف .

أما نزلاء الفندق فهم جماعة من حثالة القوم الذين هبطوا إلى حضيض الحياة وطائفة من فقراء العمال ونفر من المتشردين . . ومن بين هؤلاء لص شاب يدعى فاسكا بيبيل وصانع أقفال يدعى كليشتش ، ومعه زوجته المريضة آنا ، ومومس تدعى ناستيا وبارون سكير ليس له اسم يعرف به ، وإنما يلقبه الجميع بالبارون ، وهو أرستقراطى سابق أخنى عليه الدهر وسوء سلوكه حتى انتهى هذه النهاية بين رعاع المجتمع ، وممثل كان فى يوم من الأيام نجماً لامعاً من نجوم المسرح ، أو هكذا كان يقول ، ولكنه أفرط فى الشراب وغدا لا يفيق فهوى كصاحبه إلى الحضيض ثم عاطل اسمه ساتين وصانع قبعات اسمه بوبنوف وصانع أحذية اسمه أليوشكا وبائعة فطائر اسمها كفاشنيا ، وحمالان أحدهما يدعى زوب والآخر يلقب بالتترى . ويهبط على هذه الأشتات رجل عجوز دائم الترحال يدعى لوكا ، جاء من المجهول ثم انطلق إلى المجهول ، ولكنه ترك أثناء إقامته بينهم فى كل نفس من نفس هؤلاء الأشقياء بصيصاً من الأمل ، ولو إلى حين .

وينام نزلاء الفندق فى قبو كبير أشبه بكهف من الكهوف . فيه نافذة يدخل منها الضوء . وقد اتخذ اللص بيبل من الجانب الأيمن فى القبو ركناً جعل منه غرفته وأحاطه بألواح من الخشب الرقيق ليعزله عن بقية القبو . وإلى جوار غرفة بيبل نرى فراش بوبنوف صانع القبعات ، وهو دكة من خشب . وفى أيسر القبو مدفأة روسية جسيمة . ثم باب يفضى إلى المطبخ حيث ينام ثلاثة ، وهم البارون

والمومس ناستيا وكفاشنيا بائعة الفطائر . وبحذاء الحائط اصطفت الدكك الخشبية التي ينام عليها النزلاء ، وفى وسط القبو مائدة كبيرة وبنكان ومقعد خشبي وقد جلس كليشتش يجرب بعض المفاتيح فى بعض الأقفال ، وجلست كفاشنيا بائعة الفطائر تعد الشاى فى السامو فار ، وجلست ناستيا عند المائدة تقرأ كتاباً صحائفه مهلهلة ، وعلى فراش تخفيه ستائر رقدت آنا زوجة كليشتش صانع الأقفال وهى تسعل سعالا شديداً . وجلس بوبنوف يصلح من سروال قديم ، ورقد ساتين على دكته وقد استيقظ لتوه من النوم فنحن لا نزال فى الصباح الباكر من يوم من أيام الربيع ، أما الممثل فهو راقد فوق المدفأة يتقلب فى نومه .

وفى مثل هذا الجو المزدحم يبدأ اليوم بالشحان وينتهى بالشحان . فبائعة الفطائر كفاشنيا تروى كيف أن فتى عاشقاً طلب إليها الزواج منه ولكنها رفضت طلبه لأنها امرأة حرة لا تقبل أن تدخل تحت نير زوج يضربها ويستعبدها ولو كان هذا الزوج أميراً أمريكيًّا ! ويستمع كليشتش إلى كلامها فى احتقار قائلا : إنها كاذبة فيما تدعيه . أما البارون فيخطف الكتاب الذى تقرؤه ناستيا فى انهماك شديد ، ويوسعها سخرية ؛ فالكتاب قصة غرامية مثيرة اسمها « الحب القاتل » وهى حمقاء تضيع وقتها فى هذا الهذر الفارغ . ويرتفع سعال آنا وتطل برأسها من وراء الستار وترجو من هؤلاء الصائحين أن يتركوها تموت فى هدوء ، فهى تحس أنها قد أشرفت على الموت ، فيجيبها زوجها كليشتش إن الضجة لم تمنع إنساناً قط من الموت . وتعير كفاشنيا كليشتش بأنه المسئول عن قتل زوجته المحتضرة آنا لكثرة ما أنزله بها من ضرب وتعذيب ، ثم تتأهب كفاشنيا للخروج لبيع الفطائر فى السوق .

ويوقظ كليشتش الممثل النائم على المدفأة فى غلظة وعنف ، فاليوم دوره فى كنس الدار ، والممثل راغب عن ذلك يصطنع الرقة وضعف البنية ، بل يصر على أن الدور دور البارون فى الكنس والتنظيف . ويعتذر البارون عن هذا الواجب لأنه ساع إلى السوق فى صحبة كفاشنيا ، قائلا إن ناستيا ستقوم بالكنس نيابة عنه . وتأبى ناستيا أن تفعل ذلك فيقع الاختيار على الممثل الذى يحتج بكامل قوته زاعماً أنه فريسة الاضطهاد ، فهو دائماً يسخر لكنس الدار . ثم إنه مريض لأن الكحول

سمم جسمه من إدمان الشراب ، وصدره لم يعد يتحمل الغبار المتصاعد من الكنس ويقف الممثل بينهم فى حركة مسرحية ، ويذكر كيف كان يمثل دور هاملت ، ويشترك ساتين فى هذا الجدل الذى لا ينتهى حول سفاسف الأمور . ولكن مشكلة ساتين من نوع آخر ، فهو يقول إنه كان رجلا مثقفاً فى يوم من الأيام ، يقرأ من الكتب عدداً لا نهاية له ، ولكن ما كان يسحره فيها لم يكن المعانى بل الألفاظ . ولم يكن هذا شيئاً عجيباً ، فقد كان ساتين قبل انهياره باحتساء الخمر موظفاً فى التلغراف يرسل الكلمات بالبرق ويستقبل الكلمات . وكان يحفظ عدداً عظيماً من الكلمات الصعبة الطويلة ويقول إن التعلم هو كل شىء فى الحياة . فيعارضه الممثل بقوله إن الموهبة هى كل شىء فى الحياة . ويؤيد ساتين كلامه بما حفظه من كلمات صعبة طويلة لا يفهم لها معنى . ويؤيد الممثل كلامه بما حفظه من أدوار الأبطال فى التمثيليات ، أو على الأصح بما بقى فى ذاكرته من هذه الأدوار التى كانت عماد حياته فى يوم من الأيام . ما دامت معه الرصاصة الفضية .

وفيما الجماعة تتجادل يهبط عليهم كوستيليوف صاحب الفندق ويطرق الألواح التى تتكون منها حجرة اللص بيبل ويناديه بأعلى صوته . ويشيع بين الجماعة حرج خفيف ، فهى تعلم أن فاسيليا زوجة صاحب الفندق خليلة فاسكا بيبل وهى كثيراً ما تقضى الليل معه وراء هذه الألواح الحاجزة . ولعل كوستيليوف قد جاء باحثاً عن زوجته عند بيبل . ويفتح بيبل بابه ويخرج إلى كوستيليوف ليستفهم عن الخبر . ويطل كوستيليوف داخل الحجرة ويجيل فيها بصره باحثاً عن زوجته فى صمت ، ويصيح فيه بيبل قائلا : « أجئت بالنقود » ؟ ويتأتم كوستيليوف قليلا . إن بيبل ، وهو لص يعيش مما يسرق ، سرق ساعة وباعه إياها لقاء عشرة روبلات لم يتقاض منها إلا ثلاثة ، وهو فى انتظار الباقى . ولكن كوستيليوف الذى جاء باحثاً عن زوجته ولم يأت ليتحاسب ينصرف على عجل من حيث جاء .

ويتندر ساتين والممثل بهذا المرقف الشاذ ويهنئان فاسكا بيبل على صيده الثمين ، أى على اصطياده ربة الدار ، ويوحيان إليه أن يستخدم ذكاءه فيتخلص من زوجها ويصبح هو رب الدار . ولكن اللص بيبل يعيرهما بتعطلهما ويجيبهما قائلا إنه لو فعل ذلك لأتيا على كل ما له بالسكر والعربدة .

ويشمئز كليشتش من هؤلاء القوم المنحطين اللذين فقدوا الضمير . إنه صانع شريف يصلح الأقفال ، وقد قذف القدر والفقر به وبزوجته المريضة منذ ستة شهور إلى هذا الفندق الوضيع ليعيشا فى هذا الحضيض بين حثالة الناس . وحلمه الأوحد الآن أن تمكنه ظروف الحياة من الفرار من هذا الحضيض ، فهذا بيبل يعيش من اللصوصية ويعاشر زوجة صاحب الفندق ثم يفلسف كل هذه الخسة بقوله « إن الشرف والضمير ترف يصلح للأغنياء » وهذا بوبنوف صانع القبعات يباهى بأن أمثاله من الفقراء بغير حاجة إلى ضمير . نعم . لسوف يزحف كليشتش على أربع ليخرج من هذا الوجار القذر حين تموت زوجته أو تبرأ من علتها .

وتدخل فاتاشا أخت فاسيليسيا الصغرى بنزيل جديد يدعى لوكا وهو عجوز حزم كل ما يملكه من حطام الدنيا فى ربطة يحملها على ظهره وقد تدلت غلاية وإبريق شاى من حزامه . وغير هذا لا يملك إلا عصاه . ولكن هذا العجوز لوكا رجل طيب القلب فتح فؤاده لجميع البشر ، فهو لا يتأفف من صحبة اللصوص والسكيرين والكسالى المتعطلين . بل يأنس إلى كل من حوله ويتقبلهم على علاتهم ، بل ويحاول أن يعينهم على الحياة ما وجد إلى ذلك سبيلا . فهو صاحب فلسفة جميلة ونفس راضية تزين كل شىء فى الحياة بإطار من ذهب وترى فى أبشع الأمور وجوهاً تجعلها سائغة للنفس .

ويطارح اللص بيبل الفتاة ناتاشا غرامه فتصده عنها . فهى تعلم بصلته بأختها ، وهى بنت جادة شريفة تحمل لبيبل وداً عظيماً وترجو له أن يروض نفسه على الاستقامة والشرف . أما كليشتش فيحذره ساخراً من خليلته فاسيليسيا التى لن تفرط فيه لامرأة أخرى . ولو كانت أختها . إلا بعد أن تتركه جثة هامدة .

ويرى البارون أن الحفاوة بالقادم الجديد لوكا العجوز تقضى بفتح زجاجة من الخمر واحتسائها فى صحته . واللص بيبل وحده هو الذى يملك هذه الزجاجة . أما بيبل فهو يشترط على البارون السكير قبل فتح الزجاجة أن يمشى على أربع وأن ينبح كالكلاب . ليدخل البهجة فى نفسه فإن لم يفعل ذلك فلن يذوق الخمر . قائلا إن متعته فى إذلاله متعة سخيفة ، فأى متعة فى إذلال رجل مثله يعلم أنه انحط إلى درك أسفل من الدرك الذى انحط إليه اللص بيبل نفسه ؟ ويحلم البارون قليلا

بأيامه الغابرة حين كان خدمه يأتونه بقهوة الصباح فى فراشه ، وهو يكلم أقرانه فى هذا الحضيض بتعال واحتقار ، فقد بقى له بعض مجده القديم رغم ما آل إليه من انهيار تام ، ثم ينطلق فى أعقاب بيبل ليأتيا بالزجاجة ، فيكون تعليق لوكا على ما رآه من صلفه. إن الأرستقراطية كالجدرى، قد يشفى منه الإنسان ولكنه يترك آثاره .

ويدخل صانع الأحذية الشاب أليوشكا وهو ثمل بعض الشىء يحمل آلة موسيقية هى الكونسرتينا، وتطارده صاحبة الدار فاسيليسيا ، وتأمره بمغادرة الفندق ، أما سر غضبها عليه فهو أنه أبلغها أن بيبل قد سئم عشرتها، وأنه يسعى للزواج من أختها ناتاشا . ويعلو صياح فاسيليسيا حين تجد أن الغرفة لم تكنس بعد . وحين تبدى لنزلائها من سلاطة لسانها ما يضيقون به يحل لوكا الإشكال فيتطوع لكنس الغرفة . ولكن فاسيليسيا فى حقيقة الأمر ما جاءت إلا لتبحث عن بيبل وناتاشا وتتشاجر معهما وحين لا تجد طلبتها تنصرف وهى تهدر . ولا ينقضى وقت طويل حتى تسمع الجماعة أصواتاً مضطربة فى الغرفة المجاورة ثم صياحاً مختنقاً ولكمات متعاقبة ، ويظهر كوستيليوف فى الباب طالباً النجدة قائلا إن زوجته فاسيليسيا تحاول أن تقتل أختها ناتاشا فينطلق بوبنوف والآخرون لإنقاذ ناتاشا ، ولا يتبقى فى الغرفة إلا لوكا العجوز الذى يكنس الغرفة وآنا المريضة التى تنسى آلامها لحظة لترثى لناتاشا المسكينة .

* * *

وينقضى النهار بخيره وشره ، ويتجمع نزلاء الفندق ليلا فى حجرتهم الواسعة ، فيغنى بوبنوف والحمال زوب أغنية تقول : « تشرق الشمس وتغرب ، ولكن سجنى مظلم معتم . . » . ويجلس الحمال التترى واسمه حسن مع ساتين السكير والبارون والممثل يلعبون الورق ، ولكن تسليتهم هذه تنتهى بالشجار لأن البارون يغش فى اللعب . ويجلس العجوز الطيب لوكا مع آنا المحتضرة يسرى عنها كربها ويعدها بأن الله سيلطف بها حين تنتقل إليه ويقول : « أنا أعرف آنا هذه . فخذها إلى الفردوس لتستريح ، فقد كانت حياتها على الأرض شاقة ، وهى منهكة فدعوها تستريح » ، ويلتحم اللص بيبل مع الشرطى ميدفيديف عم ناتاشا وفاسيليسيا ، فالشرطى ثائر على هذا اللص الذى لا يسرق المال فحسب ، بل يسرق زوجات الآخرين

كذلك ، وهو الآن يريد أن يغرر بناتاشا . ويهدد الشرطي بيبل باعتقاله فيتوعده بيبل بأنه سيعلن أمام المحققين أن الذى دفعه إلى اللصوصية وتستّر عليه كل هذا الوقت هم آل كوستيليوف الذين ينتفعون من مسروقاته أما العجوز الطيب لوكا فهو يعلم أن اللص بيبل يحب ناتاشا حبًّا صادقاً ويريد أن يتزوج منها وأن يكون أسرة شريفة تحيا حياة مستقيمة ، وهو يرى أنه لا أمل له فى شىء من ذلك إلا إذا خرج من هذا الوجار القذر الذى يلوث روح الناس ورحل إلى مكان قصى كسيبيريا ليبدأ فيه الحياة من جديد بالجد والكد لا بالسكر واللصوصية . ولوكا بحكمته يرى أن الحياة يمكن أن تكون جميلة ونظيفة فى كل مكان ، حتّى فى سيبريا .

وتدخل عليهم فاسيليسيا وتصر على الانفراد بخليلها وتعنفه على هجرانها وعلى انصرافه إلى أختها ناتاشا ، ولكنها تتظاهر بقبول ما حل بها ، بل وتعرض عليه عرضاً غريباً ، فإذا كانت رغبته أن يتزوج من ناتاشا ، فهى ستعينه على تحقيق هذه الرغبة بإعطائه كل ما يطلب من مال . ولا تشترط عليه فى سبيل ذلك إلا شرطاً واحداً ، وهو أن يخلصها من زوجها كوستيليوف الذى تمقته كل المقت . ولكن بيبل الحصيف يدرك حيلتها الإجرامية ؛ فلو نفذ خطتها لكان لها ما تريد من انتقام وانتصار : القبر للزوج البغيض والمشنقة للعشيق الغادر ، أما هى فلها الحرية الداعرة والمال الوفير .

ويقبل عليهما الزوج مهتاجاً ويأمر زوجته بأن تأوى إلى فراشها ويتبادل كوستيليوف وبيبل قارس الكلام ، ويلتحمان بالأيدى ويوشك بيبل أن يخنق كوستيليوف بيديه القويتين لولا أنه يتذكر فاسيليسيا وما طلبت فيفرج عن عنقه ويخرج الزوج من الحجرة صائحاً مستغيثاً . ويعود لوكا إلى فكرته الأولى قائلا لبيبل إنه لا نجاة له من مخالب فاسيليسيا إلا أن يهرب مع أختها ناتاشا إلى أى مكان آخر مجهول ، وبهذا ينجو من كارثة محققة ، ويبدأ صفحة جديدة فى حياته ، فيقتنع بيبل بصدق رأيه .

أما الممثل الذى سمم الكحول ولوث روحه فقد هداه لوكا العجوز أيضاً إلى رأى يحل جميع مشاكله ؛ إن فى البلاد الآن مصحات يأوى إليها مدمنو الخمر فلا يخرجون منها إلا وقد برئوا من علتهم وإنه لماض إلى مصحة من هذه المصحات .

وفيما هم يتجادلون فى كل هذا يكتشفون أن آنا المسكينة قد برئت أيضاً من علتها

فقد فاضت روحها فى صمت فى حين كان زوجها كليشتش يحتسى الخمر فى حان الفندق وتجتمع هذه الحثالة من الناس غلاظ القلوب حول الجثة ، فلا تسمع منهم كلمة واحدة تدل على احترامهم لجلال الموت . وينامون بجوار الجثة حتى الصباح ، حين يعدون العدة لدفنها .

* * *

وهكذا تمضى الأيام على هذا النسق فى هذا الحضيض فنزلاء الفندق ماضون فى حياتهم الوضيعة التى اختلط فيها الشراب والميسر والفجور وفحش السباب ولكن فى قلب كل منهم حلماً صغيراً ؛ فالمومس ناستيا تحلم بعاشق طاهر يحبها إلى درجة العبادة وتحبه إلى درجة العبادة عاشق من غير من ألفت من طلاب اللذة البهيمية الذين تبيعهم جسدها كل ليلة وتفرط ناستيا فى قراءة القصص الغرامية فيذكى هذا خيالها وتحلم بهذا الفارس المحب الذى سيأتى من المجهول ويطرح قلبه عند قدميها فتسلمه زمام روحها وتنجو به من هذا الحضيض . وهى لا تفتأ تحدث أقرانها من نزلاء الفندق بخبر هذا العاشق المجهول حتى ليرشك أن تختلط فى حياتها الحقيقة والأحلام . وهى تقول إن عاشقها طالب « جاءها ذات ليلة فى الحديقة بعد طول الانتظار فارتجفت لرؤيته خوفاً وأسى . وارتجف هو أيضاً وكان شاحب الوجه فى لون الجير . وكان يحمل فى يده « مسدساً » وقال لها : « يا من أحبها ولا أحب سواها إن والدى لا يوافقان على زواجنا ويتوعدانى بالتبرؤ منى من أجل حبى لك . ولذا فلا بد لى من التخلص من حياتى ، فهذه كانت كلماته . وكان مسدسه جسيماً ومحشواً بعشر رصاصات . . وقال : الوداع أيتها الرفيقة الحبيبة ! لقد استقر عزمى على طلب الموت . ولا رجعة فى ذلك . . فبغيرك لا أستطيع الحياة ! فأجبته قائلة : أى صديقى الماثل أبداً فى خاطرى ، أى راؤول » .

ويسخر البارون منها فى قسوة وغلظة ولا يرحم أحلامها ، فقد كان جلياً أن البغى ناستيا تتقمص شخصية غادة الكاميليا ، ويذكرها بأن عاشقها كان اسمه منذ أيام جاستون وليس راؤول . وينشب بينهما شجار عنيف ، فتعيره بالتبطل والسكر ويعيرها بالكذب واختلاق المحبين . ويتدخل لوكا ، فينهر البارون على قسوته ويدخل السكينة على قلب ناستيا ، فهو يصدقها . ولو كذبها جميع الناس ،

وهو يصدقها لأنه يعلم أن الألفاظ لا أهمية لها مهما كانت كاذبة وأن المهم هو ما وراء الألفاظ من معان سامية وعواطف صادقة . وهكذا تمضى ناستيا فى قصتها فترى كيف أنها حالت بين حبيبها وبين الموت قائلة إن الموت حق عليها وحدها ، ثم تغطى وجهها بيديها وتنتحب فى وداعة .

ويرق لها قلب ناتاشا ولكن بوبنوف والبارون يعودان إلى السخرية منها ويثور كليشتش فى وجه لوكا الذى يحاول أن يعزى كل إنسان ويشجع الناس على الفرار من حقيقة الحياة البشعة وخداع النفس بكاذب الأحلام . أما لوكا فهو يؤمن أن الحقيقة ليست كل شىء فى الحياة وأنها ليست سبيل السعادة فهى لا تؤسى الجراح فلا ضير إذن من التماس السعادة فى الأحلام . فهو مثلا يعرف رجلا يؤمن بوجود أرض الفضيلة ، وكان هذا الرجل يقول : « لابد أن هناك فى مكان ما من هذه الأرض أرض فاضلة حيث يعيش أخيار الناس، الذين يحترم بعضهم بعضاً ويعين بعضهم بعضاً ويسود بينهم الخير والسلام »، وكان هذا الرجل فقيراً أفقر ما يكون ، بائساً أبأس ما يكون ، ولكنه رغم ذلك طفق يجوب الآفاق باحثاً عن أرض الفضيلة ، ولكم صادف من مشقة وخيبة أمل ومع هذا فهو لم ييأس أبداً من بحثه عن هذا المصدر الأوحد لسعادته . حتى جاء يوم، وكان ذلك فى سيبيريا ، فالتقى هذا الشقى بسجين من السجناء ، وكان هذا السجين عالماً واسع العلم . فلما عرف بطلبه فتح كل كتبه وفرش كل خرائطه وذهب يبحث فيها عن أرض الفضيلة ولكنه لم يجد لها أثراً . وقال السجين العالم: هذه كتبى ، وهذه خرائطى ، كلها صحيحة تبين كل البلاد والأراضى والبحار ، فأرض الفضيلة لا وجود لها . وغضب الباحث الشقى ، فقد كابد وكابد فى هذه الحياة التاعسة بأمل واحد وهو أن يجد أرض الفضيلة فى يوم من الأيام . فلابد إذن أن تكون الكتب كاذبة وأن تكون الخرائط زائفة وأن يكون صاحبه العالم أفاكاً داعياً . وأحس بأن الرجل سلبه أعز شىء لديه وأعماه الغضب فلكمه لكماً أفقده البصر ، ثم انطلق إلى داره وشنق نفسه .

وهكذا الناس عند لوكا . كلهم باحث عن شىء أرقى وساع إلى حياة أفضل ، ومن جد وجد ، وليس أمامنا إلا أن نسأل الله أن يلهمهم الصبر فى بحثهم وسعيهم .

كذلك كان حال بيبل ، فهو قد غدا يعيش وفى قلبه حلم صغير . إنه سيطلق

اللصوصية طلقة بائنة . إنه سيذهب إلى سيبيريا مع ناتاشا حيث يبدأ حياة جديدة نظيفة . إنه غير تائب فمن كان بغير ضمير لا يعرف التوبة . ولكنه يحس بأن هناك حياة أفضل ، حياة تقوم على احترام النفس ، وكل هذا معلق بإرادة ناتاشا ، إن شاءت تحقق حلمه وإن أبت تبخر . أما ناتاشا فهي تحب أن تقبله زوجاً وأن تنطلق معه إلى الرحاب الواسعة ليبني حياته من جديد ، ولكنها تخشى أن يرتد بيبل إلى الحضيض ويجرها معه إليه . ولكن لوكا يبدد مخاوفها . إن بيبل يحبها حباً مخلصاً ، وهو رجل مكتمل الرجولة لا ينقصه إلا أن يثق فى نفسه حتى يحسن عملا ، وهو لن يثق فى نفسه إلا إذا وثقت هى فيه .

ويتفق بيبل وناتاشا على الرحيل . ويقرر لوكا الرحيل أيضاً ، فهو جوّاب لا يطيب له مقام فى مكان واحد . ولكن الأمور تتطور بغير ما دبروا . فحين تعلم فاسيليسيا وكوستيليوف بعزم بيبل على الهرب مع ناتاشا ، ينقضان على ناتاشا ويوسعانها ضرباً ويسلخان قدميها بالماء المغلى من إبريق الشاى ، ويوشكان أن يقتلاها لولا تدخل لوكا وساتين والتترى . ثم يهجم بيبل على كوستيليوف ويلكمه لكمة هائلة يسقط بها على الأرض صريعاً . ولا تلبث فاسيليسيا أن تكتشف أنه مات فتستغيث ويتجمهر النزلاء حول الجثة ويطلق اليوشكا صفارة الشرطى ميدفيديف بعد أن يختطفها منه . وتطالب فاسيليسيا بالقبض على بيبل ، فيدافع ساتين عن بيبل قائلا إنه أيضاً اشترك فى هذا الضرب الذى أفضى إلى موت كوستيليوف ، وأن فى وسع بيبل أن يستشهد به أمام القضاء . وتتحرك شهوة الانتقام فى نفس بيبل فيقول إنه ليس بحاجة للدفاع عن نفسه ، وأنه سيجر فاسيليسيا وراءه إلى الهاوية فهى التى أرادت إليه أن يقتل زوجها وساومته على ذلك وألحت عليه إلحاحاً .

وما أن تسمع ناتاشا قول بيبل هذا حتى تضطرب نفسها وتصرخ فى بيبل قائلة إنها قد أدركت الآن كل شىء وتيقنت من أن بيبل لا يزال يتخذ من فاسيليسيا خليلة له . وأنهما قد دبرا معاً هذا القتل ليزيلا الزوج من الطريق ويرتعا فى ماله من بعده ، بل هى تذهب إلى أبعد من هذا فتتهم بيبل بتدبير هذا المنظر الغرامى بينه وبينها حتى تسمع فاسيليسيا بعزمها على الفرار فيجرى كل ما جرى .

ويذهل بيبل حين يسمع هذه الاتهامات ويحاول عبثاً أن يؤكد لناتاشا صدق

حبه لها . وما هى إلا لحظات حتى يأتى سعادة الضابط فيسوق بيبل وفاسيليسيا إلى قسم البوليس ، أما ناتاشا فتحمل إلى المستشفى ، وفى هذا الهرج العظيم يختفى العجوز الطيب لوكا وينطلق إلى المجهول كما جاء من المجهول .

* * *

وهكذا ينتهى كل شىء أو يكاد ، فلا يبقى فى الفندق إلا البارون والمومس ناستيا وكليشتش صانع الأقفال وساتين والممثل الذى أمسك يوماً كاملا عن الشراب واشتغل بكنس الطرقات ليجمع بضعة دراهم تعينه على رحلته إلى المصحة ثم بوبنوف صانع القبعات واليوشكا صانع الأحذية وزوب الحمال والتترى المسلم حسن أو حسنكا كما كانوا يسمونه ، الذى يبشر رفاقه بالقرآن .

ويأسف الجميع على رحيل العجوز لوكا الذى علمهم قيمة الأحلام فى الحياة والتطلع الأبدى إلى شىء أفضل . ويتطلع البارون قليلا . ولكنه لا يتطلع إلى الأمام بل يتطلع إلى الوراء . فيذكر أسلافه وأسلاف أسلافه من النبلاء وقصورهم فى موسكو وبطرسبرج والخيل المطهمة وفاخر العربات . كل هذا ضاع منه وهو لا يعلم كيف ضاع . فقد ابتلاه القدر بزوجة لعينة فبدد كل ماله ، وكان يشغل منصباً ملحوظاً فى وزارة الخارجية . فلما ضاع ماله اختلس مال الدولة ، وهكذا خلع ثياب النبلاء ولبس ثياب المساجين . ولكن كل هذا حدث دون أن يعرف البارون كيف حدث . فقد ولد وفى عقله ما يشبه الضباب ، ومضت حياته كلها وكأنها حلم غريب .

وينشب بينه وبين ناستيا شجار من شجارهما الأبدى ، فهى تتهمه بالكذب واختلاق الأوهام ليشبه للناس أنه سليل الأكابر وما هو إلا من حثالة الحثالة . وهنا تذكر الجماعة لوكا العجوز . فلو قد كان حاضراً لقال : ولم لا يعيش البارون فى الأوهام إذا كان يجد فى ذلك سعادته .

ويمسك صانع الأحذية اليوشكا بالكونسرتينا التى أصلحها صانع الأقفال كليشتش ويبدأ بالعزف عليها ، ويغنى اليوشكا ويرقص ، فلم يبق للناس فى هذا الحضيض إلا الرقص والغناء . وتأتى الجماعة بالفودكا ليكتمل سمرهم ، فقد

أزمعوا أن يسمروا طول الليل ، فلقد رأوا ما كفاهم من الحياة . رأوا كل من أراد أن يخرج من هذا الحضيض يتردى فى حضيض أفظع وأنكى . أين المرأة الطيبة آنا ؟ فى القبر . وأين كوستيليوف البخيل ؟ فى القبر . وأين ناتاشا الآن ؟ فى المستشفى ولن تشفى من عاهتها ؟ وأين فاسيليسيا الخائنة الضارية وأين بيبل الذى أراد أن يبدأ صفحة جديدة فى حياته ؟ إنه يبدؤها فى السجن الطويل . وأين العجوز الكاذب لوكا الذى كان يزين الحياة بالأحلام ؟ إنه مضى ولم يترك أثراً . حتى التترى حسنكا يطلب مزيداً من الفودكا ، فهو يعلم أن النهاية آتية لا ريب فيها ، بل ولن تتأخر كثيراً . ويغنى الحمال زوب أغنيته التى لا يمل من غنائها : « تشرق الشمس وتغرب » فيردد القرار بوبنوف صانع القبعات : « ولكن سجنى مظلم معتم » فلا نعلم إن كانا يغنيان بسجن الحياة أم بهذا الحضيض الذى لا يجد أحد سبيلا إلى الخروج منه مهما سعى .

ولكن هذه الأغنية الشجية تضيع فى جلبة الباب الذى يفتح فجأة . ويبدو فيه البارون وهو يصرخ كالمجنون : « تعالوا . . . انظروا . . . لقد شنق الممثل نفسه . . » .

ويحملق الجميع فى البارون ويخيم صمت ثقيل . ثم يرتفع صوت ساتين فاتراً كأنما لم يحدث شىء البتة قائلا : « عليه اللعنة . . لقد أفسد علينا هذه الأغنية. . . » !

الإمبراطور جونز

للكاتب الأمريكي يوجين أونيل

تجرى وقائع مسرحية « الإمبراطور جونز » كلها فى أقل من نصف يوم ، فهى تبدأ فى عصر يوم من الأيام . ولا يبزغ فجر اليوم التالى حتى يكون كل شىء قد انجلى . أما المكان فهو جزيرة من جزر الهند الغربية الواقعة بين الأمريكتين ، سكانها من الزنوج السود ولم تصل إلى شواطئها بعد أساطيل الرجل الأبيض لتقرر مصيرها بالإكراه وتضمها إلى دولة البيض . فالجزيرة إذن لا تزال مستقلة ، أما نظام الحكم فيها فهو النظام « الإمبراطورى » فحاكمها زنجي يلقب بالإمبراطور جونز . وتجرى كل الوقائع فيها بعد حرب تحرير العبيد التى شنها الجنوب ليعتق العبيد وليوحد الولايات الأمريكية .

وللإمبراطور جونز . واسمه الكامل بروتوس جونز . قصر فى الجزيرة لا أقول منيف ولكنه رحيب . سقوفه عالية وقد طليت جدرانه باللون الأبيض . وحجرة العرش فى هذا القصر توشك أن تكون خالية من كل أثاث إلا العرش ، بلاطها أبيض وجدرانها بيضاء . والقصر كله مقام على مرتفع فالمطل منه يرى التلال البعيدة التى كستها أحراش النخيل الكثيفة ، وقد اختفى وراءها ساحل الجزيرة ، وتوسطت بين القصر والتلال غابة هائلة يضل فيها كل من اقتحمها .

وعرش الإمبراطور خاو لأن الإمبراطور لا يجلس عليه فهو ينام للراحة بعد الظهيرة . ولكن العرش يلهب الأنظار فقد طلى باللون الأحمر الفاتح ، وأمامه ممشاة مهلهلة مصبوغة بالحمرة الفاقعة تمتد حتى مدخل الحجرة .

والجو خانق فنحن فى أوج الصيف عند خط الاستواء . وفى هذا الجو الخانق زنجية عجوز حافية بمدخل حجرة العرش وقد غطت رأسها بمنديل وجمعت أشياءها فى ربطة ملونة علقتها فى طرف عكاز وحملتها على ظهرها . وتدب هذه العجوز

الفانية فى خفة وقد أخذها هلع شديد فهى تخشى أن يبصرها أحد وهى تحاول الإفلات من القصر الإمبراطورى .

وفيما هى تنساب على حذر يبدو رجل يدعى سميذرس بالقرب من المدخل ، وهو أفاق من البيض ، كهل مديد القامة أشرف على الأربعين ، أصلع الرأس بقامته حدبة ، ولاحت على محياه الذى لفحته شمس هذه المناطق الحارة إمارات النذالة والخسة ، وقد تمنطق بحزام فيه مسدس وغطى رأسه الأصلع بقبعة كبيرة بيضاء من الفلين ، وحمل فى يده سوطاً .

ويمسك الأفاق سميذرس بكتف الزنجية العجوز مستوقفاً فتحاول الخلاص من قبضته ، وحين تعجز عن ذلك تستسلم وتذهب تستعطفه ألا يشى بها عند جلالة الإمبراطور . ويحسب سميذرس أنها قد سرقت فى ربطتها شيئاً ، ولكنه لا يلبث أن يدرك أن الأمر قد تجاوز ذلك .

فكل من فى القصر من حرس وخدم وحشم وعبيد قد هجر القصر وانطلق إلى التلال . ولم يبق فيه إلا هذه العجوز الفانية . وهى الآن قد جمعت أشياءها لتلحق بالجميع بين التلال ، فالإمبراطور جونز لا يزال نائماً نومة القيلولة ، وهذه فرصتها الوحيدة للفرار من القصر .

ويدرك سميذرس أن الساعة قد اقتربت ؛ فأهل الجزيرة فى ثورة على ملكهم الظالم الإمبراطور جونز . إنه كان يتوقع هذه الثورة وهى قد جاءت أخيراً . وزنوج الجزيرة قد اجتمعوا عند التلال وعما قريب سوف يبدأون قرع الطبول ثم يقبضون على هذا الأفاق الزنجى ويقتلونه . هذا الذى جاءهم من المجهول . وقام فيهم حاكماً وسامهم كل لون من ألوان العسف والإرهاب . فابتز أموالهم بالضرائب الباهظة حتى اعتصر منهم كل ما يملكون .

ولا يخفى الأفاق الأبيض سميذرس سروره لهذه النهاية . فهو يبغض الإمبراطور الزنجى جونز من صميم قلبه رغم أنه يصانعه . فجونز رجل قوى . قوى بجسده ، قوى بإرادته . قوى بشجاعته . قوى بخيلته الواسعة وبخلقه البطاش . ولولا جونز لصادف هذا الأفاق حظاً بين أهل الجزيرة أحسن مما صادف . ولوجدها أرضاً عزلاء ينهب خيراتها نهباً . وسلطان هذا الأفاق الزنجى هو الحائل الوحيد دون تغلغل

هذا الأفاق الأبيض فى الجزيرة .

وحين يقف سميذرس من الزنجية العجوز على هذا السر يخلى سبيلها لتنصرف وهو يلوح بمسدسه فى غلظة لإرهابها .

وهنا يدخل جونز حجرة العرش بعد أن صحا من نومه ، فإذا به زنجى فحل قوى البنية فى منتصف العمر ينطق وجهه بالأنفة والعزة والإرادة القوية والاعتماد التام على النفس ، من رآه احترمه وأنفه راغم . ولكن عينيه تنطقان أيضاً بالمكر والدهاء الواسع . وهو إلى جانب حصافته شكاك مراوغ . وقد ارتدى حلة عسكرية زرقاء اصطفت عليها الأزرار النحاسية وزينتها الشراريب الذهبية مكان الكتفين والوشى الذهبى فى الياقة وحول المعصمين . وبطول سرواله الأحمر مشى شريط أزرق . وفى حذائه اللماع برز مهماز نحاسى . وحول خصره حزام تدلى منه مسدس ضخم فى جرابه الجلدى . أما عظمة هيئته فتدعو إلى شىء من السخرية ولكن له طريقة فى الكلام والسلوك تبدد هذا الإحساس .

لقد أيقظ جونز صفير سميذرس . فهو يدخل حجرة العرش وهو يفرك عينيه ويصيح هائجاً إنه سيسلخ جلد هذا الذى اجترأ على الصفير فأيقظ الإمبراطور من نومه . فلما يرى سميذرس ويعلم أنه مصدر الصفير يقطب حاجبيه غضباً ، فيقول سميذرس بين خائف ومتوقح إنه قد جاء إليه بأنباء هامة .

ويستطلع جونز الخبر فيسأله سميذرس قائلا :

سميذرس : ألم تلاحظ اليوم شيئاً غريباً ؟

جونز (فى برود) : أى شىء غريب ؟ لا . أنا لم ألاحظ شيئاً غريباً .

سميذرس : إذن فلست الثعلب الماكر الذى خلته . أين بلاطك ؟ (متهكماً) أين قوادك ووزراؤك وجميع حاشيتك ؟

جونز (بلا أدنى انزعاج) : إنهم فى المدينة على عادتهم يشربون الروم ويتفاخرون . وأنا على عادتى أتظاهر بأنى لا أعرف شيئاً .

ويزجر جونز سميذرس فيحتج سميذرس . ويذكر جلالة الإمبراطور بأنه لم يكن على كل هذا الصلف حين جاء به فى سفينته إلى الجزيرة لأول مرة . وتمتد يد جونز فى سرعة البرق إلى مسدسه ويصيح فى سميذرس قائلا : « تأدب فى الكلام ،

أيها الرجل الأبيض ! تأدب فى الكلام ! هل سمعت ما أقول . أنا السيد هنا الآن ، هل نسيت ذلك » ؟ ويخشى سميذرس بأس جونز فيعتذر له بأنه لم يقصد إساءته ، ولكنه يذكره برفق أنه كان الوحيد الذى أنقذه ، فقد رضى أن يستخدمه حين رفض جميع الرجال البيض بسبب ما شاع عنه من أنه هارب من اللمان فى الولايات المتحدة وهكذا جاء به إلى الجزيرة حيث أصبح شيئاً مذكوراً . ويجيبه جونز قائلا إنه يعترف بكل ذلك ولكن الرجل الأبيض لا فضل له عليه فقد تناول أجره وعلاوة . أما هو فقد بنى مجده فى الجزيرة بيديه ، وتحول فى عامين من هارب على ظهر سفينة إلى إمبراطور عظيم ، بعد أن روّض زنوج الغاب الحمقى ووضع كلا فى مكانه .

ويسأل سميذرس جونز إن كان قد جمع بعض المال وأخفاه فيجيبه جونز (فى غبطة) : طبعاً جمعت بعض المال ! وهو مودع فى بنك أجنبى حيث لايستطيع غيرى أن يصرفه مهما حدث . أظننت أننى أضطلع بوظيفة الإمبراطور هذه من أجل المجد ؟ نعم ، إن الضجيج والمجد جزء منها ، ولكن الغرض من هذا لا يتجاوز الضحك على عقول زنوج الغاب المقيمين هنا . إنهم يطلبون احتفالات السرك الكبيرة لقاء ما يدفعونه من مال ، فأعطيهم أنا ذلك وآخذ منهم المال .

إن سميذرس المغفل يقول إن جونز قد استنزف كل أموال رعاياه حتى غدوا جلداً على عظم . ولكن سميذرس مغفل فهو لا يفهم أنه طالما بقى جونز على عرشه فهو يعلم أن فى الجزيرة بقية من خير لا تزال باقية له . وإلا فلماذا يبقى الأهالى عليه ؟ أو على الأصح إن سميذرس لص صغير لا يفهم عقلية اللص الكبير . إنه يتحدث عن القوانين التى يسنها جونز لرعاياه كل يوم ويكسرها بنفسه كل يوم .

جونز : ألست الإمبراطور ؟ إن القوانين لا تنطبق على الإمبراطور .

(بلهجة المشرع) : اسمع لقولى يا سميذرس . هناك سلب صغير مثل سلبك ، وسلب كبير مثل سلبى . وهم يضعونك فى السجن عاجلا أو آجلا عقاباً لك على السلب الصغير ، ولكنهم يجعلونك إمبراطوراً على السلب الكبير ويتوجونك فى بهو المجد (يتوه فى الذكريات) إن كنت قد تعلمت شيئاً من حديث السادة البيض فى السنوات العشر التى خدمت أثناءها فى عربات البولمان ، فهو هذا . وحين عرضت لى فرصة الاستفادة من هذا الدرس أصبحت إمبراطوراً بعد عامين .

وسميذرس مغفل لأنه يتحدث عن الحظ ، ويزعم أن جونز ما بلغ كل هذا إلا لأنه رجل محظوظ . وهو يذكر كيف أن جونز حين هبط الجزيرة واشترك فى الثورة التى قام بها الزنوج على حاكمهم القديم أراد الزنجى العجوز ليم أن يغتاله ، وأطلق عليه الرصاص على بعد ثلاثة أمتار ولكنه أخطأ المرمى . وحين علم الزنوج أن جونز قد قدر له ألا يموت إلا إذا أصابته رصاصة من فضة . انضموا إليه وأصبح بذلك زعيمهم ، وكان هذا سبيله إلى العرش .

ويسخر جونز من هذا الأفاق الأبيض التافه الذى لا يفهم أن الحظ يأتى للجميع ولكن لا ينتفع منه إلا الموهوبون . فقد كان من حسن حظه حقاً أن الزنجى ليم أخطأ المرمى . ولكن جونز سرعان ما اختلق حكاية الرصاصة الفضية ليوهم أهل الجزيرة البلهاء أنه محصن برقية وأنه لا سبيل إلى قتله . فجده إذن ليس ابن الحظ ولكن ابن الذكاء . إنه لا يزال يذكر كيف سجد الناس أمامه حين روى عليهم قصة الرصاصة الفضية وذهبوا يعفرون جباههم فى التراب صائحين إن معجزة من معجزات الكتاب المقدس قد حدثت فى بلادهم . أما الفلسفة التى يدين بها جونز فهى مضمنة فى هذا السؤال : « أليس الكلام المتعاظم هو الذى يجعل الإنسان عظيماً طالما يصدق الناس هذا الكلام » ؟

نعم إن حكاية الرصاصة المصنوعة من فضة من نسج خياله . ولكن جونز قد جعل من الخيال حقيقة . فهو قد صنع بنفسه رصاصة من الفضة . صنعها بنفسه ولنفسه. وهو يخرج مسدسه ويفتح ساقيته ليرى سميذرس ما بها . إن فيها ست رصاصات ، خمس منها صنعت من رصاص والسادسة ، وهى الأخيرة ، صنعت من الفضة .

ويحسب الغبى الأبيض أن جونز يتخذ من هذه الرصاصة الفضية رقية تحميه من الموت . ولكن جونز يشرح له فى هدوء أنه قد أعد لكل شىء عدته . فهو يعلم أنه ينهب زنوج الجزيرة . وهو يعلم أن هذه الحالة لن تدوم مدى الحياة ، وسوف يأتى يوم يثور فيه أهل الجزيرة ويخرجون فى طلبه ويطاردونه كما يطاردون الوحش الكاسر . ولكن جونز لن يقع فى أسر هؤلاء الزنوج الحمق . إنه زنجى مثلهم ولكنه خلق للسيادة . إنه يعيش ليومه ويستنزف منهم كل ما يستطيع . وحين تشب الثورة بين الزنوج سوف يستقيل ويمضى على عجل إلى حيث يستطيع أن ينعم بما كلسه

من ثروة . فإن حوصر قاوم إلى آخر رصاصة فى مسدسه ، إلا واحدة ، هى تلك الرصاصة الفضية التى صنعها ليقتل بها نفسه حتى لا يقع فى أسر هؤلاء الحمقى . لقد عاش ملكاً وسيموت ملكاً ، ولن تقتله إلا رصاصة من فضة .

فهو إذن لم يكذب على الزنوج . ولكنه يعلم أن كل هذا مجرد احتياط لا أكثر . فهو لن يقع فى أيدى هؤلاء البلهاء حين تشب الثورة، بل سيهرب إلى حيث خبأ أمواله . إنه لن يعود إلى الولايات المتحدة . حيث البيض يشنقون السود دون محاكمة . إن له تاريخاً حافلا مع البيض فى الولايات المتحدة . إنه كان مسجوناً لأنه تشاجر مع زنجى آخر يلاعبه القمار وطعنه بالموسى فقضى عليه . وكان عليه أن يقضى عشرين عاماً فى الأشغال الشاقة ، ولكنه ثار على غلظة الحارس الأبيض الذى كان يضرب المسجونين بالسوط وهم يصلحون الطريق ، وشج رأس الحارس الأبيض ففاضت روحه ، وفر جونز حيث حطم السلاسل التى أوثقت بها قدماه ثم فر من الولايات المتحدة ويتنبه جونز إلى أنه أسرف فى الكلام مع الأفاق الأبيض وأطلعه على ما ينبغى أن يجهله من أسرار حياته ، فيهدده بالقتل إن هو ردد كلمة واحدة مما سمع ، فيعد سميذرس جونز بذلك وهو فى فزع شديد مؤكداً وفاءه له وأمانته .

ودليله على هذا الوفاء هو ما جاء يحمله إليه من نبأ ، وما هذا النبأ إلا أن الوقت قد أزف ليستقيل جونز ، فالثورة قد شبت فعلا فى الجزيرة ، وكل من فيها قد لجأ إلى التلال ، وإن كان جونز لا يعلم بذلك .

ويحار جونز أول الأمر ، ثم يكذب سميذرس . فيكون رد سميذرس بسيطاً . أين رجالك الآن ؟ ادعهم ، فلن يجيبوا . وتمتد يد جونز إلى الجرس الموضوع تحت عرشه ويذهب يدقه بقوة فلا يجيبه مجيب ويتسمع برهة فلا يسمع صوتاً . وينطلق إلى المدخل فيدرك أن الجرذان قد هجرت السفينة التى تغرق . فيسب ويلعن زنوج الغاب ، ولكنه لا يلبث أن يتمالك أعصابه حين يلاحظ أن عين الخبيث سميذرس ترقبه . ويضحك ضحكة الخلى قائلا : « لقد بالغت فى تقدير قوتى هذه المرة . . . أقلت لك إنى سأبقى على العرش ستة شهور أخرى ؟ لقد غيرت رأيى . سآخذ الثمن وأستقيل من وظيفة الإمبراطور فى التو واللحظة » .

ويعجب سميذرس لبرودة أعصابه ، ولكن جونز يشرح له فى هدوء أن العناد

لا يجدى ، وما دامت اللعبة قد انكشفت والثورة قد اندلعت والثوار قد لجأوا إلى التلال ، فلا بد من التسليم بالأمر الواقع .

ولم يبق إلا أن يهرب جونز من القصر حتى لا يقع فى قبضة الثوار . فيتناول قبعة كبيرة من الخوص ويهم بالخروج ، ولكن سميذرس ينبئه بأن رجاله استولوا على جواده ليمنعوه من الهرب . فينزعج قليلا ثم يعود إليه هدوؤه ، ويقرر أن يسعى إلى الساحل على قدميه . إن الساعة الثالثة والنصف والشمس تغرب فى السادسة والنصف . ولا يزال أمامه ثلاث ساعات وهى كافية ، إنه يعرف الغابة الكبيرة التى يضل فيها كل من اقتحمها كما يعرف طريقه إلى بيته . فقد كان يتوغل فيها المرة بعد المرة . متظاهراً بأنه خرج للصيد . ليدرس معالمها ويكتشف مجاهلها . وقد خبأ فى موضع منها بعض الطعام المحفوظ فى العلب . كل ذلك فعله استعداداً لهذا اليوم الذى تدور عليه فيه الدائرة . وفى الغابة سيبقى مختفياً حتى الصباح حين يخرج من طرفها الآخر ويقصد إلى الساحل . وهناك تحمله سفينة حربية فرنسية إلى جزائر المارتنيك حيث يعيش منعماً بما سلب ونهب من أموال الزنوج ، كل شىء إذن مرسوم . ولم يبق إلا تنفيذ الخطة . وإنه ليسخر من ذلك الزنجى الوغد ليم الذى حرض عليه الزنوج . فهو لا شك وراء هذه الثورة . ثم إنه لا يهاب شيئاً فى الوجود.

وفيما هو يحدث سميذرس فى كل هذه الأشياء يسمع الرجلان من وراء التلال البعيدة قرعاً رتيباً خافتاً هو قرع الطبل الذى يدقه الزنوج فى رقصة الحرب ، وتبدأ الضربات بمعدل النبض العادى أى ٧٢ ضربة فى الدقيقة . وينزعج جونز حين يأتيه قرع الطبل ويستفهم من صاحبه عما يجرى ، فيبلغه صاحبه أن الاحتفال قد بدأ ، وأن القوم يحمسون أنفسهم بالطبل والرقص تمهيداً للخروج فى طلبه . ولكن جونز يسترد هدوءه ، ويسخر من وثنية هؤلاء الزنوج الذين يعتمدون على السحر والتعاويذ للفتك بأعدائهم . أما هو فبروتستانتى من أتباع الكنيسة المعمودية ، والكنيسة المعمودية كفيلة بأن تقيه شر هؤلاء الوثنيين .

ثم ينطلق جونز فى رحلته ، وينطلق بلا متاع إلا قبعته الخوصية ، ويودع الأفاق الأبيض سميذرس بعد أن وهبه القصر وكل ما فيه من متاع ، ولكنه لا يخرج من

الباب الخلفى متلصصاً بل يخرج من الباب الكبير فى كبرياء الأباطرة ، فهو لا يزال الإمبراطور جونز .

ويبلغ جونز حافة السهل الذى تبدأ عنده الغابة الكبيرة ، يبلغها وهو يتصبب عرقاً وقد أضناه طول المسير والشمس المحرقة التى اختفت الآن وراء الأفق فانتشر المساء ويستلقى على الأرض منهكاً ويخلع نعليه لتبرد قدماه . . ويحمد الحظ الذى جعله يبلغ طرف الغابة عند هبوط الظلمة . إنه الآن بمأمن من أعدائه . وإن كان لا يزال أمامه اختراق هذه الغابةالمهولة التى يوشك ألا يتبين أشجارها لكثافة الظلام. ويتحاشى النظر إلى الغابة كأن بها روحاً جبارة تضمر له العداء . ويبلغ سمعه قرع الطبل الرتيب فيلعن أولئك الزنوج الذين لا يكفون عن قرعه الساعات والساعات ، ويتملكه الاضطراب حين يفكر فيهم . فالظلام حالك . ولئن كان الظلام الحالك يستره عن أعدائه ، فهو أيضاً يحجب أعداءه عن ناظريه . فلو قد كانوا يتربصون به على بعد ثلاثين متراً لما رآهم .

ولكنه يعود فيهدئ نفسه فى روية . إنه جائع . وبطنه الخاوية هى لا شك مصدر كل هذه الأفكار السوداء . إنه قد أخفى الطعام المعاب عند حافة الغابة وجعل علامته حجراً أقامه بجواره . فليبحث إذن عن الطعام . وبعد أن تمتلئ بطنه ستهدأ نفسه ، ويمضى فى رحلته مجتازاً الغابة .

ويذهب جونز يبحث عن صندوق الطعام الذى أخفاه تحت الأرض . فهو يعلم أنه فى المكان الذى أخفى فيه الصندوق، يبحث عن الحجر وبعد تعثركثير يجد الحجر فتغتبط نفسه ، ويقلب الحجر فلا يجد شيئاً . فتأخذه الحيرة . لعل هذا الحجر غير الحجر الذى وضعه علامة، ويمضى فى البحث فيجد حجراً آخر . ويقلب الحجر الثانى فلا يجد تحته شيئاً ، وتستبد به الحيرة والجوع معاً . إن الظلام صفيق . فقد مضى المساء وأقبل الليل الأسحم . أتراه ضل الطريق ؟ كلا . فكيف يضل الطريق ورحلته إلى الغابة كانت فى وضح النهار ؟ إنه حائر حقاً . فهو يرى فى الظلمة الصفيقة حجراً ثالثاً وحجراً رابعاً وحجراً خامساً . ترى كيف جاءت كل هذه الأحجار إلى هذا المكان وهو لم يضع فيه إلا حجراً واحداً .

كل هذا والسهل المظلم من خلفه والغابة الظلماء من أمامه . ومن بطن الغابة

الظلماء تخرج على جونز أشباح صغيرة أشكالها غير محددة هى « المخاوف الغامضة الصغيرة » ، فلونها أسود ولا تتبين منها فى الحلكة إلا عيونها البراقة . ولا يسمع لدبيبها حس ويرى جونز هذه المخاوف الغامضة الصغيرة تجتمع من حوله وتتراقص . فيضطرب قلبه اضطراباً وتنطلق من فمه صرخة المرتاع ، ويقفز قفزة عصبية إلى الوراء ويخرج مسدسه ويأمر المخاوف أن تنصرف فلا تصدع بأمره ، ويطلق عليها رصاصة تتجاوب أصداؤها فى الظلمة الساكنة فتختفى أشباح المخاوف . وتعود إلى قلبه السكينة . ويلوم نفسه على جزعها . إن فى يده مسدساً ففيم الخوف ؟ ويسمع جونز قرع الطبل البعيد فيسرع فى خفقانه ولكنه لم يعد يبالى . إن المخاوف الغامضة الصغيرة قد عادت إلى مكمنها فى بطن الغابة . ولابد مما ليس منه بد . لابد من اجتياز الغابة قبل الصباح على بطن خاوية . إنه يعلم أنه قد أخطأ بإطلاق النار من مسدسه ، فالصوت يهدى الزنوج إلى مصدره .

ويعقد جونز عزمه على اقتحام الغابة قبل أن يهتدى أعداؤه إلى مكانه . وهكذا ينفذ بين أشجارها الجسيمة وقد استعاد كل شجاعته .

ويسعى جونز فى الظلمة زمناً . وكل شىء من حوله هادئ فلا يسمع حسًّا إلا صوت الطبل البعيد وقد اشتد سرعة وازداد وضوحاً . ثم يبزغ القمر وينتشر نوره بين أوراق الأشجار فتبرق بلون غريب . ويبلغ جونز فضاء صغيراً وسط الغابة أناره نور القمر وانبعث منه صوت كالصليل المتقطع . ويحدق جونز فى الأرض الفضاء ويتسمع الصليل المتقطع . فيبصر فى نهاية الأرض الفضاء شبح الزنجى جيف الذى كان قد قضى عليه بطعنات الموسى وهو يشاجره فى المقامرة ، يبصر شبح جيف الأسود قاعداً القرفصاء مرتدياً حلة الخدم من عمال عربات البولمان وعلى رأسه الكاسكيتة . ويراه يقذف بزهرين من زهر النرد على الأرض ثم يلتقطهما ويقذف بهما المرة بعد المرة فى حركة آلية . وحين يقع بصر جونز على الزنجى جيف يقف كالمصعوق ويلهث فى ارتياع شديد ثم يشخص كالمسحور ، ويذهب يعوى قائلا : من هناك ؟ من هذا ؟ أهذا أنت يا جيف ؟ إنى سعيد لرؤيتك حقًّا . ولكنهم قالوا لى إنك مت من طعنة الموسى التى كلتها لك .

ثم يفيق من حلمه المأخوذ ويتنبه إلى أنه يخاطب شبح الرجل المقتول . ويعوى

من جديد وقد أخرج مسدسه من جرابه . إن جيف قد مات . فكيف جاء إلى هذا المكان ؟ لقد قتله مرة ولكنه حى يمثل أمامه وهو يلعب بالزهر . لابد من قتله ثانية . ويطلق جونز رصاصة على شبح جيف فيختفى الشبح . ويلبث جونز فى مكانه وهو يرتجف . وترتفع فى سمعه دقات الطبل وتشتد سرعته فتبلغ سرعة خفقات قلبه وضربات نبضه . إنهم يقتربون منه . إنهم يسرعون إليه . هكذا خيل له . لابد من الفرار . لابد من الفرار .

وينسى جونز فى فزعه الطريق المكشوف الذى كان ينبغى أن يمضى فيه ويحتمى بالأشجار الكثيفة السامقة التى لا ينفذ فيها نور القمر فيبتلعه الظلام .

ويبلغ جونز طريقاً فى الغابة تكسوه الأوحال ، شق بين الأشجار فيمضى فيه وهو بين حائر وفزع ، وقد ضاعت منه قبعته وتمزقت على جسده حلة الإمبراطور من كثرة احتكاكها بالأغصان ، وتصبب العرق على جبينه وعلى سائر أعضائه وضاقت أنفاسه وتحرج صدره من كثرة العدو ، ودميت قدماه . وتخاذلتا تحت جسده الهائل .

كل ذلك وقرع الطبل لا ينقطع . ويخلع جونز سترة الإمبراطور ويقذف بها بعيداً فيرتاح صدره المختنق ، وتعود أنفاسه إلى الانتظام . ثم يتأمل الطريق فى حيرة وارتياب . إنه لم ير هذا الطريق من قبل قط . ترى هل ضل الطريق ؟ كلا . إنه لا يمكن أن يضل فهو يعرف كل شبر فى هذه الغابة المسكونة . المسكونة ؟ إن الغابة ليست مسكونة ، وإنما كل ما رآه جونز من أطياف وأشباح إنما هو من صنع خياله الخائف . إنه مسيحى مؤمن وهو بروتستانتى متمدن وهو من أتباع كنيسة المعمودية ، فكيف يؤمن بهذا الهراء الذى يسمونه الجن والأشباح ؟ ومهما يكن من أمر فالحمد لله لأن الأشباح قد سكنت ولم تعد تعترض طريقه . والقمر الآن فى كبد السماء ينير الغابة ويهديه فى مسعاه . والليل قد مضى نصفه . وفى الصباح يبلغ جونز الساحل ، وعندئذ يكون فى مأمن من كل خطر .

وفيما هو يناجى نفسه على هذا الوجه يبصر جماعة قليلة العدد من الزنوج تخطر أمامه فى ثياب المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة . روسهم محلوقة وفى أقدامهم أصفاد الحديد ، ومنهم من يحمل الفؤوس ومنهم من يحمل الجواريف . ومن ورائهم

يسوقهم حارس من البيض يرتدى حلة السجان ويعلق على كتفه بندقية ويحمل فى يمينه سوطاً غليظاً .

ويحملق جونز فى هذا المشهد وقد تملكه رعب قاتل شل حركته ويصرخ بصوت متحشرج : « يا يسوع » !

ويفرقع السجان سوطه فلا يخرج منه صوت . ولكن السجناء يصدعون بإشارته ويقبلون على العمل فيضربون بالفؤوس ويجمعون بالجواريف فى حركات آلية منتظمة جوفاء لا صوت لها . ويشير السجان إلى جونز بسوطه ويأمره أن يأخذ مكانه بين الأشقياء ، فيجمجم جونز كالمسحور قائلا : « نعم يا سيدى سآتى بالتأكيد » . ويتقدم نحو الجماعة ثم يأتى بحركات كأن بيده جاروفاً يعبئ فيه التراب . ويقترب السجان منه فجأة وينهال بسوطه فى وحشية على كتفيه . فينكمش جسد جونز ألماً وذلة ، وينصرف عنه السجان فى احتقار شديد . وهنا يرفع جونز جاروفه ويهوى به على رأس السجان .

ثم يستيقظ جونز من هذه الرؤيا ويدرك أنه لا يمسك بيده شيئاً فيهذى كالمحموم مخاطباً السجناء الزنوج قائلا : « إلىّ بجاروف حتى أشج رأسه . . إلىّ بجاروف مرضاة لله . . » . فلا يجيبه أحد من هذه الأشباح الخاوية . ويأخذ الرعب من جونز كل مأخذ فيصيح وقد خنقه غيظه : « سأقتلك أيها الشيطان الأبيض ، ولو كان هذا آخر ما أعمل فى هذه الحياة ! كن شبحاً أو شيطاناً . سأقتلك مرة أخرى مهما تكن » !

ويخرج جونز مسدسه ويطلق على ظهر السجان منه رصاصة . وفجأة يختفى الطريق الذى كان ماثلا أمام عينيه فلا يرى أمامه إلا الأشجار الكثيفة السامقة ، ولا يسمع إلا حفيف الأشجار التى يصطدم بها وهو يعدو وقرع البطل الذى اقترب منه شيئاً فشيئاً وأسرع فى دقاته فكأنها دقات قلبه الوجل وضربات نبضه المرتجف .

ويبلغ جونز بقعة من الغابة فيها دائرة كبيرة من الفضاء تحيط بها الأشجار الهائلة من كل جانب ، . وفى وسطها جذع شجرة مجتثة وقد سبحت الأرض الفضاء فى نور القمر . ويدنو جونز من الجذع ، وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ وتمزق سرواله حتى صار كالخرقة المهلهلة ، ويجثو على قدميه فى هيئة المصلى ويستنجد

قائلا : « يا يسوع ! يا يسوع ! اسمع صلاتى . لقد كنت من الخطاة البائسين ! أنا أعلم أنى أذنبت ! نعم أعلم أنى أذنبت ! ولكنى حين ضبطت جف وهو يغش فى اللعب بالزهر المغشوش استولى علىّ الغضب وصرعته » !

ويطلب جونز من الله غفران آثامه فى ضراعة تمزق نياط القلب . ويسأله أن يقيه من الأشباح ومن صوت الطبل اللعين الذى يدق فى أذنيه بلا انقطاع . إنه لا يخشى الرجال إذا كانوا من لحم ودم . أما هذه الأشباح فهى تدفع به إلى الجنون .

وبعد الصلاة يستّرد جونز هدوءه . ويحس بقدميه الداميتين تتمزقان من فرط الألم ، فيخلع حذاءه الذى صار إلى قطعتين من الجلد الشائه المكور ، ويحمل حذاءه تحت إبطه ، ويتأمل حاله الزرى فيرثى لما آلت إليه أبهة الإمبراطور .

ويتنهد . ويحملق فى دائرة الأرض الفارغة وهو فى بحران . فيرى جماعة من الأطياف تتجمع من كل جانب بالقرب من جذع الشجرة ، وكلهم فى ملابس السادة من أهل الجنوب الأمريكى البيض فى القرن الماضى وأزياؤهم من عام ١٨٥٠ قبل تحرر العبيد ، وتدل هيئتهم على أنهم من أصحاب المزارع . وفى صحبة هؤلاء نسوة من بنات المجتمع الأرستقراطى اجتمعن ليشهدن المزاد فهناك مزاد ، مزاد لبيع العبيد . وقد وقف المثمن إلى جوار جذع الشجرة ليؤدى عمله .

ويرتّقى المثمن جذع الشجرة ويلمس كتف جونز . كأنه المطروح فى المراد . وتتطلع إليه أنظار السادة والسيدات البيض ويتبادلون الملاحظات . وينظر جونز من حوله ليرى مهرباً بين الجمع المتراص من حوله . ويصيح المثمن داعياً لجونز مرغباً فيه قائلا إنه قوى يصلح لفلاحة الأرض ، ويشير إلى عضلاته المفتولة وإلى قامته الهائلة وإلى كتفيه العريضتين . ويبدأ المزارعون المزايدة ويشتد إقبالهم عليه .

ويدرك جونز الموقف فيثور ثورة اليائس الهائج ويصيح بالجمع قائلا إنه زنجى حر . وإن تجارة العبيد قد انتهى زمانها منذ الحرب الأهلية . ويخرج مسدسه من جرابه ويطلق منه رصاصة على المثمن الفصيح ورصاصة على المزارعين فيتبددون فى الهواء كأنما ابتلعهم الفضاء . ويتلفت جونز حوله فلا يرى أثراً لدائرة خالية ولا لجذع ولا لشىء مما توهمه خياله . وإنما يرى الغابة على عهدها كثيفة فى الليل البهيم ، متراصة أشجارها كأنها جدار متماسك . ولا يسمع فى هذه الظلمة المتراكبة إلا قرع

الطبل الرتيب يزداد عنفاً ويسرع فى الضربات .

ويمضى جونز فيضرب فى الغابة المتشابكة متحسساً طريقه فى هذا التيه العظيم . ويناجى نفسه قائلا : « رباه ! رباه ! ترى ماذا أنا فاعل الآن ؟ لم يبق معى إلا رصاصة واحدة ، هى الرصاصة الفضية . ولو طاردتنى أشباح أخرى ، فكيف أخيفها وأطردها عنى ! رباه ! لم يبق معى إلا الرصاصة الفضية » !

ويشتد ظلام الغابة . فالأشجار تتشابك فوق رأسه حتى تحجب القمر فى علاه . ولا يعود جونز يبصر شيئاً . فيتحسس طريقه بيديه . إنه لم يعد يكترث الآن أيحيا أم يموت . إن كل ما يطلبه الآن هو الراحة ، ولو كانت راحة الموت .

ويخيل إليه أنه يجد فراغاً ، فيستلقى على الأرض منكفئاً على بطنه ويستريح ويخيل إليه أنه يرى جماعة من الزنج وقد جلسوا صفين متقابلين وجهاً لوجه ويترنحون إلى الوراء وإلى الأمام على نحو رتيب كأنهم يجدفون فى جارية تمخر بحراً متلاطم الأمواج ، على إيقاع الطبل الذى يدق دقاً منتظماً تشتد سرعته . ويخيل إليه أنه يسمع صوتاً يغنى معولا من بعيد . ويشترك جونز مع العبيد فى كوراس الغناء الحزين ، ويرتفع صوته الحزين على أصواتهم فتتلاشى الأصوات رويداً رويداً ولا يبقى إلا صوته . وعندئذ يفيق جونز من رؤياه فلا يجد من حوله إلا الغابة الظلماء وقرع الطبل يدوى فى أذنه .

ويبلغ جونز شاطئ نهر كبير قامت عندة شجرة سامقة ؛ وعند الشجرة يرى بناء حجرياً كأنه مذبح فى محراب . فيتقدم نحو المذبح بقوة غرزية لا تقهر ويجثو أمام المذبح . ويخيل إليه أنه يعرف هذا المكان وأنه رأى هذه الشجرة وهذه الأشجار وهذا النهر من قبل . ويظهر من قلب الظلمة ساحر إفريقى من الكونغو يقف إلى جوار الشجرة وقد زين جسده بالخرز الأحمر والرياش ولبس قرنين دلالة مهنته ، ويومئ الساحر لجونز وهو يرقص رقصاً صامتاً رهيباً أن يقترب من المذبح فيصدع جونز بأمره . ويمثل الساحر أمام جونز المسحور مشهداً رمزياً بالرقص والقفز والإيقاع ويدرك جونز مغزى هذا المشهد إذ تتقمصه روح الساحر . يدرك أن قوى الشر تطلب ضحية ، فهى هائجة لا تهدأ إلا إذا قُدم لها قربان . ويدرك من إشارات الساحر أنه هو الضحية والقربان الذى تنتظره هذه الآلهة الوثنية فيصرخ جونز هاتفاً :

الرحمة يا إلهى ! الرحمة ! الرحمة لعبدك الخاطئ .

وينادى الساحر من بطن النهر إله الأعماق ، فيخرج على الشاطئ تمساح مهول يحدق فى جونز فيسحره بنظراته . ويزحف جونز على بطنه ويقترب شيئاً فشيئاً من التمساح ليلتهمه ، كل هذا وهو يبتهل قائلا : رحماك يا رب ! رحماك !

وحين يدنو جونز من فم التمساح يعلو دق الطبل الرتيب ويسرع فى جنون . ويصرخ الساحر صرخة المجذوب الفرحان ، ويمزق جونز الظلام القظيع بصيحة ضارعة قائلا : « أغثنى يا يسوع ، أغثنى » !

وما أن تنطلق من فمه هذه الصيحة حتى تلمع فى ذهنه الرصاصة الفضية الأخيرة فيخرج مسدسه ويصوبه إلى عينى التمساح المشتعلتين أمامه كأنهما كرتان خضراوان ، ويطلق النار .

ويغوص رأس التمساح فى النهر ، ويتلاشى الساحر فى الظلمات . أما جونز فيرقد منبطحاً على بطنه وقد امتدت ذراعاه على جانبيه ، وهو يرتجف من الهلع . ولكن الطبل البعيد يخفق فى وجوم كأنه قلب كائن منتقم أفلتت منه فريسته . وهو يتحفز للانقضاض .

ويطلع الفجر على الغابة والبقاع ، والزنج من حول الطبل مجتمعون عرايا ، أو ما يشبه ذلك وعلى رأسهم العجوز ليم والتاجر الأبيض الأفاق سميذرس .

ويقول سميذرس إن جونز قد أفلت من قبضتهم ولا شك أنه قد بلغ شاطئ البحر مع الفجر العريض .

ويقول ليم : لقد أمسكناه .

ويسمع صوت بنادق تطلق فى الغابة . وصيحات الفرح المتوحش تنطلق فى الفضاء البعيد . ويكف الطبل عن الدق فجأة .

وينظر ليم العجوز إلى الأفاق الأبيض ويقول :

ــ لقد أمسكناه . لقد مات نعم ، لقد أمسكوه نعم ، لقد مات هذا الذى

لا يرديه الرصاص . لقد أقاموا طول الليل يصهرون النقود على قرع الطبل ليصنعوا له رصاصاً من الفضة .

وبعد حين يقبل الزنوج من الغابة حاملين جثة الإمبراطور جونز . . ثقيلة تتهدل وقد غاض منها كبرياء الحياة . لقد جاء الموت جونز على الوجه الذى أراد ، ولكنه جاءه على غير ما رسم وقدر .

فى ظلال الدردار

الكاتب الأمريكى يوجين أونيل

لا يزال اسم يوجين أونيل بعد وفاته ألمع اسم فى تاريخ المسرح الأمريكى ، كما كان أثناء حياته التى امتدت خمساً وستين سنة بين ١٨٨٨ و ١٩٥٣ .
وقد بلغ بعض الأحياء من كتاب المسرح الأمريكى من أمثال تنسى ويليامز وأرثر ميلر قمة مجدهم الفنى اليوم ، ولكن يوجين أونيل مع ذلك لم يتوار أمامهم .
وهو إلى الآن بمثابة العمود الأكبر فى بناء ذلك المسرح .

وقد كتب أونيل عدداً لابأس به من المسرحيات التى تتناول حياة البحارة أو حياة الزنوج قبل أن يكتب الدراما العظيمة « فى ظلال الدردار » ، ولكن هذه الدراما كانت أول إنتاج له انتهج فيه نهجاً إنسانيًّا . ودل على أن له موهبة خاصة فى معالجة مشاكل القلب الإنسانى وإذا كانت المأساة المشهورة « الحداد يناسب أليكترا » تعد قمة ما وصل إليه « أونيل » فى فن الدراما ، فإن « ظلال الدردار » تعد أول عمل من أعماله ضمن له الخلود، أما عن حياة يوجين أونيل فقد كانت حياة عاصفة . فهو لم يولد كسائر الناس فى بيت من البيوت ولكنه ولد فى فندق بشارع برودواى ، شارع الملاهى بنيويورك، وكان أبوه جيمس أونيل ممثلا معروفاً من أصل أيرلندى انقطع لتمثيل روايات شكسبير ثم انقطع عن شكسبير ليجمع بعض المال بتمثيله دور « مونت كريستو » فى فرقة متنقلة . وكان يوجين أونيل يتنقل كثيراً مع أبيه فى رحلاته التمثيلية فتعلم فنية المسرح عمليًّا ، إلى جانب دراساته النظرية . وكان فى شبابه نموذجاً للفنان البوهيمى الذى لا ينتج الفن ولكن يحياه . ويرتكب كل الموبقات ليختبر الحياة ويخالط أقران السوء . ولم يستقر يوجين أونيل فى عمل من الأعمال فاشتغل سكرتيراً فى شركة بنيويورك ، ثم مديراً مساعداً لفرقة تمثيلية متنقلة . وفى عام ١٩٠٩ سافر مع جماعة إلى أمريكا الوسطى للبحث عن الذهب ولم يلبث أن عاد بعد ستة أشهر مصاباً بحمى المناطق الحارة ثم سافر إلى الأرجنتين وتنقل فيها من عمل إلى عمل ثم سافر إلى جنوب إفريقية وكان يسهر على البغالفى سفينة تنقل الماشية . ومن ثم عاد إلى الأرجنتين وهناك عاش زمناً فى فقر مدقع . وبعد رحلة أخرى اشتغل مخبراً

فى صحيفة بالولايات المتحدة ، وأصابه السل فلخل مصحة مدة ستة شهور كل ذلك قبل أن يبلغ يوجين أونيل الرابعة والعشرين من عمره . وقد كان لمرضه أثر كبير فى التحول الذى أصابه من الأسفار إلى الكتابة . فكتب أول مسرحية له ثم أخذ يدرس نظرية المسرح على الأستاذ بيكر ويؤلف للفرق التمثيلية ، أما بقية حياته فهى حياة المؤلف المسرحى أى أنها سلسلة من الانتصارات الفنية يتخللها بعض الفشل وقد تزوج يوجين أونيل ثلاث مرات وكان آخر زواج له من الممثلة كارلوتا مونتيرى زواجاً سعيداً .

* * *

تدور حوادث هذه المسرحية من أولها إلى آخرها فى بيت ريفى يملكه آل كابوت فى ولاية نيو أنجلوند عام ١٨٥٠ حيث نجد خارج البيت شجرتين جسيمتين من أشجار الدردار أحدهما تحت البيت من جانب والثانية تحته من الجانب الآخر وقد تدلت أغصانهما المديدة على سطح ذلك البيت الأشهب اللون ذى البوابة الخشبية فكأنما الشجرتان تحرسان أو تحنوان عليه حنو أم شريرة شقية على أبنائها . وكأنما اكتسبت الشجرتان بعض صفات الإنسان لطول معاشرتهما للأحياء . فكلما أمطرت السماء ذرفت أوراقهما العبرات على البيت وآله وليس فى هذا البيت إلا أربعة أشخاص هم آل كابوت ، أفرايم كابوت الأب ، وأبناؤه الثلاثة سميون وبيتر وإيبين ، ومعهم شخص خامس خفى يسكن البيت ويتمشى فى جنباته ولعله يسيّر كل ما يجرى فيه من أحداث دون أن تراه العيون ، وهذا الخامس هو روح زوجة صاحب الدار أفرايم كابوت أو زوجته الثانية التى توفيت من منذ زمن طويل ولكن روحها لا تزال رابضة فى الدار لا تريد أن تبرحها ، وإلى هؤلاء الأربعة أو الخمسة يضاف شخص خامس أو سادس هو آبى بتنام التى جاء بها أفرايم كابوت لتكون زوجته الثالثة فتكون هذه بداية المأساة .

أما رب الدار فهو الآن عجوز فى السادسة والسبعين من عمره طويل القامة صلب العود رغم نحوله الشديد فقد نبت أفرايم كابوت هذا كما تنبت شجرة الصبار وسط القحل والأحجار الجرد بغير ماء يسقيها ولا تربة تغذيها يقاوم الطبيعة القاسية وتقاومه الطبيعة القاسية حتى قهر الطبيعة وجعل من الأرض البور التى تحيط به

حقلا ممرعاً خصيباً ، وهو رغم شيخوخته الطاعنة ثابت كالصخرة يقف على حافة القبر فى صلابة تعلمها فى كفاحه المتواصل مع الأرض أكثر من سبعين عاماً فهو ينظر إلى أولاده الثلاثة سيمون وبيتر وإيبين فى احتقار شديد لأن النعمة دمثتهم ومشت بالطراوة فى أجسادهم وأرواحهم .

وقد تزوج أفرايم كابوت من قبل مرتين فى شبابه ثم فى كهولته أما زوجته الأولى فقد أنجبت له سميون وهو الآن فى التاسعة والثلاثين ، وبيتر وهو الآن فى السابعة والثلاثين ثم ماتت وبعد زمن من الوحدة الكئيبة تزوج أفرايم كابوت سيدة من أهل الجيرة كان بينه وبين ذويها نزاع مستحكم على الأرض وقضايا فى المحاكم لا تنتهى وأنجبت له هذه السيدة أصغر أبنائه إيبين وهو الآن فى التاسعة والعشرين وقد ماتت أم إيبين عن ولدها وهو بعد فى يفاعته فاهتز لموتها وجدانه أيما اهتزاز فقد كانت المظهر الوحيد من مظاهر الحب فى هذه الدار التى لم تعرف فى يوم من الأيام من معانى الحب معنى واحداً ولم تر من ألوان الحياة إلا المكابدة المريرة وشظف العيش وشظف النفوس . لهذا فقد شب إيبين هذا وهو يعتقد أن روح أمه لم تبرح الدار أبداً فهى قابعة فى غرفة الاستقبال حيث رقدت مسجاة عند وفاتها فهى الملاك الحارس الخفى الذى يحرسه من عدوان أبيه .

أما الجو الذى نشأ فيه أفرايم كابوت بولاية نيو أنجلاند فى النصف الأول من القرن الماضى وأنشأ فيه بنيه فهو جو البيوريتان من غلاة المتزمتين فى الدين .

ولم يكن أفرايم كابوت فريداً فى تزمته الدينى فقد كان هذا التزمت مأثوراً عن الكثرة المطلقة من أبناء هذه الولاية فى تلك الفترة من التاريخ حتى لقد وصف الكتاب عقلية بيوريتان نيو أنجلاند ونفسيتهم فى ألف كتاب وكتاب ولا غرابة فى أن يرى أفرايم كابوت ومن حوله من الناس فى الدين عسراً لا يسراً . وألا يروا من صفات الله غير أنه الجبار العنيد الشديد الحساب فما رأوا فى الطبيعة إلا الغلظة والقسوة والضرع الشحيح .

* * *

ونحن الآن فى بيت آل كابوت تحت أغصان الدردار حيث أبناؤه الثلاثة قد اجتمعوا . أما الأب العجوز أفرايم كابوت فقد اختفى من البيت فجأة منذ

شهرين دون أن يبلغ بنيه عن وجهته أو يطلعهم على نيته وفى الأفق الغربى تضطرم شمس المغيب كأنها تغرب فى عين حمئة فيتوهج الأفق بلون الذهب ويتأمل الثلاثة الشمس الغاربة ويقول سميون (فى مقت) : منظر رائع .

بيتر : نعم .

سميون : (فجأة) منذ ثمانى عشرة سنة .

بيتر : ماذا حدث .

سميون : زوجتى جينى . ماتت . وأنا أذكرها من حين لآخر ، وهذا يزيد من وحشتى . كان شعرها طويلا كذيل الحصان ، أصفر كالذهب !

بيتر : (فى لهجة غير مكترثة يحسم بها الموضوع) إنها ماتت . (وبعد صمت) فى الغرب ذهب ياسميون .

سميون : (تائهاً وهو لا يزال متأثراً بألوان الغروب) نعم فى السماء ذهب .

بيتر : نعم إذا شئت بالمجاز — فهذا هو الوعد فى الكتاب (يشتد انفعاله) فى السماء ذهب . . . الباب الذهبى . . . كاليفورنيا ! . . الغرب الذهبى . . . مروج الذهب . . . !

سميون : لقد كدحنا. بذلنا قوتنا . . بذلنا العمر. دفناهما تحت الأرض التى حرثنا (يضرب الأرض بقدمه متمرد) ومع ذلك فنحن نتعفن النهىء التربة لمحصوله .

إن العجوز أفرايم كابوت قد غادر البيت ذات مساء فجأة منذ شهرين وهو لا يزال غائباً . وهو أمر عجيب فهو ما ترك داره منذ ثلاثين عاماً إلا ليقصد إلى القرية . ترى أين يكون ؟ لاشك أنه شد رحاله إلى كاليفورنيا إلى الغرب ، الغرب الذهبى كما يسميه الأمريكيون . باحثاً عن الذهب ، كما كانت عادة الناس أن يفعلوا فى تلك الأيام . هذا ما يظنه أولاده على الأقل .

أما سميون وبيتر فيستقر رأيهما على الرحيل إلى الغرب للبحث عن الذهب لا للبحث عن أبيهما فالحب مفقود بين آل كابوت . فكما كان كابوت العجوز يحتقر أبناءه الضعفاء المذللين فقد كان أبناء كابوت يمقتون أباهم الطاغية القاسى ... بل إن أصغرهم وهو إيبين يصلى إلى الله حتى لا يعود أبوه ، بلى يصلى إلى الله أن يخطف روح أبيه ، فقلبه مسمم بالأفكار السوداء لأنه يعتقد أن أباه قتل أمه

بالإرهاق فى العمل وسوء المعاملة ويستنكر الأخوان سميون وبيتر فى أخيهما هذا الشعور المسموم ويقول سميون إنه لم يستعبد أم إيبين وحدها بل استعبد نفسه واستعبد جميع أولاده ، فهو لم يقتل أم إيبين وإنما قتلها القدر الذى ركب فى هذه الطبيعة القاسية . ولكن هذا التعنيف لا يجدى نفعاً مع إيبين الذى أشرف على الثلاثين ولكنه رغم ذلك لا يستطيع أن ينسى صورة أمه المسكينة التى ماتت من فرط الهم والإجهاد منذ خمسة عشر عاماً . وهو كثيراً ما يراها أو يرى شبحها يمشى فى جنبات الدار ويقف بجوار المدفأة فهى لا تزال بعد مماتها سجينة هذه الدار كما كانت سجينتها فى حياتها وهى لا تجد حتى فى قبرها سبيلا إلى الفكاك من هذا البيت اللعين والانطلاق منه إلى حيث تنطلق الأرواح .

إن إيبين يضيق بالبيت ويمن فيه وإذا كان أبوه قد خرج ولم يعد ، وإذا كان أخواه يرغبان فى السفر إلى كاليفورنيا ، للبحث عن الذهب ، فهو يرغب فى الانطلاق للبحث عن البنت ميني - وهى بنت فاسدة الخلق يسمونها « المرأة الحمراء » يتردد عليها إيبين ويحسب أنه الوحيد الذى يتردد عليها فإذا به يكتشف أن آل كابوت جميعهم يترددون عليها كذلك . ويثور إيبين حين يكتشف ذلك ، ويقول إنه ماض ليهشم رأس « المرأة الحمراء » هذه . . . ولكنه لا يلبث أن يضعف حين يذكر جمالها الفاتن . وأنوثتها الناضجة ورائحتها التى تذكر إيبين الفلاح برائحة حقل « دافئ محروث » وينطلق إليها وهو يحلم بقضاء وقت سعيد .

ويعود إيبين من القرية قبل الفجر وهو منفعل أشد الانفعال . ويوقظ أخويه سميون وبيتر ليقص عليهما ما سمعه عن أبيه أثناء زيارته للقرية المجاورة ، إن العجوز أفرايم كابوت لم يرحل إلى الغرب للبحث عن الذهب . بل رحل إلى بلدة مجاورة ليبحث عن زوجة .

وقد وجد هذه الزوجة وهى امرأة جميلة فى الخامسة والثلاثين من عمرها اسمها آبى وهو قادم بها إلى الدار فى مطلع النهار .

ويسقط فى يد سميون وبيتر حين يسمعان هذا النبأ . أما إيبين فهو ثائر ولا سبيل إلى تهدئة ثورته . إن الحقل والدار وكل ما يملكه أبوهم العجوز سوف يؤول الآن بعد وفاته إلى زوجته الثالثة هذه . فما جدوى البقاء مع أبيهم بعد الآن ؟ إن ثلاثتهم

سيكدون ويكدحون كما كانوا يكدون ويكدحون ولكن من أجل هذه الدخيلة ، كلا إن سميون وبيتر يعرفان طريق الخلاص وهما عازمان إلى الرحيل إلى الغرب لبحث عن الذهب . إنهما لن ينتظرا عودة أبيهما العجوز بعروسه الشابة بل سينطلقان على الفور ما إن تبزغ تباشير الفجر .

أما إيبين فهو يأبى أن يغادر الدار فهو يشعر أنه مقيد بها بأغلال من حديد ، إن الحقل والدار وأكثر ما يملكه أبوهم العجوز أفرايم كابوت إنما هو ملك لأمه . . أو كان من قبل ملكاً لأمه من أسرتها حتى جاء أبوه الخبيث الماكر وسرقه منها ، فقد كانت بينه وبين أسرة أمه دعاوى أمام القضاء على ملكية الأرض ، وقبل أن يغلب على أمره تقدم هذا الماكر اللعين لخطبة بنت خصومه وتزوج منها وهكذا استولى على الأرض بالزواج حين عجز عن الاستيلاء عليها بالقضاء ، ومنذ أن ماتت زوجته الثانية أم إيبين وهو يتصرف فى ميراثها كأنه ملك له ويستخدم إيبين صاحب الحق فى كل شيء واستخدامه لأجير يعمل لبطنه . . . والآن ؟ . . . الآن سيؤول الحقل والدار والمال المدخر إلى هذه البغى الجديدة آبى ، التى يسمونها زوجته . فهى لاشك بغى لأنها ترضى وهى امرأة فى الخامسة والثلاثين أن تبيع نفسها لشيخ فان فى السادسة والسبعين لتستولى هى على أملاكه بعد وفاته .

كلا . . . إن إيبين لن يرحل إلى الغرب ولكنه سيبقى ليستخلص جميع حقوقه من أبيه ومن هذه المرأة الدخيلة وسوف تعينه روح أمه القابعة فى الدار حتى ينتصر فى هذه المعركة . وحين ينتصر فى المعركة سترتاح روح أمه فى مثواها ويعود إليها الهدوء والسلام .

وإيبين يعرف أين كانت أمه تخبئ المال المدخر ، وهو فى الحقيقة ماله ، فلا ضير عليه إن هو استولى عليه فى غيبة أبيه . ويعرض إيبين على أخويه أن يزود كلا منهما بثلاثمائة دولار تعينه فى رحلته إلى الغرب إن هو وقع تنازلا له عن كل حقوقه فى الدار وفى الحقل . ويقبل سميون وبيتر هذا العرض وتنازل كل عن نصيبه فى تركة لا رجاء منها ، وينطلقان فى الصباح الباكر فى طريقهما إلى كاليفورنيا للبحث عن الذهب ، ويبقى إيبين وحده فى الدار ليواجه أباه وأمه الجديدة والمستقبل الغامض الذى ينذر بشر مستطير .

ولكن العجوز أفرايم كابوت يصل ومعه عروسه الشابة إلى الدار قبل أن يرحل عنها سميون وبيتر ، فقد كان كل منهما يجمع أشياءه ويعد عدته حتى أدركهما الصباح العريض ، وتتلفت آبى حولها وتجيل البصر فرصة فى الدار وما (حولها) كأنها عثرت على كنز وتصيح قائلة :

آبى : إن البيت جميل ! نعم جميل ! لا أصدق أنه بيتى حقيقة !

كابوت : (بحدة) بيتك؟ إنه بيتى (يحدق فيها ببصر نافذ ، فتحدق فيه ببصر نافذ، فيمضى قائلا وقد رق لها قلبه) : فلنقل إنه بيتنا .

لقد سادته الوحشة أطول مما يجب وجاء الربيع فأحسست بالشيخوخة ، لا بد للبيت من امرأة .

آبى : (فى صوت يسوده التملك) ولابد للمرأة من بيت !

ويقع بصرهما على سميون وبيتر عند باب الحديقة وينهرهما كابوت لأنهما لم يخرجا للعمل مع بزوغ الفجر .

سميون (بخشونة) : انتظرنا لنرحب بك عند عودتك أنت وعروسك الجديدة

كابوت (مضطرباً) : صحيح ؟ هذه أمكما الجديدة .

سميون : (يتحول عنها ويبصق باحتقار) إنى أراها !

بيتر : (يبصق أيضاً) وأنا أراها .

وينصح الولدان أباهما أن يؤوى زوجته الجديدة فى حظيرة الخنازير فهذا مكانها . إنهما الآن يتنفسان نسيم الحرية. وهما يسخران من أبيهما الهرم ومن زوجته الشابة سخرية مرة يصعق لها أفرايم كابوت ، وهكذا ينطلق سميون وبيتر إلى الرحاب الواسعة بعد أن حطما أغلال الاستعباد. ويقذفان النوافذ الزجاجية بالأحجار قبل انصرافهما . وهما يغنيان الأغنية المعروفة « آه يا كاليفورنيا ، أنت أرض مناى ! » أما آبى فلا تهتز لهذا الاستقبال السيء . فقد كانت تتوقع شيئاً من هذا القبيل ، بل هى تسر لرحيل سميون وبيتر عن الدار إلى الأبد ، وتعد أنها كسبت نصف المعركة . ولم يبق إلا إيبين فإن عرفت كيف تروضه أو تتخلص منه خلا لها الجو وأصبحت سيدة البيت بالمعنى الكامل .

وحين تلتقى بإيبين يوسعها إهانة وغلظة ويكون بينهما شجار عاصف فهو

يعيرها بأنها بغى باعت نفسها لشيخ فان من أجل المال ، وهو يلعنها لأنها احتلت مكاناً ليس مكانها بل مكان أمه التى تحيا ذكراها فى كل شىء بالدار ويجوس شبحها خلال جنباته .

وتعلم آبى أن إيبين ليس كأخويه غليظ النفس خشن الطباع ، فهو قد ورث عن أمه رقتها وضعفها ، وإذا كان إيبين يضيق بها الآن ويغلظ لها القول فلعلها مستطيعة بما أوتيت من دهاء أن تروضه وأن تجعل منه صديقاً لها .

وما إن تخلو آبى بإيبين حتى تحاول أن تستدر عطفه فتقص عليه أشياء عن فقرها وفقر آلها وقسوة الحياة عليها ، فلولا قسوة الحياة عليها لما تزوجت من شيخ على حافة القبر كأفرايم كابوت ، ويثور إيبين فى وجهها ويهددها أنه سيبلغ أباه قولها إنها ما تزوجته إلا لماله ، فتتنمر له آبى قائلة إنها ستكذبه وتكيل له أشنع الاتهامات . ثم تعود آبى إلى نعومتها الأولى ، بل وتستخدم مع إيبين ما حبتها به الطبيعة من دلال الأنثى وإغرائها فتمسك بذراعه قائلة : إنها تأمل أن تكون صديقة له وأن يكون صديقاً لها . ويضعف أمامها إيبين مسحوراً بجمالها فيجيب بالإيجاب . ولكنه لا يلبث أن ينتزع ذراعه من قبضتها غاضباً وهو يصيح « كلا ، كلا . أيتها الساحرة اللعينة ! إنى أمقتك ! » ويتولى عنها فى هياج شديد وقد أعماه الغضب .

وتكون حرب خاطفة مدمرة بين إيبين وآبى فهذه الزوجة الشابة تشتهى ابن زوجها اشتهاء مدمراً خالطه جشعها ورغبتها فى أن تلعب به وبأبيه لتكون هى سيدة البيت فيؤول إليها كل شىء . ويشتهى إيبين هذه الساحرة اللعينة اشتهاء مدمراً . ولكنه يمقتها فى الوقت نفسه من صميم فؤاده ، وهى تعلم بحالها وبحاله ، أما هو فيصدها عنه آن صداً عنيفاً ويضعف أمامها آناً ضعفاً صريحاً .

وذات يوم قائظ من أيام الأحد تتصدى آبى لإيبين وهى فى أحسن زينة تحت شجرة الدردار وتوحى له أن يكسر الحائل القائم بينهما وأن ينساق معها فى الحب المحرم فهى تقول له إنه يحبها وإنه يغالب طبيعته ، ولكن هيهات له أن ينتصر على طبيعته وتهمس له فى إغراء .

« ألا ترى الشمس قوية ؟ إنك تحس بنارها تلهب الأرض وتضرم جسد

الطبيعة ، فتنمو بها الأشياء ، وتزداد نمواً . إنها تضطرم فى أحشائك وتجعلك تشتاق إلى النمو فتصير إلى شىء آخر حتى تتحد مع هذا الشىء وتمتلكه فإذا به ملك لك . ولكنك تصبح ملكاً له كذلك ، إنها تجعلك تنمو نمو الشجرة . تنمو كشجر الدردار هذا الوقف أمامنا . . إن الطبيعة ستقهرك يا إيبين فمن الخير لك أن تعترف بالهزيمة منذ الآن .

وينسى إيبين نفسه لحظات ويندفع نحوها كالمشدود بمغناطيس فى سحرها ، ولكنه لا يلبث أن يثوب إلى رشده . فيبتعد عنها وهو يندد برغبتها فى خيانة زوجها واستغفاله قائلا فى تحد : « لا . لا . إنى سأحاربه . وسأحاربك . سأحاربكما حتى أستخلص حقوق أمى فى هذا البيت . . . »

ويهم بالمضى عنها فتستوقفه . إن اليوم يوم الأحد وهو ماض إلى القرية . ولكن آبى لا يروقها أن يمضى إيبين إلى القرية ، وهى تعيره بصاحبته البغى مينى التى يعودها كلما مضى إلى القرية . أما إيبين فيجيبها ساخراً إن البغى مينى أشرف منها ألف مرة لأنها لا تدعى العفة . ولا تستتر فى زى الزوجة الطاهرة ولا تلقى كل هذه الأحابيل لتستولى على حقله ومتاعه » .

وفيما هما يتشاجران على هذا النحو . يأتى كابوت العجوز ويستفسر فيم الصياح . وينصرف إيبين وتنكر آبى أن فى الأمر شيئاً . وتبدو الدماثة والرضا على وجه العجوز على غير عادته . إن أفرايم كابوت قد انتابه تطور منذ زواجه فهو الآن أقل تصلباً وقسوة مما كان فى الماضى . وهو يتحدث كثيراً عن شيخوخته فى استسلام ليس من خلقه . ويفكر فى قرب وفاته كأنه أدى رسالته فى الحياة ، بل هو يتحدث فى عطف ليس من شيمته على ولده إيبين الذى لم يرحل كأخويه الجاحدين بل بقى إلى جواره . . . حتى تثور الغيرة فى قلب آبى . ويتبادر إلى ذهنها أنه قد يترك له الميراث كله . وتقول :

آبى : إذن فأنت تفكر فى أن تترك له الحقل ؟

كابوت : (ذاهلا) أترك الحقل . . . ؟ (غاضباً فى عناد) أنا لن أترك الحقل لأحد !

آبى : (ميتة الشعور) إنك لن تأخذه معك إلى الآخرة .

كابوت : (يفكر لحظة ثم يقول على الرغم منه) صحيح أننى لن آخذه معى (بعد صمت وشعور غريب) ولكنى أقسم بالله لو كان فى إمكانى أن آخذه معى لأخذته ولو استطعت ساعة منيتى أن أضرم فيه النار وأتأمله وهو يحترق لفعلت .

نعم لو استطاع العجوز كابوت أن يدمر كل شىء حتى لا يتمتع أحد بثمرة كده وكدحه طول حياته لفعل . إلا الأبقار . فقد كان كابوت يحب أبقاره وسيطلقها لتسعى مرة أينما شاءت عند موته وحين تسأله آبى عما اعتزم أن يفعله بها يجيبها أنه سيطلقها لتسعى حرة بعد موته . وتغضب آبى لذلك وتتأكد فى نفسها مخاوفها فتتحامل على إيبين وتكيد له عند أبيه قائلة ، إنه فاسد الخلق يعاشر البغى مينى ولا يرعى حرمة ليوم الأحد . بل تدعى أن إيبين يغازلها وحين تثور ثائرة كابوت يفكر فى قتله ويبدأ فى البحث عن بندقيته تعود آبى فتطمئنه قائلة إن إيبين يهزل معها لا أكثر ولا أقل . ويهدد كابوت بطرد إيبين من مزرعته ، ولكن آبى تتمسك به قائلة إن الحقل بحاجة إلى ذراعه القوية . ومن العقل أن ينتظر كابوت حتى تنجب هى له غلاماً يكبر ويقوم مقامه .

وحين يسمع الشيخ ذكر الغلام تلمع عيناه زهواً ويستخفه الطرب وتقول الزوجة الماكرة إنها تصلى لله صباح مساء ليرزقها بغلام . وتأخذ كابوت النشوة فيقسم لزوجته أنه سيجيبها إلى كل ما تطلب إن هى جاءته بغلام . وهل لآبى إلا مطلب واحد . وهو أن يوصى لها بحقله بعد موته ؟

ألم يزل كابوت قوياً رغم سنينه الكثيرة وهو أخشن من أبنائه الذين أفسدتهم الراحة . إنه تعلم الصلابة فى مدرسة الحياة القاسية . فليس محالا أن ينجب غلاماً فى هذه السن الطاعنة . وما قيمة الزوجة بغير غلام ؟ . إن آبى لن تنال منه شيئاً إلا إذا أنجبت له غلاماً من صلبه يرى نفسه فيه ويستمر به بقاؤه على وجه الأرض . وتعده آبى بذلك فيعجب كابوت لوثوقها من شىء فى علم الغيب . ويحدجها بنظرة فاحصة . فهو لا ينسى رغم صلابته أن عظمه قد وهن وأن صلابته صلابة مارد هرم لا يريد أن يموت . أما آبى فتقول إن الله سيستجيب لصلاتها . وهنا يطمئن قلب هذا العجوز المؤمن بالله وقدرته .

ولكن فى نفس آبى شيئاً آخر غير الصلاة لله فهى تفكر فى إيبين تفكيراً آثماً . إنها تحب هذا الفتى النافر الملىء بالعواطف المتناقضة ، وسوف تحاصره حتى يستسلم . ويكون لها ما تريد ، فى تخلو بإيبين بعد عودته من القرية ، وتضرم جسده بالنار بالإغراء الصريح وتقبله فينسى نفسه ويقبلها ولكنه يعود إلى صوابه فينهرها ولا تترك آبى إيبين إلا بعد أن تحس أنه قد غلب على أمره . وهى تقول إنها تنتظره فى حجرة الاستقبال المغلقة منذ ماتت فيها أمه . نعم . إن آبى قد سيطرت على كل ما فى الدار إلا هذه الحجرة المغلقة وقد قررت أن تفتحها وأن تطرد منها شبح أم إيبين كذلك . وتبع إيبين آبى إلى هذه الحجرة مضطرب النفس . تتصارع فيه الخواطر ويحس بروح أمه تتحرك فى الحجرة فيستنجد بها لكى تلهمه الصواب . وتقول آبى إنها تحبه حب الأم لولدها وحب العاشقة لعاشقها . ويقول إيبين إن أمه تمقتها لأنها احتلت مكانها . فتقول آبى بل إن أمه تحبها لأنها تعلم أنها تحب إيبين . وأنها تحيا فيها كما تحيا فيه . ويتملك إيبين شعور غريب جارف : إن هذا الحب الآثم هو شر انتقام لأمه من أبيه الذى سلبها مالها وقتلها بالقسوة والإذلال . وإنه لمنتقم لأمه من أبيه حتى تهدأ روحها الهائمة . ويستسلم إيبين لهذا الحب الآثم . ويفرج لآبى عن كل ما به من عواطف مكبوتة وشهوات حبيسة فى مرجل الجسد .

ولأول مرة يستيقظ إيبين فى الصباح الباكر قبل أبيه . ويحس بأنه سيد هذا البيت الملعون . ويعنف أباه على كسله وقعوده عن الخروج إلى الحقل مع الشروق .

* * *

وفى الربيع تلد آبى غلاماً . وبعد أسبوعين تنقه تماماً ويقيم كابوت حفلا بهيجاً راقصاً فى الدار ليحتفى بمولوده . وتجرى الراح أنهاراً ويستقبل كابوت وآبى أهل الجيرة من نساء ورجال . وهما فى سعادة لا توصف . أما الضيوف فيتغامزون ويسخرون منها بمعوج الكلام . تلميحاً يوشك أن يكون تصريحاً — فأهل الجيرة على علم بما يجرى فى دار كابوت . ويدلل لهم كابوت على قوته فيرقص رقصة سريعة طويلة يتعب منها لاعب الكمان ولا يتعب هو . ولكن كابوت رغم مرحه الشديد ومباهاته بقوته يساوره إحساس غامض ينقبض له صدره كأنه هم خفى يتساقط

من شجر الدردار . وينساب فى نفسه ويستقر فيها فلا يجلوه رقص ولا تبدده الأنغام .

والكل يسأل عن إيبين فى ضحك وتغامز وإيبين معتكف فى حجرته ويزجر كابوت إيبين لامتناعه عن المشاركة فى الاحتفال قائلا إن أمثاله من الشبان يتعرفون على عرائسهم فى أمثال هذه الحفلات . إن إيبين قد نضج للزواج ، ولعله يجد بين بنات الجيرة من يتزوجها فتأتيه بحقل يستقر فيه ، وهنا يثور إيبين حين يتذكر أن أباه ما تزوج أمه إلا ليستولى على مزرعتها .

إن إيبين ليس بحاجة إلى حقل لأن عنده حقله ، وهو هذا الحقل الذى تركته أمه وكدح فيه طول حياته . ويثور كابوت قائلا إن الحقل سيؤول للوليد الجديد ، فقد عاهدته آبى أن تنجب له غلاماً وعاهد آبى أن يوصى لها بالحقل إن هى أنجبت له غلاماً . بل إن الوقت قد حان ليرحل إيبين عن الدار فبقاؤه فيها غير مرغوب فيه . فآبى قد قالت له إنه يغازلها ولولاها لقتل كابوت إيبين منذ شهور . أما الآن فلم تعد به إليه حاجة . فالحقل حق آبى وابنها ولإيبين عرض الطريق .

ويغلى الدم فى رأس إيبين . ويهم بالمضى لقتل هذه المخادعة التى تتجر بالحب لتستولى على الحقل ويتصدى كابوت لإيبين ليحول دون خروجه ويشتبك الأب والابن فى صراع فظيع . ويقبض كابوت على حلق إيبين بيد من حديد حتى يوشك أن يخنقه . وتبلغ الجلبة مسامع آبى فتخف إليهما وتفصل بينهما .

ويمضى كابوت إلى ضيوفه . أما إيبين فيعزم على الرحيل . لقد أدرك حقيقة الموقف . إن هذه البغى قد فعلت كل هذا لتستولى على الحقل عن طريق ابنها بعد أن عجزت عن امتلاكه بشخصها . ولكن إيبين لن ينصرف حتى يطلع أباه على الحقيقة . وهكذا يتركه فى جحيم لا يطاق بين زوجة زانية وابن سفاح .

ويطير لب آبى حين تعلم بعزمه على الرحيل . إنها تحب إيبين حباً مدمراً ولا تطيق الحياة بدونه . إنها تعترف أنها بدأت بإغوائه لتستولى على الحقل ، ولكنها الآن تحبه بكل كيانها . وقد استولى عليها إيبين . فإن أراد أن يستولى على الحقل كذلك فهو له إن كل ما تطلبه هو أن يبقى إيبين إلى جوارها ، وإذا كان هذا الوليد الشقى هو الحائل بينهما فإنها ستقتل وليدها لتثبت لإيبين أنها قد أمست تحبه

لذاته وأن حبها له يتجاوز حبها لأعز شيء فى الوجود ، ويرق لها قلب إيبين ، وفى غمرة الحنان يوافق على البقاء .

وفى أعجاز الليل تنهض آبى إلى فراش طفلها وتزهق أنفاسه بالوسادة ، ثم تركع إلى جوار الفراش فيما يشبه البحران .

وعند الفجر تنطلق آبى إلى إيبين وقد تملكتها الهستريا قائلة إنها قتلته ، ويحسب إيبين أول الأول أنها قتلت أباه فلا يحفل بهذا النبأ . إن رأيه قد استقر أثناء الليل على الرحيل إلى الغرب . . . إلى كاليفورنيا وقد أعد حقيبته . إنه لن يطلع أباه على الحقيقة وسيترك روح أمه لتثأر منهما . ولكنه حين يعلم أن آبى قد قتلت طفلها وطفله يجمد الدم فى عروقه ويتهافت جاثياً على ركبتيه صائحاً : « يا إلهى ! يا إلهى ! أين كنت يا أماه لماذا لم تمنعيها يا أماه ! » ويخفى إيبين وجهه فى راحتيه . ثم ينتابه هياج فظيع ، وينطلق إلى القرية ليبلغ الشرطة بهذه الجريمة النكراء .

ويستيقظ كابوت فى الضحى وقد نام نوماً هادئاً لأول مرة فى حياته . ويمضى إلى الطفل ليهش له ويلاعبه . وحين يعرف الحقيقة ينتابه الذهول . ثم يجن جنونه . ويهم بقتل آبى ، ولكن آبى بعد أن قتلت فلذة كبدها فى لحظة جنون لم تعد تكترث لشيء فى الوجود . وتصرخ آبى فى وجه زوجها العجوز أن يغرب عن وجهها . إن الطفل ليس ابنه ، بل ابن حبيبها إيبين ، وياليتها قتلت هذا العجوز الأبله بدلا من أن تقتل طفلها . وتنتحب آبى انتحاباً مريراً ما له آخر .

ويعود إيبين من القرية عدواً قبل أن يصل رجال الشرطة . إنه قلب الأمور على كل وجه . وهو يرى أنه شريك لآبى فى هذه الجريمة الفاجعة . إنه شريكها فى الحب الآثم . وشريكها فى قتل ولده . أو لم يوافقها على التخلص من ولده حين عرضت عليه ذلك أثناء الليل لتستبقيه ؟ إنه قد عجل إليها قبل أن يصل الشرطة ليهرب معها إلى الغرب حيث يبدآن حياة جديدة ولكن آبى تستمع إليه فى هدوء وحنان عميق . كلا . إنها لن ترحل إلى الغرب ، ولن تبدأ حياة جديدة . إنها قتلت ولدها ولابد أن تدفع ثمن هذه الجريمة المنكرة ، إنها ستنتظر الشرطة وتكفر بدمها عما جنت يداها .

وإلى جوارها يقف إيبين ليحمل نصيبه فى القصاص إنهما يتناجيان الآن

بنجوى المحبين فى وضح النهار ، لا يرهبان شيئاً حتى الموت .

وحين يأتى الشرطة يمضى العجوز كابوت إلى حقله وأبقاره ولكنه لا يخرج كعادته للحرث والحصد . بل يخرج ليحرق الجرن ، ويطلق الأبقار لتسعى حرة فى خلوات الله والغابات . وينطلق هو إلى الغرب حيث مروج الذهب وهو يعلم أنه لن يتمم رحلته بل يتطلع إلى السماء الضاحكة حيث مروج الذهب لا ينضب لها معين .

ولا يبقى فى الدار إلا روح أم إيبين تتنقل فى جنباتها وتزمزم فى حفيف الدردار .. لها الدار والحقل وكل ما اغتصبه منها الأحياء .

وبعد طول رحيل . . .

الليل يرخي سدوله

للكاتب الأمريكي : يوجين أونيل

كان يوجين أونيل إلى يوم وفاته عام ١٩٥٣ عن خمسة وستين عاماً دعامة من أكبر دعامات المسرح الحديث وقد برز بوجه خاص فى إنشاء المآسى ، ومن النقاد من يعده ملك التراجيديا فى فترة ما بين الحربين ، وقد كُلل إنتاجه المسرحى بأعظم تكريم يمكن أن يظفر به كاتب معاصر ففاز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٣٦ ، وهى جائزة لا تمنح إلا لأدباء الطراز الأول الذين استقرت مكانتهم فى الأدب العالمى . واعترف الخاص والعام بأن آثارهم من الشوامخ التى لا يأكلها الدهر أو يبليها تغير الأذواق والمقاييس .

وأهم مسرحيات هذا الكاتب العظيم . الإمبراطور جونز » ١٩٢١ و « آنا كريستى » ١٩٢٢ و « كل أطفال الله لهم أجنحة » ١٩٢٢ و « الشهوة تحت الدردار » ١٩٢٥ و « الحداد يناسب أليكترا » ١٩٤١ إلخ . . . وتمثل مآسى يوجين أونيل فى كل مكان فلا يكاد يخلو موسم من مواسم المسرح فى أية حاضرة من حواضر العالم المتحضر من عرض لمسرحية أو أكثر من مسرحياته .

وهذه المأساة التى نلخصها ليست من أروع ما كتب وليست آخر ما كتب ولكنها آخر ما نشر له . فقد أخرجتها مطبعة جامعة ييل ١٩٥٦ بعد أن ظلت مخطوطاً منذ أن وضعها عام ١٩٤٠ ولم يقدم صاحبها على نشرها أثناء حياته لأنها تصور جانباً فاجعاً من جوانب حياته الخاصة بين زوجه وبنيه . فهى بمثابة حلقة فى سيرة يوجين أونيل نفسه نقرأها أو نراها على المسرح فنأسى لهذا الكاتب الممزق الذى يعيش فى أسرة لا نعرف لها وصفاً . فنقول إنها أسرة ملعونة تطارد أفرادها أشباح غريبة ويختلط فيهم الحب والأنانية والشذوذ فهى إذن حلقة مقفلة أطبقت عليه ولا مخرج له منها إلا بالنهاية الفاجعة . والحياة فى هذه الأسرة أشبه شيء برحلة طويلة فى نهار

طويل لا ينتهى إلا بعد أن يرخى الليل سدوله ؛ لأنها لا تنتهى بالموت ، كما ينتهى النهار بالليل بل تنتهى بالجنون .

ويوجين أونيل أمريكى من أصل إيرلندى ولهذا فهذه الأسرة التى يطلعنا على حياتها أسرة أيرلندية استوطنت أمريكا . وهذه حقيقة لا سبيل إلى إغفالها . فالأيرلنديون قوم لهم خصائصهم وعقائدهم التى لا ينزاون عنها مهما باعدت الأيام بينهم وبين وطنهم أيرلندا ومهما طالت السنون وتعاقبت الأجيال . فهم كاثوليك متمسكون بالكثلكة إلى حد التعصب وهم يرون أيرلندا فى كل شىء : يرونها فى طعامهم وشرابهم ولباسهم وأحلامهم وأخذهم لكل أمر من الأمور . وهم قوم طباعهم حامية يغلى دمهم ويفور لأقل استثارة . وهم قوم أصحاب نكتة مريرة قاسية وخيال خصب ملىء بالهواجس الناجعة السوداء وبالمعتقدات التى اختلط فيها المنطق الصارم بشعر الأساطير . وهم إلى جانب كل هذا وذاك قوم يقبلون على الشراب .

كل هذه الخصائص والصفات نجدها مجسدة فى آل تيرون ، وآل تيرون هم أفراد هذه الأسرة التى يصفها لنا يوجين أونيل وما وصف إلا نفسه وذويه ، مع شىء قليل من التصرف الذى يقتضيه الفن ويرضاه الخيال .

وآل تيرون أربعة هم جيمس تيرون الأب وهو ممثل فى الخامسة والستين من عمره قوى البنيان عريض الصدر جهير الصوت جميله ، وزوجه مارى تيرون وهى امرأة فى الخامسة والخمسين من عمرها تميل إلى السمنة قليلا ولا يزال لها جمالها ، ولكن آثار السنين تجلت على وجهها أكثر مما تجلت على وجه زوجها ، وهى عصبية تغالب طول الوقت لتخفى اضطرابها العصبى . ثم الابن الأكبر وهو جيمى تيرون وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره وهو رجل قوى البنية كسول متلاف يحترف التمثيل كأبيه ولكن على كره منه لأنه يؤثر البطالة والشراب وارتياد النساء الفاسدات على العمل ويعيش نصف عامه عالة على أبيه وأخوه أدموند وهو فى الرابعة والعشرين وهو شاب مصدور ناحل ضعيف البنية ينخر السل فى جسده دون أن يعلم حتى تتكشف أعراضه فيعرض نفسه على الطبيب .

ونحن نقيم بين أفراد هذه الأسرة يوماً كاملاً ، فندخل الحجرة الرئيسية بدار

آل تيرون فى الصباح الباكر حيث يستيقظون ويجتمعون بعد الفطور ثم حين يجتمعون بعد الغداء ثم حين يجتمعون مرة ثالثة فى المساء ثم لا تتركهم إلا بعد منتصف الليل ؛ فعندئذ ينسدل الستار الأخير على هذه الأسرة القلقة المضطربة .

وتبدو مارى فى هذا الصباح أحسن صحة وأهدأ أعصاباً من أى وقت مضى فيقبل عليها زوجها فى حدب وحنان قائلا : « إن هذا الخجل من آثار الوهم يا مارى . إن كنت قد تأملتك فما ذلك إلا لأعجب بامتلاء جسمك وبجمالك البهى (وهنا يهتز صوته بشعور عميق) أنا لا أستطيع أن أصف لك مبلغ سعادتى . يا حبيبتى حين أراك تحتفظين بصحتك كما كنت يوم عدت إلينا فى حالتك الطبيعية مرة أخرى .

وبعد أن يفرغ الولدان جيمى وأدموند من تناول طعامهما ينضمان إلى والديهما وهما يتضاحكان . وحين يستفسر تيرون الأب عن سر هذا المرح الشديد يروى عليه أدموند طرفاً من أنواع الشحان التى تجرى بين أهل الجيرة . فهنالك المزارع الماكر الأيرلندى الأصل شونسى الذى يأكل حقوق الناس ويدأب فى شكواه لعله يستطيع أن يخفض إيجار الأرض التى أجرها له تيرون الأب ، بل ولا يدفع إيجار الأرض إلا حين يهدده تيرون باستصدار أمر الإخلاء .

وهناك المليونير هاركر صديق تيرون الذى يستثمر ملايينه فى شركة استاندارد أويل . وقد نشب بين الرجلين عراك لأن خنازير شونسى قد كسرت السياج الحاجز بين حقله وضيعة هاركر وذهبت تستحم فى بركة هاركر المغطاة بالجليد فى الصيف بالتبريد وقد أكد خولى هاركر لهاركر أن شونسى كسر السياج السياج عمداً حتى تغتسل خنازيره مجاناً .

أما شونسى فقد قصد إلى الحان وشرب كأسين ليتشجع وهنالك واجه المليونير هاركر وسبه واتهمه بأنه أوعز إلى الخولى الذى يعمل فى ضيعته أن يكسر السياج عمداً ليجتذب خنازيره إلى بركته المغطاة بالجليد ليهلكها . وقد هلك منها فعلا عدد عظيم بعد أن أصيب بالالتهاب الرئوى ثم نفق . وقد رفع شونسى دعوى على هاركر مطالباً بالتعويض عما أصابه من أضرار .

أدموند : وقلت لشونسى إنه كان ينبغى عليه أن يذكر هاركر بأن من كان

مليونيراً مساهماً فى استاندارد أويل وجب عليه أن يرحب بطعم الخنازير فى مائه المثلج فهذا يناسب الحال .

تيرون : أقلت ذلك بحق الشيطان ! (عابساً) لا تزج بعواطفك الاشتراكية الفوضوية فى شئونى !

ويعنف تيرون ولده المريض أدموند على هذه الفكاهة التى لا يرى لها موضعاً فهو لا يحب أن يشتبك فى القضايا التى يرفعها الناس على الناس ، فينصرف أدموند إلى غرفته ممتعضاً وقد أخذه السعال . وتأخذ مارى الشفقة بولدها فتقول

مارى : لا تعتب على أدموند يا جيمس وتذكره أنه مريض . إن سعال الصيف يجعل أى إنسان متوتر الأعصاب .

جيمى : (فى قلق حقيقى) إن ما به ليس مجرد سعال ، فالولد مريض جداً (يحدجه أبوه بنظرة حادة محذرة ولكنه لا يلحظها) .

مارى : (تثور عليه ، ولم تقول ذلك ؟ إن سعاله من سعال البرد وهذا واضح لكل من يراه أنت دائماً فريسة للأوهام .

تيرون : (يحدجه بنظرة أخرى محذراً ويقول ببساطة) إن كل ما قصد إليه جيمى هو أن أدموند قد يكون به شىء من داء آخر أيضاً مما يجعل البرد عنده حاداً

جيمى : نعم يا أماه . هذا كل ما قصدت إليه .

وهكذا يجتهد تيرون وجيمى لإخفاء الحقيقة عن مارى. وما الحقيقة ؟ إن أدموند مصاب بذات الرئة . ولكن هذا لم يتأكد بعد فالدكتور هاردى طبيب الأسرة مشتبه فى أمره . وما إن تخرج مارى حتى يدور هذا الحديث بين تيرون وجيمى .

تيرون : إنه لا يستطيع أن يقطع بشىء حتى الآن ، وسيتصل بى اليوم تلفونياً قبل أن يذهب إليه أدموند .

جيمى : (فى بطء) إنه يعتقد أنه مسلول أليس هذا اعتقاده يا أبى ؟

تيرون : (على كره منه) قال ربما كان ذلك .

جيمى : (متأثراً وقد هاجه حبه لأخيه) مسكين هذا الولد لعنة الله على هذا (يهاجم أباه متهماً إياه) لو أنك أرسلته إلى طبيب حقيقى حين بدت عليه علته لما حدث هذا .

تيرون : وما عيب هاردى ؟ لقد كان طبيبنا دائماً .

جيمى : إن به كل العيوب ! وحتّى فى هذه المدينة التافهة يعده الناس فى الطبقة الثالثة بين الأطباء . إنه دجال عجوز رخيص !

تيرون : استمر ! شنع به ! شنع بالجميع ! الجميع عندك دجالون !

جيمى : (باحتقار) إن هاردى لا يتقاضى إلا دولاراً واحداً وهذا ما يجعلك تظن أنه طبيب عظيم !

ويحتدم الشجار بين تيرون وجيمى . إن تيرون يدعى الفقر فكل أملاكه مرهونة ، ولكنها فى الواقع مرهونة لأن يشترى باستمرار أرضاً جديدة بدلا من الوفاء بديونه القديمة ، وهو أكبر الملاك فى المنطقة كلها . فهو المسئول عن مرض أدموند لبخله الشديد . أما تيرون فيقول مهتاجاً إن المسئول عن علة أدموند هو جيمى نفسه لأنه ولد فاسد قضى كل شبابه فى العربدة ولا يزال ينفق كل سنت يكسبه على الويسكى وعلى العاهرات . وقد ضرب أسوأ مثل لأخيه الصغير أدموند الذى تشبه به فى سوء السلوك . وجيمى بطل قوى لا تؤثر العربدة فى صحته أما أدموند فوا أسفاه ، فهو فتى ضعيف البنيان حطمت العربدة حياته وقد طرد جيمى من المدرسة لسوء سلوكه ثم طرد أدموند من المدرسة لسوء سلوكه أيضاً . وها هو ذا جيمى الآن يعيش عالة على أبيه ولا يمكث فى عمل من الأعمال إلا شهوراً ثم يضيق به ويعود إلى ذويه مؤثراً حياة البطالة والشراب .

وسواء كان تيرون هو المسئول عن انهيار صحة أدموند لفرط بخله أو كان جيمى هو المسئول عن ذلك بسبب لياليه الحمراء . فإن هذه لم تكن المشكلة الوحيدة فى حياة آل تيرون . بل كانت هناك مشكلة أخرى لا تقل عنها خطراً هى مشكلة الأم مارى . فكما أن ولدها أدموند صاحب علة فهى أيضاً صاحبة علة من نوع آخر . وأهم ما فى الموضوع الآن أن يكتم الجميع عنها هذا النبأ حتى لا تثقل عليها . فتنهار انهياراً تاماً . ولا سيما أنها تعلم أن أباها الذى كانت تحبه وتجله إلى حد العبادة قد مات مصدوراً . ثم إن الطب قد تقدم تقدماً عظيماً . فلا بأس اليوم من النجاة من داء السل ، ولكن كيف السبيل إلى إقناع مارى بكل هذا إذا كانت خرافات الأيرلنديين البسطاء التى تملأ رأسها تقول إن السل داء لاشفاء

منه ولا نجاة ؟ والواقع أن جيمى أكثر أفراد الأسرة قلقاً على مارى لأنه يعرف شيئاً لا يعرفه أحد سواه . فلقد رآها فى الليلة السابقة تنهض فى الهزيع الأخير من الليل وتدخل حجرة أدموند لتطمئن على صحته بعد أن اشتد عليها السعال ، ثم رآها تتوارى فى حجرة النوم المهجورة التى لا يدخلها أحد لأنها مخصصة للضيوف ، وجيمى يخشى أن تكون أمه قد عادت إلى سيرتها الأولى بعد أن ظن الجميع أنها قد شفيت منها تماماً . وقد أثار هذه الهواجس فى نفسه علمه أنها كانت قبل شفائها من دائها تتوارى دائماً فى هذه الحجرة المنعزلة المهجورة . ولقد تلصص عليها جيمى طول الليل وادعى النوم ولكنه كان فى الواقع يسترق السمع ليحصى عليها خطواتها .

ولكن لعل هواجس جيمى فى غير محلها . فالكل يعلم أن مارى قد شفيت تماماً من دائها ومن حق الأم أن تقلق على ولدها فتنهض أثناء الليل لتطمئن على صحته .

جيمى : (متألماً) كفى اتهاماً قلت لك أنى كنت مخطئاً تماماً . ألا تعتقد أنى لا أقل عنك ابتهاجاً بشفائها !

تيرون : (بلين) لاشك عندى فى هذا يا جيمى (يسكت ثم يشيع الحزن فى محياه . ويتكلم ببطء وهو يتطير خوفاً) إن قلقها على أدموند لو تجدد لكان كاللعنة التى لا سبيل إلى النجاة منها . فلقد عرفت هذا الداء للمرة الأولى أيام مرضها الطويل . بعد أن ولدت أدموند . . . .

جيمى : لم يكن الذنب ذنبها .

تيرون : أنا لا ألومها .

جيمى : (بلهجة لاذعة) إذن من تلوم ؟ أتلوم أدموند لأنه ولد ؟

تيرون : أيها الأحمق اللعين لا ذنب لأحد فى هذا .

جيمى : بل الذنب ذنب ذلك الطبيب ابن الزنا ! لقد قالت أمى إنه كان دجالا رخيصاً من طراز هاردى . وقد رفضت أن تدعو طبيباً من كبار الأطباء .

تيرون : أنت كاذب (هائجاً) أنت إذن تلومنى . أهذا ما تقصد إليه أيها العاطل المسموم التفكير !

ولكنهما يكفان عن الشحان لأن مارى تقبل عليهما من بعيد .

نعم : لقد كانت هذه مأساة ماري فقد أصيبت بمرض طويل فظيع حين أنجبت أدموند ، وكان الطبيب يسكن آلامها المبرحة بالمورفين . وقد شفيت من مرضها ولكنها أصيبت بهذا الداء الوبيل الذى عصف بحياتها عصفاً وأودى بعقلها زمناً فنقلت إلى المصحة حيث أقامت حتى تم شفاؤها وارتد إليها عقلها ، وها هي ذى قد عادت إلى زوجها وبنيها وقد برئت من علتها ، ولكن يبدو أن كل شيء فى حياتها قد غدا معلقاً بشعرة .

إن كل من فى الدار يتجسس عليها من فرط القلق خشية أن ترتد إلى تناول هذا المخدر . بل إن كل من فى الدار يتناوب حراستها فلا تخلو الدار من أحدهم أبداً كأنهم على اتفاق سابق حتى يبقى إلى جوارها دائماً من يرصد حركاتها ويحول دون عودتها إلى سيرتها الأولى . وتحتج ماري على فقدان الثقة فيها ، ولكن آل تيرون يتظاهرون أمامها بأن ثقتهم فيها لا تحد . وينكرون إنكاراً تاماً أنهم يتجسسون عليها .أو يحولون دون انفرادها بنفسها . وتقسم ماري بشرفها بأنها لن تعود إلى عادتها الأولى . وأنها لن تكسر الوعد الذى أعطت ، ولكن آل تيرون يعرفون قيمة هذه الوعود وهذه الأقسام فلا يلقون إليها بالا .

أما ماري فقد كان لها عالمها الخاص الذى تعيش فيه . فهى حقاً لا تلقى إلا كل حب وحنان من زوجها . وهى حقاً تجد السعادة بين ولديها ولكن قل من يعلم أنها تعيش فى دارها عيشة الغرباء . ولقد قضت كل هذه السنين الطويلة منذ زواجها فى عزلة روحية تامة عن زوجها هذا الذى لم يفهمها أبداً ولم تفهمه أبداً رغم ما بينهما من حب أكيد ومودة لاشك فيها . إنها عاشت هذه السنين الطويلة كالغريبة بغير دار تقيم مع زوجها الممثل الناجح البخيل فى أرخص الفنادق وتنتقل من فندق إلى فندق .

بل وتنجب الولد فى الفنادق . لا تزور أحداً ولا يزورها أحد . فتيرون لا يألف حياة الأسرة بالمعنى الذى يفهمه جميع الناس ، وهى لا تألف حياة المسرح رغم أن زوجها يقضى عامة وقته بين المسارح ولقد جنبها تيرون حقاً عنتاً شديداً فهو لا يدخل بيوت الممثلين ولا يدخل الممثلين بيته ، بل يلتقى بهم إما فى دور التمثيل وإما فى الحانات ، وقد كان لها فى هذا بعض العزاء ، فهى لا تفهم

هؤلاء القوم العجيبين ولا تحب أن تفهمهم . فقد نبتت فى أسرة محافظة وربيت تربية دينية بين الراهبات . وأرادت لها أمها أن تدخل الدير . لولا أنها التقت بجيمس تيرون فأحبته وأحبها وانتهى أمرهما إلى الزواج .

ولقد رأت من بخل تيرون شيئاً كثيراً وهى التى لم تتعود من أبيها إلا السخاء الذى لا سخاء بعده . فتيرون قابض يده على عنقه لا يبسطها مهما أنعم الله عليه بالمال والخيرات . فهو مكتف من كل شىء بأرخص ما يجده منه . وكل دولار يخرج من جيبه بمثابة قطعة من لحمه تقتطع اقتطاعاً . ولو علمت أن بخله على نفسه وعليها وعلى بنيها مرض عضال من أمراض النفس لغض ذلك من حبها له بل وليئست من الحياة فقد كانت مارى تعلم أن زوجها يحبها أعظم الحب ويسعى إلى إرضائها بكل سبيل ولكن حرصه على الدرهم كان يعمى بصيرته فيجعله يأتى ما يؤذى شعورها دون وعى منه . فحين هداه الله إلى شراء هذا البيت المريض تخير أنجس بقعة وأنجس بناء وأنجس أثاث رغم وفرة ماله . وحين أراد أن يهديها سيارة ابتاع لها سيارة مستعملة تخجل من الظهور فيها أمام أهل الجيرة .

وولداها جيمى وأدموند ؟ إنهما يسرفان فى الشراب كما يسرف أبوهما ويرتادان الحانات بلا انقطاع حيث يجتمعان بالصحاب والسمار . ولكنهما على نقيض أبيهما فهما لا يعرفان للمال قيمة ولا يقدران للعمل ضرورة ويرتعان بين النساء والفاسدات حتى لقد ساءت سمعتهما ولم يعد هناك فى المدينة رجل يحترم نفسه يقبل أن يدخلهما داره أو أن يخالط أحدهما بنتاً له . ولكم أحزن مارى أن يصير ولداها إلى هذا المصير . فلقد كانت تؤثر لهما أن يعيشا عيشة نظيفة . وأن يتأهلا وأن يصيبا من السعادة ما لم تصبه هى فى حياتها .

وها هو ذا أدموند آخر العنقود وفلذة كبدها يصاب بذات الرئة ويسير سيراً أكيداً إلى النهاية المحققة . إن كل من بالدار يعلم هذه الحقيقة ولا سيما بعد أن يجىء الدكتور هاردى بالخبر اليقين . ولكن كل من بالدار يتكلف الجلد ، ويتجمل بالصبر .

وحين تعلم مارى أن ولدها أدموند ماض إلى المصحة ترفض رفضاً باتاً أن تصدق أنه مصدور ، ولكنها تهتز فى دخيلة نفسها لهذا الحقيقة ، فهى تعلم أن

هذه هى الحقيقة رغم مكابرتها . وتنفرد مارى بنفسها وتخلو إلى أفكارها المشوشة التى اختلط فيها الحاضر بالماضى .

وحين تعود إلى الغرفة حيث اجتمع الجميع نحو منتصف الليل وهم فى سكر شديد تعزف لحظة على البيانو بعض فالسات شوبان ثم تقف فى المدخل فإذا بها فى قميص النوم وقد ارتدت فوقه إزاراً أزرق من زرقة السماء ، ولبست خفيها الأنيقتين وقد اتسعت عيناها وشحب وجهها . ولكنه برغم شحوبه قد بدا آية فى الصفاء والشباب ، وقد اختفت منه التجاعيد فعادت كما كانت قبل زواجها بنتاً بريئة ساذجة تبتسم ابتسامة تفيض بالحياء . وقد تدلت ضفيرتاها على صدرها وحملت على ذراعيها ثوب زفافها الأبيض القديم الموشى بالدانتلا .

وتقف مارى برهة شاردة اللب ترتسم الحيرة على محياها كأنها قد جاءت تبحث عن شىء فلا تجده أو لعلها نسيت ما قد جاءت فى سبيله . وترمق الجميع بنظرتها التى ترى كل شىء ولكنها لا تميز شيئاً ويحملق فيها الجميع عاجبين . ويرتفع صوت جيمى قائلا :

جيمى : منظر المجنونة فى مسرحية هاملت : تدخل أوفيليا !

ويغضب تيرون وأدموند لهذه الإهانة التى وجهها هذا المخمور إلى أمه المسكينة فيسبانه ويسكتانه . ويخيم على الجميع صمت عميق فى انتظار ما ستقوله مارى فتقول : :

مارى : إنى أعزف الآن عزفاً رديئاً فقد كففت عن التمرين وسوف تؤنبنى الأخت « الراهبة » تيريزا قائلة إنى أظلم أبى الذى يضيع هذا المال على دروس الموسيقى الإضافية التى أتلقاها . والأخت تيريزا على حق فيما تقول . فهذا ظلم منى لأبى الذى يسخو معى كل هذا السخاء . ويباهى بى كل هذه المباهاة . وسوف أواصل التمرين على البيانو كل يوم من الآن فصاعداً ولكن يدى قد نزل بهما عطب شديد فأصابعى قد فقدت مرونتها .

ويعلم الجميع أنها تهذى . ثوب الزفاف ! الأخت تيريزا ! دروس البيانو ! لقد ارتدت إلى أيام عذارتها أيام كانت تأخذ العلم والدين وكل شىء عن الراهبات وتتقدم منها أدموند فى حيرة كأنه غلام صغير وتمسكه بذراعيها . انها لا تصدقه

حين يقول إنه مصاب بذات الرئة وتنهاه عن الرحيل ويضرع إليها أدموند قائلا :

أدموند : أماه ! إن ما بى ليس برد الصيف ! . . إنه السل يا أماه .

وتنفذ كلماته فى قلبها فترتجف لها ويبدو الذعر على محياها وتصيح قائلة : (لا !) ولكن سرعان ما تعود إلى شرودها فتتوه فى بيد من الأحلام وتتمتم قائلة فى حنان : « إياك أن تلمسنى . إياك أن تمسكنى فليس هذا صواباً حين أحاول أن أكون راهبة » .

نعم : إن أدموند لم يعد ولدها بل أمسى أمامها (رجلا) تجفل منه خفراً إن مسها جفول العذراء البتول .

وتعود مارى إلى كلامها وقد سطع فى وجهها بريق من بريق الشباب !

مارى : لقد تحدثت مع الأم (الراهبة) اليزابيث . يا لها من امرأة وديعة مفطورة على الخير . إنها قديسة تمشى على الأرض ، وأنا أحبها من كل قلبى وقد يكون ما أقول خطيئة ولكنى أحبها أكثر مما أحب أمى لأنها تفهم كل شىء بل تفهم قبل أن ينطق الإنسان بكلمة. إن عينيها الزرقاوين الرحيمتين تنفذان فى القلب نفاذاً فلا سبيل إلى كتمان سر من الأسرار عنها ، ولا سبيل إلى خداعها ، حتى ولو سولت لإنسان نفسه الخبيثة أن يخدعها « تهز رأسها هزًّا خفيفاً فى تحد من تحدى البنات وكبريائهن » ومع ذلك فلست أحسب أنها فهمتنى هذه المرة . لقد أخبرتها أنى أريد أن أكون راهبة ، وأوضحت لها ثقتى من صدق استعدادى لأداء هذه الرسالة وذكرت لها أنى صليت للعذراء المباركة أن تثبت يقينى وأن تجعلنى أهلاً لذلك . قلت للأم اليزابيث إنى قد تجلت لى رؤيا صادقة عند ما كنت أصلى فى محراب نوتر دام دى لرود فى الجزيرة الصغيرة الواقعة فى البحيرة . قلت إنى واثقة وباركتنى حين استجابت لرجائى ثقتى من أنى كنت أركع أمامها هنالك ! ولكن الأم اليزابيث قالت لى إنه لابد من استزادتى من هذا الوثوق ، بل قالت إنه يجب أن أثبت أن ما رأيت لم يكن مجرد هواجس من نسج الخيال ، قالت : لو أنى كنت واثقة كل هذا الوثوق فلن يضيرنى أن أضع نفسى موضع التجربة بأن أعود إلى أسرتى بعد تخرجى وأن أعيش كما تعيش سائر الفتيات فأشترك فى الحفلات وفى الرقص وفى الاستمتاع بالحياة ، فإن أحسست بعد انقضاء عام

أو عامين بما أحس به الآن من صدق رغبتى فى الخلوص للعبادة، فإن فى استطاعتى العودة لزيارتها والتحدث إليها فى هذا الموضوع مرة أخرى . (تهز رأسها فى غضب) أنا ما تصورت أبداً أن أمى الروحية يمكن أن تتقدم إلى بهذه النصيحة ! ولقد صدمت حقاً فى قرارة نفسى . قلت طبعاً إنى سأعمل أى شيء تنصحنى به ، ولكنى كنت أعلم أن هذا مضيعة للوقت لا شك فى ذلك . وحين تركتها اختلطت الأمور فى عقلى فقصدت إلى المحراب وصليت للعذراء المباركة فعادت إلى قلبى السكينة من جديد لأنى علمت أنها استمعت لصلاتى وأنها ستحبنى دائماً أبداً ولن ترضى بأن يمسنى سوء ما دمت أقيم على إيمانى بها . . (تتوقف عن الكلام وتعلو وجهها إمارات القلق المتزايد . وتمر بيدها على جبينها كأنها تمسح عن عقلها العناكب وتسترسل فى ذكرياتها الغامضة) .

لقد حدث هذا فى الشتاء الذى كنت أدرس فيه للبكالوريا ثم حدث لى شيء فى الربيع . نعم لقد أحببت جيمى تيرون وكنت أسعد السعداء فترة من الزمن . (تحملق فى الفضاء وكأنها فى حلم أليم . ويتحرك تيرون فى مقعده أما أدموند وجيمى فيظلان بلا حراك) .

وهكذا يستدل الستار على هذه الفاجعة . لقد عادت مارى إلى تناول المورفين لتسكن آلامها الكثيرة الدفينة . وقد تناولت جرعة كبيرة أودت بعقلها وردتها إلى ربيع الحياة .

أما حياتها الزوجية المديدة فقد بدت لها كحلم غريب مضطرب بعالم غريب مضطرب لم تدخله أبداً بل وقفت دائماً على أعتابه . وقد تلاشى هذا العالم من ذاكرتها كما تتلاشى الأحلام المضطربة فى السبات المظلم العميق .

العاقر

للشاعر الإسبانى جارثيا لوركا

نحن فى أسبانيا وكأننا فى ريف مصر ، بين الفلاحين والفلاحات ، حيث الأمومة هى عماد الحياة ولا عماد للحياة إلا الأمومة . والمرأة العاقر شقية كالأرض الجدباء التى لا ينفع فيها رى ولا يفيد فيها بذار .

نحن فى إسبانيا وكأننا فى ريف مصر حيث ينبت الأولاد فى الأرحام كما تنبت أعواد القصب وأعواد الذرة وسنابل القمح من رحم الأرض الخصيبة الولود .

فمن عقرت أو عقمت أو جف ضرعها نظر الناس إليها شزراً ونظرت إلى الناس شزراً ولغظ من حولها اللاغطون ، وقيل ركبتها الأرواح النجسة أو حقت عليها لعنة من الله .

والأولياء هم الأولياء . والقديسون هم القديسون ، وفى كل عام تخرج إليهم العاقرات فى طلب المعجزة .

هذه مأساة « يرما » أو « الجدباء » التى نظمها لنا الشاعر الإسبانى المعاصر « فريديريكو جارثيا لوركا » عام ١٩٣٤ فى شعر تمثيلى من ثلاثة فصول ، وصور لنا فيها مأساة فلاحة عاقر تمزقت نفسها بين الوفاء لزوجها والحنين للأمومة ، فخلد بها جانباً من حياة الريف الإسبانى واستخرج لنا من مكنونات النفس الإنسانية ما تذهل له النساء قبل الرجال .

* * *

يرما بنت فلاحة فى قرية من قرى إسبانيا تعيش مع زوجها الفلاح خوان ، وعليهما ترفرف السعادة بجناحيها فلا ترى بينهما إلا المودة والتعاطف ، ولا تسمع فى دارهما إلا عبارات الحدب والحنان . وتنقضى الشهور الطوال قصاراً ، ويرما الراضية لا تزال راضية ولكن شيئاً واحداً يجثم فى خاطرها ويشغل بالها ، فهى برغم مرور هذه الشهور الطوال لم تحمل من زوجها ولم تنعم بعد بحقها فى الأمومة .

وتراودها الأحلام والرؤى ، فيخيل إليها وهى نائمة قبيل الفجر أنها ترى راعياً من رعاة القرية يدب إلى حجرتها على أطراف قدميه وفى صحبته طفل بهى يرفل فى ثوب أبيض ناصع البياض ، ثم ينصرف هذا الراعى وقد تبلج الصباح وانتشرت فى الجو روائح الربيع ، وتستيقظ يرما من وهمها ، فلا ترى إلا زوجها خوان وقد تأهب للخروج إلى حقله .

وتنادى يرما زوجها ليشرب كوباً من اللبن قبل أن ينطلق إلى عمله ، فهو بحاجة إلى التغذية ، وهو يجهد نفسه فى العمل إجهاداً يفوق طاقته ، حتى غدا نحيلا شاحب الوجه شحوباً فظيعاً ، ولكن خوان يطمئن يرما قائلا إن هذه عادة الرجال ، كلما تقدمت بهم السن وضمرت أجسادهم غدت قوتهم من قوة الفولاذ . ثم إن قلقها عليه لا مبرر له ، فهو بخير ، وهو سعيد معها وهى سعيدة معه ، وزراعته ناجحة مثمرة ، وبيتهما يرفرف عليه الهدوء فليس لهما أطفال يجلبون عليهم القلق والانزعاج وهنا تقول يرما :

يرما : نعم . . نحن بلا ولد يا خوان !

خوان : وهل فى هذا ضير ؟

يرما : ألست أحبك ؟

خوان : نعم ، أنت تحبيننى .

يرما : أنا أعرف بناتاً ارتجفن وبكين ليلة العرس قبل أن يدخلن على أزواجهن. فهل بكيت أنا حين دخلت عليك أول مرة ؟ ألم أغنى وأنا أقلب غطاء الفراش وأقول : هذا الغطاء له رائحة التفاح ؟

خوان : نعم ، هذا ما قلتيه .

يرما : إن أمى بكت لأنى لم أكن آسفة على فراقها . وهذا صحيح ، فما من امرأة استقبلت الزواج فى سعادة مثل سعادتى . ومع ذلك . . .

خوان : صمتاً ! فشديد على نفسى أن أسمع طول الوقت أنى . . .

ويرما تقصد أن تقول إنها لم تكن يوم تزوجت بنتاً غريرة ساذجة تخشى الرجال ، بل كانت فتاة ناضجة تعرف أسرار الزواج . وها قد مضى على زواجها عامان بغير ثمرة . ترى ما الخطب ؟ إنها تسمع الناس يتحدثون عن زوجها قائلين

إنه رجل عقيم ، لا يستطيع أن ينجب الولد ، ولكن يرما لا تصدق كلام الناس . وتعتقد أن الغيث لابد أن ينبت النبت ولو سقط على أرض من صخور . إنما الأمر أمر وقت وانتظار .

وهكذا تقبل يرما على خوان وتقبله فى دلال ، مودعة إياه قبل أن يمضى إلى الحقول .

وحين ينصرف خوان . تجلس يرما إلى تطريزها وتذهب تغنى أغنية المرأة المشتاقة إلى الأمومة .

يرما : من أين تأتى يا حبيبى ، يا وليدى ؟

قال : « من ثلوج الجبال الباردة » .

وإلام تحتاج يا حبيبى . يا وليدى ؟

قال : « احتاج إلى طيات ثوبك الدافئة » .

فلترتعش الأغصان فى ضياء الشمس .

ولتتفجر من حولنا الينابيع ! . .

سأقول لك يا طفلاه ،

أجل من أجلك سأتمزق وأتصدع ، فما أشد أوجاع رحمى .

هذا الذى سيكون مهادك الأول !

فمتى تجىء يا غلام ، متى تجىء ؟

قال : « حين يفوح جسدك برائحة الياسمين العاطر » .

فلترتعش الأغصان فى ضياء الشمس .

ولتتفجر من حولنا الينابيع !

وفيما هى تغنى تقبل عليها جارة من جاراتها هى ماريا ، وقد عادت من السوق حاملة شيئاً من الصوف الملون والدنتلا وبعض الشرائط الحريرية ، وتعلم منها يرما أنها تنتظر الحادث السعيد فهى تعد لهذا الشىء عدته . وتنظر إليها يرما فى إعجاب شديد فهى قد حملت ولم ينقض على زواجها خمسة شهور . وماريا رغم سعادتها بهذه الأمومة المنتظرة جفلى تخامرها المشاعر المختلطة . فهى تحس بالجنين فى أحشائها وكأنه « طائر سجين ينتفض فى قبضة يدها » ، وتقول إن زوجها

« طفق يحدثها عنه فى ليلة الزفاف وفه لاصق بخدها ، حتى ليخيل إليها أن طفلها حمامة من نار أطلقها فى جسدها من خلال أذنها » .

وتعزى ماريا يرما عن حالها ، فهى الوحيدة التى لم تنجب ولداً من بين بنات القرية اللواتى تزوجن معها وتعزى يرما نفسها بقولها إنه ينبغى عليها أن تصطبر ، فلعل المستقبل يجيئها بغلام . وتضرب على ذلك الأمثال ، فجارتها هيلينا ظلت ثلاث سنوات قبل أن تعقب نسلا ، وقد سمعت بأخريات ظللن عاقرات الأعوام والأعوام بل إن لماريا عمة لم تنجب إلا بعد أربعة عشر عاماً من زواجها . ولكن يرما رغم هذا العلم كثيراً ما تترك نفسها نهبا للهواجس ، وتخرج فى ظلام الليل حافية تمشى على الثرى لعل هذا يزيل عقمها ، وهى تعلم أنها لو مضت فى هذه الأفعال لانتهى أمرها إلى السقوط .

وتحدث ماريا يرما عن مخاوفها ، فهى تسمع من النساء أن البنين مجلبة للشقاء ولكن يرما تهدئ من روعها قائلة : « هذا كذب صريح . ولا تقول هذا إلا الأمهات الضعيفات الشاكيات . وإلا فلماذا تنجب الأمهات البنين ؟ إن النسل ليس باقة من الأزهار ، فلا بد أن تشقى الأمهات ليرين أبناءهن ينمون ويشبون . . . وفى كل امرأة دم يكفى أربعة أطفال أو خمسة إن لم تنجبهم تحول دمها إلى سم يأكلها أكلا . » ولسوف يكون هذا مآلها إن لم تنجب ولداً .

وحين تنصرف ماريا يأتى فتى من أهل الجيرة يدعى فكتور . وهو صديق للأسرة يرعى الغنم ولا يلقى إلى الدنيا بالا . وهو يتفجر بالرجولة والشباب دون أن تكون فيه خفة لاهية أو عبث الفتيان . بل على العكس من ذلك يتصف بالحزم والوقار ويسأل فكتور عن خوان ليحدثه فى أمر غنمه فيعلم أنه فى حقله . وحين يقع بصره على المرايل التى تخيطها يرما يحسب أنها تنتظر مولوداً فيبتسم ويعبر لها عن سروره . فلما تبلغه يرما أن المولود مولود ماريا يجيبها قائلا : « سلى زوجك أن يقل من التفكير فى عمله . فهو يطلب جمع المال وسوف يجمعه . ولكن لمن سيترك هذا المال حين يموت ؟ » ثم ينصرف فيكتور عنها. مبتسماً بعد أن يوصيها بأن تحاول جادة لتنجب نسلا .

وحين يمضى فكتور تجد يرما نفسها وحيدة فتعود إلى غنائها الحزين المشوق إلى الأمومة . ثم تقف حيث كان فكتور يقف وتتنفس ملء رئتيها كأنما تريد

أن تستنشق جو الرجولة الذى كان ينبعث منه ، فقد كان بينها وبين فكتور حب قديم مكتوم ، ولكنها غالبت هذا الحب حين تزوجت من خوان وكانت له نعم الزوج الوفية .

* * *

ويمر عام آخر ويرما لا تزال جدباء لا يخصب لها رحم ولا يسيل لها ضرع .

وتخرج ذات يوم إلى الحقل حاملة سلة فيها طعام زوجها . وتلتقى فى طريقها بامرأة عجوز تحمل الطعام إلى زوجها العجوز كذلك . ولا حديث بين المرأتين إلا عن الأبناء . وتقول العجوز ليرما إنها تزوجت مرتين ، وأنجبت من الزيجتين أربعة عشر ولداً ، مات منهم خمسة وبقى تسعة كلهم ذكور وكلهم يخرج إلى الحقل . وهى لهذا برغم تقدمها فى العمر لا تزال تخرج وحدها بالطعام إلى الحقل .

وتستفهم يرما من هذه المرأة الولود عن سبب عقمها إنها على استعداد أن تأخذ بمشورتها فى كل شىء لو أنها دلتها على طريقة تنجب بها الولد .

أما العجوز فهى لا تعلم للعقم سبباً ولا للخصوبة سبباً ، وكل ما تعلمه أنها تستلقى فى فراشها فيأتيها الأولاد فى يسر يسير . وتسأل العجوز يرما عن حالها مع زوجها . فتعلم منها أنها لا تشتهى زوجها اشتهاء المرأة للرجل ، فهى ما أحست قط بهذا الإحساس إلا مع الراعى فكتور الذى رقصت معه ذات مرة فأخذتها رعشة شديدة حين دنا منها . وحملها مرة فى صباها ليعبر بها مخاضة فارتعدت بين ذراعيه حتى اصطكت أسنانها . أما زوجها فهى تحبه حباً من نوع آخر ، وهى سعيدة معه كل السعادة برغم أنها لا تحمل له هذا الحب الخافق الدافق . إن أباها هو الذى اختاره لها زوجاً . فقبلته وهى تفكر منذ اللحظة الأولى فى أن زواجها منه سيثمر البنين والبنات ، ولكنها مع ذلك تحس أنها ليست زوجته بل ابنته .

إن يرما فى حيرة عظيمة من أمرها ، فهذه العجوز تقول إن المرأة لا تثمر إلا إذا أحبت زوجها بالجسد أولا وقبل كل شىء ، فلا غرابة إذن أن تكون يرما عاقراً جدباء . وهذه العجوز توشك أن تلقى إليها أن تبحث عن الحب مع غير زوجها إذا لم تكن تجد فى زوجها ما تشتهيه اشتهاء المرأة للرجل . وهى تستمطر لعنات السماء على أولئك الرجال الجدب الذين يؤتيهم الله نساء كالحقول الخصيبة . فإذا بهذه الحقول برك من الأوحال . ولكن العجوز تمسك عن التصريح بأفكارها ليرما

حتى لا تقودها فى طريق الغواية . وتمضى العجوز إلى حال سبيلها وقد بلبلت خواطر يرما بما ألقت إليها من تلميحات . ولكن يرما الوفية المستمسكة بشرفها وشرف أسرتها لا تلبث أن تطرد عنها كل هذه الهواجس ، وتتبين أنه ليس أمامها إلا سبيل واحد هو سبيل الشرف والوفاء وانتظار النعمة من الله .

وتلتقى يرما فى طريقها ببنت من بنات القرية عاقر مثلها ولكنها راضية بجدبها ، فهى تعتقد أن الحياة أجمل وأهدأ بغير نسل . وهى قد تزوجت من فلاح بالقرية لا لأنها أرادت ذلك ، بل لأن أمها ألحت عليها فى الزواج منه ولا يمضها الآن إلا أمها التى لا تجد وسيلة إلا توصلت بها لتجعل بنتها امرأة مخصبة . فهى لا تكف عن إعطائها الأعشاب المختلفة لتشفيها من عقمها وهى ترتب لها فى شهر أكتوبر حجاً إلى ضريح قديس من أولئك القديسين الذين يطرحون البركة فى أرحام النساء .

إنها بنت المرأة العجوز دولوريس التى تسكن فى أطراف القرية ودارها فى قمة التل . وقد اشتهرت دولوريس هذه بأنها تشفى النساء العاقرات بالتمائم والأعشاب ، فإذا أحبت يرما أن تزورها فى هذا الأمر . فهذا من شأنها وحدها . أما البنت فهى ماضية إلى زوجها فى حقله تحمل إليه طعامه ، ولكم كانت تود أن تكون ماضية إلى عشيق لها ؛ فهى تضيق بالزواج والأزواج ، وهى تعتقد أن الزواج سخافة من سخافات العجائز اخترعوها ليفسدوا الحياة على الشباب .

وما أن تنصرف هذه البنت العاشقة حتى تسمع يرما صوت الراعى فكتور ينشد أغنية من أغانى الرعاة قائلا :

« لم تنام وحيداً أيها الراعى ؟
لِمَ تنام وحيداً أيها الراعى ؟
لو نمت على لحافى الصوفى السميك
لنمت نوماً أهنأ .
لم تنام وحيداً أيها الراعى ؟ »

فيهز صوته الشجى أعماقها . وحين يلتقيان تضطرب يرما لمرآه اضطراباً شديداً . ويتجلى حزنها حين يتجلى مرح فكتور الخلى الذى لا يقيم للدنيا بالا . تذكر خوان الكئيب الذى لا يفهم للحياة معنى إلا أن تكون السعى إلى حقله

وتنمية ماله . ويخيل إلى يرما أنها تسمع صوت طفل وليد يصرخ وكأنه يوشك أن يغرق فى جدول ، وما هذه التخيلات إلا من أوهام الجسد ، فهى لا تبصر فكتور إلا وتتملكها الرغبة فيه ، وطريق الغواية الآن واسع فى هذه الفلوات الرحيبة .

ويجفل فكتور أمام نظراتها الشاخصة ويوشك أن يمضى عنها مخافة أن تجرفهما الرغبة ، ودنا يهبط عليهما خوان ، الذى يجد فى طول غيبة يرما مدعاة للتعنيف ، ولا سيما بعد أن ينصرف فكتور . وتعتذر يرما عن تأخرها بأنها كانت تستمع إلى الأطيار وهى تصدح . فيذكرها خوان بأن تصرفاتها هذه برغم براءتها هى التى تجعل ألسنة السوء تتهامس وتلغط من حولها . ويسألها خوان أن تعود إلى البيت ، قائلا :

خوان : كفى كلاماً . عودى إلى البيت .

يرما : سأفعل ذلك . هل انتظرك ؟

خوان : كلا . فسأشتغل بالرى طول الليل ، فالماء قليل جداً ، وهذا دورى فى الرى حتى بزوغ الشمس ، ولابد من حراسته خشية أن يسرقه اللصوص . فامضى إلى الفراش ونامى .

يرما « فى انفعال » : نعم ، سأنام .

وهكذا تنصرف يرما عن هذا الزوج الذى أوتى حقلين ، فأقبل على أحدهما حتى أثمر وأينع وأهمل الآخر حتى جف وأجدب .

* * *

وذات يوم من أيام الشتاء القارس تجتمع جماعة من غسالات القرية ، عددهن ست ، عند مجرى يتدفق على الجبل الناهض فى مشارف القرية ، ويمضين فى غسل الثياب والثرثرة فى سير الناس . فنعلم منهن أن يرما تأتى بشاذ الأفعال التى عرضت سمعتها للقيل والقال . فهى تجلس طول الليل على عتبة دارها برغم البرد القارس ، وهى تخرج وحدها حافية فى الطرقات وتخوض الجداول والينابيع وقد جاء خوان بأختيه العانسين ليقيما معه فى بيته ويحرسا زوجته الغريبة الأطوار حتى تمتنع عنها ألسنة السوء . فقد رآها نسوة القرية تتحدث مع راع من رعاة القرية فشاع عنها أنها تتصيد هذا الرجل وأنها بحبه هائمة ، ولا تجد يرما من يدافع

عنها إلا واحدة من الغسالات ترى أن العيب عيب الزوج خوان لا عيب الزوجة يرما ، وتغنى الغسالات أغان جميلة عن الأمومة وخصوبة الأرحام إلا واحدة منهن تغنى أغنية حزينة عن الشقاء الذى تعيش فيه المرأة العاقر الجدباء وتقول :

« واحزناه على الزوجة الجدباء ! وا حزناه على من أقفر ثدياها كما تقفر الرمال » !

* * *

وفى الدار يجلس خوان بين أختيه المتشحتين بثياب الحداد ، الجارحتى النظرات كأنهما صقران حطا فى دار يرما ولا يريدان أن يطيرا عنها . ويعنف خوان أختيه لأن يرما عصت أمره وخرجت ، وهو ما استقدمهما إلا ليقوما بحراستها ويمنعاها من الخروج .

إن خوان قد بدأ يمل هذه الحياة . فعمله فى الحقول شاق مضن ، ولكن شرفه فى البيت يقلق باله الليل والنهار . فإن لم تسهر الأختان على شرفه فخير لهما أن تنصرفا .

وما شرف خوان إلا شرف أختيه أيضاً وشرف أسرته ، فهو إذن يطلب منهما مزيداً من اليقظة والتشدد .

وتعود يرما حاملة جرتين ملأتهما بالماء العذب من الينبوع . وتنتظر يرما من خوان أن يبقى معها فالغسق قد هبط والليل قد دهم ومكان الرجل إلى جوار زوجته إذا حل المساء . ولكن خوان يقول إنه لابد له من المضى إلى حقله . فهو قد قلم الأشجار بالأمس ، وواجبه الليلة أن يسهر على غنمه . لكل واجبه فى الحياة . وواجب المرأة أن تصون عرضها فى بيتها . ويرما تخرج من بيتها أكثر مما يليق للمرأة الفاضلة أن تخرج .

وخوان لهذا مضطرب البال ساخط لأن السعادة عنده أن تبقى الغنم فى الحظيرة والمرأة فى البيت ، وهو لا يفهم معنى لقلق يرما هذا الذى يدفعها إلى التسكع فى طرقات القرية وعند الينابيع . وبين الحقول . إنه لا يحرمها من شىء . فالزاد وفير فى بيتهما ، وهى لا تحتاج إلى شىء إلا وأرسل فى طلبه من المدينة المجاورة إن السكينة لن تعود إلى قلبه إلا إذا أغمض عينيه فى حقله لينام وهو يعلم أن زوجته نائمة فى دارها .

أما يرما فهى تقضى الليالى فى سهاد ، تتقلب وحيدة فى فراشها . نعم ، إنه لا ينقصها شىء فى الحياة كما يقول خوان إلا شىء واحد ، وهذا هو الحياة ذاتها ؛ فدارها كالقبر . باردة كالقبر ، هادئة كالقبر ، ليس فيه حب ولا صبية يمرحون وقد مضت الآن على زواجهما خمس سنوات ، وهى تنام على الأشواك وتستيقظ على الأشواك . فليتركها خوان إذن لأشواكها ولينطلق إلى حقله ، وهو مطمئن إلى شرفه هذا الذى جاء بأختيه لتحرساه ، وهى لا تذكر أنها عصت له أمراً أو أتت ما يشينه منذ أن تزوجا . إن خوان لا يفهم أن العمل للرجال والأطفال للنساء . فليمض إذن إلى عمله وليتركها لأشواكها .

ويسأل خوان يرما أن تقلع عن هذه الأفكار السوداء وأن ترضى بنصيبها فى الحياة وإلا سارت إلى الجنون سيراً أكيداً . وهى تحزنه وتحزن نفسها بغير جدوى بالتفكير المستمر فى أمر لا طائل وراءه . إنها تدمره تدميراً وتسمم عليه حياته وتنشر الشائعات من حوله كلما خاطبت الغرباء ناسية أنها امرأة متزوجة .

ويمضى خوان إلى الحجرة المجاورة ليتناول عشاء مع أختيه وتجلس يرما وتغنى هذه الأغنية الحزينة وكأنها تسبح فى حلم من الأحلام :

« آه ، ما أرحب حقول أحزانى !

آه فقد أغلق دونى باب الجمال ! . . .

ولكن تعال إلى يا وليدى الحبيب ، لابد أن تأتى .

فمن الماء يخرج الملح ومن الأرض يخرج الثمار .

والرحم يضمر الوليد الوديع .

كما تضمر الغمامة الغيث الوديع » .

وتقبل عليها ماريا وهى فى هذا الحلم الحزين تسكب الدمع فى صمت حزين ، تقبل عليها حاملة طفلها ، وتعزيها عن أشجانها . وتشكو يرما لماريا أن زوجها وأختيه قد اصطلحوا عليها وأنهم يظنون بها الظنون . فيحسبون أنها عاشقة لرجل غير زوجها ، وينسون أنها امرأة عفيفة تحفظ عرضها مهما يكن من حال ، ولو كانت تعشق غير زوجها لما بدل هذا من أمرها شيئاً . فهى تعرف أن الشرف هو أثمن ما فى الدنيا وأنه فوق كل شىء وقبل كل شىء .

إنها لم تعد تعرف إن كان زوجها مقيماً على حبها أم أنه انصرف بقلبه عنها ، ولكنها تعلم شيئاً واحداً وهو أن زوجها يظلها بسقفه ويطعمها بخبزه وأنها ستكون الوفية له ما بقيا على قيد الحياة .

ويقبل الراعى فكتور ليسلم على خوان ويرما مودعاً فقد عزم على الرحيل عن القرية بعد أن دعاه أبوه الهرم ليبقى إلى جواره ويرعاه . وتعلم يرما أن خوان قد اشترى منه غنمه وسخا معه فى الصفقة ، ولعله فعل ذلك ليعجل برحيله . وتنفرد يرما بفكتور لحظات . ويجالد كل منهما ما به من عاطفة جياشة حتى ينتصر على نفسه . كل شيء فى مكانه وينبغى أن يبقى فى مكانه ، فهذه إرادة القدر وهذه طبيعة الأشياء ولا مناص من أن يجرى كل شيء فى مجراه الذى خطته له يد الحياة .

ويتمنى فكتور ليرما وزوجها كل سعادة وكل توفيق قائلا إن أرض خوان ستنبت حصاداً وفيراً . فتجيبه يرما ساهمة إن كل امرئ يحصد بقدر ما زرع ، وهى لا تفكر فى حقل زوجها ولكن تفكر فى شيء آخر .

وينطلق فكتور ومعه ينطلق خوان ليرافقه حتى مشارف القرية فى الظلام ، وتتبع يرما فكتور بنظراتها لحظات ثم تتناول شالها وتعتطف به . وتنطلق وراءهما فى الظلام تاركة الأختين تناديان نداء الغاضب « يرما ! » . « يرما ! » فلا يأتيهما جواب إلا أصوات بعيدة من نفير الرعاة .

* * *

لم يبق أمام يرما إلا أن تلجأ إلى السحر لعلها تجد فيه ما ترتجى . وهكذا تمضى تحت جنح الليل إلى بيت المرأة العجوز دولوريس فى أطراف القرية على أعلى درجات التل إلى جوار القبور . لتأخذ عنها التعاويذ التى قد تخرجها من محنتها. وفى هذا الظلام الدامس تتعلم دولوريس يوما أن تتلو صلوات معينة مرتين وهى تشرب شراباً ذوبت فيه أوراق الغار . وأن تتلو صلاة القديسة آنا عند الظهيرة ، وأن تقبل على زوجها إقبال الزوجة المحبة لزوجها . وأن تنتظر البركة من الله .

وتهم يرما بالانصراف قبل أن تطلع تباشير الفجر . وإذا بزوجها يفاجئها فى بيت الساحرة وهو ينتفض غضباً ؛ فهى قد جعلته بمسلكها هذا مضغة فى أفواه أهل القرية . ويتهم خوان يرما بأنها تخرج فى هزيع الليل لتخونه بين المقابر وعند

الساحرات وتقسم يرما على براءتها وتدافع عنها العجوز دولوريس قائلة إنها ما أتت شيئاً مشيناً . أما خوان فلم يعد يحتمل تهامس الناس ولغطهم . بل لم يعد يحتمل صمتهم الفظيع الذى هو أشد قسوة وإيلاماً من التهامس واللغط . فكلما حل على قوم سكتوا سكوت الواجم أو سكوت المحرج الذى يؤثر الصمت على الكلام . حتى الحقول ذاتها غدت صامتة والأشجار صمتت أغصانها . فهو يتستيقظ أثناء الليل فى حقله فيراها ترنو إليه ولا يسمع لها حفيفاً . إنه لا يفهم عم تبحث يرما حتى تجوس التربة أثناء الليل .

أما يرما فتعلم أنها تبحث عن زوجها هذا الذى ينكرها أو يوشك أن ينكرها . تبحث عن حبه المثمر الذى به وحده تخصب وتثقل وتنجب فتعود إلى نفسها السكينة . وتقبل يرما على زوجها إقبال المرأة المشوقة لرجلها . ولكنه يصدها عنه فى غلظة ويأمرها بأن تعود معه إلى الدار . وتتهافت يرما وتسقط على الأرض وهى تصرخ : « ملعون أبى هذا الذى أورثنى دماً يكفى مائة ولد . ملعون دمى هذا الذى يبحث عن البنين وسط هذا القفر الأزلى » . ويحاول خوان أن يسكتها خشية الفضيحة فتعود إلى هياجها العصبى وتردد فيما يشبه الهمس : « ما أبعد الفرق بين التمنى بالعقل والتمنى بالجسد . ملعون هذا الجسد الذى لا يستجيب لنداء العقل . محنة كتبتها على المقادير . ولن أثور على مشيئة القدر . فليخرس إذن لسانى . وليصمت صمتاً بليغاً ! »

وهكذا تنصرف يرما إلى دارها مع زوجها . وهى تحس فى أعمق أعماقها أنها تدخل عالماً مظلماً ليس لظلمته قرار .

* * *

وتلوذ يرما بمقام ولى من الأولياء قائم على قمة جبل تقصده النساء العاقرات لتخصب أرحامهن . وتضرب خيمتها على عربة تأوى إليها حين تطلب النوم . وترى نسوة يحملن القرابين إلى محراب هذا القديس ويمشين إليه حافيات . ومعهن تلك العجوز التى أوشكت أن تدل يرما منذ سنوات على طريق السقوط . وتسمع أغنية تقول :

« ما كنت أراك وأنت عذراء

طليقة الخيال ..

أما وقد أصبحت زوجة
فلسوف أجدك
ومن ثيابك أجردك .
أيتها الزوجة التى تحج إلى المقام
حينما يرخى الليل سدوله .
وتدق الساعة منتصف الليل . »

وتسخر العجوز من امرأة عاقر تشرب الماء المقدس لتحمل ببركة القديس ، قائلة لها إن مقام القديس تأتيه كل عام مئات النساء العاقرات ولكن حجيجه من الشباب الذكور فيما ترين يتزايد عاماً بعد عام وها هو ذا ولدها قد جاء إلى هذا المقام ، وهى تلازمه حتى لا يقتل نفسه مع النساء العاقرات . وحين تسمع المرأة العاقر هذا الكلام تصلى إلى الله ليغفر لهذه العجوز التى لا تؤمن بقدرة الأولياء . فتنصرف العجوز وهى تمعن فى سخريتها .

وتقبل ماريا لتقول إن يرما وزوجها خوان قد جاءا إلى المقام ، ولكن بعد أن طال اقناعهما بضرورة المجىء . وماريا ترى أن يرما لا شك تخفى أمراً خطيراً، فحالها قد تبدلت وهى قد لازمت مقعدها شهراً كاملا لا تنهض منه . وتشكو المرأة العاقر لماريا أولئك الشباب الماجنين الرقعاء الذين يضايقون النسوة من زائرات المقام ، حتى لقد مشت الأقاويل بين الناس بفظائع الأمور . وتقول المرأة إنها رأت أربعين برميلا من براميل النبيذ مكدسة وراء المقام .

وتدخل يرما بين رتل من ست نساء ويقصدن حافيات إلى المحراب وهن يحملن الشموع المزينة، فقد هبط الليل وبدأت الصلوات ، وتجثو ماريا والباقيات مصليات.

ماريا : يا رب اجعل الوردة تتفتح ، ولا تترك وردتى مهملة فى الظلام .

المرأة : وعلى جسدها المجدب اجعل الوردة الصفراء تتفتح .

ماريا : وفى رحم عبداتك أطلق لهيب الأرض الأسود . يارب اجعل الوردة تتفتح ، ولا تترك وردتى مهملة فى الظلال .

يرما : فى السماء حدائق لا ريب فى ذلك ، فيها البهجة من أشجار الورد ، وبين الوردة والوردة وردة هى عجيبة العجائب . ويشرق ضياء الفجر الساطع ويقف كبير الملائكة حارساً عليها كالديدبان وقد نشر جناحيه كأنهما جناحا

العاصفة وعيناه تشبهان الآلام ، بينما تسيل على أورافها جداول من اللبن الدافق حلوة كالشهد ، وتتراقص وتبلل وجوه النجوم الساكنة . فيارب اجعل شجرة وردك تزكو على جسدى المجدب .

استمع إلى يا سميع ، أنا التائبة فى الحج المقدس . اجعل وردتك تتفتح فى جسدى ، ولو كان فى وردتك آلاف الأشواك .

وتنهض المصليات ، وهنا يدخل رتل من البنات حاملات أكاليل الزهور . وتعلو أصوات أطواق معلقة فيها أجراس ويظهر شخصان يلبس كل منهما قناعاً أحدهما ذكر والآخر أنثى . ويلوح الذكر بقرن وتهز الأنثى طوقاً علقت به أجراس ويصيح أطفال قائلين : « الشيطان وزوجه ! الشيطان وزوجه ! » ويبدأ الجمع فى الصياح والتصفيق الرتيب وسط الرقص المجذوب وأنغام القيثار ، وبعد أن ينتهى الرقص يخرج الراقصان حاملا القناعين ويختفيان عن الأبصار .

وتعود العجوز إلى غواية يرما التى بدأ عليها الإعياء الشديد وشخصت ببصرها فى الفضاء كأنها تضمر شيئاً رهيباً . وتسأل العجوز يرما عن زوجها فتعلم منها أنه منهمك فى الشراب . . وتقول العجوز إن يرما عاقر لأن زوجها عقيم ، أما هى فلا عيب فيها . إنها تعرف خوان وتعرف أسرته ، فهم سبط ضعاف هزال لا ينجب أحد منهم ولداً إلا إذا انطبقت السماء على الأرض . أما هى فإخوتها وبنو عمومتها وخئولتها يملأون القرى إلى مائة ميل فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، نعم إنها لعنة ألقيت على شبابها الناضج ، فأذوته وأذبلته .

إن هذه العجوز تعلم أن النساء العاقرات لا يزرن هذا المقام إلا ليجربن رجالا غير أزواجهن ، ثم يأتى القديس بالمعجزة . وهى توحى ليرما بأن تهجر زوجها ، وأن تعود معها لتخالل ابنها التموى الذى سيملأ بيتها بالبنين وبالبنات أما ألسنة الناس ، فلتنطلق فيها كما تشاء ، فما يعبأ بألسنة الناس إلا الضعفاء .

وحين تبلغ العجوز هذه المرحلة من الكلام ، تسكتها يرما قائلة إنها لن تسلم جسدها إلا لزوجها ، ولو عاشت عاقراً بقية أيامها .

وتعود يرما إلى عربتها فتجد زوجها وقد اختبأ ليرصد حركاتها ويسترق السمع لكل ما تقول . وتسأله يرما أن يمضى إلى حيث ينشد المنشدون ، ليشترك معهم

في الصلاة . ويجيبها خوان بأنه قد سئم كل هذا الهراء ، وسئم نواحها الدائم على شيء لن يكون . إنها تعيش في أوهام . أما هو فهو يعيش في الحقيقة . إنه لا يكترث بشيء في الوجود إلا ما يستطيع أن يتحسسه بيديه ، وأن يراه بعينيه . أما هذه الترهات التي تعيش يرما فيها وتقتات عليها فهو لا يحفل بها . فإن كانت تريد أن تعرف الحقيقة فإليها الحقيقة : إنها لا تنجب البنين لأنه عقيم لا لأنها عاقر . وإنه لسعيد بهذا العقم كل السعادة : فهو يحب يرما لذاتها لا لنسلها .

وهنا ترى يرما كل شيء على حقيقته إن هذا الرجل قد تزوج منها وهو يعلم أنه عقيم : تزوج منها لأنه يريد امرأة يعاشرها ويستخدمها في طهي طعامه وترتيب بيته ، وهو يعترف بذلك دون خجل أو حياء .

لقد قضى على شبابها : وهو الآن يريد أن يدمر بقية حياتها . إنه يستلقي على الأرض ويطلب إليها أن تقبله . لا أمل إذن في الأمومة وأفراحها . وليس أمامها إلا الجدب والوحدة القاتلة وليت زوجها كان حزيناً من بعض حزنها إذن لأحست بأنه يأسى لآلامها ويتعذب لعذابها : ولكنه سعيد كل السعادة بما جلب عليها من شقاء « جميلة أنت في نور القمر فقبليني ! » هكذا يقول : فتجيبه يرما فيما يشبه البحران : « إنك تشتهيني كما تشتهي حمامة لعشائك » ثم تتملكها سورة رهيبة فتصرخ صرخة رهيبة ، وتطبق بيديها على عنق زوجها . ولا تتركه حتى يفارق الحياة .

عربة اسمها اللذة

للكاتب الأمريكي : تنيسي وليامز

بلانش ديبوا امرأة جميلة فى الثلاثين من عمرها كانت تعمل إلى عهد قريب مدرسة للغة الإنجليزية بمدرسة فى مدينة لوريل من أعمال الجنوب فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حتى تركت عملها فى ظروف غامضة وانتقلت إلى مدينة نيوأورليانز الكبيرة حيث تقيم أختها استيلا ديبوا ، أو على الأصح استيلا كوفالسكى مع زوجها ستانلى كوفالسكى فى بيت حقير بحى الفقراء فى المدينة .

وحين تصل بلانش إلى البيت تقف أمامه حاملة حقيبتها بيد وبيدها الأخرى ورقة فيها عنوان البيت . وتبدو عليها الحيرة فينتقل بصرها مراراً من الورقة إلى البيت ومن البيت إلى الورقة . ويبدو مظهرها شاذاً فى هذا الوسط الفقير فهى على أناقة واضحة فى فستان أبيض ناصع وجوانتى أبيض وقبعة واسعة ثمينة وقد زينت صدرها بعقد من اللؤلؤ وأذنيها بقرط من اللؤلؤ . وتظهر فى جمالها الهش كالفراشة حطت فى حقول غير مزهرة .

ولا تجد بلانش عند وصولها أحداً فى البيت إلا جارة اسمها يونيس ، وتأتى بها يونيس خارج البيت وتراها مصدومة حائرة . فتسألها إن كانت قد ضلت طريقها فتجيبها بلانش قائلة : « قالوا لى أن أركب عربة ترام اسمها اللذة . ثم أغير لترام آخر اسمه الجبانات يسير بى ست نواص ، فأصل إلى شارع اسمه جنة عدن ! » وتعرف بلانش يونيس أنها فعلا فى جنة عدن . إنها تبحث عن المنزل رقم ٦٣٢ فتقول يونيس إنه أمامك . إنها تبحث عن أختها استيلا ديبوا ، تقصد مسز ستانلى كوفالسكى . وهذا من غير شك بيت أختها ، ويونيس خير من يعرف ذلك لأنها تقيم معها فى هذا البيت الصغير المكون من دورين ، فهى تشغل مع زوجها ستيف الدور الأعلى بينما تشغل استيلا وزوجها ستانلى كوفالسكى الدور الأسفل ، وليس بينهما إلا سلم داخلى يصل الطابقين .

وتفتح يونيس الباب الخارجي المشترك فتدخل بلانش وتجيل نظرها فى الشقة كالمصعوقة ، فهى لا ترى إلا حجرتين تنتهيان بالحمام ، أو على الأصح حجرة واحدة تستعمل للنوم ، أما الحجرة الأولى فهى تستعمل مطبخاً ، وقد جهزت بسرير لتنام عليه بلانش عند وصولها . وليس بين الحجرتين باب يفصل بينهما . إنها لم تألف هذه الحياة فهى قد ربيت مع أختها استيلا فى أسرة كريمة عريقة منحدرة من أصل فرنسى كانت تملك عزبة كبيرة بها دار فخمة ذات أعمدة جميلة أثيلة يعرفها كل من جاورهم من سكان المسسبى باسم « بيل ريف » . وهى لهذا تعجب أن ترضى أختها استيلا بالعيش فى هذا الوسط الوضيع . كانت تحسب أن أختها استيلا منذ أن غادرت « بيل ريف » لسنوات خلت لتشق طريقها فى الحياة ، قد تزوجت برجل من طبقتها .

وترحب يونيس ببلانش قائلة إنها طالما سمعت ستيلا تتحدث عنها وعن عزبتهما بيل ريف ودارهما ذات الأعمدة فتصرفها بلانش قائلة إنها مرهقة وتحب أن تخلو بنفسها . وتنطلق يونيس إلى مكان ليس ببعيد لتبلغ استيلا وزوجها بمجىء بلانش فتقبل على المطبخ باحثة عن شىء تشربه ، وتجد زجاجة الويسكى فتصب لنفسها كوباً تشربه ثم تغسل الكوب فى عناية ثم تجلس بجوار المائدة .

وبعد حين قليل تعود استيلا إلى بيتها . وهى امرأة هادئة تصغر أختها بخمس سنوات وتحملق كل من الأختين فى الأخرى لحظة ثم تنهض بلانش وتعانق أختها وهى تصيح فى عصبية شديدة . « استيلا ! استيلا ! » . . . يا طفلتى المسكينة ! » إنهما لم يلتقيا منذ سنوات عديدة . وتمضى بلانش ترثى لحالها ولحظها القاسى الذى قذف بها لتعيش فى هذا المكان الوضيع . ولا تكف بلانش لحظة عن الكلام . ثم تعجب لصمت استيلا . فتذكرها استيلا فى هدوء بأنها لا تدع لها فرصة للكلام . ثم تؤكد لها أنها على غير ما تعتقد تحب زوجها راضية بحياتها .

وتفسر بلانش سبب مجيئها بقولها إن الإرهاق أخذ منها كل مأخذ حتى انهارت أعصابها وأوشكت تجن فنصحها المشرف على المدرسة بأن تأخذ أجازة تستجم فيها .

وتعرف بلانش أنها ستنام فى المطبخ وتلاحظ أنه ليس هناك باب يفصلها عن حجرة نوم أختها ، فتقول استيلا إن زوجها ستانلى بولندى ، والبولنديون كالإيرلنديين لا يخجلون بسهولة . وتعرف بلانش أن ستانلى يجتمع أكثر الليالى بأصحابه ليلعبوا

الورق فى البيت ، فتقول إنها جاءت بثياب جميلة كثيرة لتبدو فى أحسن زينة أمام أصحابها . ولكن استيلا تجيب بأن بلانش لن تسر كثيراً برؤية أصحاب زوجها ، فهم نماذج من غير من ألفت أن تراهم فى بيل ريف فهى لن تحتاج إلى كل هذه الأناقة بينهم .

وتقول بلانش لأختها أن بيت بيل ريف قد ضاع ، فتبدو الدهشة والاستياء على وجه استيلا . ولكن بلانش تدافع عن نفسها قائلة إن ستيلا لا يجوز لها أن تبدى كل هذا الجزع على دار كانت هى أول من هجرها . وبعد أن تركت استيلا بيل ريف وقع كل العبء على كاهل بلانش التى جاهدت ما أمكنها ذلك لتحتفظ بميراث الأسرة ولتحافظ على تقاليد الأسرة . إن استيلا لا تعرف أن بلانش كابدت وشقيت فى بيل ريف وتحملت العبء كله فهى التى دفنت أباها وأمها ثم أختها مرجريت ثم عمتها جسى . كلهم ذهبوا . . الواحد بعد الآخر ، وكانت هى ، بلانش ، إلى جوارهم وهم يحتضرون . إنها استيلا لم تسمعهم وهم يصرخون متشبثين بالحياة : « لا تتركينى أموت . لا تتركينى أموت . » حتى العجائز منهم كانوا يتشبثون بالحياة . أما استيلا فقد كانت بعيدة كل البعد عن كل ذلك . لقد كانت حقاً تأتى بانتظام لحضور الجنازات ولكن الجنازات شىء هادىء يجلله الصمت وتكثر فيه باقات الزهور . وإذا كانت استيلا لا تعرف فيجب أن تعرف أن الموت يكلف مالا كثيراً . ومن أين تأتى بلانش بكل هذا المال . لم يكن بد إذن من الاستدانة . وقد ضاع البيت وفاء لهذه الديون الكثيرة . إن استيلا تلومها على ضياع بيل ريف ، وهى التى كانت تنعم بأطيب الأوقات فى أحضان زوجها البولندى بينما كانت بلانش تواجه حقائق الحياة والموت فى شجاعة .

وتبكى استيلا من قسوة هذا الكلام وتدخل الحمام لتجفف دموعها وتغسل وجهها فى هذه الأثناء يقبل ستانلى كوفالسكى ومعه جاره ستيف وصديقه ميتش فتتوارى بلانش فى حجرة النوم ، وتسمع الرجال الثلاثة يتواعدون على لعب البوكر فى المساء التالى . وتسمع ميتش يقول إنه يفضل ألا يكون ذلك فى منزله لأن أمه العجوز مريضة جداً وهذا يزعجها فيقول ستانلى : إذن فلنلعب فى بيتى بشرط أن تأتوا ومعكم البيرة . ثم يصعد ستيف إلى الدور الأعلى حيث يقيم وينصرف ميتش . . وهنا تخرج بلانش وتعرف ستانلى كوفالسكى بنفسها . وتنظر إليه لحظة

فتجده رجلا متوسط الطول متين البنيان ، تبدو الحيوانية الشرهة فى كل قسماته والغلظة فى كل حركاته والسوقية فى كل كلماته .

ولا يلبث ستانلى أن يقول لبلانش إن العرق يجعل قيميصه يلتصق بجسمه ، ويخلع قميصه أمامها دون تحرج . ويبحث عن زجاجة الويسكى ويلاحظ ما بها من نقص فيقول هازئاً إن الويسكى يتبخر بسرعة فى أيام الصيف . ثم يسأل بلانش عن حياتها الخاصة . إنه سمع من أختها أنها كانت متزوجة فى يوم من الأيام . فتضطرب بلانش ويصيبها دوار شديد وتجيبه قائلة : نعم . . كان هذا منذ زمن بعيد ، حين كانت فى السابعة عشرة . ويلحف ستانلى فى السؤال : وماذا حدث ؟ فتجيبه فى إعياء : إن الفتى الذى تزوجته . . قد مات . ثم تسقط برأسها على ذراعها وتغيب فى ذهول . فينصرف ستانلى للنوم .

وفى مساء اليوم التالى تخبر استيلا زوجها ستانلى أنها ستخرج بأختها بلانش للنزهة ليخلو البيت له ولأصدقائه فليلعبوا البوكر كما يحبون . وأن بلانش الآن تأخذ حماماً ساخناً فى الصيف لتهدىء أعصابها الثائرة . وتبلغ استيلا زوجها أن دار بيل ريف ضاعت ، وهى لا تعرف كيف ضاعت ولكنها تعتقد أنها ضاعت وفاء للديون . وترجو استيلا ستانلى أن يحسن معاملة أختها فلا ينسى أن يطرى جمالها ومظهرها حين يراها فهى بنت مرهفة الحس . وهى قد صدمت لأنها لم تكن تنتظر أن تجدهما فى هذا البيت الصغير الفقير ، فهى لم تألف هذا النوع من الحياة . نعم . يجب أن يظهر ستانلى إعجابه بأناقة بلانش لأنها تهتم كثيراً بجمال المظهر .

ويختصر ستانلى الطريق ويقول فى غلظة : كل هذا حسن . ولكن كيف ضاعت بيل ريف . وترجوه استيلا أن يرجىء الحديث فى هذا الموضوع حتى تسترد بلانش هدوءها وصحتها . ويعود ستانلى إلى جفافه فيقول : أين عقد البيع . أريد أن ألقى عليه نظرة . فتجيب استيلا أن بلانش لم تعرض عليها أوراقاً . ويصر ستانلى على فحص الأوراق . وحين تقول استيلا أنها تثق فى أختها وأنها لا تكترث بالأوراق ، يقول ستانلى فى خشونة : هل سمعت بشىء اسمه قوانين نابوليون ؟ إذا كنت لا تعرفين فيجب أن تعرفى أن قوانين نابوليون هى القوانين المعمول بها

فى ولاية لويزيانا ، وبموجب هذه القوانين كل ما تملكه الزوجة يملكه الزوج وكل ما يملكه الزوج تملكه الزوجة .

وتقول استيلا أن رأسها يدور ، ولكن ستانلى يمضى فى غلظته قائلا : سننتظر إذن حتى تهدأ أعصاب صاحبة السمو أختك ، ثم نعلمها أحكام قوانين نابوليون ولكن الذى يبدو واضحاً له هو أن أختها نصبت عليها . ونصبت عليه ، فهو له حق فى كل ما تملكه استيلا .

وتحتج استيلا قائلة : إن ستانلى بلغ أسخف السخف فى كلامه فليس بين أهلها أحد ينصب على أحد . ويسألها ستانلى : أين إذن المال إذا كان البيت قد بيع ؟فتجيبه : « إنه لم يبع . بل ضاع . ضاع » فينطلق ستانلى إلى حقيبة بلانش هائجاً ويفتحها ويجمع بين ذراعيه عدداً كبيراً من الأثواب ويصيح : افتحى عينيك . انظرى إلى كل هذا . أتظنين أنها اشترته من مرتب مدرسة . انظرى إلى هذه الرياش . وهذا الريناز أرجنتيه . ويلقى ستانلى بالثياب على السرير ثم يخرج من الحقيبة علبة الجواهر ويستخرج منها الأسورة الذهبية وعقود اللؤلؤ وأقراط الماس . وتاجاً من الماس . وهو يسب ويصخب . وتحاول استيلا أن تفهمه أن فرو الثعلب كان عند بلانش من زمن طويل . وأن كل ما يراه من لؤلؤوماس وذهب من الحلى الفالصو . ولكنه يصر على أن زينة بلانش هذه هى التى ابتلعت بيل ريف وأنه سيعرض هذه الأشياء على صديق له خبير بالجواهر لتعرف قيمتها الحقيقية وحين لا تجد ستيلا سبيلا إلى إسكاته تمضى إلى الباب الخارجى وتنتظر به منعاً للجدل .

وتخرج بلانش من الحمام وهى تطفح بشراً وتفيض عطراً . وتلاحظ أن ملابسها موضوعة على السرير ، فيقول ستانلى مفسراً إنه أراد أن يعينها على ترتيب أشيائها ثم يضيف هازئاً : يبدو أنك سطوت على محل أزياء فى باريس . فتجيبه بلانش إن الثياب الجميلة هى نقطة ضعفها . ويسألها عن فرو الثعلب فتقول إنه هدية من معجب أيام أن كان جمالها يستحق الإعجاب . أما الآ ن ، فمن ذا الذى يظن أنها كانت جميلة فى يوم من الأيام ! فيقول ستانلى كالتيس إن منظرها لا غبار عليه . فتضحك بلانس وتقول إنها كانت تتصيد منه الإطراء . فيجيب بقوله

إن النساء تافهات مغرورات لا عمل لهن إلا تصيد الإطراء من الرجال . أما هو ، فهو لا يكترث لهذه الفتنة التى تضحك بها النساء على الرجال . وهو لا يهتم إلا بالمرأة التى تكشف كل أوراقها وتعامله بصراحة . فتقول بلانش متملقة : إنها فهمته فى أول لحظة رأته فيها فقالت لنفسها إن أختها قد تزوجت رجلا .

وتعود استيلا ، ويعود ستانلى كوفالسكى إلى قصة المرأة التى يجب أن تكشف كل أوراقها . فتكف بلانش عن المراوغة وتقول إنها مستعدة للإجابة عن كل سؤال . ويذكرها ستانلى بقوانين نابوليون المتبعة فى ولاية لويزيانا ويضيف : أين الأوراق ؟ أهى فى الحقيبة . فتجيبه : إن كل ما أملك موجود فى الحقيبة .

ويهجم ستانلى على الحقيبة ويذهب ينبش فيها بحثاً عن الأوراق ، فتغضب بلانش وتصيح به : ماهذا الذى تفعل أتظن أنى أخفى عن أختى شيئاً ؟ دعنى آتيك بالأوراق فهذا أبسط وأسرع .

وتخرج بلانش من الحقيبة صندوقاً من الصفيح وتفتحه . ويلمح ستانلى ربطة من الأورق فى الحقيبة ، ويسألها عنها فتقول إنها خطابات غرامية . فيخطف الربطة . وتصرخ فيه بلانش فى حدة : هات هذه الرسائل . ولكن ستانلى يصر على فحصها أولا ، فتصرخ فيه قائلة : إنك تلوثها بلمسها . ولا يكترث بكلامها ويذهب يتصفحها . وتتناثر من يده الأوراق على الأرض . فتجمعها بلانش قائلة : سأحرقها ما دمت قد لوثتها بيدك ونظرك . ويسألها ستانلى ذاهلا عن مضمون هذه الأوراق فتجيبه : إنها قصائد كتبها فتى صغير . كتبها زوجى . وقد مات . وأنا أسأت إليه كما تريد أنت الآن أن تسىء إلى . ولكنك لن تدفعنى كما دفعته إلى . . أنا لم أعد صغيرة ولم يعد من السهل جرحى .

وتوشك أن يغمى عليها ولكنها تتمالك قواها وتجلس ، وتقول : (معذرة . إن لكل منا أشياء خاصة لا يجب أن يطلع عليها الغير . لقد فقدت صوابى لحظة » ثم تناوله أوراقاً من الصندوق الصفيح تحمل اسم « شركة أميلر وأميلز للرهونات » . نعم هذه هى الشركة التى أقرضتها المال وارتهنت دار بيل ريف ثم استولت عليها حين عجزت عن السداد ويسألها فى غلظة عن بقية الأوراق . فتسلمه مجموعة ضخمة منها وهى تصيح : هذا كل ما تبقى من بيل ريف ، تاريخ مئات السنين

تحول إلى أوراق ضاعت جزءاً جزءاً . أضاعت أجدادنا فى ملاحم النكاح والصبوات هذه هى الصراحة . لقد أضاعت عزتنا كلمة من ثلاثة أحرف . اسأل ستيلا عن التفاصيل . وكل ما ورثناه منها البيت وعشرون فداناً والمقبرة التى تضم رميم كل آل ديبوا إلا ستيلا وأنا . إليك بالأوراق . ادرسها . احفظها عن ظهر قلب . من حسن حظ بيل ريف أن يقع مصيرها بين يديك القادرتين » .

ويقول ستانلى : إن قوانين نابوليون تخول له أن يرعى شئون زوجته المالية ، ولا سيما وأن ستيلا حامل .

وتعود ستيلا فتهنئها بلانش على أنها تنتظر مولوداً . وتعتذر ستيلا لبلانش عن فظاظة زوجها ، فتقول بلانش : الآن وقد فقدنا بيل ريف فلعله ينفعنا أن يختفظ دم الأسرة بدم رجل مثل ستانلى كوفالسكى .

وتنصرف ستيلا وبلانش للنزهة . ويقبل الضيرف واحداً بعد الآخر . فهذه ليلة البوكر .

يقبل الجار ستيف وصديق العمل ميتش هبل ثم بابلوجونزاليس . وكلهم فى قمصان سوقية الألوان . ويضعون على المائدة زجاجة من الويسكى ويمضون فى اللعب . وبعد قليل ينذر ميتش الجماعة أنه لن يفرط فى السهر معهم لأن له أماً مريضة وهى لا تنام قبل عودته . إنكم متزوجون ومعكم زوجاتكم . أما هو فسيبقى وحيداً فى الحياة حتى تموت أمه . ويعيره ستانلى بأنه لا يزال بحاجة إلى بزازة .

وبعد قليل تعود ستيلا وبلانش من السينما . ولما تقترب منهم بلانش تقول للرجال بلهجة السيدات الكرائم : أرجوكم ألا تقفوا . فيقول ستانلى هازئاً : اطمئنى لن يقف لك أحد . ولكن ميتش هو الوحيد الذى يعامل بلانش باحترام فيلفت هذا نظر بلانش إليه . وتذهب تجمع مع أختها المعلومات عنه وهما على حدة . كلا . إنه ليس متزوجاً كلا . إنه ليس زير نساء . نعم هو زميل ستانلى وهو يعمل فى ضبط الأدوات بالمصنع فى قسم قطع الغيار . ويعلو حديث الأختين وضحكهما فيغتاظ ستانلى لأن الضجة تفسد عليه لعبة البوكر . فيأمرهما بالسكوت فى هياج وقد امتلأت شرايينه بالويسكى . فتسكت الأختان قليلا ثم تمضى بلانش إلى الراديو فتسمع منه موسيقى الرومبا . وتطرب الجماعة للموسيقى إلا ستانلى الذى بدأ

يفقد أعصابه من الشراب ومن الخسارة فى البوكر . ويصيح ستانلى : اقفليه . ولكن بلانش لا تتحرك من مقعدها ، فينهض ستانلى ويقفل الراديو فى عصبية ويعود إلى مكانه .

ويأنس ميتش للحديث مع بلانش فلا يلقى بالا للعب ، بل يذهب يتجاذب معها أطراف الحديث ، وتطلب بلانش سيجارة فيريها ميتش علبة سجائره الفضية . وتقبلها بلانش معجبة فتقرأ عليها نقشاً يقول : « ولو أراد الله لزاد حبى لك . . . بعد الموت ! » وهو بيت من شعر اليزابيث براوننج . ويقول ميتش إن البنت التى أهدته العلبة قد ماتت وأنه حزن لموتها حزناً شديداً . . فتقول بلانش إن الأحزان تطهر النفوس . وتفتح بلانش الراديو مرة أخرى فيسمع منه فالس جميل ترقص عليه بلانش بمفردها ، ويجاريها ميتش وهو فى سعادة قصوى . ولكن ستانلى يثور حنقاً ويندفع إلى الراديو ويرفعه ويقذف به من النافذة .

وتعنفه ستيلا غاضبة وهى تصيح أنت سكران . أنت سكران .

هيا انصرفوا جميعاً . إن كانت بكم بقية من كرامة فأرجوكم أن تنصرفوا .

ويهجم ستانلى على ستيلا قاصداً ضربها . . وتصيح بلانش قائلة إن أختى حامل . ويهدىء الرجال من ثائرته وتتفاداه ستيلا ثم تتوارى فى المطبخ . ولكن ستانلى الهائج يتبعها ويلكمها . وتصرخ بلانش . ويتجمهر الرجال على ستانلى . ويدفعونه دفعاً إلى حجرة النوم . ويتهافت ستانلى على الفراش بعد أن كان يقاوم مقاومة عنيفة . وتصرخ ستيلا : « أريد أن أرحل ! أريد أن أرحل ! » ويقول ميتش : « هذا فظيع ! هذا فظيع ! إن البوكر لا يلعب فى بيت فيه نساء . » وتجمع بلانش ملابس أختها وتصعد معها إلى شقة يونيس فى الدور الأعلى . ويضع الرجال ستانلى تحت الدوش حتى يفيق ثم ينصرفون كل بما كسب . ويجأر ستانلى بالصياح قائلا : ستيلا يا حبيبتى ! عودى إلى ياحبيبتى يونيس! يونيس ! ردى إلى حبيبتى! وتجيبه يونيس :

كفى نباحاً ونم . . ويعود ستانلى إلى الصياح : ستيلا ! ستيلا ! يا حبيبتى ! عودى إلى يا حبيبتى . فتجيبه يونيس مرة أخرى : إنها لن تعود . فكف عن الصياح ، وإلا ناديت البوليس .

ولكن ستانلى لا يكف عن الصياح وهو يبكى بكاء الأطفال : ستيلا !

ستيلا ! عودى يا ستيلا ! ويصعد السلم ويدق بكلتا يديه باب يونيس وهو لا يكف عن النداء بأعلى صوته . وأخيراً يفتح الباب وتخرج منه ستيلا والدموع تبرق فى عينيها وشعرها محلول على كتفيها ، ويحملق كل منهما فى الآخر لحظة ثم يمضيان نحو غرفة النوم وهما يئنان أنّاً خفيضاً من أنين الحيوان . ويركع ستانلى أمامها ويلصق خده ببطنها فيشيع فى جسدها حنان قوى . وينهض ويحملها على ذراعيه إلى الغرفة المظلمة ويجذب الستار الذى يفصلهما عن المطبخ الكبير .

ويعود ميتش ليطمئن على ما يجرى فيجد بلانش ذاهلة من هذا الذى رأت . إن أختها ستيلا دخلت مع زوجها حجرة النوم بعد كل الذى فعل . إنها لم تألف هذه الأشياء .

ويشرح لها ميتش أن هذه عاصفة فى فنجان . ولكنها لا تفيق من دهشتها . ويخرج ميتش إلى الهواء لتدخن معه سيجارة تهدىء بها أعصابها .

وفى صباح اليوم التالى تنهض ستيلا من نوم عميق مريح . وقد تلألأ وجهها بضياء الراحة والسعادة . أما بلانش فقد قضت ليلة ساهدة لم تذق فيها طعم النوم . أما ستانلى فقد خرج ليصلح الراديو وليشحم السيارة .

ويدور بين الأختين حديث يبدأ هادئاً ثم يعنف . إن ستيلا كانت مجنونة لأنها عادت إلى زوجها — بل لعلها استسلمت له — بعد أن ضربها . وتعتذر ستيلا لأختها عما كان من إزعاج لها فى الليلة السابقة . ولكنها تجد أن بلانش تهول فى الأمر ، وهى تفهم هذا فقد كانت بلانش دائماً بنتاً عصبية . إنها لا تقر ما فعله زوجها ولكنها لا ترى داعياً للمبالغة فى الأمور . فالرجال حين يشربون يميلون إلى الشجار ومنهم من يحطم كل ما تقع عليه يده . وستانلى من هذا النوع . وهى تذكر كيف أنه ليلة الزواج تناول حذاءها وذهب يكسر كل اللمبات الكهربائية بكعبه وهو قد اعتذر لها فى الليلة السابقة بما فيه الكفاية فلا ضرورة إذن للتهويل فى الأمر كما تفعل بلانش .

أما بلانش فتصر على أن ستيلا متزوجة من مجنون وأنه لا بد من إيجاد مخرج لهما . فلا يجب أن تبقى هى أو أختها لحظة واحدة تحت سقف هذا الوضيع الذى يضرب زوجته . وبلانش تعرف طريقاً ؛ فاستيلا لا شك تذكر صديق الأسرة

الفتى شب هنتلى . إنه الآن من أصحاب الملايين فى تكساس يملك آبار البترول التى تتجشأ الذهب فى جيبه ، وهى قد التقت به فى الكريسماس الماضى ، وفى استطاعتهما أن يقصدا إليه فيعينهما بفتح محل تجارى لهما . إن قلبها يتفطر لسوء حالة اختها استيلا ولسوف تنقذها وتنقذ نفسها من هذا الجحيم الذى تعيشان فيه .

وتهم بلانش فعلا بإرسال برقية إلى شب هنتلى تعلن قدومهما ، ولكن ستيلا تمنعها من ذلك قائلة إنها لا تعيش فى جحيم كما تتوهم بلانش ، بل على العكس من ذلك فهى سعيدة مع زوجها . وتجيبها بلانش قائلة إنها لا تتحدث عن السعادة بل تتحدث عن اللذة ، اللذة الصاخبة التى تصخب حتى تصم آذانها كما تصخب عربة الترام تلك التى يسمونها اللذة فى شوارع مدينتها الضيقة ، وحقيقة الأمر أن زوجها حيوان . مجرد حيوان . إنه رجل من العصر الحجرى يخرج كل يوم للصيد وفى المساء يعود إليها ليضربها ويقبلها ويحملها إلى مغارة من تلك المغارات المظلمة التى لا تختلف كثيراً عن حجرة نومها . ولكن ستيلا تنسى أن العالم قد تقدم ، وأن فيه شيئاً اسمه الشعر والموسيقى وكل ما هو جميل ورقيق .

ويعود ستانلى إلى بيته ويلتقى ببلانش متجاهلا ما حدث . ولكنه يخدجها بنظرات شك واضحة ويسألها قائلا : « أتعرفين رجلا اسمه شو ! » فترتبك بلانش قليلا ولكنها تتمالك نفسها وتجيب : « ليس هناك أحد لا يعرف رجلا اسمه شو » . فيمضى ستانلى فى كلامه قائلا : إن شو هذا يعتقد أنه قابلك فى مدينة لوريل . لا شك أن الأمر اختلط عليه فهو يقول إنه قابلك فى فندق فلامنجو ، وهو فندق سيء السمعة . إنه يذهب يومياً إلى لوريل لتصريف منتجات الشركة ، وفى إمكانه التحقق من الأمر » .

وبعد أن ينصرف ستانلى يعود الاضطراب إلى بلانش وترتجف يداها . وتراها ستيلا على هذه الحال فتسألها عما بها . فتقول بلانش فى شبه هذيان : هل سمعت أحداً يخوض فى سيرتى ؟ ماذا يثرثر الناس عنى . وتنفى ستيلا عاجبة أنها سمعت أحداً يذكرها بسوء . فتقول بلانش إنها لم تكن مثالية السلوك فى السنتين الأخيرتين ، بعد أن ضاعت بيل ريف . إنها كانت ضعيفة ، وكان جمالها مصدر قوة لها ، أما الآن فجمالها يذبل وهى قد بلغت الثلاثين .

وتسرع بلانش إلى الشراب فتخلط لها ستيلا الويسكى بالكاكولا لتهدئها .
ولكن بلانش تظل على حالتها العصبية وتقول : إن متش قادم فى الساعة السابعة .
وأنا لم أعطه شيئاً إلا قبلة وداع . أنا أريده أن يحترمنى . إنه لا يعرف حقيقة سنى .
أنا متعبة .. متعبة جداً . وأريد أن أستريح ، ولو تزوجنى انتهت مشاكلى ومشاكلكم.

وتقول ستيلا لبلانش مشجعة إن أمنيتها ستتحقق . وتحذرها من الإفراط فى الشراب ثم تنصرف للقاء زوجها فى الخارج . ولكن بلانش تبادر إلى زجاجة الويسكى وتشرب منها بيد مرتعشة . إن ميتش هو أملها الأخير . . ولو ضاع منها ميتش . فما أبأسها . . ! ترى ماذا يكون مصيرها ! هل تعود إلى لوريل .

ويقبل فتى حديث السن ويضرب الجرس فتفتح له الباب . إنه محصل جريدة « الإيفننج ستار » . وحين تقع عينها عليه تتوه فى الذكريات البعيدة . وتذكر زوجها الذى مات وهو بعد دون العشرين . وتعتذر له بأن ربة البيت قد خرجت فيجيب : لا بأس إذن . سأعود فى وقت آخر . ويهم بالانصراف فتدعوه إليها كأن مغناطيسياً يجذبها إليه قائلة : أيها الفتى ! أما سمعت أحداً يقول لك إنك تشبه أميراً صغيراً فى ألف ليلة وليلة .

ويصحك الفتى ويحمر وجهه خجلا فتقول له بلانش : تعال إلى . . أريد أن أقبلك . قبلة واحدة رقيقة على فمك .

وقبل أن يتنبه الفتى تقبله بلانش قبلة واحدة رقيقة على فمه ثم تقول : هيا انصرف . انصرف بسرعة . . . فلا ينبغى أن أتعرض للأطفال . . » ويحملق الفتى فيها ذاهلا ثم ينصرف وهى تتبعه بنظرات غريبة زائغة .

وما أن يختفى حتى يظهر ميتش عند المنعطف حاملا باقة من الورد ؛ فتطرب لرؤياه وحين يصل ميتش تقول فى بهجة : يا فارسى ! انحن أولا ثم قدم لى وردك .
وتخرج بلانش وميتش لقضاء المساء فى الملاهى . ويعودان بعد الساعة الثانية صباحاً فيجدان أن ستانلى وستيلا لم يعودا بعد من نزهتهما . ويتضح من هيئة بلانش وميتش ومن كلامهما أنهما لم يقضيا مساء موفقاً ؛ فقد كانا مكتئبين أكثر الوقت .
واجتهدت بلانش أن تتكلف المرح طول المساء ، ولكن شخصيتها النوراستينية

كانت دائماً تغلبها ، وكان هو يحاول تقبيلها ولكنها كانت ترده لخشيتها من توغله فيما بعد القبل .

وتدعو بلانش ميتش للدخول حتى تعود أختها وزوجها فيدخل . وتأتيه بشيء من الويسكي لينبسط انقباضه . ولا يجدان ما يتحدثان فيه فيذهب يحدثها عن وزنه وعن وزنها . ويعلم منها أنها لم تعد موضع ترحيب فى بيت أختها ، وأنها لهذا سترحل عنه قريباً . إنها تمقت هذا البيت وتمقت ستانلى . إنها منذ أن وقعت عينها عليه وهى تعتقد أنه جلادها . . إنه محطم حياتها . إنها تعلم أنه يمقتها من صميم قلبه ، ولا يجد سبيلا إلى إهانتها إلا وسلكه .

ويجمع ميتش قواه ويسألها فجأة عن عمرها ، فترتجف وتقول : : وفيم هذا السؤال ؟ » فيقول ميتش : « لأنى تحدثت مع أمى عنك فسألتنى : كم عمر بلانش ؟ ولم أعرف بماذا أجيب . » نعم إنه تحدث مع أمه عن بلانش وقال لها إنها بنت لطيفة وأنه يأنس إليها كثيراً . وأمه المريضة تعرف أنها لن تعيش أكثر من شهور معدودة وهى لهذا تحب له أن يتزوج قبل أن ترحل هى عن الحياة . وهذا سر اهتمامها بعمر بلانش .

إن بلانش تفهمه حق الفهم . إنه رجل مخلص متفان فى الإخلاص . وحين تموت أمه سيعيش فى وحدة قاتلة . إنها تفهمه لأنها تعرف معنى الوحدة القاتلة . فقد أحبت هى أيضاً شخصاً ما . أحبته حب العبادة . ثم فقدته . ومنذ ذلك اليوم وهى تعيش فى وحدة قاتلة . وتستعين بلانش بكأس أخرى من الويسكى لتهدىء أعصابها ثم تمضى فى سردها فتقول لميتش : « « كان غلاماً صغيراً ، وكنت بنتاً صغيرة . فحين كنت فى السادسة عشرة اكتشفت الحب . . اكتشفته فجأة وفى اكتماله وتمامه . كأن أنواراً كشافة تغشى الأبصار سقطت على شىء كان دائماً نصف محجوب فى الظلال . . . وكنت سيئة الحظ . فقد كان الفتى مختلفاً عن غيره من الفتيان . . كانت فيه عصبية ورقة وحنان ليست من صفات الرجال . وإن كان أبعد ما يكون عن الخنوثة . . . وجاءنى يطلب العون . ولم أكن أعرف أنه ينتظر منى العون . لم أعرف ذلك إلا بعد زواجنا . . بعد أن هربنا وعدنا . . . وكان كل ما عرفته أنى عجزت عن مساعدته فى شىء غامض ، وفشلت فى إعطائه

العون الذى كان يحتاج إليه ولكن كان يعجز عن الإفصاح عنه . كان كمن تسوخ قدماه فى الرمال المتحركة وقد تشبث بى طالباً النجدة . . . ولكنى لم أكن أجذبه بل أسوخ معه فى الرمال . ولكنى لم أعرف ذلك وقتئذ . وكل ما كنت أعرفه أنى أحببته حباً لا يطاق . . . . ثم اكتشفت الحقيقة فى أبشع صورها . فذات يوم دخلت فجأة غرفة كنت أحسبها خالية . ولكنى وجدت فيها هذا الغلام الذى تزوجته ومعه رجل يكبره سناً كان صديقه من سنوات . . . بعد ذلك تظاهرنا بأنى لم أكتشف شيئاً . . . وخرجنا ثلاثتنا فى سيارة إلى كازينو مون ليك ونحن فى سكر شديد نضحك طول الطريق . ورقصنا بولكا الفارسو فنافيا . . وفى منتصف الرقص لم أملك نفسى فجأة فعيرته بما فعل . وانفلت الغلام منى وخرج من الكازينو . . وبعد لحظات سمعنا طلقة . . . » وهكذا انتحر زوجها ألآن . وجرت هى لترى ما الخبر ولكن الناس منعوها من الاقتراب من جثته . وهى منذ ذلك الوقت تعيش فى وحدة قاتلة . . . تعرف مئات الناس ولكنها تعيش فى وحدة قاتلة .

ويهدئها ميتش قائلا إنه بحاجة إليها وأنها بحاجة إليه . فهل تقبله زوجاً . فتتمتم بلانش قائلة : الله . . إنه أحياناً أقرب إلينا من حبل الوريد .

وفى اليوم التالى يدخل ستانلى كوفالسكى فيجد زوجته ستيلا ترتب الشموع لعيد ميلاد بلانش فيقول هازئاً : لقد اكتشفتها ! لقد اكتشفتها ! إنه تحقق الآن من كل شىء . تحقق من أن أختها أفاقة من أعظم طراز وكذابة من الدرجة الأولى ، فالكذبة الأولى أنها تمثل أمام ميتش دور المرأة الطاهرة التى يخدشها مر النسيم والعذراء التى لم يقبلها رجل والحقيقة التى جاء بها صاحبه شو من مدينة لوريل أنها كانت تعيش فى فندق فلامنجو الذى لا يسأل فيه نزيل عن شىء يفعله وأن كل أهل المدينة يعرفونها . بل ويشيرون إليها بالأصابع ويسمونها المجنونة . والكذبة الثانية هى أنها تقول إنها راجعة إلى مدرستها فى الوريل وهى تعلم تماماً أنها طردت من عملها لأنهم اتهموها بإغواء فتى فى السابعة عشرة فاشتكى أبوه للناظر .

وتدافع ستيلا عن أختها بحرارة قائلة إنها لا تصدق كلمة واحدة من هذه الوشايات . وتمضى فى ترتيب الشموع . وهى تتحدث عن زيارة ميتش المنتظرة .

فيقاطعها ستانلى قائلا إنه من الخير ألا تنتظر ميتش . إن ميتش صديقه وزميله فى العمل وهو لن يقوى على مواجهته إذا اكتشف هذه الحقائق بعد فوات الأوان . وهو لذا قد أطلعه على كل شىء حتى يكون على بينة من أمره ، بل أكثر من ذلك إن ستانلى قد اشترى لبلانش تذكرة سفر إلى لوريل ، فهى لابد أن ترحل بعد يومين .

وينصرف ستانلى بعد أن أفرغ كل ما فى جعبته من وشايات ويسقط فى يد ستيلا حين تسمع كل هذا الكلام وتلزم مكانها كالمصعوقة . وحين تقبل عليها بلانش متمهلة فى انتظار ميتش ترى وجهها فى شحوب الموتى ، فتستفسر عن الخبر فى انزعاج شديد ، ولكن استيلا تمضى فى ترتيب المائدة متظاهرة بأن كل شىء على ما يرام .

وبعد ساعة يجتمع ثلاثتهم حول مائدة الطعام ويحتفلون بعيد ميلاد بلانش احتفالا غريباً . فاستيلا تبسم فى وجوم وفى عينيها عبرة معلقة لا تريد أن تفيض ولا تريد أن تنهمر ، وبلانش يبدو عليها القلق الشديد لعدم مجىء ميتش ، وستانلى لا يكف عن العبارات الموجعة يكيلها لبلانش . وبعد العشاء يقول ستانلى إن لديه هدية يريد أن يقدمها إلى بلانش . بمناسبة هذا العيد . ويخرج من جيبه تذكرة السفر إلى لوريل ويقدمها إلى بلانش ، التى لا تحتمل هذا الموقف فتجرى إلى الحمام لتنتحب فى خلوة . أما ستيلا الغاضبة فيصيبها دوار . وقبل أن يثقل عليها الألم تقول لستانلى : « انقلنى إلى المستشفى » لقد جاءها المخاض .

ويعود ستانلى بعد أن نقل ستيلا إلى المستشفى . يعود ليجد أن ميتش قد جاء ليعنف بلانش ثم مضى ، وأن بلانش قد عرفت أنه قد دمر حياتها ، أو ما بقى من حياتها . ويجد ستانلى بلانش وقد أفرطت فى الشراب بعد انصراف ميتش . وتسأله بلانش عن صحة ستيلا فيجيبها إنها فى صحة جيدة . وتسأله عن الطفل فيقول إنه لن يولد حتى الصباح . وتتنبه بلانش إلى أنها وحيدة مع ستانلى وترتجف ويتنبه ستانلى إلى أنه وحيد مع بلانش ، ويمضى إلى غرفة النوم ويلبس بيجامته الحريرية ويقول إنه لم يلبس هذه البيجاما منذ ليلة زفافه . وهو يلبسها الليلة احتفالا بالمولود .

وتصطنع بلانش أولا عدم الاكتراث وتذهب تتحدث عن صديقها المليونير

شب الذى سيضيفها ويحترمها لأنه يحبها حباً أفلاطونياً إنه جنتلمان . إنه يحترم عقلها وثقافتها أما هنا فهى تلقى دورها أمام الخنازير . وينظر إليها ستانلى فتقرأ الشبق الجائع فى نظراته . إنه لا يفتأ يعيرها مستهزئاً بكل هذا الذى سمعه عنها ، إنه ينظر إليها نظرة إلى بغى . وتحاول بلانش أن تتجنبه . ولكنه يدنو منها وترى فى عينيه نظرات وحش مفترس . إنه ليس بالأبله ليستمع لأحاديثها الزائفة عن شعر الحياة وموسيقاها ومعانيها السامية . إنه يعرف ماضيها فى لوريل .

وتسعى بلانش للخروج وتراه يعترض طريقها أو يخيل لها ذلك . وتأمره أن يبتعد من طريقها . فتلتهب فيه الرغبة ويدنو منها فتتراجع بلانش حتى تبلغ غرفة النوم . وتجد زجاجة فترفعها ثم تحطمها على المائدة وتشهر رأس الزجاجة المكسور صائحة أنها ستدافع عن نفسها . وتتراجع إلى الغرفة فيتبعها كأنه يتبع قنيصة ويقول : ما دمت تطلبين العنف . فليكن عنفاً . ويهجم عليها ويقبض على معصمها بيد من حديد حتى تسقط من يدها الزجاجة . وتسقط بلانش متهافتة على الأرض . فيحملها ستانلى على ذراعيه ويتجه نحو الفراش قائلا : « هذا الموعد ضربناه منذ اليوم الأول » !

وتعود ستيلا مع وليدها من المستشفى فتجد أن بلانش قد انهارت تماماً . إنها لم تعد تأكل زاداً . وهى لا تكف عن الشراب وهى تحدثها عن شىء فظيع جرى بينها وبين ستانلى ليلة دخولها المستشفى . إن حديثها قد غدا كالهذيان المستمر ، ولابد من حل عاجل لأنها فى كل يوم تسوء عنها فى سابقه . إن استيلا لا تعرف أتصدق ما تقوله بلانش عن ستانلى أم تعده ضرباً من هذيانها . إنها لن تطيق الحياة مع ستانلى بعد ذلك إن كان هذا صحيحاً . وتميل عليها جارتها يونيس قائلة : « لا تصدقى شيئاً مما سمعت . فلا بد أن تجرى الحياة مجراها . ومهما حدث حولك من أشياء . فلا بد أن تثابرى على الحياة » .

وبعد قليل يأتى طبيب الأمراض العقلية ومعه الممرضة تحمل الكاميزول احتياطاً للطوارىء . وتقاوم بلانش أول الأمر ولكن الطبيب العجوز يقول فى رفق واحترام : لا تجزعى يا آنسة ديبوا ! وتحملق فيه بلانش ، وتأنس إلى أدبه

الجم . إن هذا السيد الغريب يناديها قائلا : يا آنسة ديبوا . إنه لا شك فارس شهم جاء لينقذها من الجحيم الذى تعيش فيه . وتهش له بلانش وتقول فى صوت تشيح فيه الراحة : « لقد اعتمدت دائماً على كرم الغرباء » .

وتعتمد على ذراعه وتخرج معه فى هدوء تتبعهما الممرضة .

قالت العنقاء

أنا أصعد فى اللهب !؟

للكاتب الأمريكى تنيسى وليامز

تمثيلية عن موت الكاتب الكبير د . ه . لورانس

كان القدماء يرمزون للروح بالعنقاء ، وكانوا يقولون إن العنقاء كالروح خالدة لا تموت . فكلما اكتملت عليها مائة عام رفرفت بجناحيها فى معبدها القائم عند مشرق الشمس وغمست جناحيها ثلاثاً فى ينبوعها المقدس ثم طارت إلى الغرب وينتهى بها المطاف فى معبد الشمس بمصر . حيث تبنى عشها الذى تموت فيه وتولد من جديد . وكانت العنقاء فى طريقها تجمع أزكى الطيوب وأعطر الأعشاب ومن هذه الطيوب والأعشاب تبنى عشها ، وهو لحدها ومهدها معاً .

وفى معبد لون (عين شمس) تحضر العنقاء الوفاة فيضطرم جسدها حتى يخرج من حرها لهب فتحترق فى عشها المحترق ومن رمادها تخرج العنقاء الجديدة . . . وتولد الحياة الجديدة .

كان الكاتب الإنجليزى دافيد هربرت لورانس أعظم فنان استخدم القلم فى وصف مكنونات الحياة الجنسية فى الرجل والمرأة . وقد صودرت بعض كتاباته كقصة « عشيق الليدى تشاترلى » واختلفت فيه آراء النقاد ولكن مجدته كثرتهم المطلقة حين استبان لها أن لورانس ليس مجرد كاتب قذر التفكير يسعى لإثارة الحواس . بل حكيم من حكماء عصرنا يحاول تشخيص علل الحضارة الراهنة ويقترح لها علاجاً .

وأهم هذه العلل فى نظره أن الحياة الحديثة قد نمت الجانب العقلى فى حياة الإنسان إلى حد قتل حياته الجسدية وحطم كفايته الجنسية فذوت فيه الخصوبة الخالقة وصار إلى كائن ممسوخ هزيل تملؤه العقد

ولهذا طالب لورانس بالثورة على العقل والثقافة والكتب والعودة إلى حياة الفطرة السليمة حيث الإنسان يعرف الحق والخير والجمال بالإلهام ، ومجد الهمج وعاش بينهم زمناً ولكنه أصيب بخيبة أمل شديدة فقد وجدهم أشد انحطاطاً من المتحضرين .

وقد مات لورانس معذباً كما عاش معذباً . مات بذات الرئة إلى جوار زوجته الألمانية فريدا التى كانت عنصراً لازماً من عناصر حياته الصاخبة . مات فى بلدة فانس فى جنوب فرنسا حيث كان يستشفى بشمس البحر الأبيض المتوسط .

وقد كان لورانس يتخذ من العنقاء رمزاً لحياته وللحياة المتجددة ويعلق فى داره راية عليها نقش العنقاء . فحياته كلها وعامة فنه يدوران حول تجدد الحياة ، وقد كان يرى ما يراه متصوفة الهند من أن تجدد الروح يكون بإحراق الجسد فى سعير الأشواق .

وقد اتخذ الكاتب الأمريكى الكبير من موت لورانس مادة لتمثيلية شعرية خلد فيها وفاته بين زوجته الألمانية فريدا وصديقته الإنجليزية برتا . وهذا نص التمثيلية :

* * *

لورانس : (دون أن يدير رأسه) : ما هذا ؟

فريدا : شىء ترك على العتبة .

لورانس : هاته .

فريدا : صاحبة الهدية لا تذكر اسمها إنما لمحتها لمحة خاطفة من النافذة .

لورانس : امرأة ؟

فريدا : نعم .

لورانس : نعم . . .

فريدا : إنها عانس ضئيلة الجسم خافتة الأنفاس تلبس سترة محبة زرقاء وقد وضعت الهدية فى المدخل ثم هبطت التل قبل أن أرد على الجرس .

لورانس (يرتفع صوته ويشتد حدة كأنه يشاحن) : إن الهدية لى . أليست لى .

فريدا (بالألمانية) : نعم . إنها لك .

لورانس : إذن هاتها . عليك اللعنة يا . . .

فريدا : صمتاً . كنت أظن أن الشمس حسنت حالتك النفسية .

لورانس : إنها سوأت حالتي النفسية فقد لبثنا هنا طول العمر . أغايظها وتغايظني أقول للشمس : أبرئيني من المرض أيتها البغي العجوز . جددى قواى خذى يدى فى يديك واجذبيني من هذا المقعد ! ولكن الشمس كربة البيت البخيلة تمضى فى كنس عتبة الدار وتتظاهر بأنها لا تسمع سؤالى . ولكنى لا ألومها على ذلك فأنا نفسى لا أحب السائلين . فالسؤال ليس من شيم الرجال . فمن واجب الرجل أن يضع يده على ما يريد وأن ينتزعه من قبضة غريمه . فإذا عجز عن أخذه إذا عجز عن انتزاعه ، فعليه إذن أن يفرط فيه وأن يكف عن طلبه راضياً بالفشل . انظرى (وقد فتح الربطة) إنها إناء صغير من مربى البرتقال (يبتسم فى سرور الأطفال) هذا حصاد أغسطس جمع فى زجاجة .

فريدا : نعم ! حلو جدًّا ! يمكنك أن تفطر منه .

لورانس (يتناول من الخيط الذهبي الصافى فى حنان) : بديع ! يمكننى أن أفطر منه بقية أيام حياتى . ألا ترين ذلك يا فريدا ؟ إن حجم الإناء يكفى لذلك بالضبط .

فريدا : صمتاً .

(تبدأ فى انتزاع الإناء منه ولكنه يقبض على معصمها بقبضة من فولاذ فى سرعة القط)

لورانس : اتركيه عليك اللعنة !

فريدا (تضحك) : يا إلهى ! إنك لاتزال قويًّا !

لورانس : أكنت تظنين غير ذلك ؟

فريدا : لقد نسيت . لشدة ما رأيت من وداعتك فى الأيام الأخيرة .

لورانس : ظننت أنك روضتينى ؟

فريدا : نعم . ولكن كان ينبغى أن أحسن التقدير . كان ينبغى أن أفطن إلى ما فعلته بنفسك فى دخيلة نفسك ، فقد كنت تبتلع هذا الدفء الأصفر كأنه اللارنج ، أيها الثعلب العجوز ، وتمتص الشمس الضاربة الحمراء فى جسدك طول النهار لتحيلها إلى سم تبصقه فى وجهى .

لورانس : كلا . . . إنما كنت أنصب فخًّا ، كنت أنصب فخًّا براقاً من الفولاذ لأقتنصك فيه ، أيتها البقرة ! فاخرجى الآن من الفخ إذا استطعت !

فريدا (وهى تبتسم ابتسامة صفراء وتختلج فى ألم) : ياإلهى ! إنك تؤلمنى !

لورانس (يفرج عنها تدريجياً) : . . . لا تكذبى . . . ما أوفر الحياة فيك ! لم وهبك الله بسخاء وشح على فى العطاء ؟ إن فى إمكانك أن تقبضى على ذراعى وأن تكسريها كعود جاف .

فريدا : كلا . . . فقد كنت دائماً تفوقنى قوة ، ورغم جسامتى لم أستطع أن أغلبك فى يوم من الأيام . هل استطعت أن أغلبك ؟

لورانس (راضياً) : كلا . لم تستطيعى (يحز صوته بخشونة) : ضعى الإناء على النافذة .

فريدا (تطيعه) : أرى بطاقة ألصقت عليه . هى تقول : « من إحدى قارئاتك المخلصات » وظهرها يقول : « أنا أعبدك يا مستر لورانس . فإنى أعلم أنه لا يعرف أسرار الحياة كل هذه المعرفة إلا إله ! »

لورانس (فى جفاف) : يبدو أنى نجحت بالصدفة أثناء بحثى الفاشل عن الله فى خلق إله تعبده عانس مجهولة الإسم ترتدى سترة محبوكة زرقاء . وهى تقدم قربانها إناء من مربى البرتقال الشهية على مذبح إلهها الوثنى ! يا لها من امرأة صغيرة مجردة من القيم ! فليس يقدر على هذا التجديف الجسيم إلا صغار الناس فى هذه الحياة ممن يهبطون التل هبوط الحصى تجرفه الأمطار . إنهم يجدون المهم ويقدمون له مربى البرتقال ولو أننى وجدت إلهى . . يوماً ما . . لو أننى وجدت إلهى لنزعت له قلبى من جسدى وأحرقته له قرباناً .

فريدا : إنك تسترد صحتك .

لورانس : وماذا يحملك على هذا الظن !

فريدا : إنك غدوت ترثى لحالك . إذ يساء تقديرك ويساء فهمك إلى حد بعيد . . . إنك تمقت يسوع المسيح لأنه انتصر عليك فى هذا . لكم كنت تحب أن تكابد آلام الصلب « الأول » !

لورانس : ليتنى أستطيع أن أطبق بأصابعى على حلقك .

فريدا (تنحنى إلى جواره) : هاك حلقى . . . هيا اخنقنى .

لورانس : (يلمس حلقها فى رفق بأطراف أنامله) : فريدا أتظنين أنى سأعود إلى نيو مكسيكو فى يوم من الأيام ؟

فريدا : أنت تفعل دائماً ما تريد أن تفعله يا لورانس . فليس هناك حائل من أى نوع كان لم تستطع أن تقفز فوقه أو تزحف تحته أو تنفذ خلاله .

لورانس : أتظنين أنى سأعود إليها فى يوم من الأيام على صهوة جواد أبيض قوى وأنطلق انطلاق الريح فأجتاز صحراءها اللامعة ؟ أنا لست أديباً وقد سئمت الكتب . إنها لأضحوكة بشعة لا يعرفها أحد ألا تتجلى حياة رجل مثلى إلا فى الكتب

فريدا : وفيم يجب أن تتجلى فى غير الكتب ؟

لورانس : فى عمل من عنيف الأعمال ولكن كل ما أفعله فى حياتى هو أنى أجوب الأرض مسافراً مع النساء والمخطوطات وطباعى الكريهة . وأزعم أنى أشن الحرب على المفاهيم الأخلاقية البورجوازية وعلى التزمت وعلى الحياة الفكرية وعلى القوى الخارجية وما هى بخارجية أبداً . وواقع الأمر أن ما أحاربه هو العانس الساكنة فى نفسى ، العانس خافتة الأنفاس التى تهبط التل قبلما يخف الله للرد على الجرس . وأنا الآن أريد أن أعود إلى الصحراء وأجرب حياة الهمجية مرة أخرى كما فعلت فى القديم .

أريد أن أقف على اللوبوس وأتأمل العاصفة المطيرة تهب من عشرة أميال كأنها فرقة من العمالقة تتقدم فى خوذاتها الفضية .

وهذا ما أنا فاعله ، عليك اللعنة !

فريدا : ومن أنكر أنك فاعله ؟

لورانس : أنت . . . فأنت تعلمين أنى لن أفعل من ذلك شيئاً . أنت تعلمين أن الهمجى الذكر فى كيانى قد مات وأن كل ما تبقى منى هو الهندية الحمراء الجبانة الضعيفة الفؤاد . إن فى النساء إلهاماً دقيقاً يعرفن به الموت ، فهن يشممن رائحته ولما يبدأ . وأعتقد أن من يفتح الباب للموت فعلا هن النساء . فهن يهمسن فى أذنه ويومئن له ويدسن فى يده المفتاح الأسود من تحت المرايل . . . ألا يفعلن ذلك ؟

فريدا : كلا . . . إن النساء هن اللواتى يدفعن ثمن دخول الحياة . وهن اللواتى يمددن أذرعتهن طول الحياة كأنها عوارض الحديد خلف الباب الذى يريد الموت أن يدلف منه . إن الرجال يعشقون الموت . . . أما النساء فلا . فالرجال

يشخنون بعضهم بعضاً بالجراح ، أما النساء فيرقفن النزيف .

لورانس : أجل ، بشرب الدماء . لا تمسيني بهذه القوة ! (تترك أصابعه)
إن أصابعك تجعلني أحس بازدياد ضعفي فهي تستنزف من جسدى قوته .

فريدا : لا . لا . لا . بل هي ترد إلى جسدك قوته يا حبيبي .

لورانس : أريد أن تعديني بشيء . لئن مت يا فريدا . . . فإني أرجوك أن تتركيني وحدى في لحظة الموت ! . . . لا تلمسيني ولا تضعى يدك على جسدى ولا تأذنى لغيرك بأن يفعل ذلك . . إن بي إحساساً مخيفاً بأن النساء سوف يحطن بي ساعة منيتي . سوف يقتحمن الباب والنوافذ لحظة أن أفقد القوة على دفعهن بعيداً عني . سوف ينحن ويرفرفن كالحمائم من حول العنقاء المحترقة . سوف يكسين وجهى وراحتي بقبلاتهن الشفافة ودموعهن الصغيرة المتحدرة . فالبنت ألما عاشقة الأطياف وبرتا ذات العذارة وكل من عرفت من نساء شاحبات الأنوثة أو مسرفات فيها ممن يحسبنني نبي شهوتهن الشاذة كل هؤلاء النسوة سوف يرجعن إلى جميعاً بإخلاصهن الخانق . أنا لا أريد من هذا شيئاً . بل أريد أن أموت ميتة الحيوان في وحدته . أريد أن أموت ميتة ضارية ، ميتة نظيفة فلا أجابه في خاتمتي شيئاً إلا الغضب والخوف وما شابه ذلك من صعاب الأمور .

أتفهمين يا فريدا ؟

ما زالت بي بقية من رجولة الرجل وهذا ما سأجابه به شبح المنون .

وحين يأتي النزيف الأخير ، ولسوف يأتي بعد حين قليل ، لا أريد أن تزج بي النساء في فراشي أو أن تنهنهني كأني طفل وليد . لن أبقى في الدار يا فريدا سوف أفتح هذا الباب وأمضي إلى الصخرة . ولست أحب أن يتبعني أحد . هذا لب الكلام يا فريدا . أريد أن أجابه الموت وحدى . هناك أجلس مع الركام والمياه . يغمرني ضياء الشمس ويجللني نور النجوم ، بلا أيد ولا شفاه ولا نساء بلا شيء إلا . . . الطبيعة الضارية . . .

فريدا : أنا لا أصدقك ، فلست أظن أن هناك من لا يطلب إلا « الطبيعة الضارية » عند ما تحضره . . . .

لورانس : أتقصدين أنك ترفضين يا فريدا ؟

فريدا : كلا ، بل أوافق على الإطلاق .

لورانس : أتعدينني بذلك ؟

فريدا (بالألمانية) : نعم ، وعدا أبديًّا والآن فلنفكر فى شىء غير هذا . سأمضى لإعداد الشاى (تهم بالانصراف) .

لورانس : (وقد لاحظ شيئاً فجأة) : يا إلهى .

فريدا : ماذا جرى ؟

لورانس : ضعى إناء الأسماك على قاعدة النافذة .

فريدا : ولم تطلب ذلك ؟

لورانس : لكى أرقبها . لقد سطت هذه القطة اللعينة على الأسماك ثانية .

فريدا : وكيف علمت ذلك ؟

لورانس : كيف علمت ذلك ؟ لقد كانت الأسماك أربعاً وهى الآن ثلاث

فريدا : لقد خرجت القطة .

لورانس: لتلعق فريستها . عليها اللعنة ! ضعى إناء الأسماك على قاعدة النافذة .

فريدا : محال أن تبقى الأسماك فى الشمس ، فالشمس سوف تقتلها .

لورانس (فى هياج) : لا تعارضينى . ضعيها هناك !

فريدا (بالألمانية) : كما تريد !

(تبادر إلى وضع إناء الأسماك على قاعدة النافذة)

لورانس : أتعرفين ماذا يجول ببالى ؟ أنا أظن أنك أطعمت القطة بالسمكة . إن مثل هذه الأفعال من خلالك . فأنت والقطة تلتقيان فى السمنة والشره ، وكلا كما قوى الصحة شديد الجوع بصورة منحطة !

فريدا : كل هذا الضجيج من أجل سمكة ؟

لورانس : إنها ليست مجردة سمكة .

فريدا : ما هى إذن ؟

لورانس : الآن وقد تدهورت قوتى لا يسعنى إلا أن أفكر كم أضعت منها فى الشحان معك .

فريدا (تغطى وجهها بيديها فجأة) : هذا فظيع يا لورانس .

لورانس : ماذا تفعلين ؟ أتبكين ؟ كفى عن البكاء . أنا لا أحتمل رؤية الدموع . إنها تثقل على الداء .

فريدا : أعتقد أنك « تكرهني » يا لورانس .

(يلمس ذراعها بعد لحظة فى خجل)

لورانس : لا تصدق ما أقول . . . إنى أحبك . (بالألمانية) : إنى أحبك يا فريدا . ضعى شيئاً من الروم فى الشاى . إن صحتى فى تحسن عظيم ، فلِمَ أحس بكل هذا الضعف ؟

فريدا (وهى تلمس جبينه) : ليتك تعود إلى فراشك .

لورانس : لو عدت إليه لبقيت فيه ومن أين لى أن أعرف أنى سأخرج منه إذا دخلته ؟ هل جبينى ساخن ؟

(تضع فريدا يدها فى حنان على عينيه ويتلو لورانس بصوت صبيانى عالى الطبقة شعراً من شعر الأطفال)

« يا بقة السيدة يا بقّى الطائرة !

طيرى إلى منزلك .

فبيتك يشتعل وأولادك سيحترقون » !

(يبتسم ابتسامة خفيفة)

كانت أمى تغنى هذه الأغنية كلما رأت بقة طائرة . . . الأمر بسيط . . . إن أكثر الناس معقدون تعقيداً لعيناً ومع ذلك فهم تافهون .

فريداً (تتحرك ثم تقف أمام الراية) : آه أيها العنقاء العجوز . . . أيها الطائر الجسور الغاضب فى عشك المشتعل باللهيب ! أعتقد أنك تستسلم بعض الشىء للعاطفة الساذجة .

لورانس (يميل إلى الأمام فجأة) : هات الشاى لثلاثة :

فريدا : من الثالث ؟

لورانس : برتا ! . . . لقد عادت من لندن بأنباء المعرض . (ينهض عن مقعده فى جهد) .

فريدا : ماذا أنت فاعل ؟

لورانس : إنى خارج للقائها .

فريدا : إجلس أيها الأحمق ! سأقابلها أنا . وإياك أن تجسر على دعوتها للإقامة فى هذا البيت . . . . فإن دعوتها تركت البيت !

(تخرج)

لورانس : كاك ! كاك ! كاك . كاك . . . أيتها الدجاجة : أتحسبين أنى حريص على زيادة الدجاج من حولى ؟

(يتلوى فى ألم على مقعده لحظة ثم يقذف بالغطاء ويقف على قدميه فى جهد ، ويتعثر فى دوار ثقيل الأنفاس ، ويتحرك صوب باب المدخل الداخلى حتى يبلغه ويتوقف وقد أدركته نوبة سعال . يتطلع خلفه فى قلق إلى المقعد قائلا) : « كلا ، كلا . عليك اللعنة . . . لن أعود إليك ! » وينظر إلى العنقاء وينصب قامته فى شجاعة فائقة ويخرج .

وتعود فريدا بعد لحظات ومعها برتا ، وهى امرأة صغيرة الجسم . خفيفة الحركة من سيدات الطبقة الوسطى الانجليزية ذات صوت مبادر وعينين سريعتى التنقل كالأطفال) .

فريدا : يا إلهى ! لقد نهض من مقعده !

برتا : أكان ينبغى أن يلزم مقعده ؟

فريدا : لو أصابه نزيف آخر لقتله . إن أقل جهد يبذله يحتمل أن يسبب له نزيفاً . أين أنت يالورنزو ؟

لورانس (من الخلف) : لاتكاكى . أيتها الدجاجة المشتاقة . إنى أجيئكما بالشاى .

برتا : اذهبى إليه . اجعليه يكف عن هذا !

فريدا : لن يكف .

برتا : أيريد أن يموت ؟

فريدا : كلا . كلا . كلا . كلا ! إنه بغير رئتين ، وهو مع ذلك يتنفس . إن قلبه مستهلك ومع ذلك فهو يخفق ما أفظع رؤية هذه المكابدة. ليته يكف . ليته يستسلم ويسلم الحياة !

برتا : فريدا !

فريدا : إن جسده بيت صنع من ورق القماش واندلعت فيه النيران ، فجدرانه شفافة أضاءها اللهيب ! كان ينبغى أن تخرج الروح من أجساد من يشرفون على الموت . . . كان ينبغى أن تنطفىء رويداً رويداً قبلما ينتهى الجسد

كان ينبغى ألا تراها تتوهج بهذا البريق المخيف وهى تلتهم الجدران التى تؤويها !

برتا : أنا ما اعتقدت قط أن لورنزو يمكن أن يموت . وحتى هذه اللحظة لا أعتقد أنه سيموت .

فريدا : أيستطيع أن يحقق ذلك ؟ أيستطيع أن يعيش بغير جسد ؟ أقصد مجرد لهب بلا شيء يأكله اللهب فيذكو به . .

برتا : العنقاء تستطيع .

فريدا : العنقاء أسطورة أما لورنزو فهو إنسان .

برتا : أعلم أن هذا كان رأيك دائماً ولكنك مخطئة .

برتا : أنت لن تعترفى بأن لورنزو إله .

فريدا : كلا لقد عرفته فى الفراش .

برتا : إن فى الإنسان ما يعرف فوق ما يعرفه اللحم .

فريدا : ولكن معرفة اللحم فى المقام الأول .

برتا : أنا أخالفك فى الرأى .

فريدا : وتخالفين لورانس إذن فى الرأى أيضاً . فقد كان دائماً يؤكد أنه لا سبيل إلى معرفة النساء حتى تعرف أجسادهن .

برتا : أعتقد يا فريدا أنك أنت التى أبقيتيه كل هذا الإبقاء فى جسده . !

فريدا : إن كنت قد فعلت هذا فقد أعطيته شيئاً يشكرنى عليه .

برتا : لست واثقة من أن هذا شيء يستحق الشكر .

فريدا : ماذا كنت فاعلة به لو قدر لك أن تنشبى فيه مخالبك .

برتا : مخالبى ؟ . . . فريدا !

فريدا : إذن لكنت تنزعينه من جسده نزعاً ، ترى أين يكون الآن ؟ . . فى الهواء ؟ نعم . دائماً أنا الغبية وأنت صاحبة الفهم العميق !

برتا : فريدا !

فريدا : إنك بكل بساطة تجهلين الموضوع . إن معنى لورانس يفوتك، إنه يمجد الجسد فى جميع آثاره . لكم يحتقر تزمت الناس الذين يريدون إخفاء الجسد .

برتا : هكذا نعود إلى شجارنا القديم يا فريدا .

فريدا : نعم ، وكفانا هذا ، فلا نحاول أن نقتسم ما بقى من لورنزو !

برتا : إن ما بقى من لورنزو شيء لا يمكن اقتسامه !

فريدا : اصمتى ! . . . إنه قادم .

برتا : (تتقدم بضع خطوات صوب الباب) : لورنزو !

لورانس (لا يرى وهو يتكلم) : « يا قطتى الصغيرة ، يا قطتى الصغيرة ، أين كنت » ؟

برتا (فى مرح) : « كنت فى لندن لأرى الملكة ! »

لورانس (يقترب): « يا قطتى الصغيرة. يا قطتى الصغيرة . وماذافعلت هناك » ؟

برتا : (ينسجم صوتها قليلا مع صوته) طاردت فأراً صغيراً .. تحت مقعد !

(يظهر لورانس عند الباب ضاحكاً وهو يدفع مائدة صغيرة ذات عجلات تحمل أدوات الشاى . تحملق فيه برتا مرتاعة)

لورانس : نعم . أعلم ذلك . . أعلم ذلك . . أعلم أنى أبدو كجثة محنطة بغير إتقان ألا يدل مظهرى على ذلك ؟

برتا (بشجاعة) : إنك فى صحة جيدة يا لورنزو .

لورانس : إن الحمرة فى وجهى ليست من طلاء الغوانى . إنها الحمى ! إنى أحترق ، أحترق . ومع ذلك لا أصير إلى رماد . لقد أدهشت جميع الأطباء . وخيبت أملهم كذلك . أما أرماتى المترقبة هذه فهى قد قطعت الأمل . (تتقدم برتا لتعينه على دفع المائدة) لا تزعجى نفسك فى استطاعتى أن أدفعها وحدى .

فريدا : إنه يرفض أن يهدأ . إنه يرفض أن يرتاح !

لورانس : كاك ! كاك ! كاك ! كاك ! خير لك أن تراقبى الديك . أيتها الدجاجة المشتاقة العجوز !

فريدا : وأنت تبدو كالديك الفصيح البديع فى هذا الشال الأزرق الفاتح المشرب بحمرة خفيفة !

لورانس : من ذا الذى ألقاه على ؟ . أنت . أنت ألقيته على أيتها اللبؤة (يقذف به بعيداً) إن الراحة لم تفسدنى أبداً يا برتا .

برتا : اخلد إلى الراحة قليلا . وبعدها نخرج ثانية للنزهة فى الزورق !

لورانس : نخرج ثلاثتنا ثانية للنزهة فى الزورق ؟ !

« ثلاثة من الحمقى فى برميل . . برتا وفريدا وآكل النار العجوز ! »

برتا (تشدلحيته) انتبهى ! الآن لابد أن أمشط لحيتى (يخرج مرآة صغيرة ومشطاً) .

فريدا : إنه شديد الفخر بسالفيه الأحمرين البشعين !

لورانس (يمشط لحيته) : إنها تغار من لحيتى . كل النساء يكرهن سوالف الرجال . هن يمقتن كل شيء يميز الرجال من النساء يا برتا .

فريدا : بالعكس تماماً (تصب الشاى)

لورانس : إنهن يحتوين الرجال فى أجسادهن . . ولكن بأمل خفى واحد هو ألا يستطيعوا الفكاك منهن ، وأن يقعوا فى أسرهن إلى الأبد .

فريدا : أى كلام هذا الذى تلقيه على مسامع آنسة عذراء !

لورانس : ها قد عادت إلى سلاطتها ثانية يا برتا . . هذه المخلوقة العجوز ، ذات التفكير الداعر ! إنها تشمت فى عزوبيتك !

فريدا : أنا أشمت فى عزوبيتها ؟ محال ! أنا أظنها من أسعد الناس فليس هناك ما يلزمها بأن تسمع مائة مرة فى اليوم أن الرجل هو الحياة وأن المرأة ما هى إلا قطعة سالبة من البروتوبلاسم .

لورانس : أنا ما قلت سالبة قط ، وإنما قلت دائماً شريرة .

(يضع المشط جانباً ويشخص إلى المرآة) أليست هيئتى كهيئة الشيطان ؟

فريدا : اسمعى يا برتا ، إن آراءه فى الجنس تمتد الآن إلى الكون كذلك ! فحين تشرق الشمس فى الصباح . . . أتعرفين ماذا يقول ؟ كلا لن أردد ما يقول ! وحين تغرب الشمس . . . لا داعى للكلام فستسمعينه يتكلم بنفسك .

لورانس (يصدر صوتاً بلسانه) : نعم . فأنا أكرر نفس العبارة . وسوف تسمعين ما أقول بعد دقائق معدودة (يضع المرآة جانباً) . والآن يا برتا !

برتا : نعم . يا لورنزو !

لورانس : أنت لم تقولى شيئاً حتى الآن .

برتا : لم أقل شيئاً ؟ فى أى موضوع ؟

لورانس : فيم تظنين أنى أرسلتك إلى لندن ؟

برتا : لتبعدنى من طريقك !

لورانس : هناك سبب آخر . . . تكلمى . عليك اللعنة ! المعرض ! ماذا كان رأيهم فى لوحاتى !

برتا : رأيهم . .

فريدا : تكلمى يا برتا. قولى الحقيقة . فهذا الوحش لن يهدأ حتى يسمع رأيهم !

برتا : رأيهم . . .

فريدا : إن المعرض فشل فشلا تاما ! بالضبط كما تتنبأت له !

لورانس : تقصدين أنهن « أحبوا » لوحاتى ؟

فريدا : أحبوا لوحاتك ؟ إنهم وصفوها بأنها مغثية !

لورانس : آه ! . . لقد أصبت النجاح إنهم قالوا إنى لا أعرف كيف أرسم ؟ إنى أرسم كالطفل ؟ وصفوا رسومى بأنها غريبة تدعو إلى السخرية ؟ ثقيلة بلا شكل ولا قالب . فاضحة . شائهة وحشية بشعة .

برتا : لابد أن تكون قد رأيت أقوال الصحف وقرأتها بنفسك .

لورانس : أهذا بالنص ما تقول ؟

فريدا : نعم . هذا بالنص ما تقول !

لورانس : وماذا كان رأى الجمهور ؟ ماذا كان رأى الجمهور ؟

فريدا : الجمهور ضحك !

لورانس : ضحك ؟

فريدا : طبعاً ضحك . إنك لست برسام يا لورنزو . إنك كاتب ! وكيف تكون رساماً وأنت لا تستطيع أن ترسم خطا مستقيماً !

لورانس : هذا صحيح . ولكنى أستطيع أن أرسم خطا معوجاً يا فريدا . وهذا ما يجعلنى أنفث « الحياة » فى لوحاتى . كيف كان الإقبال على المعرض ؟ كم كان عدد المشاهدين ؟

برتا : بعد أن حدث الاضطراب . اضطروا إلى وضع حبل لمنع المتجمهرين .

لورانس : الاضطراب ؟ أى اضطراب ؟

فريدا : انظرى إليه . إن الوحش قد استخفته النشوة !

لورانس : استمرى . خبرينى بما حدث !

برتا : حاولت جماعة من الأعضاء فى ناد من نوادى السيدات تمزيق لوحة آدم وحواء .

(يضحك لورانس حتى يهتز بنيانه)

فريدا : كف عن الضحك يا لورنزو .

برتا : كان هذا ما لفت أنظار البوليس .

لورانس : البوليس ! (ينهض) ماذا فعلوا بلوحاتى ؟ هل أحرقوها ؟ هل حطموها ؟

برتا : كلا ، فقد حصلنا على أمر منعهم من إحراق اللوحات .

لورانس : هل اللوحات فى أمان ؟

برتا : اللوحات فى أمان يا لورنزو

فريدا : اجلس فى هذا المقعد وإلا اضطررت أن أعيدك إلى الفراش !

(تحاول أن تجلسه بالقوة ، فيلطم وجهها بوحشية) .

برتا : لورنزو !

لورانس : إنها فخورة بقوتها . إنها تشمت فى ضعفى ، حاولى أن تعيدينى إلى الفراش . حاولى . . . أتحداك أن تلمسينى !

فريدا : اجلس يا لورانس فى هذا المقعد وإلا تجدد النزيف .

(يحملق فيها لحظة ثم يطيعها فى بطء)

لورانس (فى ضعف) : أعيدى إلى الشال . إن ضوء الشمس يضعف وإله الشمس الفتى ذو الشعر الذهبي قد بدأت تغويه بغى الظلام . . .

فريدا : إنه يتأهب لترديد ملاحظاته التقليدية على الغروب .

(تلف الشال حوله)

لورانس : نعم . . . اللوحات . . إنها لم تكن جيدة جداً ولكنها كانت تفيض بالحيوية الضارية .

برتا : إنها كانت تفيض بك . ولكن لم أردت أن ترسم يا لورنزو ؟

لورانس : ولم أردت أن أكتب ؟ لأنى فنان . . . وما الفنان ؟ . . إنسان تجاوز المدى فى حبه للحياة حتى غدا يبغض الحياة ويسعى ليلطمها بقبضته كما لطمت فريدا . . حتى يعلمها أنه عليم بألاعيبها وأنه لا يزال سيدها !

(يبدأ النور الأصفر الدخانى فى الخفوت)

آه يا برتا ! آه يا فريدا ! . . لقد أردت أن أمد ذراعى الطويلتين الحنونتين حتى أعانق الدنيا كلها ! ولكن ليس فى بكاف أن نجابه الحياة بالحب ، ولذا فقد شددت قبضتى وضربتها ثم ضربتها . إن الألفاظ لم تكن تكفى . . . ولذا فقد لجأت إلى اللون أيضاً . لجأت إلى الرسوم ورسمت بالأسلوب الذى كتبت به ! وكان فنى ضاريا لامكان للخجل فيه! « هذه » هى الحياة . هكذا قلت لهم : إن الحياة من « هذا » الذى ترون ! عجيبة ! مظلمة ! هائلة ! فصادروا كتبى وأرادوا أن يحرقوا صورى ! — هذه هى الحقيقة . . . حين نتطلع إلى الشمس لأول مرة تغشينا بضيائها . والحياة . . . تعشى . . .

(يجلس ويميل إلى الأمام)

إن إله الشمس . . . يغرب . لقد أغوته بغى الظلمات .

فريدا : الآن سيردد عبارته . . . ضعى أصابعك فى أذنيك !

لورانس : الآن استولت عليه . إنهما يتباضعان ! وإله الشمس خارت قواه فقد سلبته إياها بغى الظلمات . وهى الآن تتهيأ لتدميره . إنها تلتهمه . . . ولكنه لن يبقى أبداً مغلوباً على أمره . ولسوف يخرج من أحشائها ثانية فيكون نور .

وفى النهاية سيكون دائماً نور . . . وأنا رسول هذا النور .

(ينهض فى مشقة)

برتا : لورنزو !

فريدا : انتبه لنفسك يا لورنزو .

لورانس : صمتاً . لا تلمسينى . (يترنح فى طريقه إلى النافذة الكبيرة) فى النهاية سيكون نور . . . . نور . نور !

(يرتفع صوته ويمد ذراعيه كأنه نبى من أنبياء الكتاب المقدس)

نور عظيم ! . . . « نور » عظيم يعشى الأبصار ويملأ أرجاء الكون ! و « أنا » . . . رسول هذا النور !

(يترنح ويمسك بفمه)

فريدا : لورانس !

برتا (مذعورة) : ماذا حدث ؟

فريدا : النزيف !

برتا : لورنزو !

(تحاول أن تندفع نحوه ولكن فريدا تمسك بذراعها) .

لورانس : لا تلمسانى يا هاتان أريد أن أجابه الموت وحدى . . . لا تتحركا حتى يقضى الأمر .

(يبدأ فى التهافت درجة درجة كأنما تدفعه إلى الأرض قوة خفية ، ولكنه لا ينفك يتعلق بالجدار ويتحرك بحذائه وهو يلهث من قلة الأنفاس ، حتى يبلغ الباب ويفتحه) لا تتعبانى .

(يخرج)

برتا (تجاهد بعنف مع فريدا) : دعينى أذهب ، دعينى أذهب ، أريد أن أذهب إليه .

فريدا : وعدته بأن أبعد عنه النساء !

برتا : اذهبى أنت .

فريدا : لن يذهب إليه أحد . لن يذهب إليه أحد ! لا أنت ولا أنا ! لن تقربه امرأة !

برتا : محال أن يموت وحيداً ! لن أتركه ! ما من إنسان يتركه يموت وحيداً !

فريدا (تتعذب) : أنا سأتركه . لقد وعدته أن أتركه !

(تهب الريح فتفتح الباب المؤدى إلى الفراندا . ويسمع صوت الأمواج وهى تتكسر . وترفرف راية العنقاء على الحائط وتوشك برتا أن تتملص من قبضة فريدا ، ولكن فريدا تمنعها ثانية بعنف . تصرخ برتا قائلة : « يا لك من وحش ! » ثم تنهار منتحبة على أرض الغرفة . يسود الصمت لحظات . ثم يسمع صوت لورانس خافتاً كأنه آت من بعيد قائلا) : — فريدا !

(وفى لحظة واحدة تدفع فريدا المرأة المنتحبة بعنف من طريقها وتندفع إلى الفراندة كطائر مجنح جسيم)

فريدا (ملتاعة وفى حنان لا حد له تقول بالألمانية) : إنى قادمة ! إنى قادمة يا حبيبى !

موت قومسيونجي

الكاتب الأمريكي : آرثر ميلر

من المفارقات الغريبة أن يلمع اسم الكاتب الأمريكي آرثر ميلر في السنة الأخيرة من زواجه من الممثلة الجميلة مارلين مونرو ، فتصل شهرته إلى رجل الشارع الذي لا يحفل كثيراً بالأدب .

ولكن آرثر ميلر لم يكن نكرة قبل هذا الزواج ، بل كان علماً من أعلام الأدب الأمريكي المعاصر ، وكان مكانه في المقدمة من كتاب المسرح . وأهم عمل من أعماله هو هذه المأساة « موت قومسيونجي » التي ظهرت سنة ١٩٤٩ ، ونالت جائزة بوليتزر المشهورة في أمريكا وجائزة حلقة النقاد ، وأخذت مكانها في المسرح العالمي حتى التفتت إليها السينما فأخرجها ستانلي كرامر للشاشة البيضاء .

وأهمية هذه المأساة في أنها صورة من صور عصرنا . صور قاسية بشعة لما انتهى إليه الإنسان في هذه الحضارة الصناعية التجارية التي تطحن الإنسانية طحناً . وهي صورة أمينة لأنها تصور الضعف الفردي وسط مجتمع فيه من وحوش الغاب شيء كثير . وبطل هذه المأساة ليس أميراً ولا ملكاً ولا عبقريًّا فذًّا ولكنه واحد من بسطاء الناس يعيش في دنياه البسيطة ويزاول عمله البسيط . ويحلم أحلامه البسيطة، ولكن الحياة لا ترحمه لأنه لا مكان فيها للبسطاء . هذا هو ويلي لومان القومسيونجي الذي أفنى عمره . أفنى خمساً وثلاثين سنة بالضبط . في خدمة شركة من الشركات يعيش على ما يتقاضاه من مرتب صغير وعمولة صغيرة عن كل سلعة يبيعها .

خمساً وثلاثين سنة قضاها ويلي لومان يسوق سيارته الشفروليه ثم سيارته الستودبيكر آلاف الأميال كل أسبوع مسافراً بحقيبتيه المليئتين بالعينات . من نيويورك حيث يقيم مع أسرته . زوجته ليندا وولده الأصغر هارولد أو هاني كما

يسمونه ، إلى بوسطون فى الشمال وإلى نيوهامبشير ومين ، والآن وقد أرهقه العمل وبلغ سن الشيخوخة وتجاوز الستين ، ولم يعد قادراً على سحر الزبائن كما كان يفعل فى شبابه يجيئه من مدير الشركة خطاب يقول إن الشركة لن تدفع له مرتباً شهريا وأنه لن يحصل منها إلا على العمولة عما يبيع من بضاعتها .

ولكن شيخوخة ويلى لومان لم يحطمها هذا الخطاب وحده ، وإنما حطمتها أيضاً كل أحلامه الضائعة ، وأخص هذه الأحلام حلمه الكبير ، أكبر حلم فى حياته . وهو ولده الأكبر بيف ، الذى كان يرجو له النجاح فى الحياة فلم يخرج منه إلا شاب هايف هلفوت . بلغ الخامسة والثلاثين من عمره يتقلب من عمل إلى آخر دون أن يستقر فى الحياة على شىء . بعد أن كان بيف زينة الفتيان أيام الدراسة الثانوية وأبرعهم فى كرة القدم وكان كل الناس يشيرون إليه بالبنان ، حتى إنه فى سنة البكالوريا تلقى جملة عروض بمنح دراسية من جامعات مختلفة ، واختار منها جامعة فرجينيا . . ولكن بيف رسب فى البكالوريا . وكان من الممكن أن ينهض من عثرته لولا أن حادثاً مؤسفاً حدث له فغير مجرى حياته كلها .

ونحن الآن فى بيت ويلى لومان بضاحية بروكلين فى نيويورك . وهو بيت صغير تحيط به تلك العمارات الشاهقة البشعة من كل مكان . بناه ويلى لومان بالتقسيط منذ ثلاثين سنة . ولم يبق من ثمنه إلا القسط الأخير . وحين بناه ويلى لومان لم تكن العمارات الشاهقة قد أحاطت به بعد . ولكم كان يحلم أن تكون له حديقة كبيرة حول المنزل يزرع فيها الخضر . ولكن العمارات العالية من حوله لم تترك له إلا فناء خلفيا مساحته ثلاثة أمتار فى ثلاثة أمتار .

وفى فراشها تجلس زوجته ليندا وهى امرأة فى سن الثالثة والخمسين من عمرها شاب شعرها . وقد أيقظها حركة سمعتها . وتعلم أن زوجها عاد من رحلته ، فتلبس الروب منادية : « أهذا أنت يا ويلى ؟ » فيجيبها لومان بالإيجاب .

ولا يلبث ويلى لومان أن يدخل ويخلع جاكتته وكرافتته فتساعده ليندا على ذلك بصورة آلية . وهى تنظر إليه نظرة فيها استفهام كثير وقلق كثير ، فهو قد عاد من طوافه قبل الأوان . وتسأله ليندا إن كان قد حدث شىء أو كانت سيارته قد انكسرت فيجيبها فى غلظة إنه لم يحدث شىء البتة . كل ما حدث أنه عجز عن المضى فى سواقة سيارته إلى آخر الطريق فعاد أدراجه .

وبعد أن يهدأ ويلى لومان يروى على زوجته كيف أن زمام السيارة كان يفلت من يده حين بلغ ضاحية يونكرز ، فكان يجنح بالسيارة كثيراً إلى اليمين وهو يسوق بسرعة ستين ميلا فى الساعة دون وعى منه ، ومرت عليه خمس دقائق شرد فيها ذهنه تماماً فليس يذكر منها لحظة واحدة . ولولا لطف الله لكان جنوحه إلى اليسار ولاصطدم بالسيارات الأخرى ، إنه يعلم أن نظره سليم . ولكنه فى الأيام الأخيرة لم يعد له سلطان على أفكاره ، ومع ذلك فلا بد من سفره كل أسبوع إلى ولاية نيوانجلند لتصريف بضاعة الشركة .

وتنصحه ليندا . وهى تساعده على خلع حذائه . أن يطالب إلى مستر هوارد مدير الشركة أن يسمح له بالعمل فى نيويورك . ولكن ويلى لومان يتحسر على أيام المدير السابق مستر فاجنر والد هوارد لأنه كان رجلا شهماً يفهم متاعب مرؤوسيه ويساعدهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكان يختصه هو بالذات بكل عطف . فهو الذى فتح أسواق الشمال للشركة بكده المتواصل . وتلح عليه ليندا فى ذلك فيتشجع ويلى لومان ويعدها بشرح حالته لهوارد . لعله يعفيه من هذه الرحلات المضنية ويعينه فى وظيفة فى مركز الشركة بنيويورك .

ويتجادل ويلى لومان وهيلدا فى أمر ولدهما الأكبر بيف الذى عاد إليهما أخيراً . فقد تشاجر لومان وبيف قبل سفر لومان . وكان سبب الشجار أنه سأل ابنه إن كان يكسب رزقه . إنه محتار فى أمر بيف . إنه ترك البيت منذ أكثر من عشر سنوات وهو لا يكسب الآن إلا خمسة وثلاثين دولاراً أسبوعيا ، وينتقل من عمل إلى عمل ومن ولاية إلى ولاية دون أن يستقر على شىء . إن من كان فى سنه وجب أن يكون ربا لأسرة ، ولكن عيب بيف أنه رجل كسول هايف لا يحب العمل . والإلالشق طريقه فى الحياة . وهذا آخر عمل كان به: عامل زراعى فى تكساس . وهو قد تركه .

وتدافع هيلدا عن ولدها بيف قائلة إنه ليس كسولا . وإنما هو يبحث عن موهبته الحقيقية . فيوافقها ويلى لومان على ذلك وهو يعجب كيف يضيع شاب مثله ذكى قادر جذاب الشخصية صبور على العمل فى أمريكا بلد الفرص والآفاق الواسعة . كلا . إن بيف ليس هاموتاً كسولا . فهذه آخر صفاته . إنه يذكر كيف كان بيف فى المدرسة الثانوية فخر لاعبى الكرة وموضع إعجاب الجميع .

إنه يعرف أن المخترع أديسون وجودريتش صاحب إطارات جودريتش وغيرهما لم تتفتح مواهبهم إلا فى سن متأخرة . وهو يراهن أن ولده بيف سينجح آخر الأمر ، ويتوه لومان فى الذكريات .

ويستيقظ الابنان بيف وهابى على صوت أبيهما . ويبدى هابى انزعاجه على ما آلت إليه حال أبيه ، فهو كلما خرج بسيارته فى الأيام الأخيرة يرتكب مخالفات المرور ، فهو يقف عند النور الأخضر وينطلق عند النور الأحمر ، وهو قد كثرت حوادثه . ويرجو هابى إلى أخيه الأكبر بيف أن يصفو لأبيه وأن ينسى ما كان بينهما من شجار حاد فى الصباح قبل خروجه إلى العمل . إن شيئاً ما يعترى أباهما ، فهو يحدث نفسه وهو كثير الذهول . بل هو كلما كلم نفسه بدا وكأنه يكلم بيف بكلام غير مفهوم . فلا شك أن قلقه على مستقبل بيف وراء هذه الأزمة التى يمر بها .

ويجيب فى غموض أنه ليس وحده المسئول عن انقباض أبيه . فهو يعلم أن فى عقل أبيه شيئاً آخر يجثم على صدره . ويملؤه بهذه الخواطر السوداء . أما هو فلا يعرف لنفسه هدفاً فى الحياة . إنه جرب العمل فى المدن فضاق به وطلب الخلاء وجرب العمل فى الحقول فضاق به وطلب المدن . . إنه اشتغل كاتب شحن وقومسيونجيا وتاجرا وراعى خيل . وكان فى كل مرة يحن إلى ما ليس له . إنه أضاع حياته . وهو ليس بشاعر كما يقول أخوه هابى بل رجل مبلبل . ولعل الزواج يعلمه الاستقرار فيصبح مثل هابى سعيداً ناجحاً .

ولكن هابى يقول إنه أبعد ما يكون عن السعادة . إنه حقا مستقر لا بأس بدخله . يقيم بالقرب من والديه ويملك سيارة . ولكن أى أمل له فى الحياة ؟ إنه مساعد مدير قسم البضائع . ولم يبق له إلا أن ينتظر موت المدير ليرقى إلى وظيفته . وهبه أصبح مدير قسم البضائع فماذا بعد ذلك ؟ إن عنده كل ما يريده : شقته وسيارته وعدد لا يحصى من البنات . ومع ذلك فهو يحس بالوحدة القاتلة . إن موظفى المحل يفسحون الطريق للمدير حين يمر . وهو لا يفضله فى شىء . والسبب بسيط إنه قوى بماله وآل لومان لا يعرفون كيف يجمعون المال . إنه يحلم مثل بيف أن يكون له فى يوم من الأيام مزرعة . نعم . مزرعة جميلة يملكها

الأخوان لومان معاً. هذه فكرة بارعة . ولكن إذا كان هابى لا يعرف كيف يجمع المال فهو يعرف كيف يغازل النساء منذ أن علمه أخوه بيف كيف يغازل النساء . وهو متخصص فى إغواء نساء رؤسائه ، ولا شك أن روح المنافسة قد اتخذت هذه الصورة عنده .

ويشجع بيف أخاه هابى على التفكير فى شراء المزرعة . إنه يعرف مصدراً يقترض منه عشرة آلاف دولار لهذا الغرض . إنه كان يعمل فى متجر بيل أوليفر منذ عشر سنوات. وكان بيل أوليفر صاحب المتجر يحبه حبًّا عظيماً ويقدر كفاءته . ويوم خرج من خدمته أحاط بيل كتفيه بذراعه وقال : « إن احتجت لأى شىء يا بيف فتعال إلى » إنه سيذهب إلى بيل أوليفر ويطلب إليه إقراضه هذا المبلغ لشراء المزرعة . ولكن بيل أوليفر كان يعتقد أن بيف سرق صندوقاً من كرات الباسكت بول من متجره . ولعله الآن قد نسى الموضوع كله بعد فوات عشر سنوات . ولكن بيل أوليفر لم يطرده من عمله . وبيف لومان لا يعرف ما خطبه . فى كل مرة ترك فيها عمله كان يخرج بعد أن يسرق شيئاً . شيئاً عديم القيمة ، شيئاً لا يستحق السرقة . وكان أحياناً يضبط ويطرد وأحياناً يختفى من تلقاء نفسه .

كل هذا والأب ويلى لومان مسترسل فى هذيانه . إنه لا يتوه فى الذكريات كما يفعل غيره ، بل يستحضر الماضى البعيد ويعيش فيه كأنه يحياه فعلا كلما حلت به نوبة من هذه النوبات . فإذا به يرى الناس والأشياء رؤية العين ويحدثهم ويسمع كلامهم كأنهم ماثلون أمامه فعلا .

ويدخل عليه بيف هابى وهما فى سن الدراسة الثانوية . ويملأ ويلى لومان عينه إعجاباً بولده بيف الذى سيبرز فى مباراة الكرة السنوية . وويلى لومان يداعب الفتى بيف قائلا إنه لا ينبغى له أن يأخذ البنات مأخذ الجد فهو مازال صغيراً ، وعلى كل حال لا ينبغى أن يعد إحداهن بشىء . لأن البنات يصدقن وعود الشبان . إن البنات يلتففن حول بيف الوسيم ويشترين له الحلاس والشوكولاتة . فليلعب بيف ما أحب أن يلعب ولكن حذار أن يعد بنتاً بشىء . إن المستقبل أمامه عظيم ، والجامعات ستتخاطفه حين يحصل على البكالوريا . وبيف لومان نفسه أصبح رجلا صاحب نفوذ فهو يستطيع أن يقابل عمدة بوسطون ووجهاء القوم ،

وهم يحبونه . ما أكثر أصدقاءه . ما أكثر أصدقاء القومسيونجي وبفضل أصدقائه ومحبيه سيساعد ويلى لومان والديه على شق طريقهما فى الحياة على أحسن وجه . ويدخل الفتى برنارد ابن جاره تشارلى ، وهو زميل بيف فى المدرسة ، ويطلب من بيف أن يكف عن التدريب على الكرة وأن يمضى معه لمذاكرة الدروس . فالامتحان قريب . ثم إن مستر بيرنباوم مدرس الرياضة يقول إن بيف سيرسب فى الرياضه إذا لم يذاكر المقرر وهو لن يعطيه نمرة واحدة فوق ما يستحق . وهذا إنذار أخير . وإذا لم يحصل بيف على البكالوريا فلن تقبله جامعة فرجينيا . وإن كانت قد عرضت عليه منحة دراسية لتفوقه فى كره القدم ، ثم ينصرف برنارد قائلا إنه سينتظر بيف فى غرفته للمذاكرة .

ويدافع ويلى لومان عن ولده بيف قائلا إن برنارد فتى هزيل الجسم يلبس نظارات . إمارات الأنيميا بادية عليه . وهو لهذا يغار من بيف وتفوقه فى كرة القدم .

ولكن برنارد مخطئ . فالدروس ليست كل شىء . وأهم من الدروس أن يكون الفتى صاحب شخصية قوية جذابة ومظهر جميل وموضعاً لحب الناس . وسيرى برنارد وكل الفتيان الذين يكدون أبصارهم وأجسامهم بالدراسة أن بيف سيسبقهم فى معترك الحياة .

وتتمثل له ليندا وهى بعد فى شبابها الناضج تحمل سبت الغسيل . فيأخذ بيف وهابى منها السبت ويخرجان بالغسيل لنشره . وتجلس ليندا ليحدثها ويلى عن ثمرة رحلته إلى بوسطن فى ذلك الأسبوع . فيقول متفاخراً إنه باع نحو خمسمائة قروسة فى بروفيدانس وسبعمائة فى بوسطن . وتبتهج ليندا وتحسب عمولته بالقلم والورقة فتجد أنه كسب فى أسبوع واحد مائتى دولار . . . ولكن ويلى لومان لا يلبث أن يتواضع فى الرقم فيقول إنه لم يبع فى الرحلة كلها إلا مائتى قروسة . فربحه منها نحو سبعين دولاراً فقط .

ويوزع الزوج وزوجته ربح الأسبوع على الديون . فقسط الثلاجة الكهربائية ١٦ دولاراً وقسط الغسالة الكهربائية ١٠ دولارات وقسط المكنسة الكهربائية ٤ دولارات وإصلاح السيارة ٤ دولارات . المهم أن مجموع الديون المستحقة بعد ٤ أيام تبلغ ١٢٠ دولاراً .

ويغتم ويلى لومان لقلة مكسبه رغم أنه يعمل اثنتى عشرة ساعة يومياً . ولكن زوجته تعزيه باسمة وهى تقول : إن الأسبوع المقبل سيكون أحسن من هذا الأسبوع وتجاس ليندا وتخرج من مريلتها جوربها وتبدأ فى رتقه ويعود ويلى إلى شكواه . إن الناس لا يلتفتون إليه . إنه يعلم السبب . إنه ثرثار مهذار . وجاره تشارلى رجل ناجح لأنه قليل الكلام فالناس تحترمه. إنه يعرف السبب . .إن ملبسه خال من الأناقة. وتهدئه ليندا قائلة فى حب عميق : إنه أعظم الرجال أناقة فى نظرها .

وكأنما فتحت هذه العبارة طاقة فى عقل ويلى لومان . فإذا بليندا الجالسة أمامه تختفى فى ظلام غريب وإذا به يسمع ضحكات امرأة . ولكنه يستمر فى مخاطبة ليندا قائلا : إنه يغبنها كثيراً . ولكنه يتمنى أن يعوضها عن هذا الغبن ولكنه يسمع ضحكات المرأة البدينة ويسمعها تقول له وهى تتطلع إلى وجهها فى المرآة . إن الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل . ولابد لها من الانصراف . وموعدهما إذن بعد أسبوعين عند عودته إلى بوسطون . وهى تشكره على الجوارب الحريرية التى أهداها إليها . إنها تتمتع معه بأطيب الأوقات فهو رجل مهذار مسل . وهى تحب الضحاك . ثم تنصرف المرأة . وتمثل أمامه زوجته ليندا من جديد وهى ترتق جوربها الحريرى وتقول إنه أعظم الرجال أناقة فى نظرها . وتضيف فى رفق إنه لم يغبنها قط .

ويتنبه ويلى لومان فى أحلامه إلى أن ليندا ترتق جوربها . فيغضب ويعنفها طالباً إليها أن تكف عن ذلك . وأن تقذف بالجوارب القديمة كلها فى الشارع . فهو لا يقبل نظرياتها فى الادخار .

وينزل هابى فى بيجامته . هابى الرجل لا هابى الغلام . ويراه أبوه فى رجولته الكاملة فيفيق من أحلامه البعيدة ويعود إلى واقع الحياة . ويسأل هابى أباه عن سبب عودته الباكرة . فيروى عليه ما اعتراه من نوبات فى الطريق . ويتأمل ويلى لومان ما آلت إليه حاله . فهو نموذج للفشل فى الحياة . شيخ تجاوز الستين انهارت صحته وأعصابه من كثرة العمل . وهو رغم ذلك مضطر إلى الاستمرار فى العمل ليكسب قوته اليومى .

ويلوم ويلى لومان نفسه على أنه لم يستمع إلى نصح أخيه الأكبر بن ويذهب إلى الأسكا مغامراً وراء المال . نعم إن أخاه بن مثل للرجل الناجح فى الحياة . إن

فى الحياة لغزاً لا يفهمه ويلى لومان ، إن أخاه بن عرف ما يريده فى الحياة وخرج وراءه فكان له ما أراد . إن الحياة غابة وأخوه بن دخلها وهو فى السابعة عشرة من عمره ثم خرج من الغابة وهو فى الحادية والعشرين ثريا ثراء قارون . فليعلم هابى إذن أن الحياة صدفة فيها لؤلؤة ولكن الصدفة لا تكسر على وسادة ناعمة فليتعلم هابى هذا الدرس من عمه .

ويأتى جارهم تشارلى والد برنارد بعد أن سمع الضوضاء مستفسراً عن سبب عودة ويلى . وحين يعلم ما أصابه فى الطريق يعرض على ويلى لومان وظيفة عنده تمكنه من البقاء فى نيويورك وتجنبه السفر المتواصل . ولكن كبرياء ويلى لومان تجعله يرفض هذا العرض فى غلظة وكيف يشتغل موظفاً عند جاره ؟

ويشعر ويلى لومان بالذلة فيتوه فى بحار الذكريات وهو يحدث جاره تشارلى . ويتمثل أمامه شخص أخيه بن حاملا شمسيته وهو يحادثه قائلا إنه لو كان قد خرج إلى الأسكا لما انتهى إلى هذه الحال . ويروى عليه كيف أنه خرج وراء حظه وهو غلام إلى الأسكا ولكن معرفته بالجغرافيا كانت ضئيلة ، وبدلا من أن يبحر شمالا أبحر جنوباً فوجد نفسه فى إفريقيا . وهناك وجد مناجم الماس . . .

وفى هذيانه يرى ويلى لومان ولديه بيف وهابى وهما بعد فى شرخ الفتوة ويعرفهما بعمهما الذى دخل الحياة وهو فى السابعة عشرة خاوى الوفاض وخرج منها وهو فى الحادية والعشرين وهو يملك الكنوز . ويقول ويلى لومان متهللا إن المعجزات لا تزال تحدث فى الحياة . وما على ولديه إلا اتخاذ عمهما مثلهما الأعلى فى الحياة . إنه يربيهما على الرياضة والخشونة ليكونا فى قوة عمهما . ويقول العم بن للفتى بيف : هيا جرب أن تلاكمنى . هذه بطنى . اضرب بأقصى قوة . ويعتذر بيف فى خجل قائلا إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ولكن أباه يأمره أن يفعل ذلك . ويتأهب بيف للملاكمة . ولكن سرعان ما يجد نفسه طريحاً على الأرض بعد أن قلبه عمه بن . ويرى عمه بن يسدد شمسيته إلى عينيه قائلا . هذا درس لك يا بنى لا تكن رياضيا أبداً مع الغريب . وإلا لما خرجت قط من غابة الحياة . ثم ينظر إلى ساعته ويقول بلهجة مهذبة وهو ينحنى . والآن وداعاً . فلا بد أن أرحل . كان شرفاً عظيماً ومتعة عظيمة أن أزوركم . إنى مسافر لإتمام صفقة وسأزوركم مرة أخرى فى طريق عودتى إلى إفريقيا . وينصرف .

وينهض ويلى لومان كأنه يبحث عن شىء ثم يقول إنه خارج لنزهة صغيرة وترتاع ليندا لأن زوجها يهم بالخروج وهو يلبس شبشبه ويهمهم : إن بن على صواب . إن بن على صواب . وتذكره ليندا بأنه يلبس شبشبه . وينزل بيف فى بيجامته ليرى أباه على هذا الحال من الذهول وهو يكلم نفسه . ويسأل بيف أمه فى انزعاج إن كان أبوه دائماً على هذه الحالة . فتجيبه بأن حالته تشتد سوءاً كلما عاد بيف إلى البيت وكلما تلقوا خطاباً بمجيئه يتهلل أبوه فرحاً ويشرق طول الوقت . ولكن عندما يقترب وقت مجيئه يشتد اضطرابه ، فلما يصل بيف يبدأ أبوه فى الشحان والشجار معه كأنه لا يطيق رؤيته .

وتسأل ليندا ولدها بيف عن سر هذه البغضاء التى تستولى عليه وعلى أبيه كلما التقيا . فيروغ بيف عن الإجابة ، ويقول إن أباه مجنون . وتغضب ليندا قائلة إن بعض الناس يظنون أنه فقد توازنه العقلى . ولكنه متعب أكثر ولا أقل . إن ويلى لومان رجل متعب . إنه ليس رجل عظيماً ؛ واسمه لا ينشر فى الصحف . وهو لم يكسب مالا كثيراً ، وهى لا تدعى أنه أبدع خلق الله . ولكنه إنسان ، إن شيئاً فظيعاً يحل به ، وهو بحاجة إلى رعاية فى شيخوخته . إن ولديه هلفوتان لا نفع فيهما : هابى يجرى وراء البنات وبيف يهاجر كالطير ويعود كل سنة مع الربيع . وهو لا يظهر الحب أو الاحترام الكافى لأبيه . إن ويلى لومان بحاجة إلى رعاية . نعم لابد من رعايته . إن غيبة بيف تكسر قلبه ويجب أن يقيم بيف مع أبيه فى نيويورك ويرعاه ، ولكن فليعلم بيف أنه لامكان له فى البيت إذا لم يظهر الحب والاحترام الواجبين لأبيه .

إن ويلى لومان يقترض كل أسبوع خمسين دولاراً من جاره تشارلى ويدعى أمامها أنها مرتبه . وهى تعلم أن رئيسه الجديد هوارد حرمه من مرتبه ولم يعد يعطيه إلا العمولة . إن بيف لا يعرف ما يفعله أبوه . إن كل الناس تظن أن حوادثه الكثيرة نتيجة لا ضطرابه ، ولكنها تعلم أنه يحاول الانتحار . ويوم دخل بسيارته فى درابزين الكوبرى الصغير وسقط فى الترعة لم ينقذه إلا ضحولة الماء ، وقد أثبت الشهود أنه كان يسوق بمنتهى البطء وأن سيارته لم تنزلق . إنها اكتشفت أنه ركب أنبوبة من المطاط على صنبور الغاز فهو يفكر فى الانتحار . إنها خجلى لا تعرف كيف

تواجهه بهذا . وفى كل يوم يخرج زوجها إلى عمله تنزع أنبوبة المطاط ، ثم تعيدها إلى مكانها حين يعود حتى لا يحس بأنها تراقبه أو بأنها تشك فى شىء .

وتنهمر دموع ليندا غزاراً وهى تقول كل ذلك ، وتكفكف دموعها متظاهرة بالشجاعة . ويحس بيف وهابى بالندم العميق . ويعد بيف أمه بالبقاء إلى جوار أبيه والبحث عن عمل فى نيويورك ، وإرضائه بكل وسيلة ممكنة .

ويعود ويلى لومان ليجد بيف وهابى فى انتظاره ليعلنا له الخبر . وهو أن بيف قرر البقاء فى نيويورك . ويتشاجر بيف وأبوه أولا ثم يتصافيان . ويعلن بيف أباه أنه ذاهب فى الصباح إلى صديقه ورئيسه القديم بيل أوليفر ليقترض منه عشرة آلاف دولار ، فقد اتفق بيف مع أخيه هابى على افتتاح محل لبيع أدوات الرياضة وإنشاء فريقين للباسكت بول يتباريان فى كل مكان للإعلان عن محلهما . وينظر ويلى لومان إلى ولده بيف فى إعجاب . إن هذه فكرة تساوي مليون دولار . لا شك أن بيل أوليفر سيعجب بالفكرة ويقرضه المال اللازم . ويذهب يزود بيف بالنصائح.. يجب أن يكون هادئاً حين يزور مكتب بيل أوليفر . وأن يتسم بالجد والوقار . وأن يمتنع عن الثرثرة . يجب أن يتمسك بخمسة عشر ألف دولار ولا يقبل قرضاً أقل من هذا . فالفكرة عظيمة ورجال الأعمال لا يخافون من الأرقام . وإذ سقط شىء من مكتب بيل أوليفر فلا ينبغى أن ينحنى بيف لرفعه . فهذ عمل الخدم .

وتسبح الأسرة كلها فى الأمل الباسم . وتعود السكينة إلى قلب ويلى لومان وتتجدد نفسه بالأمل . وحين يخلد إلى فراشه لا تنسى ليندا أن تذكره بأن يقصد فى الغد إلى مدير شركة هوارد — ليطالبه بوظيفة فى نيويورك .

ويغمض ويلى لومان عينيه وينام نوماً قريراً لم يذقه منذ زمان طويل . فى حين تمتد يد بيف إلى ظهر مدفأة الغاز فتقع يده على أنبوبة المطاط فينظر إليها بارتياع .

وفى الصباح يقصد كل وجهته وصدره زاخر بالأمل . يقصد ويلى لومان إلى مكتب رئيسه هوارد ويقصد بيف إلى مكتب رئيسه القديم بيل أوليفر . ويتواعد الولدان مع أبيهما على الاحتفاء به مساء فى مطعم فرنك حيث يتعشى ثلاثتهم عشاء فاخراً احتفالا بهذا اليوم السعيد .

ويجد ويلى لومان المدير هوارد فى مكتبه متهللا كالأطفال . وقد وضع أمامه

آخر اختراع ومعجزة الاختراعات . . الريكوردر أو مسجل الصوت ، وأخذ يستمع إلى صوته وصوت زوجته وبنته وابنه وهو يتلو فى صوت منغم : الآباما وعاصمتها مونتجومري . أريزونا وعاصمتها فينكس . أركانسا وعاصمتها ليتل روك ، كاليفورنيا وعاصمتها ساكرمنتو الخ . . ويشرح هوارد لويلى لومان فوائد الجهاز الجديد فى لغو من لغو الصبية . وأخيراً يتنبه إلى أنه يخاطب ويلى لومان فيسأله عاجباً عن سبب مجيئه وتخلفه عن السفر إلى بوسطون .

ويدخل ويلى لومان فى الموضوع . إنه جاء يطلب وظيفة فى مقر الشركة تعفيه من السفر المتواصل . فهو قد بدأ يحس بالإرهاق . ويجيبه هوارد أنه يقدر ظروفه ولكنه لا يجد له وظيفة فى نيويورك . ويذكره ويلى لومان بوعده السالف يوم عيد الميلاد . ويذكر هوارد هذا الوعد ولكنه يتنصل منه . إن مقر الشركة ليس فيه إلا ستة يقومون بالبيع . أما هو فعمله هو عمل القومسيونجى المتنقل من بلد إلى بلد .

ويخاطب ويلى لومان فى هوارد إنسانيته . ويذكره بأن أباه المرحوم مستر فاجنر كان يحبه ويعطف عليه . كان يعمل للشركة أيام كان أبوه يحمله بين ذراعيه ويدلله فى المكتب . نعم تلك كانت أياماً جميلة . إنه يذكر أن المرحوم مستر فاجنر جاءه عند ولادة هوارد . وسأله عن رأيه فى اسمه . إنه لا يطلب إلا خمسين دولاراً فى الأسبوع .

ولا يحرك هذا الكلام عاطفة فى نفس هوارد . بل يبدأ يتململ فى مكانه . إنه يقدر كل هذه الذكريات الجميلة . ولكن العمل عمل والعواطف عواطف ولا يلتقى الاثنان .. وينفعل ويلى لومان ونسى الأيام القديمة حين كانت المهنة فناً شريفاً يقوم على التقدير الشخصى والتعاون والاحترام وروح الزمالة والاعتراف بالجميل . أما اليوم فكل شىء غدا آليا لامكان فيه للتقدير الشخصى أو لأى مبدأ من هذه المبادئ الجميلة . إن الناس يتنكر بعضهم لبعض وينسون الصداقة والوفاء تحت شعار أن العمل عمل . إنه يرضى بأربعين دولاراً فى الأسبوع .

ولكن هوارد لا يلين . ويذكر ويلى لومان هوارد وهو ثائر بوعود أبيه وبتفانيه فى خدمة الشركة . ولكن هوارد يوليه ظهره قائلا إن لديه أعمالا كثيرة . وحين لا يفيد

كلام ، يرضخ ويلى لومان للأمر الواقع ويقول : « سأسافر إذن إلى بوسطن » ، فإذا بهوارد يجيبه أن الشركة بغير حاجة إلى سفره ، وأنه بحاجة إلى راحة طويلة . وقد أراد منذ مدة أن يبلغه رغبة الشركة فى الإستغناء عن خدماته . وهذه فرصة مناسبة . وحين يستّرد ويلى لومان صحته ، يمكنه أن يمر به ليرى إن كان هناك مجال لاستئناف العمل .

ويسقط فى يد ويلى لومان ، ويقول بصوت مختنق إنه بحاجة إلى أن يكسب قوته ، فيجيبه هوارد قائلا إن له ولدين يستطيعان أن يعولاه . ثم يتركه وينصرف.

وتظلم الدنيا فى عينى ويلى لومان ويتوه فى ذكريات الماضى برهة ثم يرتد إلى رشده أو بعض رشده ، ويخرج وهو يكلم نفسه ونظرات الناس تحدجه فى المصعد .

وفى خروجه يلتقى ويلى لومان ببرنارد ابن جاره تشارلى ويسلم عليه فى ذلة وحرارة معاً فهو لم يره منذ زمن . إن برنارد زميل ولده بيف فى الدراسة تخرج من الجامعة وأصبح محامياً ناجحاً. إن ويلى لومان لا يفهم . لابد أن فى الأمر سراً. كل الناس ناجحون إلا هو وولداه . ويسأل ويلى لومان برنارد فى ذهول : « ما السر أجبنى . » ويعجب برنارد لهذا السؤال الغريب ويسأله : « أى سر ؟ » فيقول ويلى لومان : « كيف نجحت ؟ وكيف فشل بيف ؟ » إن برنارد كان زميل بيف حتى البكالوريا ، إن حياة بيف توقفت عند البكالوريا .

ولا يجد برنارد ما يقوله إلا أن بيف لم يعد نفسه لأى عمل فى الحياة . ويكذب ويلى هذا قائلا إن بيف درس هندسة الراديو والتلفزيون وأشياء كثيرة بالمراسلة ، ومع ذلك لم يوفق فى شىء .

ويسأله برنارد أن يجيبه بصراحة . إن أمراً ما حدث لبيف سنة البكالوريا وغير مجرى حياته . فماذا حدث . إنه رسب فى الرياضة . وكان يعتزم الاستعداد للملحق أثناء الصيف ، ولكنه لم يفعل ، ولو أنه فعل لحصل على البكالوريا ودخل الجامعة وسارت كل أموره سيرها الطبيعى . فهل أبوه هو الذى أشار عليه بعدم دخول الفصول الصيفية ؟

إن ويلى لومان لم يشر على ابنه بشىء من هذا ، بل على العكس من ذلك

أمره بدخول المدرسة الصيفية ، ولكن بيف لم يدخل . فلماذا لم يدخل بيف المدرسة ؟ هذا هو السؤال الذى لاحق ويلى لومان نفسه خمس عشرة سنة دون أن يعرف له جواباً . إنه سقط فى مادة الرياضة ثم سقط بعدها كميت هوت عليه مطرقة ولم ينهض بعدها من كبوته . ومع ذلك فبرنارد يقول إن رسوب بيف لم يكن له أى أثر فى معنوياته فقد كان على أتم استعداد لدخول المدرسة . وسافر إلى بوسطن ليقابل أباه ، ولكنه بعد عودته من بوسطن كان شخصاً آخر .

ويأتى تشارلى والد برنارد فيطلب إليه ويلى لومان أن يقرضه مائة دولار ، فأمامه قسط التأمين وأمامه آخر قسط من أقساط البيت يدفعه فيصبح البيت ملكه بعد خمس وعشرين سنة . ويجدد عليه تشارلى عرضه السابق أن يعمل ويلى لحسابه مقابل خمسين دولاراً أسبوعيًّا. ولكن ويلى لومان يرفض رفضاً باتًّا متظاهراً بأنه لا يبحث عن عمل . ويرثى تشارلى لهذه الأزمة النفسية التى يعانيها جاره ويلى لومان ، فيعطيه ما طلب . وتنهار أعصاب ويلى لومان فيروى على تشارلى أن هوارد فصله رغم ما كان بينه وبين أبيه من ود قديم . فيجيبه تشارلى أنه ينبغى أن يستيقظ من أحلامه . فليس للمرء فى هذه الحياة إلا ما يستطيع أن يبيعه. إن ويلى يتحدث عن الحب بين الرجال فمن الذى يحب المليونير مورجان ؟ ومن ذا الذى يؤخذ بشخصيته إن مورجان لو دخل حماماً تركيًّا لما كان هناك أى فرق بينه وبين أى جزار فى أمريكا .

وفى مطعم فرانك يعد هابى العدة للعشاء الكبير ، وفى المطعم تصخب الموسيقى الراقصة ويعد الجرسون ستانلى المائدة ويجهز أكواب الشمبانيا للاحتفال . وفيما ينتظر هابى أخاه بيف وأباه يلمح غانية جميلة ، ويغازلها ، وبعد دقيقة يتقارعان الكئوس . ويصل بيف إلى المطعم ، وينضم إليهما ، ويطلب هابى من الغانية أن تدعو صديقة لها ترافق أخاه بيف فتمضى إلى التليفون .

ويروى بيف على هابى ما كان من أمره مع بيل أوليفر . إنه انتظره خارج مكتبه ست ساعات ولم يستطع أن يقابله . وحين خرج بيل أوليفر من مكتبه جرى خلفه فوجده لا يذكر شيئاً عنه ، فلما ذكره بنفسه رمقه بنظرة احتقار قائلا : أنت لم تكن بائعاً فى محلى . أنت كنت كاتب شحن . ثم انصرف ومن بعده

سكرتيره . ووجد بيف نفسه وحيداً فدخل مكتب بيل أوليفر وسرق قلمه الأبنوس الفاخر بلا وعى ثم انطلق كالمجنون .

إن حلمه وحلم أبيه قد تبدد . ترى كيف يواجه أباه بالحقيقة . إن أباه بحاجة إلى خبر سعيد يرفع معنوياته . محال أن يستمر هذا الحال . إن آل لومان كلهم يعيشون على الأوهام ، ولابد أن تتبدد الأوهام ويجابهوا الحقيقة .

ويصل ويلى لومان إلى المطعم . وحين يعرف بحقيقة ما كان بين بيف وبيل . أوليفر ينقض عليه الخبر كالصاعقة . إن الغابات تحترق من حوله وهو الآن محاصر بين النيران . إنه فصل من عمله . وهذا بيف يجيئه بالخبر المشئوم .

وتتجمع السحب فى عقل ويلى لومان من جديد ويرجع إلى الماضى البعيد . حين رسب بيف فى البكالوريا فسافر إلى بوسطن ليبلغ أباه برسوبه ويطلب إليه أن يتوسط عند المدرس بير نباوم ليعطيه ثلاث درجات فى الرياضة فينجح . ويتمثل ويلى لومان نفسه فى بوسطن . فى الفندق الذى تعود أن ينزل فيه . . . والساعة الثانية صباحاً . وباب حجرته يدق . والمرأة البدينة إلى جواره فى الفراش تقول : انهض وانظر من الطارق فينهض وتختفى المرأة فى الحمام . ويفتح ويلى لومان الباب فإذا به بيف . ويدخل بيف ويبدأ فى الحديث عن الامتحان ويبدأ فى الحديث عن الامتحان . وتضحك المرأة البدينة فى الحمام ثم تدخل على ويلى ويلى لومان وبيف عارية لا يسترها إلا لباس أسود . ويصعق بيف . ويحاول ويلى لومان أن يفهمه والعرق يتصبب من وجهه أنها مجرد جارة له فى الفندق لجأت إلى غرفته حتى يتم طلاء غرفتها . وتنهمر الدموع من عين بيف . وينظر إلى أبيه فى احتقار شديد ثم ينفجر فيه قائلا : لا تمسنى أيها الكذاب . . . أنت رجل مزيف.. ثم ينطلق خارجاً . ويترك أباه راكعاً على الأرض يضربها بقبضته .

ويسقط ويلى لومان على أرض المطعم . ويفيق من بحرانه ويساعده الجرسون ستانلى فى النهوض . ويبحث عن ولديه فلا يجدهما . ويعلم أنهما غادرا المطعم مع الفتاتين حين رأياه يكلم نفسه ويهذى بعبارات غير مفهومة ، وقد أنكرا أمامهما كل صلة به .

ويساعده الجرسون ستانلى على إصلاح هيئته ويرفض رفضاً باتاً أن يقبل منه أى بقشيش . ويعود ويلى لومان إلى بيته . وفى طريقه يمر بدكان يبيع البذور .

إن حلماً من أحلام حياته أن يزرع البنجر والجزر فى الفناء الخلفى الصغير الواقع وراء بيته . وفى البيت ليندا تعنف ولديها على تركهما أباهما فى المطعم . وينكر بيف وهابى أنه كان فى خطر ، ويزعمان أنهم كانوا جميعاً على أحسن حال مع فتاتين صديقتين . وتنهال عليهما أمهما بالشتائم وتطردهما من البيت . إنهما فى مصاف الحيوان لقد كان فى إمكانهما أن يؤجلا صحبة البغايا ليوم آخر .

وترقب ليندا زوجها وهو فى الفناء الخلفى يقلب الأرض ويدفن البذور . أما ويلى لومان فهو فى بحران . إنه يكلم نفسه ويكلم أخاه بن قائلا : اسمع لهذا المشروع يا بن . وقل لى رأيك إنه مشروع عظيم . . عشرون ألف دولار مضمونة مائة فى المائة . . . إنها قاست كثيراً يا بن . . . أتفهم ما أقول ؟ إن زوجتى قاست كثيراً . . . ويسمع ويلى لومان أخاه بن يجيبه : هل أنت واثق من أن شركة التأمين ستدفع البوليصة ؟ فيجيبه ويلى لومان : نعم . دون أدنى شك . كل قسط فيها مدفوع . ويقول بن : سيقولون إنك جبان . فيجيبه ويلى لومان : وأى شجاعة فى أن أستمر فى حياة لا قيمة لها .

ويقتنع بن ويقول : هذا مشروع عظيم تأكد فقط أنهم سيدفعون بوليصة التأمين .

وترتاح نفس ويلى لومان لأن أخاه بن قال إنه راض بمشروعه الكبير . ويرى فى حلك الليل عشرين ألف دولار وكأنها ماسة كبيرة تلمع فى الظلام . . . ويرى الماسة فى يد زوجته .

ويكون سكون . . . وتسمع ليندا وبيف وهابى موتور السيارة يخفق ثم ينطلق . وهكذا تكون نهاية القومسيونجى .

وبعد قليل تجتمع أسرته حول قبره . ثم ينصرف بيف وهابى ويتركان أمهما المتشحة بالسواد راكعة عند قبره وفى يدها باقة من الأزهار .

رصيد ڤينوس

للشاعر الإنجليزى كريستوفر فراى

سبق أن قدمت فى عدد من مجلة « المجلة » مسرحية بقلم الشاعر الإنجليزى المعاصر كريستوفر فراى اسمها « لا تحرقوا هذه السيدة » ، واليوم أقدم على صفحات « الشعب » مسرحية أخرى بقلم هذا الشاعر الكبير وهى مسرحية « رصد فينوس » . ولعل هاتين المسرحيتين أهم ما كتب فراى ، وأقربهما إلى الإتقان ، وليس معنى هذا أن بقية إنتاجه للمسرح ليس على المستوى العالى الذى يلزم كل مشتغل بالأدب بالاطلاع عليه . فإن لكل مسرحية من مسرحيات هذا الشاعر الجديد الفريد الذى سطع نجمه فجأة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مكانة خاصة لدى النقاد . وهذه المسرحيات الأخرى هى : « فى الظلام نور يكفى » و « البكرى» و « عنقاء تتجدد كثيراً » و « نوم السجناء » و « الرب ثور مع الملائكة » .

وقد حسب الناس أن زمن الشعر التمثيلى قد مضى وانقضى . ولكن توفيق كريستوفر فراى فى أن يكتب مسرحيات بالشعر تعد من درر الشعر ومن درر المسرح فى وقت واحد قد جعل النقاد ينظرون إلى مستقبل الشعر التمثيلى فى تفاؤل جديد . وليس أدل على نجاح هذا الفن من فنون الأدب من إقبال الناس عليه سواء فى صورته المعروضة على المسرح أو فى صورته المنشورة .

و « رصد فينوس » كوميديا من ثلاثة فصول . وهى من ثمار عام ١٩٤٩ ، وقد أخرجها عل مسرح سانت جيمس بلندن لأول مرة السير لورانس أوليفييه فى يناير ١٩٥٠ . وقد نشرت لأول مرة عام ١٩٥٠ وصدرت منها ثلاث طبعات فى تلك السنة . ثم أعيد طبعها عام ١٩٥١ و ١٩٥٢ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ، ولعل طبعها تجدد بعد ذلك . فهذه الطبعة الأخيرة هى الطبعة التى استخدمتها فى تلخيص هذه المسرحية .

و « رصد فينوس » تدور بطبيعة الحال حول قصة . ولكن المتأمل فى أشخاصها وما يقدمون عليه من أعمال وما يدور فى خواطرهم من أفكار يدرك أن كريستوفر فراى إنما أراد أن يصور لنا فى هذه الكوميديا العالية جانباً مؤسياً من جوانب الحياة الإنسانية . وهذا الجانب هو العزلة الروحية التى يعيش فيها كل أشخاص مسرحه ، فكلهم باحث عن شىء لا يعرف كنهه على وجه التحديد . وكلهم يحيا فى هذه الدنيا بعقلية اللاجىء الذى فقد وطنه الأول دون أن يستقر له مقام فى وطنه الجديد . وكلهم خاطىء تؤرقه خطيئته ولا يجد مخرجاً من عذاب الضمير إلا أن « يسلم نفسه » . وأن « يعترف » وتكاد أن تتعقد لأمور وتسوء فى النهاية لولا أن فينوس فى ثوبها الجديد . فى زى بريتوا . أى « الفتاة الخالدة » ترأم كل جرح وترأب كل صدع وتصلح كل خطأ وتضع كل شىء فى محله بفضل ما أوتيت من قوة الحب .

وفينوس هى الزهرة . والزهرة هى النجمة التى جعلها القدماء أم الغرام . . لا الغرام الشاعرى الحالم الذى نسجت أحلامه من ضياء القمر . ولكن الغرام الحى الملتهب الذى ينشر على الأرض ألوان الربيع .

١

أما أشخاص هذه الكوميديا فهم دوق التير وهو شيخ قارب الستين من عمره متصاب كل ما فى حياته يقول إنه زير نساء . ولكنه ليس مجرد زير تافه فهو رجل ذو فلسفة خاصة فى الحياة . تؤمن باجتباء اللذات لا عن ضعف ولكن عن قوة . وهو رجل قوى الشخصية تطغى شخصيته على كل من حوله . وتنجذب إليه النساء . ثم ولده الشاب ادجار الذى حجب أبوه شبابه وأوشك أن يحجب وجوده كله بقوة شخصيته ثم وكيل الدوق واسمه ريد بك وهو شيخ مثقف ذواقة واسع الاطلاع فى الآداب والفنون ولكنه واسع الاطلاع أيضاً فى حسابات مخدومه يعرف من مداخلها ومن مخارجها ما جعله يجمع ثروة طائلة فى خلسة من الدوق ، ثم ولد ريدبك هذا . واسمه دومنيك وهو فتى حساس يتلقى العلم فى جامعة

كامبريدج يعرف عن ألاعيب أبيه شيئاً كثيراً .

فهناك إذن شيخان ماكران فاسقان كل على طريقته هذا يجمع النساء وذاك يجمع المال . وهناك شابان بريئان أوشكا أن يتفتحا لجمال الحياة فلا يريان إلا العالم المستهتر الذى يعيش فيه الأبوان . وهناك كوكبة من النساء هن أولا ثلاث : الآنسة روزا بيلا فلمنج ، والسيدة جيسى ديل والسيدة هيلدا تيلور سنيل وهى آخر عشيقات الدوق التير . حضرن جميعاً فى وقت متقارب بدعوة من الدوق دون أن تعلم إحداهن بأمر الأخرى . وهو أمر محرج أشد الحرج للعشيقات ! ثم تنضم إليهن فجأة رابعة هى الآنسة بربتوا بنت الوكيل ريدنك فيحدث حضورها كل هذه الضجة الكبرى التى سنشهدها فى قصر الدوق المعروف باسم مستيلمير بارك بل وفى مرصده وفى قلبه وفى قلوب الحاضرين .

غير هؤلاء ليس هناك إلا رجلان من خدم الدوق هما ردلمان وهو خادم قصر الدوق وبيتس وهو خادم الدوق الخاص . وأولهما يضطهد الثانى ولا ينى عن إيذائه .

أما المكان فهو بين حجرة المرصد بقصر الدوق ومعبد بالقصر اسمه معبد الفضائل القديمة ! وحجرة المرصد هذه حجرة فى أعلى القصر كانت تستخدم فيما مضى حجرة للنوم ثم جهزت بتلسكوب يرصد به الدوق — ومن معه — الأجرام السماوية . ورصد الأجرام السماوية يجرى عادة فى الليل ولكننا لا نزال بعد فى رابعة النهار . لهذا فالجمع يجتمع فى حجرة المرصد لا لرصد الأفلاك ولكن لمشاهدة كسوف الشمس الذى يقال لنا إنه سيكون كسوفاً كاملا فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين .

غير أن للدوق فى هذا اليوم بالذات مشكلة غير مشكلة رصد الكسوف . وهو فى حقيقة الأمر لا يجمع عشيقاته الثلاث فى مكان واحد وفى وقت واحد ليعرض عليهن عجائب الطبيعة . وإنما يجمعهن لأمر فى نفسه لا يخفيه بل يذهب يجادل ابنه فيه حتى يقتنع الابن .

الدوق : إن من يراك يحسب أنى قد ألقيت عليك اقتراحاً خارقاً للعادة . وواقع الأمر أن اقتراحى طبيعى إلى أبعد الحدود . ألست ولدى ؟

إدجار : بلى . يا أبى . أنا طبعاً ولدك .

الدوق : إذن فمن حقك أن تختار من ستكون أمك . أفى هذا ما يجافى الذوق ياريدبلك ؟

ريدبلك : كلا ، يا صاحب النبالة . إن هذا قد لا يكون مألوفاً ، ولكن قل بين الآباء من يراعى شعور بنيه كما تفعل نبالتك . وأنا لا أجد الفكرة رديئة على الإطلاق .

إدجار : وأنا أتصبب عرقاً من فرط الحرج .

نعم إن الدوق ألتير قد قرر أخيراً أن يتزوج بعد خمس وعشرين سنة قضاها عزباً ينعم بملذات الحياة ، أى منذ أن توفيت زوجته ، دوقة ألتير ، وهى تضع ولدها إدجار هذا الذى أصبح الآن شاباً قوياً جذاباً . وهو لم يهتد إلى هذا القرار إلا بعد أن تحقق له أن ربيع حياته قد فات بغير رجعة ، وأنه الآن فى خريف العمر الذى سيصبح عما قريب شتاء . ولا يعرف معنى الخريف إلا من ذاق جمال الربيع وأحس بقوة الصيف . ولعله ما اختار هذا اليوم العجيب من بين الأيام ليحزم فيه أمره وليحسم فيه بين أمسه وغده إلا لأن كسوف الشمس وهى فى أوج الضحى كان نذيراً له بأفول شمسه وهو بعد فى عنفوانه الحيوى ، يكابر الحياة ويغالب المشيب فيوشك أن يغلبه . ولكن الدوق الذكى الفطن يعلم أيضاً ما فى الطبيعة من نواميس لا سبيل إلى ردها . ويعلم أن خريف العمر يعقب صيفه بقوة قاهرة لا سبيل إلى ردها ، كما يعقب الليل النهار . نعم ، هو يعلم أنه لا بد فى نهاية المطاف « أن يستسلم للزوجة الواحدة » على حد قوله . لسوف تقبل على قصر ستيلمير بارك ثلاث حسان عرف معهن فى آونة مختلفة أسعد الأوقات ، وأن على هذا الفتى الخجول إدجار الذى قضى حياته الجميلة بين الإسطبلات ، من فرط ولعه بالخيل والرياضة ، أن يختار لأبيه من بينهن زوجته المقبلة ، وأن تكون دلالة هذا الاختيار هى أن يقدم الإبن تفاحة لتلك التى تقع فى نفسه أحسن موقع ويؤثرها لتحتل هذه المنزلة . لسوف تقبل هيلدا وروزابيلا وجيسى كما أقبلت أفروديت وهيرا وأثينا فى قصص القدماء أمام باريس بطل طروادة ، وسوف يهدى أجملهن تفاحة علامة الفوز كما كان يفعل القدماء .

وهكذا يرضخ إدجار لرأى أبيه ثم ينصرف . وترد للوكيل ريدبلك برقية هامة

من ابنته بربتوا تقول : « وصلت إلى إنجلترا وأرجو أن أقبلك قبل الغداء » .

وما أن يقرأ ريدبك هذه البرقية حتى يرقص طرباً فبريتوا عنده « وردة استنبتها من صخرة » . وقد كانت نعمة من النعم عليه أن ينجبها وأن ينشئها حتى فرت بها أمها من منزل الزوجية إلى أمريكا منذ عشرة أعوام فعرف الشقاء . . . وها هي ذى تعود الآن إليه بغير شك فتاة رائعة الجمال مكتملة الصحة تملأ داره بشراً . ولئن وصلت إلى قصر ستيلمير بارك قبل موعد الكسوف فسوف تشترك مع الأخريات فى رؤية الشمس المحتجبة وراء القمر من مرصد الدوق .

ويختلى الفتى دومنيك بأبيه ريدبك وينشب بينهما شجار مكظوم . فدومنيك شقى بأبيه هذا الذى وضع فيه الدوق ثقته فخان الأمانة وذهب يختلس المال من صاحبه يمنة ويسرة . فيرفع إيجارات الأراضى ولا يدون إلا الإيجارات القديمة ويبيع المحصول ولا يسجل فى دفاتره المزورة إلا بعض ما جمع من ثمن . إن أمر ريدبك ولا شك سيفتضح قريباً ولن يحميه من السجن شىء . وإن دومنيك ليخجل من أن يكون ابناً لهذا اللص المستتر فى زى رجل مثقف مهذب شريف وهو لا يعرف حقاً كيف يعود إلى جامعة كامبريدج حيث يتلقى العلم بين أبناء الأشراف إذا افتضح أمر أبيه وسيق إلى السجن كأى نصاب رخيص . ولكن الأب ريدبك يحتمل كل هذا التعنيف من ولده بأعصاب ثابتة وينكر كل ما وجهه إليه دومنيك من تهم زاعماً أنه قد ورث ما جد عليه من مال كثير من أخ له فى أستراليا ومن مخدومته السابقة أو كما جاء على لسانه اللبق : « نعم بالميراث كما تقول ! فقد كنا من أصحاب الحظ السعيد . فعمك هكتور عند ما لبس ثوب الخلود فى تسمانيا حررنا من العوز إلى حد ما ، والسيدة العجوز الليدى برايت ، مخدومتى الأولى ، حينما قبضت روحها إلى السماء . قبضت روحها فقط وقبضت أنا الباقى » .

وفيما هما يتشاجران على هذا النحو تقبل عليهما الآنسة روزابيلا فليمنج ، ثم السيدة جيسى ديل وتسألان عن الدوق وتنظر كل منهما إلى حجرة المرصد التى كانت من قبل حجرة نوم بقصر الدوق ، وتذكر أن هذه الحجرة ليست غريبة عليها فترتبك وتحس بالحرج من وجود الأخرى ، وتوشك روزابيلا أن تنصرف استياء من هذه الدعوة التى تتنافى مع الذوق السليم . ولكن الدوق يقبل عليهما ويطيب

خاطرهما ، وحين تنضم السيدة هيلدا تيلور إلى الجميع يفعل بها الدوق ما فعله بعشيقتيه الأخريين . إنه قد دعاهن ليمتعن برؤية كسوف الشمس من مرصده . ويوزع الدوق عليهن النظارات السوداء ليحدقن فى الشمس الكاسفة درجة درجة وراء القمر الذى يتوسط بينهما وبين الأرض حتى يكون الكسوف الكامل فإذا الأرض فيما يشبه الغسق وإذا ثلاثة نجوم أو أربعة قد بدأت تختلج فى السماء من ظلمة الصباح . كل هذا وريدبك من ناحية يتطلع من النافذة لا ليمتع بمرأى الشمس الكاسفة ولكن ليترقب مجىء ابنتيه بريتوا كأنها كوكب سيبزغ من وراء الأفق .

كل هذا وإدجار ابن الدوق يراقب النسوة ويتفحصهن الواحدة بعد الأخرى ويستمع إلى لغوهن مع الدوق عساه أن يجد فى إحداهن ما يفضلها على الأخريين ، فيأنس إلى روزابيلا أكثر مما يأنس إلى غيرها ، فهى أكثر الثلاثة لباقة وأقلهن ثرثرة . ولعلها أسرته برقة عواطفها ودقة إحساسها حين ذهبت جيسى تفخر فى غير حياء بأنها صديقة الدوق منذ عهد مديد وأن زوجها أيضاً صديق الدوق . فأجابتها روزابيلا قائلة « . . . وهذا شىء لا تحبه نفسى ، وهو أن أزحف فى مسالك الفكر الجارية فى عقل شخص آخر باحثة عن موقعى فيها ، خشية أن أجد بها ما يخيب ظنى . فما من أحد يملك الحق فى ذلك » .

لهذا نجد أن إدجار يبادر إلى إعطاء روزابيلا فايمنج التفاحة . غير أنه لا يلبث أن يندم على ذلك حين يراها تنفجر فى أبيه وتوسعه إيذاء بفظيع الكلام . فهى لم تعد تستطيع أن تكتم ضيقها بهذا الرجل المتجبر الذى لا يحترم شعورها ، بل لا يحترم شعور أحد . ويمضى فى عبثه بالنساء إلى حد أنه يجمع عشيقاته الثلاث فى حجرة واحدة ليستمتعن بمنظر الكسوف . إنها تختنق فى هذه الحجرة وإذا كانت المرأتان الآخريان تجدان فى هذا النوع من العبث متعة ، فهى لا تجد فيه إلا الاستهانة بعواطفها .

روزابيلا : لا فائدة . لابد أن أنطلق إلى الهواء ! إن التنفس هنا مستحيل !

الدوق : ماذا بك يا روزابيلا ؟ أتضيقين بالأماكن المقفلة وأنت على حافة السماوات الطليقة ؟ هيا تخيلى هذا الكسوف كمغيب الشمس المألوف كلما نكس

علم النهار ، لقد كنت تحبين هذه الغرفة فى الليل .

روزابيلا : وكيف تعلم هذا ؟ كيف تعرف ما أحب ومتى أحب ولماذا ، وليس لقلبك خفقة واحدة تستحق أن تصغى إليها إذن ؟ إنك تجلس هنا طول الليل وتتطلع إلى النجوم فى تيهك يوماً بعد يوم بعيداً عن دنيا الأحياء . إنى أمقت منظارك المقرب ! من أين لك أن تعرف ما تفعله أفظع الصدمات فى عقل الإنسان إذا كانت البأساء لم ترملك بوابل أثقل من قطرات المطر ؟ ولو قد عرفت ذلك لما اهتزت له نفسك ، فأنت المعتصم بمظلة الغبطة الصفيقة التى لا تخترقها الأحزان ! وإنك لتصلح من هندامك كلما مررت فى بركة من الأوحال ، وتضحك كلما ذكرت أن غيرك قد يغرق فيها . وإنك لا تصدق أن من الحب ما يؤثر أن يدفن فى خشوع على أن تمد فى حياته على هذا النحو الزائف الذى تفعله . إنك لشيطان . نعم . شيطان أنت شيطان . شيطان .

وحين يشهد إدجار هذه الثورة العاصفة يسترد من يدها التفاحة مدركاً أنه قد أساء الاختيار . ولكنه لا يفهم أن ثورة روزابيلا هذه لم تكن إلا من فرط حبها للدوق ومن فرط إعزازها لما بينهما من ذكريات الغرام التى تأبى أن يعبث بها هذا الماجن المتعالى كل هذا العبث .

وتنقشع الظلال القاتمة التى تحجب وجه الشمس فتعود ذكاء أبهى سناء وأصفى ضياء ويغمر نورها حجرة المرصد من جديد . فإذا بفتاة رائعة الجمال قد انبثقت فجأة من المجهول على فيض النور كما انبثقت فينوس ربه الحب الخالدة من محارتها بين الأمواج الزرقاء والشبح الأبيض الناصع ببحر الروم فى قديم الزمان ، وهذه الفتاة هى بربتوا بنت ريدبلك ، وكيل الدوق ويؤخذ الجميع بجمالها الرائع فيجد الدوق فيها كل ما تشتهيه العين ويقبل عليها إقبالا ويهم بأن يعطيها التفاحة بنفسه لولا أن ولده إدجار يعترض على ذلك بقوة ؛ فهو أيضاً قد سحره جمالها وهو الحريص أيضاً على مكان الحظوة لديها ولم يرض هذا الدوق فيمسك بالتفاحة بين أنامله ملوحاً بها . ولكن بربتوا سرعان ما تستخرج مسدساً صغيراً تصوبه إلى التفاحة وتحكم الرماية فتفلق التفاحة بالرصاص .

ويسود جزع صامت فما كان أحد ينتظر مثل هذه الدعابة العجيبة التى

كان الدوق سيذهب ضحية لها لو أن هذه الفتاة الجامحة الآتية من أمريكا أخطأت الهدف قيد شعرة . وتعتذر بربتوا بأنها لم تنس بعد ما ألفته من عادات فى الدنيا الجديدة حيث نشأت . وقد كانت تؤلف . مع خلانها فى الجامعة رابطة من الطلبة الثائرين تسمى « جمعية تحطيم الأخطاء الجسيمة . قديمها وحديثها » . هدفها تدمير كل ما يضيق به أعضاء هذه الرابطة وقد سجنتها السلطات الأمريكية شهوراً لكثرة إخلالها بالأمن العام . وفى السجن ثابت بربتوا إلى رشدها فقررت أن تبدأ حياة جديدة تبذر فيها بذور الخير بدلا من اشتغالها بتدمير الشر . وهى لهذا قد عادت إلى إنجلترا وطنها الأول . لتبحث فيه عن نفسها ولتبدأ فيه هذه الحياة الجديدة .

وتسلم بربتوا المسدس للدوق .

وهكذا تعود الطمأنينة إلى نفوس الجميع ولا تبق فى هذه النفوس من أثر إلا ما تركه جمال بربتوا وحيويتها الفائضة وينزل الجميع لتناول الغداء .

٢

وبعد الغداء يختلى الفتى دومنيك بأخته بربتوا فى « معبد الفضائل القديمة » بالقرب من بحيرة الدوق الواقعة فى حديقة قصره .

ويتدارس الأخ وأخته موقف أبيهما ريدباك . وهو موقف جد خطير . فالشائعات عن اختلاسه المال من الدوق وابتزازه قوت الأهلين لم تعد مجرد شائعات بل أصبحت يقيناً يعرفه جميع الناس ولا يكتم هذا اليقين عن السلطات إلا صمت الدوق . وهو لا شك غريب . ولو أن الدوق خرج عن صمته لدخل ريدباك السجن لا محالة ولعاش الولدان فى عار مقيم لا يعرفان منه مخرجاً .

لابد إذن من إنقاذ الموقف بأى ثمن : ويوحى لها دومنيك بأن تسعى إلى الزواج من الدوق . فلو قد تزوجته لما استطاع الدوق أن يزج بحميه فى السجن ولستر أخطاءه إن لم يكن إكراماً لزوجته فحفظاً لشرفه على أقل تقدير .

وتقبل بربتوا أن تقوم بهذه التضحية الكبرى قائلة : « نعم أنت على حق . فإذ

كان لابد لأحد أن يسجن ، فلأسجن أنا » فهى تعلم أن زواجها من الدوق الهرم الذى يعادل أباها سناً هو بمثابة سجن دائم لن تتحرر منه إلا بالموت .

وحين يفد عليهما الأب ريدبك يجادلانه فيما اختلس من مال ، فإذا به يعترف فى غير حياء ويهون من هذا الأمر بل ويبرره تبريراً . فهو رجل متمدن يؤمن بالمدينة ومفاتنها . وهل أحفظ للحضارة من المال ؟ ومن أين لولديه هذه التنشئة فى أرقى الجامعات وهذا الاختلاط بأرقى الجامعات بغير المال ؟ وإذا كان هذا صحيحاً فمن أين له المال إلا بالاختلاس . أما الدوق فهو لا يرى من مباهج الحياة إلا طعم النساء وما إلى ذلك من متع حسية . أما هو فهو يعشق الفنون والآداب والثقافة العليا وكل ما يميز الإنسان المتحضر عن الإنسان المتبربر ، وهو يقول لابنته فى ذلك : « يا عزيزتى . أنا لم أومن فى يوم من الأيام بتوزيع الملكية سواسية بين الناس . وإنما اعتقد أن المال يكون فى يدى أجمل مما يكون فى يد الدوق . ولكن من قلة الذوق أن أقول له ذلك » .

أما الدوق الذى يطارد بربتوا . فهو يتعقبها إلى أن يجدها فى « معبد الفضائل القديمة » قرب الغدير . ويقبل عليهما حاملا قوسه وسهامه ، فهو قد خرج إلى حديقة القصر وطلباً للرياضة . ورياضته المفضلة بعد إغواء النساء ورصد النجوم هى الصيد والقنص . وهى التى تحسن الرماية بالمسدس فى الدنيا الجديدة قد عادت إلى الدنيا القديمة فلتتعلم إذن كيف تحسن الرماية بالقوس والسهم . فهكذا يتريض الناس . أو وجهاء الناس ، فى الدنيا القديمة .

وهكذا ينطلق الدوق ببربتوا فى أدغال حديقته ليعلمها الرماية فيجد منها حسن القبول . وحين يميل فى أذنها همساً : « ثم الليلة يا بربتوا . لئن صفا وجه السماء فاستمالك للتطلع إليه . وظلت الجوزاء فى مكانها معلقة . فما رأيك لو سددنا المنظار المقرب نحو اللانهاية وانتفعنا بما نستطيع رؤيته فيها : ألا يزال ذلك يثير اهتمامك كما كان يثيره فى الصباح . » يجد عندها حسن القبول كذلك . فهى تجيبه : « نعم . إنى قادمة من المدينة . ومرأى النجوم جديد على » ولكن حقيقة الأمر هى أن كلا منهما قد خرج ليصطاد الآخر .

ويحس الجميع أن شيئاً ما يوشك أن يجرى بين الدوق وبربتوا . وحين يلتقى

ريدبك بولده ويعرف منه ما استقر عليه قرار ابنته تثور ثائرته ويكيل لابنه أشنع السباب قائلا إن خسته لا حد لها فهو يبيع أخته لا لينقذ شيئاً ذا بال ولكن لينقذ اسمه من العار ، وهى أنانية منه لا بنوة ووفاء . وحين يلتقى الدوق بولده إدجار يثور إدجار على أبيه ثورة عاصفة ويطالبه بألا يحتكر كل عذراء يلتى بها القدر فى طريقه . ويرجو إدجار بربتوا أن تخرج معه فى المساء ولكنها تعتذر له بأن الرحلة أجهدتها وبأنها ستأوى إلى فراشها فى المساء الباكر .

وحين تلتقى روزابيلا بالدوق تعرض عليه زيارته فى مرصده ليلا . ولكنه يعتذر كاذباً بأنه لن يناجى النجوم فى تلك الليلة فهو بحاجة إلى الراحة الباكرة .

أما روزابيلا فتدرك بفطنتها أن هذا الرجل الذى تحبه وتخلص له قد طار عنها إلى غرام جديد لن يكون فى المرصد إنسان فى تلك الليلة . هكذا يقول الدوق نفسه . إنها تمقت هذا المرصد ولسوف تحطمه تحطيما ، وهى فى ذلك تقول لجيسى « لن يكون فيه أحد الليلة . ولسوف ترين كيف أرد مرصده رماداً كما رد نيرون روما رماداً . لسوف أطلق أمامه طريقاً من اللهب يهديه إلى الإنسانية ! »

ولكن المرصد لم يكن خالياً فى تلك الليلة ، بل كان فيه الدوق ينتظر محبوبته وهو متكىء على أريكة يتربص فى الظلام .

وحين تقبل عليه بربتوا يذهب يغازلها بكل لسان ، ولكن بربتوا تثوب إلى رشدها وترده عنها بكل بيان . إن خير ما فى الدوق العجوز عندها أنه يشبه ولده إدجار . إن الدوق العجوز يعرض عليها أن تكون دوقة التير . ويلح فى طلبه ، ولكن بربتوا تأبى وتصر على إبائها . فلما أن ينفد صبر الدوق المدله يجرب سلاحاً رهيباً لعله يحطم به إرادة هذه الفتاة العنيدة . فيذهب يحدثها عن أبيها وعن اختلاساته وعن دفاتره المزورة . نعم إن الدوق يعرف كل شىء عن ألاعيب وكيله . بل ويعرفه منذ زمن طويل ، وإن كلمة واحدة منه لتكفى لسجنه السنوات الطوال . وكلمة واحدة منها تكفى لإنقاذه من هذا المصير الشائن .

وتغضب بربتوا حين تسمع هذا الوعيد وتمعن فى رفضها وتعنفه تعنيفاً . وفيما هما يتجادلان تمتد من حولهما ألسنة اللهب حتى توشك أن تبلغ حجرة الرصد . وينتاب بربتوا ذعر شديد ولكن الدوق المتمالك لأعصابه يحاول أن يهدئها ما استطاع

إلى ذلك سبيلا . ويفتح الدوق الباب فإذا النار قد اندلعت فى السلم وأوشكت أن تأتى عليه وإن بقى فيه هيكل متماسك . وتهاب بربتوا منظر النيران فترفض التماس النجاة من الباب وتهرع إلى النافذة المطلة على الحديقة فإذا الارتفاع شاهق لا يترك أملاً فى النجاة . ويطلب الدوق النجدة بالتليفون . وينتظر الدوق وبربتوا رسل العناية الإلهية لتنقذهما من الموت المحقق . إن بربتوا لا تجد من يحميها الآن إلا الدوق ، إن كانت فى أجلها بقية . ويطلب الدوق إليها أن تقبله فتقبله ، وهما يقفان هكذا بين الموت والحياة . ثم يأتى الغوث من كل جانب فريدلمان خادم القصر قد اقتحم النار على درج السلم وهو يقف بالباب داعياً ، وبيتس الخادم الخاص قد تسلق سلماً خشبياً وهو الآن يدعو من النافذة .ويتنافس الخادمان على إنقاذ الدوق وبربتوا حتى يبلغ بهما الأمر حد التشاتم ، فتتبع بربتوا بيتس وتنجو من النافذة . أما الدوق الرابط الجأش فيتبع ريدلمان مقتحماً وراءه النار وينجو من السلم .

٣

وبعد أن ينجلى كل شىء ولا يبقى إلا ضياء الدار المحترقة منعكساً على صفحة الغدير ، تجلس روزابيلا فليمنج على حافة الغدير وهى تنتحب انتحاباً مريراً . لقد اشتعلت النار فى ذلك الجناح من القصر لتدمر المرصد ، والآن يعذبها ضميرها لما جنت يداها . فهى تتمنى لنفسها الموت ولا تفتأ تردد أنها ملعونة بين النساء ويلحق بها دومنيك فإذا به فى يأس أسود لا يجد ما يقيه من عذاب الضمير فهو الذى دفع أخته بربتوا للذهاب إلى مرصد الدوق وقد كان يمكن أن تلقى منيتها بذلك .

فما السبيل إلى الخلاص من كل هذا العذاب . لابد أن تسلم روزابيلا نفسها للبوليس ، وإن كل ما ترجوه هو ألا تلتقى بالدوق . ولكن الدوق يبدو أمامها حاملا مصباحاً يبدد به بعض الظلام فيتركهما دومنيك فى خلوة يصفيان ما بينهما من حساب . ويذهل الدوق حين تعترف له روزابيلا بأنها مضرمة الحريق .

روزابيلا : أنا أشعلت النار .

الدوق : وكيف فعلت ذلك ؟ لعل شرارة وقعت عفواً من عينيك الملتهبتين

روزابيلا : لابد أن تصدقنى . أنا أضرمت النار فى الجناح لأدمر المرصد

فأجعل منك إنساناً ، وأنزل بك من سمواتك فتعيش بيننا مثلما نعيش ، وأجعلك تدرك معنى الأحزان الفاجعة التى تعانيها دون أن تحس بها وأنت فى علياتك . واليوم ، فى هذا اليوم المشئوم عصفت بنفسى عاصفة هوجاء من أحزانى القديمة فهزتها هزاً وانقضت على فطمرتنى تحتها أخيراً . أنا أعلم كم كان هذا فظيعاً ، نعم ، وأدركه إدراكى لوجودى ، ولكنى ما كنت أعلم أنك هناك . صدقنى : ما كنت أعلم أن فى المرصد أحداً .

الدوق: أواه يا روزابيلا ! أواه ! أواه لو أنك سألتنى قبل أن تقدمى على ذلك لقلت لك إنه ما فى الدنيا نار تكفى لحرق السماء . وما دامت السماء من فوقنا قائمة فلسوف أجد لنفسى مكاناً رحيباً أتجسس منه على المجهول . .

إن الحب وحده هو الذى دفع روزابيلا إلى هذه الفعلة الشنعاء ، ولكن الدوق قد غفر لها هذا الذنب العظيم رغم أن كل ما كان يعتز به ويعيش من أجله قد استحال إلى كومة من رماد . وبينما يطيب الدوق خاطرها تتسلل روزابيلا تحت جنح الليل وتحل محلها بربتوا دون أن يتنبه إلى ذلك ، ويسترسل فى لغوه عن الحياة وعن عزلة الاحياء وعن ضرورة الإدراك والغفران (فهذه هى العظات التى تعلمها من هذه التجربة الفظيعة) ، ثم يتنبه إلى وجود بربتوا فيعود إليه مرحه ويخف حديثه . إنه قد أمر الخادم بيتس بإحضار الشمبانيا فبعد الحريق لم يبق إلا أن يجلس هو وهى والأحياء على حشائش الحديقة بجوار الرماد ويوقدوا بالمصابيح نار الحب ويكوا قلوبهم بالشمبانيا . وترجوه بربتوا أن يستمع لها الآن لأن لديها من خطير الكلام ما تريد أن تقوله . ولكنه يمضى فى لغوه وحديثه العابث المرح . .

ويأتى الخادم ريدلان بخوان ويأتى الخادم بيتس بالشمبانيا فكأنهما يعدان العدة لحفل أو وليمة .

ويلتئم شمل الجماعة شيئاً فشيئاً فيقبل ريدبك ومعه ولده دومنيك . إن ريدبك منذ أن علم بذهاب ابنته إلى المرصد وقرارها بأن تتزوج من الدوق إذا استطاعت لتنقذه من السجن قد غدا وأمسى رجلا يعيش فى جحيم لا يطاق من تبكيت الضمير واعتزم أن ينقذ ابنته من براثن هذا العجوز المتصابى ولو قضى بقية عمره فى السجن . وهو الآن يريد أن يعترف للدوق بكل شىء وأن يرضخ راضياً لحكمه

فيه ، ولكن الدوق لا يعطيه فرصة للكلام .

نعم : إن الدوق فى بحران هو من نشوة العشاق ، وهو لا يريد أن يتحدث فى شيء إلا ما هو فيه من بهجة . وهو يوزع الشمبانيا على الجميع فالليلة يحتفل الدوق بخطبته إلى بربتوا الجميلة .

ويرفض ريدبلك أن يشاركه الشراب أو يشاطره البهجة ويعترف أمامه بكل ما ارتكب من اختلاس وتزوير . ولكن الدوق يهون عليه الأمر قائلا إنه قد كتب بيده وثيقة تجعل كل ما استولى عليه من مال ملكاً له قانونا باتفاقه ورضاه ، فلا داعى إذن لأن يسلم الأب ريدبلك نفسه للجاويش بولين كما يقول إنه أزمع أن يفعل . فليشرب الجميع الراح أنهاراً فلقد رأى الدوق العجوز اليوم براعم الحب تتفتح فى قلب بربتوا وسط ألسنة اللهب عند ما وقف لحظة بين الموت والحياة . لقد قبلته واسترخت بين ذراعيه وقالت إنها تدرك فى تلك اللاحظة أن قلبها قادر على حبه .

وهنا تقاطعه بربتوا قائلة : إن الخوف جعلها ترتكب حماقة كبرى . فقد اختلط عليها الأمر عند مرأى الموت فذهبت تهذى بما لا تعى . إنها لا تحبه ولا تستطيع أن تحبه وهى الآن تطلب من الدوق عفوه على ضعفها هذا الذى أطاش عقلها وبلبل وجدانها فى تلك اللحظة الرهيبة .

ويقع هذا الكلام من نفس الدوق وقع الصاعقة . ولكنه يتمالك أعصابه ويتكلف الهدوء التام ، فكأنما نفسه المضطربة فى الأعماق غدير صافى الوجه عكرته حصاة تافهة . ويقول بعد صمت شديد .

— فلنشرب إذن نخب الخوف .

وإنه ليغفر لهم جميعاً : يغفر لروزابيلا أنها أحرقت داره ولريدبلك أنه اختلس ماله ولبربتوا أنها سرقت قلبه .

وهل يتوج هذا اليوم المضحك المبكى بالغفران وحده ؟ كلا . لأن ادجار حين يقف وجهاً لوجه أمام بربتوا وقفة العاشق المسحور يعرف أن يد الحب الساحرة قد مست قلبها كذلك .

أما الدوق فهو يدرك أن حب روزابيلا له قد جاوز احتماله . فدمرت حيث لم تستطيع أن تبنى . وقد استيقظ قلبه لكل هذه المعانى بعد ما رأى من أهوال شداد وهى الآن عنده كنفحة الصيف التى تهب فى أوج الخريف فتمشى فيه بأنفاس القوة والفتوة . وإنه لينتظر عودتها ليبنى بها وتبنى به : فقلبه الآن يحدثه بأن روزابيلا هى « الزوجة الواحدة » التى سيقضى معها خريف العمر وشتاء الحياة .

فهرس

صفحة

أسخيلوس

مأساة أوريست ٥

سوفوكليس

أوديب ملكا ١٧

أوربيدس

هيبوليت أوغضب أفروديت ٣١

أرسطوفانيس

ليزيستراتا ٤٢

بيير كورناى

السيد ٥٧

جان راسين

أندروماك ٧١

فيدر ٨٢

بريتا نيكوس ٩٨

شكسبير

الملك لير ١١٣

عطيل ١٢٧

أنطونيوس وكليوباترا ١٤٠

ماكبث ١٥٧

روميو وجوليت ١٦٩

هاملت ١٨٢

تاجر البندقية ١٩٥

صفحة

جوته

فاوست ٢١١

هنريك إبسن

بيت اللعبة ٢٢٤
الأشباح ٢٣٩
علو الشعب ٢٥٣

أدمون روستان

سيرانودى برجراك ٢٦٦

أوسكار وايلد

زوج مثالى ٢٧٨

جورج برنارد شو

قيصر وكليوباترا ٢٩٣
الإنسان والسوبرمان ٣٠٦
جزيرة جون بول الأخرى ٣٢٠
الماجور بربارا ٣٣٥
بيجماليون ٣٤٨
عربة التفاح ٣٦٣

لويجى بيراندلو

ست شخصيات تبحث عن مؤلف ٣٧٨

مكسيم جوركى

الحضيض ٣٩٠

يوجين أونيل

الإمبراطور جونز ٤٠١
فى ظلال الدردار ٤١٦
وبعد طول رحيل . . الليل يرخى سدوله ٤٣٠

صفحة

جارثيا لوركا

العاقر ٤٤١

تنيسي وليامز

عربة اسمها اللذة ٤٥٥

قالت العنقاء . . أنا أصعد فى اللهب ٤٧١

آرثر ميلر

موت قومسيونجى ٤٨٧

كريستوفر فراى

رصد فينوس ٥٠٢

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤

هذا الكتاب

هناك نظرات متعددة للحياة : هناك النظرات الدينية والفلسفية والفنية والعلمية ، ولكل نظرة من هذه نقطة ابتداء معينة ولكل منها منطق معين . أما النظرة الفنية الدرامية فهى ترى أن الحياة أحد شيئين : إما مأساة وإما مهزلة . ومن النظرة المأسوية خرجت التراجيديا ومن النظرة الساخرة خرجت الكوميديا .

وهذا الكتاب ، الذى لخص فيه الدكتور لويس عوض بعض روائع المسرح العالمى من اليونان القديمة إلى اليوم ، يوضح هاتين النظرتين إلى الحياة أصدق توضيح . فى هذا الكتاب نماذج من اسخيلوس أبو التراجيديا ، ومن سوفوكليس ، ومن أوربيديس ، ومن أرسطوفانيس ، وفيه نماذج من شكسبير ، وراسين ، وكورناى ، وجوته ، وألكسندر دوماس الابن ، وفيه نماذج من إبسن ، ووايلد ، وبرنارد شو ، وجوركى ، وفيه نماذج من روستان ، وبيراندلو ، ولوركا ، وأونيل ، وتنيس وليامز .. إلخ .. وهكذا تتعاقب فيه مدارس الأدب من الكلاسيكية إلى الرومانسية إلى الواقعية إلى الرمزية إلى الوجودية شاهداً على تجدد الحياة فى متعاقب الأجيال ؟

مكتبة السينما والمسرح

● صدر منهـــا :

* السينما والمسرح وأمراض النفس — للدكتور أنيس فهمى إقلاديوس
* السينما والمسرح والشيخوخة — للدكتور أنيس فهمى إقلاديوس
* المسرح العالمى — للدكتور لويس عوض

١١٠ قروش ج. ع. م.	١١٠٠ فلس فى العراق والأردن	١٥٤٠ فرنكاً فى المغرب
٨٨٠ ق . ل	١١٠٠ فلس فى الكويت	١٣,٢ ريالا سعودياً
١١٠٠ ق . س	١٣٢٠ مليماً فى تونس	٢٢ شلناً } فى البلاد
١١٠٠ مليم فى ليبيا والسودان	١٥٤٠ فرنكاً فى الجزائر	٣,١٧ دولارات } الأخرى